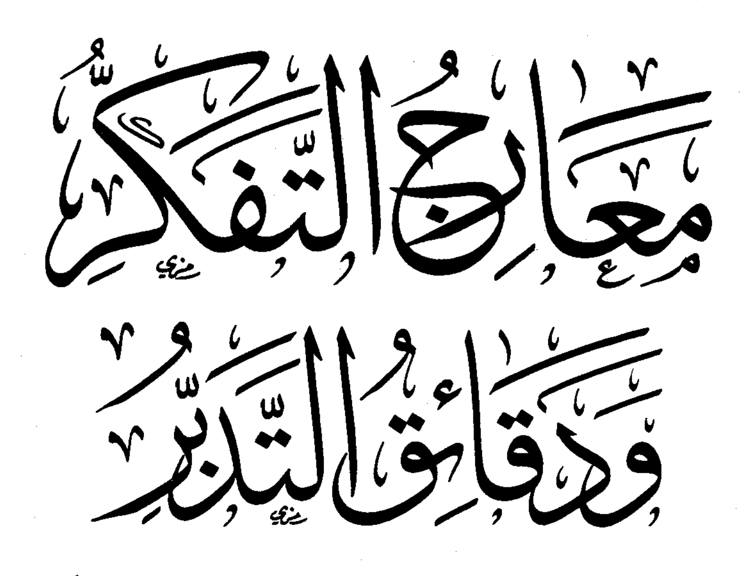


تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

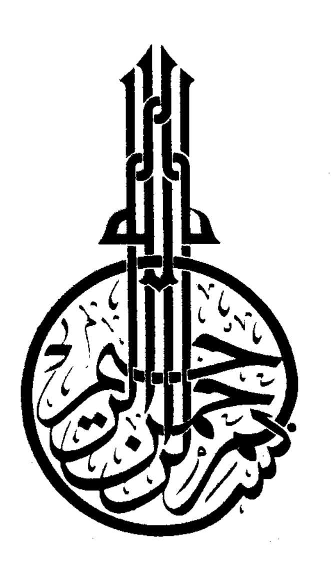
المجلد التاسع

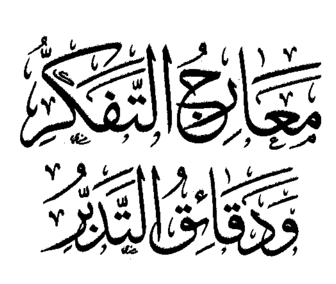
تفسير السور التالية:

النمل/ ٤٨ والقصص/ ٤٩ والإسراء/ ٥٠

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق




معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطّبْعَة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِن :
دَارُ القلم - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورة النّمل

٢٧ مصحف ٤٨ نُزُول

وَهِيَ مَكِيَّةٌ كُلُّهَا

(١)
نصُّ السّورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ

---

١ ـ • سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتةً لطيفة من غير تنفس.

وقرأها باقي القراء العشرة بالوصل.

• وقرأ ابن كثير: [القُرَانِ] دون همزة، وكذلكَ حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿القُرْآنِ﴾ بالهمزة وألف بَعْدها.

٧ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: [إِنِّيَ آنَسْتُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

• وقرأ هؤلاء ومعهم ابنُ عامر: [بِشِهَابِ قَبَسٍ] على الإضافة.

وقرأها باقي القراء العشرة بِتَنْوِينِ اللَّفْظَين.

إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ

---

١٠ ـ • وقف يعقوب بهاء السّكت على لفظ ﴿لَدَيَّ﴾ فتكون «لَدَيَّهْ».

١٨ ـ • وقف الكِسَائي، ويعقوب: بإثبات الياء في: [عَلَىٰ وَادِي]، ولم يثبتها باقي القرّاء العشرة، فقالوا: ﴿عَلَىٰ وَادِ﴾.

• وقرأ رُويس: [لاَ يَحْطِمَنْكُمْ] بنُون التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنون التوكيد الثقيلة.

وهما وجهان عربيان متكافئان. ولعلّ الغرض من الخفيفة تسْهِيلُ النطق على بعض العرب.

١٩ ـ • قرأ ورش، والبزّي: ﴿أَوْزِعْنِيَ أَنْ﴾ بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان. ووقف يعقوب بها السكت في [عَلَيَّ] فتكون «عَلَيَّهْ».

وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ

---

٢٠ ـ • قرأ ابن كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي: ﴿مَالِيَ لآ﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢١ ـ • قرأ ابن كثير: [أَوْلَيَأْتِيَنَّنِي] بإثبات نون الوقاية بعد نون التوكيد الثقيلة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَوْلَيَأْتِيَنِّي﴾ بحذف إحدى النونات الثلاث، وهما وجهان عربيان جائزان.

٢٢ ـ • قرأ عاصم، ورَوْح: ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَمَكُثَ] بضم الكاف.
وهما وَجهان عربيان في نُطْق الكلمة.
• وقرأ أبو عمرو، والبَزّي: [مِنْ سَبَأَ] بالهمزة مع الفتح دون تنوين للمنع من الصرف.
وقرأها قُنبل بإسكان الهمزة [مِنْ سَبَأْ].
وقرأها هشام وحمزة في الوقف: [مِنْ سَبَا] بألف مَدّية، ولهما التسهيل بالرَّوْم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِنْ سَبَإٍ] بالهمزة والجرّ بالكسرة والتنوين. وهي وجوه عرَبية جائزة.

٢٥ ـ • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورُوَيْس: [أَلاَ يَسْجُدوا] دون تشديد اللام. =

ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً

= وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ بتشديد اللّام.

- ووقف هشام، وحمزة، على الباء السّاكنة في [الْخَبْ] بحذف الهمزة.
- وقرأ حَفْصٌ، والكِسَائي بتاء المضارعة في ﴿مَا تُخفُونَ ومَا تُعْلِنُون﴾.

وقرأها باقي القراء العشرة بياء المضارعة: [مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنُونَ].

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

٢٨ ـ • في هاء الضمير من: [فَأَلْقِهِ] وجوه من القراءات.

فقرأ بكسر الهاء دون صلة: قالون، ويعقوب، وهشام في أحدِ الوجهين له.

وقرأها بالإسكان: أبو عمرو، وعاصِم وحمزة، وأبو جعفر ﴿فَأَلْقِهْ﴾.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء مع الصّلة، وهو الوجْهُ الآخر لهشام.

٢٨ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضم الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء، وهما وَجهان عرَبيان في النطق.

٢٩ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أُلْقِيَ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٢ ـ • قرأ يعقوب: [تَشْهَدُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿تَشْهَدُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم.

أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي

---

٣٥ ـ • وقف يعقوب بهاء السكت على ﴿بِمَ﴾ فتكونُ «بِمَهْ».
وللبزّي وجهان. وباقي القراء العشرة لا يقفون بهاء السكت، وهي وجوه جائزة في اللّسان العربي.

٣٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [أَتُمِدُّونَنِي] وقرأها كذلك في الوصل فقط نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وقرأها حمزة، ويعقُوب [أَتُمِدُّونّي].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾، وهي وجوه عربيَّة جائزة.
• أثبت ياء المتكلّم في [آتانِيَ اللَّهُ] مفتوحة عند الوصل، نافع، وأبو عَمْرو، وحفص وأبو جعفر، ورويس.
أمّا عند الوقف، فلقالون، وأبي عمرو، وحَفْص وجهان: إثباتها ساكنة، وحَذْفها.
ولورش، وأبي جعفر: حَذْفُها. ولرُوَيس: إثباتها.
وقرأ رَوْح بحذفها وصلاً، وإثباتها وقفاً.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أَنَآ ءَاتيك] بإثبات ألف «أنا» في الوصل فقط.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف هذه الألف في الحالين.

لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ

---

٤٠ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٤ ـ • قرأ قُنْبُل: [سَأْقَيْهَا] بهمزة ساكِنَةٍ بعد السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿سَاقَيْهَا﴾ بألفِ مَدِّيَّة. وهما لغتان عربيّتان.

٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم وحمزة، ويعقوب: ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ بكسر النون في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم النون في الوصل، مراعاة لضمِّ الباء في «اعْبُدُوا».

فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

٤٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لَتُبَيِّتُنَّهُ ـ لَتَقُولُنَّ] بتاء المضارعة في الفعلين وضمير المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: بنون المضارعة في الفعلين: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ ـ لَنَقُولَنَّ﴾ وضمير المتكلمين.

وبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في بيان الواقع الذي جرى.

• وقرأ شعبة: [مَهْلَكَ].

وقرأ حفص: ﴿مَهْلِكَ﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مُهْلَكَ] وهي وجوه عربية جائزة.

٥١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وابن عامر، وأبو جعفر [إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ] بكسر همزة «إنَّ». وقرأها باقي القرّاء العشرة بالفتح.

وهما وجهان عربيان جائزان هنا باعتبارَيْن.

٥٢ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة [بِيُوتُهُمْ] بكسر الباء. وهما لغتان عربيتان.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

٥٧ ـ • قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] دون تشديد الدال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ بتشديد الدال.
وهما لغتان عربيتان متكافئتان، يقال لغة: قَدَرَ الأمْرَ وقَدَّرَهُ، أي: حدّد مقاديره ودبّره قبل إيجاده.

٥٨ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء، وهما لغتان عربيتان.

٥٩ ـ • للقرّاء العشرة في [آللَّهُ] وجهان: إبدالُ همزة الوصل ألفاً مع المدّ المشبع. وتَسْهيلُها.

٥٩ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بالتاء.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا

٦٢ ـ • قرأ أبو عمرو، وهشام، ورَوْح: [يَذَّكَّرُون].
وقرأها حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.
وقرأها الباقون: [تَذَّكَّرُونَ].

٦٣ ـ • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع.

٦٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشُراً].
وقرأ ابن عامر: [نُشْراً]. وقرأ عاصِمٌ: ﴿بُشْراً﴾. وقرأ الباقون: [نَشْراً].
وقد سبق توجيه هذه القراءات في نظيراتها في الآية (٤٨) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

٦٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [بَلْ أَدْرَكَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾.

٦٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا تُرَاباً] ـ [أَئِنَّا] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا».
وقرأها ابْنُ عامر، الكسائي: [أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً] ـ [إِنَّنَا].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ ـ ﴿أَئِنَّا﴾.
والمعنى على الاستفهام في كلّ هذه القراءات.

هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ
﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ

٧٠ - • قرأ ابن كثير: [ضِيقٍ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ضَيْقٍ﴾.
الضِّيقُ، كالضَّيْق: بمعنى الكرب أو الألم النفسي الضاغط على النفس، وبمعنى الفقر والشدّة.

٧٦ - • قرأ ابنُ كثير [**الْقُرَانَ**]. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**الْقُرْآنَ**﴾.

٨٠ - • قرأ ابن كثير: [**وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ**].
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿**وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾.
ومؤدّى القراءتين واحد، وبينهما تفنُّنٌ في التعبير عن المراد.

﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٨١ ـ • قرأ حمزة: [تَهْدِي الْعُمْيَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾.
ومؤدىٰ القراءتين واحد، وبينهما تَفَنُّنٌ في التعبير عن المراد.

٨٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [إِنَّ النَّاس] بكسر همزة «إنَّ» على معنى: قائلةً إِنَّ الناس.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح همزة «أنّ» على معنى: تعلّمهم مبينةً أَنَّ الناس.

٨٧ ـ • قرأ حفص، وحمزة، وخلف: [أَتَوْهُ] على أنه فعل ماض.
وقرأها باقي القراء العشرة: [آتُوهُ] على أنه جمع: «آتٍ».

٨٨ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [تَحْسَبُهَا] بفتح السين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَحْسِبُهَا] بكسر السين.
والقراءتان لغتان عربيتان.

=

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

= • قرأ ٱبن كثير، وهشام، وأبو عمرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.
وبيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

٨٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ] بفتح ميم يوم على البناء.
وقرأها ٱبن كثير، وأبو عمرو، وٱبن عامر، ويعقوب: [مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بجرّ ميم يوْم بالكسرة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين «فزع» وبنصب «يوم على الظرفية».
وهذه القراءات وجوه عربيّة جائزة، ومؤدّاها واحد.

٩٣ ـ • قرأ نافع، وٱبْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَعْمَلُون].
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء الْبَيَاني.

(٢)
موضوع سورة (النمل)

موضوع هذه السورة يسير على ثلاثة خطوط كُبْرىٰ، تتفرَّعُ عنها فروع مُشْتَقَّة من عناصرها:

الخطّ الأول: متابَعَةُ معالَجَةِ كُبَراء مُشْرِكي مكَّةَ وما حوْلَها، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، وفْقَ الطَّوْر الذي كانوا فيه إبَّان نُزُول سورة (النمل) كُفْراً وتصرُّفاتٍ جَدَلِيَّةً وكَيْدِيَّة.

مع إضافاتِ بياناتٍ دينيَّة تَرْهيبيَّة، وإقناعاتٍ جدَليَّةٍ بشأن توحِيدِ الرُّبُوبيَّة والإلَهيَّة للَّهِ عزّ وجلّ، وإقْنَاعَاتٍ تَتَعَلَّقُ بالإيمانِ بالآخرة، أعْظَمِ أركان الإيمان بَعْد الإيمان بالله وبصفاته.

ومن عناصر المتابعة تأكيدُ أنَّ القرآن تَنْزِيلٌ من حكيم عليم، أي: فما في القرآن من حكمة وعِلْمٍ حقٍّ شاهِدٌ علَىٰ أنَّهُ تنزيلٌ من عنْدِ الله جلّ جلالُهُ وسمَتْ حِكْمَتُه، وأحاطَ عِلْمُهُ بكلّ شيءٍ.

الخطّ الثاني: متابعةُ تَرْبيةِ الرسول محمّد ﷺ بِحسَبِ الحال الَّتِي كان علَيْها إِبَّانَ نُزُولِ السورة.

ومنها أنْ يَصْرِف عَنْ نَفْسِهِ بقايا حُزْنِه من أجْلِ الّذين يَحْرِصُ على إيمانهم من قومِهِ، ولا سِيمَا عشيرَتُهُ الأقْرَبون لإنقاذهم من عذاب الله، وهم الذين قال الله له بشأنهم في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) النازلة قبل نزول سورة (النمل):

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

واقترنَتْ بهٰذِهِ المتابعات التربويّة تكليفاتٌ لَهُ تَتَعَلَّقُ بمَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيّة.

الخطّ الثالث: تَثْبيت المؤمنين على إيمانهم والانتفاع بالْقُرآنِ الذي

هو هُدىً وبُشْرَىٰ وَرَحمةٌ لَهُم، وعلى الالتزام بإقامة الصَّلاةِ وإيتاء الزكاة، ضِمْنَ حُدُود التكاليف المرحليَّة، الّتي أبانها الرَّسُولُ لهم، حتَّىٰ نُزُول السُّورَة.

واقتضت الحكمة التربويّة للرسول، والحكمة العلاجيَّة للكافرين، عَرْضَ لقطاتٍ من قِصَّةِ موسىٰ عليه السلام وفرعون وقومه، ولقطاتٍ من قصَّةِ سليمان عَلَيْهِ السَّلام و«بِلْقِيسَ» ملكة «سبأ» في عَهْدِه، ولقَطاتٍ من قِصَّةِ صالح عليه السلام وقَومه ثمود، ولقَطاتٍ منْ قصَّةِ لوط عليه السلام وقومِهِ، رُوعِيَ فيها حالُ الرسُول ﷺ، إبَّان نُزُولِ السُّورة، وحالُ الكافِرينَ به من قَوْمِهِ، وبين هذه اللَّقَطاتِ وَبَيْنَ مَا جاء في سَائِرِ القرآن بشأنِ هؤُلَاءِ الرُّسُل وأقوامهم تكاملٌ يُدْرِكُهُ المتَدبّر لدَىٰ جمعها، وتدبُّرها تَدبُّراً تكامُلِيًّا.

واقتضَتْ معالجةُ كبراءِ مشركي مكة، تَعْلِيمَ الرَّسول ﷺ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً حَوْلَ قَضِيَّتَيْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّة، وتوحِيدِ الإلَهِيَّةِ للَّهِ عزّ وجلّ. وتعلِيمَهُ مَا يَرُدُّ به على أسْئِلَتِهِم، الّتي يطلبون فيها تَحْدِيدَ الْوَقْت الّذِي يكُونُ فيه تَحْقِيقُ مَا أنْذَرَهم به مِن نُزُولِ عذاب رَبّهم بهم.

واقتضت تَرْبِيَةُ الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، إعلامَهُ بأنّه لَا فائِدَة مِنْ مجاهَدَتِهِ لإسْمَاع الموتَىٰ، أَوْ إسماع الصُّمِّ إذا وَلّوْا مُدْبِرين، أَوْ هِدَايَةِ العُمْي عَنْ ضَلَالَتِهم، لأنّهُمْ لَا يَسْمَعُون ولا يَهْتَدون، وتَضِيعُ جُهُودُهُ فيهم سُدىً، والمراد: لا فائدةَ من مجاهَدَتِكَ لِتَحْويلِ الكَفَرَةِ الّذِين تَحْزَنُ من أَجْلِهم، عَنْ كُفْرِهم إلى الإيمان، بعد أن وصَلُوا إلى حالَةٍ ميؤُوسٍ معها من إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرَّة.

واقتضت معالجة المشركين عَرْضَ بيانَاتٍ تَتَعَلَّقُ بأحْدَاثٍ مستقبليَّة، تَحْدُثُ قَبْلَ يَوْمِ القيامَة، وأحْدَاثٍ أُخْرَىٰ تَحْدُثُ عند القيامة وبَعْدَها، ممتَزِجَةٍ بالتَّنْبيه عَلىٰ ظواهِرَ كونيَّةٍ دالَّةٍ علَىٰ رُبوبيَّةِ اللَّهِ الواحد الأحَدِ،

الّذي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صنعاً، ويلزم عقلاً عَنْ أَحَدِيّتِه في الرُّبوبيّة أحَدِيَّتُهُ في الإلَهِيَّة.

ومن المستقبليات الآتيات ما يلي:

١ ـ إخراج الدَّابَةِ الَّتي تكلّم الناس، وهذا من أشراطِ السَّاعَة، كَطُلُوعِ الشَّمْسِ من مَشْرِقِها.

٢ ـ النفخ في الصّور نَفْخاً مُفْزِعاً لمنْ في السماوات والأرض.

٣ ـ أنَّ مَنْ جاءَ يَوْمَ الدِّينِ بالحسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ منها. وأنَّ من جاء بالسَّيِّئَةِ الكُبْرَىٰ من دَرِكَةِ الكفر فلَهُ عذابٌ أليمٌ في النار.

وأُنْهِيَتِ السُّورَةُ بتَوْصِيَةٍ مُوَجَّهَةٍ من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، وهذه الوصية تتضمَّنُ ما يَقُولُهُ لمن لَمْ تُؤَثِّرُ فيهم المعالَجَاتُ السَّابِقَاتُ، عَنْ نَفْسِهِ، وعَنْ وَظِيفَتِه الدَّعَوِية، وعن أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَيُرِيهِم آياتِهِ فَيَعْرِفُونَها، وخُتِمَتْ هذه الوصية بإنْذَارٍ رَبَّانِيٍّ للمَعالَجِينَ المعانِدِين، عن طَرِيق الكِنَايَةِ، بِذكر أَنَّ اللَّهَ الرَّبّ لَيْسَ بغافلٍ عمَّا يَعْمَلُون، أي: ولكِنْ يُمْهِلُهُمْ حتّىٰ آخرِ قَطْرَةٍ مِنْ قَطَرَاتِ معالَجَاتِهِم، وحينَمَا تَقْتَضِي حكْمَةُ اللهِ تَعْذِيبَهُم وإهلاكَهُمْ، يُنْزِلُ بِهِمْ ما يَسْتَحِقُّونَ بِالْعَدْل.

❁ ❁ ❁

(٣)
دروس سورة (النمل)

ظهر لي بَعْدَ تأمُّلٍ وعِدَّةِ مُرَاجعات أنّ هذه السُّورة يَحْسُنُ تَفْصِيلُهَا إلى سَبْعة دُرُوس.

الدَّرس الأوّل: (الآيات من ١ ـ ٦).

ويتضمَّنُ هذا الدرس بَيَاناً عَنِ القرآن، وأنَّهُ هُدىً وبُشْرَىٰ للمؤمِنينَ،

الّذِين مِنْ صفاتهم أنَّهُمْ يُقيمُونَ الصلاةَ بمواظبة، ويُؤْتُون زكَواتِ أموالهم بمُتَابَعَةٍ لما هو مطلوبٌ منهم، ويُجَدّدُونَ يَقِينَهُمْ بالآخِرَةِ مع كلّ صَلاةٍ أو ذكْرٍ للَّهِ عزّ وجلّ، أو عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ رَغْبَةً في ثَوابِ الله، وكذلك مع كُلّ أمْرٍ أو عَمَلٍ يَتْرُكونَهُ خوفاً من عقاب الله.

أمّا الّذين لا يُؤْمِنُون بالآخرة، فَهُمْ يمارسُونَ أعْمَالَهُمُ المزينَةَ لهم علَىٰ عَمَهٍ في بصائرهم، ولهم سُوءُ العذاب، وهم في الآخرة هم الأخْسَرُونَ.

وختم اللَّهُ عزّ وجلّ هذا الدرس بخطابٍ موجَّهٍ لرسُوله بأنَّهُ يُلَقَّىٰ القرآنَ مِنْ لَدُنْ حكيم عليم، أي: فَهُو مشتملٌ على كمالِ الحكمة، في توجيهاته للسُّلُوك الأمثل، وهو مشتمل على الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ، لأنَّهُ مُنَزَّل من لَدُن عليم حكيم.

فاستبصروا أيُّها الممتَحَنُون.

الدرس الثاني: (الآيات من ٧ ـ ١٤).

وهو يتضمَّن لقطاتٍ من قصة موسىٰ عليه السلام وفرعون وقومه، لم تأتِ في جُمْلَتِها في سَائِر النصوص، وهذه اللَّقَطاتُ تُلَائِمُ الأغراض التربَويَّة، والأغراض العلاجيَّة، الّتي تتّصل بموضوع السورة.

الدرس الثالث: (الآيات من ١٥ ـ ٤٤).

وهو يتضمّن لقطاتٍ من قصّة سليمان عليه السلام، وبِلْقِيسَ مَلِكَةِ سبأ، وقصَّتِه مع وادي النمل والْهُدْهد.

وهذه اللّفظات لم تأتِ في سائرِ النصوص، وهي تلائم الأغراض التربويَّة، والأغراض العلاجيَّة، الَّتي تَتّصل بموضوع السورة.

الدرس الرابع: (الآيات من ٤٥ ـ ٥٣).

وهو يتضمّن لقطات من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، مكمِّلَاتٍ لما جاء في النصوص القرآنية الأخرى.

وهذه اللّقَطاتُ تلائم الأغراض التربويَّةَ، والأغراضَ العلاجيَّةَ الّتي تتّصِلُ بمَوْضُوعِ السورة.

الدرس الخامس: (الآيات من ٥٤ ـ ٥٨).

وهو يتضمن لقطات من قصة لوط عليه السّلام وقومه، مُكَمِّلَاتٍ لِمَا جاء في النصوص القرآنية الأخرى.

وهذه اللقطاتُ تلائم الأغراض التربوية والأغراض العلاجيّة، التي تتصل بموضوع السورة.

وقد سبق في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) دراسة تكاملية للنصوص القرآنية بشأن لوط عليه السلام وقومه.

وكان من الممكن أن أجعل الدروس من (٢ ـ ٥) درساً واحداً، وأقسمها إلى فصول كما فعلت في (الشعراء) وفي غيرها.

الدرس السادس: (الآيات من ٥٩ ـ ٧٥).

درس يعلّم الله عزّ وجلّ فيه رسولَه وكل داع إلى الله من أمَّتِه، مناظرَةً جدَلِيَّةً للمشركين حول شِركهم بربوبيَّة الله وإلَهِيَّتِهِ، وشكِّهِم في قدرة الخالق على إعَادة الخلْقِ وهو الّذي بدأه، وإقْنَاعهم بأنّ الآخِرَةَ حَقّ، وأنّ الجزاء حقّ.

ويوجّه الله عزّ وجلّ فيه رسوله لأنْ لا يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَلِأنْ لَا يضيقَ صَدْرهُ ممَّا يَمْكُرُون، وأَنْ يجيب على أسْئِلَتِهم العِنَادِيَّةِ بإنْذَارِ مُغَلَّفٍ برَصَانَةِ الواثقِ باقترابِ ما كان يُبَلِّغُهُمْ عن رَبِّه، من إبعاد بعذابٍ وإهلاك.

الدرس السّابع: (الآيات من ٧٦ ـ ٩٣ آخر السورة).

وفي هذا الدرس متابعة بشأن القرآن، ومتابعة تربَويَّة للرسول ﷺ في مجالَات مسيرته الدعوية، مقترنة ببيان كليَّات كبرىٰ من المفهومات الدّينيَّة، ومُمْتَزِجَةٌ بإقناع الكافرين بأساليب غير مباشرة لَهُمْ في الخطاب.

وفيه إعلام عامٌّ وإنْذَارٌ للمَعْنِيِّين بالمعالجة بأحْدَاثٍ قادِمَةٍ، هي من أشراط السَّاعة وعَلامَاتِها التي هي مقدمات لها، وبأحداثٍ تكون مع قيام السَّاعَة وبَعْدَها، مصحوبَةً بَعرْضٍ بَعْضِ آياتِ اللَّهِ في كونِه الدّالَّات على أنَّه قَدْ أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

وفيه تكليف من الله عزّ وجلّ لرسُوله مَا يَقُولُهُ لقومه، الّذِينَ وصَلُوا إلَىٰ حَالة مَيْؤُوس مَعَها مِنْ أنْ يُؤْمنُوا عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة.

❁ ❁ ❁

(٤)
التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دروس سورة (النَّمل)
الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

(١) • سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتَةً لطيفة من غير تَنَفُّس.

أما باقي القرّاء العشرة فقرؤوا «طَسٓ» بالوصْل.

• وقرأ ابن كثير: [الْقُرَانِ] دون همزة، وكذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْقُرْءَانِ].

والقراءتان وجهان من الأداء.

تمهيد:

سبق في سورة (الشعراء) النازلة قبل سورة (النمل) عنايةٌ خاصَّةٌ بالحديث عن القرآن لبيان التبايُنِ بينه وبَيْنَ أقوال الكهَّانِ الذين يتلقَّوْنَ عن شياطين الجنّ، وشعْرِ الشعراء الّذِين يَهِيمُونَ في كلِّ وَادٍ، وأقوالِ الإنْسِ أو الجنّ، التي لا تَرْقىٰ إلى مستوىٰ القرآن في مبانيه وفي معانيه، إذْ هو معجز لهم فيهما. وهذا التباين يؤكّد بصورة قطعيَّةٌ أنّه تنزيلٌ من رَبّ العالمين، وأنّه منْ غير الممكن أنْ يكون مفترىً على اللّهِ عزَّ وجلّ.

وبهذا التبايُنِ تَسْقُط مزاعم الذين كفروا، إذْ أشَاعُوا بَيْنَ جماهيرهم أنّه إيحاءٌ من شياطين الجنّ، أو هو نوع من الشعر تدفقت به شاعريّة محمد، أو هو كلام اختَلَقَهُ من عند نَفْسِه وتقوَّلَهُ على ربّ العالمين.

وقد جاء في هذا الدرس الأوّل من دروس سورة (النَّمل) مُتَابعة الحديث عن القرآن لبيان أَنَّهُ هُدىً وبشرى للمؤمنين، ثم جاء في الآية (٧٧) من السورة بيانُ أَنَّهُ هُدىً ورَحْمةً للمؤمنين.

ويُدْركُ المتدبّر أن كون القرآنِ هدُىً ورَحْمةً وبُشْرَىٰ للمؤمنين، يضيف أدلَّةً عقليَّةً على إبْعَاد كلّ صفات الكهانة، والشعر، والوضع البشريّ له.

وهذه متابعة علاجيَّةٌ واضحة للّذِينَ كفَرُوا، دون أن يملكوا ولو دليلاً ضعيفاً على ما زعموا.

مع تثبيت المؤمنين الّذين يقيمون الصلاة ويؤتُون الزكاة، ضِمْن الحدود الّتي كانت مطلوبة إبّان نزول سورة (النمل) ويُجَدِّدُون يقينَهُمْ بالآخرة كلمَّا غَفَلُوا، ولم تكن قد نزلت حينئذٍ فريضتا الصَّوْمِ والحج، ولا كثير من أحكام الحلال والحرام والواجبات.

ويتضمّن هذا التثبيتُ الحثَّ على مُتابَعةِ تدبُّر ما ينزل من القرآن، والإيمان بحقائقه، والْعَمَل بما يَهْدِيهم إليه.

ويتضمَّن أيضاً طمأنَةَ قُلوبهم، واستثارةَ نفوسهم حتَّىٰ تَشْرَئِبَّ إلى ما يُبَشِّرهُمْ به من نجاةٍ وفوز عظيمَيْن، عند ربّ العالمين، في الآخرة يوْمَ الدين.

وجاء في هذا الدَّرْسِ تلويحُ بعصا الإنْذارِ للّذين لا يُؤْمِنُون بالآخرَة، وإعلامٌ لَهُمْ بأسلوب غير مباشر بأنّ محمّداً يَتَلَقَّىٰ القرآن من لَدُنْ حكيم عليم، إذ جاء الخطاب القرآني مُوجّهاً للرسول ﷺ، ومعرضاً عن مخاطبَة الكافرِين المكذبين.

فمن كان من أولي الألباب اسْتَفادَ من هذا البيان، ولو لَمْ يكن الخطاب موجهاً له، ولا للفئة الّتي هو منها.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجل:

• ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿طسٓ﴾ حرفان من الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض سُوَر القرآن الكريم، وقد ذكَرْتُ ما يكْفِي بِشأْنِها لدى تدبّر أول سورة (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: جاءت الإشارة إلى آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿تِلْكَ﴾ للدّلالة على علوّ منزلة القرآن علوًّا لا يُدانِيه كلامٌ ما صادر عن غير الله عزّ وجلّ فلا تَسْتطيع الخلائق أن تأتي بمثله، ولو كان بعْضُهم لبَعْضٍ ظهيراً.

﴿ءَايَٰتُ﴾ جمع «آية» وهي في اللّغة العلامة، والأمارة الدالّة على شيءٍ ما.

وأطلقت في القرآن على الآيات الكونية، والآيات الإعجازية، والآيات الجزائية، والآيات البيانيّة.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو الكتاب المبين، ولكن قُصِد الإلماح إلى المعنى الوصفيّ من كونه بياناً رَبَّانيًا مطلوباً من المؤمنين أن يقرؤوه من صحف يكتُبُونَها تلقِّياً من الرَّسُول ﷺ، وأن يُدَوِّنُوه في كتابٍ خاصٍّ به، فجاء لفظ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بالْعَطْفِ على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ للتَّغَايُرِ الوصفيّ.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

- ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

بعطْفِ: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للإلماح إلى المعنى الوصفي أيضاً، مَعَ عَكْسِ التّرتيب، للدّلالة على تكافؤ العبارتين في الدَّلالة على أنّ المطلوبَ من المؤمنين أنْ يُدَوّنوه في كتابٍ خاصٍّ به، وأنْ يقرؤوه منه، وأنْ يكون حفظهم الذهنيُّ له مستَنِداً إلى المدَوَّنِ في الكتاب المقروء منه، حتى يكون مَرْجعاً للمحفوظ في الذاكرة، ولهذا جاء العطف في النَّصّيْنِ بالواو، التي هي لمطلَقِ الجمع، فلا تقتضي بوضعها اللُّغوي ترتيباً ولَا تعْقِيباً.

وقد طبّق الرَّسولُ ﷺ بوحيٍ من رَبِّه هذا التوجيه، فكان يأمُرُ بكتابةِ مَا ينزل علَيْهِ من نُجُومِ القرآن، وكان له كُتَّابُ وحْيٍ يَكْتُبُونَ له ما يَنْزِلُ عليه منها.

وكانَ الكاتبون من أصحاب رسول الله ﷺ يكتُبُون في صُحُفٍ خاصَّةٍ ما كان يَنْزِلُ بحَسَب أحوال كلٍّ منهم، فيحْفَظُونَ ما في هذه الصحف، ويَرْجِعُونَ إلَيْهَا لتثْبيتِ محفوظاتهم والاطمئنان على صحتها.

ثُمَّ جُمِعَ القرآنُ كُلُّهُ في كتابٍ واحدٍ في عهد خلافة أبي بكر الصدّيق رضِيَ اللَّهُ عنه، ثُمَّ نُسِخَتْ مِنْهُ نُسَخٌ ووزِّعَت على أمْصَار العالم الإسلامي، في عهد خلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: هو في الأصل مصْدَرُ فعل «قَرَأَ». يقال لغة: «قَرَأَ

الكِتَابَ يَقْرَؤُهُ، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كلماتِه المكتوبة نظراً، ونَطَقَ بها.

ثم صار في الاصطلاح الديني عَلماً علىٰ البيان الرّبّانيّ المنزّل لفظاً ومعنىً على رسول الله محمّد بْنِ عبْدِ الله ﷺ.

ولفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بالتعريف ولفظ [كِتَاب مبين] صارا علماً بالغَلَبة على ما يُطْلَقُ عليه لفظ [القرآن]. وهما في الأصل وصفان، فلفظ «كِتَاب» هو بمعنىٰ «مكْتُوب» ولفظ «مُبِين» هو بمعنىٰ «واضح ظاهر» وبمعنى «مُوضح مُظْهِر» وهما باعتبار المعنى الوصفيّ متغايران، وإلْماحاً للمعنى الوصفي يُعْطَفُ أَحَدُهُمَا علىٰ الآخر.

﴿هُدًى﴾: **الْهُدَىٰ**: مصْدَرُ «هَدَاهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَة» أي: بَيَّنَ لَهُ، وأرْشَدَه.

ويطلق لفظ «الْهُدَىٰ» على الصِّراط، وهو الطريق الواضح، وهو طَرِيقُ الحقّ.

ويُطْلَقُ لفظ «الْهُدَىٰ» على إخراج شيء إلى شيءٍ آخر، ومن عموم هذا الإخراج نفهم الإخراجَ مِن الظلمات إلى النور، ومن الكُفْر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، ومن الشّرّ إلى الخير، ونحو ذلك.

﴿وَبُشْرَىٰ﴾: **البُشرىٰ**: اسْمٌ يُطْلَقُ على الشيء السّارّ المفرح، الذي يأتي به الخبر أو العِلْم.

فالنجاة من الْعَذَابِ ومِنْ دُخول النّار يُطْلَقُ عليها «بُشْرَىٰ» والفوز بالجنَّةِ والسَّعادَة الأَبَدِيَّة فيها، يُطْلَقُ عليه لفظ «بُشْرَىٰ».

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: للمتحقِّقين بالإيمان الصحيح الصادق بعناصر القاعدة الإيمانيّة في الإسلام.

ويفهم من كون القرآن هُدىً وبُشْرَىٰ ورحمة للمؤمنين، أنَّ الإيمان هو

الجذْرُ المتَغَلْغِلُ في عُمْقِ النَّفْسِ والقلْبِ الّذي تتفرَّعُ عنه فروع السُّلُوك في حياة الإنسان، ذي المظْهَر الْجَسَدِي، وغَيْرِ ذي المظهر الْجَسَدِيّ كالنيَّات.

فَمَنْ آمَنَ بعناصر القاعِدَةِ الإيمانيّة كَانَ القرآنُ لَهُ هُدىً يَهْدِيه إلى صراط اللّهِ المستقيم في الحياة، وكانَ الْتِزَامُهُ بسُلُوكِهِ رَحْمَةً لَهُ إذ يَجْلُبُ له الخيراتِ والسَّعَاداتِ الحقيقيَّة، وكانت آياته المتضمِّنات بشاراتٍ مُعَجَّلاتٍ في الدُّنيا، ومؤجلات إلى يوم الدين، دَالَّاتٍ على الْبُشْرَىٰ الّتي ينالُها بفضْلِ اللَّهِ ومَنِّهِ وكَرَمِهِ، مِنْ كلّ ما يَسُرُّهُ ويُفْرِحُه.

المؤمِنُ: هو المصَدِّقُ تَصْدِيقاً إراديًّا بعَنَاصِرِ القاعِدَة الإيمانيَّةِ، الّتي جاء بها الدِّين الّذي اصطفاه الله لعباده، مع طُمَأْنينةٍ وأَمْنٍ تامٍّ بأنّ الواقع لا يكُونُ على خلاف ما آمَنَ به، واطمأنَّ قَلْبُهُ إليه.

ومعنى الإيمان في الإسلام قمةٌ لا يَصِلُ إلى سَفْحِ جَبلِها اعتقادٌ مَا، لأنّه قائم على التصديق الآمِنِ المطمئِنِّ بالحقِّ، والعقائد الأُخرى أوهام أو مقرونة بريبَة.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾:

سورة (النمل) نزلت قَبل سورة (الإسراء) بسورة هي سورة (القصص) وإذا كانت سورَةُ (الإسراء) قد نزلَتْ عَقِبَ حادِثَتَي الإسراء والمعراج، ومن المعْلُوم أنَّ الصَّلَواتِ الخمْس قَدْ فُرِضَتْ في ليلة المعراج، فإنّ إقامَةَ الصَّلاةِ الّتي جاء بيانُها في هذِه الآية من سورة (النمل) يُقْصَدُ بها صَلَواتٌ كان الرَّسُول ﷺ يقوم بها، وكذلك الذينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فيها قيام وركوع وسُجُود على الموروث من دِينِ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، ولكن لا نَمْلِكَ يقيناً في تحديد أوقاتها، وعَدَدِ رَكعاتِ كلٍّ منها. وكذلك فرضيَّةُ الزكاةِ ذاتِ المقادير المحدّدة.

لكن من صفات المؤمنين أنّهم كانوا يقيمون الصلاة ويؤتُونَ الزكاة، على وفْقِ التعليم الذي كانوا يتلَقَّوْنَهُ من الرسول ﷺ، والصلاة هذه غيرُ صَلَاةِ قيام اللّيلِ الّذِي جاءَ بَيانُه في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هو وصفٌ للمؤمنين الذين يكون القرآنُ هُدىً وبُشْرَىٰ لهم.

فالمعنى: إنّ القرآن الكتابَ المبين هو هُدىً وبُشْرَىٰ للمؤمنين الّذين يكونُ من ثمرات إيمانهم الصادق في قلوبهم، أنَّهُمْ يُطَبّقُونَ التكاليف الإسْلَامية، ومن كُبْريَاتِها إقامَةُ الصلاةِ لربِّهم، بأجْسَادِهِمْ ونفوسهم، وإيتاءُ زَكواتِ أموالهم.

إقامَة الصلاة: أي: جعلُها مُسْتَقِيمَة، ويُراد بإقامة الصَّلاةِ المداومَةُ والمواظبةُ على أدائها يَوْميًّا حسب التعليم الّذي كان إبَّانَ نزول سورة (النمل) وأداؤها على الوجه الشرعيّ المطلوب فيها.

استفيدت المواظبة من دلالة الفعل المضارع في ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الدّال على التجدّد. وكذلك الزكاة من: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

يُقَال لغة: «أقَامَ الرجلُ الْعَمَل» أي: أدامَهُ وواظَبَ عليه، وأدّاهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ.

إيتاءُ الزكاة: أي إعطاؤها وَتأديتُها على الوجْهِ المطلوب شرعاً.

الزّكاة في اللُّغة: الطّهارةُ والنَّماء. وهي شرعاً: مَا يجب بذْلُهُ من المال للفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

وسُمِّي هذا الواجبُ زكاةً لأنَّهُ مُطَهِّرٌ للمالِ، ولأنَّهُ سببٌ في تَنْمِيَتِهِ بفَضْلِ اللَّهِ وتيسيراتِهِ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

• ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

إن الإيمان بالحياة الآخرة الّتي تكونُ بَعْدَ البعْثِ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، هو من عناصر القاعدة الإيمانية.

وجاء التصريحُ هُنَا بهذا العنْصُر، مع دخوله تحت معنىٰ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الشامل لكلِّ عَنَاصِرِ القاعدة الإيمانيّة لحكمَتَيْن:

• **الحكمة الأولى**: التأكيد على أنَّ الإيمان بالآخِرَة، حَيَاةً وداراً، وما يكونُ فيها من جزاء بالنعيم العظيم الخالد في جنّاتِ النّعيم، أو بالعذاب في الجحيم، من أقوى العناصر الدافعة إلى الالتزام بالسُّلوك الإسلامي، والاستقامة على صراط الله الّذي رَسَمَه لعباده وحَدَّدَ حُدُودَه، ونَصَبَ معالمه.

لأنّ السُّلُوك الإنسانيّ في حياة الغالبيَّة العظمىٰ من الناس، يدفَعُهُ دافِعَانِ قويان خَطِيران:

الدافع الأول: الخوف من المؤلمات الموجعات.

الدافع الثاني: الطمع في المسْعِدَاتِ السارّاتِ المفرحات.

والحق الذي لا يَقْتَرِنُ به خوف أو طمع، تكُونُ دوافع النفس إلى الالتزام بمَطْلُوباتِه دوافعَ ضعيفَة عند معظم الناس، ولا عبْرَةَ بالقلَّة النادرة جدًّا الّتي تُؤَدّي مطلوبَ الحقّ لمجرّد أنّه حقٌّ.

• **الحكمة الثانية**: التوطئة للحديث عن الذين لا يؤمِنُونَ بالآخرة، الذين جاء الحديث عنهم في الآية التالية (٤).

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعْلَمُونَ علْماً لا يخالطه ولا يعتريه شك.

اليقينُ: هو في اللُّغةِ العلم الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعْتُمَد على أدِلَّةٍ فِكْرِيَّة، أو خبرية صادقة، لا يَعْتَرِيها شكٌّ.

وجاء التأكيد بضمير الفصل: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للدّلَالَةِ على اليقين الإرَادِيّ، لا اليقين الجبْرِيّ الذي قَدْ تَجْحَدُهُ الإرادة، وللدّلَالَةِ على أنّ مَنْ يَضْعُفُ يقينُهُ بالآخِرَة، تضعُفُ دوافِعُهُ للسُّلُوكِ الأمثل، بمقدار ضعف يقينه، أي: هم يوقنُونَ يقيناً دافعاً للسُّلُوك طمعاً بثواب اللّهِ وخوفاً من عقابه.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾:

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: جَمَّلْنَا وَحَسَّنَّا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتحَيَّرُونَ ويَتَرَدَّدُونَ، وهُمْ مُنْطمسُو البصائر. **الْعَمَهُ**: هو في البصيرَةِ كالْعَمَىٰ في الأبْصَار.

أي: إنّ الّذين لا يُؤْمِنُونَ بالحياةِ الآخرة بَعْدَ البعث، ولا بما فيها من جزاء بالثواب وبالعقاب، تتعَلَّقُ مطالِبُ أهوائِهِمْ وشهواتِهِمْ وسَائِرِ رَغباتِ نفوسهم بالحياة الدُّنيا، تَعَلُّقَ المحِبِّ الذي يؤثِرُ محبُوبَه ويُفَضِّلُهُ عَلَىٰ ما سواه.

وقد جعل الله عزّ وجلّ في الحياة الدُّنيا أنواعاً من المتاعِ مُزَيَّنَةً للنَّاسِ، لأنَّها تحقِّقُ لهم لذَّاتٍ وشهواتٍ وَرَغباتٍ ومَحابَّ يُحِبُّونها ويتعَلَّقُونَ بها.

ومنها الشهوات من النّساء، ومنها الْبَنُونَ، والقناطِيرُ المقنْطَرَةُ من الذهَبِ والفضة، والخيل المسَوَّمَة، والأنعام والحرث، ومِنْها التفاخُرُ والتكاثُر والعظمة والسلطان، وامتلاكُ الأشياء المفيدة.

فهم يَبْذُلون طاقاتهم وقُدْراتهم الجَسدِيّة والفكريّة والنفسيَّة، بغية الوصول إليها والحصول عليها.

ومن أحبَّ شيئاً أحبّ العمل الموصل إليه، ولو كان شاقًّا ومُضنياً، ويكُونُ هذا العملُ في نفسه مُزَيَّناً وجميلاً. وهذا من الْفِطَرِ التي فَطَر الله النفوسَ وَجبَلَها عليها، وجَعَلَها من طباعها.

وإشارَةً إلى هذه الحقيقة قال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ إنَّ هذا التزيينَ لَيْسَ إغواءً ولا إغْراءً، وإنَّما هو نتيجَةٌ قَدَرِيَّةٌ تَجْلُبُها إرَادَةُ الإنْسَانِ الاختياريّة، فمَن أدْخَلَ يَدَهُ في النار، أحْرَقَها اللَّهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَنِهِ التكوينيَّة الْقَدَرِيّة العامّة، وكذَلِكَ من اتبع أهواءه وشهواتِهِ زيّنَها الله له ضمن سننه التكوينية القدرية العامة.

التزيين: التجميلُ والتحْسِينُ بالزّينَاتِ المحبّبَاتِ الّتي تَجْذِبُ إلى المزَيَّنِ النُّفُوسَ، وقد يَصِلُ جَذْبُها إلى عُمْقِ الْقُلوب، وهو أحَدُ موادّ الامْتِحانِ في ظروف الحياة الدنيا.

فإذا كان المزَيَّنُ ممّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ صَرَفَتْ عنه البصيرة الإيمانيّةُ الهادِيَةُ إِلَىٰ الرُّشْدِ.

أمّا مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَصِيرَةٌ إيمانيّة، فإنَّهُ يتعلّقُ بزُخْرُفِ الحيَاةِ الدُّنيا الموَزَّعِ في أشْتَاتِها، فَيَكِدُّ ويَكْدَحُ للحصول عليها، عابراً كلّ مَسْلَكٍ صَعْبٍ، ونفقٍ، وغَوْرٍ سَحِيقٍ، وفاقداً رُشْدَهُ، يتخبَّط فِي ظُلُمَاتِها على عَمَهٍ.

يقال لغة: «عَمِهَ، يَعْمَهُ، عَمَهاً، وعَمَهَاناً، وعُمُوهاً» أي: تحَيَّرَ وترَدَّدَ على غَيْرِ هُدى، ويَسْتَمِرُّ في شقائِهِ وتعاسَتِهِ لَا يَنالُ السَّعادةَ الّتِي يَنْشُدُها بِسَبَب انْطِمَاسِ بَصِيرَته.

هذا هو حال الّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، مَهْمَا جمعوا من أموال، ومهما أصَابوا مِنْ لَذَّات، لأنَّهُمْ يكونُونَ في أعماقِ قُلُوبهم ونفوسهم غيرَ سُعداء.

أمَّا في الآخرة فَلَهُمْ سُوءُ العذاب، ويكونُونَ هُمُ الأخسَرِين.

• ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: أولـئِكَ الـبُـعَـدَاءُ إلَـى جـهَـةِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ، لهـم بالاسْتِحْقَاقِ الذي تَفرِضُهُ عليهم أحْكَامُ العدْلِ الرَّبَّانِيّة، سُوءُ الْعَذَاب.

سُوءُ الْعَذَاب: أي: شَدِيدُهُ، وشَاقُّهُ، ومُؤْلِمُهُ، وأَصْلُ الكلام العذابُ السُّوءُ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

لفظ «سُوء» اسْمٌ جامِعٌ لِمختَلِفِ الآفَاتِ، ولكُلِّ ما يَقْبُح، ولكُلِّ مَا يَغُمُّ الإنْسَانَ من مكاره.

• ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: أي: وهـم فـي الـحـيـاة الآخِـرَةِ بَـعْـدَ الْبَعْثِ هُمُ الأكْثَرُونَ خَسَارَةً مِنْ كُلِّ خَاسِرٍ، إذْ يكُونُونَ مِنَ الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النّار، فيَخْسَرُونَ ذواتهُمْ كُلَّها، ولَا يَبْقَىٰ شَيْءٌ مِنْهَا إلَّا مُعَذَّباً عَذَاباً أبَدِيًّا.

وجاءت صيغة «أَفْعل» الّتي للتَّفْضِيل، في عبارة ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ للدَّلَالَةِ على أنّ عُصَاة المؤمنين، ولو كانُوا من الخاسِرِينَ خَسَاراتٍ ما، لكنَّهُمْ لَا يكونُونَ الأخْسَرِينَ يوْمَ الدِّين، لأنّ لَهُمْ نَجَاةً من الْعَذَابِ بَعْدَ أَنْ يَنَالُوا مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْه، بخِلَافِ الْكَافِرِينَ فإنهم يكونون هُمُ الأَخْسَرِينَ مِنْ كُلِّ الخاسِرِين.

ودَلَّ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَادِ في عبارة: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ على قَصْرِ صِفَةِ الأَخْسَرِيَّةِ عليهم، وينْطَبِقُ علَىٰ جميع الكافِرِينَ أنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، لأنَّ من آمن بالآخرة إيماناً صَحِيحاً، لَا يَقَعُ في أمْرٍ ما يكونُ بهِ مِنَ الكافرينَ الخالِدِين في عَذَابِ الجحيم.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

• ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾:

﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: لـتَـتَـلَـقَّـىٰ الْقُرْآنَ إذْ يُلَقَّىٰ إليكَ بالْوَحْيِ من

رَبِّكَ. والمعْنَىٰ أَنَّهُ لَا كَسْبَ لَكَ فِيه إلّا التَّلَقِّي مِنَ الوحْيِ الذي يُلَقِّيهِ إِلَيْكَ بِعِنَايَةٍ تامَّة، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فكَلِمَةً، وآيَةً فآيَة.

وجاء الفعل المضَعَّفُ للدَّلَالَةِ على العنايَةِ البالغة في الإلْقَاءِ والتَّلَقِي.

يقال لغة: «تَلَقَّىٰ الْعِلْمَ عَنْ فُلَان» أي: أَخَذَهُ منْه. و«تَلَقَّىٰ الشيْءَ» أيْ: لَقِيَهُ.

﴿مِن لَّدُنْ﴾: **لَدُنْ**: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ ومَكَانيٌّ بِمَنْزِلَةِ «عِنْد» إِلَّا أَنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه. وكلمة «لَدُن» ملازمَةٌ للإضافةِ فهِيَ تَجُرُّ مَا بَعْدَها بالإضافة.

﴿حَكِيمٍ﴾: أي: عظيمِ الحكْمَةِ في كُلِّ ما يَشَاءُ ويختار. والحكيم في اللُّغَةِ هو الذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفْضَلَ الأشياءِ وأتْقَنها وأَحْسَنَها في الأمُور المختلفة لما يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

والحكيم: اسْمُ من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ.

﴿عَلِيمٍ﴾: أي: واسِعِ العلم الذي يُحيطُ بكلِّ شيءٍ عِلْماً، إذ هو هنا صفة من صفات الله عزّ وجل.

والعليم: اسْم من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ.

والمراد: أنَّ القرآنَ الّذي تَتَلَقَّاهُ يا مُحَمَّدُ مِنْ لَدُنْ رَبّك الحكيم العليم، كُلُّ ما فيه حقٌّ وهُدىً وخَيْر، وأحكامُهُ هي أفْضَلُ الأحْكَامِ وأَحْسَنُها، وصِيَاغَتُهُ هي أتْقَنُ الصِّيَاغاتِ وأحْكَمُها وأسْمَاها.

وهذه الصفات فيه شاهداتٌ على أنَّه تَنْزِيلٌ رَبَّاني، ولَيْسَ وَضْعاً من كائِنٍ ما غَيْرِ اللَّهِ عزّ وجل، ومُتَدَبِّرُ القرآن بأناة وعُمْقٍ يَجِدُ هذا جَلِيًّا واضحاً.

والغرضُ من خِطَابِ الرَّسُول محمّد ﷺ بهذا البيانِ مَعَ عِلْمِهِ به،

إعْلَامُ الْكَافِرِينَ المكَذِّبين، بإسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، لأنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ اسْتِماعِ القرآنِ بإقبالٍ ومُواجهة، فاقتضت الحكمة الإعراضَ عنْهُمْ بالخِطَاب، مع إسماعهم هذا البيان عن القرآنِ وهُمْ مُعْرِضون.



(٥)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (النّمل) وهو الآيات من (٧ ـ ١٤)
وفيه لقطات من قصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه

قال الله عزّ وجل:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

تمهيد:

لمّا كان المعنيُّون بالمعالجة من كبراء كفّار قريش إبَّان نزول سورة «النّمل» قد وصلَتْ حالُهم إلى قريب من حال فرعون وملئِه، إذْ كانوا مسْتَيقنين في أنفسهم بصحَّةِ وصِدْق الآيات التي جاء بها موسَىٰ عليه السلام، لكنَّهُمْ جَحَدوا بها ظُلْماً وعُلُوًّا في الأرض، كان اختيار هذه اللّقطات من قِصَّتِه، وتقديمُها في سورة «النَّمل» أمراً حكيماً يَدُلُّ اللَّهُ عزّ وجلَّ به كبراءَ

كفار قريش المعاندين الجاحدين، على أنّهم قد اقتربوا من الوقت الذي تقتضي حكمةُ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، أن يُنْزِلَ فيه عقابَهُ بهم، كما أنزله بفرعَونَ ومَلَئِهِ وجُنْدِه، حينما وصَلُوا إلَىٰ حالة الاستيقانِ النَّفْسِيِّ مع الجحود.

وهذه اللّقطات لقطاتٌ موجزاتٌ جدًّا من قصة موسى وقومه، إلّا أنّ العلاج التحذيريّ الحكيم اقتضىٰ إيرادها، لتحْذِير المعنيّين بالعلاج من كبراء كفّار مكة وما حولها، وهذا الغرض التحذيريُّ قد جاء في الآيتين (١٣ و١٤) من هذا الدرس.

التدبّر التحليلي:

سبق تدبُّر هذا النصّ تدبّراً تكامليًّا، مع النصوص الأخرى التي جاءت في القرآن حول ما جاء فيه، وأقْتَصِرُ هُنا على التدبّر التحليليّ له.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾:

بدأت هذه اللّقَطات عن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، من مَرْحَلَةٍ من مراحل رَجْعَتِه من مَدْينَ إلى مِصْر، ومَعَهُ أهْلُه، وقَطِيعُ أغنامه، على ما سَبَقَ بيانُه مُفَصَّلاً لدَىٰ تدبّر النُّصُوص السابقة نزولاً لهذا النصّ.

• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾: أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي لهذا البيان هذا الحَدَثَ الذي نَقُصُّهُ علَيْك، بَدْأً من الوقْتِ الذي قال فيه موسَىٰ عليه السّلام لأهْلِه ما جاء بيانُه في الآية.

﴿إِذْ﴾: ظرفٌ للزّمان الماضي، وهو هُنَا زَمَنُ بعضِ الأحداث الماضيَةِ التي جرت لموسَىٰ عليه السّلام، بعد أنْ رأى ناراً، وهو عائِدٌ إلى مِصْرَ من أرْض مَدْيَن بأهْلِه.

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾:

قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

آنسْتُ: أي: أبْصَرْتُ، يقال لغة: آنَسَ الشيءَ: أي: أحَسَّ بِهِ ـ أَبْصَرَه ـ عَلِمه.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾: أي: امْكُثُوا مَكَانَكُمْ، إنّي ذاهِبٌ إلَىٰ المكان الذي آنَسْتُ فيه النّارَ، رَاجياً أنْ أجِدَ عنْدَ أصْحَاب النَّار خَبَراً عَنِ الطَّرِيقِ الّذِي يُوصِلُنَا إلَىٰ مِصْرَ، فآتيكم به، عائداً إليكم.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾:

قرأ نافع، وٱبْنُ كثِير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر: [بِشِهَابِ قَبَسٍ] على إضافة «شِهَابِ» إلى «قَبَسٍ».

الشهاب: يأتي في اللّغة بمعنى: الشعلة الساطعة من النار، وهذا المعنى هو الملائم هُنا.

القَبَسُ: النار، أو شَعْلَةٌ من النار، وفي اللّفظ معنى الاقتباس، وهو الاستفادة بالطّلَب.

فإضافة «شَهاب» إلى «قَبَس» تَدُلُّ على معنى: شعلة نار ساطِعَةٍ أسْتَفيدُها اقتباساً من أصحاب النار.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ على تنوين لفظ: «شهابٍ» فيكون لفظ «قَبس» بَدلاً من لفظ «شهاب» أو صفة له، إذْ يَحْمِلُ معنَىٰ الإستفادة بالطلَب وهو معنى «الاقتباس».

وعلى كلا القراءتين لا تكون كلمة «قَبَس» إطناباً، بل فيها الدّلالة على معنَىٰ الاقتباس، وكلمة «قَبَس» لا تغني عن كلمة «شهاب» لأنّ لفظ

شهاب يدُلُّ على أنَّ الشعلة ذات نار ساطعة، فاجتمع اللّفظان للدَّلالَة على كامل المعنى المراد بيانه.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: أي: راجياً أن تُوقِدُوا حَطَباً بالشهاب الّذي آتيكم به، تَسْتَدْفِئونَ بها.

تصْطَلُونَ: أي: تَسْتَدْفِئون.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾: أي: فلَمَا جَاءَ المكَانَ الّذي رأىٰ النَّارَ تَشْتَعِلُ فيه. يقال لغة: جاءَ المكانَ، وجاءَ إلى المكان.

﴿نُودِىَ﴾: أي: نُودِي مُوسَىٰ عليه السلام، وهو بجانب الطّور، بخطابِ مُرْتفع الصّوْت، يقال لغة: نادَىٰ فلانٌ فُلاناً، أي: دَعَاهُ بصَوْتٍ مُرْتَفعٍ على قَدْرِ وُسْعِه.

وكَانَ نداؤه من وراء حجابٍ من قبل الرَّبّ جلَّ وعَلَا.

وقد اشتمل الخطاب الّذِي دلَّت عَلَيْهِ هاتان الآيتان على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

﴿أَنۢ﴾ تفسيريّة، أيْ: تضمَّنَ النداء بَيَانَ أنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ مَنْ في النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا مُبارَكِين.

البَرَكَةُ: هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وهي تكون في المعنويَّات، وفي المادّيّات.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: دلَّت هذِهِ العبارة على وجُودِ أَهْلِ عِلْم يُطْلَقُ عَلَيْهم لفظ «مَنْ» ويتبَادَرُ إلَىٰ الذِّهْنِ أَنَّهُمْ جَميعاً مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ ومَلائِكَةٌ مُقَرَّبُون، وفي مقدّمة الملائكة رَسُولُ الوحْي جِبْرِيلُ عليه السّلام، ولم أَجدْ في النّصوص عن الرَّسول ﷺ ما يَدُلُّ على تعْيين الملائكة، لكنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قَدْ جعَلَهُ الله عزّ وجلّ بهذا البيان مُبَارَكاً، وكذلِكَ من اصطفاهم من الملائكة لحضور هذا اللِّقَاء الكريم، سواءٌ قُلْنَا: إنَّ مُوسَىٰ قَدْ أحاطَتْ بِهِ النّار الّتي كانت في الحقيقة نوراً بارداً، أَمْ كان مِمَّنْ كانَ حَوْلَهَا من الملائكة.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجل: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

دلّ هذا البيان على تنزيه الله جَلَّ جَلالُه مِنْ كلِّ ما لا يليق به، وعلَى وَصْفِهِ بأَنَّهُ رَبُّ العالمين.

- أمَّا التنزيهُ عَنْ كلِّ نَقْصٍ عَنْ أسْمَىٰ دَرَجات الكمال، فقد جاء بعبارة «سُبْحَان».

قال النحاة: كلمة «سُبْحان» اسْمُ عَلَمٌ لمعنَىٰ البراءة والتنزيه، وليس لَهَا فعل من لفظها، وهي ممنوعة من الصَّرْف إلَّا إذا أضيفت، وتأتي منْصُوبَةً في مَوْضع المصْدَرِ المنْصُوب بفعل محذوف.

- وأمّا ذِكْرُ الموْجُودِ الأزليّ الأبَدي فَقَدْ جاء باسْمِه العلم «الله».

- وأمّا وَصْفُهُ بأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين، فهو الوصْفُ الجامع لكلّ أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلات ذوات العلاقَةِ من الله بكلّ العالَمِين. ولفظ «العالَمِينَ» هُنَا شَامِلٌ لكلّ مَوْجُودٍ سوى الله عزّ وجلّ.

القضيّة الثالثة: دلَّ عَليْها قول الله عزّ وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨﴾:

ناداه اللَّهُ عزّ وجلّ بأداة النداء «يا» للإشارة إلى بُعْدِ مَنْزِلَةِ الرَّبّ عَنْ مَنَازِلِ عباده.

وأبَانَ له بَعْد النداء أنَّ الشَّأنَ العظيمَ الْجَلِيلَ الَّذِي أُطالِبُكَ بأنْ تُدْرِكَهُ وتُؤْمِنَ بِهِ، بَعْدَ تنزيهِ الله وتقديسه والعلم بأنّه رَبّ العالمين والإيمان بكلّ ذلك، أنْ تُؤْمِنَ بأنّي أنَا هو اللَّهُ، وأنَا الْعَزِيز الحكيم.

أي: أنا المتصرف بالكون بصفات رُبُوبيتي، ضِمْنَ صِفَتَي عزّتي وحكمتي، فأنا العزيز الحكيم:

العزيز: أي: القوي الغالب القدير على خلْق ما يشاءُ ويختار.

الحكيم: أي: ذو الإرادة الحكيمة النافذة، فلا تفارِقُ مشيئتي المطلقة حِكْمَتِي في تَصارِيفي بالعالَمِينَ، فأقَدِّرُ مَقاديري، وأقضي أقضيتي وأُنَفِّذُها بحكمة بالغة.

قول الله عزّ وجلّ مبيناً بعض ما كَلَّم به مُوسَىٰ عليه السلام بعد القضايا الثلاث السّابقة:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: أي: ادْفَع عَصَاكَ إلى الأرض دفعة واحدة.

الإلقاء: هو في اللّغة بمعنى دفْعِ الشيء مَرّةً واحدةً على طريقة القذف أو الرّمي، لا بأسلوب الوضْعِ برفق.

- ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي: فَقَلَبَها الله عزّ وجلّ حيَّةً تَسْعَىٰ بأمْرِ التكوين، فَلَمَّا رآها مُوسَىٰ عليه السَّلام حيَّةً تَهْتَزُّ كأنْها جَانٌّ ولَّىٰ مُدْبراً ولَمْ يُعَقِّبْ.

تَهْتَزُّ: أي: تتحرَّك بنَشاط وشدّة.

كَأَنَّهَا جَانٌّ: الْجَانُّ: نوع من الحيّات أكحل العيْنَيْن يَضْرِبُ إلى الصفرة، سَرِيع الحركة شديد الاهتزاز، وجَمْعُه «جِنَّان» و«جَوَانّ».

وهذا النوع من الحيَّاتِ خفيف صغير الجسم.

وجاء تشبيه الحيَّةِ الّتي تحوَّلَتْ إلَيْها عصا موسى عليه السلام بالجانّ هُنا، لبيان اهتزازها وسُرْعَةِ حَرَكتها.

وجاء بيانُ عِظَمِ جسْمِها في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾.

الثعبان: ذَكَرُ الحيّات.

فتكاملت النّصوص في الدّلالَة على عظم جسْمها وشدّة حَرَكتها المخيفة:

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: أي: ابْتَعَدَ فارًّا، مُعْطِياً دُبُرَه. جاء الجمع بيْنَ التولّي والإدْبار في هذه العبارة، لأنَّ التولّي قد يكون ابتعاداً دون إدْبار، ولأنّ الإدّبار قَدْ يكون بإعطاء الظّهر للشيء دُونَ ابتعاد، لكنّ واقع حال موسَىٰ عليه السّلام أنّهُ ابتَعَدَ وأدْبر.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي: ولم يَرْجِعْ. يقال لغة: عَقَّبَ الفارُّ، أي: كرَّ وَرَجَعَ.

• ﴿.. يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

هذه العبارة مُقْتَطَعَةٌ من الحدَثِ الّذي جرَىٰ، إذْ نَادَىٰ اللّهُ عزّ وجلَّ

مُوسَىٰ، بَعْد أنْ وَلَّىٰ مُدْبراً وَلَمْ يَعْقِبْ، خَوْفاً من الحيَّةِ العظيمة ذاتِ الحركة السّريعة والاهتزاز المخيف، فقال له:

﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: كُنْ آمِناً فَلَنْ يُصِيبَكَ مَكْرُوهٌ من هذا الثُّعْبَانِ الذي يسْعَىٰ ويهتَزُّ بقوّةٍ ونَشَاطٍ وسُرْعَةِ حَرَكة ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فَدَلَّت هذِهِ العبارَةُ على أنَّ رَبَّهُ قَدِ اصْطَفاهُ بالنبوَّة، واصْطَفاه ليَحْمِلَ رِسالةً منه، وقد جاء هذان بأسْلُوبٍ ذي دَلَالَة غَيْرِ مُبَاشِرة.

لَدَيَّ: بمنزلة عندي، ظرف زماني ومكاني، إلَّا أنه يدلُّ على القرب أكثر من عندي فهو أخص منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: أي: باستثناء مَنْ ظَلَمَ بمخالَفَةِ لأمْرِي أو نَهْيِي، فإنَّهُ يخافُ عقابي. لكنَّ مَنْ يختاره اللَّهُ ليكون رَسُولاً، لَا بُدَّ أنْ يَتُوبَ ويُبَدِّلَ عَمَلَه السَّيّء، فيَجْعَلَ عملاً حسناً مكانَه، فإنَّ الله يغفر لَهُ ويَرْحَمُه، دلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومعْصيةُ الّذي يُصْطَفىٰ للرّسالَةِ، قد تكون مُخَالفة من دَرجَة من درجات مَرْتبةِ الإحسان، أو دَرَجَةٍ من درجات مَرْتبة البرّ، ولا تكُونُ مخالفة من دَرَجَةٍ من دَرَجات مَرْتَبَةِ التقوىٰ، فَالله عزّ وجلّ قَدْ يُوجب على الأنبياء والمرسلينَ تكاليف زائدة على ما أوْجَبَ على غيرهم، وهذه التكاليف تقع في درجاتٍ من مَرْتبة البرّ أو مَرْتبة الإحْسَانِ بالنِّسْبَةِ إلى غيرهم، كما فرض الله على رسوله محمَّد ﷺ أنْ يَقُومَ من اللَّيل يَعْبُدُ رَبَّه، بينما جعل هذا مَنْدُوباً إلَيْه بالنسبة إلى سائر المؤمنين، ومعاصي الرُّسُل هي من درجات مرتبتي الإحْسَانِ أو البرّ، ولهذا آخذ اللَّهُ عزّ وجلّ يونُسَ عليه السَّلام، إذْ تَركَ قَوْمَهُ مُغَاضباً، ظانًّا أنّ الله لَنْ يُضَيِّق عليه، لكنَّ رَسُولاً بارًّا مُحْسِناً مِثْلَه، ما كان ينبغي له أن يَعْتَمِدَ على اجتهادٍ ظنِّيّ، بَلْ كان يجب عَلَيْهِ أن ينتظر ما يتلاقاه عن رَبِّه وحْياً.

ومثل هذا الظنّ كافٍ بالنسبة إلى مَنْ هم من أهل مرتبة التقوى، لَا مَنِ اصطفاهم الله لرسالته من أهل مَرْتبة الأبرار، أو أهل مرتبة المحسنين.

حُسْناً: مَصْدَرُ «حَسُن» أي: جَمُلَ فلا قبح فيه، والمرادُ المجيء بعَملٍ فيه حُسْنٌ، وتتفاضل دَرَجات الحسْنِ.

من بَعْدِ سُوءٍ: أي: من بَعْدِ عَمَلٍ فيه سُوءٌ، **السُّوءُ**: كُلُّ مَا هو قبيح. وتتفاوت دركات القبح.

• ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: في هذه القضيَّةِ دَلَالَةٌ بأسُلُوب الكنايَةِ علىٰ أنَّ الله جلّ جلالُه يغْفِر له، إذا بَدَّلَ حُسْناً من بَعْدِ سُوءٍ.

غَفُورٌ: أي: كثير الغفران وهو السّتر، ولفظ «الغفور» من أسماء الله الحسنى.

رَحِيم: أي: كثير الرحْمَة لعباده، فهو يَشْمَلُهُم بعطاءات رحْمَتِه، دواماً، ولفظ «الرحيم» من أسماء الله الحسنىٰ.

قول الله عزّ وجلّ في بيان خطابه لموسَىٰ عليه السلام:

• ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: وأدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِ ثَوْبِكَ، وهو الشقُّ الذي يَدْخل مِنْهُ الرَّأسُ عِنْدَ لُبْسِه، وأَوْصِلْهَا إلى إبطِكَ، أخذاً من دَلَالَةِ نصٍّ آخر، وأخْرِجْهَا أخْذاً من دلالَةِ اللُّزُوم الفِكْرِي، تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مُتلأْلِئَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَريها سُوءٌ، وقد جاء هذا القيدُ احْتِراساً من أن يكونَ بياضُها من الْبَرَص.

• أعطاه الله عزّ وجلّ آيَة العصا التي تَنْقَلِب ثُعْبَاناً مخيفاً، وفيها إشارة وعيد.

• وأعطاه آيَة الْيَدِ الّتي يُدْخِلُها في جيبه إلى جناحه فتخرج بيضاء من غير سُوء تتلألأ نوراً، وفيها إشارة هداية بنورها.

وقال له: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: أي: هاتان الآيات داخِلَتَان في عِدَاد تِسْعِ آيات، قَدَّرْتُ منْحَكَ إيَّاها، دليلاً على أنَّكَ رسُولي، وأنَّكَ صادقٌ فيما تُبَلِّغُ عَنِّي.

والآيات التسع قد سَبق بيانها وهي:

«العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والْقُمَّل، والضفادع، والدَّم، وسنوات الجدب والقحط، ونقص الثمرات (أو الطمس على أموالهم)».

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: خُذْ هاتين الآيتين ضِمْنَ تِسع آياتٍ قَدَّرْتُ مَنْحَكَ إيَّاها، مُرْسَلاً إلى فِرْعَوْنَ وقومه.

وجاءت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ للدَّلَالَة على الحِكْمَةِ من إرْسَالِهِ إلى فِرْعَوْن وقومه، فهي بمنزلة التعليل للإرْسَال.

﴿فَٰسِقِينَ﴾: جمع «فاسِق» وهو الخارج عن الحق والواجب والطاعة إلى أضدادها.

الفِسْقُ: هو العصيان، والخروج عن الحق والواجب وطاعة أوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسْلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقَت الرُّطبة، إذَا خَرَجت من قشرتها، ومعلوم أنّ الرُّطبة متى خرجت من قِشْرَتها تعرَّضَتْ للفساد.

قول الله عزّ وجلّ عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أبانت هاتان الآيتان أحداث المرحَلَةِ الأخيرة من مراحل فرعون وملَئِه، تُجاهَ دَعْوَةِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، وتُجاه الآيات التِّسْع

الّتي أجْرَاها اللهُ عزّ وجلّ لَهُمْ، تَصْدِيقاً لرسُولَيْهِ، وجُحودِهم بها مع علمهم بأنَّها حَقٌّ من رَبّ العالَمين، واسْتيقانِ أنفسهم لها، فكانت عاقبتهم أن أهلكهم اللَّهُ وأَهْلَكَ جنودَهم بالإغراق، وكان هذا عاقبتهم، بسبب كُفْرِهم وأنَّهُمْ كانُوا مُفْسِدِينَ في أرْضِ مصر.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتُنَا الخوارقُ التّسْعُ كلُّها، والفاء في: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ تعطفُ عَطْفَ تَرتيبٍ مع تعقيب على آخر الآيات، لَا على آيَتَي العصا والْيَدِ فقط.

﴿مُبْصِرَةً﴾: أي: واضحةً مضيئةً بَيّنَة، يقال لغة: «أَبْصَرَ الطَّرِيقُ فَهُو مُبْصِرٌ» أي: استبان ووضح.

قال أبو إسْحاق: معْنَى «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهم، أي: تُبَيّنُ لهم، وقال الأخْفَش: إِنَّهَا تُبَصِّرُهم، أي: تجعلهم بُصَراء[1].

فالمعنى على هذا: فلمَّا جاءتْهُمْ آياتُنا مُبَصِّرَةً لهم بأنّ مُوسَىٰ وهارون رَسُولان من رَبّ العالمين صادقان، وأنَّ ما جاءَا به منْ قضايَا الدّين حقٌّ وصِدْقٌ، يبلّغانه عن الله جلّ جلاله وعَظُمَ سلطانه.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾: أي: قالوا: ما جاء به موسَىٰ وأخوه هارونُ نوْعٌ من أنواع السِّحْرِ الكُبْرَى، الّتي لم يتوصَّلْ إلى مَعْرِفتها ومعرفة أسبابها سَحَرَةُ مِصْرَ كلُّهم.

- ﴿مُّبِينٌ﴾: أي: واضِحٌ جَليّ، منْ فعل: «أَبَانَ الشَّيْءُ إِبَانَةً فَهُو مُبِينٌ» أي: ظهر ووضَحَ وكان جليًّا.

- ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾: أي: أنْكَرُوها مع علمهم علْماً يقينيًّا بأنَّها حَقٌّ وليست من قبيل السّحر، والمعنى أنَّهم أنْكَرُوا كونها آياتٍ من عنْدِ الله رَبّ العالمين.

---

(١) انظر لسان العرب، مادة «بصر».

الْجُحود: هو إنكار كون الشيءِ حقاً، مع العلم بأنه حقٌّ. يقال لُغةً: «جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحُوداً» أي: أنْكر الحقّ مع الْعِلْم بأنَّهُ حقٌّ. ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّه، وجَحَدَهُ بحقِّهِ» فالباء في ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ استعمالٌ عَرَبيّ، ولا حاجةَ إلى البحث عن الغرض من ذكْرِ الباء في العبارة.

• ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾: أي: وعَلِمَتْ أنْفُسُهُمْ عِلْماً يقينيًّا لا شَكَّ فيه أنَّها آياتٌ من آيَات اللهِ رَبّ العالمين حقًّا.

اليقين: هو العلْم الذي لا شكَّ فيه، وأدْنَىٰ دَرَجَاتِه ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نظريَّةٍ فِكريّة، أو خَبَرِيَّةٍ صادقةٍ لا يَعْتَرِيها شَكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أنفسهم» وهو من جُموع القلّة، إشارَةً إلىٰ أنّ أصْحَابَ هذا الاسْتِيقان هم فِرعَوْن وآلُهُ وملَؤُهُ وأعْوَانُهُ المخْلِصُون لَه، مثل: هامان وقارون، وهؤلاء قليلون يناسِبُهُمْ جَمْعُ القِلّة، وهُمُ الّذِين جحَدُوا آيات الله البينات الخوارق ظُلْماً وعلوًّا.

• ﴿ظُلْمًا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوىٰ، الّتي لا يُحْتَمل من العُصَاة تجاوزُها. أي: حالَة كونهم ظالمين، استُعْمِل المصْدَر على معنى اسم الفاعل.

أو هو مفعولٌ لأجْله، أي: وجَحَدُوا بها بِسَبَب إصرارهم في أنْفُسهم على الظُّلْم الَّذِي لهُمْ فيه سلطانٌ عظيم ومنافِع ومصالح.

• ﴿وَعُلُوًّا﴾: أي: وحالَةَ كَوْنهم مسْتكْبِرين مستَعْلِين. أو بسبب إصرارهم في أنْفُسِهم على العلُوّ في الأرض، وعدَم قبولِهم اتّباع رسُولَيْ رَبّهم، وعدَم قبولهم الدّين الّذي جاءَا به.

فقد كانُوا يَرَوْن أنَّ إيمانَهُمْ يَجْعَلُهُمْ يَخسَرُونَ شيئاً من سُلْطانِهِمْ في الأرض على شَعْبِهِم، وعَبِيدِهم بني إسرائيل.

• ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أي: فانْظُرْ أيُّها الناظِرُ المتفكّر نَظَرَ تَفكُّرٍ هادٍ إلى الحقّ، كَيْفَ كانَ جَزَاءُ المفْسِدِين في الأرض، إذْ أَغْرَقْنَاهم وجُنُودَهم أجْمَعِين.

عاقِبَةُ عَمَلِ العَامِل: الجزاءُ الّذي يكُونُ بَعْدَهُ مباشرةً، أو بَعْدَ فاصلٍ زمَنِيّ، والأصْلُ فيه ما يأتي عَقِبَه مُبَاشرة، أخذاً من العَقِب، إلّا أنّه جَرَىٰ فيه تَوَسُّعٌ في الاستعمال.

المُفسِدُون: هم الذين يَنْشُرُون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفْسَدَ فُلَانٌ الشيْءَ» أي: حوّلَهُ عن صلاحه، أو أتْلَفَه، وتحويلُ الشيء عن صلاحِه يجْعَلُه غير صالح ولا نافع، وربّما يجْعَلُه ضارًا كرِيهاً مُفْسداً لِغَيْره.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (النّمل)
الآيات من (١٥ ـ ٤٤)
وفيه لقطات من قصّة سليمان
مع مقدّمة عنه وعن أبيه عليهما السلام

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ

وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ
فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ
وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ
وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ
ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ
يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت
تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾:

القراءات:

(١٨) • وقف الكسائي، ويعقوب بالياء في [عَلَىٰ وَادِي].

ووقف باقي القرّاء العشرة على الدال دون ياء ﴿عَلَىٰ وَادِ﴾.

(١٨) • قرأ رُويس [لاَ يَحْطِمَنْكُمْ] بنُون التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنون التوكيد الثقيلة: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

ويظهر أنّ النملَةَ القائدة حذَّرتْ أوّلاً جماعات النمل تحذيراً مؤكّداً دُونَ تَشْدِيد، فلمَّا رَأتْ توافُدَ جيش سُلَيْمان عليه السلام علىٰ الوادي بقوَّة وَجَّهتْ تحذيراً مؤكّداً بِشدَّة.

(١٩) • فتح ورشٌ، والبزّي ياء المتكلم من [أَوْزِعْنِيَ أَنْ].

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ﴾. وهما وجهان عربيّان.

(١٩) • وقف يعقوب فقط بهاء السّكْت في: ﴿عَلَيَّ﴾.

(٢٠) • فتح اَبْنُ كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي ياء المتكلّم في: ﴿مَالِيَ لَا﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

(٢١) • قرأ اَبن كثير: [أَوْلَيَأْتِيَنَّنِي] بإثبات نون الوقاية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بحذف نون الوقاية تخفيفاً لتوالي الأمثال.

وهما وجهان عربيّان جائزان.

(٢٢) • قرأ عَاصم، ورَوْح: ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَمَكُثَ] بضمّ الكاف.

وهما لُغَتَان لهذا الفعل في العربية.

(٢٢) • همزة «سَبَأ» فتحها أبو عَمْرو، والبزّي على أن الكلمة ممنوعة من الصّرف، وأسكَنَها قُنْبُل، حكايةً لما يَقُولُهُ أَهْلُ هذه البلدة. وقرأها هشام، وحمزة بألفٍ مدّيّة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرةِ: [مِنْ سَبَإٍ] مجرورة مصروفة.

وكُلُّها وجوهٌ جائزة في اللّسان العربيّ.

(٢٥) • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورُوَيْس: [أَلاَ يَسْجُدُوا] وسيأتي توجيه هذه القراءة في التدبّر إن شاء الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾.

(٢٥) • قرأ حَفْصٌ والكِسَائي: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٢٨) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بكَسْر الهاء.

وهما وَجهان عَربيان في النُّطق.

(٢٩) • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أُلْقِيَ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ﴾ بإسكان ياء المتكلّم.

(٣٢) • أثبتَ يعقوب ياء المتكلم في: [تَشْهَدُوني] وقفاً ووصلاً.

وحَذَفَهَا بَاقي القرّاء العشرة، وهو جائز في اللّغة العربيّة.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [أَتُمِدُّونَنِي] بإثبات الياء وصلاً.

وقرأها ابن كثير بالإثبات وصْلاً ووقفاً.

وقرأها حمزة، ويعقُوبُ: [أَتُمِدُّونِّي] بالنون المشدّدة مع إثبات الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بحذف ياء المتكلّم ونونين منفكّتين. وكُلُّها وجُوهٌ عَرَبيَّةٌ جائزة.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جَعْفر، ورُوَيس [آتانِيَ اللَّهُ] بإثبات ياء المتكلم وفتحها وصلاً.

ولقالون، وأبي عمرو، وحَفْص، إثباتُها سَاكنَةً، وحَذْفُها وقفاً.

ولورش وأبي جعفر حَذْفُها في الوقف.

وقرأ رَوْح بحَذْفِها وَصْلاً، وإثباتها وقفاً.

وهي وُجُوهٌ جائزةٌ في العربية.

(٣٩) و(٤٠) • قرأ نافع، وأبو جعفر وصلاً: [أنآ ءَاتيك] بإثبات ألف «أنا» ومدّها.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بحَذْف ألف «أنا» وصلاً ووقفاً.

(٤٠) • فتح ياء المتكلم في: [لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ] نافع وأبو جعفر.

وأسكنها باقي القرّاء العشرة: [لِيَبْلُوَنِيۤ ءَأَشْكُرُ].

(٤٤) • قرأ قُنْبُل: [سَأْقَيْهَا] بهمزة ساكِنَةٍ بَعْدَ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿سَاقَيْهَاۚ﴾ بألفٍ مَدِّيَّة.

وقراءة قنبل هي على لغة مَنْ يقلبُ الألف همْزَةً ساكنة.

تمهيد:

يشتمل هذا الدرس على حديثٍ يتعلّق بداوُد وولده سليمان عليهما السلام، وما آتاهما الله عزّ وجلّ من فضْلِه ممّا امْتَنّ به عليهما، توطئة لبيان بعض ما اختصّ الله به سليمان عليه السلام، ولبيان أحداثٍ ذات شأنٍ من تاريخه، لم تأتِ في النُّصوص الأخرى التي عرضَتْ جوانب من قصة حياته.

وفي عرض هذه الأحداث تربية للرّسُول محمد ﷺ، وتربية لأصحابه الذين آمنوا به واتّبَعُوه، وبيان لوجود قُوىً كونيّة خفِيّة قَدْ يُسَخّرها الله عزّ وجلّ بحكمَتِهِ لمن يشاء من عباده.

وفي عرض بعضها تهديدٌ ضِمْنِيٌّ لكبراء مُشْرِكي مكّة وما حولها، بأنّ الله جلّ جلالُه قَدْ تقتضي حكمَتُه أنْ يُسخِّرَ لِرَسُوله محمَّدٍ ﷺ قُوىً خَفِيَّةً يكونُ بها إهلاكُهُم، وفيها ضَرْبٌ على نزعَةِ الاستكبار في نفوسِهِم، رغبةً في إقناعهم بأنّ مَلكةَ سبأ ورجَالَ مُلْكِها الأشدّاء لم يمْنَعْهُم استكْبارُهم بمُلْكِهم وقوَّتِهم من أنْ يعْتَرِفوا بالحقّ، ويُؤْمِنُوا به، ويَحْمُوا بلادَهُمْ من قُوَّةِ سُلَيمانَ القادِرَةِ على إذْلَالِهِم واستعْبادِهم وامْتِلَاكِ كُلِّ ما لَهُمْ من مُلْكٍ وسُلْطان، فجاءوا إلى سليمان خاضعين مُسْتسلمين.

وكبراءُ مشركي مكّة يَعْلَمُونَ أنّه لم يكن لهم من المجْدِ والسُّلطان في مكّةَ، مثْلُ ما كَانَ لملكَةِ سَبَأ ورجالِ مملكتها من قُوّة ومَجْدٍ ومالٍ كثيرٍ وسُلْطان، فلا داعي للاستكبارِ الفارغ الصّادِّ لهم عن الحق، وعن الإيمان به، واتّباع النّبيِّ الرَّسُولِ محمّد ﷺ، فيما جاءهم به عن رَبّه، فأوْهَامُهُم الاستكبارِيّة قد لا يحقّقُون بها شيئاً لأنفسهم، بل سَتُسَبّب لهم الذُّلَّ والخزيَ في الدّنيا، والعذابَ الأليم الخالد مع الذّلّ والخزْي يوم الدّين.

إلى غير ذلك من فوائد يشتمل عليها هذا الدرس.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

سبقت دراسَةُ ما جاء في القرآن كلِّه بشأن دَاوُد عليه السلام، دراسة تكامليّة في سورة (صَ) وفي الملْحقِّ الثالث من ملاحقِ تدبّرها.

وأسألُ اللَّهَ الْمُعِينَ الفتَّاحَ الْوَهَابَ أن يقْضي لي بكتابة مُلْحَقٍ أدْرُسُ فِيهِ ما يتَعلَّقُ بسُلَيْمانَ عليه السلام، ممّا جاء في القرآن كلّه، دراسَةً تكامُلِيَّة وفْقَ المنهج الذي فتح به عليّ في دراسة النُّصُوص القرآنيّة حَوْلَ مَوْضوع واحد.

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾:

جاء البيان هُنَا مُصَدَّراً بالتَّوكيد بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ فاللّام مؤكّدة، ويَرَىٰ كثيرٌ من النحويّين أنَّها واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، و«قَدْ» للتحقيق وفيه قَصْدُ التوكيد أيضاً.

وهذا التوكيد ينسَحِبُ على كلِّ ما جاء في هذا الدَّرْس، وقَدْ جِيءَ به مُراعاةً لحال المنْكِرِين أو الشّاكين من الّذِين جاء الدرس لمعالجتهم وإقناعهم أو تَرْبيتهم، كما سَبَق في التمهيد، أمّا الرّسول والمؤمنُون الصادقون، فليسوا بحاجَةٍ إلى توكيد، لكنّهم دَاخِلُون ضِمْنَ الّذين يُوجَّه لهم ما جَاء في هذا الدّرس، فَرُوعِي حالُ الّذين يُنَاسِبُهُم التوكيد.

﴿ءَاتَيْنَا﴾: أي: أعْطَيْنا. استعمل الإيتاء ومشتقاتُه في القرآن بمعنى «الإعطاء» دُون فَرْقٍ، فلَا داعيَ لاعتباره أخصّ.

نسب داود وسليمان عند المؤرخين:

سليمان بْنُ دَاود بْنِ إيشا بْن عويد بن عابر بن سلمون بْنِ نَحْشُونَ بْن عمينا أداب بن إرَم بن حصْرون بن فارص بن يهوذا بْن يعْقُوب بْن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

﴿عِلْمًا﴾: جاء التنكير في هَذا اللَّفظ لإفادَةِ تعظيمِ الْعِلْم الّذِي آتاه اللَّهُ داوُدَ وسُلَيْمانَ عَلَيْهما السّلام.

• ﴿..وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أبانَ الله عزَّ وجلَّ بهَذَا ثَنَاءَ داودَ وسليمانَ على الله الجوادِ الوهّاب، الّذِي فَضَّلَهُما بهِبَاتِه ومِنَحِهِ عَلَىٰ كثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤمنين، وهذا التفضيل يشْتَمِلُ المادّيَاتِ والمعنويَّاتِ.

إنَّهُمَا حَمِدَا اللَّهَ رَبَّهُما مُلاحِظَيْنِ في هذا الْحَمْد مَا فَضَّلَهُما بِهِ من هباته وعطاياه.

والتعبير بعبارة [قالاَ] يصْدُقُ بأن يقولَا مجتمعَيْن، كما فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إذْ دَعَوا الله رَبّهما وهما يَرْفَعَان القواعد من البيت الحرام في مكّة المكرّمة. ويَصْدُق بأنْ يَقُولا مُتَفرِّقَيْن، والله أعلم بالذي كان منهما فعلاً.

التفضيل: هو الإعطاء الزائِدُ على النظراء أو أشباههم، مما يُحْمَدُ من مادّياتٍ ومَعْنَويَّات.

وقالَا: ﴿مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إِلَىٰ أنّهما لَا يَنْظُرَان إِلَىٰ غير المؤمنين، مَهْما آتاهم اللَّهُ من عطايا دُنْيَوِيَّة، كالفراعنة والأكاسرة، ونحوهم من مُلوكِ الدنيا، فما هما فيه من إيمان ونبوّة أجلُّ وأعظم من كلّ ما لدَىٰ مُلوك أهل الدنيا من أموال وسلطان في الأرض، ولا يَليقُ

بالمؤمن أن يفاضل بين إيمانه ومَا آتاه الله من خير يجْعَلُه سَعِيداً في آخِرَته، وبَيْنَ كلٍّ ما في الدنيا ممّا جَعَلَهُ اللَّهُ زِينَةً لها ولو اجتمعَتْ لشخص واحد.

• ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾: **الميراث**: ما يملِكُه خَلَفٌ عن سَلَفٍ دُونَ عِوضٍ، وهو يَشْمَلُ المادّيّاتِ والمعنويّات، فيقال لغة: «وَرِثَ المالَ والمَجْدَ عن أبيهِ. وَوَرِثَهُ منْه. ويقالُ وَرِثَ فُلانٌ أَبَاهُ».

والّذي ورثَهُ سُلَيْمان عن أَبِيه دَاود عَلَيْهِما السلام دون سائر إخْوَتِه، هو الملْك، والْعِلْم، والحكمة الإداريّة والسّياسِيَّة، ومن علوم النُّبُوَّة ما كان لِدَاوُد منها ولم يُوحَ إلى سُلَيْمانَ نَظِيرُه.

أمَّا المالُ الخاصُّ بدَاوُد، فالرأيُ الراجح عند المفسرين وأهل الحديث أنَّه لم يكن له منْهُ ميراث، أخذاً ممّا صَحَّ عن الرسول ﷺ من أنَّ أمْوالَ الأَنْبياء لَا تُورثُ مِنْ قِبَلِ الوَارثين بالنّسَبِ أو بالزَّواج، وأنَّ ما تَرَكُوهُ يكُونُ صَدَقَةً.

فقد روى البخاري في صحيحه أنّ أبَا بكْرٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النبيّ ﷺ يقول:

«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إنَّما يَأْكُلُ آلُ محمَّدٍ في هَذا الْمَالِ».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ».

ونظيرهما في سُنَن أبي داود، وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح ابن حِبَّان، والسّنن الكبرى للبيهقي، ومسند أبي يعلَىٰ.

وروى النسائي في السُّنَن الكبرى في أوائل الفرائض، أنّ النبي ﷺ قال:

«إنّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَة»[1].

• ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: أي: وقال سُلَيمان: يا أيها الناس، والظاهر أنّ هذا القول جاء في خُطْبَةٍ ملكيَّة خَطَبَها، جاء فيها بيان ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

مَنطِق: مَصْدَرُ «نَطَق» يقال لغة: «نَطَقَ يَنْطِق نُطْقاً، وَنَطْقاً، ومَنْطِقاً» أي: تكلَّم، بإحْدَاثِ أصْواتٍ لِيَدُلَّ بها علىٰ ما في نَفْسِه من أحاسيس أو معانٍ. **والْمَنطِقُ**: الكَلامُ الّذي يكونُ بالنُّطْقِ، ويُعبِّر عمّا في النفس ضمن أصوات فطرية، أو كلمات لُغويّة متعارف على دلالاتها.

الطَّير: جَمْعُ «طَائِر» ويُجْمَعُ أيضاً عَلَىٰ «أطيار» و«طُيُور» والطائر من الحيوان كلّ ما يطير في الهواء بجناحَيْن فأكثر.

وقد دلَّ هذا الْبَيَانُ على أنَّ للطُّيُور مَنْطِقاً تُعبِّرُ بِهِ عمّا في أنْفُسِها من أحَاسِيس ومشاعِرَ ورَغَباتٍ في حُدود إدْرَاكاتِها لِلْمَعَاني.

وقَدْ أعطَىٰ الله عزّ وجَلَّ سُلَيمانَ عِلْمَ مَنْطِقِ الطّير، فكَانَ عليه السَّلام يَفْهَمُ من تقاطِيع أصواتها ما تُعبّر بِهِ عمّا في نفوسِهَا، وكَانَ يُخَاطِبُها بِمِثْلِ أصْوَاتِهَا فتَفْهَمُ عَنْه حديثه لها.

وقولُه عَلَيْهِ السلام: ﴿عُلِّمْنَا﴾ بنون الجمع يحتَمِلُ احتمالَيْنِ فيما أرَىٰ:

---

(١) عن تلخيص الحبير ج٣ ص١٠٠ وفيه: «وإسناده على شرط مسلم».

الاحتمال الأول: أَنَّهُ يَتحدَّثُ عن نَفْسِه وعَنْ أبيه داود عليهما السّلام، إلّا أنّ أبَاه لم يُعْلِنْ أَنَّهُ كَان يَسْتَخْدم هذا العلم، لدَعْمِ مُلْكِه، وقد يدلُّ على هذا قول الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

فربّما كان يَسْتَدْعِيها بصَوْتِهِ بِحَسَبِ مَنْطِقِها، فتجتمع لَهُ رَاجِعَةً إِلَيْهِ بَعْدَ انصرافِها عَنْهُ لأرْزَاقها.

الاحتمال الثاني: أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بنُونِ الجمْعِ، لِيَدُلَّ على عظَمَةِ الْمُلْكِ الّذي آتاه اللَّهُ إيّاه، إذْ كان فيه بمثابَةِ مُلُوكٍ، مَلِكٍ على قوْمِهِ من الإنْسِ، ومَلِك عَلَىٰ قَوْمِهِ من الجنّ والشياطين، ومَلِكٍ على الطَّيْرِ، وهو لا يقْصِدُ التعاظم والاستكبار، وإنّما يَقْصِد التحدُّث بما أنْعَم اللَّهُ بِهِ عليه، فقَدْ كان عليه السّلام حَرِيصاً على أن يكون من الشاكرين لربّه، كما جاء في قوله الذي جاء بَيانُه في الآية (١٩) من هذا الدرس من دروس السورة.

القضيّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾:

أي: وآتَانا اللَّهُ عزّ وجلَّ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ كلِّ شَيْءٍ تُؤتَاهُ مُلُوكُ الأرض، من مالٍ وسُلْطان وجُنْدٍ وسائِرِ قُوىٰ تَثْبيتِ الْمُلْك، مع غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

ويَدْخلُ أبُوه داود عليهما السّلام في هذه المنّة الرّبّانيّة لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قال بشأنه في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

فعبارة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يُرادُ بها الْعُمومُ الشَّامِلُ لكلّ ما يُطْلَقُ عليه أَنَّهُ شيء، بل يُرادُ به من كلّ شيءٍ يؤْتَاه النَّاسُ في ظروف الحياة الدّنيا، ولا سيما الملُوك، من نِعَمٍ هي من فضل الله عزَّ وجلَّ عليهم. إنَّهُ عُمُومٌ تقيّدُه قرائن الأحوال، وهو محمولٌ على المبالغة الداعية إلى مَزِيدِ شُكْرِ الله على نِعَمِهِ.

وقد يكون المراد: من كُلِّ شيءٍ طَلَبْنَاهُ وَرَغِبْنَا فِيه لأنْفُسِنَا ولِمُلْكِنَا وسُلْطَانِنَا مِنْ أشياءِ الحياةِ الدُّنيا ومتاعِها.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليْها قَوْلُ الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الْفَضْل: الإحْسَانُ بالعطاءِ دُونَ سَبَبٍ سَابقٍ يَقْتَضيه إلّا إرادَة صاحب العطاء المتَفَضِّل، ودُونَ تَرَقُّب مكافأةٍ أو شكر.

الْمُبِينُ: أي: الواضح الجلِيّ، من فِعْل: «أَبَانَ يُبِينُ» بمعَنَىٰ وضَحَ وانْجَلَىٰ.

وقَدْ كان ما فُضِّلَ بِهِ سُلَيْمَانُ وأَبُوهُ مِنْ قَبْلِه واضِحاً وَجلِيًّا ظاهراً للنَّاسِ الذين شَهِدُوه، أو عَلِمُوا به.

فأَعْلَنَ سليمانُ عليه السلام بهذا البيان فَضْلَ الله عَلْيهِ وعلى أبيه، وأشْعَرَ ضِمْناً بأنّ من الواجب عليه تُجاه رَبّه أن يَشكُرَ هذا الفضْلَ المُبين، ومِنْ شُكْرِهِ لربّه أن يُقِيم الْعَدْلَ، ويُجاهِدَ في سبيلِ الله حقَّ جِهَاده، ويُكْثِرَ مِنْ عبادَتِهِ له بما يُرْضيه.

ولهذا قال في الآية (١٩) التالية:

﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

تَتَحدَّث هٰذِهِ الآياتُ الثَّلاثُ عَنْ قصَّةِ مَوْكبٍ عَسْكريّ، دَعَا سليْمَانُ عليه السّلام إلَيْه جُنْدَه، ليَسِيرَ بِهِ في رِحْلَةٍ تَدْريبيَّةٍ، أو استطلاعيَّةٍ، أو إرْهابيَّةٍ، أو قِتَاليَّةٍ جهادِيَّة.

فمرَّ في رحْلَتِه سالكاً مُنْبَسِطاً من الأرض، وصاعداً وهابطاً، ومارّاً في وِدْيَانٍ، بجنْدِهِ من الجنّ، والإنْسِ، والطَّيْر، واسْتَمَرَّ يجْتَازُ مراحلَ مِنْ الأرْضِ حتَّىٰ أتَىٰ عَلَى وَادٍ كَثير النَّمْل، يَخْضَعُ لنظام مَمْلَكَةٍ نَمْلِيَّةٍ واحِدَة، ولِهٰذهِ الْمَمْلَكَةِ نَمْلَةٌ مَلِكَةٌ عَلَيْهم وظيفتها وضع الْبَيْضِ الملقّح من الذكور، نَظِيرَ مَمَالِكِ النَّحل، والعاملات يجْلُبْن لها طعامها.

وعَلِمَتْ نَمْلَةٌ قائِدَةٌ مِنْ جُنْد المملَكَةِ أَنَّ جَيْشاً عَرَمْرَماً بَدأت طلائِعُهُ تَدْخُلُ وَادِيَ أُمَّتِها مِن النَّمْل، فخافَتْ على أفرادِهَا أن يَتَحَطَّمُوا بأرْجُلِ الجيْشِ المارّ في واديهم، وفيهم الرّاجِلُون والراكبون، وقَدْ تكونُ مَعَهُمْ عَرَبَاتٌ تجرُّها الدَّواب.

فقالَتِ النَّملَةُ لِأُمَّةِ مملَكَتِها بِلُغَتِها النَّملِيَّة ما معناه، يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم في بَاطِنِ الأرض لتَحْمُوا أنْفُسَكُمْ، من أن يَحْطِمَكُمْ هٰذَا الجيشُ العظيمُ المارُّ في واديكُمْ، وهُمْ لا يَشْعُرُونَ بكم، وَلَا بما يَجْرِي لَكُمْ.

وربّما يكونُ قَدْ أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْها بأنّ قائِدَ هٰذا الجيْش هو الرّسُولُ سلَيْمانُ عليه السّلام.

وسَمِعَ سُلَيْمانُ بما آتاه اللَّهُ من خُصُوصيَّةٍ قَوْلَها، أو أبْلَغَهُ الوحْيُ بذلك، فتبسَّمَ مِنْ قَوْلِها، وهو رَدُّ فِعْلٍ مَطْبُوعٍ في فِطَرِ النُّفوس، عنْدَ شُعُورها بِمُعْجِبٍ لَهَا من مَجْدٍ، أو فِعْلٍ أو قَوْل.

ونظر إلى ما أنْعَمَ اللَّهُ به عليه من سلطانٍ وقُوَّةٍ وعِلْمٍ ومُلْكٍ على جِنٍّ وإِنْسٍ وطَيْرٍ ممَّا اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِه، فدعَا رَبَّه بالدُّعاء الّذِي جاء في الآية (١٩) من هذه الآيات.

التدبير التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾:

الحَشرُ: هو الجمع والسَّوق، يقالُ لغة: «حَشَرَ الأميرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حَشْراً» أي: جَمَعُهم وساقهم.

جُنُودُه: الجنُود، والأجْنَاد، جَمْعُ «الْجُنْد» وهم الْعُسْكر. ولمّا كان جنود سليمان عليه السلام من أنواع مختلفة جنٍّ، وإنْسٍ، وطَيْر، نَاسَبَ أن يكون لفظ «الْجُنْد» مجموعاً على «جنود».

﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي: من نَوْعِ الجِنْ، وهُمْ خَلْقٌ من خَلْقِ الله، مخلوقُونَ من نار، مكلّفون في الحياة الدّنيا كالإنس، وسبَقَ التعريف بهم في سورة الجنّ بتفصيل.

وقد آتىٰ الله عزّ وجلّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السّلامُ قُدْرَةً على تَسْخِير مَنْ يَشاء من الجِنِّ، وعلى تجنيد جيشٍ منهم، بطاقَاتٍ خاصَّةٍ وهبَهُ الله إيَاها، خارِجَةٍ عن حُدُود طاقاتِ البشر المعروفة لسائر الناس، فاتَّخَذَ مِنْهُمْ جُنُوداً

مُقَاتِلِينَ، وبنّائِين، وغوّاصِين، وصَانِعِي أدواتٍ مَعْدَنِيَّةٍ، ونَحّاتِين.

ولعَلَّ تقديمهم في الآية على الإنْسِ للدَّلَالة على أَنَّ أعداد جُنْدِهِ مِنْهُم أكثر من أعداد جُنْدِهِ من الإنْسِ، أو للدلالَة على أنّ قدراتهم القتاليَّة كانَتْ أعظم من قُدْراتِ جنْدِه من الإنس.

الطير: جمع طائر، وهو من الحيوان مَا يطير بجناحَيْن فأكثر، والمراد هُنا أصناف الطيور التي تَطِير بجناحَيْنِ كالنّسور والصّقور، والغِرْبان، والْهَدَاهِدِ، والعصافير.

وقد آتى الله عزّ وجل سليمان عليه السلام قُدْرة خاصَّة على تَسْخِير الطيور ومحادثتها بحَسَب منْطِقِ كلّ نوع منها.

ولجنوده من الطير وظائف مُتَعدِّدَة، منها تظليل الجيْش من حرّ الشمس، ومنها الصيد، وقد يكون مِنْها القتال.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ يُجْمَعُونَ فِي مكانٍ جامع، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفا، ويُسَوَّوْنَ للقيام منتَظِمِينَ بما يكلَّفُونَهُ من أعمال.

أصْلُ الْوَزْع الكَفُّ والحبْس، والمراد كفُّهم بترتيبهم وصَفِّهم، ومَنْعِهِمْ من التفرُّق والانتشار.

فَدَلَّتْ هٰذِه الآيَةُ علَىٰ أنّ سلَيْمَانَ علَيْهِ السَّلام أمَرَ قادَتَه من الجنِّ والإنْسِ والْطَيْر، أنْ يَحْشُرُوا لَهُ جُنْدَهُ مِنْهُمْ ويَسُوقُوهُم ويُرتّبوهم في صُفُوف مُسْتَوِيَةٍ مُنْتظِمة، ويَكُفُّوهم فيها عن التَّفرُّقِ، التزاماً بما يُوجِبُه النظام العسكريّ، ليسير بهم في مُهمَّةٍ مِنَ المهمّات العسكريَّة، وقَدْ تَمَّ له ذلِكَ وتحقَّقَ ما أمَرَ به.

الوازعون في الحرب هم الموكّلُون بالصفوف يَزَعُونها كفًّا وجَمْعاً وتنظيماً وحثًّا على ما يقتضيه العَمَل.

قول الله تعالى:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: أي: فسار سليمانُ عَلَيْهِ السلام بجُنْدِهِ يجتاز أَرْضاً فَأَرْضاً، سالكين أو صَاعِدِينَ أو هَابِطين بحَسَبِ طبيعة الأرض التي يَعْبرُونها، حتىٰ أتَوْا مُشْرِفين على وَادِي النَّمْلِ، ومُتَوَجّهين للهُبُوطِ إليه وعبورِه.

ووصَفَهُ الله عزّ وجلّ بأنَّهُ وادِي النَّمْل لِكَثْرَةِ أعْدَادِ النَّمْلِ المنْتَشِرَة فيه، وهم بمثابَة مَمْلكَةٍ، لَها مَلِكَةٌ نَمَلَةٌ مِنْهُم، كما هو الشأن بالنّسْبة إلى خلايا النَّحل، وهذه النَّمْلَةُ الملِكَةُ تَسُوسُهُمْ وتَقُودُهم في حُدُود فِطْرَتِهم الّتي فَطَرَهم اللّهُ عليها، ومداركهم الّتي آتاهم اللّهُ إيَّاها.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾.

﴿نَمۡلَةٞ﴾ التاء هي تاء الوحدة، لا تاء التأنيث، فلَفْظُ «نَمْل» اسم جنْسٍ جَمْعِيّ، يُفَرَّق بينه وبين واحدة بالتاء، مثل: تَمْر وتَمْرَة، وشجر وشجرة، ونَحْل ونَحْلة.

تعيش أُمَّةُ النَّمل في جماعات ذَاتِ نِظَامٍ فَطَرَها الله عزّ وجلّ عليه، فهي من الحشرات الاجتماعيَّة كمَمَالِكِ النحل.

وقَدْ تَحتَوِي مُسْتَعْمَرَةُ النَّمْلِ الملايين من أفرادها، وتخضع لنظام مَلكي، ففي كلِّ مُسْتَعْرةٍ مَلِكَةٌ أو عدَّةُ ملِكَاتٍ، وأجلُّ أعْمالِ الملكةِ وضْعُ الْبَيْض، ومعظم أَفْرادِ مُسْتعمرة النَّمْل عَامِلَات إناث كالملكة، وهي تبني المساكن، وتجلُب الغذاء، وترعىٰ الصغار، وتحاربُ الأعداء.

وعمل الذكور تلقيح الملكات، وتموت بعْدَ ذلك مباشرة، فوجودها في مساكن النمل يكون في أوقات معيَّنةٍ وقصيرة تُؤدّي فيها مهمتها.

ويوجد من النمل أكثر من عشرة آلاف نوع، وأكبر النمل حَجْماً لا يزيد طُولُه على (٢,٥سم) وأمَّةُ النمل تبني مساكنها في باطن الأرض أو في تلالٍ بناء محكماً تصِلُ فيه التهوية إلى أعمق حجراتها وأصغرها.

وأبَانَ الله عزّ وجلّ أنَّ للنَّمْلِ لغةً تتخاطب بها، عَلَىٰ مقدار ما وهَبَها من قُدْرَاتِ إدْراكٍ وتعْبِير فيما بَيْنها.

ومن العاملات في مملكة النَّمْل جُنْدِيّاتُ دفاعٍ وقتال وإنْذارٍ وتحْذِير، على ما ذكر علماء الحيوان.

ويظهر أنّ جُنْدِيَّةً قائِدةً مِن النّمل، هيَ الّتي وجَّهَتِ التحذير للنَّمْلِ المنْتَشر في الوادي خارجَ المساكن لجلْب الأرْزاق، وقد دَلَّ على معناه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لقد شاهدت هٰذه الجنديَّةُ القائدة طلائع جَيْشٍ قادمٍ يُريد أَنْ يَعْبُرَ الوادي، فأدْرَكَتْ أنّ عُبُورَه فيه سيَجْعَلُ أَرْجُلَ بَشَرِه، وبهائمه، وعجلات عَرَباتِهِ، تَدُوسُ أفراد أُمَّتِها من غير قَصْدٍ لقتلهم، فيَتَحطَّمْن قتيلَاتٍ، إذْ هُنَ منتشرات كادّاتٌ لجلْبِ الأرْزاق، فأبلَغَتْهُم بلُغَتها قائِلَةً: ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم حمايةً لكم من تَحْطِيمِ أفْرادِ الجيشِ لكم دون قَصْدٍ منهم لِقَتْلِكم.

معاني الخوف من القتل ممّا تُدْرِكه الحيوانات كُلُّها كبارُها وصغَارُها، لذلك فهي تحمي نفسها منه، وأُمَم الحيوانات ذاتِ النظام الاجتماعي قد آتاها الله عزَّ وجلَّ ما تُدْرِكُ به من العلاقات الاجتماعية ما يتّصِلُ برزقها، وأمْنِها، وتزاوجها، والعناية بصغارها، ونظام جماعتها، وضروريات حياتها، ومَا تتفاهم به فيما بَيْنها.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾: أي: نَادَتْ جماعاتِ النَّمْل بأقْصَىٰ ما استطاعت من نداء.

• ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: معنىٰ الدُّخول والخروج والانتقال من مكان إلى مكان ممَّا تُدْرِكُهُ الحيوانات، فهي تُعبِّر عنه بحَسَب لغتها مع أفراد أمَّتِها.

• ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾: ومعنى المساكن والبيوتِ ممَّا تُدْرِكهُ بفِطْرَتِها، لذلِكَ فهي تتخِذُ لنَفْسِهَا مسَاكِنَ تأوِي إليها، وتتفاهم فيما بَينها عليها.

• ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: أصْلُ الحطْم الكَسْرُ على أيّ وجْهٍ، دون عناية بالمكسور ولا اكتراث له، ولا التفاتٍ إلى أيّ شأْنٍ من شُؤُونه.

معنى تكسير الشيء، وقتل الحيّ، وتمزيقِ أوصاله، ممّا تُدْركه الحيوانات، وتتفاهَمُ فيما بيْنَها عليْه، ويَدُلُّ على هذا سُلُوكُها مع أعدائها من الحيوانات، إذْ هي تتخلَّصُ منْهُمْ بإماتتِهم وتمزيق أوصالهم، وجاءت العبارة مؤكّدَة للدّلالة على معنى التأكيد في قولها بمنطقِ النَّمْل.

• ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: إنْ كانت النَّملَةُ قَدْ سمَّتْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السلام فهذا قدْ يكُونُ بوَحْيٍ من اللّهِ إلَيْها. ويَحْتَمِلُ أَنْ تكون العبارة شَرْحاً رَبَّانيًّا لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهم قولُها، إذْ يكونُ معنَىٰ قولِها: لا يَحْطِمنَّكم جيشٌ قادم سيَعْبُرُ وادِيَكم وأبان الله أنّ الجيش يتكوَّن من سليمان وجُنُوده، إذ هو واقع الحال.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: إنْ كانَ هَذا مِنْ قَوْلِ النَّمْلَة على مَا هُوَ ظاهر البيان، فَهُو تابعٌ لما أَوْحَىٰ اللَّهُ به إليها على احتمال كوْن ذِكْرِ سُليمان وجُنْدِه من قولها.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يكُونَ بياناً تَابعاً للشَّرْحِ الرَّبَّاني السَّابقِ، وفيه بَيَانُ عُذْرِ سليمان وجُنْدِه إذا مَرُّوا وحَطَّمُوا النَّمْلَ المنْتَشِر في الوادي.

الشُّعُورُ بالشيء: العلم به، ولوْ من أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الإحْسَاس به، وهو أوّل مراحل إدْراكه. وقد يكون في اللّغةِ مأخُوذاً من الشيء يلامسُ الشَّعَر، فَيُحِسُّ به الإنسانُ إحساناً خفيفاً، ثمّ انْتَقَلَ إلى الإدْراكاتِ الفكريَّة الأولىٰ الخفيفة.

قول الله تعالى:

• ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

لم يَقُلْ سُلَيْمانُ عليه السلام في خطبته الّتي سبَقَ شَرْح قضاياها: أُوتِينا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وغَيْرِها من الحيواناتِ، بل اقتصر على «مَنْطِق الطَّيْر».

واتجهَتْ آراء المفُسِّرين إلى أنَّهُ سَمِع قولَ النَّمْلَةِ وفَهِمَ مَنْطِقَها، ولكنّ النَّصَّ ليس بصريح في هذا، بلْ يُمْكِنْ حَمْلُه على أنَّ الوحِيَ أبْلَغَهُ قَوْلَها، فَتَبَسَّمَ ضاحكاً مِنه، فالعبارة على تقدير: فعلم عن طريق الوحي قولها فتبسَّمَ.

الضَّحِكُ: هُوَ في اللُّغَةِ انْفِراجُ الشَّفَتَيْنِ عمَّا في داخِلِ الْفَم، ولَهُ درجاتٌ بَعْضُها أشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ يكُونُ مصحوباً بصوت خَفِيفٍ أو شديد، ويثير الضَّحك سرورٌ أو إعجاب، أو اسْتهزاء وسخرية أو غير ذلك.

التَّبَسُّم: من دَرَجَاتِ الضَّحِكِ الخفِيفَةِ، الّذي لا يكون مصحوباً بصَوْت، وهُوَ من آدابِ الكُبَراء الْعُقَلاءِ الرّازِنين، الّذين لا تَسْتَخِفُّهُمْ السّارّات والمعجبات، بل يعبِّرون عن سُرورهم وإعجابهم بالتّبسُّم.

ولهذا ثبت في شمائل الرسُولِ محمد ﷺ أنَّ ضَحِكَهُ قد كانَ تَبسُّماً، فهو لَا يكون مصحوباً بصَوْتِ قهقهةٍ ولو كان خفيفاً.

وأبان هذا النّص أنَّ سليمان عليه السلام ضَحِكَ من دَرَجَةِ التَّبَسُّم، فلم يكن ضَحِكُهُ مصحوباً بِصَوْتِ قَهْقَهة.

ولمّا كان انفراج الشَّفتين عما في دَاخِلِ الْفَم قَدْ لا يكون تَبَسُّماً من ضَحِكِ مسَرَّةٍ أو إعجاب، جاءت كَلِمةُ «ضَاحِكاً» قيداً لازماً، فَهِيَ «حالٌ» كاشفَةٌ للمراد بالتبسُّم، أي: هو تَبَسُّمٌ من الضَّحِك.

﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي: ممَّا دَلَّ عَلَيْه قَوْلُها، فقد دَلَّ على إدْراكها لما

يمكن أن يفعلَه جيشه، وعَلَىٰ حِرْصِها على أُمَّتِها، وتَحذِيرِها أفرادَها، ودلَّ على قُدْرَةِ اللَّهِ إِذْ منَح حَشَرَةَ النَّمْلِ إدْراكاً وبَيَاناً ومشاعر جماعيَّة، واهْتِمَاماً بأَدَاءِ الواجب الاجتماعي لأُمَّتها.

وذكَّرَهُ هذا الحدَثُ بما أنعم الله به عليه وعلىٰ والِدَيْه، فَدعَا رَبَّه، بَعْدَ أنْ أثنىٰ عليه حامداً بما هو له أهلٌ من المحامد، دَلَّ على الحمْدِ المطويّ في النصِّ، أنّ من أدب الدُّعاء البدء بالثناء على الله وحمده، فالواو تعطف على محذوف في:

﴿وَقَالَ﴾: أي فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وقَالَ دَاعياً:

﴿.. رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

اشتمل هذا الدُّعاء عَلَىٰ ثلاثةِ مطالِبَ، بَعْد أنْ نَادَىٰ رَبَّهُ من دون أداةِ نداءٍ مَذْكُورة، إشعاراً بأنَّ رَبَّهُ أقْرَبُ إلى قَلْبِهِ من حَبْلِ الوريد، قائلاً ﴿رَبِّ﴾: أي: يَا مَنْ تتصَرَّفُ بِي بصِفاتِ رُبُوبِيَّتِكَ، وفي العبارَةِ حذْفُ ياء المتكلم أيضاً للإيجاز، ولعلم المؤمن بقرب ربّه منه.

فَالمطلَبُ الأول: دلّ علَيْهِ قول الله عزّ وجل حكاية عنه: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾:

أي: أَلْهِمْنِي، وأغْرِنِي، وحرِّكْ دوافعي واجْمَع نَفْسِي وقَلْبِي وإِرَادَاتي لأنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الّتي أنعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيّ.

دلَّ هٰذا علَىٰ أنّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ علَىٰ الْعَبْدِ مَا أنعَمَ به على والِدَيْه، لِأَنَّ هذِه النِّعَمَ تَجْرِي آثارُهَا إِلَىٰ الْوَلَد، فَمِنَ التَّقْوَىٰ أو مِنَ البرِّ وَالإِحْسَانِ أنْ يَشكُرَ الْوَلَدُ لِربِّهِ علَيْهَا. ودَلَّ أيضاً عَلَىٰ أنّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَقُومُ به الْوَلَدُ عِنْ وَالِدَيْهِ يَنْفَعُهما عِنْدَ اللَّهِ إذا كانا مؤمنين، ويُسَجَّلُ لَهُما فِي صَحَائِفِهما، لأنّه من كَسْبِهِمَا.

وقد جاءَ في النُّصُوصِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحة ما يَدُلُّ على هَذَا، فَهُو من فَضْلِ الله علىٰ عِبَادِهِ في الدِّينِ الّذي اصطفاه لهم.

الشُّكر مقابلَة إنْعام المنْعِم بمَا يُرْضِيهِ من فِعْلٍ أو تَرْك، أو أيّ شيءٍ ماديّ يسُرُّه، وقَدْ يشْمَلُ القولَ الذي فيه مَا يُرْضي المنعم، إلّا أنَّ بَعْض القولِ يختصُّ بعنوان الحْمدِ والثناء.

﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ يقال: أوْزَعَهُ إيَّاه، أي: ألهمه إيّاه، وأغْراه به، وأولَعه به، أمّا «وَزَعَهُ» فمعْنَاه كَفَّهُ ومنعَهُ وحَبَسَه، ومنه «الْوَزَعَةُ» جمع «وازع» الذي يكفُّ ويمنع الجند عن الخروج عن الصّف و«الْوَزَعة» الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

﴿نِعْمَتَكَ﴾: أي: عَطَاياك النَّافِعَة والسّارَة الّتي أنْعمْتَ بِها مُتَفَضّلاً عليَّ وعلَىٰ وَالِدَيّ.

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾: أي: وعلَىٰ أبي «داود»، وعلى أُمّي، وهِيَ «بَتْشبع» بنت «أليِقَام» الّتي كانت زَوْجَةَ «أُورِيَا» الحِثِّي، أحَدِ قوّادِ دَاوُد علَيْه السلام.

ونِعَمُ الله عزّ وجَلَّ على دَاوُد كثيرَةٌ جاء بيان بعْضِها في قصَّتِه، التي سبَق ذكْرُها لدى تدبّر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول).

والمطلبُ الثاني: دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وَأَلْهِمْنِي أَنْ أعْمَلَ عَمَلاً صَالحاً تَرْضَاهُ مِنِّي، وتَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي. وأغْرِني بِهِ، واجْعَلْنِي مُولَعاً بالْقِيَام به، وبأدائِه.

الْعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ كُلُّ عَمْلٍ نَافِعٍ مُفِيدٍ خالٍ من الفَسَاد، يَجْلُبُ خيْراً عاجلاً أو آجلاً، دُنيوِيّاً أو أخْرَوِيّا، وأفضل الْعَمَلِ الصالح طَاعَةُ الله عزّ وجلّ فيما أمَر به أوْ نَهىٰ عنه.

وقيَّدَ سُلَيْمَانُ عليه السَّلام الْعَمَلَ الصَّالِحَ بقَيْدِ ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ في دُعائِهِ رَبَّه، احْتِرَاساً من الْوُقُوعِ فِي تَصوُّرَاتٍ خاطِئَاتٍ يَرىٰ بِهَا أنَّ الْعَمَلَ الّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، لكِنَّهُ في حَقِيقَةِ الأمْرِ عَمَلٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، لمَا فِيه من فَسَادٍ يَخْفَىٰ على الْعِبَادِ وَلَوْ كَانُوا أنبياء.

يقال لغة: «رَضِيَ الشيْءَ، ورَضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، ورَضِي عَلَيْهِ، يَرْضَى، رِضاً، ورِضاءً، ورِضْواناً، ومَرْضَاةً» أي: قَبِلَهُ، ووَافَقَ مُرَادَهُ، أوْ جَعَلَ لَهُ عِنْدَهُ مَكَانَةً وحُظْوَةً حتَّى رَضِيَ عَنْه..

واسْمُ الفاعِلِ «رَاضٍ» واسْمُ المفْعُولِ «مَرْضِيٌّ».

لفظ ﴿صَٰلِحًا﴾ وصْفٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديُره: «عَملاً» وهو حذْفٌ مألوفٌ وحَسَنٌ للإيجاز.

والمطلَبُ الثالث: دلّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن سليمانَ علَيْهِ السَّلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

أي: واجْعَلْنِي بقَدَرِكَ وقَضائِكَ النَّاتِجَيْنِ عَنْ رَحْمَتِكَ داخِلاً في سِجِلِّ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ دَخَلَ اسْمُهُ فِي سجِلِّ عبادِكَ الصَّالِحِين، دخَلَتْ ذاتُه يَوْمَ الدِّين في زُمْرَةِ عِبادةِ الله الصَّالِحين، في الحشْرِ وفي الدَّرَجاتِ الْعَاليات في جنَّاتِ النعيم.

جاء لفظ «الصَّالِحين» في القرآن وصْفاً للمرسَلِينَ وللأنبياء، وللمؤمنين الذي يأمُرُونَ بالمعروف ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ويُسَارِعُونَ في الخيرات. وأدْخَلَ الله عزّ وجلّ في الصَّالحِينَ الأوَّابِينَ الّذِينَ إذا فَعَلُوا بْعضَ المعاصِي والْمُخَالَفَاتِ رَجَعُوا إلى رَبّهم بالتوبَةِ والاستغفار على وجْهِ السُّرْعَة، ولو تكرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُم.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في متابعة الحديث عن سُلَيمان عليه السلام:

• ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات السّبع بيان لقَطاتٍ منْ فَصْلٍ ذي شأنٍ مِنْ فُصُول تاريخ سليمان عليه السلام، في إدارته لمُلْكِه الشّامِلِ للْجِنّ والإنْسِ والطّيْر، وهو فَصْلٌ يَدُلُّ على عناية سُلَيْمان الشديدة بنَشْر دينِ اللّهِ الحقّ في النّاس، ما وجَدَ إلى ذٰلِكَ سبيلاً.

هٰذِهِ اللّقَطات تَتعلّقُ بتفقُّدِهِ لجُنْدِهِ من الطّيْر، فلَمْ يَجِدْ بَيْنَ جُنْدِهِ منها «الْهُدْهُد» ويظْهَر أنّ المراد قائِدُ الطُيورِ مِنْ نوع الطائِر الذي يُسَمّىٰ «هُدْهُداً» ورُبَّما كان مَعَهُ جماعة من الهداهد الّتي قد ترافقه في حِلّهِ وتَرْحالِه.

وهذا الطائر كان يجب عَلَيْهِ أَنْ يكون حاضراً حينَ تفقَّدَ سُلَيْمانُ عَلَيْه السّلام جُنْدَه، ومنهم جنودُه من الطَّير.

فلَمّا رأى الْهُدْهُدَ غائباً عن الحضور الواجب عليه، قَال مخاطباً قَادَة جُنْدِهِ: مَالِي لَا أرَىٰ الْهُدْهد، هَلْ هو حاضِرٌ إلّا أنّني لم أرَهُ، أمْ كَانَ غائباً من الغائبين عن الحضُور الواجب، فإنْ كانَ غائباً فَلأُعَاقِبَنّهُ على مَعْصِيَتِهِ بعذاب شديدٍ، أو بذَبْحِه، إلّا أَنْ يُقَدّمَ حُجّةً واضِحَةً علَىٰ عُذْرِهِ في الغياب عن الحضور الواجب.

ولمّا عَلِمَ الْهُدْهُدُ غَضَبَ سُلَيْمانَ منه، إذْ غَابَ مِنْ غَير أنْ يُعْطيه إذْناً، أَسْرَعَ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَلِك، فنظر إليه سُلَيْمانُ نظر الْغَاضِب، فَقَالَ: أحَطْتُ علماً بأمْرٍ عظيم لَمْ تُحِطْ بِهِ أنْتَ، وقَصَّ عليه قصَّةَ «بِلْقِيس» مَلِكَة سَبأ، وعبادَتِها مع قَوْمِها للشّمسِ من دُون الله.

الْهُدْهُد: ذكر علماءُ الحيوانِ أنّ الهُدْهُد طائرٌ أصفر ورديّ اللَّوْن، لَهُ تاجٌ رائعٌ من الرّيش على رأسه، وله خُطوط سوداءٌ وبيضاء على جناحَيْه وذيْلِه، وهو يعيش في الأقاليم الأكْثَر دفئاً في أوروبًا وآسيا وأفريقية.

وطيورُ الْهُدْهد تبني أعشاشها في جحور الأشجار والجذْران والصخور، وتضع الأنثى ما بين (٥ ـ ٧) بيضات، ويُطْعم الذكرُ الأنْثىٰ عندما تحضن بيضَها، وهي تأكُلُ الحشرات، وتقضي أوقَاتاً كثيرة على الأرضِ باحثَةً عن غِذائها.

وذكر المفسّرون أن الله عزّ وجلّ فَطَر طُيور الْهُدْهد على مَعْرِفَةِ مواقع وجود الماء في باطِنِ الأرْضِ، فإذا رَفْرَفَ على موضعٍ عُلِمَ أنّ به ماءً، ولعَلَّ هذا من أسْبَابِ اتّخاذِ سلَيْمان لطيُور الْهُدْهُد ضمْن جنُودِه من الطير.

التدبّر التحليلي:

• ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾: أي: وطَافَ سليمانُ في إحدىٰ مُهِمَّاتِه في جُنْدِه يَتَفَقَّدُ فَصَائلَ الطيور الّتي جَنَّدَها لجيْشِه.

تفقّدَ: أي: مشَىٰ يَنْظُرُ ليَعْلَمَ المفْقُودَ الغائبَ عَنِ الحضور الواجب ضمْنَ جُنْدِه من الطَّيْر.

• ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: فَلَم يَرَ قائِدَ طُيورِ الْهُدْهد، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ قرأ ٱبْن كثير، وهِشام، وعاصم، والكسائي بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القرّاء العشرة

بإسكانها، والمعنىٰ: ما الأمْر الذي حصَلَ لي حالَةَ كَوْني لا أرَىٰ الْهُدْهُد، هَلْ هو حاضِرٌ إلَّا أنَّني لَمْ أرَه بيْنَ الطّيُور ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآبِبِينَ﴾ الّذِينَ غَابُوا عن الحضُور الواجِبِ، ففِي الْعِبَارَةِ مَطْويٌ يَسْهُل استخراجُه ممّا يقتضيه التَّرْدِيدُ بحَرْف الْعَطف «أمْ» بَيْنَ احتمالَين، وقد ذكرْتُ ما يَدُلُّ عليه.

• ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾: وقرأ ابْن كثير ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنَّني﴾ بإثبات نون الوقاية، إثباتُها وحَذْفُها وجْهَانِ جائزانِ في العربيّة.

دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أنّ سُلَيْمَان عليه السَّلام تَوَعَّد الْهُدْهُدَ بإحْدىٰ عُقُوبتَيْن، عُقُوبَةِ العذاب الشديد المؤلم، أَوِ الذَّبْح، ويُعْفِيهِ منهما أنْ يُقَدِّم حُجَّةً وَاضِحَةً تُبيِّنُ عُذْرَه في غيابه.

أي: فَلما عَلِمَ سُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلامُ أنَّ الْهُدْهُدَ غائب أعْلَنَ تَوَعُّدَه الّذي لا يُعْفِيه مِنْهُ إلَّا عُذْرٌ مَقْبُول.

العَذَاب: الْعِقَابُ المؤلم.

السُّلْطانُ الْمبِين: الحجَّةُ الواضِحة، وهذا أَحَدُ مَعَاني السُّلْطان.

اللّام في الْأَفْعَالِ الثّلاثَةِ واقِعَةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَنْوِيّ، فَدَلَّ على أنّ سليمان عليه السّلام قَدْ غَضِبَ من غياب الْهُدْهُدِ فأقْسَمَ مُتَوَعِّداً. وهذه اللام الواقعة في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ يَجِبُ في العربيَّةِ تأكيد الْفِعْلِ المضارع بَعْدَها بِنُونِ التوكيد.

وقد جَعَلَ العقوبَةَ على الغِيابِ الّذِي لَا عُذْرَ لِلْهُدْهُدِ فِيه عَلَىٰ فَرْضِ تحقُّقِهِ، مُتَرَدِّداً بَيْنَ الْعَذَاب الشَّدِيد والذَّبْح، ثم هُو يخْتَار عنْدَ التنفيذ مَا يَراهُ الأفْضَل والأحْكَمَ ليَكُونَ مَوْعِظَةً لسائِرِ الجنْد، وتأديباً وتَرْبيَةً لهم.

• ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ مكث: فيها قراءتان بفتح الكاف وضمها من باب نَصر، وباب كَرُم.

أي: فبَلَغَ الْهُدْهُدَ أَنَّ سُلَيْمانَ عليه السَّلام تفقَّدَ الطَّيْرَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فأعْلَنَ تَوَعُّدَهُ لَهُ بالتعْذِيب أو الذّبح، مَا لَمْ يأت بسُلْطَانٍ مُبين يُقَدِّمُ فيه عُذره الواضح المقبول، فأسْرَع قادماً فحطّ فمكث مكاناً غير بَعيدٍ عن مكان سُلَيْمان.

مَكَث: أي: لَزِم مكانَه مُتمهِّلاً مُنْتَظراً. غَيْرَ بَعِيدٍ: أي: وغَيْرَ قَرِيب فهو وسَطٌ بَيْنَهما.

وبعد أَنْ عَلِم سليمان بحضورِه سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَغَيُّبه بِحَسَبِ مَنْطِقِهِ الْهُدْهُدِيِّ، فَقَالَ الْهُدْهُدْ كلاماً دَلَّ على مَعْنَاهُ قول الله تعالى:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

أي: عَلِمْتُ بأمرٍ على وَجْهِ الْإحَاطَةِ بهِ لَمْ تُحِطْ أَنْتَ بِهِ، وجئْتُكَ من أرْضِ سَبَأٍ في الْيمنَ بِنبَأٍ يَقِينٍ.

أصْلُ الإحَاطَةِ بالشّيء الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الْقَبْضِ عليْهِ مِنْ كلّ جِهَاتِه، يقالُ: أحَاطَ الجَيْشُ بالْبَلَدِ، أي: صَارَ مِثْلَ السّوَارِ حَوْلَ كُلِّ بُنْيَانِها، واسْتُعمِلت الإحاطَةُ بمَعْنَىٰ الْعِلْم بالشيءِ عِلماً شامِلاً كُلَّ نواحِيهِ وجوانبه. يُقَالُ: أحَاطَ بالشيءِ أَوْ بالأمْرِ عِلْماً، أي: أدْرَكَهُ على وجْهِ الإحاطة.

سَبَأ: أَرضٌ بالْيَمَن، حَاضِرَتُها مَدِينَةُ «مَأْرِب» وكانت تَمْلِكُ السَّبَئِيِّين في عَهْدِ «سليمان» عليه السلام «بِلْقِيس» بيت شرحبيل، وكانُوا يعبُدونَ الشَّمْسَ من دُون الله.

﴿بِنَبَإٍ﴾: أي: بخَبَرٍ بارزٍ يُثِيرُ الاهتمام. النَّبأ: الخبر ذو الشأن الخطير.

﴿يَقِينٍ﴾: أي: حقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، يَسْتَنِدُ إلى إدْرَاكٍ حِسِّي.

ولا يَخْفىٰ ما في عبارة: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ منْ جِناسٍ ناقِصٍ مع تطابُقِ الحركات بين «سَبأ» و«نَبأ» ووقع النُّطْق على السَّمْع وقعاً مُسْتحبًّا.

وبَدَتْ على وَجْهِ سُلَيمانَ فيما يظهر علامَةُ الاستفهام عن النبأ، فقال الْهُدْهد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

لم يَصِلْ عِلْمُ الْبَشَرِ حتّىٰ عَصْرِنا إلى أنّ الطيّور أو نوعاً مِنْها لَدَيْها الْقُدْرةُ على إدْراكِ مثْلِ هٰذِهِ الْقَضايا الّتي عبَّر عَنْها الْهُدْهُد بمَنْطِقِهِ الْهُدْهُدِيّ، فإذَا لَمْ يكُنْ مِنْ فِطْرَةِ طَيْرِ الْهُدْهُد إدْراكُ مِثْلِ هٰذِهِ القضايَا، فَإنَّ هُدْهُدَ سليمان عليه السلام قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَدَيْهِ هٰذِهِ الْقُدْرَة، وخَلَقَها فيه، إكراماً لِعَبْدِهِ ورَسُولِهِ سليمان، واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِير، فقَدْ وَهَبَ اللَّهُ سُلَيْمَان الْقُدْرَةَ الخاصَّة علَىٰ إخْضَاع الجِنِّ والطَّيْرِ لسُلْطانهِ بِقُوىً خَفِيَّةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ للنَّاس، إنَّما تُعْرَفُ بآثارِها.

وقَد اشْتَملَ بَيَانُ الْهُدْهُدِ هٰذا علىٰ ذِكْرِ أرْبع قَضَايا:

القضية الأولَىٰ: دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عن الْهُدْهُد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: أي: إنِّي وجَدْتُ أَهْلَ سَبأُ يخْضعُونَ لسُلْطَانِ امرأةٍ مَلِكَةٍ عَلَيْهِم.

القضيَّةُ الثانية: دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عنه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وآتَاهَا اللَّهُ عزّ وجَلَّ هِبَاتٍ من كلِّ شَيْءٍ تُؤْتَاهُ الْمُلُوكُ

عَادَةً، مِنْ مَالٍ وقُصُورٍ وخَدَمٍ وَعَبِيدٍ وجُنُودٍ وأثاثٍ وقُوىً وَغَيْرِ ذلك.

القضيّة الثالثة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: أي: ولَـهَا سَرِيرُ مُلْكٍ أوْ كُرْسِيُّ مُلْكٍ عَظيم، وصَفَهُ بالعظمة لنَفاسَتِه، وضَخَامَةِ هَيْكَلِه، وترصِيعِهِ بنَفَائِسِ الجواهر الكريمة.

عَرْش الْمَلِك: سَرِيرُه، أو كُرْسِيُّهُ.

القضية الرابعة: دلّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً عَنْه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مُشْرِكِين يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَيَسْجُدُونَ لَها، مُتَّخِذِينَ إِيَّاها إِلَهاً من دُونِ اللَّهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿.. وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾:

وقرأ الكسائي، وأبو جَعْفر، ورُويس: **[أَلاَ يَسْجُدوا]** بفتح اللّام دون تشديد.

وقرأ غير الكسائي، وحَفْص: **[ما يخفون وما يعلنون]** بياء الغائبين.

تمهيد:

هٰذه الآيات بيانٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، جَاءَ مَوصُولاً بحكايَةِ قَوْل الْهُدْهُد، للإشعار بصِدْقِ مَا قَالَهُ الْهُدْهُدُ لسليمان عليه السلام.

وهذا الأسلوبُ قَدْ تكرَّرَ في القرآن المجيد، وفيه الاستغْنَاءُ بعَطْفِ نَصِّ الْبَيَان الصَّادِرِ عَنِ اللَّهِ، على الْقَوْلِ المحكيِّ عَنْ غَيْره، للدّلَالَةِ على تَصْدِيقِه، حتَّىٰ كأنّ الْقَوْلَ المحْكِيَّ هو بيانٌ صَادِرٌ عن اللَّهِ عزّ وجلَّ أيْضاً.

وهٰذهِ الآياتُ قَدْ تَضَمَّنَتْ بَيانَ سَبَبِ ضَلَالِ عُبّادِ الشَّمْس من أَهْلِ سَبَأ في ذلِكَ الزَّمان، وهٰذا يَنْسَحِبُ علَىٰ كلّ من يَعْبُدون شيئاً من دُون الله، وبَياناً لما يَجِبُ علَىٰ كلّ مَنْ وضَعَهمُ الله جلّ جلالُه في الحياة الأُولَىٰ مَوْضِعَ الامتحان من عبادة اللَّهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وإشارةً بالتحذير من عقابِه إذْ هو يَعْلَمُ عَزَّ سُلْطانُه وأحَاطَ عِلْمه بكلِّ شيء ـ مَا يُخْفِي عبادُه وما يُعْلِنُون.

التدبّر التحليليّ:

• ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: وزَيَّنَ الشَّيْطانُ لأَهْلِ سَبأ أيّامَ «بِلْقيس» أعمالَهُمْ بَدْأً من الشِّرْك بعبادة الشَّمْس، وانْطِلَاقاً إلى كُلِّ لَوَازِمِ الشِّرْك من أعْمالٍ كُفْرِيَّة، وأعْمالٍ سيِّئَةٍ فيها فِسْقٌ وفُجُور، وظُلْمٌ وعُدْوان، وبَغْيٌ وطُغْيَان.

التزيين: التَّحْسِينُ والتجميل، ويكونُ بِجَعْل الشيءَ ملائماً لما تَسْتَحْسِنُه النفوس، أو تَشتَهِيه أو تُحِبه. ويكون بالإغراءِ بحُسْنِ الشيء، والتحبيب به، وإثارَةِ النفس للتعلّق به، بالوساوس والتَّسْويلات القائمات على الإطماع بالباطل، وهذا من فعل شياطين الإنس والجن.

• ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: فَصَرَفَهم ومنَعَهُمُ الشيطان بما زيّن لهم عن سلوك سبيل الله الحقّ المسْتَقِيم، وبانصرافهم عنه تاهوا في السُّبل.

الصَّدّ: يأتي لَازِماً ومُتَعَدِّياً، فاللّازِمُ يأتي بمعْنَى الإعراض عن الشَّيْء والانْصَرافِ عنه. والمتَعدِّي يأتي بمعْنَىٰ الصَّرْفِ والمنْعِ، وهٰذا المعنى هو الملائم هُنَا.

لفظ «السَّبيل» مُفْرَداً معَرَّفاً يُرادُ بِه في القرآنِ صراطُ اللهِ المستقيم[١].

• ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾: أي: وبما أَنَّهُمْ صُرِفوا وأُبْعِدُوا عِنِ السَّبيلِ،

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة (الفاتحة).

وتاهُوا في متفرقاتِ السُّبُلِ الّتي تُفْضِي بِهِم إلى المهالِك، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بأنفسهم إلى السّبِيل الحقّ الّذي يُؤدّي بسالكيه إلى خَيْرِ دُنياهم، وسعادة آخِرَتِهم.

• ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾: أي: فصَدَّهُمُ الشيطانُ عنِ السبيل لئلَّا يَسْجُدُوا لله طاعةً لَه وَإِفْراداً له بالعبادة، وليكونُوا مثْلَ إبْليس الّذي أبَىٰ أن يَسْجُدَ لآدمَ طاعَةً لأمْرِ الله لَهُ بالسُّجود.

والمعنى على قراءة: [أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ] بتخفيف اللّام هو على أنَّ «أَلَا» أدَاةُ تَنْبِيهٍ واسْتِفْتَاح، والْيَاءُ أدَاةُ نداء حُذِفَت منها الألف وَوُصِلَت في الكتابَةِ بسِين «اسْجُدوا» والمنادَىٰ محذوفٌ تَقْدِيره كلمة «هٰؤلَاءِ» أو نحوها، وله نظائر في كلام العرب، ومنه قول ذي الرّمة:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَىٰ الْبِلَىٰ   وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَاتِكِ الْقَطْرُ

أي: أَلَا يَا هٰذِه اسْلَمِي، كَمَا ذكر النُّحاة.

وعلى هذا تكونُ العبارَةُ خطاباً للناس، وتكليفاً لهم بأن يَسْجُدوا لله، ويَكُونُ بيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في تأْديَةِ المعْنَيَيْنِ المرادَين.

• ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الْخَبْءُ: السَّتْر، مَصْدَرُ «خَبأَ الشيْءَ يَخْبَؤُهُ خَبْأً» أي: سَتَرَه.

والْخَبْءُ: مَا خُبِّئَ، أي: سُتِرَ، سُمِّيَ بالمصْدَرِ، وهذا المعنَىٰ هو الملائِمُ هُنَا.

ومن إخراج ما خُبِّئَ في السَّمَاوَاتِ إنْزَالُ المطَرِ، وتمكِينُ النَّاسِ من اكتشاف ما في الكواكب والنجوم.

ومِنْ إخَراجِ ما خُبِّئَ في الأرْضِ إنْبَاتُ النَّبَاتِ، وإخْرَاجُ النِّفط والمعَادِنِ والحجارَةِ الكريمة من بَاطِنَها، وإخراجُ ما في أعْمَاقِها بالبراكين،

وتَمْكِينُ الناسِ مِنْ حَفْرِ طَبَقَاتِ الأرضِ، لاسْتِخراجِ ما في باطِنِها مما لهم بِهِ منافع ومصالح وزينات.

فدَلَّت هذه العبارة عَلَىٰ المخبَّآتِ في السَّمَاوَاتِ والأرْضِ الّتي هي مِنْ آياتِ اللَّهِ في كَوْنه.

• ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ خطاباً للنّاسِ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

وفي القراءة الأُخرىٰ: [**ويَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنون**] حَدِيثاً عن الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِع الامتحان.

وبيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، ليَشْمَلَ البيانُ مَنْ يَتَلَقَّاهُ ومَنْ يُعْرِضُ عنه.

• ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾: أي: الله خـالِـقُ كلِّ شيءٍ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ.

وبمناسِبَةِ ذِكْرِ عَرْشِ بِلْقِيس، وَوَصْفِ الْهُدْهُدِ لَهُ بأنَّه عَرْشٌ عظيم، وجَّهَ النّصُّ هُنَا لِأَنَّ اللهَ الّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، هُو رَبّ العرش العظيم، الّذي هو أكْبَرُ من السَّمَاواتِ والأرض، والَّذِي يُلائِمُ تكوينُهُ عظَمَةَ الرَّبِّ العظيم، الذي هو أكْبَرُ مِنْ كَلِّ كبير.

عَرْش الرحمن: هو الْفَلَكُ الأعْظم المحيط بالْعَوَالِمِ الْعُلْيا.

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ

تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

تمهيد:

في هٰذه الآيات بَيانُ فَصْلٍ مِنْ فُصُول قَصَّةِ سليمان علَيْه السَّلام مع بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبأ، إذْ حَمَلَ الْهُدْهُدُ كِتَابَ سُلَيْمَان إليها. فطار به وألْقَاهُ في مجْلِسِ الملِكَة ومَلَؤُها حَوْلَها، فأخَذتْهُ وقَرأتْهُ علَيْهِم، وطَلَبَتْ مِنْهُم أَنْ يُشِيروا عَلَيْها، فأَبَانُوا لَها قُدْرَتَهُمْ علَىٰ الحَرْب، وفَوَّضُوا الأَمْرَ إليها.

وكانت بِلْقِيسُ امْرَأَةً ذَاتَ عَقْلٍ وحِكْمَة، فلَمْ تَخْتَرْ أَنْ تُعالِجَ بالحربِ طَلَبَ «سُلَيْمَانَ» الْخُضُوعَ لَهُ والمجيءَ إليه هي وأرْكانُ مملَكتِها مستسلمين، لقد خافت من ويْلاتِ الحربِ عَلَىٰ بِلَادِها، وكانت أخْبارُ عَظَمَةِ سُلطانِ سليمان قَدْ بَلَغَتْها، واختارَتْ أنْ تُصَانِعَ سُلَيْمان بِهَدِيَّةٍ نَفِيسَةٍ جدًّا، تَتَفَادَى بها مُقارَعَةَ جَيْشِهِ بمَا لَا مُكَافِئَ لَهُ عِنْدها، ولَوْ قَالَ لَها ملَؤُها وقادَتُها: نَحْنُ أولوا قوَّةٍ وأولُوا بأسٍ شديد.

التدبّر التحليلي:

• ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: قال سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلْهُدْهُدِ: سَنَنْظُر باخْتِبارِ الْوَاقِع فيما ذَكَرْتَ عَنْ أَهْلِ سَبَأٍ ومَلِكَتِهِمْ، مُسْتَخْدِماً مَا لَدَيَّ مِنْ جُنْدٍ، فيهمْ جنٌّ يَسْتَقْصُونَ الأخبار بسُرْعَةٍ عظيمةٍ، لنَعْلَم أنا ومَلَئي بمَا يقْطَعُ الشَّكَّ فِي قولِكَ، أصَدَقْتَ فيما ذَكَرْتَ أَمْ كُنْتَ فيه من الكاذِبينَ، تَخْتَلِقُ عُذْراً لا يُطَابِقُ الواقع.

﴿أَمْ﴾ هُنَا هي المتّصلَة، والمعنى: لا يَخْلو أمْرُكَ من أحَدِ احتمالَيْن،

إمّا أنْ تكُونَ صَادقاً، وإمّا أنْ تكونَ كاذِباً، وبحْثُنَا يكْشفُ واقِع حَالِكَ في خَبَرِكَ.

ورأىٰ سُلَيْمَانُ علَيْهِ السَّلام أَنْ يَبْعَثَ مَعَ الْهُدْهُد بكتَابٍ إلى بِلْقِيس، ورِجالِ مملكَتِها وقادَةِ جيْشِهَا، مُطَالِباً إيَّاهم بالخضُوع لَهُ ولمُلْكِهِ، وَبالحضور إلَيْه طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمين، فكتَبَ الكتابَ وخَتَمَهُ وَقَال لِلْهُدْهُد:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: احْمِلْ كِتابي هٰذا، واذْهَبْ بِهِ إلَىٰ سَبَأُ حَيْثُ وَجَدْتَ الْقَوْمَ، وتَرَقَّبِ اجْتماع مَلِكَتِهِمْ بِمَلَئِهَا وَقَادَتِها، فَألْقِهِ إلَيْهِمْ وهم مجْتَمِعُونَ، وٱرْقُب اسْتِلامَ الْمَلِكَة لَهُ، وقراءَتَه على رِجَالِ مَجْلِسها، واسْتَوْثِق من الأمْر، ثُمَّ ابْتَعِدْ عَنْهم، وَرَاقِبْ عَنْ بُعْدٍ ما يكونُ منهم مِنْ أمْرٍ يَرْجعُونَهُ عَلَىٰ كِتَابِي إليهم، بحَيْثُ تكُونُ في مَكانٍ لَا يُحسُّونَ بوُجُودِكَ فيه، فإذَا عَلِمْتَ مَا هُو رَدُّ جَوابِهِمْ فَارْجِعْ إليّ وأنبِئْنِي به.

وكان الحمَامُ الزاجِلُ وسِيلَةَ نَقْل الرَّسَائل إلى المسافات البعيدة، ولا سيما بَيْنَ الملُوكِ، وفي الحروب، لكِنْ لم يَكُنْ معروفاً أنّ الْهُدْهُدَ يُسْتَخْدَم لهذا الغرض، غَيْرَ أنّ لسُلَيْمان خُصُوصِيّاتٍ لم تكُن لغيره عليه السلام.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: فارْمِهِ مِنْ عُلُوٍ إلى مَكانِ جُلُوسِ الْمَلِكَةِ مع أَعْيَانِ مَمْلكتها، مُشْعِراً بأنَّ الكِتَابَ مُرْسَلٌ إلىٰ الْمَلِكَةِ، وأصْحَاب الْحَلِّ والْعَقْدِ في مملكتها، ويكُونُ هٰذا بإلقائِه على عَرْشِها أو قَرِيباً منه. دلَّت علىٰ هٰذَا عِبَارة ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ولو كان الْمُرَادُ خُصُوصَ الملِكَة لكانت العبارة: فألْقِهِ إلَيْها. في [إلَيْهم] قراءتان كسر الهاء وضَمُّها.

وَدَلَّ حَرْفُ الْعطف في: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ علَىٰ تكليفه أَنْ يَنْتَظِر مُتَرَقّباً حَتَّىٰ يَرَىٰ أَنَّ الملِكَةَ قَدِ اسْتَلَمَتِ الكتابَ وقرأتْهُ على أهل مَجْلِسِها، من الوزراء والقادة. ﴿تَوَلَّ﴾: أي: ابْتَعِدْ.

فالمعنى: وَبَعْدَ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ المِلِكَةَ تَسَلَّمَتِ الكِتَابَ وقرأته، تَوَلَّ مُبْتَعِداً عن الْمَجْلِس ابْتعَاداً يُخْفِيكَ عن جُلَسائه، عَلَىٰ أنْ تبقَىٰ مُراقِباً مُنْتَظِراً، حتَّىٰ تَعْلَمَ مَاذَا يَرْجِعُونَ، بدَليل:

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أي: فاعْلَمْ مَا الَّذِي يَرْجِعُونَهُ مِنْ رَأي أَوْ تَدْبِيرٍ علىٰ مَا جَاءَ في كتابِي إليهم؟.

يُقَالُ لُغَةً: «رَجَعَ فُلَانٌ فُلَاناً، ورَجَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: رَدَّه، وأعَادَهُ، والمرادُ هنا إصْدَارُ الْقَرَار الّذِي يَرُدُّونَ به كتابَهُ إليهم، إذْ هو بمثابَةِ رجْعِ الكِتَابِ مَقْرُوناً بالجواب، كالصَّدَىٰ الذي هو رجْعُ الصَّوْتِ. فَلِكُلِّ فِعْلٍ رَدٌّ فِعْلٍ هُو رَجْعٌ لَه.

والمرادُ بالنَّظَر اسْتِعْمالُ ما يُؤَدّي إلى الْعِلْم من أَدواتِ حِسٍّ وفَهْمٍ.

• ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

- ياء المتكلم مِنْ: [إِنّي] فيها قراءتان الإسكان والفتح.

- وقرأ يعقوب: [تشهدوني] بإثبات ياء المتكلّم.

• ﴿قَالَتْ﴾: أي: المِلِكَةُ «بِلْقِيس».

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾:

دلَّت عبارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ على أنَّها رفَعَتْ صَوْتَها منادِيَةً باهْتِمَامٍ بالغ، كأنَّها تخْطب.

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أشْرَافُ الْقَوْم وسَرَاتُهُمْ الّذِين يَمْلؤُونَ عُيُونَ العامة، ولعلَّهم أَرْكَانُ مَمْلَكَتِها ومَجْلِسُ الشُّورىٰ الّذين تَسْتَشِيرُهم في المهمَّات.

• ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: دلَّتْهُمْ بِهٰذا علىٰ أنَّ طائِراً من الطُّيُورِ

الناقِلَةِ للرَّسَائل أَلْقَىٰ إِلَيْها كِتَاباً من مَلِكٍ عظيم، إذْ وصفت الكتابَ بأنَّهُ كَرِيم، أي: رفيعٌ بَيْنَ الكُتُب، باعْتِبار أنّ مُرْسلَهُ عظيم مِنْ عُظماء الملُوك، ورُبَّما كانت رُقْعَتُهُ وخَتْمُه وخَطُّه مِنْ نَفيس ما يُرْسِلُهُ الملوكُ عَادَةً.

وقرأتْ عليهم ما جاءَ في الكتاب، بَعْدَ أَنْ أكّدَتْ لَهُمْ قائِلَةً: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ وكانَ قَدْ بَلَغَهُمْ مُلْكُ سُلَيمانَ العظيم في بلادِ الشّام، واكّدتْ لَهُمْ قَائِلَةً: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإنَّ نَصَّ مَا جاء فيه:

﴿.. بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

هذا الكتابُ العظيم من سليمان إلى ملكةِ «سبأ» وإلىٰ أرْكان مَمْلكَتِها من ملأ الْقَوم، يشتمل علىٰ مُقَدِّمَةٍ وَقَضيّتَين:

المقدّمة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هٰذه البداية تُبيّن أنَّ دَوْلَةَ سُلَيْمانَ دَوْلَةٌ دِينِيَّة، وأنَّ مُلْكَهُ استخلاف ربَّانِيٌّ مُعَانٌ بقُوىً رَبَّانِيَّةٍ غيبيَّة، فهو يَسْتَعِينُ في سُلْطانِه بصِفاتِ وأسْماءِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم.

وقد سبَقَ في أوائل المجلّد الأول شرحُ هٰذِهِ العبارة الّتي يُسْتَفْتَحُ بها في الإسلام كلُّ أمْرٍ ذي بَال.

ودَلَّ كتابُ سُلَيمانَ على أنّ هٰذِهِ العبارة كانت كذَلِكَ عنْدَه، ولعلَّها كانَتْ متَّبَعةً عِنْدَ غيْرِه من بني إسرائيل قبلَهُ أو بَعْدَه.

والقضية الأولى: دَلتْ عَلَيْها عبارة ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾: «ألَّا» أصْلُها «أَنْ لَا» أُدْغِمَتِ النُّونُ باللّام فصَارَت لَاماً مَشْدَّدة، وكُتبتْ في المصحف كما تُنْطَق ﴿أَلَّا﴾.

والمعنى: اعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْءَ الْعَظيمَ الّذِي أُوَجِّهُهُ لَكُمْ يا أصْحَابَ المِلْكِ والسُّلْطانِ في «سَبَأ» هو «لَا تَعْلُوا عَلَيَّ» أي: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الخضوع لسُلْطَاني.

طُوِيَتْ فِي الكَلامِ عبارَةُ «اعْلَمُوا» وعلى هٰذا تكُونُ «أنْ» هِيَ المُخَفَفَة من الثَّقِيلَة، واسْمُها ضَمِيرُ الشَّأنِ مَحْذُوف.

هذا ما تَرَجَّح لدَيَّ بَعْدَ النَّظَرِ فيما ذكَرَهُ المفَسِّرُونَ والنحاةُ من وجوه.

والقَضِيَّةُ الثانية: دلَّتْ علَيْها عبارةُ: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾: أي: وأْتُوني مُسْتَسْلِمِينَ خَاضِعِين، ولا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لمُلْكِي وسُلْطَاني.

وغَرَضُ سلَيْمَانَ من إخْضَاعِهِمْ أنْ يكونَ وسيلة إلى نَشْرِ دين اللَّهِ في مملكَةِ سَبَأ. وهٰذا هو غرضُ الأنبياء والمرسَلِينَ من بَسْط سُلْطانِ دَولَتِهم، ولَيْسَ غَرَضُهُمْ الْعُلُوّ في الأرض، وليس دافِعُهم حُبَّ العلُوّ في الأرض، فهذا لَيْسَ من شأن الذين يُرِيدونَ مَجْدَ الآخرة.

• ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾:

قالت: جاءَ تكرير فعل **[قالت]** إشارة إلى أنَّها تَرَيَّثَتْ وقتاً مَا، لتترك لهم فُرْصَة التفكير، وبَعدَه.

• ﴿أَفْتُونِى﴾: أي: أبينوا لي مَا تَرَوْنَ مِنْ رَأيٍ سَديدٍ بشأْنِ هذا الأَمْرِ الخطير، الَّذِي فرَضَهُ عَلَيْنا الملكُ العظيم سليمانُ في الكتابِ الّذِي أُلْقِي عليّ وقرأتُ عليكم مضمُونَ مَا جاء فيه.

يقال لغة: «أفتى المفتي أو المْستَشَار في المسألةِ المشْكِلَة» أي: أبَانَ حُكْمَهُ أو رَأْيَهُ فيها. **والفتوى**: الجوابُ عمّا يُشْكِلُ من المسائل.

• ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾: أي: في أمْرِي الّذِي عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ بشَأْن مُشْكِلَتِنا مع الملِكِ سليمان.

• ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[تَشْهَدُوني]** بإثباتِ ياء المتكلّم، الّتي حذفت في قراءة جمهور القرّاء

العشرة تخفيفاً، وهو من أساليب العرب. **تَشْهَدُونِي**: على تقدير مضاف محذوف، أي: حتَّى تَشْهَدُوا مَجْلِسِي.

﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: أي: حتَّى تَكُونُوا حَاضِرِي مَجْلِسِي، وتُقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ من آراء، بشأن الأَمْرِ الَّذِي أُمْضِي فيه قراراً يتَعَلَّقُ بِشُؤُونِ الدَّوْلَة.

فَمِنْ عَادَتي أنّني ما كُنْتُ فيما مَضَىٰ وَلَسْتُ فيما يأتي قَاطِعةً أمْراً مُهِمًّا من أُمُورِ الدَّوْلَة، حتَّىٰ تكونُوا حاضِرِينَ مَجْلِسِي، وحتَّىٰ تُقَدِّمُوا مَا عنْدَكم مِنْ مَشُورَةٍ حوْلَ الرّأي الصواب الذي ترَون، وبَعْد ذلك أُصْدِرُ ما أراه مَن قرارٍ فيه خيرُ الدَّولة ومصلحةُ الشَّعب.

يقال لغة: شهِدَ الْمجلِسَ، أي: حضَرَه، وشَهِدَ الحادِثَ أوِ الشَّيْءَ، أي: عايَنَهُ.

فعبارتُها هي على مْعنَىٰ أشيروا عليَّ، كما هو شأني معكم في كلّ الأمور المهمَّة من أمُور الدّولة.

﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: أي: مُصْدِرَةً أَمْراً واجِبَ التنفيذ.

- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

تضمَّنَتْ هذه الآية خُلاصَةَ مَا أجابَ بِه أَهْلُ مَشُورَة مَلِكَةِ سبأ بِلْقِيس حول ما جاء في كتاب الملِكِ «سليمان» العظيم.

وهذا البيان الذي دلَّ على خلاصَةِ ما أجابوها به، يشْتَمِلُ علىٰ أربع قضايا.

القضيَّة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾: أي: نَحْنُ أصْحَابُ قُوَّةٍ قادرةٍ علىٰ الدِّفاع، رجالاً وسلاحاً وعتاداً.

القضيّة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: [**وَأُلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ**]: أي: ونَحْنُ أُلو قِتَالٍ شَدِيد.

البأس: الشِّدَّةُ في الحرْب.

القضيَّةُ الثالِثَةُ: دَلَّتْ عَليْها عبارة: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾: أي: وأَمْرُ قرارِ الحرْبِ أو قرارٍ آخَرَ مُفَوَّضٌ ومَتْروكٌ إلَيْكِ.

فإن قَرَّرْتِ الحربَ فقد ذكَرْنَا لَكِ استعدَادَ مَمْلكِتنَا لها قُوَّةً وبَأْساً.

القضيَّة الرابعة: دلَّتْ عليْها عبارة: ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾: أي: فانْظُري بِفكِرِكِ الثّاقِب، وتَدَبّري بحكْمَتِك، وقَرِّري الشيءَ الَّذِي تَأْمُرِينَ بِه، وأَصْدِرِي قَرارَكِ للتَّنْفيذ، ونَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِطَاعَةِ أمْرِكِ الَّذي تَأْمُرِينَ به.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

دلّ كلامُ «بِلْقيس» هذا على أَنَّهَا رأَتْ إيثارَ السِّلْمِ والمصانَعَةِ على الحرب، بَعْدَ أَنْ فَوَّضَ مَلأُ قَوْمِها إلَيْها أنْ تُقرِّرَ ما تَرَاهُ، وتأمُرَ بِه.

وأبَانَتِ الأمْرَ الّذي دَعَاهَا أَنْ تُقرِّرَ هذا القرار، فقالت: إنَّ من عادَةِ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إذَا دَخَلُوا فاتِحِين مُحَارِبين قَرْيَةً من الْقُرَىٰ، أَفْسَدُوهَا، بتخريب مبانيها ومُنْشآتِها، وتَحْطِيمِ أشْجارِها ومَزَارِعِها، والاستيلاءِ على خَيْرَاتِها ونَفَائِسها، وتغيير أنظمتها لمصالحهم، وجعَلُوا أعِزَّة أهلها أذِلَّةً.

الأعِزَّة: الأقوياء ذَوُو الْغَلَبَةِ فيها، جَمْع «الْعَزِيز».

الأذِلَّة: الضّعَفاء المهانون المغلوبون على أمرهم، جمع «الذليل».

والمرادُ بالقرية في القرآن كلّ مُجمَّعٍ سكَنِي صغيراً أو كبيراً، ولو كان مدينةً عظيمة، وهو كذلك في اللّغة.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾: أي: وكذلِكَ يَفْعَلُونَ دواماً بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْلُوا عليها بالْقُوَّة.

وجاء كلامُها مؤكّداً بِحَرْف التَّوْكيد «إنَّ». ودَلَّ استعمال ﴿إِذَآ﴾ على

أنَّها أشْعَرَت مَلأَ قَوْمِهَا بأنَّ ما لَدَيها من قُوَّةٍ ورجالٍ ذَوي بأسٍ في الحرب، أضْعَفُ ممّا شاعَ في الأَقْطَار عن سليمانَ وسُلْطَانه، وما لَدَيهِ من قُوىً قِتاليَّةٍ وجُنْد، فَمِن الخير لدولَتِها ولشَعْبِهَا وَلَهَا وللْمَلأ أَنْ تُصَانِعَ وتتقرَّبَ بالْهدايا النفيسة إلى سليمان.

• ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإنّي مُرسلَةٌ إلى «سُلَيْمَانَ» ويُلْحَقُ بِهِ رِجالُ دَوْلَتِهِ بِهَدِيَّةٍ نَفِيسَةٍ على سَبِيلِ المصَانَعَةِ والمدارَاةِ والتودُّد.

الْهَدِية: ما يُقَدَّمُ عَطِيَّةً على سَبِيلِ التقرُّبِ والتودُّدِ والمصانعة، وتُجْمَعُ على «هَدَايا».

﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾: أي: فمُتَرَقِّبَةٌ ومُنْتَظِرَةٌ.

﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟. أي: بأيّ شيءٍ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ الّذين أرْسِلُهُمْ إلى سُلَيْمانَ بالهديّة، بقبولِ الهدية أَمْ بِرَفْضِها.

﴿بِمَ﴾؟ معمول لِفِعْلِ: ﴿يَرْجِعُ﴾ قُدِّمَ لأنّ الاستفهام له الصدارة في العربية.

وقف يعقوب بهاء السكت على «بِمَ» وهو وجْهٌ للبزّي.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

ـ أثبت ياء المتكلم في: **[أتُمِدُّونَنِي]** ابن كثير في الوصل والوقف، وأثبتها كذَلِكَ في الوصل فقط نافع، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر.

وقرأها حمزة ويعقوب: **[أَتُمِدُّنّي]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَتُمِدُّنَنِ] بِحذف ياء المتكلّم.

ـ وفي ياء المتكلم من [آتانِي اللّهُ] قراءات، الإثباتُ والحذْفُ، والفتح والإسكان.

التدبر التحليلي:

دلَّ هذا البيان على مَطْوِيٍّ في اللَّفظ، وهو أنّ «بِلْقيسَ» مَلِكَةَ سَبأ قد أرْسَلَتْ وَفْداً من عِلْية قومِها إلى سُلَيمانَ، يَحْمِلُونَ هَدِيَّتَها إلَيْهِ، مُصَانَعةً وتَقَرُّباً وَتَوَدُّداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أي: وَفْدُ بِلْقِيسَ ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ عَلَيْهِ السَّلامُ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمانُ لِلْوَفْدِ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ﴾ من مَالٍ وسُلْطَانٍ وقُوَّةٍ وَبَأْسٍ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ في مَمْلَكَتِكُمْ، فلا طمع لي بمالٍ عندكم.

الإمداد: الزيادة من الخير. **أتُمِدُّونَنِي**: أي: أتريدون إعطائي زيادة على ما عندي.

وأَضْرَبَ سُلَيْمانُ عليه السّلام إضراباً انتقاليًّا فقال للوفْد: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أَيْ: الّتي تَرَوْنَهَا نَفِيسَةً جِدًّا ﴿تَفْرَحُونَ﴾ فَرَحَ سُرُورٍ، ظَانِينَ أَنَّها تُرْضِيني، فَتَكُفُّنِي عَن الْقُدُوم بِجُنْدِي إلَىٰ بلادِكُمْ، وفَتحِها بالْحَرْبِ، والسَّيْطَرَةِ علَيْها، وضَمِّها إلى مُلْكِي، وإِخْرَاجِ مَالِكيهَا مِنْها أَذِلَّة صَاغِرِين، جهاداً في سَبِيلِ الله لنشر دينه.

وهو يَقْصِدُ بهذا الخطاب الذي خاطبَ به الوفْد بِلْقِيسَ ورِجَالَ دَوْلَتِها.

وتوجَّه سُلَيْمَانُ عَلَيْه السّلام لرَئيس وفْدِ بِلْقيس، وقالَ له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ارْجع إلى بِلْقِيسَ ورجالِ دَوْلَتها بِهَدِيَّتِهِمْ إلَيَّ. ورفَضَ أَنْ يَقْبَلَ رِشْوَةً تَكُفُّهُ عَنْ نَشْرِ دينِ الله جِهاداً في سبيله. وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أقْسَمَ سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِدَليل لام القسم الواقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ ونُونِ التوكيد الثقيلة التي جاءتْ في فِعْلَي: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم - وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عَلَىٰ غَزْوِ «سَبأ» بجيْشٍ لَا قِبَلَ للمدافِعين عن مملكتها به.

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: أي: لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِدَفْعِ جُنودِنا ولا مُقَاومَتها، ولا الصُّمُودِ في وَجْهِهَا، **القِبَلُ**: الطَّاقَةُ لغة.

جاء عودُ الضميرِ في ﴿بِهَا﴾ على الْجُنُودِ مَرَاعَاةً لمعْنَىٰ الجماعَة.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾: أي: ولَنُخْرِجَنَّهُمْ من مدينتهم «مأرب».

﴿أَذِلَّةً﴾: جَمْعُ ذَلِيلٍ، وهُوَ الضعيف الْمُهَان.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: أي: وهُمْ وَضِيعُون حَقِيرون لا قِيمَة لهم.

الصَّاغِرُ: هُو الْوَضِيعُ الْحَقير الّذي ليْسَ له قِيمَةٌ تُحْتَرم.

وهَكذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ أُخرج مِنْ مَكانِ سُلْطَانِهِ أسِيراً مَغْلُولاً مُهَاناً.

ورَجَع وَفْدُ بِلْقِيسَ إليها بالْهَدِيَّة الَّتي حَمَلُوها إلى سليمانَ عليه السلام، ووصفوا لها ما شهدوه.

وقرَّرَتْ «بِلقِيس» أنْ تُطِيعَ أَمْرَ سُلَيْمان عليه السلام، وتأتِي إلَىٰ عَاصِمَةِ مُلْكِه في القُدسِ، هي ومَن اختارَتْهُمْ من رجالِ مَمْلَكتِها، لِيُقَدِّمُوا إلى سُلَيْمانَ الخضُوعَ والطاعَة.

وعَلِم سليمانُ علَيْه السلام بما عَزَمَتْ أنْ تَفْعله «بِلقِيس» من طاعَتِه، والْقُدُومِ إليه هي ومن تختارهُمْ مِنْ رِجال مَمْلَكَتِها طائِعين مسْتَسْلِمين.

وبَيْنما كانَ رَكْبُ «بِلْقِيس» ومَنْ مَعَها فِي طَرِيقهم إليه، أرَادَ أَنْ يأتي بِعَرْشِها إِلَىٰ قَصْرِه، قَبْلَ أنْ يَصِلَ الرَّكْبُ خَاضِعاً لسُلْطَانِه.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾:

• قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ بإثْباتِ ألِفِ «أَنَا» بعد النون وصلاً في الموضعين. وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف هذه الألف.

• قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء المتكلّم من: ﴿لِيَبْلُوَنِيَ﴾ وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

تمهيد:

في هٰذه الآياتِ بيانُ أمْرٍ من أمُور سليمان عليه السلام يَدُلُّ على ما وَهَبَهُ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ، عن طَرِيق بعض الخاصَّة مِنْ رجال دَوْلَتِهِ من إنْسٍ وجِنّ، من قوىً لم يُؤْتَها غَيْرُهُ من المَلُوك، وكَانَ هُوَ أهْلاً لها وكَانَ شاكراً لربّه.

وهذا الأمْر يتعلّق بالملكة بِلْقيس وعَرْشها وَإحضارِه من سَبأ قبل وصُولِها إليه.

التدبر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وجّه سليمانُ عليه السّلام بأسْلُوب النِّدَاءِ رَافعاً صَوْته، لِيَسْمَع قَوْلَهُ مَنْ هُمْ في طَرَفِ الْمجلِسِ بعيدين عن كرسيِّهِ من أهل مَجْلِسهِ؛ وزرائِه،

وحَاشِيَتِه، ومُسْتَشاريه، وهُمْ مَلأُ القَوْمِ الّذين يَمْلُؤُونَ عُيون العامّة، قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ وفيهم إنْسٌ وجنٌّ.

• ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾: أي: أيُّكُم يَأْتِيني بِعَرْشِ بلْقِيسَ من سَبأ، إلى قَصْرِي في أورشليم (القدس).

• ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾: أي: قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إلَيَّ مُعْلِنين اسْتِسْلَامهم وخضوعَهُمْ لطَاعَتِي.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ (٣٩)﴾:

العِفْريت: الْقَوِيُّ الماكِر. وكَانَ هذا العِفْريتُ من الجنِّ أَحَدَ خاصَّةِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السلام ومَجْلِسِ وُزَرَائِهِ ومُسْتَشاريه.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾: أي: أنا أُحْضِرُهُ لَكَ مَا بَيْنَ قَوْلي هٰذا وقيامِكَ مِنْ هَذا الْمَجْلِس، على وفْق عادَتِك، وقد يكون وَقْتُ انتهاء مَجْلسهِ المعتاد مع الزوال أو عقبه قليلاً.

المقام: يُطلق في اللغة على المجلس.

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾: أي: وإنّي على حَمْلِهِ ونَقْلِه من قَصْرِها في سَبأٍ لَقَوِيٌّ، وإنّي عَلَىٰ جواهِرِهِ ونَفَائِسه لأَمِينٌ.

وشَدَّدَ العِفْريتُ التّأكيد على الأمْرَيْن بدلَالَةِ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة».

• ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾:

أي: قالَ الّذي عنده عِلْمٌ خاصٌّ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ مِمَّا سَخَّر فِيهِ لبَعْضِ عِبَادِه من كَلِمَاتٍ، إذَا قَالَها حَقَّقَ اللّهُ لَهُ مُرادَهُ بأمْرِ التَّكْوين، بشرط أن يكُونَ نُطْقُهُ بِهَا لتَحْقِيق مُرادِه مأذُوناً له به مِنْ رَبّه جلَّ جلالَهُ

وعَظُمَ سلطانُه، ولَا يكونُ هذا إلَّا بِوَحْيٍ منه سُبْحانَه.

قال المفَسِّرون: واسْمُ هٰذا الذي عنْدَه عِلْمٌ من الكتاب، وهو من أَهْلِ مَجْلِسِ سليمان عليه السلام ومستشاريه؛ «آصَف بْن بَرْخِيا» والله أعلم.

ويَغْلِبُ على ظني أنَّهُ نَبِيٌّ، جعَلَهُ اللهُ عزّ وجلَّ من خاصَّةِ سُلَيْمَان النبيّ الرَّسُول، ويكُونُ هذا الْعِلْمُ ممّا اختصّ الله به هذا النبيَّ ولم يمْنَحه لسُلَيمان، ولكنَّ وُجُودَ هذا النَّبيِّ تَابِعاً من أتباع سليمان عليهما السلام، هو مِنْ إكرَامِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرسوله سليمان.

قال الّذي عنده عِلْمٌ من الكتاب لسليمان أنَا آتِيكَ بِعَرْش بِلْقِيسَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ.

الطَّرْف: تَحْرِيكُ الجفْن، يُطْلَقُ علىٰ الواحد وغيره، وقَدْ يُثَنَّىٰ ويُجْمع.

ومَعْلُومٌ أَنَّ تَحْرِيكَ الطَّرْفِ إبْعَاداً يكُونُ بانْفِرَاجِ الجفْنَيْن الأَعْلَى والأسفل عن الْعَينِ، وهذا بمثابَةِ إبعادِهِما عَنْ صاحِبهما، فيَكُونُ رَدُّ الطَّرْفِ إلَيْهِ بِضَمّ الْجَفْنَيْن على الْعَيْن، وهذا نظير قولك لباسط يَدِه: رُدَّ إلَيْكَ يَدَكَ.

فالمعنى: أنا أُحْضِرُهُ لَك خِلَالَ زَمَنٍ يُعَادِلُ رَدَّ جفْنَيْكَ إلَىٰ الإطْباق بَعْدَ انْفِراجِهِما.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: فلَمَّا رَأني سليمانُ عليه السّلام عَرْشَ «بِلْقِيسَ» حاضراً عِنْدهُ، ومُسْتَقرّاً عَلَىٰ قَوائِمِهِ، ومُهَيَّأً لِلْجُلُوسِ عليه، قال مُبيِّناً فضل الله عليه، غَيرَ

مُسْتكْبِرٍ كعَادَةِ الملُوكِ غيْرِ الرَّبَّانيّين، الَّذِين يَتَفاخرون مُسْتكبرين، بما حَصَل لهم من نَصْرٍ أو غَيْرِه، ممَّا تميَّزُوا به على مَنْ سِواهم، وَمُبيّناً أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ بما آتاه اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ عَظيم، أَيَشْكُرُ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ أمْ يَكْفُر، ومُبَيِّناً قَاعِدَةً مِنْ قواعِدِ الامتحان الرَّبَّانيِّ للعباد، وهيَ أَنَّ مَنْ يَشْكُرُ رَبَّهُ فَهُو المستفيدُ مِنْ شُكْره له أجراً عنده، وأنَّ مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَةَ رَبِّه فإنَّهُ لَنْ يضُرَّ اللَّهَ شيئاً لأنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عِنْ كلّ شَيْءٍ، وقَدْ يُمِدُّ اللَّهُ الكَرِيمُ أَجَلَ امْتِحانه ولا يُعجّلُ عِقَابهِ بَلْ يَتْرُكُ لَهُ أَمَداً لِيُرَاجِعَ بِه نَفْسَه فيَتُوبَ ويَكُونَ من الشَّاكِرِين.

المسْتَقِرّ: المتمكِّنُ في مَوْضِعِه الثّابتُ عليه.

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾: أي: إحْضَارُ عَرْشِ بِلْقِيسَ لِي، واستقرارُهُ عِنْدِي كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ، هُوَ فَضْلٌ مِنْ مِنَحِ رَبِّي عَلَيَّ.

﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؟. أي: لِيَخْتَبِرَني، أأكونُ شاكراً لفضل اللَّهِ علَيَّ أمْ أكونُ كافراً.

الشكر: هو مقابلة إنعام المنْعِم بما يُرْضِهِ من فِعْلٍ أو تَرْك. ويَدْخل فيه الاعتراف والثناء، وضِدُّهُ الكفر، وأخَسُّهُ الجحود ونُكْران الجميل.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

هذه قاعدةٌ من قواعد امتحان اللَّهِ لعباده بالنِّعَم في الحياة الدنيا، وهي ذاتُ أرْبَعِ موادّ، دلَّ اللفظ على بعضها صَراحة، ودلَّ على بعضها لزوماً ومن دلالات نصوص أخرى.

المادّة الأولى: مَنْ يَشْكُر رَبَّهُ علَىٰ ما أَنْعَم بِهِ عَلَيْه، بَدْأً من إيجادِهِ، وإمَدَاداً له بالحيَاةِ والرِّزق والسَّلامة وسائر النِّعَم الَّتي لَا يُحْصِيها، فإنَّه لَا يَنْفَعُ بِشُكْرِه رَبّه إلّا نَفْسه، لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يكافِئُه على شُكْرِهِ بمزيدٍ من نَعِمِهِ في الحياة الدُّنيا، وبأجْرٍ عظيم خالدٍ يَوْمَ الدّين في جَنَّاتِ النعيم على مقدار شُكْرِه.

وأوّلُ شُكْرِ الْعَبْدِ لربِّهِ على نِعَمِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وبصفاته الجليلة وأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وبكلّ أركان الإيمان الّتي أوجب علَىٰ عباده أَنْ يُؤْمِنُوا بها، ثم أَنْ يُعْلِنَ إسْلَامَهُ له وخُضُوعَهُ لِأَوامِرِه ونواهيه وأحْكَامِ الدِّينِ الّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُوله، ثُمَّ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ويُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُو لَهُ أَهْل، وأَنْ يُطِيعَهُ فَيَفْعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، ويجتَنِبَ مَا نَهَىٰ عَنْهُ عبادَه، على مقدار اسْتِطَاعَتِه.

المادّة الثانية: مَنْ كَفَرَ جَاحِداً نِعَمَ رَبِّهِ عليه، أَوْ أَبَىٰ أَنْ يُسْلِمَ لَهُ، أَو جَعَلَ لَهُ شريكاً فِي رُبوبيّتِهِ أو إلَهِيَّتِهِ، أو عَصَىٰ أوامره ونواهِيَهُ كُلَّها أو بَعْضَها، فإنَّهُ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شيئاً، بَلْ يَضُرُّ نَفْسَه عَلَىٰ مِقْدار كُفرِهِ بِه.

فعاصِي الأوامر والنواهي العمليّة يَحْرِمُ نَفْسَهُ من أجُورها، ويُعَرِّضُ نَفْسَهُ للجزاء بالعقاب على مقدار معاصِيه.

ومن كفَرَ من دَرَكة الشِّرْكِ باللَّهِ جَلَبَ لنفسه الخلود في دار العذاب يوم الدّين، على مقدار دركة شركه.

ومن كَفر من دَركةِ جُحُود اللَّهِ جَلَبَ لِنَفْسِهِ الْخُلُودَ في دار العذاب يَوْمَ الدِّين انْحِطَاطاً فِي دَرَكات العذابِ فيها على مِقْدار جُحُوده وظُلْمه ودَرَكاتِ الجرائِمِ الَّتي ارتكَبَها في حياته.

المادة الثالثة: إنَّ الله عزّ وجلّ غَنِيٌّ عَنْ عباده، لَا يَنْفَعُه إِيمَانُهم به ولا طاعتهم له، ولَا يَضُرُّهُ شيئاً كُفْرُهم به، ومعصيتُهم له.

المادة الرّابعة: إنَّ اللَّهَ جَوادٌ كَرِيم، يُمْهِلُ عباده الكافرين والعاصِينَ من دُون الكفر إمْهَالاً كثيراً رغْبَةً في أَنْ يَتُوبوا ويُصْلِحُوا، فَلَا يُعَجّلُ لهم عقوباته.

- ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾:

﴿قَالَ﴾: أي: سُلَيمانُ عليه السّلام.

﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾: أي: غَيِّرُوا فيه تَغْيِيراً يَجْعَلُهَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ هُو عَرْشَها، مع المحافظةِ علَىٰ سَائِرِ صِفَاتِهِ.

وغرضه عليه السّلام أَنْ يَشْتَبِهَ علَيْها أمْرُه، هَلْ هُوَ عَرْشُهَا فِعلاً، أمْ هُو نَظِيرُهُ دُونَ تَطابُق تامٍّ.

والمأمُورُونَ بالتَّنْكِير هُمُ الصُّنَاعُ الماهِرُونَ القادِرُون على التغيير التَّنْكِيري دُونَ إفساد، وقد كَانَ أمْرُهُ مُوجّهاً لِبَعْضِ وزرائِهِ أو وُكلائه الَّذينَ يكَلَّفُونَ عَادَةً أنْ يَتولَّوا مِثْل هٰذه الأمور، لإحْضَارِ الصُّنَّاعِ الماهِرِينَ بصِنَاعَةِ عُرُوش الملوك وكراسيهم.

﴿نَنظُرْ﴾ مجزومٌ على أنَّه جواب الطَّلَبِ في ﴿نَكِّرُواْ﴾ أي: إنْ نَكَّرْتُمْ عَرْشَها نَنْظُرْ إذَا حَضَرَتْ وأَرَيْنَاهَا إِيَّاهُ وسَأَلْنَهَا عَنْهُ.

﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟

أراد سُلَيْمَانُ أخْتِبارَ ذَكَائِها وَمَا تُجِيبُ بِهِ إذَا سُئِلَتْ: أهَكَذَا عَرْشُكِ؟.

﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾؟: أي: أتَهْتَدِي أَنَّهُ عَرْشُهَا مَعَ تغييرٍ فيه، أَوْ هُوَ نظيرُ عَرْشِها.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي: أمْ تَكُونُ غَيْرَ حَادَّة الذَّكاء، فَتَقُولُ كلَاماً يَدُلُّ على مُسْتَوىٰ ذَكائِها الَّذي لَا يتلاَءَمُ مع مَا هِيَ فِيهِ من مُلْكٍ ذي شأْن.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ـ قرأ قُنْبُل: [سَأْقَيْهَا] بهمزة ساكنة بعد السّين، عِوَضاً عن الألف، على لغة من يهمز حرف المدّ إذا وقَعَ وسَطَ الكلمة.

تمهيد:

دلّت هٰذه الآيات على أنّ سُلَيْمان عليه السّلام خَصَصَ لتكْرِيم مَلِكَةِ سَبَأَ القادمَةِ إلَيه طائعةً مُسْتَسْلِمَةً، مَنْ يَسْتَقْبِلُها ويَسِيرُ مَعَها، ويَدُلُّها على الطَّرِيقِ، ويَعْرِضُ علَيْها مَا يُدْهِشُهَا بِهِ من عَظَمَةِ مُنْشآتِ سُلَيْمان، ورُبّما كانَ مِنْ ذَلِكَ حَرَسُهُ الْخَاصّ.

وتُوحي بأنّ سَليمان عليه السلام، أمرَ بأَنْ يُوضَع عَرْشُها في مَكَانٍ ما خارجَ الْقَصْر الّذي تُدْعَىٰ إلى دُخُولِه، كأَنَّهُ مَجْلِسُ استراحَةٍ للْمَلِكِ في الحديقَةِ المحِيطَةِ به، وليْسَ هو عَرْشَهُ الذي يَجْلِسُ عليه للحُكْم.

ودعَاها مُرَافِقُو التكْرِيمِ للْمَسِير، فَمَرُّوا بِهَا إلى جانب عَرْشِها المنكَّر، فقالَ لَهَا رَئِيسُ مُرافِقي تكْرِيمها من خاصَّةِ سُليمانَ إذْ كان أوصَاهُ بذلك: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾؟ اختباراً لذكائها، بشَأْنِ عَرْشها المنكر تنكيراً يُشْعِرُ بالتَّشابُهِ الكبير بَيْنَهما دون تطابق، ولمقدار حكمتها فيما تجيب به، وإشعاراً لها بأنّ عَرْشَها الّذي تفتخر بِهِ لَا يَسْتَحِقُّ في مُلْكِ سُليمانَ أكثر من أَنْ يَكُونَ مَجْلِسَ اسْتراحَةٍ في حَدِيقةِ قَصْرِه.

وأدْرَكَتْ «بِلْقِيسُ» الْغرَضَ من السُّؤال، ومِنْ وَضْعِ الْعَرْشِ في حَدِيقَةِ الْقَصر، فأَجَابَتْ عَلَىٰ السُّؤال إجابَةً ذَكِيَّةً حَكِيمَة. فقالَتْ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ أي: بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِي تَشابُهٌ كَبِيرٌ إلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مطابقٍ له، فَدَلَّ هذا الجواب عَلَىٰ دِقَّةِ مُلَاحظَتِهَا لِلْفَرْقِ الَّذِي أَحْدَثَهُ التَّنْكِيرُ. وأَجابَتْ عَلى الْغَرَضِ مِنْ وَضعِ هٰذا الْعَرْشِ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ كَأَنَّهُ مَجْلِسُ استراحَةٍ للملك سليمان فقالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أيْ: وأُوتِينَا الْعِلْمَ بعَظَمَةِ مُلْكِ مَلِكِكُمْ وَقُوَّةِ غَلَبَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَجُنْدِهِ، مِنْ قَبْلِ هٰذِهِ المشاهَدَةِ الَّتِي رَأَيْناهَا

بأعْيُنِنا، وَكُنَّا طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ قَبْلَهَا، وَهٰذَا هُوَ الَّذِي جعَلَنا نأْتِي إليكم.

واجتازُوا الحديقَة وَوَصَلُوا إلى مَدْخَلِ الْقَصْرِ العظيم، واسْتَقْبَلَهَا سليمانُ عليه السلام عِنْدَ بَابِ قَصْرِهِ، وَكَانَ قَدْ جعَلَ بَلَاطَ أَرْض السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ من زُجَاجٍ، وَجَعَلَهُ مُتَموّجاً، وَرُبَّمَا كَانَ قَدْ أَجْرَىٰ تَحْتَهُ مَاءً، زيادَةً في الإِيْهَامِ بأَنَّهُ مَاءٌ يَتَمَوَّجُ.

وَدَعَاهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى الدُّخول، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَىٰ أَرْضِ السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَكَانَتْ قَدْ أَصَابَهَا الدَّهَشُ قَبْلَ الدُّخول، حَسِبَتِ السَّاحَةَ بِرْكَةً يَتَمَوَّجُ فِيها الْمَاء، فَكَشَفَتْ ثَوْبَهَا عَنْ سَاقَيْهَا لِئَلَّا يُصِيبَهُ بَلَلُ الماء الَّذِي تَمْشِي فِيهِ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يكون عَمِيقاً، ويَدْعُوهَا الملِكُ إلى الدُّخُولِ فيه.

فقال سليمان لها: هٰذا لَيْسَ بماء، إنَّهُ مَفْرُوشٌ بزُجاجٍ أمْلَس على شَكْل تَموُّجِ الْمَاءِ، أي: فَلا تَخَافِي عَلَى ثَوْبِكِ مِن الْبَلَلِ.

عندئذٍ بَلَغَ مِنْهَا الدَّهَشُ مَبْلَغاً دَعَاهَا إلى إعْلَانِ إيمانِها باللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وإسْلَامِهَا لَهُ مع سليمان، وقَدْ كَان لها عِلْمٌ بهٰذِهِ الْحقائق الدِّينيَّة، مُنْذُ كانَتْ في بَلَدِها وَعلى عَرْشِ مُلْكِهَا، ورُبَّما دَعَاهَا رَئِيسُ مُرَافِقِي تَكْرِيمِهَا إلى الإيمان باللَّهِ والإسْلام له، وهوَ يَسِيرُ مَعَهَا، ولٰكِنْ صَدَّهَا عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَبْلَ ذٰلِكَ، إذْ كَانت تَسْجُدُ للشَّمْسِ على عَادَتِهَا تَقْلِيداً لِقَوْمِهَا.

فقالت ما دلَّ عليه قول الله عزَّ وجل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

التدبّر التحليلي:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ أي: فلمَّا جاءَتْ بَلْقِيسُ مع وَفْدِهَا

إلى أورشليم «= الْقُدْس»، واستقبلها مَنْ خَصَّصُهم «سليمان» عليه السَّلام لاستقبالِهَا واستقبالِ وفْدِها مُكرِّمين، وأَنْزَلُوهم مَنازِلَهُمُ التَّكْرِيميَّة، وَجَاءَ مَوْعِدُ دُخُولِهِمْ إلَىٰ سُلَيْمَانَ فِي قَصْرِهِ، وأدْخَلُوهُم من باب سُور حَدِيقَةِ الْقَصْر، ومَرُّوا بِهِمْ إلى جانِبِ عَرْشِهَا الَّذِي وُضِعَ في حَدِيقَةِ الْقَصْرِ للإيهام بأنَّهُ مَجْلِس اسْتِراحَةِ الملِكِ في حَدِيقَةِ قَصْرِهِ.

وجاءت عبارة ﴿قِيلَ لَهَا﴾ بالْبِنَاء للمجهول للدّلالة على أنَّ القائل لَيْسَ سليمان عليه السّلام، والفكْرُ يَسْتَنْبِطُ أنّ القائِلَ رَئِيسُ لجنَةِ المرافقين التكريمية.

فلمَّا وَصَلَتْ إلى قَرِيبٍ جدًّا مِنْ عَرْشِها، قالَ لَهَا رَئِيس مُكَرِّمِيها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾: الهمزة للاستفهام، ولفظ «ها» للتنبيه، يَدْخُلُ على اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب. والكاف للتشبيه وهو حرف جرٍّ دَخَلَ على اسْم الإشارة «ذا». ﴿عَرْشُكِۖ﴾ أي: سَرِيرُ أَوْ كُرْسِيُّ مُلْكِكِ.

• ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾: أي: يُشْبِهُهُ شَبَهاً كثيراً، حتَّىٰ كَأَنَّهُ هُوَ فِي نَظَرِ مَنْ لَا يُدْرِكُ الْفُروق.

• ﴿... وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: من الظّاهِرِ أنَّها أَدْرَكَتْ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَعْلِها تَمُرُّ بجانِبِ هذا الْعَرْشِ الْمَوْضُوع في حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، الدَّلَالَةُ عَلَىٰ عَظَمَةِ مُلْكِ سليمان، وأنَّ شَبِيهَ عَرْشِهَا مَوْضُوعٌ في الْحَدِيقَةِ لاستراحَتِهِ، فقالت كلاماً دلَّ عَلَيْهِ هٰذا البيانُ الرَّبَّانِيّ.

أي: وَسَبَقَ أَنْ أُوتِينا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ المشاهَدَةِ الْبَصَرِيَّة، بِعَظَمَةِ مُلْكِ سُليمان، وَمَا له من مَجْدٍ وسُلْطانٍ وجُنْدٍ وَمَالٍ وقُوَّة، وكنَّا مِنْ قَبْلِ حُضُورِنَا إلى مَمْلَكَتِهِ، وَمُشَاهَدَاتِنَا، مُسْلِمين، أي: مُسْتَسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ خَاضِعِين.

ومع أنَّها دَهِشَتْ هي وَوَفْدُها مِنَ الواقع الذي شَهِدُوه، إلَّا أنَّها ما

زالَتْ حَتَّىٰ الوقْت مُحافظةً عَلىٰ ما كانت عَلَيْهِ من شِرْكٍ، مَشْدُودَةً نَفْسِياً إلى تقالِيدِهَا الْمَوْرُوثَةِ.

• ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

دلَّت هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ رَئِيسَ لَجْنَةِ استقبالها وتكريمها مع وفْدِها، دَعَاها إلَىٰ الإسلام لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ والدُّخُولِ فِي دِينِ سُلَيْمان، فَلَمْ تَسْتَجِبْ سَاعَتَئِذٍ، وَرُبَّما قال لها: إنَّ سُلَيْمانَ النَّبِيَّ الرَّسُولَ المَلِكَ يَدْعُوكِ ويَدْعُو قَوْمَكِ إلىٰ هٰذا.

﴿وَصَدَّهَا﴾: أي: وَمَنَعَها وَصَرَفَهَا عَنِ الاستجابة سَاعَتَئِذٍ للدَّعْوَةِ إلى الإيمان باللَّهِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ والإسلامِ لَهُ، واتّباعِ سليمان اتّباعاً دِينياً.

﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إذْ كانَتْ عَلَىٰ مَذْهَبِ الصابِئَةِ، فَقَدْ كَانَتْ هِيَ وَقَوْمُها يَسْجُدُونَ للشَّمْس.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: في هٰذِهِ الْعِبارة إشارَةٌ إلىٰ أَنَّهـا امْرَأَةٌ حَكِيمَةٌ عَاقِلَة، لَدَيْهَا رُشْدٌ يَدْفَعُها إلى الإيمان باللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إيماناً صَحِيحاً كَامِلاً، والإسْلَامِ له، إلَّا أَنَّهَا كَانَتْ مَشْدُودَةً إلَىٰ قَوْمِهَا بالْعَصَبِيَّةِ، وَنَاشِئَةً عَلَىٰ الاعْتِزَازِ بِهِمْ والانْتِصارِ لَهُمْ وَلَوْ كَانُوا عَلَىٰ باطلٍ أو خطإٍ ظاهر.

فقد سَبَقَ فِي قِصَّتِها بيانُ أَنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْس حكايَةً عَنِ الْهُدْهُدِ، مع الإشعار بأنَّ ما ذَكَرَهُ حَقٌّ، والسُّجُودُ للشَّمْسِ كُفْرٌ ظاهِرٌ، لَا حَاجَةَ لإثباتِهِ بعبارَةٍ خاصَّة، فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أَنَّ الْغَرَضَ من العبارة، الإشارة إلى ما في الْعَصَبِيَّات الْقَوْمِيَّةِ وَمُؤَثِّراتها من تأثيرٍ على نفوسِ أهْلِ الحكْمَةِ والْعَقْلِ والرُّشْدِ.

وهٰذه الآيَةُ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ جاءَ دالًّا بالْفَحْوَىٰ على أنَّها دُعِيَتْ إلى الإسْلام الدِّينيّ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ في أوّل الأمر، وفيها بَيَانُ سَبَبِ عَدَمِ اسْتِجابَتِها.

• ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

دلَّ لفظ ﴿قِيلَ﴾ في أوّل هٰذِهِ الآيَة، ولفظ [قَالَ] في أثنائِها، عَلَى أنَّ الَّذِي قال لها: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ رَئِيسَ لَجْنَةِ التَّكْرِيم المرافِقَة لها ولِمَنْ معها، وعلى أنَّ الَّذِي قالَ لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ هُو سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلام.

وَهَذا التّرتِيبُ في البيانِ يُشْعِرُ بأنَّ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ اسْتَقْبَلَهَا وَمَنْ مَعَها بحفَاوَةٍ عِنْدَ مَدْخَل الصَّرْحِ، أمّا قَبلَهُ فَقَدْ كانَ مُرَافِقُو تَكْرِيمِها هُمُ الّذِينَ يمْشُونَ مَعَها مُكَرِّمِينَ ومُحادِثِين، على مقاديرهم.

• ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾: الصَّرْحُ الْقَصْرُ العظيم العالي الذَّاهِبُ ارْتفاعاً في السّماء.

• ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾: أي: فَلمَّا رَأَتْ أَرْضَ ساحَتِهِ الدَّاخِلِيَّة.

• ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: توهَّمَتْ أَنَّهُ مَاءٌ كَثِيرٌ ذُو مَوْج، كأنَّها شاهدتْ مَكَانَ عُمْقٍ في الْبَحْرِ، لَقَدْ صنَعَ هٰذا في نفسها الانْدِهَاشُ المتتابع.

اللُّجَّةُ في اللُّغَة: معْظَمُ الْبَحْر وَتَرَدُّدُ أَمْوَاجه، ولَعَلَّهَا تَرَيَّثَتْ، ثُمَّ أَدْرَكَتْ أَنَّ الْمَلِكَ سُلَيْمانُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُوَهَا إلى السِّباحَةِ في ماءٍ عَمِيقٍ، وأنَّ هذَا الذي شَهِدَتْهُ مَاءٌ لَيْسَ بالْعَمِيق، ويكْفِي فيهِ التَّشْمِير عَنِ السَّاقَيْن.

• ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾: أي: وَكشفَتْ ثَوْبَها السّاتِرِ إلى قَدَمَيْها عَنْ سَاقَيْها، لئلَّا يبتَلَّ بالماء أسْفَلُ ثَوْبها.

• ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: أي: إنَّـهُ صَـرْحٌ مُـمَـرَّدُ الأرض مِنْ قَوارِير.

مُمَرَّدٌ: مصْقُولٌ مُمَلَّسٌ، والمرادُ بَلَاطُ أرْضِه.

• ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ قَوارِير: جَمْعُ قارورة، وهي وعَاءٌ مِنْ زُجاجٍ تحْفَظُ فيه السّوائِل.

ورُبّما كَانَ بَلَاطُ أرْضِ الصَّرْحِ قَوَارِيرَ عَلَىٰ شَكْلِ قِطَعِ اللَّبِنِ، وسَطْحُها الظَّاهِرُ مُتَمَوِّج، وتُمْلَأُ كُلُّ قَارُورَةٍ مِنْها من فُتْحَةٍ فيها بماء، وتُسَدُّ الْفُتْحةُ سَدًّا مُحْكماً، وصُفّت هذه القوارير صَفًّا محكماً على الأرْضِ بلاصِقٍ شفَّافٍ بَيْنَها، فصارت تُرَىٰ على شَكْلِ مَاءٍ مَالِيءٍ للسَّاحَةِ الداخِلِيَّةِ من الْقَصْر.

وكان الدَّهَشُ قد بَلَغَ من «بِلْقِيسَ» مَبْلَغَهُ الْأَقْصَىٰ، وَسَيْطَرَتْ عَلَىٰ مَشاعِرِها شخصِيَّةُ سُلَيْمَانَ العظيمة، وتفجَّرَ مِنْ أعماقِهَا الرُّشْدُ وكمالُ الْعَقْل، وحَرَّكَتْهَا دَوافِعُ الإيمان باللهِ رَبّ العالمين، ساعَتِئِذٍ.

• ﴿قَالَتْ﴾ مُعْلِنَةً تَوْبَتَهَا مِن كُفْرِهَا الَّذِي كانت فِيهِ وهي متوجّهَةٌ لله بالدُّعاء، ومُعْلِنَةً إسلامَها له: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

• ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: أيْ: كُنْتُ ظَالِمَةً لِنَفْسِي فيما سَبَقَ مِنْ عُمْرِي، بالشِّركِ الذي كُنْتُ فيه، اتّباعاً لِقَوْمِي وتَقْلِيداً أعْمىٰ لآبائي وأجْدادي.

• ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾: أي: وأسْلَمْتُ مُنْذُ الآن إسْلاماً مبنيّاً على إيمانٍ صادقٍ.

• ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾: أي: مُصَاحِبَةً لَهُ فِي إسْلَامِهِ التطبيقيّ الْعَمَلِيّ، على وَفْقِ دِينِ اللّهِ لعباده.

• ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أسْلَمْتُ لِلّهِ رَبِّ العالمين جميعاً. والمراد بالعالَمينَ هُنَا كُلُّ مَا سِوىٰ اللّه عزّ وجلّ.

وبهذا تم تدبّر الدرس الثالث من دروس السورة والحمدُ للّه على توفيقه وفتحه ومَدَده.

❁ ❁ ❁

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دروس سورة (النّمل)
الآيات من (٤٥ ـ ٥٣)

وفيه لقطات من قصة صالحٍ عليه السلام وقومه ثمود.

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبو عمْرو وعاصم، وحَمْزة، ويعقوب: [أَنِ أعْبُدُوا] بكسر النّون في الوصل، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالضمّ مراعاةً لضمّ الباء. أمّا الكسر فهو على القاعدة في التخلّص من الساكنين.

(٤٩)• قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [لَتُبَيِّتُنَّهُ ـ لَتَقُولُنَّ] بتاء المخاطبين، وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ ـ لَنَقُولَنَّ﴾ بنُونِ المتكلّمين. والقراءتان وجهان يَدُلّان على ما نطق به الرَّهْط المفسِدُون، إذْ تَواصَوْا أوّلاً فأقسموا ثانياً.

(٤٩) • قرأ شعبة: [مَهْلَكَ] بفتح الميم واللّام. وقرأها حفص عن

عاصم: ﴿مَهْلِكَ﴾ بفتح الميم وكسر اللّام. وقرأها باقي القراء العشرة: [مُهْلَكَ] بضمّ الميم وفَتْح اللام.

«مُهْلَكَ» مصدر ميمي من «أَهْلَكَهُ إهْلاكاً ومُهْلَكاً» فهو يَدُلُّ على الإهلال، وعلى مكانه وزمانه.

«مَهْلِك» مصدر ميمي من «هَلَكَ يَهْلِكُ» والقياس منه «مَهْلَك» بفتح اللّام، وسُمِعَ «مَهْلِكِ» واسما الزّمان والمكان من «يَهْلِكُ» مَهْلِك.

وجاء: «هَلِكَ يَهْلَك».

فالقراءات الثلاث وجُوهُ عَرَبِيَّةٌ متكافِئَة، والمعنى: ما شَهِدْنا هَلَاكَ أَهْلِه، ولَا زَمانَ هَلَاكِهِم، ولا مكانه.

(٥١) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عامر، وأبو جعفر، [إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ] بِكَسْرِ همزه «إِنَّ» على الابتداء استئنافاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» على أنّ المصدر المؤوّل من «أَنَّ» وما بعْدَها بدَلٌ من ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾.

والقراءتان من التفنُّنِ في البيان والمؤدَّىٰ واحد.

(٥١) • قرأ ورْش، وأبو عَمْرو، وحفْصٌ عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتُهُم] بضمّ الباء، وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر الباء. وهما لغتان عَرَبيتان.

تمهيد:

سبق تدبّر عشرة نصوص تتعلّق بقبيلة ثمود إحدىٰ قبائل العرب البائدة الّتي أهلكها الله عزّ وجلّ بسبب كفرها وطغيانها، ومعلومٌ أنّ رسُولَهُمْ صالحٌ علَيْهِ السلام، وهي النصوص التي أذكُر سُورَها وأرقامَها فيما يلي:

١ ـ من سورة (الفجر/ ١٠ نزول) ـ الآية (٩).

٢ ـ من سورة (النجم/ ٢٣ نزول) ـ الآية (٥١).

٣ ـ من سورة (الشمس/ ٢٦ نزول) ـ الآيات من (١١ ـ ١٥).

٤ ـ من سورة (البروج/ ٢٧ نزول) ـ الآيتان (١٧) و(١٨).

٥ ـ من سورة (ق/ ٣٤ نزول) ـ الآية (١٢).

٦ ـ من سورة (القمر/ ٣٧ نزول) ـ الآيات من (٢٣ ـ ٣١).

٧ ـ من سورة (صٓ/ ٣٨ نزول) ـ الآية (١٣).

٨ ـ من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) ـ الآيات من (٧٣ ـ ٧٩).

٩ ـ من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ـ الآية (٣٨).

١٠ ـ من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) ـ الآيات من (١٤١ ـ ١٥٩).

ومجموع النصوص الواردة حول هذا الموضوع (٢١) نصًّا، والنَّصّ الموضوع للتدبر من سورة (النمل/ ٤٨ نزول) هو النص (١١).

والتدبّر التكامليّ للنُّصُوص كلِّها حوْلَ هذا الموضوع، لا بُدَّ أنْ يُفْرَزَ له ملحقٌ خاصٌّ به، وأسْأل الله أن يُعِينَني عليه، إنّه المِمِدُّ الْمُعِينُ الوهّاب[1].

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر هذه السورة: «دراسة تكاملية للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد».

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو عطفت هذا البيان عن ثمودَ ورَسُولِهِمْ صالحٍ عليه السَّلام، على البيان الكلّي الذي سبَقَ بالنسبة إلى أهل سبأُ أيام سليمانَ عليه السلام، إذْ كانَ أهْلُ سَبَأ صابئِينَ مُشْرِكين يَسْجُدونَ للشمس، كما سَبَقَ في التحليل والتفصيل.

وجاء هذا البيان مؤكّداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ إذ اللّام واقعة في جواب قسم منويٍّ كما يقول النحويّون، ولفظ «قد» للتحقيق، وهذا التوكيد مُوجَّهٌ لكبراء مُشْرِكي مكّة ومَنْ حَوْلَها، ومَنْ هُمْ أمثالُهم عبر التاريخ.

﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: أي: وَجَّهْنَا «صَالحاً» لأداء مُهِمَّةِ تَبْلِيغِ رِسالَةٍ عنَّا إلى قَوْمِهِ ثَمُود. وقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نسباً ولُغَةً وإقامَةً.

ثَمُود: قَوْمٌ من العرب، تكاثَرُوا بَعْدَ إهلاك اللّهِ عزّ وجلَّ «عاداً» قوم النبيّ الرَّسُول «هُودٍ» عليه السلام.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مصْرُوفاً مُنَوَّناً مُراعَاةً لاسم الجدّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْف مراعاةً لكونه اسماً للقبيلة المؤنثة.

كانت مساكن «ثمود» في أرض «الحِجْر» ولهذا سمّاهم الله في القرآن أصحابَ الحِجْر.

الحِجْر: أرْضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي القرى، وتقع في الطريق البرّيّ للمسافر من الشّام إلى الحجاز، وآثار مدائنِ هَؤُلَاء القوم ظاهِرةٌ حتَّىٰ الآن، وتُسَمَّى «مدائن صالح» وتُعْرَف دِيَارُهم أيضاً باسم «فَجِّ الناقة».

وثمود قبيلة من القبائل العربية الّتي أَهْلَكَ اللّهُ عزّ وجلَّ معظمها، ولم يَبْقَ منها بَعْدَ إهلاكهم إلَّا الّذِينَ آمَنُوا برسُولهم صالح عليه السلام.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: «أنْ» تَفْسِيريَّة. و﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تَفْسِيرٌ لمضمون الرِّسالَةِ الَّتي أَرْسَلَ اللّهُ عزّ وجَلَّ بها رسُولَهُ صالحاً إلَيْهِم.

والمراد: اعْبُدوا اللّهَ وحْدَهُ ولَا تُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ شيئاً، أخْذاً مِنْ دلَالَات النُّصُوص السَّابِقَةِ بشَأنِ قِصَّةِ صالحٍ وقومِه ثمود.

﴿. . فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: فَترتَّبَ علَىٰ إرْسَالِنَا صالحاً إلَيْهم، أنْ آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ منهم، وكذَّبَهُ وكفَرَ بما جاء به عن ربِّه فَرِيقٌ آخر، ونَتيجَةً للتناقض الفكْرِيِّ والاعْتِقَادِيّ بَيْنَ الْفَرِيقين المؤمِنِ والكافِرِ، صَارَ الفريقانِ يَخْتَصِمُونَ، فالمؤمنُون مع رسُولهم ولَوْ كانوا قِلَّةً مستضْعَفِين كانُوا يُقَدِّمُونَ الحجَجَ والبراهين على وجُوب تَوْحيد الله وإفراده بالعبادة، وطاعَتِهِ فيما بَلَّغَهُمْ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام عن رَبِّه، والَّذِينَ كذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهم وَكَفَرُوا بما جَاءَهُمْ بِهِ عنه، كانُوا يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، ويُعَانِدُون، ويُصِرُّون على تَقَالِيدِهم العمياء، وقَدْ يتخذونَ ضدَّ المؤمنين وسائل اضطهادِيَّةً، انتصاراً لشرِكيَّاتهم، وعَادَاتِهِم السُّلُوكيَّة، الَّتي فيها ظُلْمٌ وعُدْوان، وفجورٌ وطغيان.

الفاءُ الدالَّةُ على التّرتيب مع التعقيب في ﴿فَإِذَا﴾ هي عَلَىٰ معْنَىٰ فأدَّىٰ صالحٌ عليه السّلام رسالَةَ رَبِّه، وبلَّغَ الأَمَانَةَ على وفْق ما هو مطلوبٌ منْه، ونَصَحَ قَوْمَه، وبَيَّنَ لَهُمُ الحقَّ الرَّبَّانِيّ بياناً حَسَناً، فكانَتِ المفاجأَةُ الَّتي دلَّتْ علَيْها «إذا» الْفُجَائيَّة أنْ آمَنَ بِه واتَّبَعَهُ فَرِيقٌ منهم، وكذَّبَهُ وكَفَرَ بما جاءَ به عن رَبِّه فَرِيقٌ، وشَرَعَ الفريقان يختَصِمُونَ، فيُخَاصِمُ أفْرَادُ هذا الْفَرِيق المؤمِنِ، أفرادَ ذَلِكَ الفريق المكذِّب الكافِرِ.

دلَّ على هذا التخاصُم الإفرادي بَيْنَ الفريقَيْن، واوُ الجماعةِ في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، إذْ لَوْ كَانَ التخاصُمُ جماعيًّا بَيْنَ الْفَرِيقين، عَلَىٰ طَرِيقَةِ مُمَثِّلٍ لهؤلاء يُخَاصِمُ مُمَثِّلاً لأولئك، في مُجَالِسِ مُنَاظَرَة، لكان الملائم أن يقال: فإذا هُمْ فَرِيقانِ يخْتَصِمَان، لكِنَّ التخاصُمَ كان مُوَزَّعاً بيْنَ أفراد الفريقَيْن.

يقال لغة: «اخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وتخاصَمَ القوْمُ» أي: خاصَمَ بعضُهُمْ بعضاً. يقال: «خَاصَمَهُ، يُخَاصِمُهُ، مُخَاصَمَةً، وخِصَاماً» أي: جادَلَهُ، ونازَعَهُ، فَهُوَ مخاصِمٌ، وخَصِيمٌ، ويُجْمَعُ «خَصِيم» على «خُصَماء» وعلى «خُصَمَان».

والخصْم: المخاصم، يقال للواحد والواحِدَةِ والمثنى والجمع منهما، ويُثَنَّى فيقال: «خَصْمان» ويُجْمَعُ على خُصُوم، وخُصَماء، ويَطَّرِدُ فِيه «خِصَام» مثل: «صَعْبٍ وصِعَاب، وكلْبٍ وكلاب».

قال الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

دلَّتْ هذِه الآيَةُ على أواخرِ مواقِفِ مُكَذِّبي ثَمود لرسُولهم صالح عَلَيْهِ السلام، فَهِيَ مُعَبِّرَة عَنْ هذِهِ المواقف، بَعْدَ مَسِيرَةٍ دَعَوِيَّةٍ طَوِيلَةٍ اشتَمَلَتْ عليها سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السلام معهم، فهي منتزعة منها اختزالاً.

ودَلَّتْ علَىٰ أنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعِقَابٍ من اللَّهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إهْلَاكاً جماعيًّا فيه إبادَةٌ لكُفَّارِهم، وأَنَّ إنْذَارَاتِهِ كانَتْ تَتَوالَىٰ عليهم.

ودَلَّتْ على أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ كَانَ يُمْهِلُهُمْ، رَغْبَةً في تَوْبَتِهِمْ وإيمَانِهِم، إلَّا أنَّ الإمْهَالَ الطويلَ أغْراهُمْ بتَصْدِيقِ تَوَهُّمِهِمْ بأنَّ صَالحاً لا يَمْلِكُ مِن رَبِّهِ تحْقِيقَ مَا يُنْذِرُهم بِه، معَ أنَّ إنْذَارَهِ لَهُمْ لَمْ يَكُنْ إلَّا مُبَلِّغاً إيَّاهُ عن رَبِّه، ومن سُنَّةِ اللَّهِ أنْ يُمْهلَ عبادَهُ في الحياةِ الدُّنْيَا إمْهَالاً طَوِيلاً، حتَّىٰ يَقْطَعَ كُلَّ أَعْذَارِهم.

وتَدُلُّ هذه الآية بفَحْواها أخْذاً من تَراكُم أنْوَاع علاج كبراء مَكَّةِ، الَّتي اشْتَمَلَتْ عليها السُّوَرُ الّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَة (النمل) على أنَّ هَؤلاءِ الكبراء قَدْ بَدَؤُوا يَسْتَعْجِلُونَ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بإنْزَالِ ما كان يُنْذِرُهم به

من مُهلِكَاتٍ، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ في إنْذَارَاتِهِ لهم، فَضَرَبَ اللَّهُ لهم مَثَلَ ثَمُود الّذِين استَعْجَلُوا بتحقيق مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُم، فَحقَّقَ الله عزّ وجلّ بهم، ما كانوا يَسْتَعْجِلُونَ به، فأهْلَكَهُمْ إهْلاكاً شامِلاً مَقْرُوناً بِتَعْذِيبِ ذِي آلَامِ شَدِيدَة.

الاستِعْجال: طَلَبُ تَعْجِيلِ الأمْرِ الموعُود بِهِ قَبْلَ أوانِه، أو طَلَبُ تَحْقِيق الشيء قبْلَ الوقْتِ الذي قَضَتْ سُنَّةُ الله الحكيمةُ بتحقيقِه فيه. جَاءَ فِعْل «اسْتَعْجَلَ» بمعْنَىٰ «عَجِلَ» أي: أَسْرَعَ، فهو لازم يتعدّى بالحروف.

أي قال رسولُ اللَّهِ صَالحٌ عليه السَّلام لكُفَّارِ قومِه: يا قَوْم لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَب ما أنْذَرْتُكُمْ بِهِ من عذابِ رَبّكم وإهلاكِكُمْ إهْلَاكاً مُدَمِّراً؟!

ومَوْقِعُ هذِه الآيَةِ يأتي بَعْدَ قَوْلِهِمْ لصَالِحٍ عليه السلام، الّذي جاء بيانُه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله تعالى:

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

السّيّئَة: تُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَة. وعلَىٰ كلّ فَعْلَةٍ قبيحة. والمعنىٰ الأولُ هو الملائم هنا.

الحَسَنة: تُطلَقُ علَىٰ الحُظُوظِ الْحَسَنَةِ السارّة، وعلى النِّعَمِ الّتي يستَمْتِع بها الّذِينَ نالُوها مَتاعاً محْبُوباً إلى نفوسهم.

وتُطْلَقُ على كلّ فعلة جميلة يُمْدَحُ فاعِلُها. والمعنى الأوّل هو الملائم هنا.

فالمعنى الذي أَفْهَمُهُ من عبارة صالحٍ عليه السلام لكُفَّار قومِهِ كما جاء في هذه الآية ما يلي:

يَا قَوْمِ، لِمَ تَعْجَلُونَ بطَلَبِ إنْزَالِ السَّيِّئَةِ الَّتي تَكْرَهُونَ إنْزَالَهَا بِكُمْ إذَا

نَزَلَتْ، قَبْلَ أنْ تَسْتَوْفُوا حُظُوظَكُمْ الْحَسَنَةَ الَّتِي قَضَىٰ اللَّهُ أنْ تَسْتَمْتِعُوا بِها في الحياة الدّنْيَا. إنَّ رَبَّكُمْ يُمْهلكُمْ رَغْبَةً في تَوْبتكم واستغفاركم ما دَامَتْ حكْمَتُهُ تَقْضِي بإطالة مُدَّةِ امتحانِكُمْ في هذِهِ الحياة.

وهَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ رَاجِينَ أنْ يَشْمَلكُمْ برَحْمَتِهِ، وتُؤمِنُونَ وتَعْمَلُون صالحاً، ليَغْفِرَ لَكُمْ كُفْرَكُمْ وجرائمكُم الّتِي ارتكَبْتموها.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: أصْلُها: «يَا قَوْمي» حُذِفَتْ ياء المتكلم واكتفيَ بالكَسْرَة دليلاً عليها. وهذا الحذف أجْودُ اللّغاتِ السِّتّ في هذه العبارة وأشباهها.

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ استفهامُ مُتَعَجِّبٍ من أمْرِهم ونَاصِحٍ لهم.

﴿لَوْلَا﴾: تحضيضيَّةٌ بمعنى «هلّا».

﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: أي: هلّا تَسْأَلُونَ اللَّهَ أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ فيتجاوز عن كُفْرِكم وجَرَائمكم فلا يعاقبكم عليها رَحْمَةً مِنْه بكم.

الاستغفار: طلَبُ الغفران، وهو سَتْرُ الذَّنوب والمَعاصِي، وهذا يقتضي بفضل الله التجاوزَ عن الْمُعَاقَبَةِ عَلَيْها، ويَنْبَغي أَنْ يكون الاستغفارُ مُسْتَتْبعاً بالتوبةِ من الذّنُوب، فَكَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَتْرِ الذّنْبِ الماضِي مع الإصرار على فِعْلِ مِثْلِه في الحال أو الاسْتِقْبَال؟!.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: **لَعَلَّ**: للتَّرَجِّي، والتَّرجِّي يُلائم حَالَ الْعِبَاد، ولا يُلائِمُ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهو علَىٰ ما يشاءُ قَدِير. فالمعنىٰ: هلَّا تَسْتغْفِرونَ اللَّهَ عزّ وجلَّ رَاجِين أنْ يَرْحَمكُمْ فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبكم، ويَرْفَعَ عَنْكُمْ مَا أنتم تَسْتَحِقُونَ من عِقَابٍ على ما سبَقَ مِنْكُم من كُفْرٍ وَجرائِمَ سلوكيّة.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾:

﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ أَصْلُها «تَطَيَّرْنا» قُلِبَتِ التاء طاءً لقُرْبِ مَخْرَجهما، وسُكِّنَتْ، وأدْغِمَتْ بالطاء، وجيء بهَمْزَةِ الْوَصْلِ إذْ صَارَتِ الكلمةِ مُبْتَدأةً بساكن، والغرض تخفيف النطق.

التَّطَيّر: التَّشَاؤُم بالأشياء، أو بالأشخاص، أو بَمَسْمُوعٍ أو مَرْئيّ، أو نحو ذلك.

وأصْلُ التطيُّرِ من زَجْرِ الْعَرَب للطَّيْر، فإذا طار إلى جهةِ الْيمينِ تفاءَلُوا، وإذا طار إلى جِهَةِ الشِّمال تَشَاءَمُوا.

وقد دلَّت هٰذِهِ الآية على أن اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَنْزلَ بِثَمُود عَلى عادَتِهِ مَقَادِيرَ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ رغبةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيتضرّعُوا سائلين اللَّهَ عزَّ وَجلَّ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِمْ صَالِحٍ عليهِ السَّلام، وبما جَاءَهُمْ به عن رَبِّهم.

هٰذِهِ السُّنَّة قَدْ أَبَانَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (الأعْرَافِ ٧/ مصحف ٣٩/ نزول).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤﴾:

البَأْسَاءُ: الجوع، والمشقة، والفقر، وضَنْكُ العيش، والحرب.

الضَّرَّاءُ: الشِّدَّة، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ فِي الأموال والأنفس، والغرض تَذْكيرهم بِربّهم، لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُوهُ، ويَدْعُوهُ سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكرهُونَ، لَكِنَّ الْكَافِرِينَ يَنْسُبُونَ ظَاهرات البأسَاءِ والضَّرَّاءِ إِلَىٰ شُؤْمِ رُسُلِهِمْ وَشُؤْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّطَيُّرِ الْوَهْمِيِّ، الَّذِي لَا يَكونُ الْمُتَطَيَّرُ بِهِ سَبَباً لحدُوثِ مَصَائِب البأسَاءِ والضَّرَّاءِ بحالٍ من الأحوال.

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَقَّلُونَ بالأوهام الْبَاطِلَةِ، وَيُكَذِّبُونَ الرُّسُلَ الصَّادِقِينَ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُبَلِّغُونَهُ عَنْ رَبِّهِم.

كذلك فَعَلَتْ ثَمُودُ، قَوْمُ الرَّسُولِ صالح عليه السلام، لَمَّا أَخَذَهُمْ اللَّهُ عزّ وجلّ بالبأساءِ والضَّرَّاءِ لِيَتُوبُوا، وَيَسْتَغْفِرُوا، وَيَتَضَرَّعُوا إلى بَارِئِهِم، لم يكن منهم إلَّا أَنْ يَتَشَاءَمُوا برسولهم صالحٍ عليه السلام وبِمَنْ معهُ من المؤمنين.

فقال لهم صالح عليه السلام ما أبانه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿... قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: عَمَلُكُمْ انْطَلَقَ طَائِراً فَصَارَ ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ عِلْماً وتَسْجِيلاً وَحِسَاباً، وهُوَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ بكم من البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ مَا تَكْرَهُونَ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَتُوبُوا إليه، وتَسْتَغْفِرُوهُ، وَتَتَضَرَّعُوا سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْكُمْ مَا أَنْزَلَ بِكُمْ مِنْ مَصَائِب.

لكِنَّكُمْ صَرَفْتُمْ هٰذِهِ الْحقِيقَةَ عَنْ أَذْهَانِكُمْ وَتَمَسَّكْتُمْ بِأَوْهَامِ التَّطَيُّرِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَرِيعَةٌ تَتَهَرَّبُونَ بِهَا مِنَ الحقّ.

واختير لفظ الطائر كناية عن العمل لِيَتَلَاءَمَ في اللَّفْظِ مَع الطِّيَرَةَ المشْتَقَّة من الطائر، وهي كناية قرآنية.

والمعنى: لَا شُؤْمَ مِنِّي ولا مِنَ الذين آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، فَتَسْتَجِيبُونَ لوساوس الشيطان وإغراءاتِهِ وَتَسْوِيلاتِهِ بالباطِل، مُنْخَدِعِينَ بِهَا، إذْ يُزَيِّنُ لَكُمْ شَهَوَاتِكُمْ مِن الحياةِ الدُّنيا، وَيُزَيِّنُ لَكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَتَتَأثَّرُونَ بِهَا ضَالِّينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ صِرَاط الحقّ، صراط الله المستقيم.

الفِتْنَة: تَأْتِي للدَّلَالَةِ عَلَى مَعَانِي عَدِيدَة، منها الابتلاء، ومنها الإغْرَاءُ والخِدَاعُ بِالْبَاطِلِ للإضْلَالِ وَالصَّرْفِ عَن الحقّ، وهٰذا المعنىٰ هو الملائم هنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتَابعُ شياطين الإنس والجنّ عَلَيْكُمْ وسَائِلُ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ لِإِضْلَالِكُمْ، فَتستجيبون لهم فتضِلُّون عن إدْرَاكِ الحقّ والاسْتِمْسَاكِ بِهِ، والْعَمَلِ بما يقتضيه مِنْكُمْ مِنْ سُلُوكٍ. دلَّ على هذه المتابَعة الفعل المضارع.

وقُدِّم المسند إليه في عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لتَعْيين افتِتَانِهِمْ وضلالهم، في مقابل انتفاء الشُّؤم الَّذِي ادَّعوه بقولهم لرسولهم صالح عليه السلام: [إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ] دلّ على هذا «بل» إذ العبارة بقوة: إنَّما أنتم تُفْتَنُونَ، لا شُؤْمَ يأتي من قِبَلِنَا حَتَّىٰ تَطَّيَّرُوا بنا.

قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

الرَّهْط: الْجَمَاعَة من الرّجال دون العشرة.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: لمّا كانت كَلِمةُ «رهط» بمعنىٰ «رجال» صَحَّ تمييز لفظ «تِسْعَة» بمضاف إليه مجرور، كقَوْلِنَا: «تِسْعَةُ رِجَالٍ».

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُفْسِدُونَ فِي أَرْضِ مَدِينَةِ ثَمُودٍ وَرُبَّمَا فِي غَيْرِها أيضاً.

الإفْسَادُ: تَحْوِيلُ الشَّيْءِ من كونِه صالحاً نَافِعاً، إلى كونه غير صالِحٍ ولا نافع، بلْ رُبّما يصِيرُ ضاراً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إثبات أنَّهُمْ يُفْسِدُون، لا يَنْفِي أنَّهم قَدْ يُصْلِحُونَ أحْياناً، فجاءت عبارةُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دالَّةً على أنَّهُمْ لا يكون منهم صلاح ولا إصْلَاحٌ ما في كُلّ أعمالهم وتَصرُّفاتهم[1].

---

(١) انظر قصة ثمود وهؤلاء الرَّهط التسعة منهم، في المجلد الرابع الصفحات من (٣٥٦ ـ ٣٦٨) أخذاً ممّا جاء في القرآن، ثم من حكايات تاريخيَّةٍ ذكرَها المؤرخون.

فعل «أَصْلَحَ» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأول: يقال فيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ» أي: أتىٰ بما هو صالحٌ نافع، فهو لازم هٰذا المعنى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فِيهِ: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أزال فساده، فهو متَعَدٍّ على هذا المعنى.

وكلا المعنَيَيْنِ ينطبقان على هؤلاء الرَّهط التسعة.

فدلَّ قول الله عزّ وجلّ في وَصْفِهِمْ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على أنّهم لَا يكون منْهُمْ إلَّا الْفَسَادُ والإفساد، ولا يكون منهم صَلَاحٌ وَلَا إِصْلاح.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ، أي: قَالَ بَعضُهُم لِبَعْضٍ: لِيُقْسِمْ كُلٌّ مِنَّا باللَّهِ. ويُلائِمُ هٰذا قِرَاءَةُ [**لَتُبَيِّتُنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَتَقُولُنَّ**] بالتاء.

وأمّا قراءة [**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ**] بالنون، فالفعل في عبارة: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ هو فعْل أمْرٍ أيْضاً فيما أرىٰ، وتكون عبارة: [**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ**] مَقُولَ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ هو حالٌ، وتقديرُ الكلام كُلِّهِ علىٰ الوجه التالي: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فَأَقْسَمُوا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ وَلَا مَهْلِكَهُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾. ومِثْلُ هٰذا الحذفِ كثير في القرآن المجيد، ويُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ بشيءٍ من التَّأَمُّلِ، ولا حاجَةَ إِلَىٰ تَخْرِيجَاتٍ مُتكلِّفَاتٍ، الْتِزَاماً بقواعِدِ النُّحَاةِ ذاتِ النِّظَامِ الصِّنَاعِيِّ الشَّكْلِيِّ.

التَّبْيِيتُ: عَمَلُ الشَّيْءِ، أو تَدْبِيرُهُ، أو الاتِّفَاقُ عَلَيْهِ، أو نِيَّةُ فِعْلِهِ لَيْلاً، ومن نيَّةِ الْعَمَلِ لَيْلاً تَبْيِيتُ الصِّيام، بِالْعَزْمِ على أَدَائِهِ من طلوع الْفَجْرِ حَتَّىٰ غُروبِ الشَّمسِ، وَمِنْ عَمَلِ الشَّيْءِ ليلاً مُبَاغَتَةُ الْعَدُوّ لَيْلاً لِقَتْلِهِ أَوْ سَلْبِهِ أو إِنْزَالِ مَا يَكْرَهُ بِهِ.

والَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ الأشقياءُ التِّسْعَةُ مِنْ قَوْمِ ثَمُودَ، أَنْ يَقْتُلُوا صالحاً عليه السَّلام ليلاً على سبيل المباغَتَةِ، وَيَقْتُلُوا مَعَهُ أَهْلَهُ في دارِهِ، فِي وَقْتٍ لا يَراهُمْ فيه أَحَدٌ، لِيَتَسَنَّى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لأوليائه من أقربائه: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا مَهْلِك أَهْلِهِ، وإنَّا لصادقون.

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: لأقربائه الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بالثَّأر.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا مَهْلِكَ أهْلِه، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هلاكهم، حَدَثاً ولَا زماناً ولا مَكاناً.

نَفْيُ الشُّهُودِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْي الْفِعْلِ، لأنَّ نَفْيَ الْفِعْلِ قَدْ يَكونُ مَع الْحُضُورِ والشُّهُودِ، لكنّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ بِهَلَاكِهِمْ قدْ كَانَ تَلَقِّياً مِنْ أَخْبَارِ النَّاس.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: أي: ونُؤَكِّدُ لَوَلِيِّهِ صِدْقَنا في أَنَّنَا مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُمْ، ففِي هذه العبارة التوكيد بـ«إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللَّامُ المزَحْلَقَةُ لِلْخَبَرِ».

قول اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾.

الْمَكْرُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ تَدْبِيرُ أَمْرٍ مَا فِي خفاء. ومَعْلُومٌ بداهَةً أنَّ مَا يُدَبَّر في خَفَاءٍ لَا يَلْزَمُ عقلاً وواقعاً أَنْ يَكُونَ شَرّاً ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خيراً. وَمَا يكونُ مِنهُ خيراً لَا يُنَافِي الكمالَ، بَلْ هُوَ مِنْ صُوَرِهِ وَأَمْثِلَته.

إنَّ الحاكم الْعَادِلَ يَمْكُر، وَمَكْرُهُ لَا يَكُونُ إلَّا خيراً، إنَّهُ قَدْ يمكُرُ بالمجرِمينَ حتَّىٰ يَقْبِضَ عَليْهم لإقامَةِ الْعَدْل. والْمُسْلِمُ الْمُلْتَزِمُ بأحكام وشرائع الدِّين يمكر، ومَكْرُهُ يكونُ خيراً يبتغي به رضوانَ اللَّهِ والْجَنَّةِ.

واللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَمْكُر، وَمَكْرُهُ هُوَ خَيْرٌ دواماً، وهُوَ خَيْرُ الْماكِرِينَ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لا يَعْلَمُونَ أقَلَّ عِلْمٍ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

دَلَّ هٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ أشقياء ثَمُودَ دَبَّرُوا في الخفاء قَتْلَ صالح عليه السلام وأهْلِهِ مَعَهُ لَيْلاً، واتَّفَقُوا على هٰذا مع كُبراءِ كُفَّار قَوْمِهِمْ، وَكَتَمُوا الأمْرَ، وَعَيَّنُوا لَيْلَةً لِتَنْفِيذِ مَا مَكَرُوهُ.

إلَّا أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ مَكَرَ مَكْراً آخَرَ بِهِمْ فِي الخفاءِ، دُونَ أَيِّ شُعُورٍ مِنْهُمْ، إذْ قَضَىٰ بإهْلَالِ الْأَشْقِيَاءِ وإهْلَالِ جَمِيعِ كُفَّارِ ثَمُودَ قَبْلَ الْمَوْعِدِ الَّذِي قَرَّرَ الأشقياءُ قَتْلَ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ فِيه، غِيلَةً وَبَيَاتاً.

وأنفذ اللَّهُ عزَّ وجلَّ تدبيرَه، وأنْزَلَ بالأشْقياءِ وبسائِرِ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، وَسَائلَ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلاكِهِمْ، وَتَدْمِيرِ مَسَاكِنِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَوَجَّهَ الْعِظَةَ لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّىٰ هٰذا الْبَيَانَ بِخِطَابٍ إفرادِي، قائلاً له:

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: أي: فانْظُر أيُّهَا الْمَتَلَقِّي المستَعِدُّ للاتِّعَاظِ مُتفَكِّراً، الحالَةَ الَّتي وُجِدَتْ عَلَيْهَا عَاقِبَةُ كُفَّارِ ثَمُودَ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مَكْرٍ.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: الْمَصْدَرُ المؤوَّل من «أَنَّ»، وما بَعْدَهَا بَدَلٌ من ﴿عَاقِبَةُ﴾: أي: فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ تَدْمِيرنا الأشقياء التِّسْعَةَ وَكُفَّارَ قَوْمِهِمْ أَجْمَعِينَ.

العاقِبَة: الْجَزاءُ الَّذِي يكُونُ بَعْدَ عَمَلِ العامل.

التَّدْمِير: هو الإهلالُ مع إبَادَةِ الْمُهْلَك، وهذا يكُونُ مصحوباً غالباً بتَعْذِيبٍ شَدِيد. يقال لغة: «دَمَّرَ اللهُ الْقَوْمَ تَدْمِيراً، وَدَمَّرَ عليهم» أي: أَهْلَكَهُمْ. ويقال: «دَمَّرَ اللَّهُ الْقَرْيَةَ وَدَمَّرَ عَلَيْهَا» أي: أبادَهَا وَجَعَلَهَا دَارِسةً.

وعلى قراءَةِ **[إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ]** بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنَّ» تكونُ الجملةُ مُسْتَأْنَفَةً، جواباً لِسُؤالٍ مَطْوِيٍّ تقديرُهُ: كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهم؟ فجاءَ الجواب: إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.

والقراءتَانِ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي التَّعْبِيرِ، والمؤَدَّىٰ وَاحِد.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ الباقِيَةُ مِنْ آثَارِهِمْ فِي مَدَايِنِ صَالِحٍ حَالَةَ كَوْنِها خَالِيَةً مِنْهُمْ وَمِنْ أي سَاكِنٍ من الناس. بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

﴿خَاوِيَةً﴾: أي: خاليةً من السَّاكِنينَ، يقالُ لغة: «خَوَىٰ المكانُ ونَحْوُه يَخْوِي، خَيّاً، وخَوَاءً، وَخَوىً، وَخُوِيّاً» أيْ: خَلا، والكلمة مَنْصُوبَةٌ علىٰ أَنَّهَا حالٌ، والعامل فيه ما في اسْم الإشارة من معنى «أُشِيرُ».

وإنَّ آثارَهم تَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَهُمْ إِهْلاكاً جَمَاعِيًا، دَمَّرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيراً.

وَأَكَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ فِي هٰذَا الإِهْلَاكِ التَّدميريّ ذي الآثَارِ الباقِيَةِ فِي أَرْضِهِمْ، لَعَلَامَةً جَلِيَّةً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ يُعَاقِبُ فِي الُدنيا الكافرين الطَّاغِينَ المجرمين، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، لِتَطْهِيرِ الأرْضِ مِنْهُم، ولِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: إنَّ فِي ذٰلِكَ لعلامَةً واضِحَةً عَلَىٰ عَدْلِ اللّهِ وجزائه، مُوَجَّهَةً لِقَوْمٍ هُمْ مُسْتَعِدُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَجَارِيَ سُنَنِ اللّهِ في عِبَاده، وحِكْمَتِهِ فِي تَصَارِيفِهِ، فَإِذَا عَلِمُوا مِنْهَا شَيئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دافعاً لهم إلىٰ الالْتِزَام بطاعَتِهِ، فِي أداء ما فَرَضَ عَلَيْهِمْ، واجتنابِ ما نهاهُمْ عنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: وَخَلَّصْنَا مِنَ الإهلاكِ التَّدْمِيرِيّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلام، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ لإيمانِهِم تأثيرٌ في سُلُوكِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عقاب اللّهِ على الْمَعَاصِي، بِفِعْلِ مَا يأمُرُهم بِهِ أَمْرَ إيجابٍ وإلزامٍ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَحظر.

النجاة: الخلاصُ من المكروه، يقال لغة: «نَجا، يَنْجُو، نَجَاءً، وَنَجَاةً مِن الشيء» أي: خَلَصَ مِنْ مَكْرُوه مُرْتقَبِ الْحُدُوثِ مِنْ قَبْلِهِ. ويُقال: «أَنْجىٰ اللّهُ فُلاناً وَنَجَّاهُ» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوه مُتَوَقَّع الحُدُوث.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بينهم وبَيْنَ ما يَضُرُّهم ويَسُوؤهُمْ وِقَايَة، والوقايةُ من عقابِ اللهِ وعذابِهِ، تكونُ بِصِدْقِ الإيمانِ به وبما أوْجَبَ الإيمان به، وبطَاعَتِهِ مع الإخلاصِ لَهُ جلَّ جلالُهُ وعَظَمُ سُلْطَانه.

ما طُوي بيانُه في هٰذا النّصّ ممَّا أراد اللّهُ بيانَهُ من قصَّةِ ثَمود ورَسُولهم صالح عليه، قَدْ جاء بيانُهُ في النصوص الأخرىٰ الموزعَةِ في سُوَرِ الْقُرآنِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (النمل) والْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَدَدِهِ ومعونته وفَتْحِه، إِنَّهُ العظيم الجليلُ الوهَّاب.

❁ ❁ ❁

(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الخامِسِ مِنْ دُرُوسِ سورة (النمل)
الآيات من (٥٤ ـ ٥٨)
وفيه لقطات من قِصّة لُوطٍ وقومه

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

القراءات:

(٥٧) • قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] بفتح الدال دون تشديد من فعل «قَدَر» وقرأها باقي القراء العشرة ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ بفتح الدَّال مَعَ تشديد من فعل «قَدَّرَ».

قَدَرَ وقَدَّرَ: لغتان لمعنى واحد، يقال لغة: «قَدَّرَ الأَمْرَ وقَدَرَهُ» أي: دَبَّرَه قبل إيجادِه مُحَدِّداً مَقَاديره.

فالقراءتان متكافئتان، وفي «قَدَّر» معنىٰ التشديد على تنفيذ الأمر.

(٥٨) • وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

والقراءتانِ لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ لنُطْقِ هَاءِ الضمير.

تَمْهِيد:

سَبَقَ تَدَبُّرُ هذا النّصّ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا مَع سَائر النصوص القرآنية المتعلقة

بلوطٍ عليه السلام وقومه أهل سَدُوم، في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

ولِذَا أقْتَصِرُ هُنَا على تَحْلِيلِ هذا النَّصّ، دُونَ أَنْ أَدْرُسَهُ دِرَاسَةً تكامُلِيَّةً مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الّتِي تَتَعَلَّقُ بفقراتِهِ[1].

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: واذْكُرْ أيُّها المتَلَقِّي رَسُولَنَا لُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُوم، وقدْ كَانُوا سُكَّانَ خَمْسِ قُرى فِي مَكَانِ الْبَحْرِ الميِّتِ قَبْلَ إهلاكِهِم، وقَلْبِ بلادِهم عاليها سَافِلَها.

﴿... أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ استفهامٌ إنكاريٌّ تَنْدِيديٌّ بفاحِشَتِهم الَّتي يَسْتَعْلِنُونَ بِها، وَيُبْصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لَدَىٰ مُمَارَسَتِهَا، اسْتِمْتَاعاً بما يُشَاهِدُونَ.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾؟ استفهام إنكاريّ تَنْدِيديٌّ آخَرُ وَجَّهَهُ لُوطٌ عليه السّلامُ لقومِه.

وفي كلا الاستفهامَيْنِ مَعْنَىٰ تَوْبِيخِهم، وَأنَّ المسْتَفْهَمَ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ المستغربة، الَّتِي لَا يتصَوَّرُ العقلاء الأسْوِياء أنْ تكُونَ ظاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ سُلُوكِ مُجْتَمَعٍ بَشَرِيّ.

الْفَاحِشَةُ: كُلُّ قَبِيحٍ تَجاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ مِنْ مُمَارَسَاتٍ شَنِيعَة فِي

---

(١) انظر المجلد الخامس الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١).

مَعَاصِي النّاس، وتجمع على فواحِش، وجاء في القرآن تخصيص هذه المادّة اللّغوية بكَبَائِرِ الذُّنُوب المتعلّقة بِشهواتِ الفروج، في معظم النُّصوص صراحةً.

والمرادُ هُنَا بالفاحِشَة في هٰذا النَّصِّ إتيانُ الذكور شهوةً من دون النِّساءِ في أدْبَارِهم.

﴿... بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ دَلَّتْ هٰذِهِ العبارَةُ على مَطْوِيٍّ يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدَبّر.

إنَّ لُوطاً عليه السلام، لمَّا شَدَّدَ النَّكِيرَ علَى قَوْمِه، ولا سيما إنكارُهُ قَبيحَةَ حُضُورِهِمْ وَمُشَاهَدَتِهِمْ بِأَبْصارِهِمْ مُمَارَسَاتِ بَعْضِهِمْ إتْيَانَ الرِّجَالِ مِنْهُم، رَدُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ مثلاً: لَسْنَا شَاذِّينَ فِي أَعْمَالِنَا هٰذِهِ عَنْ سَائِرِ الْأَقْوَام، فَكُلُّ الأقْوَام يَفْعَلُونَ مِثْلَمَا نَفْعَل فَقَال لهم لوطٌ عليه السّلام: ﴿.. بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

أصْلُ الجَهْلِ مأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جهلاً، أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُهَا، وهُو ضِدُّ تَحَلَّمَتْ.

ويقال لغة: جَهِلَ فُلَانٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ، أَيْ: جَفَا وَتَسَافَه.

ويُطْلَقُ الْجَهْلُ بِمَعْنَىٰ عَدَمِ الْعِلْمِ بالشيء.

فَدَلَّ الْفِعْلُ المضارع في: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ الَّذِي يُفِيدُ مَعْنَى التكْرَارِ والتَّجدُّدِ، على أَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إلى مُمَارَسَاتِهم قَبِيحَتَهُمُ الشَّاذَّة، غَلَيَاناً غَضَبِياً ضِدَّ مَنْ يُنْكِرُ عَليهم، ويُضيفُونَ أيضاً جفاءً وتَسَافُهَا وشَتَائِمَ يُوَجِّهُونَهَا له، أَوْ يُوَجِّهُونَهَا لِمَنْ يُحِبُّونَ أَنْ يُمَارِسُوا بِهِ فَاحِشَتَهُمْ، وَهُوَ يأْبَىٰ لأنَّهُ لم يَعْتَدْهَا ولَيْسَ مِنْ أَهْلِها، فَيَغْتَصِبُونَهُ اغْتِصَاباً جَمَاعِياً، فَهُمْ بهذا يَجْهَلُون بِتِكْرَارٍ آناً فآناً، وتتفاقَمُ الجهالَاتُ الصادراتُ عَنْهُمْ شِدَّةً وَعُنْفاً.

وعلى هذا المعنى قال الشاعِرُ العربيّ:

أَلَا لَا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هٰذِهِ الآية تَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ لُوطٍ عليه السلام الدَّعَوِيَّةِ في قَوْمِهِ، فَهِيَ مُقْتَطَعَةٌ مِنْهَا اقْتِطَاعاً اخْتِزَالِياً.

وَدَلَّتْ «الفاء»، في ﴿فَمَا﴾ الدَّالَّةُ على الترتيب مع التعقيب، عَلَىٰ أَنَّ مَا جَاء فِي هٰذِهِ الآيَةِ، كَانَ أَوَّل مراحِلِ التفكير بتَقْدِيم اقتراحٍ من قِبَلِ كُبَرَاء قَوْمِه، بإخْرَاجِ لُوطٍ وآلِهِ من أَرْضِهِمْ.

أي: قال بَعْضُ كُبَرَائِهِم فِي نَادِيهِمْ هٰذا الْقَوْلَ عَلى سَبِيلِ إِبْدَاءِ الرأي، وسَكَتَ الباقُونَ، وفي هٰذِهِ المرحلة لم يتَّخِذُوا قراراً بإخراجهم.

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أي: من مُجَمَّعِكُمُ السَّكَنِيّ، وهو يَشْمَلُ المركَزَ الرَّئِيسَ وَتَوابعه.

القرية: تُطْلَقُ في اللُّغَةَ عَلَىٰ كُلّ أَرْضٍ فِيها بُيُوتٌ وَمَساكِنُ مُجْتَمِعة قَلَّتْ أم كَثُرَتْ، ولَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جدّاً.

وقال أهل اللُّغَة: القريَةُ الْمِصْرُ الجامع.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: إِنَّـهُـمْ أُنَـاسٌ يَـتَـنَـزَّهُـونَ دواماً عـن الفواحِشِ، ويَنْتَقِدُونَهَا، وَيُشَدِّدُونَ في التَّلْوِيم عَلَيْهَا، فَطِرِيقَتُهُمْ مُخَالِفَةٌ لِطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجُودُهُمْ بَيْنَكُمْ يُنَغِّصُ عليكم أَمْرَكم في ممارسَة مَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، وَمَا تَشْتَهُونَهُ مِمَّا هو من عادَاتِكم.

ومَقْصِدُهُمْ من «آل لوط» لوطٌ عليه السَّلامُ وابْنَتَاهُ، أو بناتُهُ الثلاث، وزَوْجَتُه إذا كانت حَرِيصَةً على مُلَازَمة زَوْجِهَا وبناتِها، فَقَدْ كَانَتْ كَافِرَةً

وَعَلَىٰ هَوىٰ قَوْمِهَا، وخَائِنَةً لِزَوْجِهَا، بِتَبْلِيغِ قَوْمِهَا الأخْبَار الَّتِي تُهِمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مَعَ لُوطٍ زَوْجِهَا.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هاتان الآيتان تُعبِّرانِ باخْتِزَالٍ شَدِيدٍ عَنِ الْفَصْلِ الأخير منْ فُصُولِ قِصَّةِ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلامِ، مَع قَوْمِهِ أَهْل سَدُوم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ يَتَحدَّثُ رَبُّنا جَلَّ جلالُهُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، مُبيِّناً أَنَّهُ في أَوَاخِرِ اللَّحظاتِ الشديدات من حياةِ لوطٍ عليه السّلام مع قَوْمِهِ، أَنْجاهُ مِنْهُمْ ومن كَيْدِهِمْ، وأَنْجاهُ من العذابِ، والْهَلاكِ الَّذِينَ قَضَىٰ بِإِنْزَالِهما عَلَيْهِمْ، وأنجىٰ أَهْلَهُ مَعَهُ، باسْتِثْناءِ امرأتِهِ الّتي كَانَتْ كَافِرَةً، فَقَدْ نَزَلَ بِهَا العذابُ والإهلاك مع قَوْمِها، دَلَّ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: جَعَلْنَاهَا لَدَى تَحْدِيدِ المقادير المتعلّقَةِ بلُوطٍ وأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمَاضِينَ مِنْ قَوْمِهِ بالتَّعْذِيبِ والإهلاك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه العبارة تَكْرِيرٌ لِمَا جَاء فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في الآية (١٧٣) ومُقْتَضَى التكرير كوْنُها بمثابَةِ العلاجِ الدوائي، الَّذي تحتاجُ طبائع النفوس إلى تكْريرِهِ.

وهذا المطر الذي أمْطَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ قد كان أشدّ الأمطار سوءاً، ولهذا ذَمَّهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

فعل «سَاءَ» مثْلُ فِعْل «بِئْسَ» في أحكامه، فهو لإنشاء الذّمّ على سبيل المبالغة، وفاعله ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. دلَّتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ عَلَىٰ أَنَّ لُوطاً عليه السَّلام قَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ وإهْلَاكٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَزَّ وجلّ بهم، إذا لم يُقْلِعُوا عنْ كُفْرِهِمْ وَقبائِحِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ.

أمّا الْمَطَرُ السَّيّئ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عليهم، فقد كانَ حجارَةً مِنْ سِجِّيل، كَمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزّ وجلّ في الآيتين (٨٢) و(٨٣) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)، وهي حجارةٌ أصْلُها طِينٌ تَحَجَّرَ، ورُبَّما كَانَ للنَّارِ تأثِيرٌ في جَعْلِهِ مُتَحجّراً.

ومُحِيَ مِنْ سجِلِّ المجْتَمَعَاتِ البشريّة الباقية أهْلُ سَدُوم، قَوْمُ النبيّ الرَّسُولِ لُوطٍ عليه السلام.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس الخامس من دُرُوس سورة (النمل) والحَمْدُ لله على توفيقه ومَدَدِهِ وفَتْحه.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبر التحليلي للدرس السادِس من دُرُوس سورة (النَّمل) الآيات من (٥٩ ـ ٧٥)

وفيه تعليمُ مُناظَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ حَوْلَ توحيد الرُّبوبيَّةِ والإلٰهِيَّةِ لله عزَّ وجل، وتعليمٌ بِشَأْنِ بعضِ طَرَائِقَ إقْنَاعِيَّةٍ لإثباتِ الآخِرَةِ تُلائم الطَّوْرَ الذي وَصَلَ إِلَيْهِ كُبَرَاءُ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ نزول هذه السورة.

وفيه تَرْبِيَةٌ لِلرَّسُولِ مُحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، تُوصِيه بأن لا يَحْزَنَ عَلَىٰ كُفَّارِ قَوْمِهِ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الأَقْرَبِينَ، وَأَنْ لَا يَضِيْقَ صَدْرُهُ مِمَّا يَمْكُرُونَ ضِدَّهُ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

القراءات:

(٥٩) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، ويَعْقُوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بياء الغائبين.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بياء المخاطَبين.

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ تكامُلٌ في التوْجِيهِ البيانِي.

(٦٢) • قرأ أَبُو عَمْرو، وهشام، ورَوْح: **[يَذَّكَرُونَ]** أَصْلُهَا «يَتَذَكَّرُونَ» أُدْغِمَتِ التّاء بالذّال، وجاء الفعل بياء الغائبين.

وقرأهَا حفْصٌ عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]** بحذف تاء الفعل، وجاء الفِعْلُ بتاء المخاطبين.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: **[تَذَّكَّرونَ]** بتاء المخاطبين، مع إدْغَامُ تاء الفِعْل بالذّال.

الإدْغامُ وَعَدَم الإدْغام والحذْفُ وجوه عَرَبيَّة جائزة.

والخطاب والغيبة من التكامُلِ في التوجيه البياني.

(٦٣) • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وَخَلَف: **[الرِّيحَ]** بالإفراد.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

لفظ الريح بالإفراد رُوعي فيه أَنَّهُ اسم جنْسٍ فهو يعمُّ كلّ الأنواع، ولفظ الرّياح بالجمع رُوعي فيه التنبيه على أنها أنواع.

(٦٣) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، وَيَعْقُوب: **[نُشُراً]** وقرأها ابْنُ عامر: **[نُشْراً]** وَقَرَأهَا عاصِم: **[بُشْراً]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَشْراً]**.

وقد سَبَقَ بيان هٰذه القراءات وتوجيهها، عند الآيَةِ (٤٨) من سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٦٦) • قَرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وأَبُو جعْفر، ويَعْقُوب: **[بَلْ أَدْرَكَ]** وقرأها باقِي القرَّاء الْعَشْرَةَ: **[بَلِ ادَّارَكَ]**.

وبَيْنَ القراءتين تكامل سيأتي في التّدبُّر بيانُه إن شاء الله.

(٦٧) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا**] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا» وإثباتها قبل: «إِنَّا».

وقرأها ابْنُ عَامِرٍ، والكِسَائِي: [**أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وآبَاؤُنَا إِنَّنا**] بإثبات همزة الاستفهام قبل إذا وَحَذْفِهَا قَبْلَ [**إِنَّنَا**].

وقرأهَا باقي القراء العشرة: [**أَئِذا كُنَّا تُراباً وآباؤنا أئِنّا**].

وفي [**أَئِنَّا**] بإثبات هَمْزَة الاستفهام جاء حذف إحدى النونات الثلاث لِتوالي الأمثال.

والمؤدَّىٰ في هٰذِهِ القراءات واحدٌ، فكلّها على الاستفهام التعجُّبي الإنكارِيّ من الكافرين، واختلافها من التَّفَنُّن في البيان.

(٧١) • قرأ ابن كثير: [**ضِيقٍ**]. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**ضَيْقٍ**].

الضِّيقُ: كالضَّيق كلاهما بمعنى الكرْب، والألم الضاغط على النَّفْس، فَهُمَا لغتان متكافِئتان.

تمهيد:

هذا الدرس موصول بالآيَتَيْنِ الرابعة والخامسة من الدرس الأوَّل من دُروس السورة، إذْ تَحَدَّثَتا عن الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، وبأنَّ لَهُمْ سُوءَ العذاب، وبأنَّهُمْ في الآخرة هُمُ الأخْسَرُون.

إلّا أنَّ الإقناعَ بالآخِرَةِ يأتي بَعْدَ الإيمان بتوحيد الرُّبوبيَّة وتَوحِيد الإلٰهِيَّةِ للّٰهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ الناس في الحياة الدنيا مطالَبُون من ربّهم بأنْ يَعْبُدوه ولا يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ أحداً، ليظفروا بالنجاة وبالنعيم الخالد في جناتِ النعيم. أمّا مَنْ كَفَرُوا وَعَصَوْا فإنَّهُمْ يكونُونَ خالِدِينَ يوْمَ الدِّينِ في عذاب النار أبداً.

ففي الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) من هذا الدَّرسِ تَعْلِيمُ مُناظَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ للرَّسُولِ محمَّد ﷺ فلكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ، كَيْفَ يُنَاظِرُ المُشْرِكِينَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والإلٰهِيَّةِ لِلَّهِ عزّ وجلّ، وَكَيْفَ يُقْنِعُهُمْ أَوْ يُفْحِمُهُمْ بأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ واحِدٌ في رُبُوبِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إلٰهِيَتِهِ لَا شَرِيكَ لَه.

وهذه المناظرة التعلميَّة قد اشتملَتْ علىٰ مُقَدِّمَةٍ وَخَمْسِ مراحِل، كلُّ مَرْحَلَةٍ مِنْهَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ الظوَاهِرِ الكونيَّةِ الدالَّةِ علىٰ وحْدَانيَّةِ الخالِقِ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، وبإثباتِ وحْدَانِيَّتِه في رُبُوبِيَّتِهِ تَثْبُتُ باللُّزُومِ العقليّ وَحْدَانِيَّتُهُ فِي إلٰهِيَّتِهِ تِلْقَائِياً، لأنَّ مَنْ كَانَ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبّ في الكون كلّه فلا بُدَّ أَنْ تكون العبادة له وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهٰذا هُوَ مَعْنَىٰ أَنَّهُ الإلٰهَ الواحد الأحَدُ الَّذِي لا إلٰهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ سواه.

وفي الآيات من (٦٥ ـ ٧٥) من هٰذا الدَّرْس تعليمُ أسلوبٍ إقناعيّ مضَافٍ إلى الأسَاليب الإقناعِيَّة الموزَّعَةِ في سُورِ القرآنِ المجيد، لمنكرِي الآخِرَة.

وجاء في أثناء هٰذِهِ الآيات تَرْبِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسولِه محمَّدٍ ﷺ، بأن لا يحْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، إذْ عَرَّضُوا نفوسِهم بكُفْرِهم وعنادهم للخلود في عذابِ النار يوم الدّين، مَعَ ما قَدْ يُنْزِلُ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ بهِمْ من عذابٍ مُعَجَّلٍ في الدنيا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلاً لأَنْ يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ نَسَباً. وَتَرْبِيَةٌ لَه بأنْ لَا يَكُونَ فِي كَرْبٍ وألم ضاغِطٍ على نفسه، ممّا يقومُ به كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ من مَكْرٍ بتدبيرات خفيَّاتٍ، لإيقاف مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ، واضطهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، ومن تدبيراتٍ خفياتٍ لمقاومتِهِ بالْقُوَّةِ القتاليَّة، والوقوف في شِقِّ الْعَدُوِّ المحارب المقاتل. وقدْ دَلَّ هذا التوجيه التربويُّ في هٰذِهِ السُّورَةِ على أنَّ الرَّسُول صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه قد كان إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (النمل) مُنْشَغِلَ الْقَلْبِ

حَزِيناً عَلى كُفَّارِ عَشيرته الأقربين، وكان في كَرْبٍ وضِيقٍ نَفْسِيّ مِمَّا يَبْلُغُهُ من مَكْرِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قَوْمِهِ لمقاوَمَةِ دَعْوَتِهِ ومحارَبتها، واضْطِهَادِ المؤمنين المسْتَضْعَفِينَ.

قراءة: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ تُلَائِمُ التعليم الرَّبَّاني. وقراءة: [تُشْرِكُونَ] تُلَائم حال من يُجري معهم المناظرة لدى مُخاطبته من يناظرهم من المشركين.

التدبّر التحليلي للآيات من (٥٩ ـ ٦٤)
وفيها تعليم مناظرة جدلية للمشركين

مقدِّمَةُ تعليم المناظَرَة الجدليّة للمشركين

قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

اشتملت هذه الآية على بيان كيفيَّة افْتِتاح المناظرة، وأنَّ من آداب الدَّاعي إلى اللَّهِ المؤمِنِ الْمُسْلِم أَنْ يفتَتِحها بخُطْبَةٍ فيها ثلاثُ فِقَرات:

الفِقَرةُ الأُولَىٰ: الْبَدْءُ بِحَمْدِ اللهِ، دَلَّ عليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: ابْدَأْ مُنَاظَرَتَكَ بأَنْ تَحْمَدَ اللهَ.

الفقرة الثانية: أَنْ يُسَلِّمَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ على أنْبِيَائِهِ ورُسُلِهِ، دَلَّ عَلَيه قولُ اللَّهِ عزّ وجل في التعليم: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: وقُلْ: سَلَامٌ على عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ، وَمَعْلُومٌ مِنْ نُصُوص القرآن أَنَّ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَوْصَىٰ بالسَّلام عَلَيْهم هم رُسُلُهُ، ويَدْخُلُ فِي عُمُوم الاصْطِفَاء الأنبياءُ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا رُسُلاً، وقَدْ يُلْحَقُ بِهِمْ حَمَلَةُ رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ مِنْ أُمَمِهِمْ.

سَلَامٌ: أي: أَمْنٌ وسلامةٌ وتحيّة، وهو مبتدأ، وخَبَرُه ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ

ٱلَّذِينَ ...﴾ وجاز الابتداء به مع أنه نكِرَة، لأنَّهُ دُعاءٌ وتحيَّة، ومثل هذا يجوز الابتداء فيه بالنكرة.

الفقرة الثالثة: أنْ يُبيِّنَ الموضُوع الذي تَدُورُ حَوْلَهُ فيما بَعْدَ المناظَرَةُ الدِّينيَّةُ، دَلَّ على هذا قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ في التعليم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: سَتَدُورُ المنَاظَرَة التاليَة حَوْل أيّ الاحْتِمَالَيْنِ المتضادَّيْنِ التالِيَيْنِ هُو الحقُّ وَالْخَيْرُ؟

الأوَّل: احْتِمَالُ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيَّتِهِ وإِلٰهيَّتِهِ.

الثاني: احْتِمالُ اتَّخَاذِ شُرَكَاء للَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ أوْ إِلٰهيَّتِهِ.

أيُّهُمَا خَيْرٌ مطابقٌ لِلْحَقِّ، وذُو نتائِجَ تُحَقِّقُ السَّعَادَةَ، وأَيُّهُما بَاطِلٌ وَذُو نتائِجَ تَجْلُبُ الشقاء والتّعَاسَة؟ هَلِ التَّوْحِيدِ، أم الشِّرْكِ؟

عِبارَةُ: ﴿أَمَّا﴾ أصْلُهَا «أَمْ» و«مَا» أُدْغِمَتِ الميمُ بالْمِيمِ فكُتِبَتْ «أمَّا». و«أَمْ» هٰذِهِ هِيَ المتّصِلة.

وجاء عرض الموضوع بأسْلُوب الاستفهام لأنَّ المناظرات تَعْتَمِدُ على طرح القضايا بهذا الأسلوب الذي ينبغي فيه عَدَمُ التحيُّز، كما أبانَ الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) مُعَلِّماً الداعي إلى اللَّهِ أنْ يُعْلِنَ تَجَرُّدَهُ من الانحيازِ التَّعَصُّبِيِّ لمُعْتَقَدِةِ لَدَى المناظَرةِ فَيَقُولُ لِمَنْ يُنَاظِرُهم: ﴿... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بِمَا أَنَّنا بِحَسَبِ مُعْتَقَدَيْنا على طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ هٰذَيْنِ المَعْتَقَدَيْنِ حَقًّا، وأَنْ يَكُونَ الآخَرُ باطلاً، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْ فَرِيقَيْنا عُرْضَةً لِأَنْ يَكُونَ عَلى هُدًى، مُتَمَكِّناً مِنْهُ بِالْبُرْهَانِ، أَوْ مُتَوَغِّلاً في ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ مُبين، لَا حُجَّةَ لَهُ تَعْذُرُهُ فِي ضَلالِهِ.

وهٰذَا غَايَةٌ فِي التَّجَرُّدِ بَحْثاً عَنِ الْحَقِّ بِأُسْلُوبِ المنَاظَرَةِ.

قراءة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ تلائم التعليم الرّبّاني. وقراءة [تُشْرِكُونَ] تُلائم حَالَ من يجري المناظرة لدَىٰ مخاطبَتِهِ مِنْ يُنَاظِرُهُمْ من المشركين.

المرحلة الأولى من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَةِ تَقْدِيمُ بُرْهَانٍ رَبَّانِيّ، يُعَلّمُ اللَّهُ بِهِ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ، أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُقِيمُ بِهِ الحجَّةَ عَلىٰ الْمُنَاظِرِينَ المشركين.

﴿أَمَّنْ﴾: أَصْلُهَا «أم» و«مَنْ» أدْغِمَتِ الميم بالميم في النطق، وكُتِبَتْ ميماً مُشَدَّدَة. «أم» هي المنقطعة، وهي بمعنى «بَلْ» للإضراب الانتقالي، و«مَنْ» اسْمُ استفهام، وهو مبتدأ، وخبره جُمْلَةُ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما عُطِفَ عليها.

والمعنى: يا أيُّها المناظر الداعي إلى الله، وجّه لمَنْ تُنَاظِرُهُ من المشركين سُؤالَكَ الاستفهاميَّ التالي:

مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض وأنْزَلَ للناسِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأنْبتَ بعَظَمَةِ رُبُوبيَّتِهِ لَهُمْ بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، وهٰذِهِ الْحَدَائِقُ مَا كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ النَّاسِ جَمِيعاً أَنْ يُنْبِتُوا شَجَرَهَا؟؟

ذَاتَ بَهْجَةٍ: أي: ذَاتَ حُسْنٍ ونضارةٍ وَجَمَال. يقال لغة: «بَهُجَ الشَّيْءُ يَبْهُجُ، بَهْجَةً، وَبَهَاجَةً وَبَهَجَاناً، فَهُوَ بَهِيج» أي: صَارَ ذَا حُسْنٍ وَنَضَارَةٍ وجمال.

هٰذا السُّؤَالُ يَجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنْ خَلْقِ السَّماوَاتِ والأرض، بدءاً، واستمراراً، وإتْقَاناً، ونِظَاماً بَدِيعاً حَكيماً.

ويَجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنِ الْمَاءِ وَتَبَخُّرِهِ، وتَجَمُّعِهِ سُحُباً، ونُزُوله مطراً، بِنِظَامٍ بَدِيعٍ، وإتقانِ صُنْعٍ تَعْجزُ عَنْهُ الخلائق كُلُّها.

ويجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً، عَنِ النَّبَاتَاتِ وَانْشِقَاقِ بُزُورِها وجُذُورِها في تُرَابِ الأرْضِ المُبَلَّلِ بالماء، وتَنامِيهَا دَاخِلَ تُرَابِ الأرْضِ وخارجَهَا، صَاعِداً فِي الغلاف الغازيِّ حول الأرض، وعَنِ استِمْدَادِ أَقْوَاتِهَا مِنَ الْمَاءِ وَمِنْ عَنَاصِرِ الأرْضِ، وَمِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَمِنْ الْهَوَاءِ، إلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ ممَّا تَوَصَّلَ إلى مَعْرِفَتِهِ عُلَمَاءُ النَّبَاتِ.

وَيَجُرُّ بُحُوثاً مُسْتَفِيضَةً، عَنِ الْجَمَالِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ الْأَشْجَارُ وَأَزْهَارُهَا، وَوُرُودُهَا، وأَوْرَاقُهَا، وَثَمَرَاتُهَا، وأَلْوَانُهَا، وأشكالُها المختَلِفَة، من كلِّ شيءٍ حَسَنٍ بَهِيجٍ.

والمناظر المنْصِفُ من المشركين لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ بأنَّ الخالِقَ المُتْقِنَ لِكُلِّ ذَلِكَ رَبٌّ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال، وهُو مُنَزَّهٌ عَنْ كلِّ صِفَاتِ النُّقْصَان.

فإذا اعْتَرَفَ بهٰذِهِ الحقيقة، وأَعْلَنَ أنَّ الخَالِقَ الرَّبَّ لِكُلِّ ذٰلِكَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟ أي: بِمَا أَنَّ الرَّبَّ الخَالِقَ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا ثبتَ لدينَا بالبراهين، فَهُوَ وَحْدَهُ المستحقُّ لأنْ يَكُونَ إلٰهاً، أيْ معبوداً، ولَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي إلٰهِيَّتِهِ، أي: في كَوْنِهِ مَعْبُوداً مِنْ خَلْقِهِ، لأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الوجود من يُشارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وَعظم سلطانه.

عندئذٍ يَتَسَنَّى للمُنَاظِرِ المُؤْمِنِ الدَّاعي إلى اللَّهِ أَنْ يَقُولَ بأسْلُوب المستَفْهِمِ اسْتِفْهَاماً تعَجُّبِياً إنْكارِياً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!

وفي نهايَةِ هذا التعليم أبان اللَّهُ عزّ وجلَّ للدّاعي المؤمِنِ أنّ المشركين يَعْدِلُونَ عَنِ الحقّ إلىٰ الْبَاطِلِ، ويَجْعَلُونَ لِلَّهِ مِمَّا خَلَقَ مُعَادِلاً مكافئاً، في الرُّبوبيَّةِ أَوْ فِي العبادة، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

يقال لغة: «عَدَلَ يَعْدِلُ عَنِ الصراط» أي: حَادَ عَنْهُ وَخَرَجَ عَنْ حُدُودِهِ. ويقال لغة: «عَدَلَ الشيءَ بالشَّيْءِ» أي: سَوَّاهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، وَهٰذا قَدْ يكُونُ ادِّعَاءً كاذِباً، أو اعتقاداً باطلاً.

فالمعنى: لَيْسَ المشْرِكُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ من الحقِّ، بَلْ هُمْ يَعْدِلُونَ عن الحقّ إلى الباطِل، ويفتَرُونَ عَلَىٰ الله فيتَّخِذُونَ له شَرِيكاً معادِلاً لَهُ في صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ أو بَعْضِها، فمُعَادِلاً لَهُ فِي إِلٰهِيَّتِهِ.

المرحلة الثانية من مراحل المناظَرة

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾،

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ طَرْحُ السُّؤال في هذا التَّعْلِيم نَظِيرُ طَرْحِ السُّؤالِ فِي التَّعْليم السّابق. أي: «أَمْ» المنقطعة وهي بمعنى «بَلْ» للإضراب. و«مَنْ» اسم استفهام وهو مبتدأ، وما بَعْدَهُ خبر وهو جُمْلَةِ: جعَلَ الأرضَ قراراً.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: أي: بَلْ مَنْ هٰذَا العظيمُ المتقنُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ، الَّذي جَعَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ أَنْ فَصَلَها مِمّا كَانَتْ عَلَيْهِ رَتْقاً مَعَ غَيْرِهَا من أجرَامِ السَّماء، كَوْكَباً قَراراً مُطْمَئِناً لَا اضْطِرابَ فيه وَلَا

اهتزاز ولَا تَمَوُّجَ، إلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ عند الزَّلازِلِ التَّعْدِيلِيَّةِ التكوينيَّةِ لأوضاع الأرض، أو الزلازل العِقَابِيَّة أو الإنْذَارِية للمجْرِمِينَ من الْبَشَرِ عليها؟؟

قراراً: مَصْدَرُ «قَرَّ يَقِرُّ قَرَاراً» يُقَال: «قَرَّ فِي المكان» أي: أقامَ إقَامَةً طَوِيلَةً سَاكِناً مِطْمَئِناً مُسْتَقِرّاً فيه.

أي: مَنْ هٰذَا الَّذِي جَعَلَ الأرض ذَاتَ قَرَارٍ عَلَيْهَا، وَكَانَ مِنَ الممكِنِ أَنْ تَكُونَ مَائِجَةً رَجْرَاجَةً غَيْرَ صَالِحَةٍ للاسْتِقْرَار عَلَيْهَا بِسُكُونٍ وَطُمَأْنِينَة.

أَلَا يَدُلُّ هٰذَا عَلَىٰ إِتْقَانِ مُتْقِنٍ عَظِيمٍ، ذي حِكْمَةٍ جَلِيلَة، وعِنَايَةٍ بِمَنْ خَلَقَ، وَبِمَا خَلَقَ مِنْ أَحْيَاءٍ عليها؟؟

وهٰذا السؤالُ يَجُرُّ إِلَىٰ بُحُوثٍ مُسْتَفِيضَةٍ جِدَّ حَوْلَ تكوين الأرض، تُكْتَبُ فِي مُجَلَّدَات.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾: أي: وَمَنْ هٰذَا الْعَظِيمُ الْمُتْقِن الحكيم القدير الْمُعْتَنِي بالنَّاسِ وسائِرِ الأحياءِ علىٰ الأرْضِ، الذي جَعَلَ بتَدْبِيرِهِ التَّكْوِينِيِّ خِلَالَ الأرض أَنْهَاراً يَجْرِي فِيها الْمَاءُ الحُلْوُ الطَّهُورُ السَّائِغُ للشَّارِبين، والصَّالِحُ لِسُقْيَا النَّبَاتَاتِ الَّتِي لا تَنْبُتُ وَلا تَنْمُو إلَّا بِالْمَاءِ؟؟

الْخِلَال: هو المنفرج بَيْنَ شيئَيْنِ، وظاهر أنَّ الأنْهَارَ تَجْرِي فِي مُنْفَرجَاتٍ عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَأنَّ المياه حِينَ تجري متدفِّقَةً تَشُقُّ فِي الأَرْضِ أَخَادِيدَ على مَقَادِيرِها فتُحدِّدُ سَيْرَها بين حوافها.

﴿خِلَٰلَهَا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الظَّرْفِيّة، أي: بل مَنْ جَعَلَ أنهاراً في خِلَالِ الأرْض؟ قَدّم لفظ ﴿خِلَٰلَهَا﴾ لأنّ فيه ضميراً يَعُودُ عَلَىٰ الأرض الّتي هي مَوْضُوعُ طَرْحِ السُّؤالِ.

والسُّؤالُ عَن الأنهار الّتي تجري خِلالَ الأرض يجرُّ إلى بُحُوثٍ عِلْمِيَّةٍ مُسْتَفِيضَةٍ، حَوْلَ تَكْوِينِ المياه الحُلْوَةِ السَّائِغَةِ للشاربين، وَحَوْلَ تجميعها وإجْرَائِها فِي أَنْهَار كُبْرَىٰ أو صُغْرَىٰ، وحول إتقانِ صُنْعِ الخالِقِ لها، وعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ فِي إِيجَادِها.

﴿وَجَعَلَ لَمَا رَوَاسِيَ﴾: أي: وَمَنْ هٰذا العظيم، المتقِنُ الحكِيم، المدبِّرُ القدير، الّذِي جَعَلَ للأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ تُثَبِّتُ قِشْرَتَهَا حَتَّى لَا تَتَمَوَّجَ وَتَرْتَجَّ، أَوْ يَحْصُلَ فِي بعض طبقاتها انقلابٌ، أو مَيَدان؟

وجاءت عبارة ﴿لَهَا﴾ للدَّلَالَةِ على أنَّ الجبَالَ جُزْءٌ مِنَ الأرض.

﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع «رَاسِيَة». **الرَّاسي**: هو الثابت الراسخ، والمراد بالرَّواسِي الجبالُ في الأرض، فمِنْ صِفَاتِهَا أنَّهَا ثابِتَة راسِخَةٌ ذَاتُ عُمْقٍ فِي الْأرضِ يجْعَلُها راسِيّة، وفي إيراد الجمع إشارةٌ إلى تنوّع الجبال في تكوينها، وفي صفاتها.

ويَذْكر عُلماءُ الأرض «الجيولوجيون» ما للجبالِ مِنْ آثارٍ نافِعَةٍ للأَرْضِ وسُكَّانِها، ومنها ما يلي:

(١) كوْنُها المتحَكِّمة في مُناخٍ وتَدَفُّق مِيَاهِ الأماكن المجاوِرة لها.

(٢) مَا يَعِيشُ عَلَيْهَا من نباتاتٍ وحيوانات، إذْ تُسَاعِدُهَا في أرزاقها وإقامتها.

(٣) كَوْنُها مَصْدراً للْمَعَادِنِ، فمعظم المصادر المعدنية في العالم هي من أقاليم جبليّة.

(٤) تأْثيرها على نشاطات الإنسانِ وأُسْلُوبِ معيشته، فَهِيَ تُحَدِّدُ أَنْمَاطَ تَنَقُّلِهِ وَمُوَاصَلَاتِهِ وَأَمَاكِنَ إِقَامَتِهِ والتَّرويحِ عَنْ نفسه.

(٥) وهي تَحْمِي الْيَابِسَةَ مِنَ الانقلاب الَّذِي يُمْكِنْ أَنْ يَحْدُثَ بِسَبَبِ

هياج الأمواج في المياه الَّتي تَتَجاوَزَ مَسَاحَتُهَا فِي البحار (٧٠٪) من مَسَاحَةِ الْيَابِسَة، أو بِسَبَبِ تَقَلُّبَاتٍ كَوْنِيَّة أخرىٰ.

(٦) للجبال تأثيرٌ في تجميع وتَدَفّق المياه ليصلَ إلىٰ أماكن شاسِعَةٍ جدّاً من الأرض.

(٧) وفي كثير من الجبال خزَّاناتٌ مائيَّةٌ تُغَذّي الجداول والأنهار بالمياه، ويظهر نفْعُهَا الإِمْدَادِي في أوقات القحط والجفاف.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾: أي: ومَنْ هذا العظيم، المتْقِنُ الحكيم، والمدَبّر القدير، الّذِي جَعَلَ بَينَ البَحْرِ الْحُلْو والْبَحْرِ المالح حَاجزاً، يَمْنَعُ من امْتزاج أَحَدِهِمَا بالآخر؟؟

سَمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ مَا في الأرض من مياهٍ حُلْوةٍ بَحْراً، فِهي باعتبار كَثْرَتِهَا كَالْبَحْرِ المِلْحِ، ولو كَانَتْ مَتَفَرِّقَةً في الأرضِ.

فالماءُ الْعَذْبُ الْحُلْوُ والماء المِلْحُ الأجاجُ بَحْرَان عظيمان خَلَقَهُما اللَّهُ عزّ وجلّ لمنافع الحياة والناس، وكلٌّ منْهما يَنْبَغي لتحقيق المنفعة منه بحَسَب النظام العامّ للكَوْن، أنْ يظَلَّ علَىٰ وَصْفِهِ فِي النِّسْبَةِ المزيجيَّةِ الَّتِي جَعَلَهُ اللَّهُ عليها.

ومن العناية الرَّبَّانِيّة الَّتِي حَفَّتْ هٰذيْنِ الْبَحْرَيْنِ، أَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزاً، إذْ جَعَلَ تكوين الأرْض في أوضَاعِهَا صالحةً لاحْتِوَاء الماء الْعَذْبِ الْفُرَاتِ في تجاويفها ومَسَارِبها، ولإجرائِهِ في السُّهُولِ والوِدْيَان، وإخراجه من الْعُيون، وبذٰلِكَ أقام الْحَوَاجِزَ والفواصِلَ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ، حَتَّى لا يَنْتَهِيَ أَمْرُهُمَا إلى الامْتِزاج والاختلاط ببعضهما، وتَذْهَبَ الخصائصُ المطلوبَةُ من كُلٍّ منْهما.

والحاجزُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ هو من الصَّخور والأتربَةِ والرِّمال، وهو مَمْنُوعٌ من الذَّوبان والاخْتلاط بالماء، ومانِعٌ من وُصُولِ أَحدِهما إلَىٰ الآخر.

وسبق في تدبّر سورة الفرقان تَدَبُّر مَا جَاءَ في القرآن حَوْلَ آيات الله في الْبَحْرَيْن[١].

إنَّ المناظر المنصف من المشركين إذ طُرِحَتْ عَلَيْهِ أَسْئِلَةُ هذه المرحلة الثانية من مراحلِ المناظَرةِ، وعُرِضَتْ علَيْهِ الأدِلَّةُ العمليَّة المثبَتَةُ لِلْحَقِّ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ بأَنَّ الْخَالِقَ الْمُتْقِن لِهٰذِهِ الظواهر الكونيّة، الّتي هي آياتٌ من آياتِ اللهِ الكونيَّة، دَالّاتٌ على طائِفَةٍ من الصفات الّتي لا تكونُ لأحدٍ سِواه، هُوَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَحِينَ يَعْتَرِف بِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ، ويُعْلِنُ أَنَّ الْخَالِقَ الرَّبَّ لكلّ ذٰلِكَ هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: بما أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ واحِدٌ، وهُوَ ما ثبَتَ لنا بالبراهين، فهو وَحْدَهُ المستحقُّ لأنْ يكون إلٰهاً، أي: مَعْبُوداً، ولا يَصِحُّ عقلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ في إلٰهيَّتِهِ، أي: في كَوْنِهِ مَعْبُوداً مِنْ خَلْقِهِ، إذْ لَا يُوجَدُ فِي الْكَوْنِ كُلّهِ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا الرَّبُّ هو اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلطانُهُ.

عندئذٍ يَتَسَنَّىٰ للمناظر المؤمِنِ الدّاعي إلى الله، أَنْ يَقُول بأسْلُوب المسْتَفْهِمِ اسْتِفْهاماً تَعجُّبياً إنكارياً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!

وفي نهاية هٰذا التعليم أَبَانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ للدَّاعي المؤمِنَ أَنَّ أَكْثَرَ المشركين لَا يَعْلَمُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عزّ وجل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُ المشركِينَ مُقَلِّدُونَ لأئمَّتِهِمْ وقَادَتهم لَا يَعْلَمُونَ، ولَا تُوجَدُ لَدَيْهِم الدَّوافِعُ لِأَن يَبْحَثُوا بأَنْفُسِهِمْ حتَّى يَفْصِلُوا الحقَّ عن الباطل في قضيَّتي التوحيد والشِّرْك، فَيَعْلَمُوا أَنَّ التوحيد حقٌّ، وأنّ الشِّرْك باطِلٌ، وأَنَّ جزاء الشّرك الخلود في عذاب النار يوم الدّين.

---

(١) انظر المجلد السادس. ص٥٥٨ وما بعدها حتى ٥٦٤.

وفي هذا البيان توجيه كِنَائي للدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَجْتَهِدُوا في تعليم الأتباع المقلّدين، وإقناعِهِمْ بالحقّ، فَقَدْ تَنْجَلِي الغَشاواتُ عَن بَصَائِرِهِم وعُقُولِهِم، فَيُؤْمِنُ بالحقّ أَهْلُ الرُّشْدِ مِنهم، وَلَا يَكُونُ للمعاند المجْرِمِ عُذْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الْدِّينِ بجهله.

المرحلة الثالثة من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عَزَّ وجل:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الثالثة من التعليم تَوْجِيهُ الْمُنَاظِرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعي إلى الله، لأنْ يَطْرَحَ السُّؤالَ فِي مُنَاظَرَتِهِ للمشرِكِ حَوْلَ آيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، تَتَعَلَّقَانِ بِتَصَارِيفِ اللهِ فِي النَّاسِ.

الآية الأولىٰ: إجَابَةُ المضطّرّ الّذي يَدْعُو لِكَشْفِ السُّوءِ عَنْهُ.

الآية الثانية: جَعْلُ النَّاسِ خُلَفَاءَ الأَرْضِ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعضاً فيها.

المضطّر: ذُو الحاجَةِ البالغة الشِّدَّة، والمُلْجأُ إِلْجَاءً بإكْرَاهٍ عَلَى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ، والمضيَّقُ عَلَيْهِ بِشِدَّة.

يُقَالُ لغة: «اضطَرَّهُ إِلَيْهِ» أي: أَحْوَجَهُ وأَلْجَأَهُ، أَصْلُ الفِعْلِ: «اضْتَرَّ» قُلِبَتِ التَّاءُ طَاءً وَفْقَ القاعدة العربيّة، في «افْتَعَلَ» المزيد بالتاء.

• ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؟ صيغة السؤال مُمَاثِلَةٌ لما سبق في المرحلتين الأولى والثانية.

والدُّعاءُ لِكَشْفِ السُّوءِ يَدْعُو به الدَّاعي آلِهٰةُ الذي يتقرَّبُ إِلَيْهِ بالعبادَة، وقد جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ من آياتِ وجُودِهِ، وأَنَّهُ هو وحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي تَجِبُ عبادَتُهُ وَحْدَهُ لا شريك لَهُ، أَنَّ مَنْ دَعَاهُ مضطَّراً اضطراراً

حقيقياً، ولو كَانَ كافراً بِهِ، أجابَ دُعَاءَهُ، وكَشَفَ مَا بِهِ مِنْ سُوءٍ.

بخلاف آلِهَةِ المشْرِكينَ، فإنَّ مَنْ دَعَاهَا مَهْمَا كَان مؤمِناً بها وعابداً لها، فإنَّها لَا تُجِيبُهُ ولو كانَ مضطّراً، إذْ هِيَ آلِهَةٌ باطِلَةٌ لَا حَقِيقَةَ لإلٰهِيَّتِهَا، وإذا كان لها وجودٌ في الكونِ فَلَا قُدْرَة لَهَا على إيجابَةِ عَابديها، ولا تَمْلِكُ كَشْفَ السُّوءِ عَنْهُمْ إِذَا سألوها ذَلِكَ بالدُّعاء ولو كانُوا مضطّرين.

والتجربةُ في هٰذا أكْبَرُ بُرْهَانٍ، فَلْيُجَرِّبِ المشركُون دُعَاءَهُمْ للّٰهِ رَبّ العالمينَ، في الأحوال الَّتي يكونون مضطرين فيها، فإنَّهُمْ سَيَجِدُونَ أَنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ سَيَكْشِفُ ما بِهِمْ من سوء، ليُثْبِتَ لَهُم بالبرهانِ التجريبيّ أنَّه الإلٰهُ الحق، والرَّبُّ السَّميع المجيب الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ.

أمَّا آلِهَتِهِمْ الَّتِي اتَّخذُوهَا من دون اللهِ فإنَّهَا لَا تَكْشِفُ السُّوءَ عَنْهُمْ، ولَا تَنْفَعُهُمْ بنافِعَة.

فالمعنى: بل: مَنْ هٰذا العظيم الغيبيُّ عن الحواس، الَّذِي يُجِيب دُعَاءَ المضطَّرّ إذا دَعَاه؟؟

أجْرُوا أيُّها المشركون هٰذِهِ التَّجْربَةِ في حيواتِكُمْ، فإنَّكم سَتَجِدُونَ اللّٰهَ عزّ وجلّ يجيبُ أدْعِيَتَكُمْ، ويَكْشِفُ السُّوءَ عنكم.

لَكِنَّكُمْ إذَا دَعَوْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ فَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، وَلَنْ يَكْشِفُوا السُّوءَ عَنكم.

إنّ هٰذِهِ التَّجْرِبَةَ تُقْنِعُ المنصفين أهل الرُّشدِ مِنْكُمْ بأنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فلا إلٰه حتماً إلَّا هو.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: وَمَنْ هذا العظيم القدير، الخَلَّاقُ المتْقِنُ الحكيم، الَّذي يخْلُقُ أجْيَالَكُمْ، جِيلاً سُلَالَةً من جيل، ويَجْعَلُ الأجيالَ اللَّاحِقة خُلَفَاءَ في الأرْضِ للأجيال السّابِقَة، في سُكْنَاهَا والانتفاع بخيراتها؟؟

هذا السؤال قد يَجُرُّ إلى بُحوثٍ مُسْتَفِيضَةٍ، حَوْل ظاهراتِ عظيماتٍ من آياتِ اللهِ في خَلْقِ النَّاسِ جِيلاً فجِيلاً وَفْقَ سُنَّةِ التَّناسُل.

إنّ أهْلَ الْعَقل والرُّشْدِ المُنْصِفِين لَا بُدَّ أَنْ يَقُولوا: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هُو الرّبّ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَهُ للنَّاسِ عَلَىٰ وفْقِ سُنَّةِ الأجْيَالِ المتلاحِقَةِ الَّتِي يَخْلُفُ اللَّاحِقُ مِنْهَا السَّابِقَ.

وحينَ يَعْتَرِفُ المشْرِكُ بهٰذِهِ الحقيقَةِ حول السُّؤالَيْن، ويُعْلِنُ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ هو الذي يجيب المضطّرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوء، وهو الذي يخْلُقَ الناس وفْقَ سُنَّة الأجيال الَّتي يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعضاً في سكْنَى الأرْضِ والانتفاع بخيراتها، يتسَنَّى للمؤمن المناظر الداعي إلى الله، أَنْ يقولَ بأسْلُوب المستَفْهِمِ استفهاماً تَعَجُّبيّاً إنكاريّاً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!

وفي نهاية التعليم وَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ خِطَابَهُ للمشركين قائلاً لَهُمْ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أصْلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: «تتذَكَّرُونَ» حُذِفت التاء الثانية تخفيفاً، وقُرِئ [يَذَّكَّرُون] و[تَذَّكَّرُونَ] بيَاءِ الغائبينَ، وبتاء المخاطَبين.

وفي هذه القراءات وجوه عربيّة جائزة، وتكامُلٌ في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تَذَكُّراً قَلِيلاً جدّاً تتذكّرون، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لمفعولٍ مطلَقٍ محذوفٍ مُقَدَّمٍ على فعله، ولفظ «مَا» إبهاميَّة لتأكيد القلّة.

والمرادُ بالتذكُّر الأثَرُ النَّفْسِيُّ والسُّلُوكي الَّذِي يُثِيرُهُ أو يُحْدِثُهُ التَّذَكُّرُ لقضيَّةٍ ما من قضايا المعرفة الدينيَّة، الّتي تَقضي مَنْعَ الإنسانِ من مُمَارَسَةِ شهواته المحرَّمَةِ في الدِّين، واتّباعِ أهوائه الّتي فيها معْصِيَةٌ لله رَبِّ الْعَالمين.

التَّذكُّر: هو استحضار المعْلُومَةِ في الذّاكِرَة، أو في جهاز التصوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجها من مخازِنِ المعرفة، وإحضارها إلى ساحَةِ التصوُّرِ الحاضر.

ومخازن المعرفة هي مراكز متخصّصة في الدّماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسْتَدْعَىٰ المعارفُ مِنْها عِنْدَ الحاجَة، وتتعَرَّضُ للنِّسْيَانِ بِعِدَّةِ أسباب، ومن هٰذِهِ الأسْباب الإهمال، وعَدَمُ اهتمام النّفسِ بالمعلومَة، وعدم الْمُبَالَاةِ بها، والاكتراث لها.

وجاءتِ قِراءَةُ [يذَّكَّرُونَ] تَعْلِيماً للمؤمنِ الدَّاعي إلى اللَّهِ، لَتَهْوِينِ عَدَم اسْتجابَةِ الكافِرِينَ لِمجاهَدَتِهِ لَهُمْ في نَفْسِهِ، إذْ يَعْلَمُ أنَّ هٰذَا مِنْ سُلُوكِ مُعْظَمِ النَّاسِ إذْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهم وزينات الحياة الدنيا.

المرحلة الرابعة من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وفي هٰذِهِ المرحلَةِ الرابعة من التّعليم توجِيهُ المناظِر المؤمِنِ الداعي إلى الله، لطَرْحِ السُّؤالِ في مناظَرَتِهِ للمشْرِكِ، حَوْل آيَتَيْنِ من آياتِ اللَّهِ في كونه تتعلّقَانِ بعِنايَتِهِ بالنَّاسِ، وإِنْعَامِهِ عَليهم بِالْهِدَايَةِ فِي أَسْفَارِهم، وتَدْبِيرِ وَسَائِلِ رِزْقهم.

الآية الأولى: هِدَايَةُ اللَّهِ النَّاسَ فِي ظُلُماتِ البَرّ وَالْبَحْرِ فِي أَسْفَارِهم.

الآية الثانية: إرسَالُ الرِّياح الّتي تَسُوقُ السُّحُبَ، وَفِيهَا نَفع كثيرُ، وتُبَشّرُ بالأمطار الّتي تَحْيا بها الزُّروع والثمار، وتَبْتَهِجُ بها الدّيار.

• ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟ صِيغَةُ السُّؤال مُماثِلَةٌ

تماماً لما جاءَ في المراحِلِ السَّابقة، والتَّحلِيلُ الَّذِي سَبَقَ يَنْطَبِقُ هُنَا.

إنَّ الهداية للمسافِرِ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ، وفي ظُلُمات الْبَحْرِ، يَتَحقَّقُ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ النجوم في السَّمَاء، مَعَ مَعَالِمَ بَارِزَةٍ فِي الأَرْضِ كالجبال، والوِدْيَانِ، وكَهُبُوبِ الرِّياح وأنواعها، إلى غير ذَلِكَ مِمَّا يَكْتَشِفُهُ النَّاسُ مِنْ وَسَائِلَ لِلْهِدَايَةِ مِثل «البوصلة» الَّتي صارت وسيلَةً هادِيَةً في الْبَرِّ والْبَحْرِ والْجَوِّ، بما جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الأرضِ وفِي الأشياءِ من قُوَى مغناطِيسِيَّةٍ تُحَدِّدُ اتِّجاهَ إِبْرَةِ «البوصلة» فَيَهْتَدِي بها السَّالِكُ.

فَمَنْ هٰذَا الْعَظِيمُ المتقِنُ الحكيمُ، الَّذِي جَعَلَ بِتَدْبِيرِهِ فِي كَوْنِهِ مَا يَهْتَدِي به المسافِرُونَ في ظُلَماتِ البرِّ والْبَحْرِ وَالْجَوِّ!!

إنّ العاقل المنصف الرشيد يقول: هو الله الرَّبُّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه.

• ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾؟ وجاء في القراءة الأخرىٰ «الرِّيحَ» مفرداً، والمؤدّىٰ واحد.

فعل «يُرْسِل» بصِيغَةِ المضارع يَدُلُّ على ما يَحْدُث بتجدُّدٍ في تصاريف الله في كونه.

والإرْسال فيه معنى الْبَعْثِ لِتَأْدِيَةِ مُهمَّة، فهو هنا يَدُلُّ علىٰ أنَّ بَعْثَ الرِّيَاحِ مَقْصُودٌ بِهِ تَبْلِيغ رِسَالَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بمقْدَمِ غَيثٍ هو مِنْ عطَاءِ رَحْمَتِهِ، مَعَ قيامِهَا بِوَظَائِفِهَا المادِّيَّة.

﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾: إحْدَىٰ آيات اللَّهِ عزَّ وجلَّ في كونه، وهي آيَةٌ عَجِيبَةٌ ذاتُ أَحْدَاثٍ كُبْرَىٰ في الكون، فمنها ما يأتي بالنفع العظيم، ومنها ما يأتي بالتدمير وبالعَذَاب الأليم.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد آية الرّياح في نُصُوصٍ كثيرة

سَبَقَ أن أفردت لتدبّرها ملحقاً خاصّاً من ملاحق تَدَبُّرِ سُورَةِ (المرسلات)[1].

﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: أي: إعلاماً سَارًّا بِمَقْدَمِ غَيْثٍ تَسُوقُهُ أوامر الله عزّ وجلّ الّتِي هي من آثارِ رَحْمَتِهِ.

وتحليل هٰذه العبارة يُشْعِرُ بأنَّ التَّبْشِيرَ يَأْتي سابقاً وواقِعاً بَيْنَ المُبَشَّرين وبَيْنَ يَدَيْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

أُطْلِقَ عَلَىٰ الْغَيْثِ لفْظُ «الرَّحْمَةِ» لأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِها، فهو مجازٌ مُرْسَلٌ مِنْ إِطْلاقِ السَّبَبِ وإِرَادَةِ المسبَّب، وجُعِلَ لِهٰذِهِ الرَّحْمَةِ يَدَانِ تَجُودُ بِهِمَا، إمَّا على سَبيل الاسْتِعَارَة، أو هُمَا مِنْ صِفاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِهِ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانه.

وعلى قراءات: [نُشراً، ونُشراً، وَنَشراً] فالمعنى: يُرْسِلُ الرّياحَ نَاشِرَةً ما يَدُلُّ ذوي الحسّ والفكر علىٰ أَنَّ الغيثَ من رحمة اللهِ قَادِمٌ بَعْدَ هُبُوبِهَا، وهٰذا مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

مَا بَيْنَ يَدَيِ المَخْلُوقِ إِذَا كَانَ زَمَانِيًّا فالمرادُ بِه مَا مَضَىٰ، وإِذَا كَانَ مَكَانِيًّا فالمراد به مَا يَقَعُ إِلىٰ جِهَةِ وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ[2].

إنَّ طَرْحَ هٰذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ، وَبَيَانَ مَا يَسْتَتْبِعَانِ مِنْ بُحُوثٍ عِلميَّةٍ توصَّلَ إِليها الْعُلَمَاءُ الْكَوْنِيُّون، مِمَّا يَدْفَعُ العاقِلَ المنْصِفُ الرَّشِيدَ إِلَىٰ أن يُعْلِنَ اعترافَهُ بأنَّ الهاديَ الحقَّ في ظُلُمَاتِ البرّ والبحرِ والْجَوّ، وأنَّ مُرْسِلَ الرِّيَاحِ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ هُوَ الْخَالِقُ الرَّبّ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَه.

عِنْدَئِذٍ يقُولُ له المناظِرُ المؤمِنُ الدّاعي إلى اللَّهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (المرسلات) المجلد الثاني. الصفحات من (٦٢١ ـ ٦٦٤).

(٢) انظر القاعدة (٣٦) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف.

أي: إذا اعْتَرَفْتَ بِأَنَّ الرَّبَّ فِي الْكَوْنِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، أفَمِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْحِكْمَةِ أَنْ تَتَّخِذَ إلٰهاً مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُ لَكَ وَلَا لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً؟؟!!

وإنْ أصَرَّ المشْرِكُ على شِرْكِهِ تَسَنَّىٰ للمنَاظِرِ الداعي إلى الله، أَن يقولَ لَهُ على سبيل الإنْكَارِ والتعْنِيفِ والتأنِيب والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟؟!!

وفي نِهَايَةِ هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ المنَاظَرَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ قَالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ مُعَقِّباً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تَسامَىٰ وَتَرَفَّعَ اللهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَنْ أَنْ يُكَافِئَهُ فِي إلٰهِيَّتِهِ أَحَدٌ، فَمَنْ يَجْعَلُهُمُ المُشْرِكُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، يَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَةِ اللَّهِ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدٌ مِنْ عَبِيدِهِ، وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الإلٰهِيَّةِ شَيْئاً.

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ المُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ مَا لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا عِلْمَ وَلَا عقْل؟؟!!

المرحلة الخامسة من مَرَاحِلِ المناظَرَة

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وجاء أيضاً في هذه المرحلةِ الخامسة من التَّعْلِيم تَوْجِيهُ المناظِرِ المؤمن الداعي إلى الله، لِطَرْحِ السُّؤَالِ فِي مُنَاظَرَتِهِ للمشرك، حَوْل آيَتَيْنِ مِنْ آياتِ اللَّهِ في كَوْنِهِ.

الآية الأولى: بَدْءُ الْخَلْقِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ إعادَتِهِ بَعْدَ إفْنَائِهِ.

الآية الثانية: رِزْقُ النَّاسِ وَيُلْحَقُ بِهِمْ سَائِرُ الأحْيَاءِ مِن السَّمَاءِ والأَرْضِ.

• ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ صِيغَةُ السُّؤَال مُماثِلَةٌ تَماماً لِمَا جَاءَ فِي الْمَرَاحِلِ السَّابِقَةِ، وَالتَّحْلِيلُ الَّذِي سَبَقَ يَنْطَبِقُ هُنَا، ولَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْإِعَادَة للقُرْب.

لَا أَحَدَ يَدَّعِي أَوْ يُدَّعَىٰ لَهُ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ خَلْقَ المخلوقَاتِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ أَحْيَاءً، أَمْ نباتَاتٍ، أَمْ غَيْرَ ذٰلِكَ، غَيْرُ اللَّهِ الخالِقِ الرَّبِّ الْغَيْبِيِّ عَنِ الإدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةِ، وَالَّذِي هُوَ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بالبراهينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَتُدْرِكُ العقولُ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ استِنْبَاطاً مِنْ آثَارِهِ في كَوْنِهِ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ بَدْءِ الْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي الأَحْيَاءِ ذَوَاتِ الحركةِ الْإِرَادِيَّةِ وَالإدْرَاكَاتِ عَلىٰ مَقَادِيرِهَا، وَظَاهِرةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي النَّبَاتَاتِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وأَصْنَافِهَا وصِفَاتها، ولهذا جاء في البيان استعْمالُ الْفِعْلِ المضارعَ [يَبْدَؤ].

والقَادِرُ عَلَىٰ بَدْءِ الْخَلْقِ المشاهَدِ بِتِكْرَارٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِراً على إِعَادَةِ مَا كَانَ قَدْ خَلَقَ بَعْدَ إِفْنَائِهِ لَهُ، وَالْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ فِي هٰذَا كَافٍ لإثباتِ هٰذِهِ الحقِيقَةِ، فجَاءَ في السُّؤَالِ التَّعْلِيمِيِّ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ تَوْطِئَةً لِمَا سَيَأْتِي من إقناع، حَوْلَ نبأ الآخِرَةِ الَّذِي يَجْحَدُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُجرَّدِ الاستِبْعَادِ والاستغراب.

والسُّؤال عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ يَجُرَّ إِلىٰ اسْتِعْرَاضِ بحوثٍ علْمِيَّةٍ واسِعَةٍ ومُسْتَفِيضَةٍ عَنْ نَشْأَةِ الْأَكْوانِ، وَنَشْأَةِ الأحياءِ، ونشأةِ الإنسانِ، وهي تَهْدِي بِمَا فِيهَا من إتْقَانٍ عَجِيبٍ إِلَىٰ أَنَّ لِهٰذَا الْكَوْنِ كُلِّه خَالِقاً عظيماً واحداً أحداً لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال، وهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان.

وعِنْدَئِذٍ فقد يَنْدَفِعُ العاقل المُنْصِف الرَّشِيدُ من المقْصُودينَ بالمناظَرةِ، إِلىٰ الاعْتِرَافِ بأنَّ الَّذِي يَبْدؤ الْخَلْقَ وهو القدِيرُ إلى إعادتِهِ، هو اللَّهُ الذي لَا رَبَّ غيره، وعندئذٍ يقُولُ لَهُ المناظر المؤمِنُ الدّاعي إلى اللَّهِ: **[أءله مع الله]**؟!!

أي: بِمَا أَنَّكَ اعْتَرَفْتَ بأنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ وهو القدير على إعادَتِهِ، أفَيَلِيقُ بِكَ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَه، فَتَتَّخِذَ إلٰهاً مَعَهُ تَجْعَلُهُ شَرِيكاً له في إلٰهِيَّته؟!!

وإنْ أَصَرَّ الْمُشْرِكُ عَلَىٰ شِرْكِهِ تَسَنَّىٰ للمناظِرِ الدّاعي إلىٰ اللهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُ على سبيلِ الإنْكَارِ والتَعْنِيفِ والتأنِيبِ والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَاده: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟؟!!

فالاسْتِفْهَامُ يَصْلُحُ تَوْجِيهُهُ في الحالَتَيْنِ، للدَّلَالَةِ على الموقِفَيْن.

• ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وَمَنِ العظيم القَديرُ الخَلَّاقُ المتْقِنُ الحكيم الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أيُّها المشركون، ويَرْزُقُ النَّاسَ جميعاً وَسَائِرَ الْأَحْيَاءِ؟؟ أَخْبِرُونِي عَمَّا تَعْتَقِدُونَه.

إنَّ رِزْقَ النَّاسِ وَسَائِرِ الأحياءِ مِنَ السَّمَاءِ يأتي من عِدَّةِ أسْبَاب لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ خَلْقِهَا، والتَّصَرُّفِ بِهَا عَلَىٰ مُقْتَضىٰ الحكمة، إلَّا اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ.

إنَّ النباتَاتِ فِي الْأَرْضِ تَحْتَاجُ إلى الحرارَةِ الَّتي تَقْذِفُ بها الشَّمْس، وهِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْق اللَّهِ، وَنِظَامُهَا وَكُلُّ ما يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ إِبْدَاعِهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيراتِهِ وَتَصارِيفِهِ.

والنباتاتُ في الأرض هي مادّة غِذَاءِ الأحياء فيها.

وهي تحتاج إلى الماء وسُقياها يَنْزِلُ عَلَيْهَا من السَّمَاءِ، أي: مِنَ السَّحَابِ المتراكم في جَوِّ الأرض، صَاعِداً مِنْ بُخَارِ المياه في الأرض.

وهي تحتاجُ إلَىٰ عَنَاصِرَ تَمْتَصُّها مِنْ عَنَاصِرِ الأرض، وهٰذِه خَلْقٌ من خَلْقِ الله.

وهي تحتاج إلى الهواء المنتشِرِ غلَافاً حول الأرضِ وهو خلْقٌ من خَلْقِ الله.

فَرِزْقُ النَّاسِ والْأحْيَاءِ جَمِيعاً مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يأتي بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِهِ وخَلْقِهِ وَتَصارِيفه.

وهٰذِهِ الحقيقة لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ مجْرِمٌ لَئِيمٌ، كَافِرٌ بِرَبِّهِ، مع عِلْمِهِ بِأَنَّهُ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ القديرُ الحكيم.

وعِنْدَئِذٍ يُوجِّه المؤمِنُ المنَاظِرُ الدّاعي إلى الله للمعْتَرِفِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ في بَدْءِ الخَلْقِ وقُدْرَتِهِ على إعَادَتِهِ: [أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ]؟ سُؤَالَ توجِيهٍ وإِقْنَاعٍ بوُجوب تَوْحِيدِ اللَّهِ في إِلٰهِيَّتِهِ.

ويوجِّه السُّؤالَ نَفْسَه للمصِرِّ على شِرْكِهِ، على معنى الإنكار والتعْنِيف والتأنيب والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ، وإصراره على الكُفْرِ الَّذِي يجْعَلُهُ مِنَ الخالِدِينَ في عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدّين.

وفي نهاية هٰذه المرحَلَةِ الختاميَّة من مراحِلِ المناظرة التَّعْلِيميَّة، وجَّه اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِلْمُنَاظِرِ المؤمِنِ الدَّاعِي إلى اللَّهِ تَعْلِيماً يَقُولُ فيه للمُصِرِّينَ علَىٰ مَوَاقِفِهِمْ الشِّرْكِيَّة: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في ادّعاء أنَّ لِلَّهِ شَرِيكاً في رُبُوبِيَّتِهِ أو فِي إِلٰهِيَّتِهِ، فَقَالَ الله عزَّ وجلَّ لَهُ:

﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الْبُرْهَان: الحجَّةُ الْبَيِّنَة الفاصِلَة.

﴿هَاتُوا﴾: أي: أعْطُوا. قال الخليل: أَصْلُ «هَاتِ» من آتَى يُؤَاتِي، فَقُلِبَتِ الألِفُ هَاءً.

أي: أيُّها المؤمن الداعي إلى الله، طَالِبِ المشْرِكِينَ بأَنْ يَأْتُوا بِبُرْهَانِهِمْ عَلَى مَا يدَّعُونَ من إثْبَاتِ شَرِيكٍ للَّهِ أو شركاء، في رُبُوبِيّتِه أو في إلٰهِيَّتِه، فَمِنْ شَأْنِ مَنْ يَدَّعِي أمْراً، أَوْ يَعْتَقِدُهُ، أَنْ يُقَدِّمَ بُرْهَانَهُ الَّذِي يُثْبِتُ صِحَّةَ دَعْوَاه، أَوْ صِحَّةَ اعْتِقَادِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ، فَلْيَأْتِ بِحُجَّتِهِ لَتَجْرِيَ مُنَاظَرَتُهُ عَلَيْهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ وَلَا حُجَّةٌ قَابِلَةٌ للمجادلَةِ عليها، بَلْ ما يَدَّعِيهِ أَوْهَامٌ لا صِحَّةَ لَهَا، فَيَجِبُ علَيْهِ أَنْ يَنْبِذَ أَوْهَامَهُ، وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ المؤيَّدَةِ بالْبُرْهَانِ، وإلَّا فَإِنَّهُ غَيْرُ صالح لِأَنْ يَكونَ

إِنْسَاناً سَوِياً عاقلاً رَشِيداً، ولْيُعِدَّ نَفْسَه لِتَلَقِّي وَعِيدِ اللَّهِ بالعقاب الأبَدِيّ في نار جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين على كُفْرِهِ بِرَبِّهِ، من دَرَكَةِ الشِّرْكِ، أو ممَّا هو أخَسُّ مِنْهَا كَجُحُودِ الرَّبِّ الخالِقِ جُحُوداً كلّياً، وادّعَائِهِ أَنَّهُ لا رَبَّ ولا إله، وأَنَّ الوجود كلَّه مادَّةٌ تتحوَّلُ تَحَوُّلاً ذاتياً دُونَ تَدْبِيرِ رَبٍّ خالِقٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويختار.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للآيات من (٦٥ ـ ٧٥):

وفيها تعليم بعض أساليب الإقناع لمنكري الآخرة، وفي أثنائِها تربيةٌ من الله عزّ وجلّ لِرَسُوله كما سَبَق بيانه في التمهيد.

قولُ الله عزَّ وجل:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

تَرْجِعُ ضَلاَلَاتُ المشرِكينَ الاعْتِقَادِيَّةُ البارِزَةُ إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (النمل) إلى ثَلاثَةِ جُذُور.

الجذْرُ الأوَّل: اعتقادُ وجُودِ شُرَكَاءَ لِلَّهِ عزَّ وجَلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلٰهِيَّتِهِ. وقَدْ سَبَقَ بيانُ فَسَادِ اعتقادهم هٰذا في المناظَرة التَّعْلِيمِيَّة للدَّاعي إلى الله، الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرها وشرح عناصِرها في الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) مِنْ هذا الدَّرْس السادس من دُرُوس السُّورَة.

الجذْرُ الثاني: اعْتقادُهُمْ بأنَّ لَدَىٰ الكُهَّانِ عُلُوماً غيْبِيَّةً، يخْبِرُونَهُمْ بِهَا، فَهُمْ يُصَدِّقُونَهُمْ فِيما يُخْبِرُونَهُم بِهِ، وَهٰؤُلَاءِ الكُهَّانُ يَجُرُّونَهُمْ إِلَىٰ ضَلَالَاتٍ شِرْكِيَّةٍ كثيرة.

وقد سبَقَ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في الآيات من (٢٢١ ـ ٢٢٣) بيانُ أنَّ الكُهَّانَ أفَّاكُونَ غُلَاةٌ في ارْتِكَابِ الآثام، فَهُمْ

بِأكاذِيبهم يَصْرِفُونَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ عن الحقّ والْخَيْرِ والْهُدَى، وهُمْ فَاسِدُونَ كالشَّيَاطِين الَّتِي تتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ.

وسبَقَ لَدَىٰ تَدبُّرِ هٰذِهِ الآيات بَيَانُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَهَانَةِ والْكُهَّانِ، وَتَلَقِّيهم عن شَيَاطِين الجنّ، وكيف أنّ الشيطان مِنْهم قَدْ يَلْتَقِطُ خَبراً بِكَلِمَةٍ يَسْمَعُهَا مِنْ بَعْضِ الملائكَةِ، فَيُلْقِيها إلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخرُ إلى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّىٰ يُلْقِيهَا على لِسَانِ السَّاحِرِ أو الْكَاهِنِ، فَيكْذِبُ هذا مَعَها لِلنَّاس مِئَةَ كَذْبَة، أخذاً ممَّا صَحَّ عَن الرَّسول ﷺ.

وصِلَةً بِهذا الْبيانِ الّذي جاء في سورة (الشعراء) واستكمالاً لهُ، جاء هُنَا في سورة (النَّمل) تَعْلِيمٌ مِنَ الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ للَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الكُهَّانَ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ: لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعُ مَنْ لَدَيْهِم استعدادٌ لِعِلْمِ ما، في السَّماوات والْأرضِ، إلَّا الله عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ، أي: وهو بِحِكْمَتِهِ يُعْلِمُ مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ، مَا يَشَاءُ إعْلَامَهُمْ بِهِ مِنْ عُلُومٍ وَمَعَارِفَ غَيْبِيَّة. لفظ ﴿مَن﴾ اسْمُ مَوْصُول يَشْمَلُ كُلَّ ذِي عِلْمٍ، وأُطْلِقَ عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ.

والمُرَادُ بالْغَيْبِ هُنَا مَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِعِبَادِهِ وسَائِلَ لإدْرَاكِهِ بحواسِّهِمْ الظَّاهِرَةَ أو الباطِنَةِ، أو لإدْرَاكِهِ بالاستنتاجِ العقليّ من المدركَاتِ الحسيَّة.

ومِنْ هذا الْغَيْبِ ما جاء بيانُهُ في قَوْل الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ومن الْغَيْب الَّذِي لم يُطْلِع اللَّهُ عَلَيهِ أَحداً مِنْ عِبَادِهِ بِمَنْ فِيهم الملأُ الأَعْلَىٰ مِنَ الملائكَة، زَمَنُ الْبَعْثِ إلى الْحَيَاةِ الأخرىٰ، فقال اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ في آخِر الآية (٦٥) الموضوعَةِ للتَّدبّر من سورة (النمل):

﴿... وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

الشُّعُور: أَخَفُّ وأَضْعَفُ دَرَجاتِ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِي بالشَّيء، ونَفْيُ الشُّعور بالشَّيْء، مِنْ أَبْلَغِ صُوَرِ نَفْيِ الْعِلْم بِهِ نَفْياً كُلِّياً.

﴿أَيَّانَ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عن الزَّمان، ويُسْتَعْمل فيما يُرادُ استِعْظامه.

﴿يُبْعَثُونَ﴾: البعْثُ لغةً: الإحياءُ بَعْدَ الْمَوْت، أي: لَا يَشْعُرون بالْوقْت العظيم الّذي يكون فيه بعْثُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِم لحياة الحساب وفصل القضاء وتنفيذِ الجزَاءِ بالثواب أو بالعقاب.

وجاءت هذه العبارة توطئَةً للبيان الآتي حول الآخرَة، وما تَبِعَهُ من تعليم الرسول ﷺ وكلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمّته حجَّةً مِنْ حُجَجِ الإقْنَاع بالآخِرَةِ، وهِيَ حُجَّةٌ يَثْبتُ بها قَانونُ الجزَاءِ الرَّبَّانِي، من خلال الأَمْثِلَةِ التَّطْبِيقِيَّة الَّتي عَاقَبَ اللهُ بِهَا الْمجرمين في الحياة الدنيا قَبْلَ الآخرة، وآثارُها باقية.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: للإِضْرَابِ الانْتِقَالِيِّ مِنْ فِكْرَةٍ إلى فِكْرَة.

﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِۚ﴾: **ادَّارَكَ**: أي: تَلَاحَقَ، وَتَتَابَعَ، حتَّىٰ لَحِقَ الآخِرُ الأَوَّلَ في تلاقٍ واحدٍ، أي: إنَّ مُشْرِكي مَكَّةَ المَعْنِيِّينَ بالمعَالَجَةِ في السُّورة، لَهم عِلْمٌ قَدْ سَبَقَ في موضوع الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياةِ الآخِرَةِ للحسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء على ما يكْسِبُ الناسُ في رحلة الحياة الدُّنيا.

فقَدْ كانَ لَهُمْ ميراثٌ عِلْمِيٌّ بِهٰذَا عَنْ إِسْمَاعِيل بْنِ إبراهيم عليهما السَّلام، وَمَا زَالَ هذا الميراثُ مُتَنَاقَلاً فيما بَيْنَهُمْ.

وجَاءَهُمْ عِلْمٌ مُمَاثِلٌ عَنِ الْيَهُود الّذين كَانُوا يَلْتَقُونَهُمْ، وَجَاءَهُمْ عِلْمٌ مُمَاثلٌ أيضاً عَنِ النَّصَارَىٰ.

فَلَمْ يَأْتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِعِلْمٍ جَدِيدٍ فِي موضوع الآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ سَابِقٌ، بَلْ تَلَاحَقَ وَتَتَابَعَ عِلْمُهُمْ بِهِ، فالْتَقَىٰ مَوْرُوثُهُمْ مَعَ عَقَائِدِ أَهْلِ الكِتَابِ في هٰذا الأَمْرِ عَلَىٰ نَبَإٍ وَاحِدٍ.

فَلِمَاذَا يَسْتَبْعِدُونَ وَيَسْتَغْرِبُونَ وَيَشُكُّونَ؟؟!

يقال لغة: «ادَّارَكَ الْقَوْمُ، وَتَدَارَكُوا، وادَّرَكُوا» أي: تَلَاحَقُوا وَتَتَابَعُوا حَتَّىٰ لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ، فَتَلَاقَوا فِي مكانٍ وَاحِدٍ.

وكذلِكَ الأَنْبَاءُ فِي مَوْضُوعِ الآخرة وإن اختَلَفَتْ بَعْضُ التفاصِيلِ، قَدْ تَلَاحَقَتْ وَتَتَابَعَتْ مُؤَكِّدَةً، قَانُونَ الجزاء الرَّبَّانِيّ عَلَىٰ كَسْبِ الْإِنْسَانِ فِي رحْلةِ الحياة الدُّنْيَا، فَلَيْسَ أَمْرُ الآخِرَةِ نَبَأً جديداً عَلَيْهِمْ.

وقراءة: [أَدْرَكَ] تَدُلُّ على أَنَّ عِلْمَهُمْ قَدْ أَدْرَكَ مَعْرِفَةَ مَا فِي أَمْرِ الآخِرة، وهٰذه القراءةُ تَدُلُّ على أَنَّ بعضهم قد بلغه هذا العلم دون تلاحق وتتابع، أما قراءة: [ادَّارَكَ] فَتَدُلُّ على أَنَّ فريقاً آخر منهم قد وصلهم هذا العلم بتلاحق وتتابع: «أدْرَكَ الشيء»، أي: بلغه وناله.

وجاءتِ التعدِية بحرفِ «في» في عبارة ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ وكان الظَّاهِرُ استعمالَ حرفِ الْبَاءِ، للدَّلَالَةِ على أَنَّ عِلْمَهُمْ بالآخِرَةِ لَيْسَ عِلْماً مُسْتَوْفِياً كُلَّ الْعَنَاصِرِ الَّتِي يجب الإيمانُ بها، والمطابِقَةِ لِلْحقِّ، بَلْ هُوَ عِلْمٌ مَا دَاخِلٌ في عُمُومِ نَبَإِ الآخِرَةِ، وهذا دالٌّ عَلَىٰ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، وَوُجُودِ آخِرَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيها هذا الجزاء.

فالعبارة على تقدير: بَلْ تَلَاحَقَ وَتَتَابَعَ عِلْمُهُمْ بِحَقِيقَةٍ كُلِّيَّةٍ داخِلَةٍ في عُمُومِ أَمْرِ الآخِرَةِ، لَا مُطَابِقَةٍ لخُصُوصِ أَجْزَاءِ مَا يَكُونُ فِيها، وأَوَّلُ هٰذِهِ الحقائِقِ قَانُونُ الجزاءِ الرَّبَّانِي في آخِرَةٍ غَيْر الحيَاةِ الدُّنيا.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾: أي: بَلْ هُمْ عَلىٰ الرُّغْم مِنْ تَتَابُعِ هذا الْعِلْمِ، مُنْغَمِسُونَ فِي أَوْحَالِ شَكٍّ مُنَفِّرٍ من الآخِرَةِ، صَارِفٍ لهم عن الإيمان بها، يَسْتَمْسِكُونَ بِخُيُوطٍ عَنْكَبُوتِيَّةٍ مِنَ الشَّكِّ، ولَا يَعْبَؤُونَ بمَا لَدَيْهِمْ مِنْ حِبالٍ مَتِينَةٍ مِنَ الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إليهم من جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَات.

والَّذِي يُنَفِّرُهُمْ من الإيمان بالآخرة، تَعَلُّقُهُمْ بزِيناتِ الحياة الدُّنيا، وما لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَهَوَاتٍ وأهْواء.

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي: بَلْ هُمْ مِنْ نُفُورِهِمْ من الآخِرَة، تَعَلُّقاً بِزِيناتِ الحياة الدُّنيا وأهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِم الَّتي تَتحقَّقُ لهم فيها، عَمُونَ عَنِ الحقِيقة لَا يُدْرِكُونَها بِبَصَائِرَ سَلِيمَةِ الرُّؤيَة.

﴿عَمُونَ﴾: جَمْعُ «عَمٍ» بمعنى «أعْمَىٰ» أي: هم عَمُونَ عَنْ رُؤْيَة الحقِّ، والاهتداء بآيَاتِهِ ودَلَائِلِه، وعَمُونَ عَنْ رؤيَةِ أنوار آيات اللَّهِ البيانيَّةِ والفكريَّةِ والوِجْدَانية والكونيَّة.

والْعَمىٰ أنْواع، فمنه ما هُو في الْبَصَرِ الظَّاهِرِ، ومِنْهُ مَا هُوَ فِي الْقُلُوبِ والْبَصَائِرِ، وهكذا كانَ أئمَّةُ وكُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش.

«مِنْ» في عبارة: ﴿مِّنْهَا﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ مُقَدَّر، وتَقْدِيرُهُ فِيمَا ظَهَرَ لِي: ﴿بَلْ هُمْ﴾ لِنُفُورِهِمْ ﴿مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لأجل نفورهمْ منها عمُون، وآثرتُ تقدير كَلِمَةِ «النُّفور» لاستعمالها بشأنهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

يقال لغة: «نَفَرَ مِنَ الشّيْءِ»، أي: أعرض، وصَدَّ، وابْتَعَدَ مُدْبراً، كحالَةِ المذْعُورِ الشَّارِدِ، أو المتَمنِّعُ المتَرَاجِع بحِرَان.

وجاء استعمال كلمة «نُفُور» بشأنهم في الآية (٤٢) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) وفي الآيتين (٤١) و(٤٦) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وفي الآية (٢١) من سُورَة (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

قولُ اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالرَّسُولِ وبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ كُفراً عِنَادِياً، مع اسْتِيقَانِ أَنْفُسِهِمْ بصِدْقِهِ، وبأَنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، بأسْلوب الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيّ الاسْتِبْعَادِيّ الَّذِي يرادُ بِهِ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؟! أي: أَئِذَا مُتْنَا وَفَنِيَتْ أَجْسَادُنَا وَصِرْنَا تراباً مُخْتَلِطاً بِتُرَاب الأرض، وَصَارَ آبَاؤُنَا تُراباً كذلك أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أخرَى؟! إنَّ هٰذا الأمْرُ مُسْتَنْكَرٌ جِداً، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَدَّق.

لم يُقَدّمُوا أيَّ حُجَّةٍ غير الاستفهام التَّعَجُّبي الاسْتِبْعَادِيّ الإِنْكاري.

• ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾: أي: لَقَدْ وُعِدْنَا قَبْلَ مُحَمَّدٍ وَقبْلَ الْقُرآنِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ، أَنَّنَا سَنُبْعَثُ بَعْد الْمَوْتِ للحسَابِ والجزاء، وَوُعِدَ آبَاؤُنَا أَيْضاً هٰذا الْوَعْدَ نَفْسَهُ إِنْبَاءً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الأنبياء، وَمَرَّتْ قُرُونٌ وَلَمْ نَجِدْ لِهٰذَا الْبَعْثِ الَّذِي تتابعَتْ عَلَيْهِ الْوُعُود أثراً، فَلَمْ نَجِدْ أَحَداً مَاتَ فِي القرونِ الأُولَىٰ قَدْ بُعِث.

• ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾: ﴿إِنَّ﴾: حَرْفُ نَفْي مثل «ما» ﴿هَٰذَا﴾: أي: نَبأُ الحياةِ بَعْدَ الْمَوتِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء.

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: تأتي هٰذه الكلمة في اللُّغةِ بِمَعْنَيَيْنِ:

● فتأتي بمَعْنَى: أَبَاطِيل، وأَحَادِيث لا نظام لها، واحِدَتُها: «إِسْطَار، وإِسْطَارَة، وأُسْطُور، وأُسْطُورَة».

● وتأتي بمعنى: مَكْتُوبَات الأوّلين، ومَسْطُوراتِهم، قال أبو عبيدة: جُمِعَ «سَطْر» على «أسْطُر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أَسَاطِير».

والمعْنىٰ الأوَّل هو المعْنَىٰ الملَائِمُ هُنَا لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ما هٰذَا الَّذِي يُنَبِّئُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ عَنِ الآخِرَةِ وَما فيها مِنْ دار للنعيم ودار للعذاب بالنَّار، إلَّا أَبَاطِيلُ وخرافاتُ الأَوَّلِين، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرَتْ بِهِ أُمَّتُنَا الْعَرَبِيَّةُ عَلى لِسَان إسْمَاعِيل، وأُنْذِرَ بِهِ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ إِسْمَاعِيل، على ألسنة أنبيائهم، وَقَدْ مَرَّتْ قُرُونٌ كَثِيرةٌ علىٰ النَّاس دُونَ أَنْ نَجِدَ لِهٰذِهِ الآخِرَةِ أثراً، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الحيَاةَ الْأُخْرَىٰ لَا أَصْلَ لها، وَلَا صِحَّةَ لِلنَّبَإِ الْوَارِدِ بِشَأْنِهَا.

وَقَدْ تَكَرَّرَتْ مَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي يُعْلِنُونَ بِهَا التَّكْذِيبَ بِيَوْمِ الدِّينِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّونَ بِهَا غَيْرَ التَّعَجُّبِ، وَتَوْجِيهِ أَسْئِلَةِ الاستِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ.

وَقَدْ تَكَرَّرَ في الْبَيَانَاتِ الْقُرْآنِيَّة إِبْطَالُ تَعَجُّبِهِمْ واستبعادهم واسْتِغْرَابِهِم، بِقِيَاسِ الحياةِ الْأُخرىٰ عَلَىٰ الحياةِ الأولى، فَمَنْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ الْحَيَاةَ الْأُولَىٰ، وَأَنْشَأَ الْأَحْيَاءَ مِنَ التُّرَابِ والْمَاءِ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ صِفَاتُهُ لِأَنَّهُ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدِيراً عَلَى إعادَةِ الحياة إلى الموْتَىٰ، ولَوْ فَنِيَتْ ذَرَّاتُهُمْ فِي تراب الأرض، لِأَنَّهُ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ ذَرَّاتِهِمْ وَبِكُلِّ صفاتهم، وكما بَدأَ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون.

فَالْإِنْكَارُ القائِمُ على التَّعجُّب إنكارٌ سَاقِطٌ عَقْلِياً، لَا وَزْنَ لَهُ، وَلَا قِيمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

وقد جاءت في القرآن المجيد نُصُوصٌ ثَمَانِيَةٌ تَكْشِفُ مواقف الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّة، بشأنِ إنْكَارِهِمْ الآخِرَةَ اعْتِمَاداً عَلى التَّعَجُّب، وَتَوْجِيه الاسْتِفْهَام الاستغرابيّ الإنكاريّ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا تَوْجِيهَ حُجَّةٍ صَالِحَةٍ للمناظَرَةِ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

ولمَّا كَانَ التَّكْذِيب بِنَبَإِ الآخِرَةِ يَسْتَلْزِمُ التَّكْذِيبَ بقانُونِ الجزَاء الرَّبَّانِي، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعِلاجِيَّةِ الْقَائمة على المناظَرَةِ العقليَّة ذَاتِ الأَدِلَّةِ الْبُرْهَانِيَّة، تَوْجِيهُ الأَنْظَارِ إلى آثار العقوبَات الجزائيَّة الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي أَجْرَاهَا الله فِي الحياة الدنيا، قَبْلَ يَوْمِ الدّين، والَّتي أَهْلَكَ بِهَا أَقْوَاماً مُتَعَدِّدِينَ من كُفّارِ الْقُرُونَ الأولَىٰ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوهُمْ بِمَا جَاؤُوهم بِهِ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيد.

فعَلَّمَ اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ وكُلَّ دَاعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أمّتِهِ، أَنْ يَقُول للكَافِرِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الآخِرَةَ والجزاء الرَّبَّانِيَّ، مَا جَاءَ فِي الآية التالية.

قول الله عز وجل:

• ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: قُلْ لِهٰؤُلَاءِ الكافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ إذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بقانُونِ الجزاءِ الرَّبَّانيّ، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً الإيمانَ بالآخِرَةِ وَبِيَوْمِ الدِّينِ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا آثَارَ عُقُوبَاتِ اللَّهِ بِإِهْلَاكِ مُجْرِمِي الْقُرُونِ السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ الناس، فانْظُرُوا آثَارَ كُفَّار عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هُودٍ عليه السلام، وانْظُرُوا آثارَ كفَّار ثمود قوم الرَّسُولِ صَالِحٍ عليه السَّلام، وانْظُرُوا آثَار مُجْرِمِي قوم الرسُولِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وانْظُرُوا آثار فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه وجُنُودِهِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا فِي الْبَحْرِ، إلى غَيْرِهِمْ مِنْ مجْرِمِي القرون الأولى.

أَفَلَا يَدُلُّكُمْ كُلُّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ النَّاسَ فِي الحياة الدنيا مُمْتَحَنُونَ

بالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وأنَّ اللَّهَ رَبَّهم الَّذِي وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لَا بُدَّ أَنْ يَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ الْحياة الدنيا من خَيْرٍ وَشَرّ، وأَنَّ مَنْ لَم يَنَلْ جزاءَهُ في هٰذِه الحيَاةِ الدُّنيا فَلَا بُدَّ أنْ ينالَهُ في ظُرُوفِ حياةٍ أُخْرَىٰ، لأنَّ البارئ جلَّ جلالُهُ حَكِيمٌ، عَدْلٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، لَم يَخْلُقْ خلقَهُ في الحياةِ الدنيا عبثاً.

﴿سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: سِيرُوا باحِثينَ عَنْ آثار الأوَّلِينَ فِي الأَرْض. يقال لغة: «سَارَ، يَسِيرُ، سَيْراً، وسِيرَةً، وتَسْيَاراً، ومَسَاراً، ومَسِيرَةً» أي: مَشَىٰ.

﴿فَٱنظُرُوا﴾: أيْ: فَانْظُرُوا نَظَراً بَصَرِياً إلى الآثار، وَنَظَراً فِكْرِياً لاسْتِنْباطِ الْعِبَر من الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآثار، وإدْرَاكِ أَنَّ سُنَّة اللَّهِ فِي عِبَادِهِ واحِدة، فَمَا كَانَ من عُقُوبَاتِ اللَّهِ للمجْرمينَ الأَوَّلِينَ، سَيَجْرِي نَظِيرُهُ للمُجْرِمِينَ الآخِرِينَ، مَتَىٰ تَطابَقَتِ الأَمْثَال، وَاقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إنْزَالَ الْعِقَابِ المُعَجَّل، وإدْرَاكِ أَنَّ الجزاءَ بِالعِقَابِ وبالثواب من قوانين الله رَبِّ العالَمِينَ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ فِيها وَلا تَغيير لها، لأنَّها من مُقتضيات كمالِ صِفَاتِه الجليلة.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ «كَيْفَ» اسم استفهام مبنيٌّ علىٰ الْفَتْحِ في مَحَلِ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ حَالٌ، أيْ: عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ الأَوَّلِينَ.

عاقبة عَمَلِ الْعَامِلِ: الجزاء الذي يكون بَعْدَه.

والمعنىٰ: فانْظُرُوا بأبْصارِكُمْ وَتَفَكَّرُوا بِعُقُولِكُم مُسْتَنْطِقِينَ الآثارَ، سَائِلِينَ سُؤَال تَدَبُّر: كَيْفَ كَانَ جَزَاءُ المجْرِمِينَ الأَوَّلِينَ؟

إنَّ الآثارَ المشهودَة بالأَبْصَار، والاسْتِنْتَاجَاتِ العقليَّةَ الَّتِي تَجْزِمُ بِها الأَفْكار، تُقَدّم لأولي الألباب العظَةَ والاعتبار، مؤكّدَة أَنَّ قانُونَ الجزاء

الرَّبّانِيّ حَقٌّ، وأَنَّ ما لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْهُ في هٰذِهِ الدَّارِ دَارِ الحياة الدنيا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ في حياةٍ أُخرى تكُونُ في غَيْرِ هٰذِه الدَّار، هُنَالِك يَكُونُ الخُلُود، وهُنَالِكَ يكونُ الْقَرار.

جملة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهاميَّةُ دَلَّتْ على مَفْعُول: ﴿فَٱنظُرُوا﴾: أي: فَانْظُرُوا من خِلَالِ الواقِعِ الجَزَاءَ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّبُّ الحَكيم العليم القدير بالمجرمين الأوّلين.

لفظ «المجْرِمِينَ» أُطْلِقَ في القرآنِ عُنْواناً مقابلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَوصفاً للكافِرين الَّذِين يَسْتَحِقُّون الخُلُود فِي عذابِ النار أبداً، فهو مصطلحٌ قرآنِيٌّ خُصَّ بِهِ الكافِرُونَ.

وعَقِبَ التعليم الإقْنَاعِيِّ للرسُولِ ﷺ، فَلِكُلّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِه بشَأْنِ إنكار الذين كَفَروا الآخِرَة وقَانُونَ الجزاء الرَّبَّاني، وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ تَوْجِيهاً تَرْبَوِيًّا يُوصِيهِ فِيه أن لا يَحْزَنَ على الكافِرِينَ الَّذِينَ يَحْرِصُ عَلَىٰ إيمانهم لإنقاذِهِمْ مِنْ الْعَذَاب الأليم خالِدِينَ فِي جَهَنَّم دَارِ قَرَارِ الْمجرمين، ويُوصِيهِ فِيهِ أَنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤُهُ مِنْهُم لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ. وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي ضِيقٍ نَفْسِيٍّ وَقَلْبِيٍّ مِنْ ذٰلِكَ، وَهٰذَا يُشِيرُ ضِمناً إِلَىٰ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتولَّاه، ويَكْفِيهِ أَمْرَهم، ويُدَافِعُ عَنْهُ وَعَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، فجاء فِي الآية التالية.

قَوْلُ اللَّهُ عَزّ وجَلّ له:

- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: أو ﴿فِي ضِيْقٍ﴾:

الْحُزْنُ: مشاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ قَدْ يَطُولُ أَمَدُهُ، بسبب فَوَاتِ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيه، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ، أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُولِ.

ضَيق وضِيق: هُمَا بِمَعْنَىٰ الكَرْبِ أَوْ الألَمِ فِي النَّفْسِ الضَّاغِطِ عَلَيْهَا، مِنْ حُدُوثِ مَكْرُوه، أَوْ تَخَوُّفِ حُدُوث مَكْرُوه.

الْمَكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِي خَفَاء، خَيْراً أَوْ شَرّاً، وأَهْلُ الخَيْرِ يُدَبِّرُون خيراً، وأَهْلُ الشّرّ يُدَبِّرُونَ شَرّاً.

ظاهِرٌ أنَّ التوجيه التربويّ الذي اشتملت عليه هٰذه الآية، يَتَضَمَّنُ وصِيَّتَيْنِ:

الوصية الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وَلَا تَحْزَنْ عَلَىٰ مَنْ تَحْرِصُ عَلى إيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ لنجاتهم وإنْقَاذِهِمْ من الخلُودِ فِي عَذَابِ النارِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِكَ.

وَنَفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ الوصيَّةِ أَنَّ هٰؤُلَاءِ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ تَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِم، فَاصْرِفْ نَفْسَك وَقَلْبَكَ عَنِ الْحِرْصِ الشديدِ على إيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِم.

أي: فَرَبُّكَ الخالِقُ لَهُمْ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، إنْ يَعْلَم اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْراً، يُسَاعِدْهُمْ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسلمينَ، ولَوْ فِي حُدُود دَرَجَةِ النَّجَاةِ مِن الخلود في عَذَابِ النَّارِ، لَكِنَّ هٰؤُلَاءِ لَا خَيْرَ فِي قُلوبِهِمْ، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

تربية الله لِرَسُوله في الْقُرْآنِ كُلِّه أَنْ لاَ يَحْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ:

لقد تدرَّجت تربية الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ بشأنِ توصِيَتِهِ أَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنَاداً وإصراراً على الباطل وقد جاء هذا في تسعة نصوص.

(١) فأنزل الله عزّ وجلّ قَوْلِهِ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾:

أي: فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ (المُرَادُ بها هُنَا الرُّوح) تَذْهَبُ مِنْ جَسَدِكَ بِالْمَوْت، بِسَبَبِ تَوَالِي الحَسَرَاتِ وَشِدَّةِ الأَحْزَانِ فيها مِنْ أجْلِ الَّذِين اختارُوا لأنْفُسِهِم الكُفْرَ بِمَا أَوْجَبَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ إِيمانٍ وَعَمَلٍ صالِحٍ يُرْضِيهِ، دُونَ أَنْ تَكُفَّهَا بالتَّسْلِيم التَّامِّ لِلَّهِ فِي تَدْبِيراتِ كَوْنه، والتَّسْلِيمِ التَّامّ لحكْمَتِهِ في قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ وتصاريفِهِ في عباده.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذه الآيَةِ في مَوْضِعَها مِنْ سُورَة (فاطر).

ونُلَاحِظُ فِي هٰذِهِ الآيَةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ أوصَىٰ رَسُولَهُ بأَنْ لَا يَحْزَنَ حُزْناً شَدِيداً مُمِيتاً بِحَسَبِ نِظَام الأسْبَاب والمسبَّباتِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ النهْيَ عن الحزْنِ القاتل لَا يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَن الْحُزْنِ غير القاتل.

(٢) ثم أنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ قوله في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

فأوصَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ في هٰذِهِ الآية بأسْلوبٍ لَا نَهْيَ فِيهِ، ولكِنْ فِيهِ رَائِحَةُ الاسْتِفْهَام العتابي، مع التوجيه المشَدَّد أَنْ لا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ خَوْفِهِ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

والمعنَىٰ: أَلَا تُشْفِقُ على نَفْسِك يا مُحَمَّد، من أَنْ تُعَرِّضَهَا دُونَ شُعُورٍ مِنْكَ لِقَتْلٍ سَرِيعٍ بِسَبَبِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ والْحُزْن، من أَجْلِ قَوْمٍ لَمْ يُشْفِقُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ؟!

وَيَظْهَرْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ خَفَّفَ مِنْ حُزْنِهِ عليهم، طاعَةً لِرَبِّهِ فِي الْوَصِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَة (فَاطِر) إِلَّا أَنَّ حُزْنَهُ مَا زَالَ شَدِيداً يُعاوِدُهُ آناً فآناً بشدَّة، إلاَّ أنّ آية (الشعراء) لم تنْهَ عن كلّ الحُزْن أيضاً، بل عن شديده القاتل احتمالاً قَتْلاً سريعاً.

وقد سبق تدبُّر هذه الآية في موضعها من سورة (الشعراء).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . . ﴿٧٠﴾﴾.

فأَوْصَاهُ بهذا النَّهْي أَنْ لَا يَحْزَنَ عليهم حُزناً مَا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلاً لِأَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهم.

(٤) واسْتَبْعَدَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ كلَّ بواعِثِ الْحُزْنِ، لَكِنْ بَقِيَتْ لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزْنِ عَلَىٰ بَعْضِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ والسُّلْطَان، إِذْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ إيمَانَهُمْ وإسْلَامَهُمْ يَجُرُّ إلى الإيمان والإسْلَامِ أتْبَاعَهُمْ الكَثِيرِينَ مِنْ قَوْمِهِ، فَكَانَ هٰذَا دافعاً يُبْقِي لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزْنِ، حِرْصاً عَلَىٰ إِسْلَام أَتْبَاعِهِمْ الكثيرين.

فأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فدلَّتْ عبارة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ قومِهِ، ذَوِي المالِ والْجَاهِ والأَنْصَارِ والأتباع.

وكُلُّ دَارِسٍ لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ يُدْرِكُ أَنَّهُ قَد كَانَ شَدِيد الحِرْص على إيمَانِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّة وإسْلَامِهِمْ، إذْ يُسْلِمُ بإسلامهم أتباعُهم وأنْصارُهُمْ وكَثِيرٌ آخَرُونَ مِنْ قَوْمِهِ، فَحُزْنُ الرَّسُولِ في هذه الْمَرْحَلَةِ مِن أَجْلِ انتشار الدّين، لَا من أجْلِ أَشْخَاصِ هؤلَاءِ الكُبَراء المعانِدِين.

ومن خلال هذا التَّصوُّر نُدْرِكُ الْغَرَضَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ إِبَّانَ نُزُول سورة (الحجر): ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

إنَّ هٰذِه الوصِيَّة لَيسَتْ تَكْرِيراً تَطَابُقِياً لما جاء في سورة (النمل) بل هي موجَّهَةٌ للدَّلالة عَلَىٰ أمرٍ غير الأمْر الّذي دَلَّتْ عَلَيْه آيَة (النمل) أخْذاً مِنْ سِبَاقِ آية (الحِجْرِ) وسِيَاقها.

(٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ عزّ وجلَّ نَصاً مُوجّهاً لكلّ داعٍ إلىٰ اللّهِ بخطابٍ إفرادِيّ فيما أرَىٰ، يُوصِي فِيه الله الَّذِينَ آمَنُوا فَرْداً فَرْداً أَنْ لا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفر مَهما كَانَ شَأْنُه، لأنَّ الحياةَ الدُّنيا حياةُ ابتلاءٍ لِكُلّ فَرْدٍ وَضَعَهُ اللّهُ فيها مَوْضِعَ الامْتِحَان، والموضوع موضِعَ الامْتِحَانِ هو المسؤول الوحِيدُ عَنْ نَفْسِه، فإذا اختارَ لِنَفْسِهِ تَرَكَهُ اللّهُ واخْتِيَارَه، وعَلىٰ المؤمنين أن يَتْرُكُوهُ واختياره، ولَا يَحْزُنَهُمْ كُفْرُه.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة(لُقْمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ... ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَمَنْ كَفَرَ كُفْراً عِنَادِياً باخْتِيَارِهِ الحرّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ الحقّ، فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ، لِأَنَّهُ كَشَفَ بالامْتِحَانِ عَنْ هُوِيَّةِ نَفْسِهِ الْمُجْرِمَة، والْمَكَانُ الْمُعَدَّ لَهُ بِحِكْمَةِ اللّهِ في قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ جَزَاءَ كُفْرِهِ الإراديّ العنادي دَارَ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٦) ثُمَّ أَنْزَلَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نُزُول) خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَولَهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً، وَفِي مُقدّمَتِهِمْ النَّصارَىٰ الَّذِينَ جَعَلُوا عِيسَىٰ ابْناً لِلّهِ، ويُلْحَقُ بِهِمُ المشركون الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ تَعالَىٰ اللّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كبيراً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

فَأضَافَ هذا النَّصُّ بيانَ قَضِيَّتَيْنِ:

القضيّة الأولى: حُزنُ الرَّسُولِ مِنْ أَجْلِ رَافِضِي الحقّ من النصارى، بدَلِيلِ ما جَاءَ في الآية الخامسة من السّورة، فَلَيْسَ أَمْرُ حُزْنِ الرَّسُول مُقْتَصِراً عَلَىٰ قَوْمِهِ.

القضيّة الثانية: التَّذْكِير بِحِكْمَةِ ابْتِلَاءِ النَّاسِ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، ومَعْلُومٌ أَنَّ الحِكْمَةَ من الابتلاء كَشْفُ مَا فِي النفوس من إرادات خَيْرٍ أَوْ شَرٍ، تمهيداً للجزاء بالعدل أو بالفضل، ومقتضىٰ هذا أَنْ لا يَحْزَنَ عاقِلٌ عَلَىٰ كُفرِ كَافِرٍ مُعانِدٍ يختار لنَفْسِهِ الكُفْرَ بإرادته الحرَّة، مُعَانداً رَبَّهُ الذي خَلقه، وجَعَلَهُ إنساناً مفضَّلاً على كثيرٍ ممَّا خَلَقَ ليَبْلُوَهُ، فإذَا آمَنَ وأَسْلَمَ استحقَّ أَنْ يَكون من أهل دار النعيم بفضل الله، وإذا كَفَرَ وأبىٰ أَنْ يُسْلِمَ استَحَقَّ أَنْ يكون من أهل دار العذاب بِعَدْلِ الله.

(٧) ثُمَّ أنزل اللّهُ عزّ وجلّ آياتٍ مَدَنِيَّة ضُمَّتْ إلى آخِرِ سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نُزُول) المكيَّة لمراعاة اقتضاءَين:

(١) اقتضاء فكريٌّ اقتضت الحِكْمَةُ ضَمَّهَا إِلَىٰ آخِرِ سورة (النحل).

(٢) واقتضاء حَرَكِيّ اقتضَتِ الحِكْمَةُ إنْزَالَها في الوقت الذي أُنْزِلَتْ فيه، في الْعَهْدِ المدني.

وهي قَوْل الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

دَلَّ هٰذا النّصُّ عَلَىٰ أَنَّ المؤمِنِينَ قَدْ يَتعَرَّضُونَ لِصُوَرٍ من أذَىٰ الكافِرِينَ واضطّهادِهِم عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ إيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ، إذْ خَالَفُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَخَرَجُوا عَنْ جَمَاعَتِهِمْ.

فأوصَىٰ اللَّهُ المؤمِنينَ إذا تَمكَّنُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَظَفِرُوا بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَادِلِينَ، فَيُعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبُوا بِهِ دُونَ زِيادَة، وَرَغَّبَهُمْ بِأَنْ يَصْبِرُوا فَلَا يُعَاقِبُوا، لِيُقَدّمُوا أَحْسَنَ الْأَمْثِلَةِ عَنْ مُعَامَلَةِ المؤمنين المسْلِمِينَ لظَالِمِيهم، وفي هٰذا دَعْوَةٌ عَمَلِيَّةٌ صامِتَةٌ للدُّخُولِ فِي الإسْلامِ.

ويَظْهَرُ أنّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ مَسَّ نَفْسَهُ شَيْءٌ مِنَ الحُزْنِ، مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ قُتِلُوا وَهُمْ كَافِرُونَ فِي بَدْرٍ، مِنْ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ، وذَوِي الحكمة، والرّأي فيهم، وكان ﷺ شديد الرَّغبة فِي أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ لِيُعِزَّ اللَّهُ بهم الإسلام، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: لو كان في قُلوبِهِمْ خَيْرٌ كَمَا تَظُنَّ فِيهم، لألْهَمَهُمْ رَبُّكَ الرُّشْدَ، ولآمَنُوا وأَسْلَمُوا وَلَوْ قُبَيْلَ أَنْ يُقْتَلُوا.

وَدَلَّتْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ على أنه ما زال في مكة بَعْدَ مَعْرَكَةَ بَدْرٍ أعداءٌ يَمْكُرُونَ مكراً شديداً، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ متولّيه وناصره. وقد ظهر مكرُهُمْ هٰذا في غزوة أحدٍ، ثم في غزوة الأحزاب.

(٨) ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في أوائل الْعَهْدِ المدنيّ قوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ... ﴿١٧٦﴾﴾.

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ هٰذَا النَّصَّ نَزَلَ فِي المنافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُون مُسْلِمُونَ، إلَّا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي سُبُلِ الْكُفر، لَا أَنَّهُمْ مُجَرَّدُ عُصَاة.

سَارَعَ فِي كَذَا: أي: أَسْرَعَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاط.

وسُلُوكُ هٰذا الصِّنْفِ من الناسِ يُحْزِنُ الرَّسُولَ والصَّادِقِينَ من المؤمنين، لأَنَّهُ يُحدِث خَلَلاً في صُفُوفِهِمْ، وَتَوَجُّساً من تعاظُم نَوامِي الشرّ والفساد في جماعتهم.

فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ولكُلّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الإيمانِ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ أي: لَنْ يَضُرُّوا الدَّعْوَةَ إلَىٰ الله، ولَنْ يُؤَثِّرُوا عَلَىٰ مَسِيرَةِ الإسْلَام الْحقّ وانتشاره، فَمِنْ شَأْنِ كُلّ جَمَاعَةِ حَقٍّ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا متشكِّكُون وَمُرْتَدُّونَ.

(٩) ثم أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيّ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنافِقِين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ... ﴿٤١﴾﴾.

فَدَلَّتْ صِيغَةُ هٰذِهِ الآيَةِ الصَّرِيحَة في دَلَالَتِهَا على الْمُنَافِقِينَ، عَلى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا جَاءَ فِي آيَةِ (آل عمران) السَّابِقَةِ المنافِقُونَ أيضاً.

على أنَّ الْمُسَارَعَةَ في السُّبُلِ الْمُوصِلَةِ إلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ المعلَنِ، إنَّما تَكُونُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ على دَرَكَاتهم، لا من الكافِرِينَ المجاهِرِينَ بِكُفْرِهم، ولَا مِنَ المؤمنين الصَّادِقين في إيمانهم.

وهكذا ظهر لَنَا تكامل النصوص حَوْلَ هذا الموضوع.

❁ ❁ ❁

الوصيّةُ الثانية: (في الآية ٧٠ من سورة النمل) دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [فِي ضِيقٍ] والمعنَىٰ فِيهِمَا وَاحِدٌ، فالقراءتان لغتان عَرَبيتان في كَلِمَة «ضِيق».

إنَّ مِنْ طَبِيعَةِ فِطْرَةِ الإنْسَانِ أَنَّهُ إذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْدَاءَهُ يَمْكُرُون ضِدَّهُ، وَضِدَّ أَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ، أَنْ تُحِيطَ بِجَوَانِبِ نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالْغُمُوم، وأَنْ تَتَوَارَدَ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ قَلْبِهِ الأفكار التدبيريَّةُ لاتخاذ الوسائل المضادّة لما

يَمْكُرُهُ أعْدَاؤهُ، طَلَباً لِلْأَمْنِ والحمايَة، ورَدِّ مَكْرِ أَعْدَائِهِ إلىٰ نُحُورِهم.

وهٰذِهِ الأمُورُ الدَّاخِلِيَّةِ تُشَكِّلُ مَا يُشْبِهُ الْحِزَامَ الضَاغِط عَلَيهِ مِنَ الدَّاخِلِ، فَيَشْعُرُ بِضِيقٍ دَاخِلِيٍّ يَضْغَطُ عَلَىٰ نَفْسِه، وَقَدْ يَصِلُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، فَإِلىٰ عُمْقِ فُؤَادِهِ، إذْ يُحِسُّ بِأنَّهُ مُحَاصَرٌ مِنْ كُلِّ جَانِب، وَلَا يَنْفَرِجُ عَنْهُ هٰذَا الضِّيقُ إلّا إِذَا أَحَسَّ بالأمْنِ والسَّلامَة، واطْمَأَنَّ إلىٰ أَنَّ مَكْرَ عَدُوّه مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

وأَعْظَمُ مَا يُفْرِغُ عَلَى النَّفسِ وَالْقَلْبِ الأَمْنَ والطُّمَأْنِينَة، أَنْ يَأْتِيهِ عِلْمٌ مِنَ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَأَنَّهُ حَامِيه وَحَافِظُهُ، وَرَادٌ عنْهُ مَكْرَ عَدُوّهِ، وَمُحْبِطٌ كَيْدَه.

وقولُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يَدُلُّ بأُسْلُوب الكناية علىٰ أَنَّهُ حَامِيهِ وحَافِظُهُ ورادٌ عَنْهُ كَيْدَ أعدائِهِ، فَلْيَكُنْ مُطْمَئِناً مِنْ أَمْرِهِ، فاللَّهُ نَاصِرُه.

هذا التأمِينُ الرَّبَّانيّ يُبْعِدُ عَنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ كُلَّ ضِيْقٍ مَهْمَا كَانَ شَدِيداً، لأنَّهُ تأمِينٌ من عَلِيم حَكِيم قَدِيرٍ، لا يُعْجِزُهُ مُمْكِنُ الإيجاد، قوله حَقٌّ وَوَعْدُهُ صِدْق، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

وهذه الوصيّة التأمِينيَّة قد أوصَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها رَسُولَهُ فِي أوائِلِ الْعَهْدِ المدني، وهي في النّصّ المدَنِيّ المضْمُومِ إلىٰ سُورَةِ (النَّحْلِ) المَكِّيَّةِ للإشعار بأنَّ أصْحَابَ هٰذَا المكْرِ أعداءٌ مَكِيُّونَ، فَقَد جاء في الآية (١٢٧) منها قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿... وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وقرأ ابْنُ كَثِيرٍ: [فِي ضِيقٍ] كما قرأ في نظير هٰذه العبارة في سورة (النمل).

ومعلومٌ أَنَّ مَكْرَ أعْدائِهِ المَكِّيين بَعْدَ هِجْرَتِهِ إلَى الْمَدِينَةِ قَدْ كَانَ إعداداً لقتالٍ حَرْبِيٍّ في غَزَوَات، ولا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ بِهِمْ قَاصِمَةُ ظَهْرٍ، في غَزْوَةِ بَدْر.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وَجَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا إخْفَاءَ وَقْتِ قيامِ السَّاعَةِ الَّتِي يكونُ بها إنْهَاءُ ظُروف الحياةِ الدُّنيا كلِّها، تعِلَّةً يَتَذَرَّعُونَ بِهَا لإنْكَارِ الآخِرَةِ، ولإنْكَارِ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ كُلِّه.

فَصَارُوا يَقُولُونَ مُكَرِّرِينَ: مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدَ؟ وَيَزْعَمُونَ أَنَّ عَدَمَ تَحْدِيد زَمَنِ قيام السَّاعَةِ الَّذِي لَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهِ أحداً مِنْ خَلْقِهِ في الأرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِ نَبَإِ القيامة، ونبإِ الجزاء الرَّبَّانيّ كُلّه.

وصَارُوا يُوجِّهُونَ هٰذا الْقَوْلَ لأفراد المؤمِنِين وجماعاتهِمْ لفتْنَتِهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، دَلَّتْ عَلَىٰ هٰذَا آيَةُ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾:

الواو في أوّل الآية تعْطِفُ على عبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ في الآية (٦٧).

وعبارة ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة الفِعْل المضارع دَلَّتْ علىٰ أنَّهُمْ كَانُوا يُكَرِّرُونَ هٰذا الْقَوْل الذَّرائِعيّ، لأنَّ هٰذه الصيغَة تَدُلُّ علىٰ التكرار والتجدُّد كما يقولُ البلاغيّون.

والمشارُ إليْه بِعبارَةِ ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يوْمُ القيامَةِ الّذِي يأتي قيامُ السَّاعَةِ في أُولَىٰ مراحِلِهِ، وَمَا فِي يَوْمِ القيامَةِ مِن جَزَاءٍ رَبَّانِيٍّ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ، وَهٰذا الجزاءُ هو الَّذِي يُكَذِّبونَ بِهِ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ.

وعبارة: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْكَافِرِينَ يُكَذِّبُونَ بِنَبَإِ يَوْمِ الْقِيامَةِ، وبالجزاء الرَّبَّانِيّ كُلّه مُعَجَّلِهِ فِي الُّدنْيا ومؤجّلِهِ إلى يَوْمِ الدّين، إذْ

جَاءَ فِي العبارة حَرْفُ الشرْطِ «إنْ» الّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْمَشْكُوكِ فِيه، أَوْ عَلى مَا يَعْتَقِدُ المتكلّم كَذِبَه، إلّا أنَّهُ يُلَطِّفُ عبارتَهُ مُجامَلةً لِمَنْ يُخاطِبُه، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ للدّلَالَة على مُجَرَّدِ التّعْلِيقِ الشَّرْطِيّ، دُونَ النَّظَر إلى ما دَخَلَتْ عَليه، مشكوكاً فيه أَمْ غَيْرَ مَشْكُوكٍ فيه.

فجاء الجوابُ التَّعْليميُّ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلّ مُدَافِعٍ عَنِ الإسْلام من أصْحَابِهِ يومئِذٍ، بالتوجيه الإفرادي:

فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿قُلْ﴾: فعل أمْرٍ تَعْلِيميّ.

﴿عَسَى﴾: فِعْلٌ جَامِدٌ غَيْرُ مُتَصَرِّف، معناهُ تَوَقُّعُ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبلاً، مع رجاءِ رُجْحان الْوُقُوع.

وقدْ تَأْتِي بمَعْنَى احْتِمال وقوع الشيء دون رُجْحانٍ، ومِنْهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿رَدِفَ لَكُم﴾: يُقَال لُغَةً: «رَدِفَهُ، وَرَدِفَ لَهُ، يَرْدَفُهُ رَدْفاً» أي: دَهَمَهُ، وفَاجَأَهُ، وَغَشِيَهُ، دُونَ تَرَقُّبٍ ولَا توقُّع.

أصل مادة كلمة «رَدِفَ» يَدُور حول معنى: «تَبِعَ».

فالمعنىٰ: نَتَوَقَّعُ بِرُجْحَانٍ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ مِنَ الجزاءِ الرَّبَّانِيّ، قَدْ تَمَّ بِهِ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدَرُه، فَقَدْ يُدَاهِمكُمْ ويُفَاجِئُكُمْ وأنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، سُكَارَى فِيما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكُم وأهوائكم وشهواتكم واستكباراتِكُمْ بغَيْرِ حَقّ.

وَاسْتُعْمِلَ الفِعْلِ الماضي: ﴿رَدِفَ﴾ للدَّلَالَةِ على قُرْبِ الْوُقُوعِ قُرْباً نِسْبِيًّا، يُلائِمُ سُنَنَ اللَّهِ في مَجَارِي مَقَادِيرِه، لِتَغْيِيرِ بَعْضِ أَحْوالِ الأُمَم،

جَزَاءً عَلَى السيِّئَاتِ، أو جزاءً على الحَسَنَاتِ، والسَّنوات الْمَعْدُودَاتُ زَمَنٌ قَلِيلٌ وَأَجَلُهَا قَرِيبٌ، بِالنِّسْبَةِ إلىٰ إنْزَالِ عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأُمَّةٍ من الأُمَمِ، أو بِالنِّسْبَةِ إلى نَصْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِئَةً عَلَىٰ فِئَة، فبعد سَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ نَزَل بمشركي مَكَّةَ مَا يَكْرَهُونَ.

أمَّا نَحْوُ: «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ» فَقُرْبُ قِيَامِهَا فِعْلاً يُلائِمُ حَالَها، ويُعَدُّ الزَّمَنُ بالثواني.

وجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾: مُلائِمةً لِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ إنْكَارِ الجزاء الرَّبَّانِيّ كُلِّهِ، إذْ أغْرَاهُمْ إمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى وَفْقِ سُنَّتِهِ بِعِبَادِهِ، فَتَوَهَّمُوا أنَّ الْوَعِيدَ بالْعِقَابِ الرَّبَّانِيّ لَهُمْ إذَا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَعِيدٌ كَاذِبٌ، فَتَمَادَوْا فيما هُمْ فِيهِ من كُفْرٍ وَمُعَانَدَةٍ للحقّ، ومعاداةٍ للرَّسُول ولدَعْوَته، واضطّهادٍ لضُعَفاء المؤمنين.

وكذلك فَعَلَ كُفَّارُ الأُمَم من قَبْلهم، وكذلك يَفْعَلُ سائر الكفّار من بَعْدِهم إلى أن تقومَ السَّاعَة.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إمْهَالَ اللَّهِ للكافِرِينَ المجرمين من عِبادِهِ، داخِلٌ في عُمُوم فَضْلِهِ على النَّاسِ جَمِيعاً، فهو لا يُتْبِعُ جرائِمَهُمْ بِعُقُوبَاتِهِ، تَفَضُّلاً مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهم، لِيَتْرُكَ لهم زَمَناً طَوِيلاً يُرَاجِعُونَ فِيهِ نُفُوسَهُمْ، رَغْبَةً فِي أنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعِدٌ مِنْ أَعْمَاقِهِ للتَّوْبَةِ والنَّدَم والرُّجُوع إلى الحق، حتَّى إذا وَصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنْ إيمانِهِمْ وإسْلامهم عن طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة، أَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيز مُقْتَدر.

ولَكِنْ مَعَ هٰذا التَّفَضُّل من اللَّهِ على الناس، وَمِنْهُ التَّفَضُّلُ الإمْهَالِيُّ للعصاةِ والمجرمين، فإنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُقَابِلُونَ تَفَضُّلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالشُّكْر،

وَلَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجاتِ الشُّكْرِ، وِهِي دَرَجَةُ الإيمان به والإسْلَامِ لَهُ.

الفضل: هو في الأصْلِ الزِّيادة، والبَقِيَّةُ مِنَ الشَّيء، واسْتُعْمِلَ بمَعْنَى الابتداء بالإحْسَانِ وَالْعَطَاءِ مِنَ الخير مادِّياً أَمْ مَعْنَوِياً، وقَدْ اشْتَهَرَ بهذا المعْنَىٰ.

الشكر: مقابلَةُ إِنْعَامِ المنْعِم بما يُرْضيه.

وجاء في هذا البيان التوكيدُ بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزحلقة» مع أنّ تَوْجِيه الخطاب فيه للمؤمن الّذي لَيْس لَدَيْه شَكٌّ فيما جاء فيه لِغَرَضَيْنِ:

الأول: تَعليم المؤمن في بيانِهِ للمفاهيم الإسلاميَّة، أَنْ يُوجّه إقناعه للآخرينَ بأسْلوب المتحقّق مِمَّا يقول، والمؤكّد له، لا بأسْلُوب المتلجلج غَيْر الواثِقِ مِمَّا يَقُول:

الثاني: إسماعُ الكافِرينَ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بالخِطَاب، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يُؤكِّد ما جاء في هٰذا الْبيانِ للرَّسُولِ ولِكُلِّ مخاطَبٍ مِنَ المؤمنين، إعْلاماً بأَنَّهْ حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿مَا تُكِنُّ﴾: أي: مَا تَسْتُر. يقالُ لُغَة: «كنَّ الشيءَ يَكُنُّهُ كَنًّا. وأَكَنَّهُ يُكِنُّه» أيْ: سَتَرَه.

﴿صُدُورُهُمْ﴾: أي: صُدُور الناسِ جميعاً، ويَدْخُلُ فِي هٰذَا الْعُمُومِ الكافرون المُتَحَدَّثُ عَنْهُمْ في آياتٍ سابقات.

ونَفْهَمُ مِن القرائِنِ أنَّ ما يُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ الكافِرُونَ فِي صُدُورِهم وَلَا يُعْلِنُونه، عِدَّةُ أُمور منها ما يلي:

(١) مَكْرُهُمُ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ ضِدَّ الرسُول ﷺ ودعْوتِه، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

(٢) كراهِيتُهُمُ الشَّدِيدَةُ لهذا الدّين الذي جاءَهُمْ بِهِ، وتَخَوُّفُهُمْ من انْتِشَارِهِ على زَعَاماتهم في قَوْمِهِمْ.

(٣) تَلَهُّفَهُمْ للتَّخلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَرَبُّصُهُمْ بِهِ رَيْبَ المنُون.

(٤) اسْتِكْبَارُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وطاعَتِهِ في أَوَامِرِهِ ونواهيه.

ولكلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أشياءُ يُخْفِيهَا فِي صَدْرِهِ حَتَّىٰ عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ.

واللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ـ عليم بكُلِّ ذٰلِكَ، لَا يُخْفَىٰ عَلَيْهِ مِمَّا يَكْتُمُونَهُ وَيَسْتُرُونَهُ شَيْء.

وَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لبيان استقْصَاءِ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِم، ولِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ صُدُورُ النَّاسِ وَلَا يَعْبَأُ بِمَا يُعْلِنُونَ، مَعَ مَا فِي ذِكْر هٰذِهِ العبارة في آخر آيتها من تَنَاظُرٍ جَمِيلٍ مَعَ مَا جَاءَ فِي أَوَاخِرِ الآياتِ السابقاتِ واللَّاحِقَاتِ: [**تَسْتَعْجِلُونَ ـ لاَ يَشْكُرُونَ ـ وَمَا يُعْلِنُونَ ـ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**].

قول اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:

• ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

بَعْدَ بَيَانِ قَضِيَّةِ شُمُولِ عِلْم اللَّهِ مَا يُعْلِنُهُ النَّاسُ وَمَا يُخْفُونَهُ فِي صُدُورِهِم، الَّذِي هُوَ أَخْفَىٰ الْخَفَايَا، وَيَدُلُّ باللُّزُوم الْعَقْلِيِّ عَلَى شُمُولِ عِلْم اللَّهِ لِكُلِّ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ الْإِعْلَامَ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ غَائِبٍ أَوْ مَشْهُودٍ فِي السَّمَاءِ والْأَرْضِ مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَاضِحٍ لَا غُمُوضَ وَلَا خَفَاء فِيهِ.

وَجَات العبارة بأسْلُوب الْحَصْرِ بالنَّفْيِ والاستثْنَاء، أي: فَمَا مِنْ

مَوْجُودَةٍ فِي الْأَكْوَانِ غَائِبَةٍ عَنْ إِدْرَاكِ الْخَلَائِقِ أَوْ مَشْهُودَةٍ إِلَّا هِيَ مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُدَوَّنَةٌ وَمُسَجَّلَةٌ فِي كِتَابٍ مُبِين.

﴿مُّبِينٍ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» اللَّازم بمَعْنى ظَهَرَ ووضَحَ، ومن فعل «أَبَانَ» المتَعَدِّي بمعنَىٰ أَظْهَرَ وأوضَحَ.

وقَدْ كَشَفَتْ لَنَا الوسَائِلُ الحديثَةُ الالكْتُرُونيّة الَّتي تُسَجّلُ المعلومَاتِ، طرائقَ لتدوين العلوم والمعارف أَلِيكترُونياً، لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الأقلامِ والأوراق، وتُسَجِّلُ مَكْتَبَةً كَامِلَةً فِي قُرْصٍ وَزْنُه أَقَلّ مِنْ عَشْرة غرامات، وهي ذاتُ دِقَّةٍ وإِبَانَةٍ عَجيبَةٍ تَظْهَرُ مُدَوَّنَاتُهَا عَلَى شَاشَةٍ تَراهَا أَعْيُنُ الناس.

كَلِمَةُ ﴿غَآئِبَةٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَم، إِذْ لَا تُوجَدُ مَعْلُومَةٌ لِبَعْضِ الْخَلَائِق إِلَّا هِيَ غَائِبَةٌ عَنْ بَعْضٍ آخَرَ منهم، فَتُوصَفُ بأَنَّها غَائبة، ولَا شيء في الوجود هو غائبٌ عن عِلْم الله عزَّ وجلَّ.

وبهذا تم تدبُّر الدرس السادس من سورة (النمل) والحمد لله على مَعُونته وتوفيقه وفتحه.



(١٠)
التدبُّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (النمل) الآيات من (٧٦ ـ ٩٣) وهو الدرس الأخير منها

مقدمة:

وفيه بيان عَنِ القرآن وتوصيات تَرْبَويَّة للرَّسُولِ فَلِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وفيه بيان عن أحداثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ هِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وأَحْدَاثٍ أُخْرَىٰ هِيَ مِنْ مُشَاهِدِ يَوْم الدِّين، وفيهِ عَرْضُ بَعْضِ الآيَاتِ الكونِيَّة الدَّالَّاتِ على رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ المسْتَلْزِمَةِ لإلٰهِيَّتِهِ عَقْلاً، أَثْنَاءَ عَرْضِ بَعْضِ

مَا سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، للإشْعَارِ بأنَّ الدُّنْيَا هِيَ الطَّرِيقُ الْمُخْتَارُ لِبُلُوغِ الآخِرَةِ، وَنَيْلِ مَا أُعِدَّ فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ بالثوابِ أو بالعقاب.

وفي خاتِمَةِ هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ مَا يَقُولُهُ لأَئِمَّةِ كُفَّار مَكَّةَ إِبَّانَ نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَةِ، فِي مُقَابِلِ مَا يَمْكُرُونَهُ ضِدَّهُ وَضِدَّ دَعْوَتِهِ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

القراءات:

(٧٦) • قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانَ**] بفتح الراء وأَلِف بَعْدَها. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ براء سَاكِنة وهمزة مفتوحة فألف مَدِّيَّةٍ بَعْدَها.

(٨٠) • قرأ ابن كثير: [**وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، أي: هُمْ لَا يَسْمَعُونَ فأنْتَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُسْمِعَهُمْ.

(٨١) • قرأ حمزة: [**وَمَا أَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ**].

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾.

والقراءتان من التفَنُّن في التعبير، ومؤدّاهُمَا واحد.

(٨٢) • قرأ نافِعٌ، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عَامِرٍ وأبو جعفر: [**إِنَّ النَّاسَ**] بكسر الهمزة، وقرأها باقي القراء العشرة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وهما وجْهَان جائزان. فالكسر على الابتداء، والفتح على تقدير الباء.

(٨٧) • قرأ حفصٌ عن عاصم، وحمزة، وخلف: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ على أنه فعل ماضٍ.

وقرأهَا بَاقِي القرّاءِ الْعَشْرَة: [**وَكُلٌّ آتُوهُ**] على أَنَّهُ جَمْعٌ آتٍ اسم فاعل.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد. فصِيغَةُ اسم الفاعِلِ وَصَفَتْ حالَهُمْ وهم يَأْتُون إلى ربِّهم، وصيغَةُ الفعل الماضي وصفت حالهم بَعْدَ تمام حُضُورِهم عند رَبهم.

• قَرأ ابن عامر، وعَاصِمٌ وحمزة، وأبو جَعْفر: ﴿تَحۡسَبُهَا﴾ بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تَحْسِبُهَا] بِكَسْرِ السِّينِ، وَهُمَا وجهان عربيان في النطق.

(٨٨) • قرأ ابن كثير، وهشام عن ٱبْنِ عَامر، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٨٩) • قرأ نافع، وأبُو جعفر: [مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بإضافة «فَزَع» إلى «يَوْمِ».

وقرأها بَاقِي القُرّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ بتنوين «فَزَع» ونَصْب «يَوْمَ» على الظرفية.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التَفَنُّنِ في التعبير.

(٩٣) • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جَعْفر، ويَعْقوب: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧﴾.

هاتان الآيتَانِ موصولَتَانِ بما جاء في الدرس الأول من دُرُوس السورة عن القرآن، فقد جاء فيه:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

وجاء فيه أيضاً خِطاباً للرَّسُول ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

وإذْ جاء في الدَّرْس الثاني من دُروسِ السُّورَةِ حَدِيثٌ موجَزٌ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، كَانَ من المناسب أنْ يَأْتِي في الدَّرس الختامي من دروس السورة، بيَانُ أَنَّ الْقُرآنِ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي: يُحدِّثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَدِيثٍ صَحِيحٍ مُطَابِقٍ لِلْحَقّ، مَعَ تَتَبُّعِ الجزْئِيَّاتِ الَّتِي تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الْبَيانِيَّة ذِكْرَهَا.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشيءَ، أَقُصُّهُ، قَصّاً، وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتَ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً. ويُقَال: «قَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ»: أَيْ: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

• ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: عبارة: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ تدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ:

الْمَعْنَىٰ الأول: أَنَّهُمْ فِيهِ فَرِيقَانِ فَأَكْثَر، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُخَالِفٌ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الحقُّ موافقاً لمَا يَعْتَقِدُهُ أَوْ يَقُولُهُ فَرِيقٌ مِنهم، فَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ شَيْئاً آخَرَ مخالِفاً لِجَمِيعِ مَا يَدَّعُونَ.

المعنى الثاني: أَنَّهُمْ جَمِيعاً يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مَعَ الْحقّ، فَيَقُولُونَ أقوالاً مُحَرَّفَةً بَاطِلَةً، فِي أُمُورِ الدِّينِ، أو فِي حكايَةِ التَّارِيخ، ومِنْ كَذِبِهِمْ في التَّارِيخ ذِكْرُهُمْ أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلام هُوَ الَّذِي صَنَعَ الْعِجلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي

عَبَدُوهُ، وأَبَانَ القرآن أنَّ هَارونَ عليه السَّلام أنْكَرَ عليهم اتِّخاذَهُمُ العجل، وأنَّ السَّامِرِيَّ هو الّذي أخْرَجَ لهم عجلاً جسداً لَهُ خُوار، وأنّ عُبَّادَ الْعِجْلِ مِنْ بَنِي إِسرائِيل كَادُوا يَقْتُلُونَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلام لأنَّهُ شدَّد النَّكِير عليهم.

وَدَلَّتْ عبارة: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ على أنَّ القرآنَ لَمْ يَقُصَّ علىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، بَلْ قَصَّ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَهُ.

وَسُكُوتُ الْقُرْآنِ عَمَّا لَمْ يَقُصَّهُ عِليهم مُصَحّحاً فِيهِ بَاطِلَهُمْ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمسْكُوتَ عَنْهُ غَيْرُ ذِي شَأنٍ فِي أُمُور الدِّين، كَحِكَايَاتِهِمْ التَّارِيخِيَّة غَيْرِ ذَاتِ القِيمَةِ في إِثْبَاتِ عَقِيدَةٍ أَوْ سُلُوكٍ دِيني، أَوْ فِي حديثٍ بَاطِلٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهم أَوْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِم، فَهٰذِهِ وأَمْثَالُهَا قَدْ قَصَّ القرآنُ فِيها الحقَّ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ ما عِنْدَ بَنِي إسرائيل ممَّا هو مُخالفٌ لما جاءَ به القرآنُ باطلٌ، افْتَرَوْهُ عَمْداً، أَوْ ذَكَرُوهُ خَطَأً أو جَهْلاً.

الاختلاف: يُرادُ بِهِ المغايَرَة، وهٰذه قد تكونُ على سبيل التضادّ، أو التَّناقُضِ، أو على سبيل ما يُسَمَّى عند علماء المنْطِق «التَّخالف» والمتَخَالِفَانِ عندهم هُمَا اللَّذَانِ قَدْ يَجْتَمِعَانِ، وَقَدْ يَرْتفعان[1]، كالطُولِ والسَّوادِ، أمّا النَّقِيضَان فلا يجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، كالْوُجُودِ والعدم، وأمّا الضّدّان فلا يجْتَمِعَانِ وقدْ يَرْتَفِعَانِ كالسُّجُود والقِيَامِ لا يجتمعان في شيءٍ واحِدٍ معاً، وقد يَرْتفعان في الجلوس.

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الهدى: مَصْدَرُ «هَدَاهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَهُ.

وَيُطْلَقُ لفظ: «الْهُدَىٰ» على الصراط، وهو الطريقُ الواضح، وهو طَرِيقُ الحقّ.

---

(١) يراد بارتفاع الوصف عدم وجوده.

ويُطْلَقُ لَفْظُ «الْهُدَىٰ» على إخراج شيءٍ من شيء آخر، ومن عُمُوم هذا الإخراج نَفْهَمُ الإخراجَ من الظُّلُماتِ إلى النور، ومن الكُفْرِ إلى الإيمان، ومِنَ الباطِل إلى الحقّ، ومن الشّرّ إلى الْخَيْرِ، ونحو ذلك.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: والْقُرآنُ رَحْمَةٌ من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ للنَّاسِ، إذْ أَبَانَ لَهُمْ صِرَاطَ سَعَادَتِهِمْ في الدنيا، وصِرَاطَ نَجاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّين، وظَفَرِهِمْ بالنَّعِيمِ الخالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، فَهُوَ أَثَرٌ منْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ: صِفَةٌ مِنْ صِفاتِهِ عَلَىٰ ما يَلِيقُ بجَلَالِهِ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الإنْعَامَ والإكْرَامَ والْإِحْسَانَ، ويكُونُ مِنْ آثَارِهَا بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الْعَفْوُ والْغُفْرَان، ويكونُ من آثَارِهَا بيانُ الدِّين الَّذِي تَتَحَقَّقُ باتّباعه سعادة الناس.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا قَيْدٌ لِكَوْنِ القرآنِ هُدىً ورَحْمَةً. أي: إنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ كَوْنِ القرآنِ هُدىً وَرَحْمَةً، هُمُ المؤمِنُونَ بِكُلّ ما جَاءَ فيه، بَعْدَ استيفائِهِم الإيمانَ بِكُلِّ أرْكَان الْإِيمان وعناصِرِها، فَهُمْ يتابِعُونَ آيَاتِ القرآنِ بالإيمان الصَّحِيحِ الصَّادِق، الَّذِي من شأنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُم إلى العملِ بأحكامه وشرائعِهِ، وعندئذٍ يكون لهم هُدىً، وعِنْدَئِذٍ يَسْعَدُونَ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

إنَّ بيانات القرآن، وتعليماته، وَوَصَايَاهُ، تُعَرِّف بالحقّ والباطل، وتُوَضِّحُ المسافة الفاصِلَةَ بَيْنَهُمَا، حَتَّىٰ لَا تَختَلِط حُدودُهما، فَلَا يَقع من يهتَدِي بِهِ في حَمْأَةِ الْبَاطِلِ وهو يَحْسَبُهُ حقاً. وُتُعَرِّف بِطَرِيقَي الْخَير الشّرّ، وطريقي الفجور والتقوىٰ، وطريقي الصلاح والفساد، من السُّلُوكِ الإِنْسَانِيّ الظاهر والباطِن. وتُوَضِّحُ الْحُدُودَ والفواصِلَ بَيْنَ هٰذِهِ الطُّرُق، فلا يَقَعُ مَنْ يَهْتَدِي بِهَدْيِ القرآن في أَوْحَالِ الشرّ والفجور والفسادِ وأوضَارِها وخبائِثها.

فالقرآن كالطبيب النَّاصِحِ الرَّحيم، الَّذِي يُقَدِّمُ نَصَائِحَهُ بِشَأْنِ الوقايَةِ قَبْلَ الإصابَةِ بالدَّاء، وبالعلاج بَعْدَ الإصابَةِ بِهِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رُحِمَ وَسُتِرَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا أَوْ أَدْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

والّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالقرآنِ كتاب اللهِ المنزّل على رسُوله مُحَمَّدٍ ﷺ، ولا بِمَا جَاء فِيه من خَيْرٍ عَظِيم للنَّاس، قَدْ حَرَمُوا نفوسهم بِكُفْرِهِمْ بِهِ، واسْتِكْبَارِهِمْ عَن اتّباع آياته، مِنْ مَنَافِع كَوْنِهِ هدىً، ومنافِع كَوْنِهِ رَحْمَةً، وشَأْنُهُمْ كَشَأْنِ مَنْ يَحْجُبُونَ أَعْيُنَهُمْ عَنِ النورِ الْمُبِينَ. أَوْ يَخْتَبِئُونَ فِي المغاراتِ حَتَّىٰ تَمُرَّ قَوَافِلُ الْمِيرَةِ الَّتِي تُعْطَىٰ مَجاناً للسَّائِلِينَ الظاهِرِينَ، المعْتَرِفِينَ بإِنْعَامِ المانِحِين.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا بيانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّته، ثُمَّ سَائِرُ المؤمنين، وفيه طَمْأَنَةٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْعَلِيم، بِشَأْنِ مَا يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤه وأعداءُ دَعْوَتِهِ وَأَعْدَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ من تَدْبِيراتٍ في الْخَفَاءِ، وهو مَا جَاءَ بيانُهُ في الآية (٧٠) من الدرس السادس، بقول الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿... وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، والْمُهَيْمِنَ عَلَيْكَ، والْحَافِظَ لَكَ وَلِدَعْوَتِكَ ولأَصْحابِكَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ يَقْضِي بَيْنَ أَفْرادِ أعدائِكَ بِحَسَبِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَدَاوَةٍ وَمَكْرٍ آناً فآناً.

فَيَكْفِيكَ فَرِيقاً مِنْهُم بالْمَوْتِ، ويَرُدُّ فَرِيقاً مِنْهُمْ بما يَشْغَلُهُ به من أُمُور نفسه، ويُحْبِطُ أعْمالَ فَرِيقٍ مِنْهم، ويُلْقِي دَوَاعِي الْفُرْقَةِ بَيْنَ فُرَقَائِهِمْ حَتَّىٰ لَا

يَجْتَمِعُوا ضِدّك، إلى غير ذٰلِكَ من أقْضِيَةٍ يَقْضِيهَا بَيْنَ أفرادِهِمْ وجماعَاتِهِمْ، فَلَا تَكُنْ فِي ضِيقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ.

﴿يَقْضِى﴾: أي: يُبْرِمُ وَيُمْضِي أحْكَامَهُ القضائِيَّةَ آناً فآناً، وإبرامُ القضاء يَسْتَلْزِمُ تَنفِيذَ المقْضِيّ بِهِ في الأَجَلِ الْمُحَدَّدِ لِتَنْفِيذِهِ، وَحُكْمُ رَبّكَ حَكِيمٌ دَواماً.

أي: فأنت وَمَنْ يُهِمُّكَ أَمْرُهُمْ مَحْمِيُّونَ مَحْفُوظُونَ بِأقْضِيَةِ رَبّكَ المتَتَابِعَةِ والْمُصَاحِبَةِ لِمَا يُدَبِّرُهُ الْكَافِرُونَ أعداؤُكُمْ وَلِمَا يَمْكُرُونَهُ آناً فآناً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: وَرَبُّكَ هُو الْقَوِيُّ الغَالِبُ الْقَدِير على حِمَايَتِكَ، وحماية جماعة المؤمنين.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: الْعَلِيم بكُلّ شيءٍ، ومِنْهُ مَا يَمْكُرُونه ويُدَبِّرُونه ضِدَّكم، فَهُوَ سَيَكْفِيكهُم مَا تَتَخَوَّفُونَ منه.

• ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾: أي: وإذْ أَعْلَمْنَاكَ بأنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ فِي الوجود كُلّه الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، فَالواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاكَ بِالنُّبُوَّةِ، واجْتَبَاكَ لِحَمْلِ الرّسَالَةِ الخاتِمَةِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾: أي: إِنَّكَ مُسْتَقِرٌّ عَلىٰ الْحَقّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَيْءَ يَنْقُضُهُ، والْمُبِينِ الواضِحِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ غِشَاوَةٌ وَلَا غَبَشٌ، إذْ كُلّ مَا فِي هذا الدّين من قَضَايَا عَقَدِيَّة أو خُلُقِيَّةٍ أو سُلُوكِيَّة، ظاهِرُ الْحَقّ إذا كان من قضايا الحق، وظاهِرُ الأقوَمِيَّةِ إذا كان من قَضايا السُّلُوك، وظاهر الفضل والكَمَال إذا كَان من قضايا الأخلاق، وكُلُّ ذٰلِكَ يُمْكِنُ وَصْفُهُ بأَنَّهُ حَقّ.

التوكُلُ على الله: الاستسلام لِلَّهِ، وتفويض تدبير الأمور وتحقِيق المرغوب فيه إليه، مع القيام بالأَسْبَابِ المستطاعَة المادّيّة والمعنوية طاعة لأمره ونهيه، دون تفريط بشيءٍ منها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أَطْلَقَ اللَّهُ عزّ وجلَّ علَىٰ الَّذِينَ لَيْسَ لديْهم استِعْدَادٌ للاستجابَة لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة الكلاميَّة إِطْلَاقَيْن:

الإِطْلَاق الأَوَّل: أَنَّهُمْ مَوْتَى، وهٰذا الإِطْلَاقُ يُنَاسِبُ الّذِينَ وَصَلُوا إلى حَضِيضِ مُعَادَاةِ الحقِّ، واسْتَغْرَقُوا فِي أَوْحَالِ لذاتِهِم وشَهَواتهم وأهْوَائهم من الحياة الدُّنيا.

الإِطْلَاقُ الثاني: أَنَّهُمْ صُمٌّ، وهذا الإطلاق يُناسب الَّذِينَ هُمْ يَنْحَدِرُونَ إِلَىٰ الحضيض، ولم يَبْلُغوا بَعْدُ إلى الاستغراقِ في أوحاله.

وأَطْلَقَ الله على الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِم اسْتِعْدَادٌ لِرُؤيَةِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِه أَنَّهُمْ عُمْي.

أَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوان «المَوْتَيَ» فَهُو عَلَىٰ تَشْبِيه الذين أُطْلِقَ علَيهم بالموتى، لأَنَّ قُلُوبَهُمْ بالنِّسْبَةِ إلى الحقّ الرَّبَّانِيّ بمَثَابَةِ القُلُوب المَيِّتَةِ فأَطْلِقَ لفْظُ الموْتَىٰ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارة.

وأمّا إطْلَاقُ عُنْوانِ «الصُّمّ» فَهُو على تَشْبِيهِ الّذِين أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ بالصُّمّ، لأَنَّ قُلوبَهُمْ بالنّسْبَةِ إلى بَيَانَاتِ اللَّهِ ورَسُولِه بمَثَابَةِ الآذَانِ الصَّمَّاء، فَأُطْلِقَ لفْظُ الصُّمّ عَلَيْهِم عَلَىٰ سَبِيلِ الاستعارة، إلاَّ أَنَّهُمْ لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكة الموتَى.

وأَمَّا إطلاق عنوان «العُمْي» فهو على تشبيه الّذين أُطْلِقَ عَلَيْهِم بالْعُمْي، لأنَّ قُلُوبَهُم بالنِّسْبَةِ إلى آيات اللَّهِ الَّتِي تُرَىٰ بالأبصار بمَثَابَةِ الأَعْيُنِ الْعَمْيَاء، فَأُطْلِقَ لفظ الْعُمْي عليهم على سَبِيلِ الاستعارة، إلَّا أَنَّهُم لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَة الموتى.

وفي هَاتَيْن الآيَتَيْن يُعَلِّمُ اللَّهِ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ فكلَّ داعٍ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، تَوْفِيرَ طَاقَاتِ مُجَاهَداتِه فِي دَعْوَتِهِ وَتَوْجِيهَهَا لِمَنْ نقْتَضِي أحْوالُهُم أَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ مَطْمُوعٌ فِيها، باعْتِبارِ أَنَّهُمْ ما زَالُوا في أوائِل تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ لَهُمْ، أو دَلَّتِ التَّجْرِبَةُ على أَنَّ لَدَيْهِم استِعْداداً مَا للتَّفَكُّرِ فيما يُدْعَوْنَ إِلَيْه، واستِعْداداً ما لِتَفَهُّمِ حَقَائِقه، والاسْتِمَاع إلى نَصَائِحِ الدَّاعِي، ومَوَاعِظِه، وحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِه.

بخلافِ الَّذِين دَلَّتِ التجارِبُ المتكَرِّراتُ علَىٰ أَنَّهُمْ مَوْتَىٰ الْقُلُوب أو صُمُّها أَوْ عُمْيُها، فإنْفَاقُ طاقَاتِ المجاهَداتِ فِيهِمْ بُغْيَةَ هِدايتهم من التَّبْذِير الَّذِي لَا يَلِيقُ بأهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ المجاهِدِينَ في سبيل اللَّه، لأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ أَنَّ بَذْلَ طَاقاتِهِمْ في الميؤوس مِنِ استجابتهم، كَمَنْ يَحْرُثُ فِي الْبَحْر، ويَبْذُرُ في السِّبَاخ.

• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾: أي اعْلَمْ أَنَّ الَّذِين وَصَلُوا إلى دَرَكَةِ الموتَىٰ مِمَّنْ تُجاهِدُهُمْ بأقوالِكَ وبيانَاتِكَ طمعاً فِي هدايَتِهِم، فإنَّكَ تُنْفِقُ وَقْتَكَ وَطَاقَاتِكَ إنْفَاقاً تَبْذِيرِيّاً ضَائِعاً، فَمِنَ الخيْرِ لَكَ أَنْ تُوَجِّهَ مُجاهَدَتَكَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا أَنْ يكُونوا مَيْؤُوساً مِنْهم.

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: ومِثْلُ حَالِ مَوْتَى الْقُلُوبِ، حَالُ صُمِّ الْقُلُوبِ إذَا نَفَرُوا من دَعْوَتِكَ وَتَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ مُواجَهَتِكِ، وابْتَعَدُوا مُدْبِرِينَ.

﴿الدُّعَآءَ﴾: أي: النداء بأعْلَىٰ الصَّوْتِ.

﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: إذا أدْبَرُوا نائين مُبْتَعِدين، يقال لغة: «وَلَّىٰ فُلانٌ» أي: أدْبَر. ويقال: «وَلَّىٰ الشَّيْءَ ووَلَّىٰ عَنِ الشَّيْءِ» أي: جَعَلَ دُبُرَه لَهُ وَنَأَىٰ.

وعبارة ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حَالٌ مَؤَكِّدَةٌ لِلْعَامِلِ.

وعبارة ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قَيْدٌ لَازِمٌ، أيْ: فإذا لَمْ يَصِلِ الصُّمُّ إِلَىٰ دَرَكَةِ الْمُوَلِّين الْمُدْبِرِينَ فَمُجاهَدَتُهُمْ مَطْلُوبَةٌ، إِذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ، إذ الأَصَمُّ الْمُقْبِلُ بوَجْهِه قَدْ يَفْهَمُ بالإشارات.

• ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ وفي القراءة الأُخْرىٰ: **[وَمَا أَنت تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلالَتِهِمْ]**.

أي: وَمِثْلُ حَالِ مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ، وَصُمّ الْقُلُوبِ حَالُ عُمْيِ الْقُلُوبِ، فحَالُ عُمْيِ الْقُلُوب حالٌ مَيْؤُوسٌ مِنْها، فَمَا أَنْتَ بوَاصِلٍ إِلَىٰ هِدَايَتِهِمْ، وَصَرْفِهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهم، وجَعْلِهِمْ يَسْتَجيبون للحَقّ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْه، والغرضُ بيان عَدَمِ جدْوى اتّخاذِ الوسائل البصرية لهدايتهم.

ضُمّنِ لفْظُ «هَادِي» وفِعْلُ «تَهْدِي» في القراءة الأخرى، مَعْنَىٰ كُلَمةِ «صَارِف» أو فعل «تَصْرِف» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف «عَنْ» فجاءت العبارة ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: ومَا أنت بهادِي الْعُمْيِ صارفاً لهم عن ضلالَتِهم.

الضَلالُ والضَّلالَة: الضّياعُ في متاهات الباطل والشّر، بَسبَبِ الإعراض الإراديّ عن الحقّ وسبيلِ الرَّشاد، وعن الآيات الدَّالَّاتِ عَليْهما، اتّباعاً للأهواء والشهواتِ والتقاليد العمياء، والعصبِيَّاتِ الذميمات، أو الاسْتِكْبَار، أو الاسْتِغْراقِ فِي متاعِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي مَا تُسْمِعُ إِسْمَاعاً واصلاً إلى مراكزِ الإدْراك الدَّاخِليّ المؤثِّرِ إقْناعاً وتَوْجِيهاً للسُّلُوكِ، إلَّا الّذِينَ لدَيْهِمْ اسْتِعْدادٌ لأَنْ يُؤْمِنُوا بآيَاتِنا الْبَيانيّة الّتي يَتَلَقَّوْنَها تِباعاً، إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، دافعاً إلى الطَّاعَةِ والسُّلُوكِ الَّذِي يُرْضِي رَبَّهُمْ فِعلاً أَوْ تَرْكاً.

هؤلَاء هم الَّذِينَ يَسْمَعُونَ حَقًّا الآيَاتِ الرَّبَّانِيَّة الَّتي تَتَضَمَّنُ تَكالِيفَ عَمَلِيَّة، وَيسْتَجيبُونَ لمَا جاء فيها مُسْلِمينَ طَائِعين.

وفي العبارة حَصْرٌ بالنفي والاِستثناء.

ولدى مُراجَعَةِ ما سبقَ في نجوم التنزيل، نلاحظُ أنَّ التوجيهَ الذي دَلَّت عليه هاتَانِ الآيتان (٨٠) و(٨١) عن طريق استخدَام أسْلُوبِ الاستعارة القائِمةِ علَىٰ التشبيه، قَدْ سبقَتْهُ نظائِرُ في نُجُوم التَّنْزِيلِ النازلَة قبْلَ سُورَة (النَّمْل) مع تغيير في أسلوب التعبير، والْغَرضُ من البيانِ واحد، ولمَّا لَمْ يكُنْ صَريحَ الدِّلالَة فقَدْ خَفِي المرادُ عَلَى كثيرينَ من أهْلِ التَّأوِيل.

❁ ❁ ❁

قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

• ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أصْلُ مَعْنَىٰ الوقُوعِ السُّقُوطُ مِنْ مكانٍ مُرْتَفِعٍ وَوُصُولُهُ إلَىٰ مَكَانٍ آخر، وَوُجُودُهُ فِيه، وَلوْ زَمَناً قليلاً.

يُقالُ لغة: «وَقَعَ الشيْءُ، يَقَعُ، وَقْعاً، وَوُقُوعاً» أي: سقَط. ويقالُ: «وَقَعَتِ الدَّوَابّ»، أي: رَبَضَتْ. «وَوَقَتِ الإِبِلُ» أي: بَرَكت. «وَوَقَعَ الطَّيْرُ» أي: نَزَلَ من سَمَائِهِ وَوَقَفَ علَىٰ أَرْضٍ أو شَجَر.

وبالتَّوسُّع اللُّغوِيّ من الْمُدْركاتِ بالحسّ إلى المعنويّات المدْركاتِ بالفكر قَالُوا: «وَقَعَ الحقُّ» أي: ثَبَتَ. وقالُوا: «وَقَعَ الْقَوْلُ» أي: تحقَّقَ وُجُودُ ما دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ عَنْ ماضٍ أو حاضرٍ أو مُسْتَقْبل. أوْ تحقَّقَ تَنْفِيذُ مَا دَلَّ عَلْيه من مطْلُوب.

والْقَولُ الرَّبَّانِيّ قَدْ يكُونُ تَعْبِيراً عمَّا تَمَّ بِتَقْدِير اللَّهِ وقَضائه، وهُو:

• إمَّا أنْ يَكُونَ أمْراً بالتَّنفِيذِ الآنيّ، فالمرادُ بوُقُوعِهِ تحقُّقُ وُجُودِهِ على وَفْق مُرادِ اللَّهِ وَقَضائِه وقَدَرِهِ فِيهِ.

• وإمَّا أنْ يكُونَ تَعْبِيراً عَنْ مقْضِيٍّ به، لَهُ أَجَلٌ لتحقِيقِهِ فِي المستَقْبل، فَهُوَ قَوْلٌ مُعَلَّقٌ عِنْدَ الْخَطِّ الزَّمَنِيِّ المرسُوم على شرِيطِ الزَّمَنِ القادِمِ مِنْ غَيْبِ المستقبل، والسَّاقِطِ في عُمْقِ الماضي، فإذا وصَلَ هذا الخطُّ إلى الحاضِر سَقَطَ القوْلُ المعلّقُ، فتَحقَّقَ تَنْفِيذُ المقْضِيّ بِهِ إيجاداً أَوْ إعداماً.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: أي: علىٰ الكافِرِينَ أَمْثَالِهِم الّذِينَ سَيَكُونُونَ مَوْجُودِينَ في الأرض إبَّانَ حُدُوثِ أَشراطِ السَّاعَةِ منَ الأجيال والقرون القادِمَة في المستَقْبل.

من أسْلُوبِ القرآن أنْ يُخاطِبَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ فِيه أحَفَادَ السَّابقِينَ، الملْتَزِمِينَ عَقَائِدَ أجْدَادِهِمُ الأوّلِينَ الْغَابِرِينَ، وَأَنْواعَ سُلُوكِهِمْ، كَما لَوْ كانُوا هُمْ أنْفُسُهُمْ هم المرتَكِبِينَ لسيِّئَاتِ وقَبَائِحِ أَجْدَادِهِم، باعْتَبَارِ أنَّ انْتِمَاءَهُم إِلَيْهِمْ انْتِمَاءُ افْتِخَارٍ وتَأْيِيد. وأَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ كَفَارِ الْقُرُونِ القادِمَةِ بكلامٍ ظاهِرُهُ الْحَدِيثُ عَنِ الكُفارِ المعاصِرِينَ، باعتبار التَّشَابُهِ التَّامّ بَيْنَ المُعَاصِرِينَ وَبَيْنَ القادِمِينَ فِي الْقُرُونِ اللّاحِقة في الْمستَقْبَلِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَقْبلاً بَعِيداً.

وَوُقُوعُ الْقَوْلِ علَىٰ الكُفَّارِ الآخَرِينَ إِذَا ظَهَرَ شيءٌ من أشراطِ الساعة الكُبْرَىٰ، يَكُونُ بإقْفَالِ بَابِ التَّوْبَةِ والْغُفْرَانِ دُونَهُمْ، ويَكُونَ بتَلَاحُقِ أَنْواع الْعَذَابِ والمهْلِكَاتِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بقيام السَّاعَةِ علَىٰ شَرّ خَلْقِ اللَّهِ، إِذْ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَىٰ أُناسٍ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ اللَّه.

أمَّا المؤمِنُونَ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ رِيحاً هَيِّنَةً لَيِّنَةً قَبْلَ ذَلِكَ، فَتَمُرُّ تَحتَ آبَاطِهِمْ، وَتَقْبِضُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَرْواحَهُمْ طَيِّبَةً نُفُوسُهُم بِذَلِكَ، كَمَا تُسَلُّ الشَّعرَةُ مِنَ الْعَجِين.

• ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾:

هذه العِبَارَةُ تُبَيِّنُ إِحْدَىٰ آياتِ الله الكُبْرَىٰ الَّتِي سَتكُونُ قَبْلَ قِيامِ

السَّاعَة، وإحْدَىٰ أشْرَاطِ السَّاعَةِ «=علاماتِها» الْعُظْمَىٰ وهيَ إخْرَاجُ دَابَّةٍ من الأرض، علىٰ صِفَاتٍ ما مشابهاتٍ لِمَا لصفاتِ دَوَابِّ الأرْضِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ، إلَّا أنَّها نَاطِقَةٌ تُكلِّمُ الناسَ بلُغَاتهم.

ما جاء من صحيح في السُّنَّةِ بشأن هذِه الدَّابّة:

قال ٱبْن كثيرٍ في تفسيره: وقَدْ وَرَدَ في ذِكْرِ الدَّابَّةِ أحَاديث وآثَارُ كثيرة، وأورد منها روايات فيها الصحيح، وفيها ما هو دُونَهُ وأختارُ منها ومنْ كتُب الحديث ما حُكِمَ عَلَيهِ بالصِّحَّة، مع التجاوز عن سَرْدِ المكرَّات.

(١) رَوَى الإمام أحمد، ومُسْلِمٌ، وأَهْلُ السُّنَنِ عن حُذَيفَةَ بْنِ أُسَيْد الغفاريّ، أنّ رسولَ اللَّه ﷺ قَال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، والدُّخَانُ، والدَّابَّةُ، وخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ، وخُرُوجُ عِيسىٰ ٱبْنِ مَرْيم، والدَّجَّالُ، وثَلاثَةُ خُسُوفٍ: خَسفٌ بالْمَغْرِب، وخَسْفٌ بالْمَشْرِقِ، وخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، ونَارٌ تَخْرُجُ من قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ، أَوْ تَحْشُرُ الناسَ، تَبيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وتَقيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا» قال الترمذي: حديث حَسَنٌ صحيح وروى الحاكم في المستَدْرك على الصحيْحين، عن واثلة بن الأسْقَعِ نظيرهُ، وفي آخره «تَحْشُرُ الذَّرَّ والنمل» صحَّحهُ الذهبي في التلخيص.

حَيثُ قالُوا: أي: حيث استراحوا في وقتِ القيْلُولةَ نِصْفَ النهار.

(٢) وروىٰ مُسْلم عن عبْد اللّه بْنِ عَمْرو قال: حَفِظْتُ من رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثاً لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقُول:

«إنَّ أوَّلَ الآيَاتِ خُروجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ ضُحىً، وأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلُ صَاحِبَتِهَا فَالأُخرىٰ عَلَىٰ إثْرِهَا».

يُقال لغة: «جاءَ فِي إِثْرِهِ» أي: جاء عَقِبَهُ.

(٣) وروى مُسْلمٌ أيضاً عن أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رسُول اللَّه ﷺ قَال:

«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتَّةً: طُلُوعَ الشَّمِسْ مِنْ مُغْرِبِها، والدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وَخَاصَّةَ أَحدِكُمْ، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ».

وفي رِوايَةٍ أُخرىٰ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضاً، أنّ النبيّ ﷺ قال: «بَادِرُوا بالأَعْمَال سِتًّا: الدَّجالَ، والدُّخانَ، وَدَابَّةَ الأَرْضِ. وطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مُغْرِبِها، وأَمْرَ الْعَامَّة، وُخُوَيِصَّةَ أَحدِكُمْ».

ولابْن ماجه في سُنَنِهِ نَظِيرُهُمَا عن أَنَسِ بْنِ مالك رضي اللّه عنه. وقال الألباني فيه: حسَنٌ صحيح.

بَادِرُوا بِالأَعْمَال سِتَّةً: أي: اجْعلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ تَسْبِقُ ظُهُورَ هٰذِهِ الأَشْرَاطِ السِّتّة مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَة.

وروايَة «سِتًّا» هي على تقدير «آيات، أو عَلَامَات».

وَأَمْرَ الْعَامَّة: أي: ما يَتَعلَّقُ بصَلاحِ المجتَمعَ الإسلاميّ في دنياه وآخِرَتِه.

خاصَّة أَحدِكم. وخُوَيِصَّة أَحدِكُمْ: أي: ما يَتَعَلَّقُ بالأشياء الّتي تَخُصُّ صَلاح الْفَرْدِ مِنْكُمْ لأُمُور دُنْيَاهُ وآخِرَتِه.

خاصَّةُ الإنسَان: مَا يخْتصُّ بِهِ دُونَ غَيْرِه. ولفظ «خُوَيصَّة» تَصْغِيرُ لفظ «خَاصَّة» والمرادُ مَا يَتَعَلَّقُ بُخُصُوصِ ذَاتِهِ، مِمَّا لَا يُشَارِكُهُ أَحدٌ فِيه، ولا يتَعَدَّىٰ نَفْعُهُ إِلَىٰ غَيْرِه.

ولم أفهم إدْخَالَ هذين في أشراط الساعّة إلّا أن يكون ظهور الأنانية وتفكّكَ أمر العامة.

(٤) وروى مُسْلِمٌ عَن أبي هُريرَة، قالَ: قالَ رسول اللّه ﷺ: «ثَلاثٌ

إذَا خَــرَجْــنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[1] طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، والدَّجَّالُ، ودَابَّةُ الأَرْض».

(٥) وروىٰ الحاكم النيْسَابُوريّ في المستدرك على الصحيحين[2] عَنْ أبي الطُّفَيْلِ قال: كُنَّا جُلُوساً عنْدَ حُذَيفَةَ فَذُكِرَتِ الدَّابَّة، فقالَ حُذَيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهَا تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرَجَاتٍ فِي بَعْضِ الْبَوادِي، ثُمَّ تكْمُنُ، ثُمَّ تَخْرُجُ في بَعْضِ الْقُرَىٰ، حتَّىٰ يُذْعَرُوا، وحَتَّىٰ تُهْرِيقَ فيهَا الأَمْرَاءُ الدِّمَاءَ، ثُمَّ تَكْمُنُ، قَالَ؛ فبَيْنَمَا النَّاسُ عِنْدَ أعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وأفْضَلِهَا وَأَشْرَفِها، حتَّىٰ قُلْنَا: «الْمَسْجد الحرام» وَمَا سَمَّاهُ، إذِ ارْتَفَعَتِ الأَرْضُ، ويَهْرُبُ النَّاسُ، ويَبْقَىٰ عَامَّةٌ مِن الْمُسْلِمينَ يَقُولُونَ: إنَّهُ لَنْ يُنْجِيَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ، فَتَخْرُجُ فتَجْلُو وُجوهَهُمْ، حَتَّىٰ تَجْعَلَهَا كَالكَوَاكِبِ الدُّرِّيَّةِ، وتَتْبَعُ النَّاسَ، جِيرَانَ فِي الرِّبَاع، شُرَكَاءَ فِي الأَمْوالِ، وأصْحَابَ في الإسلام».

هذا حديث صحيح على شَرْط الشيخيْن ولم يُخرِّجاه، قال الذَهبِيُّ في التَّلْخِيص: علىٰ شَرْطِ البخاري ومُسْلِم.

أقول: هذا حَدِيثٌ موقوف على حُذَيفة رضي اللَّه عنه، ولكنَّهُ لَا يُقَالُ من قِبَلِ الرَّأي حَتْماً، فَلَهُ قُوَّةُ الحديثِ الْمَرْفُوع.

وجاءتْ آثار في وَصْفِ هٰذِه الدَّابَّةِ، ووصْفِ بَعْضِ أعْمالِها، لَا تَرْقَىٰ إلى مسْتَوىٰ الاحْتِجاج بها، أَعْرَضْتُ عَنْ ذِكْرِها.

❁ ❁ ❁

• ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٨).

(٢) ٤/٥٣١.

وفي القراءة الأخرىٰ بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إنَّ» عَلىٰ أنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنفَة، أمّا الْفَتْح فعَلَىٰ تقْدير الباء الجارَّةِ أيْ: بسَبَبِ أنَّ الناس كَانُوا بآيَاتِنَا لَا يُوقِنُون.

فالمعنى: وَإِذَا وَقَعَ قَوْلُ اللَّهِ على النَّاسِ بإقْفَال بابِ التَّوْبَةِ تَمْهِيداً لِقَيام السَّاعَةِ، أخْرَجْنا لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ دَابَّةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً، هي آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِنَا للنَّاسِ في الأرض، تُكَلِّمُ الناسَ بِلُغَاتِهِمُ المخْتَلِفَاتِ، فَتُعْطِيْهِمْ يَقِيناً رَاسِخاً بِرُبُوبيَّتِنا، وقُدْرَتِنا عَلَىٰ أنْ نَخْلُقَ مَا نَشَاءُ، وَنُبْدِعَ مَا نُرِيدُ.

وَالسَّبَبُ في إخراجِ هٰذِهِ الآيَةِ للنَّاسِ أنْ تَكْشِفَ لكفَّارِهِمْ، أنَّهُمْ كَانُوا لا يُوقِنُونَ بآيَاتِنَا العظيمات في خَلْقِ السَّمَاواتِ والأرْضَ، وَخَلْقِ أنْفُسِهِم، ولا يُوقِنُونَ بآياتنا البيانيَّة المنزَّلَة، ولَا بآياتنا الجزائيَّة الَّتِي سَلَفَت في تارِيخ الناس، عناداً واسْتِكْباراً أو اتّباعاً لِلأهواء والشَّهوات والتقاليد العمياء.

أمَا وَقَدْ أقْفِلَ بَابُ التوبَة، وتقارَبَتِ الأحْدَاثُ الّتي هي من أشراط قيام السَّاعَة، فَقَدْ صَارَ مِنَ الحِكْمَة وهُمْ مَا زَالُوا فِي الحياة الدُّنيا لَمْ يَمُوتُوا أنْ نُخْرِجُ لَهُمْ آيَةً عظيمةً لَا يَسْتَطِيعُون أنْ يُنْكِرُوا أنَّها من آياتِ رُبُوبِيَّتِنَا، ولكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ حينئِذٍ، لأنَّهُمْ صَارُوا بِحُكْمِ الموتىٰ، وبِحُكْمِ الدّاخِلِينَ في ظُرُوف جزاء يوم الدِّينِ، بَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ لأشراطِ السَّاعَةِ التي سبَقَ أن بيَّنَاها في كتابنا، وعَلَىٰ لسَانِ رَسُولِنَا، وكانُوا لها مُكَذِّبينَ، وعَنْ دَلَالَاتِها مُعْرضين، ومُدْبِرين، ولحقائِقِها جاحِدين.

ولا مانِعَ من أن يكُونَ ممَّا تُكَلِّمُهُمْ بِه ما دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: [أنَّهُمْ كَانُوا بِآياتِنَا لَا يُوقِنُونَ] وقد يَكُونُ مِنْ أعْمالها أن تجعلَ علَى وجوه الكافِرين خدوشاً تجرحهم بها، فتكون علاماتٍ على كفرهم، يقال لغة: «كلَمَهُ، وكَلَّمَهُ» أيْ: جَرَحَه.

الْيَقِينُ: هُوَ العِلمُ الذِي لَا شَكَّ فيه، وأدْنَى دَرَجاته مَا اعْتَمَدَ علَىٰ أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ أو خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيهَا الشَّكُّ.

❀ ❀ ❀

قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات الثلاث انْتِقَالٌ بالبيانِ الْقَوْليّ إلى يَوْم الدِّين، لِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ، ولقَطَاتٍ تصويريَّةٍ بالْقَوْلِ مِنْ لَقَطَاتِه، للدَّلَالَة علَىٰ أَنَّ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّينِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ في المستَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بَعْدَ الموْتِ والْبَعْثِ، ذَاتُ بَرْنَامجٍ تَدْبِيرِيٍّ مُحَدَّدِ الْخُطَّةِ قَبْلَ الْخَلْق، وكانَ ذَلِكَ معَ بَتِّ القضاء والْقَدَرِ بِخَلْقِ الَّذِين سيُوضَعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وأنَّ خُطَّةَ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ لَا تكُونُ وَفْقَ أوامِرَ مُرْتَجَلَةِ التَّدْبِيرِ في أزْمَانِ إِحْدَاثِها وإيقاعِها، بَلْ هِي تَنْفِيذٌ لمَا سبَقَ به القضاءُ والقَدَرُ، معَ ما سبَقَ مِنْ قَضاءٍ وَقَدَرٍ بشَأْنِ خَلْقِ الأحياء الَّتي سَتُوضَعُ في الحياة الدّنْيا موضِعَ الابتلاء والتَّكْلِيْفِ وَرَصْدِ الأعْمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة، وإِتْبَاعِ كُلِّ ذَلِكَ بالحسَابِ وفَصْلِ القضاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المتلَقِّي أيّاً كُنْتَ، وإذا كُنْتَ مِنْ حَمَلَةِ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللَّهِ، فَأَبْلغْ مَا دَلَّتْ عَلَيْه هٰذهِ الآياتُ مِنْ نَبَإٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ سَوْفَ يَكُونُ يومَ الدّين، في مَسِيرَتِكَ الدَّعَوِيَّة لِغير المؤمنين، ولعصاة المؤمنين.

الحشر: الْجَمْعُ والسَّوْقِ.

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الأمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتعمال القرآني على كلّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُها صِفاتٌ أو خَصَائِصُ، أو رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة

الْفَوْج: الْجماعَةُ مِنَ النَّاس، وجمْعُهُ: «الأَفْوَاج».

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ الْجَمْعِ والسَّوْقِ، من كُلِّ أُمَّةٍ، يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ واحِدٍ، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفاً بِحَسَبِ انْحطاطَاتِهم فِي الْغُلُوّ تَكْذِيباً وَكُفْراً وَجَرَائم وَإِمَامَةً فِي مُعَادَاةِ دِينِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُه، ونَشْرِ الكُفْرِ والْفَسَاد في الأَرْض.

أصْلُ الْوَزْع في اللُّغَة: الكَفُّ والْحَبْسُ، والْوَازِعُونَ في الحرْبِ، الموكَّلُونَ بالصُّفُوفِ يَزَعُونَها كَفًّا وجَمْعاً وَتَنْظيماً وحَثًّا على ما يَقْتَضِيْهِ الْعَمَل في الحرب.

والمرادُ هُنَا كَفُّ الأفْوَاجِ الأئِمَّةِ من المكذِّبين بآيات اللَّهِ لَدَى جَمْعِهِمْ في مَكَانٍ واحِدٍ، بَعْدَ انْتِزَاعِ كُلِّ فَوْجٍ مِنْ أُمَّتِهِ الّتي هُوَ مِنْها، وكَانَ فيها في الحياة الدنيا إمَاماً مُضِلًّا مُغْوِياً، أو داعيَةً مِنْ دُعَاةِ الإِثْم والْعُدْوان، والبغي والْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ، أوْ نَصِيراً مُؤَازِراً، وجُنْدِيًّا فَاسِقاً ضِلِّيلاً فَاجِراً. ولَدَىٰ تَرْتِيبِ صُفُوفِهِم بحَسَبِ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلْم وبَغْي وشَرٍّ، ومُعَادَاةٍ لِلْحَقِّ والْخَيْرِ، ومَعْصِيَةٍ لله ورسله، وجرائم في رِحْلَةِ الامتحان لإغواء النّاس وصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ، ومُحَارَبَتِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ الحقّ، بُغْيَةَ تَوْجِيهِ الْخِطَاب الرَّبَّانِيِّ التَّأْنِيبِيِّ التَّعْنِيفِيّ لَهُمْ، وَإِعْلَامِهِمْ بالْمَصِيرِ الَّذِي قَضَىٰ اللَّهُ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي دَرَكاتِ الْجَحِيم السُّفْلَىٰ، المُلَائِمَةِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ الحياة الدنيا بالْعَدْل، ولكل واحِدٍ مِنْهُمْ دَرَكَةٌ تُلائِم جرائمَهُ.

«مِنْ» في: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ في: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ لِبَيَانِ الَّذِينَ أُخِذَ مِنْهُمُ المحشُورُونَ، أَمَّا التَّبْعِيضُ فَقد دَلَّ عَلَيْهِ لفْظُ ﴿فَوْجًا﴾ إذْ هذا الْفَوْجُ المأخُوذُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ هُوَ بَعْضٌ مِنْ كُلٍّ، وبَعْضٌ مِمَّنْ يُكَذِّبُ

بآيَاتِ اللَّهِ منها، وحَمْلُ لفْظِ «مِنْ» علَىٰ أنَّها للتَّبْعِيضِ هُنَا يُفْضِي إلى رِكَاكَة في العِبَارَة، إذْ يَكُونُ التقدير: ويَوْمَ نَحْشُر بَعْضَ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً بَعْضَ مَنْ يُكَذِّبُ بآياتنا. وهذا بَعِيدٌ جدًّا عَنْ بَلاغَةِ القرآن وبيانِهِ الرَّفيع.

أمَّا علَىٰ أنَّها للبَيان التَّقْييدي فالتَّقْدِير: ويَوْمَ نَحْشُرُ فَوْجاً منْتَزَعاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا مِنْ كُلِّ أُمَّة.. وعَلَىٰ هٰذا يَكُون إعرابُ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ حَالاً، أصْلُه وصْفٌ لـ ﴿فَوْجًا﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ فصَارَ حالاً[1].

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: مِمَّنْ يُكَذِّبُ في هذِه الحياة الدنيا بآيَاتِنَا المنَزَّلَات، فَكُلَّمَا تُلِيَتْ عَلَيْه آياتٌ مِنْها كَذَّبَ بِهَا.

دلَّ الفعل المضارع: ﴿يُكَذِّبُ﴾ الدّالُّ عَلَىٰ التجدُّدِ والتكرار عَلىٰ أنَّ هٰؤُلاء مُصِرُّونَ علَىٰ تَكْذِيبِهِمْ بِكُلِّ آيَةٍ من آياتِ كتاب اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ.

ولا يخْفَىٰ مَا فِي هٰذا مِنْ صِلَةٍ بما جاءَ عَنِ القرآنِ في صَدْرِ السورة، وفي بدايَة هذا الدرس السَّابع من دُرُوسها.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ سَوْقِهِمْ وَجَمْعِهِمْ في مَكَانٍ خاصٍّ جامِعٍ لهم يُصَفُّونَ وَيُكَفُّونَ ويُمْنَعُون من الْخُرُوجِ عَنِ المواقِعِ الّتِي وُضِعُوا فيها، فلا يسْتطِيعُ الواحِدُ مِنهم أنْ يُفَارِقَ مَوضِعَه، لأنّ الملائكة المأمُورينَ بِوَزْعِهِمْ يَمْنَعُونَهُمْ.

ويَظْهَرُ أنَّ جَمْعَ هؤلَاءِ يكُونُ في مكانٍ قَرِيبٍ مِنْ جَهَنَّمَ، لِيكُونُوا أوائِلَ الَّذِينَ يُكَبُّونَ فيها، باعتبار أنَّهُمْ أئِمَّةُ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمين في الدنيا، فَهُمُ المقَدَّمُونَ إلى الْعَذَابِ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ مِنْها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حتَّىٰ. هُنَا ابتدائيّة، وهي تَدْخل على الجملتَيْنِ الاسميّة والفِعْليّة، وهي حَرْفٌ لَا عَمَلَ لَهُ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمل

---

(١) نظير قول الشاعر: لِمَيَّة مُوحشاً طَلَلُ.

إذَا: ظَرْفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمن مُضَمَّنٌ معنى الشرط.

أي: حتَّىٰ إذَا جَاءُوا المكانَ المخَصَّصَ لِحَشْرِهم قُرْبَ أَبْوابِ جَهَنَّم، ولفظ «جَاءَ» فعل ماضٍ، إلّا أنَّه بعد «إذا» صار بمعنى الفعل المضارع.

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِئَايَتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾؟ أيْ: قال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ لهم مُوَبِّخاً مؤثِّماً حاكماً عليهم بالجرْم العظيم، بخطابٍ مباشِرٍ منْهُ، أو بوساطَةِ مَأْمُورٍ بمُخَاطَبَتِهِمْ مِنْ مَلائِكَتهِ بَلَاغاً عَنْ رَبّهم، وبأسْلُوب الاستِفْهَامِ التَّوْبيخيّ التأثيميّ الدَّافِعِ لَهُمْ على ارتكاب جرائهم: أَكَذَّبْتُمْ رَسُولِي بآيَاتي الَّتي أَنْزَلتُها عَلَيْهِ لِيُبَلِّغَكُمْ إيَّاها، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ مَا فِي تَكْذِيبكُمْ إيَّاه، ولَا في إعْراضِكم وإدْبارِكم وَتَولِّيكُمْ عن آيَاتِي؟!! ولَمْ تَتَفَكَّرُوا في مَعَانِي آيَاتِي الَّتي أنْزَلْتُها لِتَتَّبِعُوها، وَتَعْمَلُوا بما جاء فيها مِنْ أوامِرِي ونواهِي، ولَمْ تُحِيطُوا بهَا عِلْماً، إذْ رَفَضْتُمْ قَبُولَها وَجَحَدْتُموها ابْتداءً، لأَنَّكُمْ رفَضْتُمْ عِبادَتِي وأنَا رَبُّكُمْ الْمُمِدُّ لَكُمْ بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِي، والخالِقُ لكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً.

ونُلاحظ أَنَّ هَذِهِ الْعِبارة قَدْ دَلَّتْ عَلىٰ الْحُكْمِ عَلَيِهم بالكُفْرِ العِنَادِي، واعتبارِهِمْ مُجْرِمين مِنْ أَخَسِّ الدَّركات.

﴿.. أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟؟ [أَمَّا] أصْلَها «أمْ» المنْقَطِعَة، وهي بمَعْنَىٰ «بَلْ» و«مَا» الاسْتِفْهامِيَّة وَ«مَاذَا» أي: مَا الَّذِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الحياةِ الدُّنيا؟!! وهذا استفهامٌ تأثيميٌّ أيضاً.

إنَّ صحائِفَهُمْ تدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا طُغَاةً بُغَاةً مُجْرِمِينَ، يَحْمِلُونَ الناسَ على الكُفْرِ باللَّهِ ورسُولِهِ بِوسَائِلِ الإغْرَاء والإغْواء، أو بوسائل الإكْرَاهِ والتَّعْذِيبِ والاضطهاد، وَيَنشُرُونَ الْفَسَادَ والإفْسَادَ، والإلْحادَ والْوَثَنياتِ في الأَرْض.

هذه وأشباهها أعْمَالُهُمْ الَّتي هي نتائج تلْقَائِيَّة لكُفْرِهم باللَّهِ وبرسُولِه وبيَوْمِ الدّين.

ولَا يَجِدُونَ عُذْراً يَعْتَذِرُونَ بِه وَقَدْ كانُوا أئِمَّةَ ضَلَالٍ وإضْلَالٍ، أو الجنود المخلصِينَ للأئمة المضِلّين المُغْوِين، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ونُلاحظ أنّ هٰذه العبارَة قد دَلَّتْ على الْحُكْم عَلَيْهِمْ بأنَّهُمْ مُجْرِمُون بأعْمَالِهِمْ أيضاً، لَمْ يقْتَصِرْ أمْرُهُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ بآياتِ رَبِّهِم.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وَوَقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ الْقَضَائِيُّ عَلَيْهِمْ، المتَضَمِّنُ أنَّهُم مُجْرِمُون مِنْ أخسّ الدَّرَكات، وَأنَّهُمْ مِنَ الخَالِدِينَ فِي عَذابِ النار، وأنَّهُم مِنْ أهْلِ الدَّركاتِ السُّفْلَىٰ في جَهَنَّم.

﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾: الباء سببيَّة. و«مَا» مَصْدَرِيَّة. أي: وَوقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ عَلَيْهم حُكْماً وَأمْراً بالتَّنْفِيذِ، بسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ظُلْماً مِنْ أخسّ الدَّرَكاتِ وَهذا الظّلم يُلائِمُهُ أشَدُّ الْعَذابِ، خُلُوداً في الدركاتِ السُّفْلَىٰ مِنْ جهَنّم.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: أي: فَهُمْ عَقِبَ وُقُوع الْقَوْلِ الرَّبَّانِيّ عَلَيْهِمْ لَا يَنْطِقُونَ، شُعُوراً مِنْهُمْ بأنَّهُمْ قد كَانُوا مُجْرِمِينَ حقًّا، يَسْتَحِقُّونَ ما قَضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِهِمْ، وعَجْزاً عَنْ أنْ يُقَدِّمُوا عُذْراً ما، فَقَدْ شَهِدَتِ عَلَيْهِمْ بِجَرائِمهم أيْدِيهم وأرْجُلُهُمْ وجُلُودُهُمْ كُلُّها، وقَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ هذا نُصُوصٌ أُخرَى، منها قول اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ

سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ... ﴿٢١﴾﴾.

قول اللَّه عزّ وجل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟!

في هذِهِ الآيَة عَوْدٌ إلىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللَّهِ في كونِهِ الدالَّةِ على رُبُوبيَّةِ اللَّهِ جلّ جلَالُهُ، وعنايتهِ بعبادِه، وهي موصولةٌ بما جاء في الدَّرْسِ السَّادِسِ من دُورس السُّورَة (الآيات من ٦٠ ـ ٦٤) وبما جاء في الدَّرس الثالث (الآية ٢٥).

هٰذه الآية تَتحدَّثُ عَن ظَاهِرَتَي اللَّيْلِ وَالنَّهار مِنْ ظواهر آيات اللَّهِ في كَوْنه.

إنَّ التَّدْبيرَ الرَّبَّانيّ الَّذي جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ به في الأرْضِ لَيْلاً ونَهاراً مُتَعَاقِبَيْنِ، ليَسْكُنَ النَّاسُ في اللَّيْل، وليَعْمَلوا في النَّهار نَشِيطين يُبْصِرُونَ أَماكِنَ أَعْمَالِهِمْ والأشياءَ الَّتي يَعْمَلُونَها أو يَعْمَلُونَ فيها، والأدَوَاتِ الَّتي يَعْمَلُونَ بها، هُو مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَىٰ النَّاس، ومِنْ عِنَايَتِهِ بهم، فالْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ عَلَيْهِم أنْ يَشْكُرُوا نِعَمَهُ الَّتي أفَاضَها عَلَيْهِم، والّتي لَا يَسْتطيعُونَ إحْصَاءَها لو أَرادُوا أَنْ يَعُدُّوها، وهيَ في نُفُوسِهِمْ، وفِي الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: اسْتِفْهامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أَمْرِ الْكَافِرِينَ الّذِينَ هُمْ المعْنِيُّونَ الأَوَّلُونَ بِالإقْنَاعِ في السُّورَةِ، حَوْلَ رُبُوبيَّة اللَّهِ الَّتي لَا شريكَ لَهُ فيها، وإلَهِيَّتِهِ الّتي لا شَرِيكَ لَهُ فيها، والّتي هيَ اللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ الأَوَّلُ لِرُبُوبيَّتِهِ، وحَوْلَ الْجزاء يَوْمَ الدِّين الَّذي هُوَ مُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللَّهِ في خَلْقِ النَّاس، وإلاَّ كانَ خَلْقُهُ للنَّاسِ عَبَثاً وهو جلّ جلالُهُ مُنَزَّهٌ عَن الْعَبث.

أي: ألم يَتفَكّرُوا فَيعْلَمُوا عِلْماً مُشَابِهاً للرُّؤْيَةِ بالأبْصارِ أنَّ رَبَّهُمْ بِعَظَمَةِ رُبُوبيَّتِه التي دَلَّ عَلَيْها ضَمِيرُ المتَكلّم العظيم، جَعَلَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيه سُكُوناً مُرِيحاً لَهُمْ، وبهذَا السُّكُونِ الَّذِي يَكُونُ النَّوْمُ أَحَدَ عَنَاصِرِه، يَسْتَعِيدُونَ نَشَاطَهُمْ، وقُدْراتِهِمْ علَىٰ العَمَل، بَعْدَ أَنْ حلَّ فِيهِمُ التَّعْبُ مِنْ عَمَلِ النَّهارِ السَّابقِ للَّيل في وُجُودِه الزَّمَنِيّ.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: أي: وجَعَلَ النَّهارَ بضَوْئِهِ كاشِفاً لَهُمْ الأَشْياء الّتي يُرِيدُونَ إِبْصارَهَا بأعْيُنِهِمْ، فَهُو بضَوْئِه يَجْعَلُهُمْ يُبْصِرُون.

يقال لغة: «أَبْصَرَ فُلَانٌ فَلَاناً الشَّيْءَ» أي: جَعَلَهُ يَراهُ بِبَصَرِه، باتّخاذ وسِيلَة من الوسائل الَّتي جعلَها اللَّهُ من وسائل الإبصار.

ومع هذا المستَنَد اللُّغويّ لَا حاجَةَ لاعتْبار إسناد الإبْصَارِ إلى النهار من قبيلِ الإسناد العقليّ، الّذِي يُسْنَدُ فِيه الْفِعْلُ أو ما في معناه إلى غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ لعلاقَةٍ مِن علَاقاتِ المجاز.

وفي اسْتِعْمَالِ فِعْلِ «جَعَلَ» إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَ المجموعَةِ الشَّمْسِيَّةِ كَانَ أَوّلاً، ثُمَّ جعَلَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بتَدْبيرِهِ الأرْضَ المظْلِمَةَ تُدُورُ حَوْلَ نَفْسَها باتّجاه الشَّمْسِ، ضِمْنَ نظام مُعَيَّنٍ، وبِحَرَكَةِ الدَّورانِ هذِهِ تَحَقَّقَ وُجُودُ اللَّيْلِ والنَّهارِ في نِظَامٍ تَعاقُبِيٍّ حَكِيم.

ويظهَرُ لي أَنَّ اسْتِعَمَالَ فِعْلِ «جَعَلَ» يَكُونُ غالباً لتَصارِيفِ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في أَشْيَاءَ مَوْجُودَةِ العناصِرِ بخَلْقٍ سَابِق، وتجري تصَاريف اللَّهِ في أَوْضَاعِها وأحوالِها بالْجَعْلِ، على أنَّ كُلَّ أفْعالِ اللَّهِ ولَوْ بَتَغْيِيرِ الأوضاع والأحوالِ هِيَ في الْحَقِيقَةِ خَلْقٌ، ومِنْ خَلْقِ اللَّهِ ما هُوَ إيجادٌ من الْعَدَم، ومِنْهُ ما هُوَ إِحْدَاثُ تَصَارِيفَ في مَوْجودَاتٍ بِخَلْقٍ سابق.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ الْجَعْلِ العَظْيم للَّيْلِ والنَّهارِ، لآياتٍ متَعَدّدَاتٍ دَالّاتٍ عَلَىٰ شُمولِ عِلْمِ اللَّهِ، وعَظِيمِ

قُدْرَتِهِ، وَكَمَال حِكْمَتِهِ، وعِنَايَتِهِ بعِبادهِ، وإتْقَانِهِ الْعَجِيبِ في تَدْبِيراتِهِ لِكَوْنِهِ، وَصُنْعِهِ الْبَدِيعِ.

ولعُلَماءِ الكونيات بُحوثٌ دَقيقَةٌ ومُسْتَفِيضَةٌ حَوْلَ ظَاهِرَتَي اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وفوائِدِهِمَا الْجَلِيلَةِ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّانِ الأرض، وحَوْلَ إبْدَاعِ التَّدْبير في دورانِ الأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِها باتِّجاهِ الشَّمْس لأحْداثِ اللَّيْل والنهار، ودَوَرانِها في مَدَارِ حول الشّمس، لإحْدَاثِ الْفُصُولِ الأَرْبَعَةِ في السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة.

وهٰذهِ الآيَاتُ يُدْرِكُها وَيَسْتَفِيدُ مِنْ دَلَالَاتِها قَوْمٌ يُؤْمِنُون، أي: قَوْمٌ لَدَيْهِمْ الاسْتِعْدَاد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحقّ كُلَّما جَاءَتْهُمْ أدِلَّةٌ فِيها إقناعٌ بالحقّ.

الإيمان: التَّصْدِيقُ الإرادِيُّ مع طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، يقالُ لغة: «آمَنَ بالشيء» أيْ: صَدَّقَه، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ لأَنَّهُ حَقٌّ وصِدْق، قال الخليل: الإيمانُ الطُّمَأْنينَة، أي: طُمَأْنينَةُ الْقَلْب لِصدْقِ القضيَّة التي وَرَدَتْ علَيْه.

❁ ❁ ❁

قول اللّٰهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

وفي القراءَة الأُخْرَىٰ: ﴿وَكُلٌّ آتوهُ دَاخِرِينَ﴾ ومؤدّي القراءتَيْن واحِد إلَّا أنَّ ﴿أَتَوْهُ﴾ تَدُلُّ علىٰ حَالَةِ انْتِهَاءِ الْمَجِيء، و[آتُوهُ] تَدُلُّ على حالَةِ حَرَكَةِ المجِيءِ المتابع.

هذه الآية معطوفة على الآيات التي فيها بَيانٌ عن الأحداث المتعلّقة بالأخرة. وفي هذه الآية عَوْدٌ إلىٰ عَرْضِ أحْدَاثٍ مُسْتَقبلِيةٍ تتعَلّقُ بأحْدَاثِ يَوْم القيامَةِ، بَعْدَ فَاصِلٍ بآيَةٍ عَرَضَ اللّٰهُ عَزَّ وجلّ فيها من آياتِه الكَوْنِيَّة في الحيَاةِ الدُّنيا ظَاهِرَتي اللَّيْل والنَّهار.

وهذه المراوَحَةُ بَيْن الأنْبَاءِ عن الآخِرَةَ، وَالحديث عَنْ آيَاتِ اللَّهِ في الحياة الدُّنيا، أَوْ مَطْلُوبِ اللَّهِ عزّ وجلَّ مِنْ عباده فيها، مِنْ رَوائِعِ الأسَاليب الإقْنَاعِيَّةِ بالحقّ، الّتي يَجْرِي التنقُّلُ فيها بَيْن الحاضِرِ وبَيْنَ المستَقْبَلِ الْبَعِيدِ أو الْقَرِيبِ، والْعَوْدَةِ بأسْلُوب المراوَحَة، فَالأحْدَاثُ عِنْدَ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ مَاضِيها وحَاضِرُها وَمُسْتَقْبَلُها هي كالمشهُودَةِ الحاضِرَة، ونِسْبَةُ تَحَقُّقِها بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ واحِدَة.

والتربيَةُ الحكيمَةُ قَدْ تَقْتَضِي المراوَحَةَ في الْعَرْضِ بين الماضِي والمستقبل والحاضر، وهذا مَا نُلَاحِظُهُ في كثيرٍ من النُّصُوصِ القرآنية.

الصُّورُ: مخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ عظيم، كهيئَةِ الْقَرْن إحْدَىٰ جهتَيْهِ فُتْحَةٌ دائِرِيَّة ضيّقة، والأخرى واسِعَةٌ جِدًّا، وباطِنُهُ فارغ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخ فيه، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بحسَبِه.

والْمَلَكُ المكَلَّفُ بالنَّفْخِ في الصُّور إسْرَافيلُ عليه السَّلام.

ودلَّت النصوص القرآنية عَلَىٰ أنَّ النَّفْخَاتِ في الصور ثَلاث:

النفخة الأولى: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، دلَّتْ عَلَيْها هٰذِهِ الآيَةُ من سورةُ (النمل).

النفخة الثانية: نَفْخَة الصَّعْقِ، دَل عليها قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سَورَهْ [الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ... ﴿٦٨﴾﴾.

صَعِقَ: أي: مَاتَ، يقال لغة: «صَعِقَ، يَصْعَقُ، صَعَقاً، وصَعْقاً» أي: مات.

وبهٰذِهِ النَّفْخَةِ يَموتُ الإنْسُ والْجِنُّ والملائكة أجْمَعُونَ، إلَّا مَنْ

شَاء اللَّهُ تَأْخِيرَهُمْ كَإِسْرَافِيل النافِخِ في الصُّور عليه السلام، وبَعْدَ ذَلِكَ يَقْبِضُ اللَّهُ أَرْواحَهُمْ.

ويُلْحَقُ بالصَّاعِقِينَ سَائِرُ الأحياء الأخرى، حتَّىٰ لا يَبْقَىٰ في الكون كُلِّهِ حيٌّ إلَّا اللَّهُ عزَّ وجلّ.

النفخة الثالثة: نَفْخَةُ الْبَعْث، دَلَّ عليها تَتِمَّة آية (الزُّمَر) السَّابقة، إذْ جَاء فيها قَوْلُ اللَّه عزَّ وجلّ:

﴿...ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سُورَة [يَس/٣٦ مصحف/٤١ نزول]: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ومن المستبْعَد أَنْ تكُونَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ هيَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، لأنَّ الإحْيَاءَ يَكُونُ بِهذِهِ النَّفْخَةِ، ودَلَّ النَّصَّانِ عَلَىٰ أنَّ الموتَى عَقِبَها مُبَاشَرَةً يَقُومُونَ يَنْظُرُونَ، وإلَىٰ رَبِّهِمْ يُسْرِعُون.

والأرجَحُ أنْ تكُونَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ سَابِقَةً لِنَفْخَةِ الصَّعْقِ، ومُمَهِّدَةً لها، لأنَّ نفْخَةَ الْفَزَعِ قَالَ اللَّهُ بشأْنِها: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالْفَاءِ الدَّالةِ على الترتيب مع التَّعْقِيب، وكذلِكَ قال اللهُ عزّ وجلّ بشأن نَفْخَةِ الصعق: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالفاء الدالَّة على الترتيب مع التعقيب، والصَّعْقُ المبَاشِرُ للنَّفْخَةِ لَا يَكُونُ مَعَهُ فَزَعٌ، فَلَا دَاعِيَ لإدْماجِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ بنَفْخَةِ الصَّعْق، واللهُ أعلَمْ.

الْفَزَعُ: الخوفُ والذُّعْرُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَات الْجِسْمِ.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ـ ﴿وَكُلٌ آتُوهُ دَاخِرِينَ﴾ في القراءة الأخرى: أي: وَكُلٌّ مَنْ فِي السَّمَاواتِ ومَنْ في الأرضِ سَوْف يَأْتُونَ سِرَاعاً إلى رَبِّهِمْ دَاخِرِين، حتَّىٰ يَقِفُوا جَمِيعاً في مَحشَرِهم عِنْدَهُ بَعدَ الْبَعْثِ دَاخِرِين.

﴿دَٰخِرِينَ﴾: أي: أذِلّاءَ خاضِعِينَ بانْكِسارٍ وسُكُون. الدّاخر: الذّليلُ الخاضِعَ المنكَسِرُ الخاشِع، ولفظ ﴿دَٰخِرِينَ﴾ حالٌ.

جُمْلَةٌ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ لَيسَتْ مُرَتَّبَةً تَرْتيباً تَعْقِيبيّاً على ما قَبْلَها، بَلْ بَيْنَهُما فاصِلٌ زَمَنِيٌّ طويلٌ تَتِمُّ فِيهِ الإمَاتَةُ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُ الْبَعْثُ، وَلِهٰذَا عُطِفَتْ بِالْوَاوِ الّتِي لا تَقْتَضِي تَرْتيباً ولَا تَعْقِيباً.

❁ ❁ ❁

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وجلّ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ عَوْدٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُرَاوَحَةِ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِه، الدَّالَّةِ علَىٰ طَائِفَةٍ مَنْ صِفَاتِ رُبُوبيتِه جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سُلْطانُهُ، ومِنْهَا عِلْمُهُ الشَّامِلُ، وَقُدْرَتُهُ الّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ، وحِكْمَتُهُ فِي تَدْبِيرَاتِه، وإتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شيءٍ، وقد سبَقَ أنْ عَرَفْنا أنَّ وَحْدَته فِي رُبُوبيَّتِهِ تَسْتَلْزِمُ عقلاً أنَّهُ واحِدٌ في الإلٰهِيَّةِ لَا يُشَارِكُهُ فِي حَقِّ الإلٰهِيَّةِ أَحَدٌ وَلَا شَيْءٌ فِي الوجُودِ كُلّه.

أي: وَتَرَىٰ الجبالَ أَيُّهَا الرَّائِي أيّاً كُنْتَ حَالَةَ كَوْنِكَ تَرَاهَا جَامِدَةً، أي: مُتَمَاسِكَةً لَا حَرَكَةَ لِذَرَّاتِها، ولا سَيْرَ لَهَا في جُمْلَتِها، وَهِي في وَاقِعِ حَالِها تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، الّذي تَتَحَرَّكُ ذَرَّاتُهُ تَحَرُّكاً دَاخِلِيّاً، ويَسِيرُ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ مَوْقِعٍ إلَىٰ مَوْقِعٍ في السَّمَاء.

وَكَذَلِكَ حَالُ الجِبَالِ، وَسَائِرِ ما في الأرض، إذ ذَرَّاتُ كُلّ شَيْءٍ تَتَحَرَّكُ حرَكَاتٍ في دَوَائِرَ وأفْلاكٍ مُقْفَلَةٍ، وَجُمْلَةُ الأَرْضِ مَع جِبَالِهَا تَمُرُّ سَائِرَةً في دَوْرَةٍ يُوْمِيَّةٍ حَوْلَ نَفْسِها، وفِي دَوْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ حَوْلَ الشَّمْس.

هذَا مَا أثْبَتَتْهُ الْعُلُومُ الكونيَّةُ، الّتي تَوَصَّل عُلَماءُ الْبَحْثِ العلميّ إلى بَعْضِ حقَائِقِها، بَعْدَ أكْثَرَ مِنْ ثَلاثَة عَشَرَ قَرْناً مِنْ نُزُولِ القرآن المجيد على

مُحمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فكانَت اكْتِشَافَاتُهُمْ الْعِلْمِيَّةُ الصَّحِيحةُ مُطَابِقَةً للدَّلَالَات القرآنيَّة، الَّتي مَا كَانَ باسْتِطَاعَةِ مُتَدَبِّرِي القرآنِ السَّابِقِينَ أَنْ يَدْرِكُوها، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ الْوَسَائِلُ الْمَعْرِفِيَّة الَّتي يُدْرِكُون بِهَا الْوَاقِعَ الكَوْنِيَّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَمُشَاهَدَةُ الظواهِرِ لَا تَدُلُّ عَلَيْها.

لقطات علميّة عَنِ الذَّرة عِنْدَ العلماء الكونيين:

(١) بَيْنَ نَوَاة الذَّرةِ وَبَيْنَ إِلِكْتْرُوناتها الدائِرَة في فضائِها، فراغٌ واسِعٌ جِدًّا، نِسبَتُهُ كنِسبَةِ دائِرَةٍ قُطْرُهَا ستَّة كيلُومترات، تُوجَدُ فِي مَرْكَزِهَا كُرَةٌ بِحَجْمِ كُرَةِ المضْرِب العاديّة، وتَدُورُ في مداراتٍ حوْلَهَا إِلِكْتْرُوناتها.

(٢) الإِلِكْتْرُونَاتَ حَوْلَ نَواةِ الذَّرة تَدُور بِسُرْعَةٍ بالغَةٍ جدًّا، إِذْ تَقْطَعُ بَلايينَ الدَّوْراتِ في كُلِّ جُزْءٍ مِن مَلْيُون جزْءٍ من الثانية، وبِسَبَبِ هٰذِه السُّرْعَةِ العظيمة لِلإِلِكْتْرُونَاتِ تَبْدُوا الذَّرَةُ كأنَّها كُرَةٌ جَامِدَةٌ سَاكِنَةٌ لَا حَرَكَةَ فِي داخِلَها.

(٣) الْجُسَيْمات الصَّغِيرَةُ جدًّا الّتِي يَتَكَوَّنُ مِنها كيَانُ الذَّرَةِ ذُو الفراغ الواسع جدًّا بالنِّسْبَةِ إليها هي: «**الْبُرُوتُونَات ـ النَّيوتْرُونَاتِ ـ الإِلِكترونات**».

(٤) لَوْ أُزِيلَتِ الفراغاتُ منَ الذَّراتِ، وضغِطَتْ جُسَيمَاتُها إلى بَعْضِها، لمَا زَادَ حَجْمُ الْجَبَلِ الْعَظِيم على قَبْضَة.

وهكذا اكشَفَتْ لنَا الدّراسَاتُ العلميَّةُ الكَونيَّة قضِيَّةً مِنَ قَضَايَا الإعجاز الْعِلْمِيّ في القرآنِ المجيد.

ولَا غَرْو أنَّ يَدْهَشَ المتفكِّرُ المنْصِفُ الّذي لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَرْجَاسٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ خُلُقِيَّة تحجبُهُ عَنِ الإيمان بالرَّبِّ العظيم الجليل، مِنْ إتْقَانِ صُنْعِ في كَوْنِه، الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه.

الصُّنع: مَصْدَرُ «صَنَعَ الشَّيْءَ» أي: عَمِلَه، وَيُطْلَقُ على الشَّيْءِ المصْنُوع.

والمعنى: وتَرَىٰ الجبالَ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيء، نحْسَبُهَا جَامِدَةً سَاكِنَةً، وهي في واقِعِ حَالِهَا تَمُرُّ مع كلّ عَنَاصِرِ الأرْضِ مَرَّ السَّحَاب.

يقال لغة: «أتْقَنَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أحْكَمَ صُنْعَهُ، وَجَعَلَهُ مطابِقاً لِلْمَقْصُودِ به تماماً.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. وفي قراءة ابْن كثير، وهشام، وأبي عمرو، ويَعْقُوب: [إِنَّهُ خبيرٌ بِمَا يَفْعَلُون]: أيْ: إنَّ الرَّبَّ الَّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ صُنْعاً، لا بُدَّ أنْ يكونَ قَدْ خَلَقَ الإنْسَانَ بصِفَاتِهِ الَّتِي هو عَلَيْها لغايَةٍ مُتقنَةٍ حَكيمة، وهيَ أَنْ يَبْلُوَهُ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثمَّ ليُحاسِبَهُ ويَفْصِلَ القضاء بشأنه، ويُجَازِيَهُ على ما قَدَمَ وَكَسَب في رِحْلَةِ امتحانِهِ بإرادتِه الحرَّة، وهٰذِهِ الغايَةُ تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ عَلِيماً خَبيراً بما يَفْعَلُ الممتَحنُونَ مِن عبادِه في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وهذا اللَّازِمُ مُتَحقِّقٌ عَلَىٰ الْوَجْهِ الأتمّ الأكْملِ، فالْتفتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى النَّاسِ جَمِيعاً وإلىٰ سَائِر الممتَحنين من الجنّ، فَقَالَ مُتَحدِّثاً عَنْ نَفْسِه بضَمِير الغائب ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عَلِيمٌ عِلْمَ خِبْرَةٍ بمَا تَفْعَلُون لا يَخْفَىٰ عَلَيْه شَيْءٌ مِنْ أفْعَالِكُمْ الظاهِرَةِ والباطِنَة، و[بِمَا يَفْعَلُون].

الخِبْرَة: هِيَ الْعِلْمُ بالْعَمَلِ على سَبِيلِ الشهودِ والحضور، وَالْمُصاحِبُ لكُلِّ أجزاء العَمل ظواهِرِه، وبواطِنِه.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وفي القراءتَينْ الأخْرَيَيْن: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ] و[مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ] وهي وجوهٌ عَرَبيَّة متكافئة.

إنّ الحديثَ عنِ الآخِرَة والجزاءِ فيها، الذي جَاءَ صَرِيحاً في الدَّرس الأوَّل من السُّورة، وإلْمَاحاً أثناء دُروسها، وتَصْرِيحاً فِي الدرس السادس من دُروسها، وفي الآية (٨٧) من هذا الدرس السابع، اقتضىٰ شيئاً من التَّفصِيلِ للجزاء الرَّبَّانيّ الّذي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، فجاءت هَاتان الآيتان، وفيهما تَفْصِيلٌ عُنْوَانِيٌّ عامٌّ، يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كُلُّ مَا جَاء في القرآن مِنْ تَفْصِيلَاتٍ جُزْئِيَّةٍ، لأجْنَاسِ وأَنْواعِ وَأَصْنَافِ ومُفْرَدَات جزاءَات اللَّهِ لعباده يَوْمَ الدّين، بالثواب على الحسَنَات الَّتي قَدَّمُوها في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدنيا، يَنالُونَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ، وبالعقابِ علَىٰ السَّيِّئَاتِ الَّتِي قَدَّمُوها، وهٰذا يَنالُونَهُ بِعَدْل اللَّهِ ضِمْنَ مَجَاري حكمته، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، مَعَ عَفْوٍ عنْ كثير.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: أي: كُلُّ مَنْ جاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ، من الْمَوْضُوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامتحان، بِالحَسَنَةِ يَحْمِلُها فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ الّتي تَوَلَّى تَسْجِيلَها الرَّقيبُ العتيد المُصَاحِبُ لَهُ دَواماً من الملائكة.

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي: فَلَهُ ثوابٌ عظيمٌ جدّاً خَيْرٌ مِنْ حَسَنَتِه الَّتِي جاء بها. وقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ التَّفْصِيلِيَّةُ على أنَّ الحسنَةَ تُضَاعَف إلى عشرة أمْثَالها، فإلَىٰ سَبْعين ضِعْفاً، فإلى سبعمِئةِ ضِعْفٍ، فإلَىٰ أضْعَافٍ كثيرة، وفَضْلُ اللَّهِ لَا حَدَّ له.

وأوَّلُ الحسنات المرادَةِ بهذا النَّصِّ الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادق، بعَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّة في دين اللَّهِ لعباده، فإعْلَانُ الإسْلَام لَهُ، بالخضُوعِ لأوَامِره ونواهيه، وَالْقِيامِ بَواجِب طاعَتِه، وكُلُّ حَسَنَةٍ يُقَدِّمُها المُمْتَحَنُ غير مَبْنِيَّة على إيمانٍ وإسْلَامٍ صَحيحَيْنِ صادِقَيْنِ لَا تُعتَبَرُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ عزّ وجلّ، فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يومَ الدّين جزاءٌ بالثواب عليها.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾: الضَّمِير في ﴿وَهُم﴾ يَعُودُ علَىٰ ﴿مَن﴾

مُراعَاةً للمَعْنَىٰ الْجَمْعِيّ فيها لأنّها من ألفاظ الْعُموم، أمَّا الضَّمِيرُ في: ﴿فَلَهُۥ﴾ فقد أعِيدَ على ﴿مَن﴾ أيضاً مراعاةً للفظ الإفْرَادِيّ فيها.

أي: والَّذِينَ يأتُون بالحسَنَةِ العظمَىٰ، وهي الإيمانُ والإسْلَامُ أوّلاً، ثُمَّ ما يَبْنُونَ عَلَيْهَا مِنْ صَالحاتٍ، هُمْ مِنْ خَوْفٍ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ في نَارِ جَهَنَّمَ آمِنُونَ، إذْ تَأْتِيهِمُ الْبُشْرَيَاتِ من رَبّهِم فيَكُونُونَ آمِنين.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثارُ نُفُورٍ في حَرَكات الْجِسْم.

الحسنَة: صِفَةٌ لمُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ من السِّبَاقِ والسِّيَاق، ويُمْكن تقدير المحذف هنا: «الْمَكْسُوبَة» لاستعمال فعل «كَسَبَ» في القرآن كثيراً، في فِعْلِ المكْسُوبَاتِ بالإرَادَةِ الحرَّةِ، الحَسنَاتِ والسَّيّئَاتِ، النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّة، الظاهِرَة والباطِنَةِ، الاعتقاديّة والْعَمَلِيَّة.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالسَّيّئَة العظمَىٰ الّتي تَنْزِلُ بِمُكْتَسِبِهَا إلى دَرَكَة الكُفر. والمرادُ: بالمكسوبَةِ السَّيّئَةِ، ومعلوم أنّ السَّيّئَة الكُفْرِيَّةَ الْعُظْمَى «تَجُرُّ مُكْتَسَبَاتٍ سَيّئَاتٍ كثِيراتٍ مَعَها وَوَرَاءَها.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: أَيْ: فأُلْقُوا على وجُوهِهِمْ في النَّار دَارِ عذاب المجْرِمين يَوْم الدّين.

الكَبُّ: الْقَلْبُ والإلْقاء، يقال لغة: «كَبَّهُ، يَكُبُّهُ، كَبّاً لِوَجْهِهِ، أو علَىٰ وَجْهِهِ» أي: قَلَبَهُ وألْقَاه.

ذُكِرَتِ الْوُجُوه لأنّهَا أوّلُ مَا يَذُوقُ لَذْعَ النّارِ من أَجْسَادِهِم وظاهرٌ أَنَّ سَائِر أجسادِهِمْ تَتْبَعُ وُجُوههم.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أي: وبَعْدَ أنْ يُكَبُّوا في النَّار، ويَسْتَقِرُّوا في مَنَازِلِهِمْ مِنْ دَرَكاتِ جهَنَّمَ، وَيَذُوقُوا الْعَذَابَ الألِيمَ يُقَالُ لَهُمْ بأُسْلُوب الاسْتِفْهام التَّوْبِيخيّ أو التقريريّ، هَلْ تُجْزَوْنَ لحظَةً فَلَحْظَةً إلّا

مُعَادِلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا.

أُطْلِقَتْ علَىٰ الجزَاءِ المُعَادِلِ لِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ عِبَارةُ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للدّلالَة على المطابَقةِ العَدْلِيَّةِ بيْنَ مَا كانُوا يَعْمَلُون وبيْنَ الْجَزَاءِ الّذي يَذُوقونَ آلَامَهُ في النَّار.



قول اللّه عزّ وجل:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ـ وفي القراءة الأخرىٰ: [عَمَّا يَعْملُونَ] بضمير الغائبين.

سبَقَ أنْ عَرَفْنَا أَنَّ المعْنِيّين الأوّلينَ، بالمعالَجَةِ الدَّعَوِيَّة في هذه السُّورَة، هُمْ مُشْرِكُو مَكّة الَّذِينَ سَبَقَتْ مُعَالَجَتْهم في سُورٍ كثيرة نزَلَتْ قَبْل نُزُولِ سُورَةِ (النَّمل) ولا سِيمَا كُبَراؤُهُمْ وقَادَتُهُمُ الأَئِمَّةُ لجمَاهِيرِهم.

وهذه الآياتُ الأخيراتُ من السّورَةِ، فيها تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ لِلرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، مَا يَقُولُهُ للّذِينَ لم يَصِلُوا بَعْدُ مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ إِلىٰ دَرَكَةِ مَيْؤوسٍ مَعَهَا مِن إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِم عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِمُ الحرَّة، ويَسْتَفِيدُ الدُّعاة إلى اللّهِ عزّوجلّ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ فَحْوَىٰ هٰذا التّعْلِيم، ومن لوازِمِهِ الْفِكْرِيَّة، فِي مَسِيراتِهِمُ الدَّعَوِيَّة.

• ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: أي: قُلْ لِمَنْ تَرْجُو استجابَتَهُمْ مِنهُمْ وَلَوْ بالظَّنِّ الضّعِيفِ هذا القول. طُوِيَتْ من اللَّفظ كَلِمَةُ؛ «قُلْ» لأنّ إدْرَاكَهَا في مُتَنَاوَلِ فِكْرِ السَّامِع أو القارئ، الّذِي يَمْلِكُ بدايَاتِ التّفكير في معاني الكلام.

وَقَدْ جاءَ النُّطْقُ بها مَرَّتَيْنِ بَعْدَ هذا في النَّصّ في: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠﴾ وفي: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

إنَّهُ لمَّا كَانَ الدُّعَاةُ الْبَشَرِيُّونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إلى مَبَادِئَ وأَنْظِمَةٍ هُمْ يَضَعُونها، ولَا يُطَبّقُونها علَىٰ أَنْفسِهِمْ، بَلْ يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى تَطْبيقِها لِمَصَالِحِهِمْ، كَانَ مِنْ وَاجِب الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وفي مُقَدّمَتِهم الرَّسُول أَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ مأمُورُون من رَبِّهِمْ بعِبادَتِه، ومَأمُورُون كَسَائِرِ النَّاسِ بأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُسْلِمين للّهِ.

ولمَّا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّة يُعَظِّمُونَهَا وَيَعْتَقِدُون أنَّ اللَّهِ جَعَلَها حَرَماً حَراماً لَا يُنفَّرُ صَيْدُها، ولَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، ولا يُقْطعُ شَجَرُهَا، ولَا يُتَعَرَّضُ فيها لأحَدٍ بأذىً أَوْ ضُرٍّ، بَلْ يُؤَمَّنُ دَاخِلُها، وكَانَ المشركون مع اعتقادهم حُرْمَة هٰذِهِ الْبَلْدَةِ، يُخَالِفُونَ مُعْتَقَدَهُمْ فَيَتَّعَرَّضُون للرَّسُول ولِمنْ آمَنَ بِهِ بالأَذىٰ والتعْذِيب والاضطهاد، في الأنْفُسِ والأَرْزاق، كان من الْحِكْمَة في أساليب الدَّعْوَة أَنْ يُعْلِنَ الرَّسُول لهم، أَنَّهُ مأمُورٌ بأَنْ يَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمها.

وَبَدَهِيٌّ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ هُوَ الآمِرُ لَهُ بِهذَا، أي: فأطِيعُوا رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي تَفْتَخِرُونَ بأَنَّكُمْ أَهْلُها وحُمَاتُها على سائِرِ قبائِلِ الْعَرَب، والّذي أكْسَبَكُمْ هذا المجْدَ الموْرُوث من عَهْدِ النَّبِيَّيْنِ الرَّسُولَيْن إبْراهِيمَ وَوَلَدِهِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلام، ومن طَاعَتِكُمْ لِرَبّ هذِهِ الْبَلْدَةِ أَنْ تُؤْمِنُوا برسُولِه، وبالْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ، وأن تَتَّبِعُوه مُسْلِمينَ للَّهِ رَبِّكُمْ، لَا مُسْتَكْبِرِينَ وَلَا مُتَّبِعِينَ لأهوائكم، وتقاليدِكم الْعَمْيَاء، وعَابِدِينَ لأوثَانٍ لَا تَنفَعُكُمْ وَلَا تَضُرُّكُم بشيء.

هذه المعاني كُلُّها تُفْهَمُ مِنَ اللَّوَازِمِ الفِكْرِية لِقَوْلِه لَهُمْ.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وفي هٰذِهِ العبارة

حَصْرٌ وَقَصْرٌ بالأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ والمعْنَى: مَا أُمِرْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولاً لِلْعَالَمِين، إِلَّا بأنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَة مَكَّةَ، الَّذي جعَلَها بَلدَةً مُحَرَّمَة، ذَاتَ حُرْمَةٍ عظيمَةٍ عِنْدَه، وَهُوَ الّذِي جَعَلَنِي نبياً ورَسُولاً للنَّاس أجْمَعِين، فَأَنَا أَوَّل المأْمُورِينَ بعِبَادَتِه مِنْ هَذِه الأُمَّةِ الَّتي هِيَ خَاتِمَةُ الأُمَم، وأنَا لَها خَاتَمُ الأنبياء والْمُرْسَلِين.

هذه الإضافات على الْعِبَارَة مَعْرُوفةٌ من دَلَالَاتِ نُصُوصٍ سابقَةٍ، فَهِي مُنْسَحِبَةٌ في التَّصَوُّرِ علَىٰ كُلّ بيانٍ لاحِق.

عبارة ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ تُعَبِّرُ عَنْ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئيَّاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْء، لأنَّهُ هُو الخالِقُ لكلّ شيءٍ، والمتَصَرِّفُ بصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ فِي كُلِّ شيءٍ، إيجاداً وإعداماً، وتَغْيِيراً، وزيادة وَنقصاً، وتَحْرِيكاً وَتَسْكِيناً، وإِمْدَاداً بالبقاء، إلى غيْرِ ذلِكَ من تَصَارِيفِ رُبوبيَّتِه لِكَوْنِه.

ولهذا جاء في القرآن المجيد بيانُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَرَبُّ ٱلْعَـرْشِ ـ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ـ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ـ ورَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ـ فهو جَلَّ جَلَالُهُ رَبُّ كُلِّ شيءٍ في الوجود.

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: أي: الّذِي جَعَلَها بَلْدَةً حَراماً، وجاء في القرآن ذِكْرُها بعُنْوان ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[1]. ويظهر معنى كَوْنِ مكَّة بلداً حَراماً ممّا وَرَدَ بشَأْنها عن الرسول ﷺ.

(١) روى البخاري ومُسْلمٌ عن عبد اللَّه بن عبّاسٍ رضي اللَّهُ عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّة:

«إِنَّ هٰذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (التين/ ٢٨ نزول) في المجلد الثاني. حول الأمن في مكّة.

بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وإِنَّهُ لم يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، ولَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، ولَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهُ».

فقالَ العَبَّاسُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إلاَّ الإِذْخِرَ، فإنَّهُ لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهم. فقال: «إِلَّا الإِذْخِرَ».

القَيْنَ: الحدّاد والصانع، وجمعُهُ «قُيُون».

لاَ يُعْضَدُ شَوْكُه: أي: لَا يُقْطَعُ بالمِعْضَد، وهيَ آلَةٌ حَدِيدِيَّةٌ يُقطعُ بها الشجر.

وَلاَ يُخْتَلَىٰ خَلاَهُ: أي: ولا يُقْطع حَشِيشُه.

وفي رِوَاية عَنْ أبي هُرَيرَة: «وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُها، ولَا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتَها إِلَّا مُنْشِدٌ».

(٢) وروى مسلم عن جابرٍ رضي اللَّهِ عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

«لَا يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاح».

• ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾: اللّام في: ﴿وَلَهُۥ﴾ لِلْمِلْكِ، أي: ولَهُ مِلْكُ كُلِّ شَيْءٍ. دلَّتْ عِبارة ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَالِكُ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ، إِذْ هُوَ خَالِقُهَا والمتصَرِّفُ فيها بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، فَنَاسَبَ هَذا أَنْ يأتِي بعِبَارَةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ تُفِيدُ أَنّه مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وهذِهِ الحقيقةُ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإِيمانِيَّة قَدْ جَاءَ بيانُهَا وتَثبيتُها وتأكِيدهَا في نُصُوصٍ كثيرةٍ جدًّا، منها: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى غيرها من نُصوصٍ كثيرة.

• ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: وأُمِرْتُ مِنَ اللَّهِ ربّي أنْ أكُونَ مُسْلِماً مِن المُسْلِمينَ، مُسْتَسْلِماً مُطيعاً لَهُ في كُلِّ مَا يأمُرُ الْمُسْلِمِينَ به، وفِي كُلِّ مَا يَنْهَىٰ المسْلِمِينَ عنه، وَقَدْ يَزِيدُني تكليفاً فَعَلَيَّ أَنْ أكُونَ مُسْلِماً لَهُ مُطِيعاً، ومَا يَأْذَنُ لي بِهِ بصِفَةٍ خَاصَّةٍ لمَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالح رِسَالَتِي، أَوْ يخْتَصُّني بِهِ، فأنَا فيه مُسْلِمٌ لِرَبِّي قيادِي، خاضِعٌ لأوامِرِه ونواهِيه.

الْمُسْلِم: المنقادُ المطيع. يقال لغة: «أسْلَمَ، يُسْلِمُ، إسْلاماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً، غير عَاصٍ ولَا مُعْتَرِضٍ ولا رافضٍ للانقياد والطاعة.

• ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: وأُمِرْتُ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي، وعلَىٰ النَّاسِ الَّذِينَ يَجِبُ علَيَّ أنْ أَدْعُوَهُمْ إِلَى الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي، وعَلَىٰ الَّذِينَ آمنُوا بي واتَّبَعُوني، لأُعَلِّمَهُمْ كِتَّابَ رَبِّي، حَتَّىٰ يَتَدَبَّرُوهُ وَيَنْشُرُوهُ فِي النَّاسِ دُعَاةً ومُعَلِّمِين.

﴿أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: أنطِقَ بِهِ مِنْ حِفْظِي، مُتَتَبِّعاً حُرُوفَهُ وكلماتِهِ كما أنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ علي. تقول لغة: «تَلَوْتُ القرآنَ أتْلُوهُ تِلاوَة». فعل «تَلا يتْلُوا تُلوّاً» يأتي في اللُّغةِ بمَعْنَى «تبِعَ» يقال: «تَلاهُ» أي: تَبِعَهُ فَهُو تالٍ، واسْتُعْمِل بمَعْنَىٰ النُّطْقِ بالقرآنِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِه وكلماته كما أُنْزِل.

وَإِذَا كانت هذه التّلَاوَةُ تَتَبُّعاً لِلْمكتُوب مِنْه فَهِيَ قِرَاءَة، ولهذا قالَ الرسُول ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أوَّلَ مَا نَزَل عليه في حراء: «ما أنا بقارئ»: أي: مَا تَعَلَّمْتُ القراءَة والكتابة.

• ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: فَمَن استجابَ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيّة، الهاديَة، إلى طريق سعادة الدُّنيا والآخرة، فآمَنَ وأسْلَمَ واسْتَقَام على صراط اللَّهِ، فاهْتَدَى بذلك، فإنَّهُ لَا يَهْتَدِي إلَّا لِتَحْقِيق سَعَادَة نَفْسِه، فَهُو المستفيد وحَدَهُ من استجابَتِه واهتدائه.

ومَنْ لم يَسْتَجِبْ بإرادَتِهِ الحرَّة مُتَأَثِّراً بِدَاعٍ ما من الدَّواعِي، بَعْدَ إدْراكِهِ للحقّ أو رافِضاً إدْرَاكَهُ والإصغَاء لبياناتِهِ، وَرافضاً التفكُّرَ في آياتِ اللَّهِ الكونيَّة والمنزَّلَة علىٰ رَسُولِه، ضَلَّ في مَتَاهات الأهواء والشهوات وزِينَاتِ الحياة الدينا، ودُرُوبِ الباطل والشرِّ والإثم، وارْتِكَابِ الجرائم، فإنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَه، إِذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِضَلَالِهِ لِعَذَابٍ أَلِيم، مَعَ الخلُودِ في جهَنَّم دَارِ المجرمين يَوْمَ الدّين، إذا كان ضَلَالُه مِنْ دَرَكَة الْكُفر.

دَلَّت عبارة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ على أنَّ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فإنَّما يَضِلُّ جانياً على نَفْسِه، وجالباً الضَّرَرَ والعذَابَ لَهَا، دُونَ أنْ يُشَارِكَهُ أَحَدٌ في عَذَابِه، إلَّا مَنْ ضَلَّ مِثْلَ ضَلَالِهِ باختيارِهِ الحرّ.

• ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لَه: بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبّكَ، فانْطَلَقْتَ هَائِماً فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ والْغَيّ، فاعْلَمْ أَنَّكَ مُنْذَرٌ بعذَابٍ أَلِيمٍ خالِدٍ يَوْمَ الدِّينَ، وانْحصَرَتْ وَظِيفَتِي بالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ بأنْ أكُونَ مُنْذِراً فأنَا في هذهِ الْحَالَةِ منْ الْمُنْذِرِين، ولَوِ استَجَبْتَ لدَعْوَةِ رَبّكَ لكُنْتُ لَكَ مِنَ الْمُبَشِّرِين.

ويَنْسَحِبُ على الداعي إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ هٰذا التوجيهُ التَّعْلِيمي، لأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ما أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَبْلِيغِه، وقَائِمٌ بالوظيفَةِ الدَّعوِيَّة الّتي أمَرَ اللَّهِ عزّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِالقيام بها، وهُوَ مُطالَبٌ بالْتزام التعليمات الّتي وَجَّهها اللَّهُ عزّ وجلَّ لِرَسُوله.

مع ما في هذا النَّصّ التَّعْلِيمِيّ للرَّسُول مِنْ خطابٍ غَيْرِ مباشِرٍ من اللَّهِ عزَّ وجَلَّ للمعنيّينَ بِالمُعَالجَةِ في السورة، ولِنُظَرَائِهِم وأشْبَاهِهِم في عَصْرِ التَّنْزِيلَ وفي الْعُصُور اللاَّحقات، كشأنِ سائر النُّصُوصِ المشابِهَة.

• ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وفي القراءة الأُخرى: [**عمَّا يَعْمَلون**] بياء الغائبين.

هٰذِهِ الآيَة تَدُلُّ عَلَىٰ بَيَانٍ تَعْلِيمِيّ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِه، وفي هذا البيان ذِكْرٌ عُنْوانيٌّ لِعَنَاصِرِ الموضوع المطَوَّلِ الّذِي يَنْبَغِي توجِيهُهُ للمعنيِّينَ بالمعالجَةِ ولنُظَرائِهِم وأشباهِهِم في القُرون الآتية.

عناصر هذا الموضوع ثلاثة:

العنصر الأوّل: حَمْدُ اللَّهِ عَزَّ وجلّ بِذِكْرِ طَائِفَةٍ من صفاتِهِ الْجَلِيلَةِ، والثناءِ عَلَيْهِ بها، ومنها عِلْمُهُ الْمُحِيطُ بكُلِّ شيء، وقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشاء، وحِكْمَتُهُ الَّتي يَخْتَارُ بِهَا الأحْكَمَ والأحْسَنَ ومَا هُوَ خَيْرٌ دواماً، وأنَّ كُلَّ مَا هُوَ في الكَوْنِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، وهُوَ مِلْكُهُ يَتَصَرَّفُ فِيه بِحِكْمَتِه على مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أمْرٍ حَكِيم، فَضْلاً وعَدْلاً.

دَلَّت على هٰذا الْعُنْصُر عِبارَةُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كُلُّ الْحَمْدِ والثناءِ للَّهِ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لأنَّ كُلّ صِفَاتِ الكمالِ بِلَا نَقْص هِيَ صِفَاتُهُ، فَلَا جُزْئِيَّةَ مِنْ جُزْئيَّاتِ الْحَمْدِ إلَّا هُو مُسْتَحِقُّهَا، فَالْحَمْدُ كُلُّهُ جُمْلَةً وتَفصِيلاً هُوَ لَهُ تبارك وتَعَالَى.

الْعُنْصر الثاني: أَنَّ اللَّهَ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ سَيُرِي النَّاسَ في الحياة الدُّنيا قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ، بِدَليل حرْفِ «السِّين» الدَّالّ على المستَقْبَلَ غَيْرِ الْبَعِيدِ جدًّا، بخلَاف «سَوْف» آيَاتٍ من آياتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ أَنَّها مَنْ آياتِ اللَّهِ الْجَلِيلَات الدَّالَّات على أنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ للَّهِ وَحْدَهُ، وأنَّ عَلَيْهِمْ وَاجِبَيْ الإيمانِ والإسلامِ له.

أمّا الثناء على العباد بما فيهم من مَحَامِدَ، فهُو تابعٌ لحَمْدِ اللَّهِ، وفَرْعٌ منْ فُرُوعه، إذ هُو الخَالِقُ والواهِبُ والموفّق، ومَن اخْتَارَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ فِعْلَ عَمَلٍ مَحْمُودٍ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هُو الَّذي يُمِدُّه بالقدرة والتَّوْفِيق والتَّسْدِيدِ والمعونةِ، فَهُو في الحقيقَة الخالقُ له، فالْحَمْدُ له.

دلَّ على هذا العنصر قول اللَّهِ عزّ وجلّ في التعليم لرسوله: ﴿سَيُرِيكُمْ

ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ والآيات التي سيُريها اللَّهِ للنَّاس في الدنيا تَرْجعُ إلى الكليَّاتِ التالية:

(١) مَا يَراهُ كُلُّ محْتَضَرٍ قُبَيْلَ مَوْتِهِ من بَعْضِ أمور الآخرة، فالمؤمنُ يَرَى مَنْزِلَهُ مِنَ الجنَّةِ، فَيُحِبُّ لقاء اللَّهِ، فيُحِبُّ اللَّهُ لقاءه، والكافِرُ يرَىٰ مَكَانَهُ مِنَ النَّار، فيَكْرَهُ لقَاءَ اللَّهِ، فيَكْرَهُ اللَّهُ لقاءه، وهذا من آياتِ اللَّهِ على أنَّ ما جاء في القرآن عن الآخرَة حقٌّ لَا رَيْبَ فيه.

(٢) مَا يُحقِّقُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ أخبارٍ عَنْ أحْدَاثٍ مَسْتَقْبَلِيَّةٍ، جاءَتْ في بَيَانَاتِ القرآنِ أو في أَحَادِيث الرَّسُولِ الصحيحة، آناً فآناً، كأشْرَاطِ السَّاعَةِ.

(٣) مَا يَكْشِفُ اللَّهُ للنَّاس من آياتٍ كَوْنِيَّةٍ بالوسائِل العلميّة فتَظْهَرُ مُطَابَقَتُهَا لمَا جَاء في النُّصُوص القرآنِيَّة، أو في بيانات الرسول ﷺ، ولَمْ يَكُنِ النَّاسُ في جميع الأرض يَعْلَمُونَ عَنْهَا شيئاً إبَّانَ تَنْزِيلِ القرآن.

وهَذا ما بَدَأَ الباحِثُونَ يُنقِّبُونَ عَنه، ويُعْطُونَه عُنْوانَ «الإعجاز الْعِلْمِيّ في الْقُرآن والسُّنَّة» وقَدْ ظَهَر حتَّىٰ الآن الكَثِيرُ مِنْ هٰذا الإعجاز العلمي، وهذا من آيات اللَّهِ الَّتي وَعَدَ اللَّهُ بأنْ يُرِيها للنَّاس، على لسان رسُوله.

وَقَدْ جاء تَفْصِيلُ هذا الْوَعْدِ بِبَيَانٍ مُبَاشرٍ مِنْهُ جلَّ جَلَالُه فقال تعالى في سورة [فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول]:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

يَتَحدَّثُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بضمِير المتكلّم العظيم الَّذي هو على كلِّ شيء شَهِيد، لَا تَخفَىٰ عَليْهِ ذَرَّةٌ وَلَا أَصْغَرُ في كُلّ الوجُود.

وآياتهُ في الآفاقِ وفي الأَنْفُسِ هِيَ الْعَجائب الكونيَّة الدَّالَّةُ على صِفاتِ رُبُوبيَّته، الدّالّات على وحدانيّتِهِ في رُبوبيّته وفي آلهيَّته.

وكشْفُ هذهِ الآيَاتِ يُرَادُ بِهِ بيَان مطابَقَةِ واقِعِها لِمَا جَاءَ فِي القرآنِ عَنْها، حتَّىٰ يَتَبَيَّن للناس أنَّ القرآنَ حقٌّ مُنزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دَلَّ علَىٰ هٰذا المراد عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي: والَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ شيءٍ، كبيراً كَانَ أَمْ صَغِيراً، وَشَهِيدٌ شُهوداً تامّاً لَهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا خبراً مُطَابِقاً لواقِعِ حالِه، وهذا يَدُلُّ على أنَّ القرآن تنزيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، وأَنَّهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيه.

الآفاق: هي الأبعاد الْعُلْيَا المحِيطَةُ بالأَرْض.

الشَّهِيدُ: هُو الحاضِرُ الَّذِي يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ حَضَرَه.

العنصُرُ الثالث: بَيَانُ أنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعِبَادِ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

أي: هُمْ مَجْزِيُّونَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ الإِرَادِيَّة، ومِنْ لَازِم قَانُونِ الجزاءِ عِلْمُ اللَّهِ الشَّامِلِ بما يَعْمَلُونَ، ومِنْ مُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ الشَّامِلِ أَنْ لَا يَغْفُلَ عَنِ شيءٍ ممَّا يَعْمَلُونَ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ أَعْمَالِ الجوارح الظاهرة، أَمْ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ والنُّفوس.

فجاء التعبير التعليمي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] كِنَايَة عَن أنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بَعْدَ الحساب وفَصْل القضاء على أعْمَالهم، وكِنَايَةً عَنْ شُمُولِ عِلْمِهِ، بذِكْرِ لازم من لوازم شُمُولِ عِلْم اللَّهِ ، وهو أنَّه سبحانه لا يَتَعَرَّضُ لِغَفْلَةٍ ما عن مُشَاهَدَةِ عباده الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، مع شُهُودِه جلّ جلالُهُ لِكُلّ شيء في الكَوْنِ كُلّه.

وعبارة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ التَّعْلِيميَّة فيها الدلالَةُ علىٰ ما يلي:

أي: وَقُلْ لِمَنْ تُعَالِجُهُ مِن أفْرَادِ الْكافِرِينَ: وَمَا رَبُّكَ خالِقُكَ

والمتَصَرِّفُ بِكَ بصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أيُّها الكافِرونَ، أفْراداً وجَمَاعَاتٍ، وسَوْف يجازِيكم علَىٰ أعمالِكُمْ، ويُحْبِطُ مَا تُدَبِّرُونَهُ ضِدَّ رَسُولِهِ وكِتَابِهِ، والمؤمِنِينَ، ويَرُدُّ كَيْدَكُمْ إلى نُحُورِكم.

الباء في: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زِيدَ للتَّنْصِيصِ علَىٰ العُمومِ، أو تأْكيد عُموم النفي بحرف «مَا» كما يُقَرّر النحويُّون.

أمّا قراءة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فهي أيضاً تَعْلِيميَّة، وفيها الدَّلَالَةُ علَىٰ ما يلي:

أي: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِ الّذِي يَمَسُّهُ أذَىٰ الكافِرِينَ واضطّهادُهُم: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونِ، واعْلَمْ أنَّ اللَّهِ بِحكْمَتِهِ سَيَجْزِيهِم، وسَيَنْصُرُ رَسُولَهُ والْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَسَتَكُونُ لَكُمُ الدَّوْلَةُ والسُّلْطَان، إِذَا استَمْسَكْتُمْ بِدِينِه، واتَّبَعْتُمْ آياته، وأطَعْتُمْ أَوَامِرَهُ وَنواهِيَه.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس السَّابِعِ من دُرُوس سورة (النمل) وهو الدَّرْسُ الأخير مِنْها، وبه يَتِمُّ تَدَبُّر السورة.

والْحَمْدُ للَّهِ علَىٰ معونتِه وتَوْفيقهِ وفَتْحِه، إنَّهُ السَّمِيعُ المجيب الوهاب.

❀ ❀ ❀

ملاحق تدبّر سورة (النمل)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيَّة من السورة.

الملحق الثاني: تَعِلَّةُ المكذِّبين بِيَوْمِ الدِّين هي توجيه الاستفهام التعجبيّ.

الملحق الثالث: دراسة تكامليَّة للنُّصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد.

❀ ❀ ❀

(١١)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (النمل) نفائس بلاغيَّة كثيرة، استَخْرَجْتُ مِنْها ما جاء في هذا الملْحِق، وتُوجَدُ فيها نفائس أخرى من أنواعها تَركْتُ استخراجها للمهتمين بالتحرِّي عن الْبَلاغيات، وتوجد بلاغيَّاتٌ لَمْ أَهْتَدِ إلىٰ اسْتِخْرَاجِهَا، مُوقِناً بأنَّ القرآن مَشْحُونٌ بالكنُوز الدُّرِّيَّة مِنَ البلاغيات والفكريَّات، وأنَّها سَتُكْتَشَفُ بتَوْفيق اللهِ وفَتْحِهِ من قِبَلِ مَنْ يُقَيِّضُهُمُ الله عزّ وجلّ لِذَلِك.

أوّلاً

من الفنون البلاغيّة استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه الْبَعيد، في الإشارة إلى الْمُشَار إِلَيْهِ القريب، للدَّلاَلَة على بُعْدِ مَنْزِلَتِه ارْتِفَاعاً وسُمُوّاً، أو للدَّلاَلَة على بُعْدِ دَركَتِهِ انخفاضاً وَانْحِطَاطاً وتَسَفُّلاً.

(١) قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾:

في هٰذه العبارة جاءت الإشارة إلى آيات القرآن القريبة، المقدّمَةِ للتلاوة، والموجُودَةِ في أذْهان الحفَّاظ، ومكتوبات المسلمين، باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع للمشارة إليها البعيدة، للدّلاَلَة بهٰذَا الإجراء على بُعْد منزلَتِها ارتفاعاً وسُمُوّاً، في معانيها، وفي مبانيها، وفي تأْثيراتِهَا الرَّبَّانيَّة، بما جعل اللهُ عزَّ وجلَّ لَهَا من تأثيراتِ عجيباتٍ بتَقْدِيرِهِ وقضائه.

(٢) وقَوْل اللهُ عزَّ وجلّ بشأن الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ أشِيرَ إلى الّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، الذين جاء الحديث عَنْهُمْ قَبْلَها، باسْم الإشارة الموضوع للمشارِ إليهم البَعِيدين، مع قُرْبِ الحديث عنهم، للدَّلَالَةِ بِهٰذَا الإجْراء على بُعْدِ دَرَكَاتِهِمْ انْحِطَاطاً ومَهَانَةً وخِسَّة، فَهُمْ ليْسُوا جَدِيرينَ بأنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهُمْ حَاضِرينَ قَرِيبين.

ثانياً

ومن الفنون البلاغيّة توْكيدُ الْخَبَر بمؤكّد أو أكْثر، لأنَّ حَالَ المقْصُودين بإبْلاغِهِمْ إيّاهُ، سَوَاءٌ أكانوا المخاطَبِينَ بِهِ أمْ غَيْرَهم، مِمَّنْ يُرَادُ إعلامُهُمْ بأسْلُوبِ غَيْرِ مباشر، تَقْتَضِي تَوْكيد الْخَبَرِ لهم، إذْ هُمْ مُنْكِرُونَ أَوْ شاكُّون، أو بَيْنَ بَيْن.

وفي سورة (النّملْ) أمْثِلَةٌ كثيرة، ألْفِتُ النَّظَرَ إلىٰ بَعْضِها:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ توكيد الخبر بمؤكدَين: «إنَّ ـ الجملة الاسميّة».

وهذا التوكيد يَصْلُحُ لأنْ يُوَجَّهَ لِبَعْضِ المؤمِنِين، والمعنيُّون الأوّلُونَ بأنْ يُؤَكَّدَ لهم الخبر هُمُ الّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ أنْفُسُهُم، وقَدْ أُبْلِغُوا الْخَبَرَ المؤكَّد بأسْلُوبِ غَيْرِ مباشِرِ، لَمْ يُواجَهُوا به.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾:

في هذه الآية توكيد الخبر بِضَمِير الْفَصْل في: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. والتوكيد هنا نظير سابقِهِ.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾:

في هذه الآية تَوْكيد الخبر بـ «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزحلقة». وهذا التوكيد مُوَجَّهٌ في الظاهر للرسُول ﷺ، والْمَقْصُودُونَ بِهِ مُكَذِّبُوهُ، والمكَذِّبُونَ بِأَنّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ عليم.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في الحديث عن سليمان عليه السلام:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾:

في هذا القول الذي قالَهُ سليمان عليه السّلام التوكيد بالْقَسَمِ المنْوِيّ، وباللّام الواقِعَة في جوابه، وبنُونِ التوكيد الثقيلة، في المواضع الثلاثة.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ حكَايَةً لِمَا أنْطَقَ بِه الْهُدْهُد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾:

أكّدَ الْهُدْهُدُ بتوكيد دَلّ عليه: «إنّ ـ والجملة الاسمية».

والداعي لهذا التوكيد، أنَّ الْهُدْهُدَ في مَوقف المحاسبة له عَلَىٰ تغيُّبِهِ بِغَيْرِ أَمْرٍ أَوْ إِذْنٍ له. مِنْ سَيِّدِهِ سليمان عليه السلام.

(٦) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول «بِلْقِيس» مَلِكَةِ «سَبأ»:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾:

وحكاية لقولها:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾:

في هذه الآيات توكيد الأخبار في عِدَّة مواضع بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» وهي: [إِنِّي أُلْقِيَ ـ إِنَّهُ مِنْ سليمان ـ وإِنَّهُ بِسْمِ الله ـ إِنَّ الْمُلُوكَ ـ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ».

والداعي لهذه التوكيدات إقناع المَلِكة «بِلْقِيس» رِجال دَوْلتها بأنّ الحكمة تقتضي عَدَم اللُّجوء إلى قتال سليمان، بَعْدَ قَوْلهم لها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ معلنين بهذا اسْتِعْدَادَهُمْ لِلْقِتَال.

(٧) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقَوْلِ العفريتِ من الجنّ بشأن عَرْش بلْقِيس:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾:

فأكَّد العفريت عبارته بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللّام المزحْلَقة». والداعي شعورُه بأنّ سُلَيْمانَ يَشُكُّ في قُدْرَتِهِ وفي أمانَتِه على عَرْش الملكة «بِلْقِيسَ» العظيم بحَجمْهِ وجواهِرِه.

(٨) قول الله عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ سليمان عليه السلام، حِينَ رأى عَرْش «بِلْقِيسَ» مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيهِ طَرْفُهُ:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

جاءَ في هذا النّصّ التّوْكيدُ بـ «إنّما» الحاصرة في عبارة: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾. والتوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» في عبارة ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

والتوكيد فيهما مُوجَّهٌ للْجَاهِلين الّذين يَشُكُّون، أو لم يَثْبُتْ بَعْدُ لَدَيهم مَا فيهما من حقائق إيمانيّة.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قِصَّةِ «بِلْقِيسَ» ودَعْوَتها لِدُخُول صَرْح «سليمان» عَلَيْهِ السَّلام:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

في عبارة «سليمانَ» عليه السّلام: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ التوكيد بـ «إنّ - والْجُمْلَة الاسمية» وأرى أن التصريح بقوله: [صَرْحٌ] بِقُوَّة التوكيد بضمير الفصل، إذْ كَانَ يَكْفِي أن يَقُولَ: إنَّهُ مُمَرَّدٌ مِنْ قوارير، والداعي رفْعُ تَوَهُّمِها أنَّها تَخوض في ماء.

وفي عبارة «بِلْقيس»: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...﴾ التوكيد بـ «إنَّ - والجملة الاسميَّة».

والداعي لتوكيدها إثباتُ صِدْق إيمانها وإسْلامِها، بَعْدَ أنْ كانت كافرةً من قومٍ كافِرين يَسْجُدُونَ للشَّمْس، فمثْلُ هذا التحوّل يحتاج توكيداً.

(١٠) وقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله، والمقصُودُون بالتوكيد فيه الّذين يَحْسُنُ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ لهم من الناس مُسْلِمينَ أمْ غَيْرَ مُسْلِمينَ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

في كلّ آيةٍ من هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَوْكِيدُ الْخَبَرَ الذي اشتمَلَتْ عَلَيْهِ بـ «إنّ - والجملة الاسميّة - واللّام المزَحْلَقَةُ إِلَىٰ الخبر».

(١١) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

في الآية (٧٦) تَوْكِيدُ خَبَرِها بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية».

وفي الآية (٧٧) تَوْكيدُ خَبَرِها بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقة».

والتوكيد فيهما يُقْصَدُ بِهِ مطابقة الكَلَام لما يُلائِمُ أحْوال الكافِرِين، والشّاكين، والّذِين هُمْ بَيْنَ بَيْن.

إلى غير ما سَبَق من أمْثِلَةٍ في السورة.

ثالثاً

ومن الفنون البلاغيّة الإيجاز بالحذف، ونَجِدُ مِنْه في سورة (النَّمْل) ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾:

أي: إنّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالأنباء المتَتَابعة عَن الآخِرَة بَعْدَ البعث للحساب وفَصْلِ الْقَضَاءِ وتنفيذِ الجزاء معانِدِين ومُكابرين بإراداتٍ حُرَّةٍ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الجائِرَةَ الْجَانِحَةَ عَنِ الصِّراطِ المسْتَقِيم، بمُقْتَضَىٰ سُنَنِنَا الْعَامَّةِ الّتِي تَجْرِي عَلَىٰ الْبَرِّ والفاجر، فَرَأَوْهَا حَسَنَةً جَالِبَةً لَهُمْ لَذَّاتٍ مِنْ مَتاعِ الحياة الدُّنيا، فانْطَمَسَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الْعِنَادِيّ بالآخِرَة بَصَائِرُهم ﴿فَهُمْ﴾ في سَعْيهمْ في حَيَاتِهِم الدُّنيا ﴿يَعْمَهُونَ﴾ متحيِّرين مُتَخَبِّطينَ سَائِرِين عَلَىٰ غَيْر هُدىً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في بيان لَقَطَاتٍ من قِصَّة مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾:

أي: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فَأَنا ذَاهِبٌ إِلَىٰ جِهَتِهَا حَتَّى أَصِلَ إِلَىٰ مَا حَوْلها، وَسَائِلٌ أَهْلَهَا عَنْ أَخْبَارِ الطَّرِيق إلى مِصْر، وَأَرْجُو أَنّي ﴿سَآتِيكُم مِّنْ﴾ أَهْلِ ﴿هَا بِخَبَرٍ﴾ يَهْدِيني الطَّرِيق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ مِنَ النَّارِ ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ لِرَسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: قل يا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أُمِرْت، وقد جاء التصريح بفِعلْ «قُلْ» في الآيَتَيْن التالِيَتَيْن (٩٢ و٩٣).

رابعاً

ومن الفنون البلاغيّة في السورة حَدِيث الله عزّ وجلّ عن نَفْسِه بضَمِير المتكلّم المفرد في مواضع لداعٍ بَلاغيّ.

وحَدِيثُهُ عن نَفْسِه بِضَمير المتكِلّم العظيم في مواضع أُخرَىٰ لداعٍ بلاغيٍّ آخر.

• فمِنْ حَدِيثه عن نفسه بضَمِير المتكلّم المفرد لغَرَضِ الإيناسِ، أو التلطُّفِ والترفق بعباده، ما يلي:

(١) قول اللهِ عزّ وجلّ يخاطب موسَىٰ عليه السَّلام:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

(٢) وقوله لَهُ أيضاً:

﴿... إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(٣) وقولُهُ عزّ وجلّ:

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

• ومن حَدِيثه عَنْ نَفْسه جلّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابة، وبيان جلَالِ الرُّبُوبيّة، وعظمة صفات الرَّب وأَفْعَالِهِ الجسَام، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ عَن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾:

فقال تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ بضَمِير المتكلّم العظيم، إذْ كانت آيات عظيمات تَدُلُّ عظمة الرُّبُوبيّة، وسُلْطانِ الرَّب الذي يفعل ما يشاء.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا... ﴿١٥﴾﴾.

(٣) وقوله عزّ وجلّ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا... ﴿٤٥﴾﴾.

(٤) وقولُه عزّ وجلّ بِشَأْنِ قَوْم ثَمُود:

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

(٥) وقولُه عزّ وجلّ بشأنِ لُوطٍ عليه السَّلام وأَهْلِهِ وقومه:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

ففي هَٰذِهِ النُّصوص استعمال ضَمِير المتكلم العظيم في: [آتَيْنا -

أَرْسَلْنَا ـ وَمَكَرْنَا ـ أَنَّا دَمَّرْنَاهم ـ وأنْجَيْنَا ـ فَأَنْجَيْنَاه ـ قَدَّرْنَاها ـ وأَمْطَرْنا].

ونظائرها في الآيات «٦٠ و٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٦».

خامساً

ومن اللّطائف البلاغيّة في تحرّي الدقّة، استعمالُ الْفِعْلِ الماضِي الْمَبْنِي لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، فِي حِكايةِ حَدَثٍ جَرَىٰ، لِأَنَّهُ الْمُلَائِمُ لِوَاقِعِ حَال مَنْ جَرَى لَهُ الْحَدث الّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الفاعِلَ حينئذٍ.

ومِنْه في السُّورة لدَىٰ الحديث عن موسَىٰ عليه السَّلام، إذْ جاء إلى النّار الَّتِي آنَسَهَا عَنْ بُعْدٍ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾:

إنّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ لَمَّا سَمِعَ صَوْتاً ينادِيهِ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنِ الَّذِي كانَ يُنَادِيه، فكانَ مِنَ الملائِمِ أَنْ يُقَالَ: ﴿نُودِيَ﴾ لَا أَنْ يُقَالَ: فَنَادَاهُ الله.

وبَعْدَ جُمْلَتَيْنِ أَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ أَنَّهُ هُو الّذِي يُكَلِّمُه. وهَٰذَا مِنَ الدِّقَّةِ التَّامَةِ فِي وَضْعِ صِيَغِ الألْفَاظِ في مَوَاضِعِها.

سادساً

ومن الفنون البلاغيّة الَّتِي عَلَّمَنَا الْقُرآنُ حُسْنَ اسْتِخْدَامِهَا، فَنُّ اسْتِقْطَاعِ النَّصِّ مِنَ الْحَدَثِ الّذِي كَانَ فِي الماضِي، أو سَوْف يَجْرِي في المسْتَقْبل، وَتَقْدِيمهُ في البيان كَمَا لَوْ كَانَ يَجْرِي فِي الحاضِرِ.

ومِنْه في السُّورَة في مَعْرِضِ خِطَابِ اللهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

جاءت عبارة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ حَتَّىٰ آخِرَ الآيَةِ مُسْتَقْطَعَةً مِنْ حَدَثٍ جَرَىٰ في الماضي، مُرَاعَاةً لفَنِّيَّة الاسْتِقْطَاعِ الْبَدِيعِ.

ولَا أرى في هذا وَأَمْثَالِهِ تقدير نحو: فناداه الله. أو فقال الله له. لأنّ مِثْلَ هَٰذَا التقدير يُضْعِفُ مِنْ جَمَالِ فَنِّيَّةِ الاسْتِقْطَاعِ، ويَقْصُرُ البيانَ على مجرّد الإيجاز بالحذف.

سابعاً

(١) من الزيادات الإطنابيّة المفيدَة طريقة الاحتراس، وتكُونُ بزيادة إطنابيَّةٍ يَدْفَعُ بِها المتكلّم إيهاماً اشتمَل عَلَيْه كَلامُه، ومِنْهَا في السُّورة ما يلي:

قولُ اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴿١٢﴾﴾.

إنَّ عبارة: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ تُوهِمُ أَنَّ بيَاضَهَا رُبَّمَا كَانَ عَنْ بَرَص، فجاءت عبارة: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تَكْميلاً احْتِرَاسِيًّا لِدَفْع هَٰذا الإيهام.

(٢) ومِنَ الزيادات الإطنابيَّة الْمُفِيدةِ التَّصْرِيحُ بِمَا هُوَ مَفْهُومٌ من العبارة السَّابِقَةِ له، لِغَرَضِ التوكيد، ودَفْعِ تَوَهُّمِ غَيْرِ المراد، ومنها في السورة ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ بشأن فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ مِنْ قومه عن الآيات الباهرات الّتي أجراها لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . . . ﴿١٤﴾﴾:

الجُحُود: إنْكَارُ أَنَّ الشَّيْء حَقٌّ مع الْعِلْمِ بأَنَّهُ حَقٌّ، ومَعَ اسْتِيقَانِ النَّفْسِ بِهِ.

وفرعَوْنُ وعِلْيَةُ قَوْمِهِ قد جَحَدُوا بالآياتِ التِّسْعِ الّتي جاء بِهَا مُوسَىٰ عليه السَّلام، والّتي أنزلَتْ بالمصْرِيين مصائب مُتَعَدِّدَة، وكانوا يَرْجِعُونَ إلى مُوسَىٰ كي يَدْعُوَ رَبَّهُ أن يَرْفع عَنْهم ما أنْزَلَ بهم، ويَعِدُونَ بأنْ يَسْتَجِيبوا لدعوته، ثُمَّ يَنْكُثون.

لَكِنَّ فِرْعون ومَنْ مَعَهُ جَحَدُوا كَوْنَهَا آياتٍ مِن اللهِ عزّ وجلّ، مع اسْتيقانِهِمْ بأنّها من رَبّ العالَمين.

عِبَارَة: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كانُوا على عِلْمٍ بأنَّها آياتٌ حَقٌّ من الله.

وجاءت عبارة: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ إطناباً مُفِيداً، فيه تَوْكيد عِلْمِهِمْ المفْهُومِ مِنْ جُحُودِهم، وفيه دَفْعُ تَوَهُّم أنَّ جُحُودَهُمْ لَمْ يَكُنْ مَصْحُوباً بِيَقِينٍ كَامِلٍ مُخَالِفٍ لما أَعْلَنُوه صراحة بأَلْسِنَتِهِمْ.

وفي هذه العبارة إشارةٌ بِصيغَةِ الجمع ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ الَّتي هِي من صِيَغ جُمُوعِ القلّة إلىٰ أنَّ جماهِيرَ الأتْبَاعِ كَانُوا مُقَلِّدِينَ لِفِرْعَوْن وَمَلَئِه، وأنَّ المستَيْقِنِينَ كانُوا فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا دُونَ العشرة.

ثامناً

من الفنون البلاغية اختيار التنكير لداعٍ بلاغي، كالتكثير، والتعظيم، والتقليل، والتخصيص بنوع من أنواع المنكّر، وجاء في السُّورة من هذا الفنّ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا . . . ﴿١٥﴾﴾.

جاء لفظ ﴿عِلْمًا﴾ مُنَكَّراً للدَّلَالَة على أنّ اللهَ آتاهُما نَوْعاً خَاصّاً مِن الْعِلْم فضّلَهُما اللهُ به على سائر عباده، ومِنْهُ عِلْمُ مَنْطِقِ الطَّيْر.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ بِشَأْن أَشْقِياء قوم صالح عليه السَّلام:

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾:

أي: وَمَكَرُوا مَكْراً خَفيّاً مُحْكَمَ التَّدْبير لِقَتْلِ رَسُولنا صَالِحٍ وأَهْلِهِ. وَمَكَرْنَا مَكْراً يَسِيراً مُحْكَمَ التَّوْقِيت، فَعَاجَلْنَاهُمْ بِتَنْفِيذ مَكْرِنا، فَدَمَّرْنَاهم وَقَوْمَهم أَجْمَعِين، كما جاء في الآية (٥١).

تاسعاً

من المحسّنات اللفظيّة الجميلة بَدِيعيَّةُ الجناس. ومن أنواعه ما يُسَمَّى «الجِناسَ المزْدَوج» أو «الجناس المكرّر» أو «الجناسَ الْمُرَدَّد» وهو أَنْ يَلِيَ أَحد الْمُتَجَانِسَيْنِ الآخر.

وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ كما ذَكر عُلَمَاءُ الْبلاغَة، قَولُ الله عزّ وجلّ حِكَاية لما قَالَهُ الْهُدْهُدُ لِسُلَيْمانَ عليه السَّلام.

﴿... وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾.

وهذا مِن الإغراق في التَّقْسِيمات عِنْدَ الْبَلاغيين، وهو في الحقيقة من الجناس الناقص.

عاشراً

من الدّواعي البلاغية القصر، ونَجِدُ مِنْهُ في السُّورَةِ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لما قاله سليمان عليه السَّلام:

﴿... وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾:

أي: ومَنْ شَكَرَ رَبَّهُ عَلَىٰ ما أَوْلاَه من نِعْمَةٍ فإِنَّه لَا يَشْكُرُ إلّا لمصلحة نَفْسه، إذ هو بشُكْرِه لا يَنْفَعُ رَبَّهُ بشَيءٍ ما، ومَنْ كفر فعصَىٰ رَبَّهُ فإنه لا يضُرَّ رَبَّهُ بشيءٍ، إذْ هُوَ غَنِيٌّ كَرِيم.

والأداة في هذا القصر «إنَّما» وهو قُصْر حقيقي، من قبيل قَصْرِ صِفَةِ نَفْعِ الشَّاكِرِ لِرَبِّه على نَفْسِهِ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾:

أي: اللهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُو، وهو قَصْرٌ حَقِيقي، من قبيلِ قَصْرِ صِفَةِ الإِلَهِيَّة الحقِّ على الله رَبّ العرش العظيم، لا يُشَارِكُهُ فيها أحد.

والأداة المستعملة في هذا القصر النَّفْي والاستثناء.

(٣) وَقَوْل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾:

أي: وما تُوجَدُ غائِبَةٌ مَا عَنْ أَحَدٍ من خَلْقِ الله فِي السَّمَاءِ والأرض إِلَّا هي مَعْلُومَةٌ للهِ وَمُدَوَّنَةٌ فِي كتاب، وقَدْ عَلِمْنَا مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ أَنَّهُ اللَّوْحُ المحفوظ.

أداة القصر هنا: النفي والاستثناء.

والقصر هُنَا هُو مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ مَوْصُوف هو كُلُّ غائِبة، على صِفَةِ أَنَّهُ معلومٌ لله ومُدَوَّنٌ عنْدَهُ في كِتاب.

وهو قَصْرٌ إِضَافِيّ، أي: بالإضافَة إِلَىٰ كَونه غَيْرَ مَعْلُومٍ وَلَا مُدَوَّن، وهو يرّد اعتقاد غير المؤمنين بهٰذِهِ الحقيقة.

حَادِي عشر

ومن الفنون البلاغية إخراج الاستفهام عن طَلَب الإفهام إلى مَعَانٍ أُخْرَى كثيرة.

منه في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾؟؟:

يُرادُ بالاستفهامَيْن اللَّذَيْنِ وَجَّهَهُما لوط عليه السَّلامُ لقومِهِ أهلِ سَدُوم، الإنْكَارُ والتشنيع عَلَيْهم، وتوبيخُهُمْ، والتعجيبُ مِنْ غُلُوِّهِمّ في ارْتِكاب الْفَوَاحِشِ الشَّاذّة.

(٢) وقول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ في الآيات (٦٠، و٦١، و٦٢، و٦٣، و٦٤).

ويُرَادُ بالاسْتِفْهام هُنَا التَّنْبِيهُ الشَّدِيد على الحقّ الجليّ، والإنكارُ على المشركين، والتعجيب من اتّخاذِهم آلِهَةً من دون الله عزّ وجلّ، إذ لا أحد من دون اللهِ يَمْلِكُ شيئاً من الرُّبوبيّة، حتَّىٰ يسْتَحِقَّ بِها إِلَٰهِيَّةً ما.

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟؟.

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾؟: استفهامٌ تَوبيخيٌّ تَقْرِيعي، وفيه مَعْنَىٰ إدانَتِهِمْ بِجَرِيمتهم العظمَىٰ.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟: استفهام توبيخيٌّ تَقْريعي، بسبب ما كانوا يَعْمَلُونَ من جَرَائِم وقبائح، ناتجَة عن تكْذِيبهِمْ بآيَاتِ رَبِّهم المنزّلات.

وأكتفي بهذه المستخرجات في هذا الملْحق والحمْدُ لله علىٰ تَوْفيقه وفتحه ومعونته.

❀ ❀ ❀

(١٢)

الملحق الثاني

تَعِلّةُ المكذبين بيوم الدّين هي توجيه الاستفهام التعجُّبِيّ

لم يكن لدى الكافرين المكذبين بِيَوْمِ الدّين طَوالَ المرحَلَةِ المكيّة، وحتى المرحلة المدنيّة، من مَسِيرَة الرَّسُولِ الدَّعَوِيّة، من تَعِلَّةٍ يَتَذَرَّعُونَ بها غَيْرَ تَوْجِيه الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي من الإحياء بَعْدَ الْمَوْت، عَلَىٰ الرَّغْم من الحجج البرهانيَّة الدَّامِغَةِ، إذْ كانت الآيات القِرآنيَّةُ تَكْشِفُ لَهُمْ أنَّ إِنْشَاءَ الأحياء في الخلْقِ الأوّل، مع أنَّهَا لَمْ تَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً، دَلِيلٌ بُرْهَانِيٌّ على قُدْرَةِ الخالِقِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعظم سلطانُه ـ علَىٰ أنَّهُ قادِرٌ عَلَىٰ إعَادَتِها إلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ إِمَاتَتِهَا.

ولَدَيْنا في القرآن المجيد عشَرَة نُصُوصٍ تَنَزَّلَت فِي مَرَاحِلَ من نُجُومِ التَّنْزِيل في سَبْعِ سُور، وهذه النصوص موزعَةٌ على مَراحل التنزيل المكيّ، باستثناء نَصٍّ واحد منها نزل في سورة (الرَّعْد) وهِيَ من أواسط التنزيل المدني، على خلاف في كونها مدنيّة التنزيل.

النص الأول

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بشأن المعاندين المكابرين من كفّار مكَّة إبَّان تنزيل السورة:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾؟؟!

فأنْكَرُوا كوْنَ مُحمّد ﷺ رسُولاً من رَبِّهِ مُسْتَنِدِين إلَىٰ مُجَرَّدِ التَّعَجُّب مِنْ أَنْ يأتِيهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ مِنهم.

وأنْكَرُوا يَوْمَ الدِّين مُسْتَنِدِين إلى مُجَرَّد التَّعَجُّب من إحْياءِ الموتَىٰ بَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا تراباً، مُتَعامِينَ عَنْ آيَةِ اللهِ السَّابقةِ والدّائمةِ، الّتِي يُنْشِىء بها

الأحْيَاءَ في النَّشْأَةِ الأولى مِنْ ماء وتراب، ضِمْنَ أطوار سَبَبِيَّةٍ يتِمُّ بِهَا إنْشَاءُ الأحْيَاء بتقدير الله وقضائه.

والإعادة في مَفْهُومَاتِ الناسِ أهْوَنُ من الإبداعِ والإنْشاءِ دُون مِثَالٍ سبق.

ومن الْبَدَهِيّ أنَّ التّعَجُّبَ مِنْ شَيْءٍ لا يَصِحُّ في مَوَازِين الْعُقُولِ السَّوِيَّةِ أنْ يَكُونَ دَلِيلَ نفْيٍ للشَّيْءِ المتعجَّبِ مِنْه.

لَكِنَّ التَّعَجُّبَ قَدْ يُتَّخذُ أُسْلوباً بيانيًّا لإنْكَارِ المتَعَجَّب منه، ثُمَّ إنَّ هَـٰذَا الإنكار يحتاجُ إلى دَلِيلٍ صَحِيح يُقَدَّمَ بَعْدَ إعلان الإنكار بأسْلُوبِ التعجُّب، لِقَبُولِ إنكار المنكر، أمَّا أنْ يَقْتَصِر على أنْ يُعْلِنَ تَعَجُّبَه، فهذا هو الأمْرُ الّذِي يَتَعَجَّبُ مِنْه العقلاء حقًّا.

النصّ الثاني

نَصٌّ جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن بَعْضِ كبراء مُشْرِكي مَكَّة إذْ جَاءَ إلى الرسُول ﷺ وفي يَدِه عَظْمٌ رَمِيمٌ (= بالٍ) وهُوَ يَفُتُّهُ وَيَذْرُوهُ في الهواء، وهو يقول: يَا مُحمَّد، أتَزْعُمُ أنَّ الله يَبْعَثُ هٰذا؟!

قال ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إلىٰ النار».

فأنزل الله عزّ وجلّ قَوْله:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

فدَلَّ هذا النصّ على أنَّ المخاصم بشأن البعث إلى يوم الدّين الجاحِدَ، له لم تَكُنْ لَدَيه تَعِلَّةٌ يَحْتَجُّ بها للإنكار غَيْرَ التَّعَجُّب، إذْ قال

مُسْتَفْهِماً استفهام تَعَجّبٍ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؟! أي: وهِيَ بَالِيَةٌ تَذْرُو الرِّيَاحُ مَا يَتَفَتَّتُ منها.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُجِيبَهُ قائلاً: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: إنَّ الَّذِي أَنْشَأَ الْعِظَامَ فِي المرّة الأولىٰ، وكساها لحماً، وصَوَّرَ الإنْسَانَ في رَحِم أُمّهِ بأحْسَنِ صُورَة، ونَفَخَ فيه الرُّوحَ فَكَانَ حَيّاً، والَّذِي هُوَ بكُلّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلِيمٌ بِهِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَه، إذ الخلقُ مَسْبُوقٌ بِقَدَر اللهِ وقضائِهِ، وعَلِيمٌ بِه حِينَ خَلَقَهُ علىٰ وفْقِ خَرِيطَةِ تكوينِهِ، وعَلِيمٌ بِهِ بَعْدَ أنْ خَلَقَهُ، وعَلِيمٌ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أنْ أماتَهُ وأفْنَاهُ، هُو نَفْسُهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ القدِيرُ على إعَادَةِ الْخَلْقِ، والإحياء بَعْدَ الإمَاتَة والفناء، مَرَّةً ثانِيَةً، وثالِثَةً، ثُمَّ إلى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ مَرَّاتٍ، لَوْ شَاءَ بِحِكْمَتِهِ أن يُمِيتَ ويُحْيِيَ مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ لَا حَصْرَ لها.

ومَا تَضمنتْهُ هٰذه الإجابَةُ ذَاتُ بُرْهَانٍ عَقْلِيّ لا رَدَّ لَه.

النصّ الثالث

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن أصحاب الشّمال وهُمْ يُعَذّبون في النار يوم الدّين، لترهيب المكذبين وهم مَا زَالُوا في رِحْلَة امتحانِهم في الحياة الدّنيا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾:

فَدَلَّ هٰذا النصّ على أنَّ الكافِرِينَ بعِنَادٍ وجحود، مَا زَالُوا حتّىٰ وقت نُزولِ سورة (الواقعة) مُصِرّين على تكذيبِهِمْ بِيَوْم الدّين، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ

تَعِلَّةٌ يُحْتَجُّونَ بها للإنكار غَيْر التَّعجُّبِ والاستغراب، ولم تَتَفَتَّقْ أَذْهَانُهُمْ عَنْ شيءٍ جَدِيد يُضِيفُونَهُ إليها، إلّا أن يَذْكُروا آباءَهُمُ الأَوَّلِين، قائِلين: ﴿... أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

لهذا كَانَ مِنَ الحِكْمة في العِلَاج تَوْجِيه الْبَيَانِ الْخَبَرِيّ، المتضمِّن أَنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ، وَسَيُجْمَعُونَ، وَيُسَاقُون إلى شُهُودِ أَحْدَاثِ ميقاتٍ مَعْلُوم، يَكُونُ فِيه حِسَابُهُمْ، وفَصْلُ الْقَضَاء بشَأنهم، ثُمَّ تَنْفِيذُ الْجَزَاءِ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ فِي تَعْلِيمِ رَسُولِهِ فكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يُجِيبُهُمْ بِهِ:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

فهذا الجواب مع شرحٍ وتَفْصِيلٍ لَهُ، هُو الملائمُ لِحَالِ إِنْكارهم الجحوديّ العنادي، الَّذِي لَم يُضِيفُوا فِيه شَيْئاً على توجيه التَّعَجُّبِ والاسْتِغراب الّذي كان مِنْهُمْ أَوّلَ مَرَّة.

النصّ الرابع

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

فَدَلّ هذا النصُّ من سورة (النمل) على أنّ الْكَافِرين بعناد وجحود، ما زالُوا حتّىٰ نُزُول هٰذه السُّورَة مُصِرِّين على تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْم الدِّينِ، وعلَىٰ أَنَّهُم لَمْ تتفتّق أذهَانُهُمْ عَن شيءٍ يُضِيفُونه إلى عبارات التَّعَجُّب والاسْتِغْراب، الَّتي كانت تَعِلَّتَهُمْ، إلّا أنْ يَقُولُوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

وهٰذه الإضَافَة الَّتِي أضافُوها تَنْقَسِمُ إِلىٰ قِسْمَيْن:

المقولَةُ الأولى: يُثْبِتُونَ بِهَا أَنَّ الأنبياءَ والرُّسُلَ السَّابِقِينَ، كَانُوا يُنْذِرُونَ أَقْوَامَهُمْ بِيومِ الدين، وبِالْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء فيه، وقَدْ مرَّتِ القُرُونُ العديدة والمدِيدَة، دُونَ أن يأتي يَوْمُ البعث هٰذا، دَل على هذه المقولة: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾.

وفِي هٰذه المقولَة إدانَةٌ لَهُمْ بأنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ لم يأتِهِمْ بجديدٍ عَنْ بَعْثِهِمْ وَبَعْثِ النَّاسِ جميعاً إلى يوم الدّين، فقد أنْبَأَ بِهِ باعترافِهِم الرُّسُلُ الأوّلُون، وَمَا كَانَ يَلِيقُ بِهم أَنْ يُعْلِنُوا تَعَجُّبَهُمْ واستغرابَهُمْ.

المقُولَةُ الثَّانِيَة: يَدَّعُونَ بِهَا أنّ نَبأ الْبَعْثِ من أَسَاطير الأوّلين، أي: مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ وَخُرَافَاتِهم.

ولمّا تضمَّنَتْ هٰذه المقولَةُ إنكارهم الجزاء الرَّبَّانِيَّ، كَانَ من الحكْمَةِ في التعليم الْعِلَاجيّ تقديمُ دَلِيلٍ واقِعِيٍّ ذي آثارٍ بَاقِيَةٍ في مساكِن وقُرَىٰ المهْلَكِينَ الأوّلِين الْمُجْرِمِين، الّذِين كَفَروا بِرُسل رَبّهم. وأنكرُوا ما أنْذَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، فقال الله عزّ وجلّ لِرَسُوله فَلِكُلّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّية مُعَلّماً:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

ومعلومٌ أنّ البرهان الواقِعِيَّ ذَا الآثار الباقية هو من أقْوىٰ الأدلة على إثباتِ المدّعَىٰ وإبْطالِ نقيضه.

النصّ الخامس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

ما زالَ المعْنِيُّونَ بالمعالَجة من أئِمَّة مُشْرِكي مَكَّةَ عِنْدَ مَوْقِفِهِم الاسْتِغْرَابِيِّ التّعجُّبِيّ بِالنِّسْبَةِ إلى قضيَّةِ البَعْثِ إلى الحياة الأخرى، فلا يَجِدُونَ إلَّا أَنْ يُطْلِقُوا الاسْتِفْهَامَ التَّعَجُّبِيَّ، دُونَ أنْ يُضِيفُوا إشْكالاً أو اعْتِراضاً، حَتَّىٰ يُعَالجَ بما يُلائِمُهُ وَيَدْفَعُهُ، ويَكْشِفُ سُقُوطَهُ بدَليلٍ بُرْهَانِيٍّ، وَقَدْ سَبَقَ في نجوم التنزيل بيان سُقُوطِ هذا الاسْتِنْكَارِ التعجُّبيِّ عدَّةَ مَرَّاتٍ، بأَنَّ الْخَالِقَ الّذِي خَلَقَهُمْ في المرَّةِ الأولَىٰ هُوَ الّذِي وضَعَ في خُطَّتِهِ أنْ يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وشُرُوط الحياة الأخرى، ويَبْعَثُ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ الحياة، للحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتنفيذ الجزاء، فأهْلُ الْجَنَّة يكونون خالدين فيها، وأصحاب النار الكافِرُونَ المجرمُون يكُونُون خالِدِين فيها.

فعبارَتُهُمْ: ﴿...أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ هي تكريرٌ في المعْنَى لمَا سَبَقَ أنْ قالُوهُ بشَأْنِ هٰذا الموضوع.

الرُّفات: الْحُطام، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تكَسَّرَ وانْدَقَّ.

فجاء التعليم الرَّبانيُّ للرَّسُول ﷺ فلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ عزّ وجلّ مِنْ أمَّتِهِ، مشْتَمِلاً على شيءٍ من الحِدَّةِ والْعُنْفِ فِي الإجَابَة، إذْ لَمْ يَكْتَفُوا فِي الإجابَات السَّابِقَاتِ بنحو: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ من سورة (يس/٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

فجاء هُنَا فِي التعليم:

﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ ... ﴿٥١﴾﴾.

فطَرَكُمْ: أي: خَلَقَكُمْ ضِمْنَ نِظام الْفَطْرِ، وهو الشَّقُّ وَالْفَلْقُ، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِيَ الْعَدَمُ، وَاللهُ هُوَ الْمُوجِدُ مِنَ الْعَدَمِ.

المعنى: قُلْ لهم: إنَّ تَحَوُّلَ أَجْسَادِكُمْ إلَىٰ رُفَاتٍ مُنْبَثٍّ في تراب

الأرض لَا يُغَيِّرُ مِنْ حقيقة قُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ إعَادَتِكُمْ شيئاً، فقَدْ فطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّة ولم تكونوا شيئا مَذْكُوراً، أفَيَعْجزُ عَنْ إعادَتِكُمْ إلىٰ الحياة بَعْدَ أنْ يُمِيتَكُمْ، وَيُفرِقَ رُفاتَكُمْ في تراب الأَرْضِ، ضِمْنَ الممْكِنَاتِ العقلِيَّة.

وَأُبَيِّنُ لَكُمْ حَقِيقَةً هِيَ أكْثَرُ مِمَّا تُشَاهِدُونَ مِنْ تَفَرُّقِ رُفَاتِ الموتَىٰ في تُراب الأرض، وهِيَ أَنَّ هـٰذا الترابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بمُرُور الزَّمَنِ وعوامِلَ من الضغوط والحرارة، فيَكُونُ حِجَارَةً صُلْبَةً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيكُونُ حَديداً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فيكُونُ حِجارَةً كَرِيمَةً، كالزَّبَرْجَدِ، والياقوت، والزُّمُرُّدِ، والأَلْمَاسِ، ونحوها، فَهَـٰذِهِ حجارَةٌ لَهَا قِيمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي صُدُورِكُمْ.

فَسَيَقُولُونَ: إذَا تَحَوَّلَ رُفَاتُنَا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ حِجارةً كريمةً فَمَنْ يُعِيدُنَا إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ؟!

فقل لهم: يُعِيدُكُمْ إلَىٰ الحياة الّذِي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّة.

• ﴿... فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ...﴾: أي: فَسَيُحَرِّكُونَ، إلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالّاً على ثَبَاتِهِمْ عِنْدَ مَوْقِفِ المستَبْعِدِ المتعجّب المُنْكِر.

وإذْ لَا يَجِدُونَ تَعِلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِها غَيْرَ الإنْكارِ بأسْلُوبِ التّعَجُّب، فَإنَّهُمْ يَلْجَؤُونَ إلىٰ السؤال عن الوقْتِ الذي تكونُ فِيهِ الْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ، فجاءَ في النَّصّ:

• ﴿... وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ... ﴿٥١﴾﴾: أي: مَتَىٰ يكون هـذا الإحياء إلىٰ الآخِرَةِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتنْفِيذ الجزاء؟؟

• ﴿... قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾: أي أتَوَقَّعُ أنْ يَكُونَ قَرِيباً، وَهـٰذا الجوابُ يَحْتَمِلُ معنيَيْن:

المعنى الأول: تَوَقُّعُ قُرْب مَوْتِهِم، فإنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حَقَائِقُ الآخِرَة الّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بها وهُمْ في الحياة الدُّنيا.

المعنى الثاني: تَوَقُّعُ قُرْبِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا إنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وهُوَ قُرْبٌ نِسْبِيٌّ، يُقَاسُ على مَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِ الحياةِ الأولى.

على أنَّ النَّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ لِلْحياةِ الأُخرىٰ، لَا يُحِسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْث، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نُفُوسهم انْعِداماً تَامّاً، فَهُمْ يتصَوَّرُونَ حينَ الْبَعْثِ أَنَّهُمْ يَسْتَيْقِظُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نَامُوها في سَاعَةٍ مِنْ نهارٍ، وإحْسَاسُ مَيِّتِ أَوَّلِ النَّاسِ بالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَاثِلٌ لإحْسَاسِ مَيِّتِ آخِرِ الناس.

دَلَّتْ عَلَىٰ هٰذا نُصوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، وَدَلَّ علىٰ أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا قَلِيلاً الآيَةُ الأخيرة منْ هذا النَّصّ، وهي قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

أي: بَعْثُكُمْ لِمُلَاقَاةِ أَحْدَاثِ الحياة الآخِرَة، يكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ لِلْحِسَاب (وَقَدْ تَكُونُ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ بوسَاطَةِ بَعْضِ ملائِكَتِهِ) فَتَسْتَجِيبُون طَائِعِين اسْتِجابَةً مَصْحُوبَةً بِحَمْدِهِ والثَّنَاءِ عَلَيْه بما هو لَهُ أهْلٌ، وتَظُنُّونَ وَأَنْتُم مَسُوقُونَ لِمَوْقِفِ الحسَاب أَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ في البرزخ بَيْنَ الموت والْبَعْثِ إلَّا زَمَناً قليلاً.

«إن» حَرْف نفي بمعنى «ما».

النصّ السادس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بِشَأْنِ الْمُصِرِّينَ عَلَى كُفْرِهِم العِناديّ الْجُحُودِيّ، وَعَلَىٰ تَرْدِيدِ مَقُولَتِهِم السابِقَةِ التي هِيَ تَعِلَّتُهُمْ لإنكارِ الْبَعْثِ إلَىٰ يَوْم الدّين، وهي الاستِفْهام التعجُّبِيُّ الاسْتِغْرَابِيّ، ويُصَوِّر النَّصُّ مَوْقِفَهُمْ إبَّانَ نُزُولِ سورة (الصّافات):

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: أي: يَسْخَرُونَ سُخْرِيةً شَدِيدة فيها إمعانٌ وغُلُوّ. يقال لغة: «سَخِرَ مِنْه، وسَخِرَ به، سَخْراً، وسَخَراً، وسُخْرِيَةً، وسُخْرِيَّةً» أي: هَزِئ به، فإذا اشْتَدَّ في سُخْرِيّتِهِ قيل: اسْتَسْخَرَ.

﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: **الزَّجْرَةُ**: المرَّةُ من الزَّجْرِ، وَوُصِفَت بأنَّهَا وَاحِدَةٌ لِدَفْعْ تَوَهُّم تكرارها، ولِتوكِيدِ عَدَم الْحَاجَة لَدىٰ بَعْثِ الموتَىٰ جَمِيعاً إلى أكْثَرَ مِنْ صَيْحَةٍ فيها شِدَّةُ إثارَة.

والمرادُ بالزَّجْرِ هُنَا الإثارَةُ الصَّوْتِيَة الَّتِي يُحْدِثُها الصُّورُ، حِينَ يَنْفُخُ إسْرَافيل عليه السَّلام فيه بأمْرِ اللهِ عزّ وجلّ نفخة البعْث.

يقال لغة: زَجَرَ الشيءَ: أي: أثاره. ويأتي الزَّجْرُ بمعنى المنْعِ والكفّ وبمعنى الحثّ.

﴿دَٰخِرُونَ﴾: أي أذِلَّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُون.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾: أي: فَتَحصُل لهم المفاجَأةُ بأنَّهُمْ يَنْظُرون بأعْيُنهمْ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الدّين.

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: أي: يا شدّة خَوْفِنَا من العذاب الذي سنلاقيه، ويا حُزْنَنَا على ما فَرّطْنَا في دُنيانا.

دلّت هٰذِهِ الآيات علَىٰ أنَّ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي مَكَّة مَا زَالوا يُكرِّرُون مَوَاقِفَهُمُ السَّابِقَةَ، القائمةَ على العِنَاد، والإصْرَار على الباطل، وتَكرِيرِ

وَسَائِلِهِمْ لِرَفْضِ دعوةِ الرَّسُول ﷺ، وتكْرِيرِ تَعِلَّتِهِمْ لإنكار الْبَعْثِ، وهي توجيه الاسْتِفْهام التَّعَجُّبِيّ، الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ ما، يُعْطِي لإنكارِهِم ذَرِيعةً صالِحَةً لأنْ تَكُونَ مِحْوَرَ مُنَاظرَة، حَتَّىٰ يُنَاظَرُوا حَوْلَها، لأنَّهُمْ في واقِعِ أمْرِهِمْ لَا يَجِدُونَ دَلِيلاً للإنكار، بَعْد أَنْ أُفْحِمُوا بِبُرْهانٍ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ وهو ما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

ولهَٰذَا كانَتِ الْحِكْمَة الْعِلَاجِيَّةُ تَقْتَضِي إجَابَتَهُمْ بعبارة ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أذِلَّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُونَ لَا تَجِدُونَ لكم مَهْرباً من حِسَاب اللهِ وَفَصْلِ قَضائِهِ وَتَنْفِيذ جَزائه.

وَكَانَ من الحكْمَةِ الْعِلَاجِيَّة، أَنْ يَشْتَمِلَ الْبَيان على عَرْضِ لَقَطاتٍ من مَشَاهِدِ أَحْوالِهِمْ يَوْمَ الدِّين، بَدْءاً مِنْ نَفْخَةِ الْبَعْث.

فجاء في التَّعْلِيم للرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلّ دَاعٍ إلى الله من أُمّتِهِ، مَا يجيبُ به الّذين مَا زَالُوا يُكَرِّرُونَ تَعِلَّتَهُمْ قَائِلِينَ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

ويَسْتفيدُ مُعالِجُهُمْ مِنْ هـٰذا التعليم مَا يخاطِبُهمْ بِهِ مِنْ عِبارَاتٍ تُلائم الخِطَابَ في الحِوَار.

كأنْ يَقُولَ لهم: نَعَمْ سَوْفَ تَمُوتُونَ، وَتُبْعَثُونَ لشُهودِ أحْدَاثِ يَوْم الدّين، وأنْتُمْ أذِلّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُونَ، لا تَجِدُونَ لأنْفُسِكُم مَهْرَباً من ملاقاة حساب ربِّكُمْ وفَصْلِ قَضائه، وتَنْفِيذ جزائه، واعْلَمُوا أَنَّ بَعْثَكُمْ وبَعْثَ الموتَىٰ جَمِيعاً لَا يَحْتَاج بقضاء الله إلَّا نَفْخَةً واحِدَةً في الصُّور،

يَنْفُخُهَا فِيه إسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، فيَقُومُ المَوتَى من الأرضِ يَنْظُرُون، وأنْتُمْ مِنْهم، وتُشَاهِدُون بَعْضَ أَحْدَاثِ يَوْم الدّين، فَتَقُولُونَ حِينئذٍ: يَا وَيْلَنَا وَيَا خَوْفَنَا من العذاب الَّذِي سَنُلَاقِيه بِسَبَب تَكْذِيبنا رُسُلَ رَبّنا، وَيَا حُزْنَنَا على ما فَرَّطْنَا فِي جَنْب رَبّنا في الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَتَقُولُون: هذا يَوْمُ الدِّينِ الَّذِي كُنَّا في الدّنيا نُكَذِّبُ به، وَلَا نُصَدِّقُ مَا أَنْبَأَنَا بِهِ رَسُولُ رَبّنا.

النصّ السابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في مَعْرِض عَرْضِ بَعْضِ مَشَاهِدَ مِن أَحْدَاثِ يَوْم الدِّين في لقطات، وعَرْضُ لقَطَاتِ هذا المشْهَدِ يَبْدأُ مِنْ حوارٍ سوف يجري بَيْنَ فَريقين مِنْ أهل الجنَّة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لمَجْزِيّون عَلَىٰ أعْمَالِنَا. يقالُ لغةً: «دَانَهُ دَيْناً» أي: جَازَاه. ويَوْم الدِّين، هو يوم الجزاء بالْعَدْلِ علىٰ السَّيِّئَاتِ، وبالفضل الرَّبَّاني علىٰ الحسَنات.

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: أي: هَلْ تُرِيدُونَ أنْ تَنْظُرُوا معي إلىٰ حَالِ قَرِيني الَّذِي كان في الدُّنْيَا يحاوِلُ إغوائي، لِأُكَذِّب بِيوْمِ الدين.

﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: في وسَطِ دَارِ الْعَذَاب يَوْمَ الدّين.

﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أي: لكنْتُ مِنَ المُسوقِينَ قَهْراً حتَّىٰ أكُونَ حاضِراً مَعَكَ في الجحيم.

إنَّ عَرْضَ هٰذا المشْهَدِ الحِوَارِيّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، يُعْتَبَرُ من الوسَائلِ الإقْنَاعِيَّةِ القائمة عَلَىٰ اسْتِثَارَة مِحْوَرَي الرَّغَبِ والرَّهَبِ فِي وقْتٍ واحِدٍ.

فالّذِي كانَ قَدْ آمَنَ بِيَوْم الدِّينِ، وسَعَىٰ سعْياً يُؤَهِّلُهُ بِفَضْلِ رَبِّهِ وإنْعَامِهِ عَلَيْهِ، أنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، يَخْطُرُ فِي بالِهِ وَهُوَ فِي حِوَارٍ مَعَ زُمْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الجنة، رَجُلٌ كَانَ قَرِيناً لَهُ فِي الدُّنيا، يُكَرِّرُ عَلَيْهِ مَا يُغْرِيهِ بأنْ يُكَذِّبَ بِيَوْمِ الدِّين، ويَلْزَمُ من التكذيب بِيَوْمِ الدِّين تَكْذِيبُ الرَّسُولِ بنبوّتِهِ ورِسَالَتِه، والتكذيب بكتاب اللهِ الَّذِي أُنْزِلَ عليه فَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ في الجنَّة وهم يتطارحُونَ فيما بَيْنَهُمُ المسَائِل، وَيتبادَلُونَ الأحاديث:

• إِنِّي كَانَ لِي في الدُّنيا قَرِينٌ كثيرُ الملاَزَمَةِ لِي، لكنَّهُ كَانَ كافراً مُكَذِّباً للرَّسُول، ومُكَذِّباً بِكِتَاب اللهِ، ومُكَذِّباً بنبأ يوم الدّين.

• هل كانَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ كافرا مِثْلَهُ؟.

• نَعَمْ، كَانَ يَقُولُ لي مُسْتَنْكِراً إيماني، ومُسْتَهْزِئاً بِضَعْفِ عقلي، بأسْلُوبِ الاستِفْهام: أءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ حَقّاً بِمَا جاء بِه مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِين، أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمسَايِرِينَ لِعَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكِ وَتَقَالِيدِ أُسْرَتِك؟؟!

وكان يَقُولُ لي مُتَعَجّباً مُسْتَغْرِباً وَمُنْكِراً: أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً، أَءِنَا لَمَبْعُوثُونَ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةَ أُخْرَىٰ، وفي الآخرةِ هٰذِهِ نَكُونُ مَجْزِيّين على مَا قَدَّمْنَا فِي هٰذِهِ الحياة؟؟! إنْ هِيَ إِلَّا خُرَافَةٌ من خُرَافَاتِ الْوَضّاعِين، وأُسْطُورَةٌ باطِلَةٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الأوّلين.

• لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الآنَ مُعَذَّباً فِي الْجَحِيم، كسائر الكافِرِينَ الْمُجْرِمين.

• نعم، هذا صحيح، إذا لَمْ يكُنْ تَابَ وآمَنَ قَبْلَ مَوْتِه.

وأحَبَّ أنْ يَعْرِفَ مَصِيرَ الَّذِي كَانَ قَرِينَهُ في الدنيا، فقال لأهْلِ مَجْلِسِه في الجنَّة: هَلْ تُرِيدُونَ مُشَاهَدَة أَهْلِ الجحيم لَعَلّي أرَاهُ بَيْنَهُمْ. وَلَعَلِّي أُذَكِّرُه، بمَا كَان مِنْ أَمْرِه مَعِي في الدُّنيا؟

ولَا بُدَّ أنْ تَكُونَ وَسَائِلُ مُشَاهَدَةِ وَمُحَادَثِةِ أَهْلِ النار مُيَسَّرَةً سَهْلَةَ التّنَاوُل.

فَاسْتَخْدَمَ الْوَسِيلَةَ الْبَصَرِيَّة السَّمْعِيَّة، وطَافَ بِبَصَرِه على أهْل النّار، فرَآه في وَسَطِ الْجَحِيم. فكَلَّمَهُ فقال لَهُ: أَنَا فُلَانٌ أُكَلِّمُكَ مِنْ مَنزِلي في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَتَذْكُرُ أيَّامَ كُنْتَ قَرِيني في الدُّنْيَا، وَكُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تُغْرِيَنِي حَتَّىٰ أكُونَ كافِراً مِثْلَكَ؟.

- قال: نعم، أذْكُرُ وأنَا نَادِمٌ حزين، أَتَقَلَّبُ في العذاب الأليم.
- قَالَ تَالله إنَّ الشَّأْنَ العظيم أنَّك قَدْ كِدْت بإغراءاتِكَ الزُّخْرُفِية تُسْقِطُنِي في الكُفْرِ بالله وبرسُوله، وبيوم الدين.

وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبّي، بِتَقْوِيَة إرَادَتي الخيّرَةِ الصَّادِقَةِ على مقاوَمَةِ إغراءاتك، لَاسْتَجَبْتُ لَكَ فَكَفَرْتُ، فَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِين مَعَكَ فِي الجحيم.

وينتهي الحوار مَعَه.

النصّ الثامن

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن قوم عاد، وإنكارهم يوْمَ الدّين بأسْلُوب الاستفهام التعجبيّ الاستغرابي، الّذي لم يَقْتَرِنْ به دَليلٌ له حظٌّ من النَّظَر الفكرِي، ويَحْكي الله جلَّ جَلالُهُ قَوْلَ مَلأِ عادٍ قومِ الرَّسُول هُود عَلَيْهِ السلام، لجُمْهُورِهِم الَّذِين يَسْتَجِيبُونَ لهم:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿هَيْهَاتَ﴾ اسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ مَعْنَاهُ: «بَعُدَ» وجاء في عبارَتِهِمْ تكريرها للتَّوْكيد. وَفي نُطْقِ هٰذِهِ الكَلِمَةِ لغاتٌ عَرَبيّة تَصِلُ إلى نحو خَمْسِينَ لغة، منها «أَيْهَاتَ ـ هَيْهَانِ ـ أَيْهَانِ ـ هَايَهاتِ» إلى غير ذلك.

وهي مبنية، على الفتح أو الضَّمّ أو الكَسْرِ، لغات.

وكان من الجائز في اللّسان العربي أن يقال: هيْهاتَ هَيْهَات مَا تُوعَدُونَ، بمعنى: بَعُدَ بَعُدَ مَا تُوعَدُون، لأنّ اسْمَ الفعل يُعاملُ معامَلَةَ فِعْله في اللُّزُوم والتَّعدّي، فَلِمَاذا جاء في العبارة: هَيْهاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُون.

أقول: إنّ اسْمَ الفِعْلِ قَدْ لَا يُسْرِعُ إلَىٰ فَهْم المتَلَقّي تَنْزِيلُهُ مَنْزِلَةَ فِعْلِهِ تَمَاماً، فَيَحْسُنُ فِي ذَوْقِ النَّاطِقِ الْعَرَبيّ أنْ يُضِيفَ إلى الْمَعْمُولِ لَامَ الْبَيَان، كأنَّ المتَلَقِّيَ يَسْأَلُهُ، فَيُبَيّن له، فَيُنَزَّلُ منْزِلَةَ الْمَصْدَرِ، ونظيره: «أُفٍّ لَكُمَا، بمَعْنَى: أتضجَّرُ ـ هِيْتَ لك، بمعنىٰ: أَقْبِلْ ـ وَيْلٌ له، بمعنى يَأْتِيهِ عذاب ـ وَاهاً لِرَيَّا ثُمّ وَاهاً واهاً، بمعنى: «أتَلَهَّف».

وهذا من مِثْل قولهم في المصادر: «سَقْياً لَهُ ورعْياً» فاللّام فِي العربية تُسْتَعْمَلُ لِتَقْوِيَةِ عَمَلِ مَا يَعْمَلُ عَمَلَ الْأَفعال من المصادر والمشتقات.

هٰذِهِ الآياتُ من سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تَعْرِضُ للمعانِدِين من كُبَراء كُفَّارِ مَكَّة، أنَّ مَقَالَتَهُمْ الّتِي وَجَّهُوهَا لإنْكار يوْمِ الدّين، ويُكَرِّرُونَها حِيناً فحِيناً، قَدْ سَبَقَ أنْ قَالَتْهَا عَادٌ أُمَّةُ النبيِّ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأصَرُّوا علَىٰ مَقَالَتِهَا، حَتّىٰ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بعَذَابٍ شَدِيدٍ، فَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيراً.

فتضمَّنتْ هٰذِهِ الآيَاتُ تَلْوِيحاً لِكُبَرَاء كُفَّارِ مَكَّةَ بأنَّهم إِذَا اسْتَمَرُّوا

مُصِرِّينَ علَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، وعلى مَقَالَتِهِم الاستِبْعَادِيَّةِ لإنكار يَوْمِ الدّين، فإنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ للإهْلاكِ كما أهْلَكَ اللهُ عاداً مِنْ قَبْلُ.

النص التاسع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) أيضاً، ولكِنْ بشأنِ المعانِدِين المصِرّين على مَوْقِفِهِم الجُحُوديّ من كُبَرَاء كُفَّارِ مَكّة، وَلَا سيما مقالَتُهُم الّتي يُكَرِّرُونها بشأن إنْكارِ يَوْم الدّين، دُونَ أنْ يَسْتَطِيعُوا إضَافَةَ دَلِيل لَهُ حَظٌّ مِن النظر الْفِكْرِيّ، لتَجْرِيَ علىٰ أَسَاسِهِ مُنَاظَرَةٌ تَعْتَمِدُ على أُسُسٍ عَقْلِيَّة:

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وبَعْدَ هذه الآيَات جاء في السّورة بَيَان لِرَسُولِ الله ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمَّتِه، فيه تَعْلِيمُ مَعَالِمِ مُنَاظَرَةٍ جَدَلِيَّة يجادلُ على وفْقِ أُسُسِهَا وَمَعالِمِهَا الكَفَرَةَ المشْرِكِينَ، حَوْلَ تَوحِيدِ الرُّبوبيَّةِ للهِ عزّ وجلّ، الّتي يَلْزَمُ عَنْهَا تَوْحِيدُ الإلَهيَّةِ له، ويَلْزَمُ عَنْهُمَا عَقْلاً إثْباتُ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، الَّذي يَسْتَلْزِمُ بالبرهان الْعَقْلِيِّ إثْبَاتَ يَوْمِ الدّين على مُرَادِ الرَّب جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وَهَـٰذَا الْمُرَادُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ في كُتُبِه، وَعَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عليهم الصَّلاةُ والتّسْليم.

وفي هذه الآيات إشارَةٌ جَلِيَّةٌ إلىٰ مَا جاء في النصّ السابقِ من هـٰذِهِ السُّورَةِ، بشأن عَادٍ قَوْم النبي الرَّسُول هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام.

فمقَالَةُ كُفَّارِ الْآخِرِينَ بِشَأْنِ التَّكْذِيب بِيَوْم الدِّين، مُمَاثِلَةٌ لِمَقَالَة كُفَّارِ الْأَوَّلِين الَّذِيْنَ أَهْلَكَهُم اللهُ، مُمَاثَلَةً تَطابُقِيَّة، إذْ لَمْ يَجِدْ هٰؤُلاء ولا أُولئِكَ ذَرِيعَةً فِكْرِيَّةً يَتَّكِئُونَ عَلَيْها، فَلَجَؤُوا جَمِيعاً إلى تَوْجِيهِ الاستِفْهامِ التعجُّبيّ

الاستِغْرَابِيّ الاسْتِبْعَادِي، الّذِي عَبَّرُوا بِهِ عَنْ إنْكَارِهِم وَتَكْذِيبِهِمْ بأنْبَاءِ يَوْم الدّين.

وهٰذِهِ الآيات قد سَبَقَ تَحْلِيلُ نَظِيرِها في النصّ الرابع من نُصُوص هذا الملحق، وهو من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

النصّ العاشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾:

هٰذِهِ الآيات من سورةٍ مَدَنيّة على مَا ترجّح لَدىٰ العلماء بالقرآن والقراءات، هي سُورَة تتحدَّثُ مُعْظَمُ آيَاتِها ومَوْضُوعَاتِها عَنْ كفّار مكّة المصِرِّين على مواقفهم السابقة، كأنَّهَا من التنزيلِ المكّي.

وعلى أنَّها سُورَة مَدَنِيّة، فالحِكْمَةُ من اشتمالِهَا على مُعَالَجَةِ الَّذِين مَا زَالُوا عَلَىٰ كُفْرِهِم من أَهْلِ مَكَّة، عَدَمُ قَطْعِ الصِّلَةِ بِدَعْوَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْقَطِعْ خَيْطُ الأمَلِ باستجابَتِهِمْ، ولا سيما بَعْدَ إهلاكِ أئِمَّةِ الكُفْرِ المعانِدِين في غَزْوَةِ بَدْرٍ، وعَدَم ظَفَرِ جَيْشِ مُشْرِكي مَكَّة بما طَمِعُوا به في غَزْوةِ أُحد، وبَعْدَ أَنْ رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَىٰ اللهُ المؤمنين القِتَال، في غَزْوَة الأحْزاب.

وَدَلَّ دُخُولُ معْظَمِهم في الإسلام عَقِب فَتْح مَكَّة، عَلَىٰ أَنَّهُم قَدْ وَصَلُوا بَعْدَ الْمُعَالَجاتِ السَّابقاتِ إلَىٰ حَالاَتِ اسْتِعْدَادٍ حَسَنٍ للدُّخول في الإسْلَام، بَعْدَ أنْ أهْلَكَ اللهُ عزّ وجلَّ قادَتَهُم وَأَئِمَّتَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فيهم بمثَابَةِ الْحُجُب المانِعَة من وُصُولِ أنوار الْهِدَاية إلَىٰ نُفُوسِهم وقُلُوبهم.

والمعالجة في هذه الآيات تَتَعَلَّقُ بِتَكْذِيبهم بيوم الدّين، بتَعِلَّةِ الاستغرابِ والاستِبْعَاد والتَّعَجُّب.

وقَدِ اشتملت هذه المعالجة على أرْبَعِ قَضَايا:

القضيَّةُ الأُولى: دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾:

لَقَد أدْرَكُوا في هٰذِهِ المرحلة المدنية أنّ العظامَ صَائِرَة أيضاً إلى التراب كسائر عَناصِرِ الجسم فَحَذَفُوا مِنْ عبارتهم: ﴿وَعِظَٰمًا﴾ وهٰذا يَدُلُّ عَلىٰ تأخُّرِ نُزُول هذا النّص عَنِ النُّصُوص السابقة الواردة حول هذا الموضوع.

وأدْرَكوا أنّ الْبَعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ مُنَاظِرٌ لِّلْخَلْقِ الأَوّل، وتكُونُ فيه إعادَةُ النَّفْسِ الّتِي ذَاقَتِ الْموتَ بكُلِّ عَنَاصِرِهَا وصِفَاتِها، إلى الحياة بإعَادة الرُّوحِ إلَيْها، دُونَ شَرْطِ تَجْمِيع أَعْيَانِ ذَرَّاتِ الْجَسَدِ الّذِي بَلِي وَصَار تُراباً، وتحوَّلَ تَحوُّلَاتٍ أخرَىٰ كثيرات، في نَبَاتَاتٍ أَوْ أحْيَاء. (ونَقُولُ: إنَّ اللهَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِير).

فالْخَلْقُ الْجَدِيدُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَىٰ النَّفْس الَّتِي كانَتْ قَدْ ذَاقَتِ الْمَوْت، وَعَلَىٰ الرُّوح الَّتي كانَتْ مُقْتَرِنَةً بِها، يَكْفِي لتحقيقِ مَعْنَى الْبَعْثِ إلىٰ الحياة، سواءٌ أكان ذَلِكَ فِي ذَرَّاتِ الْجَسَدِ السّابقِ أمْ فِي ذَرَّاتٍ أُخْرَىٰ، لَيْسَتْ أكْثَرَ من وِعاءٍ تُرَابِيّ الْعَنَاصِرِ للنَّفْسِ والرُّوح، فَأَجْسَادُ الأحْيَاء مُتَبَدِّلَةٌ دواماً، يَهْلِكُ مِنْها هَالِكٌ وَيَأْتِي بَدَلَهُ جَدِيدٌ.

وإذْ وَصَلَ كُفَّارُ مَكَّة إلَىٰ إدْرَاكِ هَـٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ، فَقَدْ صَارَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُعَالَجُوا مُعَالَجَةً يُرَاعَىٰ فيها المستوىٰ الْفِكْرِيّ الَّذِي ارْتَقَوْا إلَيْه، فَيُبَيِّنَ لَهُمْ أنَّ تَعَجُّبَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعَجَبَ حَقًّا.

فخاطب اللهُ عزّ وجلّ الرسُول فَكُلَّ ذِي فِكْرٍ صالحٍ للخطاب بقوله تَعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾.

أي: وَإِنْ تَعْجَبْ مِنْ شَيْءٍ يُثِيرُ تَعَجُّبَ أولي الألْبَاب، فَعَجَبٌ حَقًّا قَوْلُهُم: أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد.

والدَّاعي إلىٰ هـٰذا الْعَجَب الشّدِيد أنَّ أذْهَانَهُم قَدْ تَوَصَّلَتْ إلىٰ أنَّ الْبَعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ من التراب.

ألَمْ يَخْلُقْهُمُ اللهُ الْقَدِير على مَا يُرِيد من التُّراب في الْخَلْقِ الأوّل؟! فتَعَجُّبُهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الأمْرُ الَّذِي يُثِيرُ أَهْلَ الْعُقُولِ الفاهِمَةِ إلَىٰ أنْ يَتَعَجَّبُوا مِنْه.

القَضِيَّة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾:

أي: أولـئك الْبُعَدَاءُ عَنْ إدْراكِ الحقّ، الَّذِينَ يَقُولُون المقَالَةَ السَّابِقَةَ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ إيماناً صَحِيحاً.

إنَّهُمْ لَو آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وبِصِفَاتِهِ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، لَمَا اعْتَرَفُوا بالْخَلْقِ الأوّل وآمَنُوا به، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ خَبَرِهِ عَنْ بَعْثِهِمْ فِي خَلْقٍ جَدِيد، وكَذَّبُوا رَسُولَ رَبّهم به.

فَعِلّتُهُمُ الْحَقِيقِيَّةُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِه.

هـٰذا هو دَاؤُهم، وشفاؤه يَكُونَ بتكْمِيلِ إيمانِهِمْ بِرَبّهم، وتَصْحِيحِ تَصَوُّرَاتِهِمْ ومَفْهُومَاتِهِمْ عنه.

الْقَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾:

هـٰذِهِ العبارَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْن:

المعنى الأوّل: أنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ يَوْمَ القيامَة، بأنْ تُوضَعَ الأغْلَال في أعْنَاقِهِمْ، لِسَحْبِهِمْ إلَىٰ دَرَكاتِ تَعْذِيبِهِمْ، إذْلالاً وإهَانَةً لَهُم.

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: جمعُ «غُلّ» وهو طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أو جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي

عُنُقِ ٱلْأَسِيرِ، أوِ المجْرِمِ، أو في أيْدِيهما، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ الْمَغْلُولِ إلَىٰ عُنُقِهِ، وَتُطَوَّقَانِ بِالْغُلِّ.

المعنى الثاني: وهو المعنَىٰ الّذِي دَلَّ عليهِ قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا . . . ﴿٨﴾﴾.
أي: أولئك تُوجَدُ في أعْنَاقِهِمْ أغْلَالٌ مَعْنَوِيَّةٌ مِنْ أَهْوَائِهِم، وشَهَواتِهِم، ورَغَبَاتِ الفُجُورِ في نُفُوسِهِم، تَجْعَلُهُمْ أَسْرَىٰ لها، فَتَقُودُهُمْ أَوْ تَسُوقُهُمْ إلَىٰ دَرَكاتِ المَعَاصِي وكَبَائِرِ الآثام، فالْكُفْر.

إنّ سُنَّةَ اللهِ عزّ وجلَّ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ إذْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ باخْتِياراتِهِم الحرَّة، أُسَرَاءَ أهوائهم وشهَواتِهِم ورَغَبَاتِهِم، أنْ يَرْفُضُوا دَعْوَةَ الحَقّ الّتي جاءَ بها رسُولُ رَبّهم، وأَنْ يُعَانِدُوا وَيُصِرُّوا علىٰ بَاطِلِهِم.

ومَعْلُومٌ أَنَّ سُنَن الله وقوانِينَهُ تُعْطِي تَأْثِيراتِها بِجَعْلٍ منْهُ تبارَكَ وَتعالى، وإنْ كانت أَسْبَابُ اسْتِخْدَامِهَا من إرَادَاتِ العباد، كَمَنْ يَصِلُ الكَهْرُباء فَيُضِيءُ المصباحُ الكربائيّ بِخَلْقِ اللهِ ضِمْنَ سُنَّتِهِ الكونية، وكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ في النّار فَيُحْرِقُهَا اللهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ في كَوْنِهِ، وهكذا إلى سَائِرِ سُنَنِ اللهِ وَقَوَانِينِه التكوينيَّة.

القضيَّة الرّابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

أي: وأولئك الكَفَرَة المَكَذّبونَ، مُلازِمُو البقاءِ في عَذَاب النار يَوْمَ الدِّين، إذا أنْهوا رِحْلَةَ امتحانهم في الحياة الدُّنيا وهُمْ كَفَرَةَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْم الدِّين، وكانوا بذلك من المجرمين.

وبهذا تَم الملحق الثاني من ملاحق السورة، والحمد لله على معونتِهِ وفَتْحِهِ توفيقه.

❁ ❁ ❁

(١٣)

الملحق الثالث

دراسة تكاملية للنُّصُوصِ بشأن صالح عليه السّلام وقومه ثمود في القرآن المجيد

نسب الرسول صالح عليه السّلام

قالوا: هو صالح بْنُ عُبَيْد بْن آسِف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عاثِر بْن إرم بْن سام بن نوح عليه السَّلام. والله أعلم. وقد أرسله الله عزّ وجلّ إلى قبيلة «ثمود».

قبيلة ثمود

هي قبيلة من القبائل العربيَّة العاربة، سُمُّوا باسم جدِّهم «ثَمُود» أخي «جَديس» وهما ابْنا عاثر بن إرَم بن سَام بن نوح عليه السَّلام، والله أعلم.

وهي قبيلة تكاثرتْ ونَشأَتْ بَعْدَ إهلاك عادٍ قوم الرَّسُول هُودٍ عليه السَّلام، وقد يُطْلَقُ على «ثمود» عادٌ الأُخْرى، وكانُوا أَهْلَ أوثان.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مَصْرُوفاً مَنُوّناً مُرَاعاةً لاسم الجدّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْفِ مُراعَاةً لِكَوْنه عَلَماً على القبيلة المؤنثة.

مساكن ثمود

كانت مَسَاكن «ثمود» في أرْضِ «الحِجْرِ» ولهٰذا وَصَفَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بأَنَّهم أصْحَابُ الحِجْر.

الحِجْر: أرضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي الْقُرى، وتَقَعُ في الطَّرِيق الْبَرِّيّ للمسافِرِ من الشام إلى الحجاز. وآثار مَدَائِن هٰؤلاء الْقَوْمِ ظَاهِرَةٌ حَتَّىٰ الآنَ، وتُسَمَّىٰ «مَدَائِنَ صَالِحٍ» وتُعْرَفُ دِيارُهُمْ أَيْضاً باسْم «فَجِّ النَّاقَة».

وقد أهْلَكَ اللهُ عزّ وجلّ مُعْظَمَ هٰذِهِ القبيلة، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَعْدَ إهْلاكِهِمْ إلَّا مَنْ آمَنَ بِرَسُولِهِمْ صالح عليه السَّلام، واتَّقَىٰ الله بِبَعْضِ سُلُوكه، فدلَّ بذلِك على صحة إيمانه وإسلامه.

خلاصة ما عند المؤرخين بشأن صالح عليه السّلام وقومه

يطالعُ النَّاظر في مُدَوَّنات التَّاريخ حَوْلَ قبيلةِ «ثمود» وكيف أهَلكهم الله، فيجد عدّة رِوايات مَقْبُولاتٍ بوجْهٍ عامّ، وأسْتَعْرضُ خلاصَةً عَنْها لمَا فيها من تَفْصِيلاتٍ تُتَمِّمُ ما جَاءَ في القرآن عَنْهم، ولا تتعارَضُ مَعَه.

وأختارُ فيما يلي لقَطَاتٍ ممَّا جاء في كُتب التاريخ، ونقَلَهَا بَعْضُ المفسّرين، أخذاً عن ابْنِ إسْحَاق، والسُّدِّي، وأبي الطُّفَيْلِ، وغَيْرِهم.

(١) أَهْلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ «عَاداً» إلَّا مَنْ آمَنَ بالرَّسُول «هود» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، وارْتَحلَ «هُودٌ» والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عن أَرْضِ الأحْقَافِ في الجنُوبِ الّتِي كان فيها هَلَاكُ «عاد».

(٢) ونشَأتْ بَعْدَها قَبيلَةُ «ثَمُود» في الشَّمَال في أرض «الحِجْر» واسْتُخْلِفُوا في الأَرْض، وانْتَشَرُوا، ورُبَّما كَانَ كثيرٌ مِنهم مِنْ سُلَالَة مَنْ آمن بالرَّسُول «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، فَهُمْ قَوْمٌ من الْعَرَب الْعَارِبَة.

(٣) ثُمَّ ظَهَرَ فيهم الفساد، وعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، وَنَسُوا مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مُنْذُ عَهْدِ «هُودٍ» عليه السَّلام، فَمَا تَلاهُ مِنْ قُرون.

(٤) فَبَعَثَ اللهُ عزّ وجلّ إلَيْهِمْ نَبِيّاً رَسُولاً منهم، هو «صالح» عليه السَّلام، وهو من أوسَطِهِمْ نَسَباً، وأفْضَلِهِمْ مَكَانَة.

وكانَ قبل نبوّته ورسالَتِه رَجُلاً فاضلاً، حَسَنَ الخلُق، حَسَنَ السِّيرَة، مَرْجُوّاً لكُلّ خَيْرٍ وفضيلَةٍ، وعَمَلِ بِرٍّ وإحْسَان.

(٥) فدعَاهم «صالح» عليه السَّلام إلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ بالله، ودعَاهم إلى عبادَة اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ السَّيِّئاتِ وفِعْلِ الصَّالحاتِ، واجْتِنَابِ الظُّلم والْعُدْوانِ والْفَسَادِ فِي الأرض، وصَبَر «صَالحٌ» عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَيْهم، مُتَابعاً دَعْوَتَهُ إلَىٰ سَبيلِ رَبِّه، وَبَشَّرَهُمْ بالْجَنَّةِ إنِ اسْتَجَابُوا لِدَعْوته، يَدْخُلُونَها يَوْمَ الدِّين، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِعِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ في الدُّنيا، وبعقَابِ اللَّهِ المؤَجَّلِ إلىٰ يَوْمِ الدِّينِ إذَا أَبَوْا.

واتَّخذَ عَلَيْهِ السَّلامُ مُخْتَلِفَ الْوَسَائِل المتَاحَةِ لِهِدَايَتِهم، مِنْ إقْنَاعٍ بالحِجَجِ وَالْبَراهِينَ، وجدَالٍ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيب في مواعِظَ حَسَنَةٍ، مَعَ صَبْرٍ وَحِلْمٍ، وتَلَطُّفٍ وأناة، شَأْنُهُ فِي هٰذَا كَشَأْنِ سَائِرِ الْمُرْسَلِين.

(٦) وبَعْدَ أنْ ألَحَّ عَلَيْهِمْ في دَعْوَته، وشَدَّدَ في إنكارِهِ سَيِّئَاتِهِم، طَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ الخوارِقِ المادّيّةِ يَشْهَدُ اللهُ لَهُ بِهَا بأنَّهُ صَادِقٌ فيما أَخْبَرَهُمْ بِهِ من أنَّهُ نَبِيٌّ نَبَّأَهُ اللهُ، ورَسُولٌ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِم، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينه، والكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ وليَتَّبِعُوا ما جاء فيه.

فقال لهم «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام: مَاذَا تَطْلُبُونَ من آية خارِقَة؟.

قالوا: تَخْرُجُ مَعَنَا إلىٰ عِيدِنَا هٰذا، وكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرجُونَ إلَيْهِ بأصْنامِهِمْ، وَمَا يَعْبُدُونَ من دُونِ الله، فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ من السَّنَة، فَتَدْعُو إلَهكَ، ونَدْعُو آلِهَتَنَا، فإنِ اسْتُجِيبَ لَكَ اتَّبَعْنَاكَ، وإنِ اسْتُجِيبَ لَنا اتَّبَعْتَنَا.

فقال لهم «صالحٌ» عليه السَّلام: «نَعَمْ» وقَبِلَ عَرْضَهُمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إلَىٰ عِيدِهِمْ ذَاكَ، وخَرَجَ مَعَهُمْ «صالحُ» عَلَيْهِ السّلامُ مُتَوكّلاً على رَبّهِ الحيِّ الّذِي لا يَمُوت، ومُسَبّحاً بحَمْدِهِ، ومُلْتَجئاً إلَيْه، وواثقاً بأن اللهَ عزّ وجلّ سيَنْصُره عليهم في مباراة الدُّعاء.

أمَّا «ثَمود» فَدَعَوْا أوْثَانَهُمْ، وسَألُوهَا أنْ لَا يُسْتَجَابَ لصَالِحِ عليه السَّلام، إذا دَعَا رَبَّهُ في شيءٍ ممَّا يَدْعُوهُ به.

ثُمَّ قَالَ أحَدُ سَاداتِ «ثَمود» وعُظَمَائِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وهو رجُلٌ يُقالُ له: «جُنْدُع»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ، وعَيَّنَها له، نَاقَةً مُخْتَرِجَة (أي: تُشْبهُ الْبُخْتَ)[1] جَوْفَاء (أي: عظيمَةَ الْجَوْف) وَبْرَاءَ (أي: ذات وَبَرٍ كَثِير) فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ في رِسَالَتِكَ، وشَهِدْنَا بأنَّ مَا جِئْتَ به هو حقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا، وَوَافَقَ سَائِرُ أفراد «ثمود» الّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ على هذا الطلَب.

(٨) وأخَذَ رَسُولُهُمْ «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام مَوَاثِيقَهُمْ قائلاً: لَئِنْ دَعَوْتُ اللهَ فاسْتَجابَ لِي، وأَخْرَجَ لَكُمُ النَّاقَةَ الَّتِي وَصَفْتُمْ مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسِها الَّتِي ذَكَرْتُمْ، لَتُصَدِّقُنِّي، وَلَتُؤْمِنَّ بي.

قالُوا: نعم، وأعْطَوْهُ على ذَلِكَ عُهُودَهُمْ ومَوَاثِيقَهُمْ.

(٩) فَدَعَا «صالحٌ» عليه السَّلام رَبّه، بأن يُخْرِجَ لَهُم الناقة الّتي طَلَبُوهَا، من الصَّخْرَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا وَعَيَّنُوها. وكَانَ قَوْمُهُ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ وإلى الصَّخْرَة.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حَتَّىٰ رَأَوُا الصَّخْرَةَ تَتَمَخَّضُ بالنَّاقَةِ المطْلُوبَةِ، تَمَخُّضَ النَّاقَةِ النَّتُوج بوَلَدِها.

وتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ العظيمَةُ فَانْصَدَعَتْ، ثُمَّ أسْقَطَتْ مِنْ بَاطِنِهَا نَاقَةً علىٰ الْوَصْفِ الَّذِي طَلَبَهُ الْقَوْم.

(١٠) فآمَنَ بِهِ «جُنْدُعٌ» ومَنْ كَانَ مَعَهُ على أمْرِهِ مِنْ رَهْطِهِ، وأرَادَ بَعْضُ أشْرَافِ «ثَمود» مِنْ بَعْدِهِ أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوه، فَنَهَاهم «ذُؤابُ بْنُ عَمْرو بْنِ لَبيد» و«الْحُبَابُ» صاحِبُ أَوْثَانِهِم، و«رَبَابُ بْنُ صَمْعَر» وكانُوا مِنْ

(١) **البُخت**: هي من الإبل الخراسَانيّة، وكانت ذَواتِ صفاتٍ مُتَميِّزَة.

أَشْرَافِ ثمود، واسْتَطَاعُوا أنْ يُؤَثِّرُوا عَلَىٰ سَاداتِ ثمود وأشرافها.

فقال أَحَدُ الَّذِينَ آمَنُوا بصالحٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه، وهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ له: «مُهْوِسُ بْنُ عَنَمة» شِعْراً بشأن «شِهَابٍ» عَزيز ثَمُود، جاء فيه قولُه:

وكَـانَـتْ عُـصْبَـةٌ مِـنْ آلِ عَـمْـرٍو ... إِلَـىٰ دِيـنِ الـنَّـبِـيِّ دَعَـوْا شِـهَـابَـا
عَـزِيـزَ ثَـمُـودَ كُـلِّـهـم جَـمِـيـعـاً ... فَـهَـمَّ بِـأَنْ يُـجِـيـبَ وَلَـوْ أَجَـابَـا
لأَصْـبَـحَ صَـالِـحٌ فِـيـنَـا عَـزِيـزاً ... وَمَـا عَـدَلُـوا بِـصَـاحِـبِـهِـمْ ذُؤَابَـا
وَلَـكِـنَّ الْـغُـوَاةَ مِـنَ آلِ حِـجْـرٍ ... تَـوَلَّـوْا بَـعْـدَ رُشْـدِهُـمُ ذُؤَابَـا

(١١) قالوا: وَوَلَدَتِ النَّاقَةُ المعْجَزَةُ سَقَباً (أي: وَلَداً ذَكراً) ثُمَّ لمَّا أنْهَىٰ مُدَّة رَضَاعِهِ فُصِلَ عَنْ أُمّهِ فصارَ فَصِيلاً.

(١٢) وامْتَحَنَ الله ثموداً بِهٰذِهِ الناقةِ امتحاناً صَعْباً، فقال لَهُمْ رسُولُهم «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام: هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ الله، وَلَا تَمَسُّوهَا بسُوءٍ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيم.

وقال لهم أيضاً: إنَّ اللهَ رَبَّكُمُ الَّذِي أَخْرَجَ آيَةً كما طَلَبْتُمْ، أَمَرَ بأن يكون الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُونَ منْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مُنَاصَفَةً، لَهَا يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فيه، وتَشْرَبُ الماء، ولَكُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ تحضُرُونَ فيه، فَتَشْرَبُونَ وتَمْلَؤُونَ آنِيَتَكُمْ وَأَوْعِيَتكم.

(١٣) وَكَانَتْ هٰذِهِ النَّاقَةُ تَرْعَى عَلَىٰ مَا تَشَاءُ يَوْماً، وتأتي إِلَىٰ مَاءِ ثمود في اليوم التالي، فتنْفَرِدُ بِشُرْبِ الماء، وتَفْرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْها يَوْمَ قُدُومِهَا حَتَّىٰ يحْلُبُوا مَا شَاءُوا لَبناً منْ ضَرْعِها، وكانُوا يَشْرَبُون من لَبَنِهَا قَدْرَ وُسْعِهِمْ، ويَدَّخِرُونَ مِنْهُ، حتَّىٰ كانوا يَمْلَؤُونَ آنِيَتَهُمْ، ثُمَّ تَصْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الْفَجِّ[1] الَّذِي قَدِمَتْ منه.

---

(١) الفجّ: الطّريق الواسِعُ الْبعيد جمع «فِجاج» و«أفِجَّة».

فإذا كان الْغَدُ كان الْيَوْمُ هُوَ يَوْم شُرْبِهِمْ من الماء، فَيَشْرَبُونَ مَا شَاءُوا. ويَدَّخِرُونَ ما شاءُوا لِلْيَوْم الَّذِي هو يَوْمُ الناقةِ.

(١٤) قَالُوا: وَكَانت النَّاقَةُ إذا اشْتَدَّ الحرُّ ٱرْتَقَتْ إلى المرتَفَعَاتِ في أَرْضِ ثمود، فتخافُ مِنها أنْعَامُ الْقَوْم، فَتَهْرُبُ إلى بَطْنِ الوادي، حَيْثُ الحرُّ والجدْبُ، وَكَانَتْ إذا أقْبَلَ الْبَرْدُ هَبَطَتْ إلى بَطْنِ الوادي، فَخَافَتْ مِنْهَا أنْعَامُهُمْ، فَهَرَبَتْ إلى المرتفعاتِ حَيْثُ الْبَرْدُ والْجَدْبُ، فَأَضرَّ ذَلِكَ بمواشِيهِمْ.

(١٥) وَصَعُبَتْ على ثمود مَعِيشَتُهُمْ مَعَ هٰذِهِ النَّاقةِ، بالشُّرُوطِ الَّتِي وُضِعَتْ لها، وضاقَتْ صُدُورُهم منها، فاتَّفَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ على عَقْرِها، والتخلُّصِ مِنْها.

(١٦) وَكان في القوم امْرَأتانِ ذَواتا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأة «ذُؤاب بْن عَمْرِو» وهي: «أُمُّ غُنْم عُنَيْزَةُ بنْتُ غُنْم» وقَد كانت امرأةً عجوزاً ذاتَ بناتٍ حَسْنَاواتٍ، ومالٍ مِنْ إبلٍ وبَقَرٍ وغَنَم.

الأخرىٰ: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا» حفيدَةُ صاحِب أَوْثَانِ بَنِي عُبَيْد، وكانَتْ ذَاتَ جمالٍ ومَالٍ من إبلٍ وبَقَرٍ وغَنَم.

وكانتا من أشَدِّ امْرأتَيْن في ثَمُود عداوةً للنبيّ الرسُولِ صَالحٍ عليه السَّلام، ومن أعْظَم النِّساءِ كُفْراً به.

وإذْ أضرَّتِ النَّاقةُ في طَرِيقَةِ حَيَاتِها بأنْعَامِهِما، فَقَدْ حَرِصَتَا على التخلُّصِ مِن النَّاقةِ بِعقْرِها، وعَمِلَتَا على ذَلِكَ بِمَكْرٍ وخُبْثٍ.

أمَّا «صَدُوفُ» فَدَعَتْ رَجُلاً مِنْ ثمود، يقال له: «الْحُبَابُ» وعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نَفْسَهَا مُقَابِلَ عقرِ النَّاقةِ، فأبَىٰ.

فَدَعَتِ ٱبْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: «مِصْدَع» وعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَها، مُقَابِلَ أنْ يَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ.

وأَمَّا «أُمُّ غُنْم عُنَيْزَةُ بِنْتُ غُنْمٍ» فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وَكَانَ رَجُلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيراً ذَا شَرٍّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أن تُعْطِيَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ بَنَاتِها الحسناواتِ، على أنْ يَعْقِرَ النَّاقة، وكَانَ «قُدَارُ» هذا عَزِيزاً مَنِيعاً في قَوْمه.

(١٧) فانْطَلَقَ «قُدَارُ» و«مِصْدَع» فاستَنْفَرَا غُوَاةً من ثَمُود، فاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفرٍ، فَرَصَدُوا الناقة حينَ صَدَرَتْ عَنِ الماء، وقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَارُ» في أَصْلِ صَخْرَةٍ على طَرِيقها، وَكَمَنَ لها «مِصْدَعٌ» في أَصْلِ صَخْرَةٍ أُخْرىٰ، فَمَرَّتْ على «مِصْدَعٍ» فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فانْتَظَمَ بِهِ عَضَلَةَ سَاقِها، وأَقْبَلَتْ «عُنَيْزَةَ» ومَعَهَا إحْدَى بَناتها الحسْنَاوَاتِ، فَأَمَرَتْها بأن تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِهَا عند «قُدَار» لإغرائِه بِعَقرِ النّاقَة، فَفَتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِها، وحَرَّضَتْهُ أُمُّها عَلَىٰ عَقرِ النَّاقَةِ، فَشَدَّ علىٰ النَّاقَةِ بالسَّيْف، فَكَشَفَ عُرْقُوبَها، ثُمَّ طَعَنَ في لَبَّتِهَا فَنَحرَهَا.

ثم اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوه.

(١٨) فَلَمَّا عَقَرُوا النَّاقةَ قال لَهُمْ رَسُولُهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَبْشِرُوا بعَذَاب اللهِ ونِقْمَتِهِ.

وَكَانَ عَقْرُهُمْ للنَّاقةِ يَوْمَ الْأَرْبعاء.

قالُوا له وهُمْ يَهْزَؤُون: ومَتَىٰ ذَلِكَ يَا صَالِحُ؟ وما آيَةُ ذَلِك؟ قال لَهُم: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْم الْخَمِيسِ وَوُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّة، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَوُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عذابُ اللهِ صَبَاحَ يَوْمِ الْأَحَدِ.

(١٩) فَلَمَّا قَالَ لَهُم رَسُولُهم صالحٌ عليه السَّلام مَا قَال، مُحَدِّدا مَوْعِدَ عَذَابِهِمْ، قال النَّفَرُ التِّسْعَةُ المفسِدُونَ الَّذِين تَوَاطَؤُوا على المشاركةِ في عَقْرِ نَاقَةِ الله، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالحاً، فإنَّهُ إنْ كان صادِقاً عَجَّلْناهُ قَبْلَنَا، وإِنْ كَانَ كَاذِباً أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ.

فأَتَوْهُ لَيْلاً لِيَقْتُلُوهُ، فَدَفَعَتْهُمُ الْمَلائِكَةُ بالحجارة فَأَهْلَكَتْهُمْ، فَلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أصْحَابِهِمْ، أَتَوْا مَنْزِلَ «صَالحٍ» عَلَيْهِ السَّلام، فَوَجَدُوهُمْ قَتْلَىٰ.

فَقَالُوا لصالح عليه السَّلامُ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثُمَّ هَمَّ الْقَوْمُ بِقَتْلِهِ، فَحَمَتْهُ عَشِيرَتُه، ولَبِسُوا السِّلاح، وقالُوا لهم: واللهِ لَا تَقْتُلُونَه، فَقَدْ وَعَدَكُمْ أنَّ العذابَ نَازِلٌ بِكُمْ في ثلاثٍ، فإنْ كانَ صَادِقاً لم تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُم إلَّا غَضَباً.

وإنْ كان كاذِباً فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُون.

فانْصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ، فَأَصْبَحُوا وُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّة، فأَيْقَنُوا بالْعَذَابِ، وعَرَفُوا أنَّ صَالحاً قَدْ صَدَقَهُمْ، فَطَلَبوهُ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ ذَلك، وشَغَلَهُمْ عَنْ مُلاحَقَتِهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ من أَمَارَاتٍ ذكرَهَا لهم.

(٢١) وفي لَيْلَةِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ لإهْلَاكِهِمْ، خَرَجَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام، هُو وَالَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وانْحَازُوا إلى مَكانٍ قَرِيبٍ لَا يَنْزِلُ فِيه العذاب، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرْتَحِلينَ مِنْ أَرْضِهِمْ ودِيَارِهِم، جِهَةَ أَرْضِ الشَّامِ حتَّىٰ نَزَلُوا رَمْلَةَ فِلْسطين.

وكانَ ذَلِكَ بَعْدَ أنْ تَمَّ إهْلَاكُ كُفَّارِ ثَمُود.

(٢٢) لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ العزيزُ المنتقم الجبّارُ علىٰ ثَمُودَ الصيْحَة صَبِيحَةَ يَوْمِ الأحَد، كما ذكَرَ لَهُمْ رسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام، وأخَذَتْهُمُ الرَّجْفةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كبيرٌ وَلَا صَغِيرٌ إلَّا هَلَكَ.

وكذلِك يفْعَلُ اللهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ ـ بكُلّ المجرمين، متَىٰ صَارَ صَلاحُهُمْ أو صَلَاحُ مُعْظَمِهِمْ ميْؤُوساً مِنْهُ تماماً.

تِلْكَ سُنَّة الله عَزَّ وجلَّ في عباده في دار الابتلاء، ولَنْ تَجدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحْويلاً.

استعراض النصوص الواردة في القرآن المجيد بشأن صالح عليه السّلام وقومه مع بيان المناسبة الداعية لذكرها في سورها وهي (٢١) نصاً

النصّ الأول

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

جاء ذكر «ثَمود» في هذا النّصّ ضِمْنَ ذِكر «عَادٍ» و«فِرْعَوْنَ» في سياق التَّلْويح لكفّار مَكَّةَ ومَا حَوْلَها، إبَّانَ التنزيل، ويُلْحَقُ بِهِمْ أشباهُهُمْ إلى قرب قيام السَّاعة، أنَّهم إذا وصَلُوا إلى حالَةٍ تُشْبهُ حَالَةَ «عاد» قوم الرسول «هود» عليه السَّلام، أو تُشْبِهُ حالَةَ «ثَمُود» قوم الرَّسُول «صالح» عليه السَّلام، أو تُشْبِه حَالَةَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنُودِهِ، وكُلُّ هٰؤلاء قَدْ طَغَوْا في البلاد فَأَكْثَرُوا فيها الْفَساد، أَنْ يُجْري اللهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ، فَيَصُبَّ عَلَيْهِمْ سَوْطَ عَذَابٍ، إذْ هُو جلَّ جَلَالَهُ لَبِالمرصَادِ، يَرْصُدُ أحْوَال الأمم، وسُنَّتُه بِعِبادِه واحِدَة.

النصّ الثاني

قَوْل اللهِ عَزَّ وجَلّ في سورة (النَّجْم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) في معرض بيان بَعْض أفْعَالِ الرَّبّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي كَوْنِهِ وفي عباده، ومِنْها إهلاك المجرمين الذين قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ استَحَقُّوا الإهْلاكَ الشامِل معها:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

وفي هذا النصّ جاء ذكْرُ إهلاكِ الله «ثموداً» ضِمْن ذِكْرِ إهلاكه «عاداً» و«قَوْم نُوح» و«قَوْم لُوط» المرادين بعبارة [**المُؤْتَفِكَة**] أي: المنْقلبة الّتي انقلبت بلادُهُمْ عَلَيْهم فجعلَ اللهُ عالِيها سَافِلَها.

والغرض إنْذار كُفَّار مَكَّة فَمَنْ حَوْلها، ثُمَّ يُلْحَقُ بهم أَشْبَاهُهُم إلى قُرب قيام الساعَة، أنَّهم إذا وَصَلُوا إلَىٰ حَالةٍ تُشْبِهُ حَالَة قوم من هؤلاء المهلكين، أنْ يُجْرِي اللهُ فيهم سُنَّتَهُ فَيُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً شَاملاً مَقْرُوناً بِتَعْذِيبٍ، ثُمَّ لهم عذابٌ أكبر يوم الدّين.

النَّصُّ الثالث

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

فجاء في هذه السّورة ذكْرُ إهْلاكِ اللهِ «ثموداً» قَوْم الرَّسُولِ «صالِحٍ» عليه السَّلام، وأفْرَدَهُمْ الله بالذِّكْرِ لإنْذَار كفَّارِ مكّة ومَنْ حَوْلَها إبَّان التَّنْزِيل.

ويظهَرُ لِي أنَّ الْغَرَضَ التَّنْبيه عَلَىٰ أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ المنْذَرين، قَدْ بَدَأَتْ أحْوالُهُم وأعْمالُهُمْ الكُفْرِيَّة تَقْتَرِبُ مِنْ بِدَايَاتِ أَحْوَالِ وأعْمَالِ «ثمود» الكُفْرِيَّة الَّتي جرَّتْهُمْ إلى الدَّرَكات الَّتي اسْتَحقُّوا بها الإهْلاَكَ العامَّ الشّامل.

النَّصُّ الرابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الْبُرُوج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ فلِكُلِّ متلَقٍّ لآيات الكتابِ المجيد:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

جاء في هـٰذِهِ السّورة حَدِيث مُطوّلٌ عَنْ أصْحَاب الأخْدُودِ وقصّتهم مع مُؤمِنِي قومهم، وجاء فيها تَلْوِيحٌ لِمَنْ يَضْطهِدُ ضُعَفَاءَ المؤمنين في مَكّة، بأنَّ بَطْشَ اللهِ شديد إذَا بطَش بالطُّغَاةِ الظَّالمين، وضَرَبَ مَثلاً إيمائيًّا علَىٰ بَطْشِهِ بِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجنُودِهِ، وعلى بَطْشِهِ بكُفَّارِ ثَمُودِ.

النّصّ الخامس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عَنْ كُفَّارِ مكّة وتَعَجُّبِهِمْ مِنْ أنْ يأتِيَهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ منْهم، ومِنْ نبأ يوم الدّين الذي يُبْعَثُ فيه الموتى للحساب وفصل القضاء وتَحْقِيق الجزاء:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾:

فذكر اللهُ عزّ وجلّ في هذا النصّ ثموداً ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ من المهلكِين السَّابِقين، هم «قوم نوح ـ أصْحاب الرَّس ـ ثمود ـ عَادٌ ـ فِرْعَونَ: أي: وملَؤُهُ وقومه ـ إخوان لوط ـ أَصْحَابُ الأيْكَة، وهم من قوم شعيب عليه السَّلام ـ قوم تُبَّع» وقد سبَق بيانهم لدى تدبّر السورة. والغرضُ التلويحُ بالْإِهْلَاك، وجاء فيه بيان أنّ إهلاكهم كان تنفيذاً لِوَعِيدِ سَبَقَ أن بلَّغَتْهُمْ إيَّاهُ رُسُلُ ربّهم.

النصّ السادس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ

ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

سبَق تَدبُّر هـٰذا النَّصّ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَةِ (القمر) وقَدْ جَاءَ فيها لإِنْذَارِ كُفَّار مَكَّةَ فَمَنْ حَوْلَهَا إبَّانَ التنزيل، ثُمَّ مَنْ بَعْدهم إلى قُرْب قيام السَّاعَة، بإهْلَاكٍ مُمَاثلٍ لإهْلَاك ثمود، إذا وصَلَتْ أحْوَالُ ٱلْأَقْوَام إلى مِثْلِ حَالَةِ ثَمُود حين أُهْلِكوا.

وجاء في هذا النَّصّ بَعْضُ تفصيل لِقِصَّتِهِمْ، علىٰ طَرِيقَةِ القرآن في توزيع تَفْصِيلاتِ الْقِصَصِ وَالْمَوْضُوعَاتِ في السُّوَرِ الّتِي تأتي فيها تَوْزِيعاً تكامُلِيًّا.

وسَتَأْتي بَعْدَ الاسْتِعْراض النظرة التكامُلِيَّة إنْ شَاءَ اللهُ وأعَانَ وألْهَمَ ووفَّق.

النصّ السابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشَأْنِ الْمُصِرِّين على عنادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ منْ كفّارِ مكّة وما حولها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

فذكر الله عزّ وجلَّ في هذا النصّ ثموداً ضِمْنَ مجموعة من المهلَكين السَّابقين، وَجاء فيه بيان أنَّ إهْلاكَهُمْ كان إهلاك عقاب، بقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وقد جيءَ به لإنْذَارِ كُبَراء كفَّار مكَّة، الّذِين وَصَلُوا إلى حالَةِ مَنْ هُوَ فِي عزَّةٍ وشِقَاقٍ، يريدُونَ مُقَاومَةَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ بالْقُوَّة المسَلَّحَةِ بالأسْلِحَةِ العسكَرِيَّة، إبّان نزول هـٰذِهِ السورة.

النصّ الثامن

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

سبق تدبّر هذا النصّ لدَىٰ تَدَبُّر سُورَة (الأعراف) وقَد جاء فيها لإِنْذار المكذّبين بما جاء به الرسُول محمّد ﷺ، ولم يَتّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وجاء في هذا النصّ تفصيلاتٌ لَمْ تَأْتِ في النُّصوص الأخرىٰ، وسيأتي إنْ شاء اللهُ التَّدَبُّر التكاملي لمجموع النُّصُوص.

النصّ التاسع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) مُنْذِراً كُفَّارَ مَكَّةَ إبَّانَ تنزيل السّورة بإهْلَاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلَاكِ المكَذِّبينَ السَّابقين الَّذِين كَذَّبُوا بآيَاتِ رَبّهم، وَكَذَّبُوا رُسُلَه:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾:

فذكر الله عزّ وجلَّ ثموداً في هٰذا النصّ ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ المهلَكِين السَّابقين، وجَاءَ فيه بيانُ أنَّ كُلًّا مِنْهُمْ قَدْ وعظَهُ اللهُ بِضَرْبِ الأمْثَال وحَذَّرَهُ وأنْذَرَهُ، فَلَمْ يَتَّعِظْ، فأهْلَكَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ إِهْلاكاً فيهِ تَتْبِيرٌ، أي: فِيهِ تَفْتِيتٌ إلَىٰ أجْزَاءٍ صُغْرَىٰ.

النصّ العاشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في مَعْرِضِ إنْذَار الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِم، بأنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ مِثْلَمَا أَهْلَكَ المكَذِّبين السَّابِقِين من القرون الأولى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾:

سبق تَدَبُّر هٰذا النصّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الشعراء) وقد جاء فيه

تفصيلات لم تأتِ في النُّصوص الأخرى، وسيأتي إنْ شاء اللهُ التدبُّر التكامُلِيُّ لمَجْمُوعِ النُّصُوص.

النص الحادي عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

سَبَقَ تَدَبُّر هذا النصّ في موضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (النّمل) وقَدْ جاء فيه تَفصيلات لم تَأْتِ في النُّصُوص الأخرى، وسيأتي إنْ شاء الله التَّدَبُّر التكامُلِيُّ لِمَجْمُوع النّصُوص.

النّصّ الثاني عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾:

دَلّت هٰذِهِ الآية على أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّة طَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، أنْ يُجْرِيَ الله لَهُ آياتٍ خوارِقَ اقترحوها، كَأن يُنَحِيَ عَنْهُمْ

جبالَ مكَّة، أَوْ أَنْ يجْعَلَ بَعْضَ جِبالها أوْ بَعْض مواضِعَ مِنْهَا ذَهَباً، كَمَا أَخْرَجَ لصالح عليه السَّلام الناقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عيَّنَها قَوْمُه، وَكَانَتْ قِصَّةُ هٰذِهِ النَّاقةِ وقصَّةُ صالحِ وقَوْمِهِ ثَمُود مُتَدَاوَلَةً بَيْنَهُمْ.

فأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّه قَادِرٌ عَلَىٰ إرْسَالِ مَا يَطْلُبُونَ وما يَقْتَرِحُونَ مِنْ آيَاتِ خارِقَاتٍ، من الآيَاتِ المادِّيّة، إلّا أنَّ مِنْ سُنَّتِهِ أَنَّه إذا اسْتَجابَ لمطالِبِ الْقَوْمِ، فأجْرَىٰ لرسُولِهِ الآيَة أو الآيات الّتي اقْتَرَحُوها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أَنْ يُهْلِكَهُمْ بِعَذَابِ، ويَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إذْ لَا يَكُونُ من الحِكْمَةِ إمْهَالُهُمْ وتَأْخِيرُهُمْ إلَىٰ آجالهم.

وقَدْ أثبتَتِ التَّجاربُ الْبَشَرِيَّةِ، أنَّ الخوارِقَ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكَافِرُونَ الْمُعَانِدُونَ الجاحِدُونَ، لَا تُغَيِّرُ مِنْ واقِعِهِمْ شيئاً، فَهُمْ في قُلُوبِهِمْ مُسْتَيْقِنُونَ، إلّا أَنَّهُمْ جاحِدُونَ، ومَا يَقْتَرِحُونَ مِنْ آياتِ خَوارِقَ إنّما هي مَطَالِبُ تَعَنُّتِيَّة، ولَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَخْرِقَ اللهُ سُنَنَهُ فِي كوْنِهِ للجاحِدين المتعَنِّتين، الّذين يَطْرَحُونَ المطالِبَ عَلَىٰ سَبيلِ التَّشهّي والتَّلاعُب بالسُّننِ الرَّبَّانِيّة.

وَمِنَ الأمْثِلَة الواقِعيَّة في تاريخ الأُمَم أنَّ كفَّارَ ثَمُود لَمْ يُؤْمِنُوا، على الرُّغْم مِنْ أنّ اللهَ عزّ وجلَّ قَدْ آتاهم مُعْجِزَة النَاقَةِ على وفْقِ مَا طَلَبُوا تَماماً، فكان مِنَ الحكمة والْعَدْلِ تَعْذِيبُهُمْ، وإهلاكُهُم أَهْلَاكَ اسْتِئصال.

فالله عزّ وجلَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّضَ أَهْلَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الحَرَامِ، لعذابِ شاملٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلاك اسْتِئصال عامّ، وهُمُ الصَّفُّ الأوّل من قوم خاتم رُسُلِهِ وأنبيائه، وفي كثِيرِ مِنْهُم قابليَّةٌ أن يُؤْمِنوا ويُسْلِمُوا بَعْدَ أنواعِ علاج في بِضْعِ سِنين، يُهْلِكُ اللهُ فيها الكُبَرَاءَ المعَانِدين بجُحُود، الَّذِين يَمْنَعُونَ أَتْبَاعَهم من الإيمانِ والإسْلام، هذا ما تحقّق فِعلاً بَعْدَ بِضعِ سنين، ثمّ بَعْدَ فتح مكّة.

فالمعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ من ﴿أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المقترحات من الخوارق المادّية الّتي طَلَبها أهْل الجحود مِنْ كُبراءِ وأئِمّة مُشْرِكي مَكّة ﴿إِلَّآ﴾ مَا قَضَتْ بِهِ حِكْمَتُنَا، بَعدَ ﴿أَن﴾ كَشَفْنَا للناسِ بالتجربَة أنَّ المستَيْقنينَ الجاحِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ولَوْ أَجْرَيْنَا لَهُمُ الخوارِقَ الّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدْ ﴿كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَ﴾ مِنْ أمْثِلَةِ المكذّبينَ الأَوَّلين أنَّنا ﴿ءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ الْمُعْجِزَة الخارقَة للعادَة على وفْق مَا اقْتَرَحُوا عَلَىٰ رسُولهم صَالح، وكانت هٰذِهِ النَّاقَةُ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ لَهُمْ إذْ جعَلَتْهُمْ يُدْرِكُون آيَةَ الْحَقِّ بأبْصَارِهِم ﴿فَظَلَمُواْ﴾ جَاحِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وَظَلَمُوا بِعقْرِها، فاسْتَحقُّوا الْعَذاب الْمُسْتَأْصِلَ.

وبَعْد أَنْ كشَفْنَا للنَّاسِ طَبائِعِ المكذّبينَ الجاحِدِين بتَجْرِبَة كُفّارِ ثَمُود، صَار من الْحِكْمَةِ أَنْ لَا نَسْتَجِيبَ لمطالِبِ الكافِرِينَ التعَنُّتِيَّة، وأنْ تكونَ آيَاتُنَا آياتِ تَخْويفٍ بأنَّا قادرونَ على مَا نَشاء ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ ونَحْنُ نختارُها ونُجْريها بِحِكْمتِنَا، ولا نَجْعَلُ خَرْقَ سُنَنِنا الكونيّة أُلْعُوبَةً للمتَشَهّين المتعَنّتين الْجَحُودِينَ، الذين كَذَبُوا رَسُولَنَا بَعْدَ أَنْ صَدَّقْنَاهُ بآيَاتِنَا الْخَوارِق، وَكَذَّبُوا بِكِتَابِنَا الَّذِي نُنَزِّلُ آياتِهِ الْبَيّنات عَلَيْهِ، ويتْلُوهُ على الناس تباعاً على وَفْق مَا أَنْزَلْنَاه.

الباء في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ زِيدَت للتوكيد.

النص الثالث عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

وَجاء في سورة (هود) أيْضاً حكايةٌ لِمَقالَةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام لقوْمِهِ وَاعظاً ومحَذّراً ومُنْذِراً.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

وجاء فيها أيضاً بَعْدَ بيان إهْلَاك قَوْمِ شعيب عليه السَّلام:

﴿. . .أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

وهذا النص من سورة (هود) سيأتي إن شاء الله تدبره في الدراسة التكاملية.

النصّ الرابع عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكايةً لبعض مَقالَاتِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لقومه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

فجاء في هذا النّص ذكر «ثَمُود» ضِمْن مَوْعظةِ مؤمن آل فرعَونَ لِقَومِهِ، مُحذِّراً لَهُمْ من إهلاك شامِلٍ مماثل لإهلاك هؤلاء الأقوامِ الّذِين ذكَرَهُمْ في مَوْعِظَتِه.

النّص الخامس عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) في مَعْرِض الحديث عَنْ كُفّار أهْلِ مكّة إبّان التنزيل، وخطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: أي: فإنْ أعْطَىٰ كُفّارُ قُرَيشٍ لَكَ ولِدَعْوَتِكَ عارِضَهُمْ غَيْرَ مُسْتجِيبِينَ لَها وَلَا عابئِينَ بها.

﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾: أي: فَقُلْ لَهُمْ مُنْشِئاً إخْباراً بإهْلاكٍ شَاملٍ إذَا أصَرُّوا عَلَىٰ إعْراضِهِمْ وكُفْرِهِمْ.

يقال لُغَةً: «أَنْذَرَهُ الشَّيْءَ» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ وَخَوَّفَهُ مِنْه، فالفعل يتعدّىٰ إلى مفعولين مثل فعل «أعْلَم».

صَاعِقَةً: مَفْعُولٌ به ثَانٍ للفِعْلِ في ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ والصَّاعِقَةُ تُطْلَقُ في اللُّغَة علىٰ النَّازلَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ، أيّاً كانَ نَوْعُها أو كَانَتْ مَادَّتُها. وتُطْلَقُ عَلَىٰ جِسْمٍ نَارِيّ مشْتَعِلٍ يَسْقُطُ من السَّماء. ويَظْهَرُ أنَّ المعنَىٰ الأوّل هو المرادُ هُنا، ومَعْلُومٌ أنّ المعنَىٰ الثّاني يَدْخُلُ في عُمُومِ المعْنَىٰ الأوّل.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: اذْكُـــــروا إذْ

جَاءَتْهُمْ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ أَنْبَاءُ الرُّسُلِ الَّذِينَ جاءُوا في التارِيخِ قَبْلَ عَادٍ وثَمُود، وبُشْرَيَاتٌ بالرُّسل الذين سيأتون في التاريخ بَعْدَهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾: أي: ومَضْمُونُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا إلىٰ أقوامِهِمْ قَبْلَ عَادٍ وثَمُودَ، والّذِينَ سَيأْتُونَ في الأجيال البشريّةِ بَعْدَهُمْ، هي الأمْرُ بعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، والنَّهْيُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْره، إذْ عبادة غيرِهِ إشراكاً أوْ إفراداً كُفْرٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ عزّ وجلّ.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾: **الْجُحُود**: إنْكَارُ الْحَقِّ مع الْعِلْم بأنَّهُ حَقٌّ. وآيات الله تَشْمَلُ: الآيَاتِ التكوينيَّة، والآياتِ الإعجازِيَّة الَّتي يُؤَيِّدُ اللهُ بها رُسُلَه، والآياتِ الجزائِيَّة، والآياتِ البيانِيَّة المنَزَّلَةِ على الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِها للناس.

﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾: أي: رِيحاً بَارِدَةً ذَاتَ صَوْتٍ شديدٍ مُخِيفٍ، فيه ما يُشْبِهُ نُطْقَ الصّادِ والرَّاء.

﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾: أي: مُجْهِدَاتٍ ضَارَّاتٍ لَا خَيْرَ وَلَا رَاحَةَ فيها. **النَّحْس**: الْجَهْدُ والضُّرُّ.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾: أي: فبيَّنَّا لَهُمْ صِرَاطَ هِدَايَتِهِمْ إلَىٰ سَعَادَتِهم الْعَاجِلَةِ والآجِلَة:

﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾: أي: فَاشْتَدَّ حبُّهُمْ للكُفْر والضَّلالَةِ وسُبُلِ الغَوايةِ اتّباعاً لأهوائِهم وشَهَواتهم، ولا يَكُونُ هـٰذا إلَّا عَنْ عَمىً في بَصَائِرِهِم، فَحُبُّهُمْ لِهـٰذِهِ الأُمُورِ يُصَاحِبُهَا عَمَىٰ البصائر، ومَنْ أَحَبَّ شيئاً أَحَبَّ مَا يَكُونُ قَرِينا لَهُ مُلازماً.

وكان هذا حالَهُمْ في آخِرِ مَرَاحِلِ دَعْوَتِهِم إلى دين الله الحق.

﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: أي: فأخَذَتْهُمْ مِنْ

حَيَواتِهِمْ نَازِلَةٌ مِنْ رَبِّهِم، فِيهَا عَذَابُ الخِزْيِ والإِذْلَالِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ من جرائمَ وآثام.

النص السادس عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) مُنْذِراً عُتَاة الكافِرين:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هذه الآياتُ تُعَبِّرُ عَنْ الفِقْرَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ «ثَمُودَ» قَبْلَ إِهْلَاكهم، إذْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام بعدَ أنْ يَئِسَ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ في حَيواتِكم الَّتِي سَتُسْلَبُونَها بِنوازلِ عَذَابٍ مِنْ رَبّكم في زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مَا ﴿فَعَتَوْا﴾ مُسْتَكْبِرِينَ ومُتجاوزِينَ حُدُودَ المعاصِي الَّتي تُغْفَرُ إِلَىٰ الكُفْرِ العناديّ الجحودِيّ الَّذِي لَا يُغْفَرُ، ومُعْرِضِينَ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ مِنْ حَيَواتِهِمْ ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ النّازِلَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهم بعذابٍ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أَسْبَابَهَا، فَصَرَعَتْهُمْ أَرْضاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ مِنْ مَصَارِعِهِم ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ على وسائل تَعْذِيبِهِمْ وإِهْلاكهم، بَلْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَذِلَّة مَخْزِيُّونَ، ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ.

النصّ السابع عشر

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورة (إبراهِيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكايَةً لِقَوْل مُوسَىٰ عليه السَّلام لبني إسرائيل:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ

بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾﴾:

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: في هٰذِهِ الْعِبَارَةَ كنَايَةٌ عَنْ رَفْضِ اسْتِمَاعِهِمْ لِدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهم، لأنَّ مِنْ عادَةِ المتحدِّثِ الدَّاعي إلَىٰ فِكْرَةٍ مَا، أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ مُشِيراً بِهَا لِتُسَاعِدَ حَرَكَةُ يَدِهِ بَيَانَ لِسَانِه، وَمِنْ عَادَةِ كُبَرَاءِ مَنْ يُحَدِّثُهُمْ الرَّافِضِينَ لمَضْمُون حَدِيثه، والمستكْبِرِينَ عَنِ الاسْتِماعِ إِلَيْه، أَنْ يَرُدُّوا يَدَ الْمُحَدِّثِ الّتي يَمُدُّهَا مُشيراً بها، فَيَجْعَلُوهَا في فِيه إسْكَاتاً لَهُ.

فَصَارَتْ هٰذِهِ الصُّورَةُ كِنَايَةً عَنْ شِدَّةِ رَفْضِ دَعْوَةِ الدَّاعِي.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾: أي: إنَّا كَفَرْنَا بالدِّين الَّذِي أرْسِلْتُمْ بِهِ، عَقِيدَةً وعَمَلاً.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾: أي: وإنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ وَعَمَلَ، وهٰذا الشَّكُ يَجْعَلُنَا نَرْتَابُ في أنَّكَ ذُو غَرَضٍ شَخْصِيٍّ دُنْيَوِيٍّ مِنْ دَعْوَتِكَ.

النّصّ الثامن عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

الْقَارِعَة: القيامة.

الطاغية: الصَّيْحَةُ العظيمَةُ المهْلِكَة.

النصّ التاسع عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) ضِمْنَ بَيانِ طائفة من المهلَكين الأوَّلين، وخطاباً لمعانِدِي كُفَّارِ قُرَيشٍ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي: وَكَانُوا مُدْرِكِينَ الْحَقَّ الذي جاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، بِبَصَرٍ فِكْرِيّ قَوِيّ، وَلَكِنْ صَدَّهُمُ الشيطانُ عَنْ سَبِيلِ الله، بالأَهْوَاءِ والشهواتِ الَّتِي زَيَّنَ لَهُمْ بِهَا أعْمَالَهُمْ الآثِمَة الظالِمَة الجائِرَة عَنِ الصّراطِ السّوِي.

النصّ العشرون

قول اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله بِشأن الذين كذّبوه إبَّان التنزيل:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

يظهر في هذا النّصّ تَسْلِيَةُ اللهِ لِرَسُوله، وَوَعْدٌ لَهُ بِنَصْرِهِ على أعداء دَعْوَتِهِ، وتَهْدِيدٌ لِلْمُكَذِّبين.

النصّ الحادي والعشرون

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) مُهَدِّداً المنافقين بمِثْلِ العذاب والإهْلاكِ اللّذَيْنِ أنْزَلَهُما بالكافِرِينَ السابقين.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: فَما كان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ بِعِقَابِهِ لَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ على وَجْهِ الْخُصُوصِ والتَعْيِينِ يَظْلِمُونَ.

وهذه النصوص تتطلَّبُ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا في فُصول.

❁ ❁ ❁

التدبّر التكاملي

وفيه تِسْعَةُ فُصُول:

الفصل الأوّل: مُجْرِياتُ دَعْوَةِ صالحٍ عليه السَّلام لِقَوْمِهِ ثمود.

الفصل الثاني: مرحلة تَفَاقُمِ التَّخاصم بَيْنَ المؤْمِنينَ والكافِرِين من ثمود.

الفصل الثالث: مَرْحَلَةُ إعلان كُفَّار ثمود عدمَ مُبَالاَتهم بأنْ يأتيهم صالِحٌ بما أنْذَرهم به، إذْ هُمْ لَا يُؤْمِنُون بنُبُوَّتِه ولا برسالته.

الفصل الرابع: مَرْحَلَةُ طغيانهم بعَقْرِ نَاقَةِ الله، وتَحدِّيهم له بأن يأتِيَهُمْ بما يَعِدُهم به من عذاب وإهلاك.

الفصل الخامس: مَرْحَلَةُ تَبْييت أشقياء ثمود قَتْل صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام وأهْلِهِ مَعَه.

الفصل السادس: مَرْحَلَةُ إنْذَار صالحٍ عليه السَّلام قَوْمه بأنّ عَذَابَ اللهِ نَازِلٌ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أيَّام.

الفصل السابع: ماذا فعل صالح عليه السَّلام بَعْدَ أنْ أهْلَكَ الله قومه، ونجَّاه والذين آمَنُوا معه.

الفصل الثامن: التَّعْقِيب الرّبّانيّ على إهلاك كُفّارِ ثمود.

الفصل التاسع: توجيه العظة في النصوص القرآنية بما أنزل الله عزَّ وجلَّ بكفَّارِ ثمود.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول
مُجْرَيَات دَعْوة صَالِحٍ عليه السّلام لقومه ثمود

أولاً:

ظهر لي من دِراسَةِ النُّصُوص وتَدَبُّرِها تَدبُّراً تكامُلِيًّا أنَّ أَوَّلَ دَعْوَةِ صالحٍ عليه السَّلام لقومه ثمود، كانت مُشْتَمِلَة على ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾:

التدبّر:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾: أي: وأَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحاً نبيًّا وَرَسُولاً عليه السَّلام.

وقد كان منهم نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً أخذاً ممَّا هو معروف من تاريخه، فكَلِمَة «أخ» لَا تُفِيدُ كونه مِنْهُمْ نَسَباً، إذ اسْتُعْمِلَتْ في نِسْبَة «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام إلى قومه في القرآن، مع أنَّهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ نسباً، وإنّما كان صِهْراً لهم، ومتكلّماً بلُغَتِهِم، ومقيماً في أرضهم.

وقد اشْتَمَلَ بيان صالح عليه السَّلام لقَوْمِهِ الّذِي دَلَّتْ عليه هذه الآيَة على سِتِّ قَضَايا:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ حكاية لمَعْنَى ما قاله صالح لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وفي قراءة أخْرَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِهِ﴾ والمؤدَّىٰ واحد.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ بحذف ياء المتكلّم، وإبقاء الكسْرَة دَلِيلاً عَلَيْها. وفي هذا النداء استِعْطَافٌ برِفْق.

فكانَتْ بدايَة دَعْوَتِهِ لقومِهِ مُمَاثِلَةً لِبِدَايَاتِ دعوات سائِرِ الرُّسل عليهم السلام لِأَقوامهم، وهي الدَّعْوَةُ إلى عبادة الله عزّ وجلّ وحْدَه، دَوْنَ أن يُشْرِكوا بعبادته أحداً مَا، ولَا شيئاً ما.

لقَدْ بَدَأَهُمْ بالْأَمْرِ بعبادةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَدَلَّ هٰذا عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدونَ أوثاناً.

ومَعْلُومٌ أنَّ عبادة الله عزّ وجلّ هو الواجب الأوّل بَعْدَ الإيمان به رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّته، وبَعْدَ إعلان الإسلام له، وإعْلان الحِرْص على طاعَته.

وأوّل العبادة لله عزّ وجلّ تكُون بطاعَتِه في فِعْلِ مَا أَمَرَ بفِعْلِهِ، وتَرْكِ ما نَهىٰ عنه، وتكونُ بدُعائه لتحقيق المطالب، ثم بالتقرُّب إِلَيْهِ بمحَابِّه فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: ليْسَ لَكُمْ في الواقِع والحَقِيقَةِ إلَهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إلّا اللهُ وَحْدَه، إذْ هُوَ الرَّبُّ الذي لا رَبَّ في الوجود سِوَاهُ.

والعبادة من الْعَبْدِ لَا يجوزُ أنْ تكونَ إلّا لِمَنْ هُو رَبُّهُ حقًّا، ورُبُوبيَّتُهُ الدائمة المتصَرِّفَةُ فيه تُوجبُ عَلَيْهِ عبادَتَهُ وَحْدَهُ.

أمّا عبادَةُ غَيْرِ مَنْ هُو رَبٌّ حَقًّا فهِيَ شِرْكٌ به، وهذا الشِّرْكُ في إِلَهيَّتِهِ أوّلُ دَرَكاتِ الكُفرِ بِه، وأحَطُّ وأخَسُّ دَرَكَةً مِنْها دَرَكَةُ الْإِشْرَاكِ برُبُوبيَّتِهِ سُبْحَانَه، ثُمَّ دَرَكَةُ جُحودِ اللهِ الرَّبّ جُحُوداً كُلّياً، وَتَزْدَادُ الدَّركاتُ تَسَفُّلاً بارْتكاب جرائم البغي والظُّلْم والْعُدْوان، والْفِسْقِ والفجور والْفَسَادِ والنِّفَاقِ، والدَّعْوَة إلى الكفر وارْتكاب الجرائم، حتَّىٰ تُوصِلَ أصْحَابهَا إلى الدَّرْك الأسْفلِ من النار.

القضية الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلَّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ صالح عليه السَّلام لِقَوْمه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

الإنْشَاءُ: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكامل المتدرّجِ غالباً، يقالُ لغة: «أنْشَأَ الشيْءَ إنْشَاءً» أي: أحْدَثَهُ إحْداثاً مَصْحُوباً بالتكامُلِ المتدَرّج، ويقال لغة: «نَشَأَ الشيْءُ نَشْئاً وَنُشُوءاً ونَشْأَةً» أي: حَدَثَ وَتَجدَّدَ.

فأبانَ صالحُ عليه السَّلام لقَوْمِهِ مَظْهَراً من مظاهر رُبُوبيَّة اللهِ لهم، وهو إنْشاؤهم من الأرض.

أمّا خَلْقُ آدَمَ أبي الْبَشَر فقد كان مِنْ طين «ترابٍ وماء» وهٰذِهِ معلومَةٌ مَوْرُوثَةٌ في الناس من عَهْدِ آدم عليه السَّلام.

وأمّا ذُرّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِه فَمِن المعلُوم لَدىٰ كُلّ الناس أنّ المادّةَ الّتي تتكَوَّنُ مِنْها الأَجِنَّة مَخْلُوقَةٌ في الذُّكُورِ والإناثِ من الدّماء، والدِّماء مَخْلُوقَةٌ مِن الْغِذَاء النَّباتِي أو الحيوانيّ، وكُلُّ ذَلِكَ مَنْشَؤُهُ من الماء والتراب، وهما من عناصر الأرض.

وبما أنَّ اللهَ هو الّذي أنْشَأَهم من الأرض إنْشَاءً مُتَدَرِجاً فهو رَبُّهم، أي: هو خالِقُهُمْ وفْقَ نظام التربيَةِ الَّتي هي الإنْشَاءُ المتدرّج، وهو المهيْمِنُ عَلَيْهِمْ في كُلّ أطْوَار وُجُودِهم المستمرَّةِ والمتجدّدة.

القضية الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ حكاية لمعنى ما قالَهُ صالحُ عليه السَّلام لقومه: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾: أي: واسْتَعمركم في الأرض، بأنْ جَعَلَ في نُفُوسِكُمْ وقُدْراتِكم الفِكْرِيَةِ والْجَسَدِيّة، ما يَسْتَحِثُّكم ويَحُضُّكُمْ علىٰ إعْمَارِ الأرض، ببناء مَسَاكِنها، واستِنْبَات زُرُوعها وأشجارها، وإنْشَاءِ جنَّاتِها ومَصَانِعِها وسائر المنشآت النّافعات فيها، وهيَّأَ لَكُمُ الأرْضَ لهذا الإعْمَارِ، ومَكَّنَكُمْ وهَدَاكُمْ لاتّخَاذِ وسائِلِ إعْمارها، لأنّ مصالحكم ومنَافِعَكُمْ في الحياة الدّنيا مُرْتبطَةٌ بإعْمارها. وكذلِكَ جَعَلَكُمْ تَعْمُرونَهَا بأشخاصِكم إذْ تُقيمونَ فيها.

يقال لغة: «اسْتَعْمَرَهُ في المكان» أي: جعلَهُ يَعْمُرُه، بالأمْرِ، أو

بالتمكين والهِدَاية وتَهْيِئَةِ الشّروط والوسائل، أو بالإيجاد فيها.

ويقال: «عَمَّرَ الأَرْضَ» أي: بَنَىٰ عَلَيْها وَأَهَّلَها.

القضية الرابعة: دلَّ عليها قوْلُ الله عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قاله صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: فإذا آمَنْتُمْ باللهِ رَبّكُمْ، وآمَنْتُمْ بأنَّهُ هُو المعْبُودُ الحقُّ الّذِي لاَ إِلَهَ إلّا هُو، وعَلِمْتُمْ أنَّهُ هُو الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ في الأرْضِ الّتي جَعَلَكُمْ تُقِيمونَ فيها، وتَنتَفِعُون من خيراتها، وتُنْشِئُون مُنْشَآتِكُمْ عَلَيْها، فاسْأَلُوهُ أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وخَطَايَاكُمْ الّتِي ارْتَكَبْتُمُوها، من شِرْكٍ وظُلْمٍ وعُدْوان وكبائر وجرائم وآثام.

غَفَرَ الذَّنْبَ: أي: سَتَرَه، وهذا يسْتَلْزِمُ بفَضْلِ اللهِ التَّجَاوُزَ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

تقولُ لغة: «غَفَرَ الشَّيْءَ، يَغْفِرُهُ، غَفْراً، وَغُفْرَاناً، ومَغْفِرَة» أي: سَتَرَه.

القضيّة الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ حكاية لمَعْنَىٰ ما قالَهُ صَالحٌ لِقَوْمه: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

يقال لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وَتَوْبَةً، ومَتَابَةً، وتابَةً» أي: رَجَعَ. وتَابَ الْعَبْدُ إلَىٰ رَبِّهِ، أيْ: عَزَمَ على الرُّجُوعِ إلى الطاعَة، والاسْتِقامَة بَعْدَ المعْصِيَة. ويقال: تَابَ اللهُ على عَبْدِهِ، أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجَعَ عَلَيْهِ بالْغُفْرَان والْعَفْوِ وفَضْلِ العطاء.

فالمعنَىٰ: ثُمَّ بعدَ الاستِغْفار الّذي تكونُ بِهِ التَّخْلِيَة من قاذورات الآثام، ارْجِعُوا إلى رَبّكم الّذي كُنْتُمْ قَدِ ابْتَعَدْتُم بمعاصِيكم عن دائرة تَنَزُّلاتِ رَحَمَاتِه، فلازموا طاعَته، بفِعْلِ ما يأمُرُكُمْ به، وتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه، فَبِهٰذِهِ التوبَةِ إلَيْهِ تكونُ تَحْلِيَتُكُمْ بِحِلْيَةِ عباد اللهِ المؤمنين المتَّقين.

القضيّة السّادِسة: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومه: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: أي: إنّ رَبِّي الَّذِي بَعَثَنِي إليكم رَسُولاً، والَّذِي هو رَبُّكُمْ، وهو اللهُ جَلَّ جلالُهُ، قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ عباده، بعِلْمِه وَقُدْرَتِهِ وَأَفْعَالِهِ، مُجِيبٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاه مُسْتَغْفِراً تَائِباً إِلَيْه، على وَفْق حِكْمَتِهِ.

هذه القضيَّة جاءت بمَثابةِ التعليلِ لقَوْلِهِ لهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

وجاء وضْعُ كَلِمَةِ ﴿رَبِّى﴾ مَقَامَ الضَمِير «إِنَّهُ» للدَّلَالَةِ على صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ الَّتِي مِنْها الْغُفْرَانُ واسْتِجَابَةُ الدُّعاء.

ثانياً

فاسْتَجابَ لِدَعْوَةِ صالح عليه السَّلام في هذه المرحَلَةِ فَرِيقٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَكَذَّبَهُ فَرِيق آخَرُ مِنهم، ويَظْهَرُ أنَّ مُكَذِّبيه منهم هُمُ الأكْثَرُ عَدَداً، وفيهم مُعْظَمُ سَاداتِهِم وكُبَرائهم.

دلَّ على هٰذِهِ الفقرة مِنْ هٰذِهِ المرْحَلَةِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أرْسَلْنَاهُ بِرِسَالَةٍ عُنوانُها العامُّ تَفْسِيرُهُ: أنِ اعْبُدُوا الله، وعلى هذا تكون «أن» تفسيريّة.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ «إذا» فُجَائيَّة، والفاء دلّت عَلَىٰ أنّ بَعْضَ قَوْمِهِ قَد اسْتَجابَ لِدَعْوتِهِ عقِبَ بيانها لهم.

والمعْنَىٰ: فإذا قَوْمُهُ عَقِبَ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلى دِينِ اللهِ الحقّ فَريقان:

الفريق الأول: الّذِين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوهُ، ويَظْهَرُ من عُمُوم قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلام وقومه، أنّ هذا الفريق هو الفريقُ الأقَلُّ والأَضْعَفُ.

الفريق الثاني: الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وكَفَرُوا بِمَا دَعَاهُمْ إلَيْه، ويَظْهَرُ من عُمُوم قِصَّتِه معهم، أنّ هذا الفريق هُو الفريق الأكْثَرُ والْأقْوى.

وَإِذْ صَارَ قَوْمُهُ فَرِيقَيْنِ: مُؤْمِنين بِه، وكافرين به، فَلَا بُدَّ بِحَسَبِ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي أنْ يَجْرِيَ تَخَاصُمٌ بَيْنَهما.

- فالّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه يُبَيِّنُونَ مُبرِّرَاتِ إيمانِهِمْ، وأدِلَّتَه، وبراهِينَ صِدْقِ الرّسُولِ وصِحَّةِ مَا جَاءَ به وأنَّهُ الحقُّ.

- والَّذِين كذَّبوا صالحاً، وكَفَرُوا بما جاء به يُبَيِّنُونَ ذَرائِعَ كُفْرِهم والْتِزَامِهِم بتَقَالِيدِهم، وانتقاداتهم لرسُولهم الَّذِي فَرَّقَ جَمْعَ قَوْمِهِ، ومَزَّقَ وَحْدَتَهُمْ، إذ كانُوا مجتمعين على الشِّرْكِ والضّلالِ، والْبَغْي والفَسَادِ في الأَرْض.

ولِلذِّهْنِ أَنْ يَنْطَلِقَ في تَصَوّرَاتِ التخاصُمِ بَيْنَ فَرِيقَي المؤمنين والكافرِين، أَخْذاً مِنَ النَّظَائِرِ في المجتمعات البشرية.

الاختصام والتّخاصُم: المجادلَةُ والمنازعَةُ بيْنَ فَرِيقَيْن. يقال لغة: «اخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وتخاصَمَ الْقَوْمُ» أي: جادَلَ ونَازَعَ بَعْضُهُمْ بعْضاً.

ثالثاً:

وأنزلَ الله عزّ وجلّ على رَسُولِهِ صالحٍ عليه السَّلام الكتابَ الخاصّ به جُمْلَةً واحِدَة.

دَلَّ على إنزال الكتاب عليه قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾:

جاء في القرآن في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول) إطْلَاقُ لَفْظِ «البيِّنَة» على الرَّسُولِ وعلَىٰ الكِتَاب المنزَّلِ من عند الله.

والظاهِرُ أنَّ المرادَ بالبيِّنَة في هـٰذِهِ الآيَةُ من سورة (الأعراف) هذا المعْنَىٰ.

وكَانَ صالحٌ عليه السَّلام يَتْلُو عَلَىٰ قَوْمِهِ كِتَابَ رَبّه كما أَمَرَهُ، ويُنْذِرُهُمْ بعذاب اللهِ إِذَا تَوَلَّوْا وَلَمْ يُؤْمِنُوا.

فاعْتَرَضَ قَوْمُهُ عَلَىٰ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً وَهُوَ بَشَرٌ واحِدٌ مِنهم، يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوه.

واعْتَرَضُوا عَلَىٰ إِنْزَالِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ، واتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ كَذَّابٌ أشِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الْعُلْيَا فِي قَوْمِهِ، وذا السُّلْطانِ فيهم.

دلَّ على هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ **النُّذُرُ هُنَا**: جَمْعُ «النَّذِير» الَّذِي هو اسْمُ مَصْدَرِ فِعْلِ «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً».

فالمعنَىٰ: كَذَّبُوا بالإِنْذَارَاتِ الَّتي أَنْذَرَهُمْ بِها رَسُولُهُم صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام، فَهِيَ إِذَنْ إِنْذَارَاتٌ مُتَعَدِّداتٌ أَنْذَرَهُمْ إيّاها عاجِلَةٌ في الحياة الدُّنيا، وآجِلَةٌ إِلَىٰ يَوْم الدّين.

ولمّا كانت الإنذاراتُ لَا تُوَجَّهُ إِلَّا بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الإيمانِ وأَرْكانِه، والدَّعْوَةِ إلى الإسلام والطاعة، كان ذِكْرُ النُّذُرِ هُنَا دالًّا عَنْ طَرِيق اللُّزُوم

الذّهنِيّ علىٰ أنَّهُمْ كذَّبُوا رسُولَهُمْ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام، وكذَّبُوا بِرِسَالَتِهِ، وكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ به عَنْ رَبّه، وأَخِيراً كَذَّبُوا بإنْذَارَاته.

فكان من الإيجاز الْبَديعِ الاقتصارُ علىٰ بيان تكذيبهِمْ بإنْذَارَاتِ رَسُولهم، لما فيه من دَلاَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ على تَكْذِيبهِمْ بما تَقْتَضِي دعَوَاتُ الْمُرْسَلِينَ بَيانَهُ قَبْلَ إِخْبارِهِم بالإنْذَارَاتِ، وإذْ كَذَّبُوا بإنْذَارَاتِ الرَّسُولِ فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُول لُزُوماً، وكذَّبوا بكلِّ ما جاءَهُمْ بِهِ عن رَبّه.

• ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَلْخِيصٌ لأرْبَعِ مَقَالاَتٍ قَالَهَا كُبَرَاء كُفّار ثمودٍ، ورَدَّدَتْهَا جَمَاهِيرُهُمْ التابِعُون لَهُم، مُعْلِنين بها استِكْبَارَهُمْ عن الاستجابةِ له.

وجاء عطف مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الَّذِي يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إِلَىٰ أوّل مراحل تكْذِيبهِمْ لِرَسُولهم، لَا إلى مَرْحَلَةِ تكْذِيبهِم بالنُّذُرِ الَّتي أَنْذَرَهُمْ بها.

المقالَة الأولىٰ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَةُ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾؟! استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ استنكاريٌّ، يَنِمُّ عَنْ مُنْتَفِخِ الكِبْرِ في صُدُورِهم، إنّهم يُعْلِنُونَ بهٰذا رَفْضَهُمْ لاتّباع رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُم، وهو واحِدٌ لَيْسَ بجماعَة. أي: فكيف يتلاءمُ مع مَكَانَتِهم العظيمة في قَوْمهم، ومَنْزِلَتِهِم الرَّفِيعَةِ، أنْ يَتَّبِعُوا بَشَراً مِنْهُمْ واحِداً يَزْعُمُ لَهُمْ أنَّهُ رسولُ اللهِ إِلَيْهِم.

المقالَة الثانية: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾: أي: إنّا إذا اتَّبَعْنَا بَشراً واحداً من الْبَشر، فإنّنَا حِينئذٍ لنَكُونُ مُنْغَمِسِين في ضلالٍ في مَسِيرَتنا في حَيَواتِنا، وفي جُنُونٍ في عُقُولِنَا وأفكارِنا، وَهذا أَعْظَمُ مَا قَدَّمُوه من ذَرِيعَةٍ، لتَزْيِين نُفْرَتهم واسْتِنْكافِهم عن اتّباع رَسُولِ رَبّهم إِلَيْهِم.

﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: لَفِي جَهْلٍ وَضَيَاع.

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: ولَفِي جُنُون. وهذا أَحَدُ معاني هذه الكلمة، وهو الملائم هنا.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾:

في هذه العبارة استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنكارِيٌّ أيضاً، وهي تَدُلّ عَلَىٰ إنكارِهم الشديد أنْ يكُونَ هٰذا الواحِدُ مِنهم، مُخْتاراً اخْتِياراً خاصّاً مِنْ بيْنِهِم، للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، ولإلْقَاءِ الذِّكْرِ وهو الكتابُ الرَّبّانيُّ عَلَيْهِ، مع أنَّ المفروض بحَسَبِ تَصَوُّراتِهم الطبقيَّة الاستكْبارِيَّة، أنْ يُخْتَارَ لهٰذِهِ التفضيلات أهْلُ المالِ والْعُزْوَةِ والجنودِ والأنصار والأنْسَابِ والأمْجَادِ والمفاخر المتوارثَةِ.

ودَلَّ فِعْلُ [**أُلْقِيَ**] على أنَّ الكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ على صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَة، فالإلقاء فيه مَعْنَىٰ الطَّرْحِ بمَرَّةٍ واحِدَةٍ، بخلاف معنىٰ الإنْزال والتنزيل، فَهُما لَا يَدُلَّانِ على معْنَىٰ ٱلإلْقَاءِ جُمْلَةً واحِدَةً.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: أي ليْسَ صالحٌ نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً، ومَا يَزْعُمُ أَنَّهُ كتابٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إنَّمَا يَفْتَرِيه علَىٰ الله.

﴿كَذَّابٌ﴾: صيغَة مبالغة لاسم الفاعل «كاذِب» فاتَّهَمُوهُ بِهٰذِهِ الشّتِيمة بأشْنَعِ دَرَكَاتِ الْكَذِبِ، مع أَنَّهُمْ مَا عَرَفُوه في حياتِه مَعَهُمْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ إلَّا صَادِقاً أَمِيناً مَرْجُوّاً لكلّ خَيْرٍ.

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُسْتكْبِرٌ بَطِرٌ، أي: هو طالب زعامَةٍ ورياسةٍ وسُلْطَانٍ في قَوْمِهِ.

لكِنَّهُمْ في الحقيقَةِ هُمُ الكذَّابُونَ الأشِرُون.

رابعاً:

ثمّ إنّ صالحاً عليه السَّلام وَجَّهَ عنايَتَهُ لِدَعْوَةِ شُبَّانِ قَوْمِه، وأَحْدَاثِ

الأسْنَانِ فيهم، رَجَاءَ أنْ يكُونُوا أقْرَبَ إلى الاستِجابَةِ لِدَعْوَتِه من شُيوخ قَوْمِهِ وَذِوي الأَسْنَانِ فيهم.

دلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾:

دَلَّنِي على أنَّ دَعْوَتَهُ هـٰذِهِ كانَتْ مُوَجَّهَةً لِغَيْرِ شُيُوخِ قَوْمِهِ وَكبار السِّنِّ فِيم قولُهُم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ففِي هـٰذِهِ العبارَةِ دَلاَلَتَان:

الأولى: دَلَالَةُ قولِهم: ﴿يَعْبُدُ﴾ وهُو فعْلٌ مضارِعٌ يَدُلُّ عَلى الحالِ والاسْتِقبال مع التكرار والتجدّد. ومثل هذا التعبير إنَّما يكونُ للدَّلاَلَةِ على أمْر مُتكرِّرٍ مُتَجَدِّدٍ في آبائِهِمْ، فلا بُدَّ أنْ يكونُوا أحياءً.

الثانية: قوْلُهم ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ إذْ لَمْ يَقُولوا آباؤنَا الأوّلُون، كما هُوَ حَالُ الأُمَم الَّذِينَ يَتَحَدَّثُون عَنْ آبائِهم الموتَىٰ السَّابقين.

فَدَلَّ هـٰذان الأمْرَانِ علَىٰ أنَّ صالحا عَلَيْهِ السَّلام تَوَجَّهَ فِي دَعْوَتِه للشُّبَّانِ وأحْدَاثِ الأسْنَانِ البالغين، رجاء أنْ يكُونوا أقْرَبَ إلى الاسْتِجابَةِ من آبائهم، الَّذِينَ مارَسُوا كُفْرَهُمْ وقَبَائِحَ عَادَاتِهم عُمْراً مَدِيداً، فَتَصَلَّبَتْ قُلُوبُهُمْ ونُفُوسُهُمْ على ذَلِك.

- ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

﴿مَرْجُوًّا﴾: الرَّجاء في اللُّغَةِ: تَوَقُّعُ مَرْغوبٍ فيه، أو مَخُوفٍ منْه، والسِّيَاقُ في هذا القوْل يَدُلُّ على تَوَقُّعِ ما هُوَ مَرْغُوبٌ فيه.

أي: كُنَّا قَبْلَ أنْ تَدْعُوَنَا إلَىٰ هـٰذا الدِّينِ الْجَدِيدِ نَتَوَقَّعُ أنْ تكونَ قَائِداً لَنَا، وسَيِّدَاً مِنْ سَادَاتِ قَوْمِنَا، لِمَا تَتَّصِفُ به مِنْ عَقْلٍ وحِكْمَةٍ، وفضائِلِ أخْلَاقٍ وَمَحَاسِنِ شِيَمٍ.

• ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: أتَنهانا عَنْ أنْ نَعْبُدَ الأوْثانَ الَّتِي يَعْبُدُهَا آبَاؤُنَا الَّذِينَ هُمْ قُدْوَتُنَا فِي حَيَاتِنَا، وهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ فينا؟!

الاستفهام في هٰذِهِ العبارَةِ استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيه مَعْنَىٰ الاستنكار.

• ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: وإنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إلَيْهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَه، وَتَرْكِ عبادَة ما يَعْبُدُ آباؤُنا، إذْ لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إلى الاقتناع بأنَّ ما تَدْعُونا إلَيْهِ هو الحقّ، وهٰذا الشَّكُّ يوقِعُنا في الرَّيْبِ مِنْ غايَتِكَ النفسِيَّة، إذْ تَدْعُونَنا إلَىٰ خِلَافِ ما نَحْن عَلَيْه في تقالِيدِنا الدّينيّة، ومَوْرُوثَاتِنَا من أعْمال وعَادَات، وما عَلَيْهِ آباؤنا، وشَكُّنا يَجْعَلُنا نَرْتَابُ في أنَّكَ تُرِيدُ مُلْكاً أو إمارَةً أوْ زَعَامَةً أوْ رِيَاسَةً في قَوْمِنا، وهٰذا أمْرٌ يُقلِقُنَا وَيُزْعِجُنا.

يقال لغة: «أَرَابَ ٱلْأَمْرُ فَلَاناً» أي: أَقْلَقَهُ وأَزْعَجَه. وأوقعه في الشّكّ والرَّيب.

الرَّيب: الشّكّ، والظنّ، والتُّهَمَةَ، والرَّيْبُ يجعل صاحِبَهُ يتَرَدَّدُ مُحْتاراً.

فأجابَهُم صالحٌ عليه السَّلام بما جاء بيانه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾:

• ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؟ يُرادُ بالاستفهام في: [أرَيتُمْ] الأمْرُ بأنْ يَتَفكَّرُوا لِيَرَوْا، أي: يا قَوْم تَفكَّرُوا لِتَرَوْا بِعُقُولِكُمْ واقِعَ أمْرِي مع رَبّي. تفكَّرُوا في أنّي إنْ كُنْتُ عَلَىٰ بيِّنَةٍ واضِحَةٍ مِنْ رَبّي بِأنّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُكَلَّفٌ مِنْهُ أنْ أُبَلّغَ رِسَالَته، أفأَمْلِكُ أَنْ أعْصِيَ رَبّي فَأُخالِفَ ما أمَرَني به مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَته.

• [وآتانِي رَحْمَةً مِنْهُ]: أي: وآتاني من فَضْلِه رَحْمَةً عظيمة. ونَفْهَمُ أنَّ الرَّحْمَةَ الَّتي اختصَّ اللهُ بها صالحاً عَلَيْهِ السَّلام دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ في عَصْرِه، هي النُّبُوَّةُ والرِّسالَةُ والكِتَابُ الّذي أنْزَلَهُ عَلَيْهِ، والصفات الشخصيَّةُ الفكريَّةُ والنفسيَّةُ الّتِي فَضَّلَهُ بها.

وهٰذِهِ الرَّحْمَةُ تتضمَّنُ تكليفَهُ أَنْ يَقُومَ في قَوْمِهِ بوظائفِ رِسَالَةِ ربّه.

• ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾؟! استفهام يُرَادُ به نَفْي وُجُودِ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ.

وقَدْ دَلَّت هٰذِهِ العِبَارة باللُّزوم الذهْنِي على أنَّ شُيُوخَ قَوْمِهِ وَشبّانهم، قد طالَبُوهُ بأنْ يَكُفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ إلى الدّين الّذِي جاءَهُمْ به.

فقال لهم: أنَا مَأمُورٌ مِنْ رَبّي أَمْرَ إلْزَامٍ من الدَّرَجَةِ القُصْوَىٰ بأنْ أقُومَ بوَظائفِ رِسَالَةِ رَبّي الّتي حَمَّلَنِي أعْبَاءَها، وفي مُقَدِّمَتِها دَعْوَتُكُمْ إلَىٰ الدِّينِ الّذي أَمَرَني بتبليغهِ لقَوْمي، مع مُتَابَعَةٍ وَتَوْكِيدٍ وَتَذْكير.

وهٰذا الدِّين يتَضمَّن أنْ تَتْرُكُوا شِرْكِيَّاتِكُمْ، وضَلَالاتِكُم، وأنْ تُؤْمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وكتابه، وأنْ تَتَّبِعُوا أحْكامَ الدّين الذي جئتكم بِهِ من عِنْدِ رَبّكم، فما أنَا إلَّا مُبَلِّغٌ دِينَ رَبّي.

وإنْ لَمْ أَقُمْ بما فَرَضَ اللهُ عليَّ، بَعْدَ أن اصطفاني بالنُّبوة، واجْتَباني لحَمْلِ رِسَالَتِهِ إليكم، فإنّي أكُونُ عاصِياً لِرَبّي مَعْصِيةً عُظْمَى أَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا العِقَابَ الشّدِيد.

وعندئذٍ فَمَنْ هذا الّذي يَنْصُرُني فَيَحْمِيني مِنْ عذاب الله؟!!.

جاء في العبارة استعمال حرف «إنْ» في ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ليُشعِرَهم بأنّه عازِمٌ عَزْماً لا لِينَ فِيهِ علَىٰ أنْ يُطِيع رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيه.

وضُمِّنَ الفعل في: ﴿يَنصُرُنِي﴾ معنىٰ الفعل في «يَحْمِيني» فَعُدّي تَعْدِيته

بَحَرْف «مِن» أي: فَمَنْ يَنْصُرُني فَيَحْمِيني من عذاب الله؟!

• ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: فإنْ عَصَيْتُ رَبّي مُسْتَجِيباً لِمَا تُطالِبُونني به، فإنْ زِدْتُموني شيئاً لإنقاذي وحمايَتي ونُصْرَتي، بَعْدَ مَعْصِيَتي لِرَبّي، فَمَا تَزِيدُنَنِي غَيْرَ إِضَافَةِ خَسَارَةٍ إلىٰ خَسَارَتي الَّتي تُسَبِّبُهَا لي مَعْصِيَتي.

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: غَيْرَ نُقْصَانٍ وإِبْعَادٍ لي من الْخَيْرِ، يُقَال لُغَةً: «خَسَّرَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: نَقَصَهُ - أبْعَدَهُ من الْخَيْر - أهْلَكَه.

خامساً:

فاشتَدَّ كُفَّارُ ثمود غُلُوّاً في كُفْرِهِمْ وَعِنادِهم وطُغْيانهم، إذْ أمْهَلَهُم الله عزّ وجلّ على وفْق سُنَّتِهِ في الأمم، ولَمْ يُنْزِل بهم عذابَهُ الْمُهْلِكَ باستِئْصال، علىٰ حسَب ما كانوا يتوهَّمُون.

وكانَ فِيهم فِئَةٌ أشْرارٌ مُفْسِدُون إفساداً كبيراً.

فَصَارَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام يُوجّه تَذْكِيرَهُ لِقَوْمِهِ بإلْحَاحٍ، وَيُكَرِّرُ دَعْوَتَهُ لَهُمْ بأنْ يَتَّقُوا عَذَابَ الله، ويُطيعُوا رَسُولَهُ، ويُبَيّنُ لَهُمْ أنَّهُ لَيسَ ذا مَصْلَحَةٍ دُنَيويَّةٍ مِنْ دَعْوَته، ويُبَيّن لَهُمْ أنَّ أجْرَهُ الذي يَطْلُبُهُ على قيامه بوظائف رسالَته، إنَّما يَطْلُبُهُ مِنْ رَبّ العالَمِينَ، لا مِنْهُمْ ولَا مِنْ أحَدٍ من العالَمِين.

وأبانَ لَهُمْ أنَّهم لَنْ يُتْرَكُوا فيما هُمْ فِيه من وفْرَةٍ في أرْزاقهم، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِم وطغيانهم وعنادهم وفجورهم، ولَنْ يُتْرَكوا آمِنينَ لَا يَخافُون ممَّا يَضُرُّهم أوْ يُنْزِلُ بِهِمْ بلاءً، ولَنْ يُتْرَكُوا فيما هُمْ يَسْتَمْتِعُون به مِنْ جَنَّاتٍ وارفاتِ الظلال، وعُيُونِ ماء مُتَدفقات، ورفاهِيَةٍ في مَساكِنهم.

ونهاهم عليه السَّلام عن أن يُطِيعوا أمْرَ مُسْرِفيهم.

وكرَّر تَحْذيرهُمْ من الإصْرَارِ على ما هُمْ فيه من كُفْرٍ وطُغْيانٍ، وظُلْمٍ

وعُدْوان، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرضِ، وأبَانَ لَهُمْ أَنَّ مَا هُمْ فِيه سَيُعَرِّضُهُمْ لعَذَابٍ شَدِيد يَحرِمُهُمُ اللهُ عزّ وجلّ به مَا هُمْ فيه من أمْنٍ، ورِزْقٍ، ورَفَاهِيَةٍ، وَمَنَعَةٍ.

دَلَّ علَىٰ هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ جاء لفظ الْمُرْسِلِين مجموعاً، وجاء نظيرُه بالنّسبة إلى قوم نوح، وعاد، وقوم لوط، وأصْحَاب الأيكة، وقد أورد المفسِّرُونَ عِدَّة احْتِمَالَاتٍ للمراد بالجْمع، ومنها اعتبار أنَّ مَنْ كذَّبَ رسُولا واحداً بمثابة مَنْ كذَّب الرُّسُل.

والّذي تَرَجَّحَ لَدَيّ أَنَّهُ قَدْ جاء لهٰؤلاء الأقوام عدَّة رُسُل، وأنَّ نُوحاً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وشعيباً، كانوا آخِرَ الرُّسُلِ لأقوامهم، إرْسالاً إلَيْهم، أو بَقاءً فيهم حتَّىٰ إهلاك كُفَّارِهم.

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾:

أُخُوَّة صالح عليه السَّلام لثمود قد كانت أُخُوَّة نَسَبٍ ولُغَةٍ ومُواطَنة، على ما ذكر المؤرخون.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟: عَرْضٌ رَفيق بأداة العرض «أَلَا» وأُرَجّحُ أَنَّها كلمة واحدةٌ، تُسْتَعْمَلُ للْعَرْضِ، وللتحْضيض، وللاستفتاح والتَّنْبيه، ولَيْسَتْ مُؤَلَّفَةً

مِنْ همزة الاستفهام وحرف النفي «لا» وعلى فَرْض أنَّ أصْلَها كذلِكَ إلَّا أنَّ هٰذا الأصْلَ قَدْ تُنوسي، وصارت «أَلَا» بالاستِعْمَالِ كَلِمَةً واحِدَة.

أي: ألَا تتقونَ عذَابَ اللهِ وعقابه، والمعْنَىٰ: ألَا تَجْعَلُونَ بيْنكُمْ وبين عقاب اللهِ وِقايَةً، بالإيمان، والإسلام، والطاعَةِ له.

• ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

﴿رَسُولٌ﴾: أي: نَبيٌّ وَرَسُولٌ، لأنَّ النُّبُوَّةَ سَابِقَةٌ للرِسَالَة، ومُرَافقة لها دَواماً، بَعْدَ تكْليفِ النبيِّ مسْؤُولياتها.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتَّصِفٌ بِخُلُق الأمَانَةِ بوَجْهٍ عامٍّ، وأمِينٌ علَىٰ رِسالَاتِ رَبّي، أُبَلِّغُهَا لَكُمْ كَمَا أَتَلَقَّاهَا بالْوَحْي عنه، لَا أزِيدُ فيها شيئاً مِنْ عِنْدي، ولَا أنْقُصُ مِنْهَا شيئاً.

عبارَة ﴿لَكُمْ﴾ مَعْمُول للفظ ﴿رَسُولٌ﴾ قُدِّمَ علىٰ عامِلِه لإفَادَةِ التخصِيص، أي: رسَالَتي خاصَّةٌ بكم، فأنَا مَبْعُوثٌ مِنْ عند الله لكم لِأُبَلِّغَكُمْ رِسالَاتِه.

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: وبما أني رَسُولٌ أمِينٌ من قِبَلِ رَبِّكُمْ، فاتَّقُوا عَذَابَ اللهِ وَأَطِيعُوني، فيما أَدْعُوكُمْ إلَيْهِ، وَإِذَا لم تَفْعَلُوا كُنْتُمْ مستحِقّينَ لعِقَابِه وعَذَابِه، فَلَيْسَتِ القضيَةُ خاصَّةً بي، وَإنَّما هِي قضيَّةُ اللهِ رَبِّكُمْ، وَلَهَا عَلَاقَةٌ بي وبكُمْ معاً.

• ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

إنَّ أوَّل ما يتبادَرُ إلَىٰ أذْهَانِ الأقوام المدْعُوِّين مِنْ قِبَلِ أيّ داعٍ من الدُّعاة، إلى مَبْدأٍ، أَوْ فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أو جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَّهِمُوهُ بأَنَّ لَهُ مَصْلَحَةً شَخْصِيَّةً مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ جرّاءِ اسْتِجَابَتِهِم لِمَا يَدْعُوهُمْ إليه.

فكانَ من الحكْمَة في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ أنْ يُعْلِنَ الرَّسُول تَجَرُّدَهُ مِنْ آيَّةِ مَصْلَحَةٍ شخصيَّةٍ يَحْصُل عليها مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلَىٰ دِينِ الله.

ولَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هٰذا أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجراً مُطْلَقاً، فهٰذِهِ مِثَالِيَّةٌ خيَالِيَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْبَشر، بَلِ الرَّسُولُ واثِقٌ مِنْ أجْرٍ عَظِيمٍ يَظْفَرُ بِهِ عِنْدَ رَبِّه رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقال صالح عليه السَّلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: ما أَجْرِي الَّذِي أرْجُوهُ إلَّا علىٰ كِفَالَةِ رَبِّ العالَمِين، فَهُو الضَّامِنُ له، وهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي تكَفَّلَ بِه.

• ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾:

﴿أَتُتۡرَكُونَ﴾؟: استفهامُ تَحْذِيريّ، يُثِيرُ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام به في نُفُوسِهم وقُلوبِهِمُ الْخَوْفَ مِنْ عِقَابِ اللهِ الْمُعَجَّلِ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهم وقبائح أعْمالهم، وَمَعَاصِيهِمْ لِبَارِئِهِم، فَهٰذِهِ أُمُورٌ تَسْتَدْعي بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ في عِبَاده، أَنْ يَسْلُبَهُمُ اللهُ مَا هُمْ فِيه مِن نِعَمٍ وَافِرَةٍ، بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَة.

فمن النِّعَم الَّتي كَانُوا يسْتَمْتِعُونَ بِها نِعْمَةُ «الأَمْنِ» دلَّ عَلَيْها قولُهُ لَهُمْ: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: أَيَتْرُكُ لَكُم رَبُّكُمْ نِعْمَةَ الأَمْنِ وأَنْتُم تكْفُرُونَ به، وتَعْبُدُونَ مِن دُونِه الأوثان، وتَعْصُونَهُ بالظُّلْم والعُدْوان، والْبَغْي والْفُجُور في الأرض، ومِنْ سُنَّتِهِ في عبادِهِ أنْ يُنْزِلَ عُقُوبته، ويَسْلُبَ نِعَمَهُ عَنِ الَّذِين تَصِل خطَايَاهُم إلى مِثْل الحالِ الّتي وَصَلْتُمْ إلَيْهَا.

ومن النِّعَم الَّتي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الجنَّات، وهي الحدائق والبساتين المكتَظَّةُ بالأشجار، ذواتِ الظِّلَالِ والثّمار.

ومن النِّعَم الَّتِي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الْعُيونِ الَّتي كانَ اللهُ عزّ وجلّ يُفَجِّرُهَا لهم، فَيَشْرَبُونَ مِنْها مَاءً حسناً، ويَسْقُونَ مِنْها أَنْعَامَهُمْ وزُرُوعَهم.

ومن النِّعَم الَّتي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الزُّرُوعِ المختلفة، لَهُمْ

ولأنْعَامِهِمْ وَدَوابّهم، إذْ يُنْبِتُها لَهُم، ويَحْمِيها لَهُمْ مِن الآفات والجوائح.

وخَصَّ صالح عليه السَّلام ببَيانه لهم نِعْمَةَ أشْجَارِ النَّخْلِ ذَواتِ الطَّلْعِ الْهَضِيم، إذْ هِيَ أكْرَمُ الأشجار وأنْفَسُها لَدَىٰ سُكّان شبْهِ الجزيرَة الْعَرَبِيّة.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثَمَرُها نَاعِمٌ لَطِيفٌ مَرِيءٌ، سَهْلُ الْهَضْمِ في الجَوْفْ.

• ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: ﴿فرهين﴾: أي: حاذقين مَهَرة، ومُسْتَمْتِعين بِنَعَمٍ وافِرَة، وَمُسْتَكْبِرِينَ أشِرينَ بَطِرين طاغِين.

• ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: سَبَقَ نظيرُها في هذا النصّ، فَدَلَّ تَكْرِيرُها عَلَىٰ أنَّ صَالحاً عليه السَّلام كان يُكَرِّرُ مطالَبَةَ قَوْمِهِ بما جاء في مضْمُونها.

• ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

المسْرِفُ: هو من يتجاوز حَدَّ الْحِكْمَةِ والحقّ في تَصرُّفاته، ويتجاوز ما يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الراجح.

ومن شأن المسْرِف أنْ يَرْتَكِبَ القبائح والكبائر من الذنوب، ويَفْعَلَ ما فيه شرٌّ وضُرٌّ.

وكَانَ الكُبَراءُ الكَفَرَةُ المسْرِفُون في ثمود، مَعْرُوفين بتصرُّفاتِهِم الآثمات الظالماتِ الطاغيات الباغيات، وكانوا يُفْسِدون فِي الأرض بغير الحقّ، لتقويَة سُلْطانهم، ويَزْعُمُونَ أنَّهُمْ يُصْلِحُون، لتَغْطِيَةِ إفسادهم بالْأكاذيب الّتي يُلَفّقُونها.

سَادساً:

وألَحَّتْ ثَمُودُ عَلَىٰ رسُولهم صالح عَلَيْهِ السَّلام، بأَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ يَقْتَرِحُونها عليه.

فانْتَظَرَ صالح عليه السَّلام الإذْنَ مِنْ رَبّه، فَصَارَ عُتَاةُ قَوْمِهِ يُرَوِّجُون أَنَّهُ كَذَّابٌ أَشِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، يُرِيدُ حُكْماً وَرِياسَةً وسُلْطاناً، أو ثراءً ومُلكاً، فأنزل الله عزّ وجلّ عَليه مُواسِياً ومُسَلِّياً ومُطَمْئِناً وَهو عَلِيمٌ بأَنَّهُمْ سَيُطَالِبُونَهُ بأَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ يُعَيِّنُونَها، ناقَةً يُحَدِّدُونَ أَوْصَافها، قَوْلَهُ في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾: أي: سَيَعْلَمُونَ في المستقبل الْقَرِيب أَنَّهُمْ هُمُ الكذَّبُون الأشِرُونَ المسْتَكْبِرون، حينما يُشاهِدُون بَوادِرَ تَعْذِيب اللهِ لهم تَعْذِيباً يُهلِكُهُمْ إهلاك اسْتئصالٍ عُقُوبَةً لهم على تَكْذِيبهم بالحق، واسْتكبارهم عَن اتّباع كتابِ رَبّهم ورسُوله، ثم يعلمونَ ذلِكَ في المستقبل البعيد يومَ الدّينَ.

فالمراد بالْعِلْم هُنا الْعِلْمُ بَعِقابِ الله لَهُمْ على تكذيبهم واستكبارهم، لأَنَّهم يَعْلَمُونَ مِنْ أنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ هم الكذَّابُونَ في إيهامهم وتزويرهم على جماهيرِهم بأنَّ صالحاً ليْسَ رَسُولاً من رُسُلِ الله عزّ وجلّ، وهم مسْتَيْقِنُون في نُفُوسِهم أنَّه رسُولٌ صَادِقٌ وَلَيْس بكاذب، وأَنَّهُمْ أشِرُونَ مُسْتَكْبِرُونَ يُريدُون بتَكْذِيبِهِ، ورفضِ اتباعِه، وتَحْرِيض جماهيرهم على تكذيبه والتَّوَلّي عنه، المحافظَة على زَعَامَاتِهِمْ ورِياسَاتِهِمْ في قَوْمهم.

وجاء في القراءة الأخرى، مَا يَدُلُّ على أنّ الله عزّ وجلّ خاطَبَهُمْ على لِسَانِ رَسُولِهِمْ صالح عليه السَّلام بقوله: ﴿سَتَعْلَمُون غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ بتَاءِ المخاطَبين.

وفي هذا البيان إيماء لحَالَةِ الرَّسُولِ محمَّدِ ﷺ. وحَالَةِ مَنْ كَذَّبه مِنْ

قَوْمِهِ وزَعَمَ أنَّهُ طَالِبُ رِيَاسَةٍ ومُلْك، فكأنَّ الله عزّ وجلّ يُخَاطِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا خَاطَبَ بِهِ ثَمُوداً قَوْمَ النبيّ الرسُول صالحٍ عليه السَّلام.

• ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: إنَّا سَنُرْسِلُ لَهُمُ الآيَةَ الَّتِي اقْتَرَحُوها عَلَيْكَ يا صالح، وهي النّاقة الّتي يُعَيِّنون أوْصافها، وطَرِيقَة إخراجها من صَخْرَةٍ يُعَيِّونها.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانْتَظِرْهم واجْعَلْهُمْ تَحتَ مُرَاقَبَتِك، وملاحظَتِكَ لِمَا سَيكونُ مِنهم.

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: أي: وكلِّفْ نَفْسَك الصَّبْرَ عليهم بمجاهدَة نَفْسِك، ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أيّ أمْرٍ، إنَّهُمْ سيضيقونَ ذرعاً بامتحانهم، فيَقومُونَ بأعْمالٍ تَقْتضي إهلاكهم إهلاكاً عَامًّا شاملاً.

• ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وأخْبِرْهم حينَ نأْذَنُ لَكَ بأنْ تَدْعُوَ، لِنُخْرِجَ لَهُم النَاقَةَ على ما اقْتَرحُوا، أنّ الْمَاءَ الّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ مَقْسُومٌ بَيْنَهم وبَيْنَ الناقَةِ المعْجِزَةِ علَىٰ نِصْفَيْن.

القِسْمَة: اسْمٌ من اقْتِسَامِ الشيءِ، وتُطْلَقُ الْقِسْمةُ علَىٰ النّصِيب.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: **الشِّرْبُ**: بكَسْر الشين، نَوْبَةُ الاستقاءِ من الماء، والنَّصِيبُ المعَيَّنُ للشّارِبِ مِنْه.

مُحْتَضَر: أي: يَحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبَتُه. والصيغَةُ بتاء الافتعال تَدُلُّ على الإلْزامِ بضَبْط مَوَاعِيدِ حُضُورِهِمْ وحضُور الناقة، لورود الماء بانتظام دُون اختلافٍ ولا عُدْوان.

سَابعاً:

وقَضَتْ حِكْمَةُ الله عزّ وجلّ أنْ لا يُسْرِعَ في إجابَتِهِمْ إلَىٰ طَلَبِهِم آيَةً خَارِقة، فَظَنُّوا أنّ رَسُولَهُمْ عَاجِزٌ عَن إجراءِ آيَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنّه نبيّ الله ورسُولُهُ، فقالوا له مَا جَاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

• ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارة فيها قصر بأداة «إنّما» أي: ما أنت إلّا من المسَحَّرين، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصفات بالنّسْبَةِ إلى ادّعائك الرّسَالة إلّا أنّكَ مُسَحَّر.

المسَحّر: الّذي سُحِرَ مَرَّةً فَمَرَّةً حتَّىٰ فَسَدَ عَقْلُه ومَسَّهُ الْخَبَل. يقال لغة: «سَحَّرَ السَّاحِرُ فُلَاناً» أي: سَحَرَهُ مَرَّةً فمرَّة، حتَّىٰ تَخَبَّلَ عَقْلُهُ، وضَاعَ رُشْدُهُ.

فاتَّهَم كُبَراءُ ثَمود رَسُولَهُمْ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلام بأنَّهُ مُسَحَّرٌ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُورٍ، أي: إنَّ السِّحْرَ الّذِي سُلِّطَ مُتَتَابعاً عَلَيْه قَدْ جعَلَهُ مُخْتَلَّ الْعَقْل مُخبّلاً، لَا يُقَدِّرُ خُطُورة ما يَقُولُ بِشأْنِ كُبَرَاءِ قَومِه، وقد واجَهُوهُ بهذا الاتّهام، ولَمْ يَقُولوه في غيبته.

وتعلَّلُوا لِرَفْضِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِه بأنَّه بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوهِمِينَ بأنّ كوْنَهُ بَشراً يُنَافِي كوْنَهُ نبيًّا ورَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالَمِين، فَقَالُوا لَهُ مَا جاء بيانه بقول الله عزّ وجلّ:

• ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي: لَيْسَ لَكَ مِن الصِّفَاتِ الشخصِيَّة الخارجَةِ عَنْ نِظَامِ الْبَشَر، كعَدَمِ حَاجَتِكَ إلَىٰ الطَّعَام والشَّرَابِ، وعَدَمِ حَاجَتِكَ إلى أنْ تَتَزَوَّجَ، ما يُؤهِّلُك لأنْ تكون نبيّاً تَتلَقَّىٰ الْوَحْيَ عن اللهِ

رَبِّ العالَمِين، ولأنْ تكُونَ رَسُولاً تَحمِلُ رِسالَةً مِنْهُ، وتُبَلِّغُنا إيَّاها.

وبَعْدَئذٍ قَالُوا لَهُ مَا أبَانه اللهُ عزّ وجلّ بقَوْلِهِ:

• ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: فأتِ بعَلامَةٍ مِنَ الْعَجَائِبِ الْخَوارِقِ المعْجزة، إنْ كُنْتَ صَادِقاً من الصادقين، في ادّعاء أنَّكَ نَبِيٌّ وَرسُولٌ مبْعُوثٌ من رَبِّ العالَمين.

جاء في العبارة استعمال كَلِمَةِ «إنْ» للإشعارِ بأنَّهم يشُكُّون بَلْ يَعْتَقِدُون أنَّهُ عَاجزٌ عن أنْ يأتِي بآيَةٍ خارقَةٍ مُعْجزة.

ثامناً:

فأذِنَ الله عزّ وجلّ لصالحٍ عليه السَّلام بأنْ يَدْعُوَه في مَجْمَعٍ حَافِلٍ مِنْ قَوْمِهِ، لِيُخْرِجَ اللهُ لَهُمْ النَّاقَةَ الّتِي طَلَبُوا على وفْق ما وصَفُوا وعَيَّنُوا، فأخْرَجَ اللهُ عزّ وجلّ لَهُمُ النّاقة من الصَّخْرَة الّتي عيَّنُوها، وعلى وفْقِ الصّفاتِ الّتي ذَكَرُوها.

دلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: هٰذِهِ نَاقَةٌ أخرَجَها اللهُ عزّ وجلّ كما طَلَبْتُمْ ووصَفْتُمْ وعيَّنْتُم، ولمَّا كانَتْ هٰذِهِ النَّاقَةُ آيَةً مِن اللهِ لَهُم، سمَّاها صالحٌ عليه السَّلام: «نَاقَةَ اللهِ» أي: ناقَةَ آيَةِ اللهِ الخارِقة.

وإذْ أخْرَجَ اللهُ عزّ وجلّ لهم هٰذِهِ النَّاقَة طِبقاً لِطَلَبِهم، كانت من حِكْمَةِ ابتِلَائِهم أنْ يُلْزِمَهُمْ بِوَاجِبَاتٍ تُجاهها، سَوَاءٌ آمَنُوا برسُولهم أمْ لم يُؤْمِنُوا به، وقَدْ جعَلَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ التكاليف مادَّةً مِنْ مَوادِّ ابْتِلَائِهم

وفتْنَتِهِمْ بما يَسُوؤُهم ويُضَايقُهُمْ، لأنَّهُمْ هُم الّذِين عيَّنُوا الآية، ولم يُفَوّضُوا للهِ عزّ وجلّ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ مَا، تَشْهَدُ لصالحٍ عليه السَّلام بأنه رَسُولُ اللهِ حَقّاً.

ومِنْ الواجباتِ عَلَيْهم المبيَّنَةِ في هٰذه الآية من سُورَة (الأعراف) ما يلي:

(١) أنْ يَتْرُكُوهَا تأكل في أَرْضِ اللهِ علَىٰ مَا تَشاء.

(٢) أنْ لَا يَمَسُّوها مسّاً ما بما يَسُوؤُها ممَّا يُؤْذِيها.

وأَنْبَأَهُمْ صَالحٌ عليه السَّلام مِنْ شُرُوطها ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

فأضاف هذا النصُّ واجباً ثالثاً إلى الواجبَيْن السّابقين:

(٣) أنْ يكونَ مَاءُ ثَمُود قِسْمَةً بَيْنَ ثَمُودَ وبَيْنَ الناقة.

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾: **الشِّرْبُ**: الحظُّ من الماء. وقيلَ: وقْتُ الشُّرْب ونَوْبَةُ الاستقاء.

وهذا من التكامل بيْنَ النّصين، وفيهما تكامل آخر، وهو:

- في سورة (الأعراف): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.
- وفي سورة (الشعراء): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: ولاَ تَمَسُّوهَا مَسّاً بسُوءٍ ولو ضايقَتْكُمْ في طَعَامِها، أو في شرابها، فإذا مَسَسْتُمُوها بِسُوءٍ فإنَّهُ يَقْبضُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤلماً لَكُمْ بعُنْفٍ وَشِدَّة، في يَوْمٍ عظيمِ الأهْوالِ، عظيمِ وَسَائل التَّعْذِيب.

وحِينَ ضَاقت صُدُورُ كُفَّارِ ثَمُودَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الثلاثة للنّاقَة الّتي ابتَلاهُمُ اللهُ بِهَا، بَدَؤُوا يَتَهَامَسُونَ فيما بينَهُمْ للتخلُّصِ مِنْها بِعَقْرِها، وأَحَسَّ صَالِحٌ عليه السَّلامُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فقال لَهُمْ مَا جَاء بيانُهُ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾﴾:

فأبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا مَسُّوهَا مَسًّا بِسُوءٍ قَبَضَ عَلَيْهِمْ مِن رَبِهِمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، لَا تأخِيرَ فِيهِ وَلَا تأجيل.

الْمسُّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ علَىٰ وُصُولِ سَطْحِ الشيْء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخر دُونَ الدُّخولِ إلَىٰ شيءٍ مَا تَحْتَ السَّطْحِ.

تاسعاً:

فأصَرَّتْ غالبيَّةُ ثَمود على كُفرِهَا وَتَكْذِيبِها رَسُولَ رَبّها، ولَمْ تُؤثِّرْ فيها مُعْجِزَةُ النَّاقَة.

فَتَابَعَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ تَأْدِيَةَ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ فيهم، فقالَ ما جاء بيانُهُ في قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

جاء في هذه الآية بيانُ أنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام وَجَّهَ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ في هذه المرْحلَةِ مِنْ مَسِيرَتِه الدَّعوِيَّة أرْبَعَ قضايا شرَحَها وَفَصَّلَها لهم، وقَدْ أَوْجَزَتْها الآية:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكاية بإيجاز لمعنى ما

قاله صالح عليه السَّلام لقومه: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ... ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وَضَعُوا في ذَاكراتكم دواماً أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِ الْعَرَب، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَ عَاداً أَسْلَافكُمْ، لأَنَّهُمْ وَصَلُوا إلَىٰ مِثْلِ الحالَةِ الّتِي أَنْتُمْ عليها اليوم، منْ شرْكٍ بربّكُمْ، وعبادَة آلِهَةٍ مِنْ دُونه، وإفْسَادٍ في الأَرْض.

وضَعُوا في ذاكِراتِكُمْ أَنَّ الَّذِينَ نَجَوْا من الْهَلَاكِ الّذِي نَزَلَ بَعَادٍ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ «هودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، وَنَبَذُوا شِرْكَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، واتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهم.

إنَّ وَضْعَ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، واسْتخراجَهُما إلَىٰ سَاحَةِ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَقْتاً فَوَقْتاً، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ، يَجْعَلُ احْتِمالَ اعْتِبَارِكُمْ واتِّعَاظِكُمْ أَرْجَىٰ، وأسْرَعَ زَمَناً، وأَيْسَرَ للاسْتِجَابَةِ وَقَبُولِ النُّصْح، وتَرْكِ سُبُلِ الشَّيْطانِ، واتّباع صراطِ الرَّحِيم الرَّحْمٰن.

القضيّة الثانية: دَلّ عليها قول الله عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجاز لمعنىٰ مَا قَالَهُ صالح عليه السَّلام لقومه: ﴿... وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا... ﴿٧٤﴾﴾:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأَنْزَلَكُمْ، وأعَدَّ لَكُمْ، وهَيَّأَ المكَانَ والمِنْزلَ الملائكم لكم.

يقال لغة: «بَوَّأَهُ الْمَكَان» أي: أَنْزَلَهُ فيه. ويقال: «بَوَّأَ الْمنزلَ لَهُ» أي: أَعَدَّهُ وَهَيَّأَهُ له. ويقالُ: «أَبَاءَ فُلاناً مَنْزِلاً» أي: هَيَّأَهُ لَهُ وَأَنْزَلَهُ فيه. ويُقال: «تبَوَّأَ الْمَكَانَ ـ وَتبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وَأَقَامَ به.

فالمعنى: وَهَيَّأَ لَكُمْ في الأرْضِ مَنَازِلَ تَسْكُنُونَها، وَمَكَّنَ لَكُمْ فيها، وجَعَلَكُمْ قَادِرِينَ علىٰ أنْ تَتَّخِذُوا لَكُمْ فِيها الْبُيُوت، والْقُصُورَ، وَسَائِرَ المنازِلِ والمسَاكِن المناسِبَةِ لمطالِبكم.

وَإِذْ مَكَّنَكُمْ فِي الأَرْضِ هٰذا التمكِينَ، بمَا وَضَعَ وَهَيَّأَ لَكُمْ مِنْ أَسْبابٍ، وبما أَقْدَرَكُمْ على اسْتِخْدَامِها والانتِفَاعِ بها، حتَّىٰ صِرْتُمْ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولها قُصوراً، فَتَقْطَعُونَ الصُّخُورَ مِنَ الْجِبالِ، وَتَبْنُونَ بِهَا الْقُصُورَ الْفَخْمَةَ، وصِرْتُمْ تَنْحِتُونَ الجبالَ، فَتُجَوِّفُونَ غُرَفاً فِي باطِنِهَا، حتَّىٰ تكُونَ الْجِبَالُ لَكُمْ بُيُوتاً، تَبِيتُونَ فيها، فَتَحْتَمُونَ بِهَا مِنْ مُداهَمَاتِ أَعْدَائِكُمْ.

فاذْكُرُوا هٰذِهِ النِّعَمَ الْجَلِيلَةَ الّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ في أَرْضِكُمْ، فآمِنُوا بِهِ رَبًّا وَاحِداً أحداً لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَاعْبُدُوه إلَٰهاً واحِداً أحداً لا إلَٰه في الوجود بحَقٍّ غَيْرُه، ولَا تُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ أحداً ولَا شيئاً ما، وآمِنُوا بِرَسُولِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إليكم، وَشَهِدَ لَهُ بالخارقَةِ المعجزةِ أَنَّهُ نبِيُّهُ وَرَسُولُهُ حَقّاً، واتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياء.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجازٍ لمعَنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمه: ﴿... فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ...﴾: أي: فاذْكُرُوا مَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ، واذْكُرُوا سَائِرَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكم، فإذَا ذكرتُمُوهَا آناً فآناً اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَقْتَحِمُوا عقَبَاتِ نُفُوسِكُمْ فَتَتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فيه مِنْ شِرْكٍ وضَلَالٍ، وطغيَانٍ وفُجورٍ، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرْضِ، وأنْ تُؤْمِنُوا وتُسْلِمُوا وَتَتَّقُوا رَبَّكُمْ.

الآلاءُ: هِيَ النِّعَمُ، واحِدُها «أَلْيٌ» و«إِلْيٌ» و«إِلَىً».

القضيّة الرابعة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجازٍ لمَعَنىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمه ثمود: ﴿... وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ... ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وَلَا تُفْسِدُوا في الْأَرْضِ إفْسَاداً شَدِيداً مُنْكراً.

الْعُثُوُّ: أَشَدُّ الفساد، يقال لغة: «عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً وَعُثِيًّا وَعَثَياناً» أي: أفْسَدَ إِفْسَاداً شَدِيداً مُنْكراً. ويُقال: «عَثَا فِي الأرضِ يَعْثُو» أي: أَفْسَدَ.

والإفسادُ: ضِدُّ الإصْلاح، ويَكُونُ الإفسادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصّالحِ لِمَا هُو المقْصُودُ بِهِ غَيْر صَالِحٍ له.

هذه المقالة دَلَّتْ على أنَّ ثموداً قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من السُّوءِ شَنِيعَةٍ، إذْ صَارُوا يَعِيثُونَ في الأرْضِ فساداً بِوَجْهٍ عَامٍّ إلَّا قَلِيلاً مِنْهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها، أي: ولَا تُفْسِدُوا حَالَةَ كَوْنِكُمْ قَاصِدِينَ الإفساد، وبَاغِينَ الإضْرَارَ، وَفَاعِلِينَ لَهُما.

وبهذا انتهى الفصل الأول.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
مرحلة تفاقُمِ التّخَاصُمِ بَيْنَ المؤمنين والكَافِرِينَ مِنْ ثمود

تخوَّفَ كُبَرَاءُ كُفَّارِ ثَمُود من تَكَاثُرُ أعداد الّذين يُؤْمِنُون بِرَسُولهم صالحٍ عليه السَّلام، فَشَدَّدُوا حَمْلَةَ الْجَدَلِيَّاتِ الْعَنِيفَةِ، الَّتِي كانُوا يُجَادِلُون بها الضُّعفاء من الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبعوه.

دلَّ علىٰ هذه المرحَلَة قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: هُمْ كبراء الْقَوْمِ وأَعْيَانُهُمْ وَذُوُوا الْوَجَاهَةِ فيهم، الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ الْجُمْهُورِ الأَعْظَم مِنَ الْعَامَّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: أي: الَّذِين اسْتَكْبَرُوا مِن ثَمُود عَنِ الإيمان بصَالح عَلَيْهِ السَّلام، وعَنِ اتّباعِهِ واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهم،

إذْ رَأَوْا نُفوسَهُمْ أكْبَرَ وأعْلَىٰ مِنْ أنْ يَتّبِعُوا صالحاً وهو دُونَهُمْ في الطَّبَقَةِ الاجْتِماعِيَّة، وأرْفَعَ مِنْ أنْ يكُونُوا مع الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وهٰؤلاءِ في مَفْهُومَاتِهم الاجتماعيَّةِ الطَّبَقِيّةِ دُونَهُمْ مَنْزِلَةً فِي المجتَمعَ الثَّمُودِي.

ورُبَّما كان هؤلاء الّذين اسْتَكْبَرُوا هُمْ ذَوي السُّلْطان والأَمْرِ النَّافِذِ فِي قَوْمِهم.

لقد رَفض هؤلاء المسْتكْبِرُونَ دَعْوة صالح عليه السَّلام ومعهم أَتْباعهُم من عامّة ثمود، ولَمْ يَسْتَجِيبُوا له، ولم يُؤْمِنُوا بِهِ ولا بما جاء به من عنْد اللهِ من حقٍّ وَهُدىً.

ولم يقْتَصِرْ هؤلاء المسْتكْبرُونَ عَلىٰ الكُفْرِ ورفْضِ الاستجابة لِدَعْوة الحقّ والْهُدَىٰ، بلْ تَوجَّهُوا للّذين آمَنُوا بصالح عليه السَّلام من المسْتَضْعَفين مِنْ قوْمهم، لِيَفْتِنُوهم عَنْ دِينهِم، ويَرُدُّوهم عَمَّا آمَنُوا بِه، ويُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ، ولِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِرَسُولِهِم، بُغْيَةَ التَّأْثِير عليْهم، حتَّىٰ يَتَوَقَّفُوا عن اتّبَاع نُظَرائهم الذين آمَنُوا واسْتَجَابُوا لِدَعْوَة الحقّ، فَمِنْ شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجُرَّ بَعْضُهُمْ بعْضاً، ويُؤَثِّر بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ.

واخْتِيَارُ عبارة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يُشْعِرُ بأنّ الكَفَرَةَ المسْتَكْبِرِينَ، قَدْ جَمَعُوا جَمَاهِير المستَضْعَفِينَ، مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ومَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، وخاطَبُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُسْمِعُوا الآخَرين.

هٰذِهِ الْمَرْحَلَةُ وأَمْثَالُها تكُونُ عَادَةً عِنْدَ مَا يَتَخَوَّفُ كُبَراءُ الكافِرينَ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ المسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ ما زالُوا أتْباعَهُمْ وأنْصارَهُمْ، فَيَخْرُجُوا عَنْ سُلْطَانِهِمْ، ويَكُونُوا قُوَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وقُوَّةً للرَّسُولِ الَّذِي كَذَّبُوه، وخَالَفُوهُ، وناصَبُوه الْعِدَاء.

وكان أُسْلُوبُ هؤلاَءِ المضِلّين، يَعْتَمِدُ على الابْتِعَادِ عن المجادَلَةِ

حَوْلَ مَفْهُومَاتِ الدِّين، الّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ من المستضعَفِين، لأنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا قَوِيَّةٌ ودَامِغَةٌ، فاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَخْصِ «صالح» عليه السَّلام، نَبِيِّهِمْ ورَسُولِهِمْ، لِيَجِدُوا في شَخْصِه شيئاً يُعْطِيهِمْ فُرْصَةً لِلتَّشْكِيكِ في كَوْنِهِ نبيًّا وَرَسُولاً مِنْ رَبّه، قالُوا لَهُمْ:

- ﴿... أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ... ۝٧٥﴾.

أي: هلْ لَدَيْكُمْ أدِلَّةٌ قَوِيَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ صَالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه حَقًّا وَصِدْقاً؟!

فأدْرَكَ المسؤُولُون المكيدَةَ الْجَدَلِيَّة، فَلَمْ يُجِيبُوهم عَمَّا سَأَلُوا عَنْه، بلْ رَدُّوا عَلَيْهِمْ بأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِه الَّتِي جاء بِهَا حَقٌّ وصِدْقٌ، وَتَشْهَدُ لَهُ البراهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُرْسِلَ به:

- ﴿...قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥﴾.

أي: لَا تجادلُونَنَا في شخْص النبيّ الرَّسُولِ صالح عليه السَّلام، ولكِنْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِمُجَادَلَتِكُمْ حَوْلَ مَا أُرْسِلَ به، فَنَحْنُ مُؤْمِنُون به، وإِذَا كَانَ كُلُّ مَا جَاءَ به حَقًّا يَجبُ الإيمان به، فَمِنَ الزَّيغ عَنْ جَوْهَرِ قَضِيَّةِ الدِّينِ التَّشَاغُلُ بالْبَحْثِ عَنْ شَخْصِ مُبَلِّغِهِ عَنْ رَبّه، وكَوْنُ مَا جَاءَ بِهِ حَقًّا وَصِدْقاً دَلِيلٌ كافٍ لإثْبَاتِ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّه.

من هذا يَظْهَرُ لكلّ ذي فِكْرٍ سَدِيدٍ أَنَّ طَرِيقَةَ هٰؤلاء المؤمنين في هذا الرَّدّ هي الطريقة الحكيمَةُ المفْحِمَة، في أَسَالِيب الْجَدَلِ حَوْلَ قضايا الحقّ.

عِنْدَئذٍ لَمْ يَجِدِ المسْتَكْبِرُونَ حُجَجاً يُبْطِلُونَ بِها مَضْمُونَ الرِّسَالَةِ الَّتي أُرْسِلَ بِها صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام، فَلَجَؤُوا إِلَىٰ أُسْلُوبِ إصْرَارِ المسْتَكْبِرِ الْمُعَانِدِ بِوَقَاحَةٍ، مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ بِمَا آمَنَ بِهِ المؤمِنُونَ مِنْ حَقٍّ وهُدىً، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً ما، اعْتِماداً علَىٰ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ فِي قَوْمِهِم. وقَدْ دَلّ على مَوْقِفِهِمْ هذا قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ولاَ بُدَّ أنْ يَتَوَقفِ الجدال عند هٰذِهِ المكابِرَة بالباطل، والإصرار على رفض الحق. لَكِنَّ المكابَرَةَ تتضَمَّنُ في الحقيقةِ هَزيمةَ المكابِرِ، وإدانَتَهُ لَدَىٰ العقلاء، ولَدَىٰ كلِّ ذي فكْرٍ سَلِيم.



الفصل الثالث
مَرحَلَةُ عَدَمِ مبالاَة قَوْمِ صَالِحٍ عليه السّلام بأنْ يَأْتِيَهُمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ

لَقَدْ أغرىٰ كُفّارَ ثَمُودَ إمْهَالُ اللهِ عزّ وجلّ لَهُم، وهي سُنَّتُهُ الدائِمَةُ فِي كُلِّ كُفَّارِ الأُمَم.

وحكمة الله جلَّ جلالُهُ في الإمْهَالِ أنْ لاَ يُبْقِيَ لأحدٍ مِنْهُم عُذْراً يَعْتَذِرَ به، لَدَىٰ الحكْم علَيْهِ بالْخُلُودِ في عَذَاب النَّارِ، لِكُفْرِه بالْحَقِّ الّذِي تَبَلَّغَهُ مَقْروناً بِبَراهِينه.

دلَّ علىٰ هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ قَوْلِ الله عزّ وجلّ في سُورَة (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

دلَّ هذا البيان على أواخِرِ مَوَاقف مُكذّبي ثمود لرسولهم صالح عليه السَّلام، فهو مُعَبِّرٌ عَنْ هٰذِهِ المواقف بَعْدَ مَسِيرَةٍ دعوِيَّة اشْتَملتْ عَلَيْها سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السَّلام مَعَهُمْ، فَهِي مُنْتَزَعَةٌ مِنها اخْتِزَالاً.

ودلَّ عَلَىٰ أنَّهُ قَدْ سَبَقَ أنْ أنْذَرَهُمْ بعِقَابٍ من اللهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إهْلَاكاً

جَمَاعيًّا فِيه إبادَةٌ مُسْتَأْصِلَةٌ لهم، وعلى أنَّ إنْذَارَاته كانت تتوالَىٰ عليهم.

ودلَّ أيضاً على أنَّ اللهَ عزّ وجلّ كَانَ يُمْهِلُهُمْ، رَغْبَةً فِي توبَتهم وإيمانهم، إلَّا أنَّ الإمْهَالَ الطَّوِيلَ أغْرَاهُمْ بتَصْدِيق توهُّمِهِمْ بأنَّ صَالحاً لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ تَحْقِيقَ ما أنْذرَهُمْ بِه، مَعَ أنَّ إنْذَارَهُ لَهُمْ لم يَكُنْ إلَّا مُبَلِّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبِّه، ومعلومٌ أنَّ من سُنَّةِ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يُمْهِلَ عبادَهُ في الحياة الدنيا حياة الابتلاء إمهالاً طَوِيلاً، حتَّىٰ يَقْطَعَ كُلَّ أعْذَارِهِمْ.

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؟! **الاسْتِعجال**: طَلَبُ تَعْجِيلِ الأمْرِ المَوْعُودِ بِه قَبْلَ أوانِه، أو طلَبُ تَحْقِيقِ الشيءِ قَبْلَ الوقف الذي قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الحكيمَةُ بتحقيقه فيه.

جاء فعل «اسْتَعْجَلَ» بمَعْنَىٰ «عَجِلَ» أي: أسْرَعَ فَهُو لازم يتعَدَّى بالحروف.

والمعنىٰ: قال رسُولُ الله صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لكُفّارِ قُوْمه: يَا قَومِ لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ تحقِيق ما أنْذرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَاب رَبِّكُمْ، وإهْلاكِكُمْ إهْلاكاً مُدَمِّراً شاملاً؟!

السَّيِّئَة: تُطْلَقُ عَلىٰ كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَة، وتُطْلَقُ علىٰ كُلِّ فَعْلَةٍ قَبِيحَةٍ. والمعنَىٰ الأوَّلُ هو الملائم هُنا.

﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: تُطْلَقُ الْحَسَنَةُ عَلَىٰ الحظُوظ السَّارَّة، وعَلَىٰ النِّعَم الَّتي يَسْتَمْتِعُ بها الَّذِينَ نَالُوها مَتَاعاً مَحْبُوباً إلى نفوسهم. وتُطْلَقُ على كُلِّ فَعْلَةٍ جَمِيلَةٍ يُمْدَحُ فاعِلُها. والمعنى الأوّلُ هُو الملائم هنا.

فالمعنى الذي أفْهَمُهُ مِنْ قَوْل صالح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: يَا قَوْمِ لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ إنْزَالِ السّيِّئَة الَّتِي تَكْرَهُون إنْزَالَهَا بِكُمْ إذَا نَزَلَتْ، قَبْلَ أن تَسْتَوْفُوا حظُوظَكُمْ الحسَنَةَ الّتي قَضَىٰ اللهُ أن تَسْتَمْتِعُوا بها في الحياة الدنيا.

إنَّ رَبَّكُمْ يُمْهلكُمْ رَغْبَةً في تَوْبَتِكُم واستغفاركم، ما دامَت حكمتُه تقضي بإطالَة مُدَّةِ امْتِحانِكُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿... لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَوْلَا﴾: تحضيضِيَّة بمعنى «هَلَّا». أي: هلَّا تَسْأَلُونَ اللهَ أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، فيتجاوزَ عَنْ كُفْرِكُم وجَرائمكُمْ فَلَا يُعَاقِبَكُمْ عليها، رحْمَةً منْهُ بكم.

الاستغفار: طَلَبُ الْغُفْرَانِ، وهُو سَتْرُ الذُّنُوب والمعاصِي، ويَلْزَمُ مِنْ سَتْرِها التَّجاوُزُ عن المعاقَبَةِ عليها بفضل الله، ويَنْبَغِي أنْ يكون الاسْتغفارُ مُسْتَتْبعاً بالتوبة من ارتكاب الذُّنوب، إذْ كَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَتْرِ الذَّنبِ الماضِي مع الإصرار على فِعْلِ مِثْلِهِ في الحال أو الاستقبال؟!

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: **لَعَلَّ**: للتَّرَجّي، والتَّرَجّي يُلَائم حَالَ العباد، ولا يُلَائم صِفَاتِ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهُوَ علىٰ مَا يَشَاءُ قَدِير.

فالمعنى: هَلَّا تَسْتَغْفِرُوْنَ اللهَ عزّ وجلّ، رَاجِينَ أنْ يَرْحَمَكُمْ فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ويَرْفَعَ عنكم ما أنتم تَسْتَحقُّونَ مِنْ عِقَابٍ على مَا سَبَقَ مِنْكُمْ مِنْ كُفْرٍ في الاعْتِقَادِ، وجرائم في السُّلُوك.

• ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾: **اطَّيَّرْنا**: أصْلُهَا: «تَطَيَّرْنا». **والتَّطَيُّر**: هو التشاؤُمُ بالأشياء، أو بالأشْخاص، أو بمَسْمُوعٍ، أو بمَرْئي، أو بنَحْو ذلك.

وأصْل التَّطَيُّرِ مِنْ زَجْرِ الْعَرَبِ للطَّيْر، فإذَا طَارَ إلَىٰ جِهَةِ الْيَمِينِ تَفَاءَلُوا، وإذا طار إلى جِهةِ الشمالِ تشاءَمُوا.

دلَّ تَطَيُّرُهم علىٰ أنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ أنزل بثَمُودَ علَى وفْقِ عادتِه في الأقوام، مَقَادِيرَ مِن البأسَاءِ والضَّرَّاءِ، رَغْبَةً في أنْ يتُوبوا ويَتَضَرَّعُوا،

سائِلِينَ الله عزّ وجلّ أن يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بهم، بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِمْ صالح عَلَيْهِ السَّلام، وبما جاء به عَنْ رَبّهم.

لكِنَّ أَهْلَ الكُفْرِ العنادِي الجحودِيّ، ينْسُبُونَ ظَاهِرَاتِ البأسَاءِ والضَّرَّاءِ، إِلَىٰ شُؤْم رُسُلِهِمْ، وشُؤْمِ الَّذِين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، على سبيلِ التَّطَيّرِ التَّوَهُّمِيّ، الّذِي لَا يكُونُ المتَطَيَّرُ بِهِ سبباً لِحُدُوثِ البأْسَاءِ والضَّرَّاءِ بحالٍ من الأحْوال.

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَلَّقُونَ بالأوْهام الباطِلَةِ، ويُكَذِّبُونَ رُسُلَ رَبّهم الصَّادِقِين، ويُكَذِّبونَ بالحَقِ الّذي يُبَلّغُونَهُ عَنِ الله رَبِّ العالمين.

• ﴿...قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: قَالَ: عَمَلُكُمُ انْطَلَقَ طَائِرا فَصَارَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِلْماً، وتَسْجِيلاً، وحِسَاباً، وهُوَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ بِكُمْ مِنَ البأسَاءِ والضّرَّاءِ مَا تَكْرَهُون، رَغْبَةً فِي أَنْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ، وتَسْتَغْفِرُوه، وتَتَضَرَّعوا، سائِلينَ أن يكْشِفَ ما أنزل بكم من مصائب.

لَكِنَّكُمْ صَرَفْتُمْ هٰذِهِ الحقيقة عَنْ أذهانِكُمْ، وتَمَسَّكْتُمْ بأَوْهَامِ التَّطَيُّرِ الّذِي لَا حَقِيقَة له، وإنّما هو ذَرِيعةٌ تَتَهَرَّبُونَ بها من الحقّ.

واخْتِيرَ لفْظُ الطائرِ كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ، ليتَلَاءَمَ في اللَّفْظِ مع الطِّيَرَةِ المشْتَقَّةِ من الطّائر، وهٰذِهِ كنايةٌ قُرْآنِيَّة.

فالمعنى: لَا شُؤْمَ مِنّي، ولا مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، فَتَسْتجيبونَ لوساوس الشيطان وإغراءاته وتَسْوِيلاته بالباطل، مُنْخَدِعِينَ بها، إِذْ يُزَيّنُ لَكُمْ شَهَوَاتِكُمْ من الحياة الدُّنيا، ويُزَيّنُ لَكُم ما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلَالٍ عن الحقّ والْهُدَىٰ، وتتأثَّرُونَ بها جائرين عن صراطِ الحقّ، صِراط الله المستقيم.

الفتنة: تأتي في اللُّغة للدَّلالَةِ علَىٰ معاني عَدِيدة منها:

(١) الابتلاء. (٢) التعذيب (٣) الإغراءُ والخداعُ بالباطل للإضلالِ والصَّرْف عن الحق، وهذا المعنىٰ الأخير هو الملائمُ هُنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتابع شياطين الإنْس والجنِّ عَلَيْكُمْ وَسَائِلَ الإغْراء والإغْوَاءِ لإضْلَالِكُمْ، فتَسْتَجِيبون لَهُمْ، فَتَضِلُّونَ عَنْ إدْراكِ الحقّ، وعن الاسْتِمْسَاكِ بِهِ، والْعَمَلِ بمَا يقْتَضِيه منْكُمْ مِنْ سُلُوكِ. دلَّ على هٰذِهِ المتابعة استعمال الفِعْلِ المضارع في التعبير.

وقُدِّم المسْنَدُ إلَيه في عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لتَعْيِينِ افْتِتَانِهِم وضلالهم، في مُقَابِلِ انتفاء الشُّؤم الَّذِي ادَّعَوْهُ بِقَوْلِهِمْ لِرَسُولِهم صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾. دَلَّ على هذا حرف «بل». فالعبارة بقُوَّة: لَا شُؤْمَ يَأْتِيكُمْ مِنْ قِبَلِنَا حتَّىٰ تَطَيَّرُوا بِنا، إنَّما أنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُون.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع
مرحلة طُغيَانِ ثمود بعَقر ناقة الله
وتحدّيهم رسُولهم بأن يأتيهم بما كان ينذِرهم به

لقد غَرَّ كُفَّارَ ثمود طُولُ إمْهَالِ اللهِ لهم، ليقطَعَ آخِرَ خَيْطٍ من نَسيج معاذيرهم، الّتي قد يعْتَذِرُونَ بِهَا عنْدَ رَبّهم، فبَعَثُوا أكْثَرَهُمْ كُفْراً وطُغْياناً وَحِدَّةً وشَرّاً لِعقرِ الناقَة، وقالُوا لصالح عليه السَّلام: ائْتِناً بما تَعِدُنَا من عذابٍ مُهْلِكٍ إنْ كُنْتَ مِنَ المرْسَلين، فاقتضت حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ استِئْصَالٍ عَقِب هذه المرحلة.

دلَّ على هٰذِهِ المرحَلَةِ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾:

في آية سورة (الأعراف) بيانُ ثلاثَةِ تَحدّياتٍ تحدَّىٰ بها كُفّارُ ثمود رَسُولَ رَبّهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلام، اثنان منها عمليّان، وثالِثُها قَوْلي:

التحدّي العمَلِيُّ الأول: دلَّت عليه عبارة ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ...﴾ أي: إنَّهم لم يعْبؤوا بإنذارِ صالح لهم بأنْ يأْخُذَهُمْ اللهُ بعَذَابٍ أَلِيمٍ وقريبٍ فِي يَوْمٍ عظيم، إذا مَسُّوا ناقَةَ الله بسُوءٍ ما، فكانَ مَنْهُمْ عَقْرُها ونَحْرُها، بِجَرِيمَةٍ كُبْرَى، وهم يَعْلَمُونَ أنَّها آيَةُ اللهِ لَهُمْ، إذْ أخْرَجَها لَهُمْ مِن الصَّخْرَةِ الّتي عيَّنُوها، وعلى الوصْفِ الّذِي حَدَّدُوه، وهـٰذِهِ حَماقَةٌ لا يَفْعَلُها إلَّا جَبَّارٌ مَغْرُورٌ مُسْتَكْبِر.

التحدّي العَمَلِي الثاني: دَلَّت عليه عبارة: ﴿...وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾: لَقَدْ وَجَّهَ «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام لَهُمْ أوَامِرَ من اللهِ لَهُم تتعلَّقُ بالإيمان، وبالعبادة، وبأنواع من السُّلُوك، والأمْرُ يَشْمَلُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وما يَجِبُ تَرْكُه، إذِ الْأَمْرُ بالشيْءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ، والنَّهْيُ عَن الشيءِ أمْرٌ بضِدِّه.

﴿عَتَوْا﴾: أي: اسْتَكْبَرُوا وتجاوَزُوا حُدُودَ المعاصِي المعتادَةِ في النَّاسِ، وتجاوزوا حُدُودَ الإفْسَادِ الَّذِي تُوجَدُ نِسْبَةٌ مَا مِنْهُ في كلّ أمَّة، وغَلَوْا غُلُوًّا فَاحِشاً في ذَٰلِكَ كَمًّا وكيْفاً، حتَّىٰ بَلَغُوا إلَىٰ حَضِيضٍ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ مَعَهُ أنْ يُنْزِلَ بِهِم عقاباً صارماً حَازِماً شاملاً.

والعاتِي: هو الطاغِي الجبّارُ المفْسِد.

وقد ضُمِّنَ فِعْل: **«عَتَوْا»** في العبارة مَعْنَىٰ فعل **«ابْتَعَدُوا»** أو فعل

«أَعْرَضوا» أو فِعْلِ «تَوَلَّوْا» فَعُدّي تَعْدِيته بحرفِ «عَنْ» فقال تعالى: ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾: أي: فَعتَوْا مُتَوَلّين عَنْ أَمْرِ رَبّهم، فَأَكْثَرُوا الْفَسَادَ والإفْسَادَ في الأرض.

التحدّي الثالث: (وهو تَحَدٍّ قَوْليّ): دلَّت عليه عبارة: ﴿... وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾:

لَقَدِ اسْتَمَرُّوا مُعَانِدِينَ على ادّعاء أَنَّهُ كذَّابٌ ولَيْسَ رَسُولاً من الْمرُسَلِينَ، من قِبَلِ رَبّ العالَمين، على الرُّغم من آيَةِ النّاقَة الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ عزّ وجلّ لهم من الصخرة وهم شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

لقد غَرَّهم طُولُ إمْهال الله لهم، وتمكُّنُهمْ من عقر ناقة الله، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بهم الْعِقَابَ الْفَوْرِيَّ على عَقْرِهم الناقة.

ولَعِبَتِ الأوْهَامُ في نُفُوسهم، فأبْعَدتْهُمْ عن اسْتِبْصَارِ الحقّ، وَرُبّما تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعاً مِنَ السِّحْر.

وظاهِرٌ أَنَّهُمْ لم يُرِيدُوا فِعْلاً أنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمْ عَذَاباً بإهْلاَكٍ عامّ شَامِلٍ، وإِنَّما تَوَهَّمُوا أنَّ اللهَ عزّ وجلّ لاَ يَسْتَجِيبُ لصالحٍ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ هُو في اعْتِقَادِهِمُ القائم على الْغُرُور ليْسَ رسُولاً، دَلَّ على هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى مَا قَالُوه له: ﴿... إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾ باستعمال حرف «إنْ».

أمّا مَا جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾:

فَدَلَّ علىٰ أنَّ كُبَرَاء «ثَمود» خَافوا أنْ يُبَاشِرُوا عَقْرَ النَّاقَة بأنْفُسِهِمْ، فَنَادُوا صَاحِبَهُم، وهُوَ أَشْقَّاهم كما جاء في سورة (الشَّمْس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾:

وجاء التعبير في آية سورة (القمر) بأنّه صاحِبُهُمْ، للإشارَةِ إلىٰ أنَّ كُفَّارَ ثَمُود كُلَّهُمْ أشقياء، إلَّا أنَّ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ مِنْهم قَدْ كان أشْقَاهم، وكانَ هٰذا أخْبَثَ تِسْعَةِ رَهْطٍ أشقياء من ثمود، وهُو قائدهم، وكانَ هؤلاء أكثر قَوْمِهِمْ سَفَاهَةً، وجُرْأَةً علىٰ الشرّ وارْتكاب كبائر الإثم.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: يُقَالُ لغة: «تَعَاطىٰ الرَّجُلُ» أي: قَامَ على أطراف أصابعِ رجْلَيْه، ورَفَعَ يَدَيْه إلَىٰ الشَّيْءِ لِيَأْخُذه.

﴿فَعَقَرَ﴾: أي: فَعَقَر ناقة الله. الْعَقْرُ في اللُّغةِ يأتي بمَعْنَىٰ قَطْعِ إحْدَىٰ قوائم الْبَعِير ليَسقُطَ على الأرض، ويَتَمَكَّنَ العاقِرُ مِنْ نَحْرِه. ويُقَالَ أيضاً: عَقَرَ الحيوانَ، أي: ذَبَحَهُ.

ويُمْكِنُ تَصْوير مَا قَامَ به «قُدَارُ» أشْقَىٰ «ثَمُود» أنَّ هٰذا الأشْقَىٰ أسْرَع عَقِبَ مُنَاداة كُبَراءِ قَوْمِهِ له مُحَرّضِينَ إيَّاهُ عَلَىٰ التخلُّصِ منَ الناقة، فتناول سِلاحَهُ بخِفَّة، وأقْبَلَ مُتَبَاسِلاً يَمْشِي على رُؤُوس أصَابعِ رِجْلَيْه، مادًّا يَدَيْهِ بِسِلَاحِهِ إلَىٰ الأعْلَىٰ، وأقْبَلَ بِجُرْأةٍ إلَىٰ النَّاقَةِ، فَعقَرَهَا أوَّلاً حَتَّىٰ سَقَطَتْ إلَىٰ الأرض، وعَقَرَهَا ثَانِياً فَنَحَرَهَا.

جاء هذا التصوير الموجَزُ البديعُ بعبارة: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.



الفصل الخامس
مَرحَلَةُ تَبييتِ أَشقِياءِ ثمود قَتلَ صالحٍ عليه السّلام وأهْلِهِ معه

يظهر أنَّ تَخلُّصَ كُفَّارِ ثَمُود مِنَ النَّاقَةِ، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ الله بِهِمْ فَوْراً مَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ صَالِحٌ عليه السَّلام بِهِ مِنْ عَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ، قَدْ أَغْرَاهُمْ بِأَنْ يَتَخلَّصُوا من رَسُولهم ومِنْ أهله مَعَهُ، فَدَفَعَ كبراء كفَّار ثَمُودَ عِصَابَةً

أشْقِيَائِهم سِرًّا، أنْ يُدَبِّرُوا قَتْلَ رَسُولِهِمْ وقَتْلَ أهْلِهِ بَيَاتاً، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ من أَوْلِيائِهِ، وأَنْ يَحْلِفُوا على أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً عَنْ هَذَا الحَدِثِ.

دلَّ على هٰذِهِ المرحَلَةِ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

الرَّهط: الجماعة من الرّجال دون العشرة.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: لمّا كانت كلمة «رَهْطٍ» بمعنى «رجالٍ» صَحَّ تمييزُ لفظ «تِسْعة» بمضافٍ إِلَيْهِ مَجْرُورٍ، كَقوْلنا، «تِسْعَةُ رِجال».

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُفْسِدُونَ في أرض مَدِينَة ثَمُودَ، ورُبَّما يُفْسِدُونَ في غَيْرِها أيضاً.

الإفساد: تحويل الشيْء من كَوْنه صالحاً نافعاً، إلى كونِهِ غَيْرَ صالحٍ ولا نافع، بل رُبَّمَا يَصِيرُ ضارّاً كرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إِثْبَاتُ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ، لا يَنْفِي أَنَّهُمْ قَدْ يُصْلِحُونَ أحْياناً، فجاءَتْ عبارةُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ صَلاحٌ ولا إصلاحٌ ما، في كلّ أَعْمَالِهِمْ وتَصَرُّفَاتِهِمْ وَمَا يَكْسِبُون.

فعلُ «أصْلَح» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأوّل: يُقَالُ فِيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ» أي: أَتَى بما هو صالحٌ نَافع، فهو فعل لازمٌ على هذا المعنى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أَزَالَ فَسَادَه، فهُو فِعْلٌ مُتَعَدٍّ علَىٰ هـٰذا المعنَىٰ.

وكلا المعْنَيَيْن يَنْطَبِقان على هؤلاء الرَّهط التسعة.

فَدَلَّ قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في وَصْفهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على أَنَّهم لَا يكُون مِنْهُمْ إلَّا الْفَسَادُ والإفْسَادُ، ولا يَكُونُ مِنْهُمْ صَلَاحٌ ولا إصْلَاح، ويظهر أنَّ عَاقِرَي النّاقة كانا المقَدَّمَيْن في هؤلاء الرَّهْط.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ... ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فِعْلُ أمْرٍ بإحداث الْقَسَم بالله، أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ: لِيُقْسِمْ كُلٌّ مِنَّا باللهِ.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾: مَقُولُ قَوْلٍ محذوف هو حال، وتقدير الكلام: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فَأَقْسَمُوا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾: أي: لَنقتُلَنَّ صَالحاً وَأَهْلَهُ بَيَاتاً.

التَّبْيِيت: عَمَلُ شيءٍ ما، أو تَدْبيرُه، أو الاتّفَاقُ عليه، أوْ نِيَّةُ فِعْلِه، لَيلاً. ومن عَمَلَ الشيْءِ لَيْلاً مُبَاغَتَةُ الْعَدُوِّ في اللَّيلِ لِقَتْلِهِ، أوْ سَلْبِهِ، أو إنْزَال مَا يَكْرَهُ به.

- ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾:

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: لِأَقْرِبَائِهِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بالثَّأْرِ.

- ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾: أي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ صَالِح، ولا مَهْلِكَ أهْلِه، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هَلَاكِهِمْ، حَدَثاً، ولَا زَمَاناً، ولا مَكَاناً.

نَفْيُ شُهُودِ الحَدَثِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْي إحْدَاثِه، لأنَّ نَفْي فِعْلِ الحدَثِ قَدْ يَكُونُ مع الحضور والشُّهُودِ، لَكِنَّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ علىٰ أنَّ الْعِلْمَ بِهلاكِهِمْ قَدْ كان تَلَقِّيا مِنْ أخبار النّاس.

- ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: أي: وَنُؤَكِّدُ لِوَلِيِّهِ بَعْدَ الْقَسَمِ صِدْقَنَا في أَنَّنا ما

شَهِدْنَا مَهْلِكَهُمْ، ففي هٰذِهِ الْعِبَارَةِ التوكيد بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللَّامُ المزحْلَقة».

• ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾:

المكر: تَدْبِيرُ أَمْرٍ ما في خَفاءٍ، يكونُ في الخير، ويكُونُ في الشّرّ. أمَّا مَكْرُ أشقياء ثَمُودَ فَقَدْ كَانَ في الشّرّ، إذْ دَبَّرُوا قَتْلَ صالحٍ عليه السَّلام وأَهْلِهِ في خَفَاءٍ. وأمَّا مَكْرُ اللهِ فقد كَانَ في الخير، إذْ أَحْبَطَ اللهِ بِمَكْرِه مَكْرَ أشْقِيَاءِ ثَمُود، وأهْلَكَهُمْ عقاباً لَهُمْ، والجزاءُ بِالْعَدْلِ هُو مِنَ الْخَيْرِ حتماً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لَا يَعْلَمُونَ أقلَّ عِلْمٍ بتَدْبير الله عزّ وجلّ.

❋ ❋ ❋

الفصل السادس
مرحَلَةُ إنذَار صالح عليه السّلام لكُفّارِ قَوْمِهِ بأنَّ عذاب اللهِ نازِلٌ بهم بَعْدَ ثَلاثَةِ أيّام

لمَّا وَصَلَ كُفَّارُ ثَمُودِ غَايَةَ الإمْهَالِ الَّذِي قضَتْ بِهِ حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلّ، وشَاءَتْ حِكْمَتُهُ ـ جَلّ جَلَالُه وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يُعَلِمَهُمْ بِمَوْعِدِ إهْلَاكِهِم الْقَرِيب، أَوْحَىٰ إلى رَسُولِهِ صَالح عليه السَّلام بأنْ يُبَلِّغَهُمْ بأنَّ إنْزَال الْعَذَابِ الْمُهْلِكِ لهُمْ سَيَكُونُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أيَّامٍ، فَأَبْلَغَهُمْ رَسُولُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أوحَىٰ اللهُ عزّ وجلّ إلَيْه.

دلَّ على هذا قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نُزُول).

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا... ﴿٦٨﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سِورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ... ﴿١٥٨﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾:

من سورة (هود):

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَعَقِبَ عَقْرِ «ثَمود» ناقَةَ الله، بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ، جَرَىٰ فِيهِ تَدْبِيرُهُمْ قَتْل صَالِحٍ وأَهْلِهِ، وجَرَىٰ فيه إِهْلَاكُ اللهِ عزّ وجلّ أشقياءَ ثَمُودَ التّسعة، قالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام، وفي الْيَوْمِ الرَّابعِ يَكُونُ إِنْزَالُ عَذَاب اللهِ الأَلِيمِ الْمُهْلِكِ الَّذِي يَسْتَأْصِلُكُمْ اسْتِئصالاً شاملاً.

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾: أي: انْتَفِعُوا في دَارِكُمْ بما فيها من أمْنٍ ورَخَاءٍ.

المتاع: كلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ به والْفَنَاءُ يأتي عَلَيْهِ في الدُّنيا. أمَّا النعيم فقد خَصَّهُ اللهُ عزّ وجلّ في القرآنِ بما يكونُ في الجنَّةِ يَوْم الدّينِ من لذَّاتٍ وَسَعَادَات، والدُّنيا لَا نَعِيمَ فيها، وإنَّما فيها تمتُّعٌ زائِلٌ وَمَشُوبٌ بالمنغّصات.

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: أي: ثَلاثَةَ أَيام بِلَيَالِيها فقَط، وفي الْيَوْمِ الرابع بدْءاً من أوّلِهِ يَنْتَهِي استِمْتَاعُكُمْ، ويَأْتِي وقْتَ عَذَابكُمْ.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: ذَلِك الْعَذَابُ الألِيمُ العظيمُ الَّذِي سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مع بَدْءِ الْيَوْم الرابعِ وَعْدٌ صَادِقٌ حَقّاً، جاءَتْ الإشارة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه الْبَعيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِظَمِ الْعَذَابِ الموعود به، وشِدَّةِ إيلامِه للمعَذَّبين.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: غَيْرُ مَوْعُودٍ وَعْداً كَذِباً، يُقَالُ لُغَةً: «مَا كَذَبَ الرَّسُولُ قَوْمَهُ وَعْدَه» فوعْدُه غير مكْذُوب. ويقال: «كَذَبَ إبْلِيسُ آدمَ حَدِيثَهُ» فَحَدِيثُهُ مَكْذُوب.

فَلا حَاجَةَ مع هذا إلى تقدير معمول مَحْذُوفٍ، كأنْ نقول: مَكْذُوبٍ فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: فلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أمْرِنَا الّذِي قَضَيْنَاه، بِتَنْجِيَةِ صَالحٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وإهْلَاكِ سائِرِ ثمود بسَبَب ظُلْمِهِمْ.

﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾:

النجاةُ: الْخَلاصُ من المكْرُوه.

أي: خَلَّصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أَنْ نُخَلِّصَهُمْ من الإهْلَاكِ، وهم صَالحٌ والَّذِين آمَنُوا مَعَه، بوسِيلَةٍ هي مِنْ آثار رَحْمتنا، وَخَلَّصْنَاهُمْ من الْخِزْي الَّذِي نَزَلَ بِكفَّارِ ثَمُودَ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، إِذْ سَبَقَ إِمَاتَتَهُمْ إذْلَالُهُمْ وإسْقَاطُهُمْ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِم خَزَايا مُهَانِينَ مُحْتَقَرِين، وتَعْذِيبُهم عذاباً أليماً.

الخزي: الوقوعُ فِي الشرّ والْعَذابِ والْبَلايا، والذُّلّ والْهَوانُ، والافتضاحُ بالقبائح.

فدَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ أَمَرَ صالحاً عليه السَّلام، بأنْ يَبْتَعِدَ هو وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ مَواقِعِ تَنَزُّلِ العذاب، قَبْلَ الموعِدِ المحدّد لإنزاله، وأنَّهمْ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ ثَمُودَ وابتَعَدُوا عَنْ مَواقِعِ تنزُّلِ الْعَذَاب كما أَمَرَ الله، وأنَّ الله عزّ وجلّ حَمىٰ بِرَحْمَتِهِ المكَانَ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ شيءٌ مِمَّا نَزَلَ بالْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ المهلكِين، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ خِزْيٌ ولا إهْلاك.

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾: جاءَ في هٰذِهِ العبارة تمْجِيدٌ لله عزّ وجلّ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِه.

﴿ٱلْقَوِيُّ﴾: أي: ذو القوة العظيمة الكُبْرَىٰ، الّتِي يَفْعَلُ بها مَا يشاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيم مَهْمَا احْتَاجَ الأمْرُ الذي يَفْعَلُهُ مِنْ قُوَّةٍ عظيمة.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: ذو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لكُلِّ الْقُوىٰ.

وأَرَىٰ فِي هٰذا البيان عَقِبَ بَيَانِ تَنجِيَةِ صَالِحِ والَّذِينَ آمَنُوا معه، إِشَارَةً إِلَىٰ أنَّ تَنْجِيَتَهُمْ قَدْ كانَتْ ذَاتَ ظُروفٍ تَحْتَاجُ قُوَّةً عَظِيمَةً وَعِزَّةً غالِبَةً.

فَهَلْ نَجَّاهُمُ اللهُ مَعَ أنَّ أَمْكِنَةَ وُجُودِهِمْ قَدْ كانت في مُحِيط تَنَزُّلَاتِ وَسَائِلِ تَعْذِيبِ كُفَّارِ ثَمُودَ وإهلاكهم؟! اللهُ أعْلَمُ.

• ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وقبضَتِ الصَّيْحَةُ على الَّذِين ظَلَمُوا وهُمْ كُفَّارُ ثَمُودَ، قَبْضَةَ تَعْذِيب وإِخْزاءٍ وإِهْلاكٍ مُسْتَأْصل. **الصَّيْحَةُ**: صَوْتٌ عَظِيم مُمِيت.

اختِيرتْ عبارة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للأشعار بأنَّ ظُلْمَهُمْ قد كان هو السَّبَبَ في تَعْذِيبِهِمْ وإخْزَائِهِم وإهْلاكهم.

• ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾:

﴿فَأَصْبَحُوا﴾: أي: فَدَخَلُوا في صَباحِ الْيَوْم المقرَّرِ لإهْلَاكِهِمْ فيه.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاصِقِينَ بالأرْضِ علَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوههم، مُلازِمِينَ أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ، بَعْدَ أنَ ذَاقُوا عَذَاباً أَلِيماً وخِزْياً ذَلَّتْ بِهِ نُفُوسهم، وَنَالَها صَغارٌ ومَهَانَةٌ، جزاءَ مَا كانُوا فيه مِنْ تَعالٍ واسْتِكْبَارٍ على بَارِئهم.

• ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾: أي: فصارت حَالَتُهُمْ بَعْدَ أنْ نَزَلَ بِهِمْ مِن عذاب اللهِ مَا نَزَل، تُشْبِهُ حالَةَ الَّذِينَ لم تَكُنْ لَهُمْ إقَامَةٌ مُطْلقاً في دَارِهِم، وهٰذا يَدُلُّ على اسْتئصالِ وجُودِ أَجْسَادِهم الهلْكَىٰ بَعْدَ ذلك، وَطَمْسِ كُلِّ آثارها.

يُقَالُ لغة: «غَنِيَ بالمكانِ يَغْنَىٰ» أي: أقامَ فيه. ويقال: «غَنِيَ الْقَوْمُ بالْمَكَانِ» أي: طالَ مُقَامُهُمْ فيه.

والْمَغْنَىٰ: المنْزِلُ الّذي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وجمعه «مَغَاني».

ودَلَّ النصّ الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) على أنَّ الرَّجْفَةَ قَدْ أخَذَتهم، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾:

الرَّجْفَة: الزَّلْزَلة. يقال لغة: رَجَفَتِ الأرْضُ تَرْجُفُ رَجْفاً، أي: حَصَلَتْ فيها زَلْزَلَة.

فَدَلَّ النَّصَّانِ على أنَّ الصَّيْحَةَ في الجوّ قَدْ رافَقَتْها زَلْزَلَةٌ في الأرض، فاجْتَمَعَ السَّبَبَانِ العظيمان المهلِكان.

ودَلَّ النَّصُّ الّذي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَلَىٰ أنَّهم أصْبَحوا نادِمِينَ حين رَأَوْا بوادِرَ تَعْذِيبهم، وأنَّ العذابَ الذي نزل بهم، قَدْ ذَاقوا آلامه قَبْلَ أنْ يَهْلِكُوا، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿... فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ... ﴿١٥٨﴾﴾:

وجاء في النّصِ الَّذِي جاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) ذِكْرُ الصَّيْحَةِ بِعُنْوانِ «الطّاغِيَة» فقال تعالى فيها:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: أي: الّتي تجاوزَتْ حُدُودَ الصّيحات المعتادات الَّتِي لا تُهْلِكُ، وطَغَتْ حتَّىٰ صارت صَيْحَةً مُهْلِكة.

وَجَاءَ في النصّ الذي جاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) ذِكْرُ الْوَسِيلَةِ الَّتي أهْلَكَ اللهُ بها ثَمُودَ باسْمِ الصَّاعِقَة، وجاء فيه وصْفُهَا بأنَّها صاعِقَةُ العَذَابِ الْهُونِ.

الصَّاعقة: النازِلَةُ الَّتي يكُونُ بهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ.

وبنظرة تكاملية إلى هٰذِهِ النُّصوص، نَفْهَمُ أنَّهُمْ عُذِّبوا، وَبَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ أُهْلِكُوا، وأنَّهم نَدِمُوا حِينَ رَأَوْا بَوَادِرَ تَعْذِيبهم، وأنَّ إهْلاكَهُمْ قَدْ كَانَ بالصَّيْحَةِ الْمَصْحُوبَةِ بالزَّلْزَلَة، وأنّ صالحاً عليه السَّلام قَدْ حَدَّدَ لَهُمُ الْيَوْمَ الّذِي تَنْزلُ عَلَيْهِمْ مَعَ بدايَتِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبهم، وأنَّ إهْلاكَهُمْ يَكُونُ فِيه، وكان ذلك قَبْلَ ثَلاثَةِ أيّام.

وبهذا الْجَمع التكامُلِي ظَهَرَ لَنَا أنَّ النُّصُوصَ القرآنِيّة هٰذِهِ لَا تكرار فيها، إلَّا مَا يَدْعُو ذِكْرُ القضايا المضافة إلى ذكره، وإلَّا مَا تَقْتَضِي العِظَةُ التحذيريَّة العِلَاجِيَّةُ إلى ذِكْرِه.

والحمد لله على مَعُونته وتَوْفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع
ماذا فعل صالح عليه السّلام بعد أن أهلَكَ الله عزّ وجلّ قومه ونَجّاهُ هو والّذين آمَنُوا مَعَه

لقد انْصَرَفَ صالح عليه السَّلام هو والّذِين آمَنُوا مَعَهُ عَنْ دِيارِ ثَمُودَ مُبْتَعِدين، وخاطَبَهُمْ وهُمْ هالِكُونَ قائِلاً لهم: لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ولَكِنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحِين.

دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أي: أدْبَرَ وابْتَعَدَ.

والمعنى: فانْصَرَفَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام عن أرض ثمود، مُهَاجِراً بالّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ وأَنْجَاهُمُ اللهِ من الخزي والإهلاك، إلى أرْضٍ أُخْرَى يُقِيمُونَ فيها.

ودلَّ العطف بالفاء على أنّ هٰذا التَّوَلِّي قَدْ كان عقب إهلاك كُفَّارِ ثَمُود.

وعند توليه بمَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنين، خاطب كُفَّارَ قَوْمِهِ وهُمْ هَلْكَىٰ بعبارات ثلاث:

العبارة الأولىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾:

أي: أَدَّيْتُ الأمَانَةَ الّتِي كَلَّفَنِي رَبّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إيَّاها، وقُمْتُ بما أَوْجَب اللهُ عليَّ تُجاهَكُمْ، لَمْ أَزِدْ عَلَىٰ مَا أَمَرَنِي رَبّي أنْ أبلّغَكُمْ إيّاهُ شيئاً، ولَمْ أَنْقُصْ مِنْهُ شيئاً.

لَمْ يَقُلْ صالحٌ عليه السَّلامُ رِسَالَاتِ رَبِّي بالجمع، ويُفْهَمُ من هٰذا أنَّ الله أَنْزَلَ عليه الرِّسَالَةَ جُمْلَةً واحدةً، ولم يَجْعَلْهَا مُنَجَّمةً مُجَزَّأَةً، لِحِكْمَةٍ خاصَّةٍ بِقَوْمِهِ.

بخِلَافِ «نوح، وهُودٍ، وشُعَيْبٍ» عليهم السلام، فَقَد جاء في بياناتِ كلٍّ مِنْهُمْ أنَّهُ قَدْ أَبْلَغَ قَوْمَهُ رِسَالَاتِ رَبِّه.

ويُؤَكِّد هذا الفهم ما جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وهُوَ قَول اللهِ عزّ وجلّ حكايةً لمعنىٰ مَقالَةِ ثَمُودَ لَهُ:

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فقد جاء التعْبير بإلْقَاء الذِّكْرِ لا بإنْزَالِهِ ولا بِتَنْزِيلِهِ، والإلْقَاءُ يُشعِرُ بأنَّهُ كَانَ بأسْلُوب الدُّفْعَةِ الواحِدَة، لَا بأسْلُوب التَّنْزِيلِ المنَجَّم.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: وبَذَلْتُ مِنْ أجْلِكُمْ كُلَّ مَا أسْتَطِيعُ مِنْ نُصْحٍ، بالإقناعِ، والموعظة الحسَنَةِ بالترغيب والتَّرْهيب، والْمُجَادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، مع الصَّبْرِ، وسَعَةِ الصَّدْرِ، والْحِلْمِ، وَتَحَمُّلِ الأذىٰ.

يقال لغة: «نَصَحَهُ، ونَصَحَ لَهُ».

فَدَلَّت هٰذِهِ العبارةُ على أنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام قَدْ دَلَّ قَوْمَهُ على مَا فيه خَيْرُهُمْ، وأنَّهُ رَغَّبَهُمْ فيه، وأخْلَصَ لَهُمْ بِتَقْدِيم الحقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ خالِصَةً مِنْ كُلِّ شائبة، وَكَانَ بَرِيئاً من أيَّةِ مصلَحَةٍ شَخْصِيَّة له عِنْدَهُمْ، إنَّما يَرْجُو أجْرَهُ عَلَيْهِ السَّلام عِنْدَ رَبِّه.

النُّصْحُ: هو في اللُّغَةِ الْخُلُوصُ من الشوائب، يقال لغة: «نَصَحَ الْمَعْدِنُ» أي: خَلَصَ من الشوائب.

العبارة الثالثة: ﴿...وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: ولَكِنْ كُنْتُمْ

حَتَىٰ نُزُولِ الْعَذَابِ فالْهَلَاكِ بكم، لَا تُحِبُّونَ في الحال وفي الاسْتِقْبَالِ النّاصِحِينَ لَكُمْ، الَّذِينَ تَرَوْنَ في نُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ يُبْعِدُونَكُم عَنْ أهوائكم، وشهواتِكم، وَرَغَبَاتِكُمْ في الْفُجُورِ، مَعَ أَنَّهَا سَتَكُونُ أَسْبَابَ شَقَائِكُمْ، وَسَخَطِ الله عَلَيْكُمْ، وأَنْتُم مُتَشَبِّثُون بها، وتَرَوْنَ في تَعَلُّقِكُمْ بها سَعاداتكم.

ويُشْعِرُ الفِعْلُ المضارع في عبارة: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يُهْلِكْهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، واسْتَمَرُّوا بَاقِينَ في الحياة الدُّنيا، لاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ هٰذا الوصْفِ لَا يُحِبُونَ النَّاصحين.

وخطابُ صَالحٍ عليه السَّلام لِقَوْمِهِ بَعْدَ إهْلاَكِ اللهِ لَهُمْ، نَظِيرُ خطاب الرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ لِقَتْلَىٰ المشركين في غَزْوَةِ بَدْرٍ، إذْ وَقَفَ عَلَىٰ الْقَلِيبِ[1] الَّذِي أَلْقَاهُمْ فيه فقال:

«يَا أَهْلَ الْقَلِيب، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

فقال لَهُ أَصْحَابُه: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكَلِّمُ قَوْماً مَوْتَىٰ؟

فقال رسول الله ﷺ لَهُم: «لَقَدْ سَمِعُوا ما قُلْتُ لَهُم»[2].

الفصل الثامن
التعقيب الرّبّانيّ عَلَىٰ إهْلاَكِ كُفّار ثَمود

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٣ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأن كُفَّارِ ثمود:

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾:

---

(١) **القليب**: الْبِئر.

(٢) انظر سيرة ابن هشام. ج١ ص٦٣٩.

﴿أَلَآ﴾ أداةُ اسْتِفْتاحٍ وَتَنْبيه.

﴿إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾: أيْ: كَفَرُوا بِرَبّهم، جاحِدِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَا يَجِبُ عليهم من عبادَتِه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾: أُعِيدَتْ أَداةُ ﴿أَلَآ﴾ لتوكيد التّنْبيه على ما يُذْكَرُ بَعْدَها، لأنَّ الْحِكْمَةَ تقتضي التوجِيهَ بِشِدَّةٍ لتخصيصهِ بمَزِيدٍ مِنَ الْعِنَايَة.

والمعنى: ألَا طَرْداً لِكُفَّارِ ثَمودَ، مِنْ مَوَاقِعِ نُزُولِ آثارِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، والسَّبَبُ في هذا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ الرحْمٰن، فاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالإِبْعَادِ والطَّرْد.

ونُصِبَ لفظ «بُعْداً» على أَنَّهُ مَفْعُول مطلق لِفِعْل مَحْذُوف.

(٢) وَجَاء في سورة (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْل الله عزّ وجلّ بشأن أشقاء ثمود التسْعَة، خطاباً لكل مُتَلَقٍّ صالحٍ للخطاب، بأسْلُوبِ الخِطَاب الإفرادي.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾:

• ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: أي: فانْظُرْ أَيُّهَا المتَلِقّي المستَعِدُّ للاتِّعاظ مُتفكّراً، الحالَةَ الَّتي وُجِدَتْ عَلَيْهَا عاقِبَةُ مَكْرِ أشْقِيَاءِ ثَمودَ، وعَاقِبَةُ سَائِر كُفَّارِهِمْ الّذِين طَغَوْا وبَغَوْا.

• ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾: المصْدَرُ المؤوّل مِنْ «أَنَّ» ومَا بَعْدَها بَدَلٌ من: ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أي: فانْظُرْ كيْفَ كَانَ تَدْمِيرُنا الأَشْقِياءَ التِّسْعَةَ وكُفَّارَ قَوْمِهِمْ أجْمَعِينَ.

العاقِبَةُ: الجزاءُ الّذِي يكُونُ بَعْدَ عَمَلِ العامل.

التَّدْمِير: هو الإهْلَاكُ مع إبَادَةِ المهْلَك، وهٰذا يَكُونُ مصحوباً غالباً بتَعْذِيبٍ شَدِيد.

يقال لغة: «دَمَّرَ اللهُ الْقَوْمَ تَدْمِيراً، وَدَمَّر عَلَيْهِمْ»: أي: أهْلَكَهُمْ. ويُقال: «دَمَّرَ اللهُ الْقَرْيَةَ وَدَمَّرَ عَلَيْها»: أي: أبَادَهَا وَجعَلَهَا دَارِسَةً.

وَعَلىٰ قِرَاءَة ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنَّ» تَكُونُ الجملة مُسْتَأنَفَةً، جواباً لسؤالٍ مطوِيّ تَقْدِيرُه: كَيْفَ كانت عَاقِبَةُ مَكْرِهم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أجْمَعِينَ﴾.

والقراءتان مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤداهُمَا واحد.

- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: فتِلْكَ بُيُوتُهُمُ الباقِيَةُ من آثارِهم في مَداين صالحٍ، حالَةَ كَوْنها خالِيَةً مِنْهُمْ ومِنْ أيّ ساكِنٍ من النّاسِ بِسَبَبِ ظُلْمِهم:

﴿خَاوِيَةً﴾: أي: خالِيَةً مِنَ السَّاكِنِينَ. يقال لغة: «خَوَىٰ المكانُ وَنَحْوُهُ يَخْوِي، خَيًّا، وخَوَاءً، وخَوىً، وخُوِيًّا» أي: خلا، والكلمةُ مَنْصُوبَة على أنَّها حال، والعامل فيه، مَا في اسْمِ الإشارَةِ مِنْ معنَىٰ «أُشير».

إنَّ آثارَهُمْ تَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ أهْلَكَهُمْ إهْلاكاً جَماعيًّا، دَمَّرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيراً، بسَبَب كُفْرِهم وظُلْمِهم، فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبْصَار.

إنّ هـٰذِهِ الآثار لَعَلامَةٌ جَلِيَّةٌ واضِحَةٌ علىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ بِحِكْمَتِه وَعَدْلِه قَدْ يُعَاقِبُ في الدُّنيا الكافِرِين الطّاغِين المجرمين، لتَطْهير الأرض مِنْهم، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ لَعَلامَةً واضِحَةً علَىٰ عَدْلِ اللهِ وَجَزَائه،

مُوَجَّهَةً لِقَوْم هم مُسْتَعِدُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَجارِيَ سُنَنِ اللهِ في عباده، وَحِكْمَتَهُ في تَصَارِيفه، فإذا عَلِمُوا مِنْهَا شَيْئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دَافعاً لهم إلى الالْتزام بطاعَتِه، اعْتِقَاداً وعَمَلاً.

• ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾: أي: وخَلَّصْنَا من العذاب والإهْلاكِ التدميريّ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلام، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وكان لإيمانِهِمْ تَأْثِيرٌ ما في سُلُوكِهم، إذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عقابَ اللهِ على المعاصِي، بفِعْلِ ما يأمُرُهم به أمْرَ إيجابٍ وإلْزام، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهم عَنْهُ نَهْيَ تَحْريمٍ وَحَظْر.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَيَسُوؤُهم وِقَايَةً، والوقَايَةُ من عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِه، تَكُونُ بِصِدْقِ الإيمان به وبما أَوْجَبَ الإيمانُ به مع صِحَّة هذا الإيمان، وبطاعَتِهِ مع الإخلاص له ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُم سُلْطانه ـ في الأقوال والأعْمَالِ بالنيَّاتِ الصَّادِقَات الصحيحات.

(٣) وجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ تَعْقِيباً على إهلاك كُفّار ثمود:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾:

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠﴾؟! حُذِفت من كلمة «نُذُرِ» ياء المتكلم العظيم.

أي: فَعَلَىٰ أيَّةِ حَالٍ كَانَ عَذَابِي لكُفَّارِ ثَمُود؟! وعلى أيَّةِ حالٍ كَانَتْ نُذُري لِكُفَّارِ ثَمُود؟!

نُذُري: أي: إنْذَارَاتي الَّتي بلَّغَهُمْ إيّاها رَسُولي صالح.

الإنْذَار: الإعلام والإخبارُ بعَوَاقِبَ غَيْر سَارَّة.

في هـٰذِهِ العبارة استِفْهامٌ يَنْتَزِع الجوابَ انْتِزاعاً مِنْ كلِّ ذِي فِكْرٍ عادِيٍّ يَفْهَمُ المسائل السَّهْلَة، دُونَ حاجَةٍ إلى رَوِيَّةٍ وتأمُّل، فيقول:

(١) لَقَدْ كَانَ العذابُ عذاباً شدِيداً مُخِيفاً، يُثِيرُ الرَّهَبَ والاتِّعاظ والادِّكار.

(٢) ولَقَدْ كانت النُّذُرُ الَّتي أنْذَرَ اللهُ بها قَوْمَ ثَمودَ على لِسَانِ رَسُولهم نُذُراً صادِقَةً، حَقَّقَ الواقِعُ الثَّابِتُ في التاريخُ ما جاء فيها بلا نُقْصَان.

• ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾:

﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: أي: صَوْتاً عَظِيماً واحداً، كافِياً للإهلاك الإبادة:

﴿فَكَانُوا۟﴾: أي: فصَارَ كُفَّارُ ثَمودَ بِتَأْثِيرِ الصَّيْحَةِ الْواحِدَة.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: الْهَشِيمُ في اللُّغَة: يأتي للدَّلَالة على عِدَّةِ معانٍ:

(١) يأتي بِمَعْنَىٰ الْمَهْشُومِ المتَكَسِّرِ من النَّبَاتَاتِ والْأَشجار وغيرها من الأشياء.

(٢) ويأتي بِمَعْنَىٰ الشَّجَرَة البالية الَّتي يأخُذها الحاطب كيف يشاء.

(٣) وَيأتي بِمَعْنَىٰ اليابِسِ من كلِّ شيء، ولا سيما الأشجار والنباتات.

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: هو الَّذي يُرِيدُ صُنْعَ حَظِيرَةٍ لِمَاشِيَتِهِ، فَيَجْمَعُ أعواداً وأشْجَاراً يابسَةً قَدِيمَةً، وأشْوَاكاً من الهشيم، ويَجْعَلُهَا أكْوَاماً، لِيُقِيمَ مِنْهَا السِّيَاجَ حَوْلَ حَظِيرَتِهِ.

شَبَّهَ اللهُ هَالكي ثَمُودَ عَقِبَ إهلاكهم بأكوام من الْهَشِيم يَجْمَعُها من يُريد أنْ يَصْنَعَ حَظِيرَة لأنْعَامِه أو دوابّه، ولِيَجْعَلَ مِنْهَا سياجاً حَوْلَ حظيرته.

❀ ❀ ❀

الفصل التاسع
توجيه العظة للذينَ يَكْفُرُونَ بِرِسَالَة محمّد ﷺ بما أنزل الله بكُفّار ثمود

كلُّ النُّصوص الّتي جاء فيها طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ ثَمُود، قَدْ اشْتَمَلَت على توجيه العظة للناس جميعاً بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، بأنَّهُم عُرْضَةٌ لعقاب اللهِ وَعَذَابِه في الدُّنيا قَبْل يَوْمِ الدّين، إذَا صَارَتْ أحوالُهُمْ مِثْلَ أحْوَالِ مُجْرِمي ثَمُود.

ويَبْرُزُ توجيهُ هذه العظة في النُّصُوصِ المختزلَة الْقَصِيرَة، الَّتي جاءَتْ في السُّورَ التالية: (الفجر - النجم - الشمس - البروج - قٓ - صٓ - الفرقان - الذّاريات - الحاقة - العنكبوت - الحج - التوبة).

وبَعْضُ قصار النُّصوصِ قَدْ جاءت حِكَايَةً لِما قَالَهُ الْوَاعِظُونَ من الناس لأقوامهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر مَا جَاءَ في هذا الملْحق، والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ وفَتْحِهِ وَتَوْفيقِه، وأسْألُهُ الْمَزِيد من مَدَدِه وفتحه ومَعُونته.



سُورَةُ القَصَص

٢٨ مصحف ٤٩ نـزول

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ إِلَّا:

• الآياتِ مِن (٥٢ - ٥٥) فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

• والآيَة (٨٥) نَزَلَتْ في الجُحْفَةِ أثناءَ الهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ



(١)
نص السورة وما فيها من فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

---

١ ـ • سكت أبو جعفر سكتة لطيفة بغَيْر تنفّس على: «طا» و«سين» و«ميم».

٦ ـ • قرأ حَمْزَةَ، والكسائي، وخلَف: [وَيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا] وبين القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرِيهم اللهُ فَهُمْ يَرَوْن.

٨ ـ •قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [وَحُزْنًا] بضم الحاء وإسكان الزاي.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَحَزَنًا].
والقراءتان وجهان عربيان متكافئتان في المعنى.

٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [خَاطِينَ] وكذلك قرأها حمزة في الوقف. =

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [خَاطِئِينَ] بإثبات الهمزة.

٩ ـ • لفظ [قُرَّتُ] وقف عليه ابنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويَعْقُوب بالهاء: قُرَّهْ.

ووقف عليها باقي القراء العشرة بالتاء: قُرَّتْ.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

١٩ • قرأ أبو جعفر: [يَبْطُشَ] بضمّ الطاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَبْطِشَ] بكسر الطاء. وهما لغتان عربيّتان في نُطْقِ الكلمة.

٢٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أنْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان [رَبِّي أنْ].
وهما وجهان عربيّان.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [مِنْ دُونِهِمِ امْرأتَيْنِ] بكَسْرِ ميم [دونهم] في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة، بضمّ هذه الميم في الوصل.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، وابنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [يَصْدُرَ] من فعل: صَدَرَ يَصْدُر، أي: انْصَرَف وقرأها باقي القراء العشرة: [يُصْدِرَ] مِنْ فِعْلِ «أَصْدَرَهُ» يقال لغة «صَدَرَ الرِّعَاءُ» أي: انصرفوا، وأَصْدَرَ الرِّعَاءُ دوابَّهم أي: سَقَوْها وصَرَفوها.
ومُؤدَّى القراءتين واحد، وفيهما تفنُّن.

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟

٢٦ - • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [يَا أبتَ] بفتح التاء. وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسْرِها. وهما وجهان عربيان.

ووقف بالهاء ابن كثير، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب.

٢٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنّيَ أُرِيدُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٧ - • شدّد ابن كثير نون [هَاتَيْنِّ] ولم يشدّدْها باقي القراء العشرة.

٢٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [سَتَجِدُنِيَ إِنْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٩ - • قرأ حمزة: [لِأَهْلِهُ امْكُثُوا] بضَمّ هاء الضّمِير. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هذه الهاء. وهما وجهان عربيّان في النطق.

إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ

مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ

مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن

يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ

فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ

أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي

جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ

ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ

إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ

---

٢٩ و٣٠ و٣٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، بفتح ياء المتكلّم في: [إِنِّيَ آنسْتُ] و[لَعَلِّيَ آتِيكُمْ] و[إِنِّيَ أَنَا] و[إِنِّيَ أَخافُ].

وقرأ ابْن عامر: [لَعَلِّيَ آتِيكُمْ] بفتح ياء المتكلم في هذه دون الثلاثة الأخرى.

وقرأها كلّها باقي القراء العَشر[illegible]كان.

٢٩ ـ • قرأ عاصم: [جَذْوَةٍ] بف[illegible]الجيم.

وقرأها حمزة، وخلف [جُذْوَةٍ] بضمّ الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة [جِذْوَةٍ] بكسر الجيم.

وهي لغاتُ عربيَّةٌ متكافئة.

٣٢ ـ • قرأ ابْنُ عَامر، وشُعبة، وحمزة، والكسائي وخلف: [مِنَ الرُّهْبِ] بضم الراء وإسكان الهاء.

وقرأها حفص: [مِنَ الرَّهْبِ] بفتح الراء وإسكان الهاء.

وقَرأها باقي القراء العشرة: من [الرَّهَب] بفتح الرّاء والهاء. وهي لغات عربية.

٣٢ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ورُوَيْس: [فَذَانِّكَ] بتشْدِيد النون، مع المدّ المشبَع.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَذَانِكَ].

نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا

---

٣٣ ـ • قرأ يعقوب: [أَنْ يَقْتُلُوني] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة [أَنْ يَقْتُلُونِ] بحذف ياء المتكلّم.

٣٤ ـ • قرأ حَفْصٌ: [مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقْنِي]. وقرأها نافع: [مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقْنِي]. وقرأها شعبة وحَمْزة: [مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُني] ووقف حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الدّال مع حذف الهمزة. وقرأها أبو جَعْفر: [مَعِيَ رِدا يُصَدِّقْنِي] مع إبدال التنوين ألفاً في الوصل والوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقْنِي] وكلّها وجوه جائزة.

٣٤ ـ • أثبت ياء المتكلم في [يُكَذِّبُوني] ورشٌ في الوصل ويعقوب مطلقاً. وحذفها باقي القراء العشرة.

٣٧ ـ • قرأ ابنُ كثير: [قَالَ مُوسَىٰ] بدون حَرْف عطف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقَالَ مُوسَىٰ] بإثبات حرف العطف الواو. الفصل والوصل وجهان بلاغيان متكافئان هنا.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أعلمُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها الباقون بإسكانها.

٣٧ ـ • قرأ حَمْزة، والكسائي، وخلف: [وَمَنْ يكُونُ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَنْ تَكُونُ] بالتاء.
وهما وجهان عربيان متكافئان، لأنّ اسم «تكون» مجازيُّ التأنيث، إذْ هو [عَاقِبَةُ].

ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عَمْرو وابن عامر، وأبو جعفر [لَعَلِّيَ أطَّلِعُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكَانِ.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويَعْقُوب، وخلَف: [لاَ يَرْجِعُونَ] بالمبني للمعلوم، وقرأها باقي القراء العشرة: [لاَ يُرْجَعُونَ] بالمبْنِيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: وظَنُّوا أنَّ الله عزّ وجلّ لَا يُرْجِعُهُمْ، فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إليه بحَسَبِ ظنهم.

٤٥ ـ • قرأ أبو عَمْرو [عَلَيْهِمِ العُمُرُ] بكَسْرِ هاء وميم «عليهم».

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف ويعقوب: [عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ] بضم هاء وميم «عَلَيْهُمُ».

=

وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ] بِكَسْر الهاء وضمّ الميم من «عليهم».

ومعلوم أنّ كسْرَ الميم أو ضمها إنّما يكونان في الوصل.

٤٨ ـ • قرأ عاصِم، وحمزة، والكسائي، وخلف، [سِحْرَانِ]. وقَرأها باقي القراء العَشْرَةِ [سَاحِرَانِ].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّت على ما جَاءَا به، وأنَّهُ من قبيل السّحر. وقراءة «سَاحِرَانِ» دَلَّتْ على وصْفِهِما فيما جاءا به. فهما متكاملتان في الأداء البياني.

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

٥٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر، ورُوَيس: [تُجْبَىٰ] بالتاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [يُجْبَىٰ] بالياء.

وهما وجهان عربيان جائزان، لأنَّ نائب الفاعل مجازيّ التأنيث، وهو [ثَمَرَاتُ].

٥٩ ـ • قرأ حَمْزَة، والكِسائي: [فِي إِمِّهَا] بكَسْرِ الهمزة وصلاً. وقرأها باقي القراء العشرة بضَمِّ الهمزة.

والجميع يَبْتَدِئُونَ بِضَمّ الهمزة.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ

٦٠ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [يَعْقِلُونَ] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البيانيّ.

٦١ ـ • قرأ قالون، والكسائيّ، وأبو جعفر: [ثُمَّ هْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [ثُمَّ هُوَ] بضمّ الهاء، والقراءتان وجهان من النطق في العربية.

٦٢ و٦٥ ـ • قرأ يَعْقُوبُ [يُنَادِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير في الآيتين.
وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

٦٣ و٦٦ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلَ] و[وَعَلَيْهِمِ الأَنْبَاءَ] وقَرَأَهُما حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوبُ: [عَلَيْهُمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهُمُ الأَنْبَاءَ].
وقرأهما باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءَ]. وهي وُجوهٌ جائزة في اللّسان العربي.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ

٧٠ ـ • قرأ يعقوبُ: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلُوم.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تُرْجَعُونَ] بالبناء لما لم يُسَمّ فاعله.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداءِ البيانيّ، إذْ يُرجعُهُمُ الله إلَيْهِ، فهم يَرْجِعُونَ مُطَاوِعِين بالجبْر الرَّباني.

٧١ ـ • قرأ قُنبل: [بضِئَآءٍ] بالهمزة بدلَ الياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِضِيَاءٍ].
وهما وجهان في النطق جائزان، إلَّا أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة ألْيَنُ في النطق.

مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

٧٨ ـ • قرأ نافع، وقُنْبل، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عِندِيَ أَوَ لَمْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٧٨ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِم» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [ذُنُوبِهُمُ الْمُجْرِمُونَ] بضم الهاء والميم من «ذُنُوبِهُمْ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ] بكَسْرِ الهاء وضم الميم.

٨١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِيَةٍ] بالياء بَدَلَ الهمزة.

=

ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ .

= وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ فِئَةٍ] بالهمزة. وهما وجهان من النطق في العربية.

٨٢ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: [لَخَسَفَ بِنَا]: أي: لخَسَفَ اللهُ بنا. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَخُسِفَ بِنَا] في البناء لما لم يُسَمَّ فاعله، ومَعلُوم أنَّ اللهَ عزّ وجلّ هو الذي يخسف بهم إن شاء.

٨٥ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جَعْفَر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رَبِّي أَعْلَمُ] بإسكان ياء المتكلم.

٨٨ ـ • وقرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] وقرأها باقي القراء العشرة: [تُرْجَعُون] بالمبني لما لم يُسَمَّ فاعله.

وسبق نظيرهما قريباً في الآية (٧٠).

(٢)
موضوع سورة (القَصَص)

(١) تشتمل هذه السورة على متابعة معالجة الكبراء المعاندين الجاحِدين من مشركي قريش إبّان نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أتْباعُهم، وهٰذِهِ المتابعة مبنيَّةٌ على ما سَبَق أنْ نَزَلَ من قرآن قبل هذه السورة، ولا سيما:

• ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من قصّة موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصَرَ الله في آخِرِ الأمْر أولياءه، وأهْلَكَ الكفرة المعاندين المجرمين.

• وما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصرَ الله أولياءه، وأهلك أعداءه المجرمين.

• وما جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه ـ وكيف كان عاقبة المفسدين، وما جاء فيها من انتصار الحق على الباطل في قصة سليمان، وإهلاك كفار ثمود، وإهلاك قوم لوط. وما جاء فيها من تعليم جدلي للرسول ولكل داع إلى الله من أمَّتِه.

(٢) وتشتمل هذه السّورة على متابَعَةِ تَرْبيَةِ الله لرسوله، وتعليمه، وبشارته بأنّ الله نَاصِرُه، ويُلْحَقُ به الدُّعاة إلى الله من أُمَّتِه، ثُم سَائرُ المؤمنين المسلمين.

ومُعَالجَةُ الكافرين تَعْتَمِدُ هنا علىٰ الترهيب بضرب أمْثِلَةٍ من المهْلَكِينَ الأوَّلين، فعلىٰ الإقناع، فعلىٰ الترغيب.

❁ ❁ ❁

(٣)
دُروس السُّورة

تشتمل سورة (الْقَصَص) على سبعة دُرُوس فيما ظَهَر لي:

الدرس الأوّل: (الآية ٢).

هو آيةٌ واحدةٌ فيها تمجيد القرآن بعد آية الحروف المقطّعة ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ وهي آيةٌ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

الدرس الثاني: (الآيات من ٣ ـ ٤٣).

اشتمل هذا الدرس على لقطاتٍ مضافاتٍ إلى مَا سَبَقَ تَنْزيله بشأْنِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، مع فرْعَوْنَ وملَئِهِ وجُنُودِهما، وفي آخرها الموعظةُ بالتَّحْذِير مِنْ مثل العاقبة التي كانت لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ وملَئِه وجنودها، ومِنْ شأنِ هذا التحذير الدّوَائِيّ، أنْ يُكَرَّر في القرآن، فيأتِيَ مع عرض قِصَصِ المهلَكين الأولين، في آخر القصّةِ أو في بدئها، ورُبَّما في أثنائها.

الدرس الثالث: (الآيات من ٤٤ ـ ٧٠).

يشتمل على بيان يخاطِبُ الله عزّ وجلّ به رَسُولَهُ ﷺ، بشَأْنِ المعْلُومات الّتي أنْزَلها عَلَيْه مما يتعلَّقُ بقصّة موسى عليه السَّلام، وهذه التفصيلات الّتي بيَّنها له ما كان للرسول ﷺ أنْ يَعْلَمَها لَوْلا أنْ أنْزَلَها اللهُ عليه.

والغرض إسْماع أئمة المشركين في مكَّة يومئذٍ، وإسْماعُ أتْباعِهم، بأنّ المعلومات الّتي جاءت في القرآن من قصَّةِ موسى عليه السَّلام، ما كان للرَّسُول محمّد أنْ يَعْلَمها، لولا أنْ أعْلَمَهُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ بِها، وأنْزَلَ بها قُرآناً يُتْلَىٰ عليهم وعلى أهل الكتاب، وفيها حُجَّةٌ على علماء اليهود الّذين يخْفُونَ هـٰذِهِ الْمَعْلُوماتِ، ويَجْعَلُونها خاصَّةً بحاخاماتهم الكبار.

وهذا البيان مع ما فيه من موعظةٍ تَحْذِيريَّة لِكُبَرَاء مُشْركي قُرَيشٍ وأتباعهم، فقد جاء توطِئَةٌ لمُعَالجاتٍ أخْرَىٰ إقناعِيَّة، جاءَتْ مضافات لما سَبَقَ في نجوم التنزيل من معالجات، وهي ملائمات للمواقف الّتي كَانُوا عليها إبَّانَ تنزيلِ السّورَة، وصالحات لأنْ يَسْتَفِيدَ الدُّعاة إلى اللهِ منها في كُلِّ عَصْرٍ، وفي كُلّ قَوْم، أفراداً وجماعات.

الدرس الرابع: (الآيات من ٧١ ـ ٧٥).

درْسٌ فيه تعليم جدَلِيٌّ للرسُول ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه، حول توحِيد الرُّبُوبيَّة للهِ عزّ وجلّ، الَّذِي يَلْزَمُ عنْهُ عقلاً تَوْحِيدُ الإلَهِيَّةِ له.

وفيه عَرْضُ مَشْهَدٍ من مَشَاهِدِ يوم القيامة، يتضمَّنُ سؤالَ المشركين عن شركائهم، ويتَضمَّنُ إحْضَارَ الشُّهداء الَّذِينَ يَشْهَدُونَ على الكافرين.

الدرس الخامس: (الآيات من ٧٦ ـ ٨٢).

وهو درس يتضمَّن معالجَةَ ذوي الجاه والْمَالِ الكَثِيرِ، من مُعَانِدي مُشْركي مكة، بضَرْبِ مَثَلٍ تاريخيّ، وهو قارون في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، الذي جاء في السّورَة حديثٌ مطوّلٌ عَنْهُ، وعَنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجنُودِهم، إذْ كان قارُونُ إسرائيليًا من قَوْمِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، إلَّا أنَّهُ كان من أنْصار فِرْعَوْنَ وَآله، وكان ذا مالٍ كثيرٍ جدًّا، وذَا جَاهٍ عريضٍ في مصر، بتأييد من فرعَوْن وآلِه، ليُمَكِّنَ به استعباده للإسرائيلّيين.

فاسْتَكْبَرَ قارُونُ وبغَىٰ، ونَصَر الباطل على الحق، وصار يفتخر ويَتَبَاهَىٰ بما آتاهُ الله من زينة الحياة الدّنيا.

فخَسَفَ اللهُ بِهِ وبداره الأرض، فكان عِبْرَةً لِأُولي الألْباب.

الدرس السادس: (الآيتان ٨٣ و٨٤).

وهو درس فيه بيانٌ مُرْتَبطٌ بقصَّةِ قارون، وقصّة فرْعَوْنَ ومَلَئِهِ

وجنُودهم، عن مستحقِّي جنَّاتِ النّعيم يوم الدين، وهم الّذِين لا يُرِيدُون عُلوّاً في ٱلْأَرْض، ولا يُرِيدون فساداً.

وفيه بيانٌ إجماليٌّ عن جزاء الآخِرَة بالثواب أو بالعقاب.

الدرس السابع: (الآيات من ٨٥ ـ ٨٨ آخر السورة).

درس فيه بُشْرَىٰ للرَّسُول ﷺ بالْعَوْدَةِ إلى مَكَّةَ فاتحاً، وفيه وصايا تَرْبويَّة للرَّسول، وهـٰذِهِ الوصايا يَسْتَفِيدُ منها الدعاة إلى اللهِ عزّ وجلّ من أمَّتِه، في مَسِيرَاتِهم الدَّعوِيَّة.

❁ ❁ ❁

(٤)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (القصص)
الآيتان (١ و٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

• ﴿طسٓمٓ ۝١﴾: تُقرأ: «طَا ـ سِينْ ـ مِيمْ» دُون سَكْتٍ. وسكت أبو جعفر سَكْتَةً لطيفةً بغَيْر تنفُّسٍ عَقِب كلِّ حَرْف منها.

وقد سبق بيان ما يكْفِي في أوّل سُورَةِ (القلم) بشأن الحروف المقطّعَةِ الموجُودَة في أوائل بَعْضِ السُّور.

• ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ اسْمُ الإشارة في [تِلْكَ] مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ خبر المبتدأ.

أي: أيُّهَا المتَلَقِّي لهـٰذا الخطابِ الرَّبَّانِيّ، تِلْكَ الْعَظِيمَاتُ السَّامِيَاتُ المنَزَّلاتُ على الرَّسُول مُحَمَّدٍ آناً فآنا آياتُ الكِتَابِ الرَّبَّانِيّ المُبِينِ، الّذي

جَعَلَهُ اللهُ كِتابَ رِسَالَتِه الخاتِمَةِ، المصْطَفَاةِ لخاتَمِ أنْبيائِه ورُسُلِهِ للنَّاس أَجْمَعِينَ.

جاءت هـٰذِهِ الآيةُ بمَثَابَةِ مِفتاحٍ للدُّخول إلى ما جاء في السّورة مِنْ بيانات، وهي آيَةٌ تُنبّه على أنَّ آيات القرآن آياتٌ مَجِيدَاتٌ، فهِي رَفِيعَاتُ المنْزِلَةِ في سَمَاوات الْعِلْم، والحقّ، والحِكْمَةِ، والْهِدَايَةِ إلى خَيْرِ النّاسِ وسَعَادَتِهِمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتهم. دلَّ على هذا اسم الإشارة في ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع في اللّغة للمشارة إليها البعيدة.

﴿ءَايَٰتُ﴾: أي: علاماتٌ بالْبَيَانِ الكَلَامِيِّ دَالّاتٌ على مَعَاني جَلِيلاتٍ، لما فيها من علم، وحقّ، وحِكْمَةٍ، وهداية إلى خير الناس وسعادتهم في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: التّنْزِيلِ الرَّبَّانِيّ بالْوَحْي، المطْلُوب أنْ يُدَوَّنَ فِي كِتَابٍ واضِحِ الرَّسْمِ الكتابيّ، مُوَثَّقٍ، لا اختِلاَفَ في نُسَخِهِ، مَهْمَا تَعَدَّدَتْ مَخْطُوطَاتُهُ، أَوْ مَطْبُوعَاته.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: أي: الواضح الدّلالاتِ لمن أحْسَنَ تَدَبُّره، والْمُوضِح لِلْمَعانِي الْمُرَادَةِ مِنْ آيَاتِهِ. مُبِين: من فعل «أَبَانَ» اللازم، بمعنى: وضَحَ وظَهَر، ومن فعل «أَبَانَ» المتعدّي، بمعنى: أوضَحَ وأظهر.

فدلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ هـٰذا القرآن الّذي هُوَ كِتَابُ اللهِ الخاتِم لِكُتُبِه للنّاس، ذو مَجْدٍ عظيم، ومَنْزِلَةٍ رَفِيعة، وهـٰذِهِ الصِّفَةُ الذَّاتِيَّةُ فِيهِ تَدَلُّ علَىٰ أنَّهُ كَلَامُ اللهِ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ حَمِيد، فَهُوَ كلامٌ لَا يأتِيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه.

ويوجد في تَدَبُّر الآية الأولى من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بيانٌ أَوْسَع أُحِيلُ عليه، لما بَيْنَ الآيَتَيْنِ من تَشَابُهٍ في معظم العناصر.

❁ ❁ ❁

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (القصص) (الآيات من (٣ ـ ٤٣).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

تمهيد:

جاءت هٰذِهِ الآياتُ بمثابَةِ مَدْخلٍ للَّقطَات المختاراتِ في هٰذِهِ السُّورة من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفرعَوْن عَلَيْه اللّعنةُ.

وجاء فيها ذكْرُ أنَّ الأخبار البارزَة المنْتَقَاةَ للبيان فيها حقٌّ، إذْ هي مُطَابَقَةٌ لِلْوَقع تماماً، وأنَّ الّذِين يَنْتَفِعُونَ بها هُمْ قَوْمٌ لديْهِمُ الاستعداد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ إذا عَلِمُوا به.

وجاء فيها إجْمالٌ عنوانيٌّ للكلياتِ الَّتي كان عليها فرعون في أرض مِصْر، وتَدْخُلُ تَحْتَها تَفْصِيلاتٌ مُوسَّعَات:

الكليّة الأُولى: أنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في أَرْض مِصْر، إذْ كانَ هُوَ الحاكم المستبدَّ بكلّ شيء، فلا أَمْرَ إلّا أَمْره، وَلَا رَأْيَ إلّا رَأْيه، ولَا حُكْمَ إلَّا حُكْمُهُ والحديثُ عَنْهُ في الْقَضَايَا العامَّةِ، بقُوَّة الحديث عَنْ كُلِّ شعب مصر في زمَنه.

الكليَّةُ الثانية: أنَّه جعَلَ أهْلَ مصْرَ شيعاً وأحزاباً يُصارعَ بَعْضُهُمْ بعضاً، ويعادي بعضُهُمْ بعضاً، ويُنَافِسُ بعضُهُمْ بعضاً، لِيَسُودَ الجميعَ مِنْ خلال تَفَرُّقِهِم وتنافُسِهم، ضمْن القاعدة الّتي يَعْمَلُ بها المستبّدونَ في كلّ أمَّة: «فَرِّقْ تَسُدْ».

الكليّة الثالثة: أنَّهُ كَانَ يَسْتَضْعِفُ طَائفَةً منهم، وهم بنُو إسرائيل، ليَجْعَلَهُمْ بَمَثَابَةِ عبيدٍ لَهُ ولسَائرِ أَهْلِ مصْر، ولِيَسْتَرْضِي باستعبادهم وتَسْخِيرهم وإذْلالِهِم أصحاب البلاد الأصلاء بِهَـٰذَا تكُونُ شِيعَةُ بني إسْرَائيل الطّبقة الاجتماعيةَ الْمُهَانَةَ المسْتَعْبَدة مِنْ سَائر شَعْبِ مصر.

ومن مظاهر اسْتِضْعافِهِ لبني إسْرَائيلَ أَمْرُهُ بذَبْحِ المواليد الذكُور في بعض السَّنَواتِ دُونَ بَعْض، لئلّا يَكْثُرَ رِجالُ الإسرائيليّين في أرض مصر، فيكُونوا قُوَّةً مُنَافِسَةً لِشَعْبِ مِصْر، ولِفِرْعَوْنِهم وآلِهِ وَمَلَئِه.

الكليّة الرابعة: أنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِين، ويظْهَرُ أنَّ اخْتِيَارَهُ سَبِيلَ الْفَسادِ والإفساد لأنَّهُ الوسيلةُ للمحافَظَةِ على حُكْمِهِ الاستِبْدَادِيّ الظّالِم الغاشِم.

التدبّر التحليلي:

قول لله عزّ وجلّ:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾:

الخِطَابُ مُوجَّهٌ للرَّسُولِ محمد ﷺ، وهو ينسحِبُ علَىٰ كُلّ متَلَقٍّ لَهُ مؤمِنٍ به بأسْلُوب الخطاب الإفرادي.

وجاء استِعْمال الفعل المضارع ﴿نَتْلُوا۟﴾: مُرَاعَاةٍ لزمَن التَّنزل، مع ملاحظة أنَّ الْقُرْآنَ المجيد كُلَّهُ، لَهُ صِفَةُ التَّنَزُّلِ المتَجَدِّد دواماً، لأنَّهُ بيانٌ مِنَ الله عزّ وجلّ لعباده في كُلّ زَمَانَ بَعْدَ التَّنْزِيل، إذْ يُخَاطِبُ اللهُ عزّ وجلّ عبادَهُ بِهِ دواماً، وعلى كلّ العباد أنْ يَتَلَقَّوْهُ.

﴿نَتْلُوا۟﴾: أي: نُتَابعُ فيما نُوحِي إلَيْكَ. يقال لُغَةً: «تَلَا، يَتْلو، تُلُوًّا» أي: تَبِعَ، ويقال: «تَلاهُ، يَتْلُوه» أي: تبعَهُ فَهُو تَالٍ، وتِلَاوةُ القرآن وحياً على الرَّسُول، تَدُلُّ علَىٰ تَتَبُّعِ حُرُوفه وكَلِمَاتِهِ كَمَا هِيَ في

اللَّوْحِ الْمَحْفوظِ بإسماعِه إيَّاها وإبلاغِهَا إلَيْهِ، حَرْفاً بِحَرْفٍ، وَكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بآيَة.

• ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: أي: بعْضَ نَبأِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، في لَقَطاتٍ مِن قصَّتِه، ذاتِ العلاقَةِ بِفِرْعَوْن ﴿مِن﴾ للتبعيض.

النَّبأ: يُسْتَعْمل كثيراً في الخَبَرِ ذي الشَّأْنِ المتميِّز المرتفع، لأنَّ مادة الكَلِمة تدور حَوْلَ مَعْنَىٰ الارْتفاع والظُّهور.

• ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: حَالة كَوْنِ النّبأ مُلْتَبِساً بالحقّ، ومحاطاً به، فَلَا شَكَّ فِيه ولا باطل، **الحق**: الثابت الصادق المطابق للواقع.

• ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: ليتَبَلَّغَهُ ويَهْتَدِي بِمَا فِيه من هُدىً قَوْمٌ لَدَيْهم الاسْتعدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، إذَا تُلِيَتْ عَلَيهم آياتُ رَبّهم فيها هُدًى ونُور. هذا ما دَلَّ عليه الفِعْلُ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وكذلك الَّذين هم في الحال مُؤْمِنُون.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾:

أي: إنَّ فرعَونَ الَّذي كان مَلِكَ مِصْرَ في أيَّامِ مُوسَىٰ، قَدْ وَصَلَ في قُوَّةِ سُلْطانِهِ وجَبَرُوته إلَىٰ عُلُوٍّ رَفِيعٍ في أرْضِ مِصْر.

الْعلوّ: الارْتفاعُ الحسّيّ الذي يُشهَدُ بالأبصار، واسْتُعْمِلَ في القرآن بمَعْنى الارتفاع المعنوي، ومنْهُ بُلُوغ الإنْسانِ أنْ يكون مَلِكاً مسْتَبدًّا مُتَسَلِّطاً جبّاراً، وبُلُوغُ جَمَاعَةٍ من الناس أو أمةٍ من الأمم إلى مثْلِ ذَلِكَ في أرضٍ ما، أو دولةٍ ما، وتَسَلُّطِهم علىٰ شَعْبٍ أو أُمَّةٍ من دُونهم.

أثبتَتِ الآيَةُ بَيَانَ عُلُوّ فرعَوْنَ في أرض مصر، ومن المعلوم أنَّ لكُلِّ ظاهِرَةٍ في الكَوْنِ سَبباً، فَعُلُوُّ فرعَوْن كَانَتْ لَهُ أسْبَابٌ اقتضَتْ أنْ يَصِل إلىٰ ما وَصَلَ إليه من عُلُوّ، إلّا أنّ ما يتحقّقُ وجُودُهُ بالأسْبابِ مَسْبُوقٌ بقضاء اللهِ وَقَدرِه، فالله عزّ وجلّ هو الّذِي جعَلَ لَهُ عُلُوًّا في أَرْض مصر، ليَبْلُوه ويَبْلُوَ به.

• ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: أي: وجعَلَ أهْلَ أرْضِ مِصْرَ، أحْزَاباً مُتَفَرِّقَةً، مُتَعَارِضَةَ المصالح والأهواء والأفكار.

الشيعة: الفرقة والجماعَةُ الّتي يناصِرُ بَعْضُهُمْ بعضاً، والحزبُ الواحد، والجمْعُ «شِيَع».

فَدَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ فرعَوْنَ قد اتّخذ وسِيلَةَ: «فَرِّقْ تَسُدْ» وهذا التفريق قَدْ كان بجَعْل شَعْبِ مِصْرَ، شيعاً متخالفةً متعادِيَة، وأحْزَاباً مُتَصارعَةً مُتنافِسَةً فيما بَيْنَها.

• ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾:

أي: يَعْمَل علَىٰ جَعْل بني إسرائيل الّذين هاجَرُوا إلى أرض مِصْرَ منذ أيام يُوسُف عَلَيْهِ السَّلام ضُعفَاءَ، بَعْدَ أَنْ كانُوا ذوي مكانةٍ رفيعةٍ مُتَمَيّزَة بتمكينِ يوسُفَ لهم فيها.

دلَّ على أنَّ المرَادَ بعِبَارَة ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ الْعَمَلُ على جَعْلِهِمْ ضُعَفاء، لا قُوَّةَ لَهُمْ في مِصْر تَمْنَعُ عَنْهُمْ الاستعباد والإذْلال والاضطهاد، عبارَةُ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ لَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ عادَةَ فراعِنَة مصْرَ، ضِدّ الأقليّاتِ التِي يَخْشَوْنَ تكاثُرَها. وبُلُوغَها مبْلَغَ الْقُوَّةِ المنافِسَة، أو المتمرّدَةِ على سلطانهم وجبروتهم.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾: أي: يأمُرُ بتَذْبِيح مواليدهم الذُّكور بَعْدَ ولادتهم وهم في سِنّ الرَّضاع، لئلّا يكْبُرُوا فيَكْثُرَ الرجَالُ القادرون على القتال

منهم، وجاء في بعض أخبار الإسرائيليّين أنَّ هذا لم يكن دَوَاماً، بل رُبّما كان في بعض السنين دون بعضها.

ولمَّا كان التخلُّص من مواليد الإسرائيليين الذكور قَدْ يكون بأيَّةِ وسِيلَةٍ مِنْ وسَائل القتل غير الذبح، جاء التَّعْبِيرُ في بعض النصوص القرآنية بعبارات: «سنُقَتِّلُ ـ سَنَقْتُلْ ـ اقْتُلُوا».

• ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾: أيْ: وَيُبْقي المواليد الإناث على قَيْدِ الحياة، للانتفاع مِنْهُنَّ بالخِدْمَةِ والتَّسْخِير. يقال لغة: «استَحْيَا الْقَائِدُ الأسِير» أي: اسْتَبْقَاه حيّاً فَلَمْ يَقْتُلْه.

• ﴿...إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾: أي: إنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ في حياتِه مُفْسِداً من زُمْرَةِ المفْسِدين.

المفسِدُ: هو الذي يجعل الأشْياءَ الصالحة عديمةَ الصَّلاح، غير نافعة، أو يُحَوِّلُها مِن نافعة إلى ضارَّةٍ كريهةٍ مؤذية.

وظاهر أنَّ جَعْلَ الشَّعْب الواحد شيَعاً وأحْزاباً مُتَصَارِعَةً متعادية متقاتلة من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أنّ استعباد الناس وإذْلالهم واضطهادهم وتعذيبهم بغير حقّ، من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أنّ قَتْلَ المواليد الذكُور تخوُّفاً مِنْ تكاثر الطائفة المستضعفة، من الإفساد الشَّنيع في المجتمع البشري.

ولا يخفي ما في جمل هذه الآية (٤) من توكيد موجّه للشاكّين.

❁ ❁ ❁

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيَاتِ لقَطَاتٌ مِنْ قِصَّةِ موسَىٰ عليه السَّلام، وفرعونَ عليْهِ لعْنَةُ الله، بَيْنَها وبَيْنَ مَا جَاءَ في سَائر القرآن حول هٰذا الموضوع تكامل، ممّا اقتضت حكْمَةُ اللهِ بيانَهُ في القرآن المجيد.

وقد جاء فيها بيانُ أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُه ـ شَاءَ أنْ يَمُنَّ علىٰ بني إسْرائيل، إذْ كانُوا في ذُلِّ الاضطهاد الفرعَوْنيّ مُسْتَضْعَفِينَ ثلاثَ مِنَن.

المنَّةُ الأولىٰ: أنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أئِمَّةَ هِدَايَة، إذْ عَلِمَ أنَّ بَعْضَ سُلَالاتهم سَيَكُونُون مُؤَهَّلِينَ للاصطفاء بالنُّبوة، وللاصطفاء بالرّسالة يَوْمَئِذٍ، ومَتىٰ وُجِدَ الإمَام الصالح في أُمَّة، وقادَهُم قيادةً حكيمة، واستطاع أن يكبَح جِمَاحَ عُصاتِهم ولو بالمرهباتِ والعقوبات، كانَ أفرادُ الأُمَّة بمَجْمُوعِهِم وبصُورَةٍ عامَّةٍ بمثابَةِ الأئمة.

المنّة الثانية: أنْ يَجْعَلَ بَنِي إسرائيلَ الوارثين لأَرْضٍ وكُنُوزٍ وسُلْطَانٍ ومُلْكٍ في أرْضِ فلَسْطِينَ، وهذا ما تحقَّقَ بعْدَ حِينٍ.

المنَّةُ الثالثة: أنْ يُمَكِّنَ لَهُمْ في الأرْضِ، وقد ظهر هذا في أيّام طالُوتَ ودَاوُد وسليمان عليهما السَّلام، وبَقي قليلاً بَعْدَهُما.

وجاء فيها بيان أنَّ الله عزّ وجلّ شاءَ أن يُرِيَ فِرْعَونَ ووزيرَه الأوَّل هامان، وجُنُودَهُما مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ بَني إسرائيل، إذْ كانُوا يخافُونَ تَكاثُرهم في مصر، وتنامِيَ قُوَّتهم، وهلاكَهُمْ علىٰ أيْدِيهم، أو بسبَبِهم.

وتَبْدَأُ الأحداث بميلاد الْإمام الأوّل من أئمة بني إسرائيل، وهو الطّفْلُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، في السَّنَةِ الَّتِي كَانَ يجري فيها ذَبْح المواليد الذكور من بني إسْرَائيلَ، ولَمْ يُغْنِ فِرْعَوْنَ هٰذا الإجراءُ شيئاً، لأنَّ مَا يُقَدِّرُه الله عزّ وجلّ ويَقْضِيه لَا يُعَانَدُ وَلَا يُمْنَعُ وَلَا يُرْفَعُ ولَا يُدْفع.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[وَيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وهَامَانُ وجُنُودُهُما]** وبين القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرِيهم الله في مجاري مقاديره وقضائه، ما كانوا يَحْذَرُونَ من بني إسرائيل، فهم يَرَوْنَ ذٰلك لا مَحالة.

• ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾: جاء التعْبيرُ هنا بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الأحداث الّتي تحقَّقَتْ بإرادة اللهِ عزّ وجلّ، إنَّما تحقَّقَتْ بسلطانِ رُبُوبيَّةِ اللهِ

العزيز القاهر، الّذي لا رَادَّ لقضائه، وهو الغالِبُ على أمْرِه.

وجاء في العبارة استعمالُ الفعل المضارع: «نُرِيد» على طريقة الاستقطاع من الماضي، وتقديمهِ في البيان تقديماً يُشْبِهُ ما يَجْرِي الآن مع تلاوة البيان من أحداث. والمرادُ بالإرادة هُنَا إرَادَةُ التنفيذ مع أزْمان الأحداث، لا إرَادَةُ التَّقْدِيرِ والإمضاءِ بالقضاء الّتي تكُونُ سابقَةً للأحداث، ومُسَجَّلَةً في اللَّوْحِ المحفوظ.

الْمَنُّ: الإنعام والإحسان، يقال لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ يَمُنُّ مَنًّا» أي: أنعم عليه نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأحْسَنَ إلَيه بعطيّة.

• ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ بِهِمْ بَنُو إسرائيل في مِصْر قَبْلَ ميلاد مُوسَىٰ عليه السَّلام، وبَعْدَهُ حَتَّىٰ خُرُوجهم من مصر وعبورِهم البحْر، وهلَاكِ فِرْعَوْنَ وملَئِهِ وجنُوده غرقاً عقب نجاةِ العابرين بمنَّةِ الله علَيْهم. أي: ونُرِيدُ أنْ نمُنَّ عليهم فنخرجهم مِمّا هُمْ فيه من ضعف وذلٍّ واستعبَاد.

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: أي: اتُّخذتِ الوسائلُ الإكراهيَّةِ لإضعافِهِمْ وإذْلالهم واستعبادهم، ومنها تذبيح مواليدهم من الذكور، في بعض السَّنوات، كسَنَةِ تذبيحٍ وسَنَةِ إعْفاء.

• ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: في أرض مصر. «ال» في عبارة «الأرض» للْعَهْدِ الذّهْنِي، المفهوم من سِباق النصّ وسِياقه.

• ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: أَئِمَّة: جَمْعُ «إمام» وهو ما يُؤْتَمُّ بِه، ومَنْ يُؤْتَمُّ بِه، أي: يُتَّبَعُ ويُقْتَدَىٰ به، والمرادُ بالإمامة هُنَا الإمامَةُ الصَّالحةُ، الّتي يُقْتَدىٰ بها في الإحسان والْبِرِّ والتقوىٰ.

ومن الظاهر أنَّ جعْلَهُمْ أئمة لا يَقْتَضِي جَعْلَ كلِّ أفرادهم كذلك، بل إذا جَعَلَ اللهُ عزّ وجلّ قادَتَهُم أئمَّةً صالحين، وأحْسَنَ هؤلاء القادةُ سِياسَةَ

جماهيرهم، وساروا بهم على صراط اللهِ المستقيم، كانوا بمجموعهم أئِمَّةً لِغَيْرِهم من الأمم.

وقد سَبَق في عِلْم اللهِ عزّ وجلّ، أنَّهُ سَيُولَدُ في أنسالِهِمْ مَنْ يكونُون مؤهّلِين للاصطفاء بالنبّوة، وللاصطفاء بالرّسَالَة، وتحقَّق هٰذا في الواقع، فظهر فيهم موسَىٰ وهَارُون عَلَيْهما السلام، وداود وسليمان عليهما السلام، وسائِرُ أنبياء بني إسرائيل، ثُمَّ خَرَجُوا عن دين الله الحق، فَفَسَقُوا وفَسَدُوا وأفْسَدُوا في الأرض كثيراً، وصَاروا يقْتُلُونَ الأنبياء بغير حقٍّ، وتحالَفُوا مع إبليس على إغواء الناس أجمعين.

• ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: ونَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ لجناتٍ وعُيُونٍ، وكُنوزٍ ومَقَامٍ كريم، ومُلْكٍ وسُلْطَانٍ في الأرض، بهِبَةٍ منَّا لَهُم، في مجاري قضائنا قَدَرِنا ضمْن أنظمة الأسْباب والمَسببَات التي هي من سُنَنِنا في كوننا.

وقد تحقَّق هذا بامْتِلاك بني إسرائيل فِلْسِطين، في أزمان صلاحهم واستقامتهم، فلَمَّا فَسَدُوا وَطَغَوْا وبَغَوْا سَلَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ ما كان قَدْ مَنَحَهُم، ومزّقهم وشتَّتَهُمْ وضَرَبَ عليهم الذّلَّة والمسكنة.

• ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: **التَّمْكِين**: الإقدار على التصرّفِ الموصلِ إلى تحقيق المطلوب، مع التثبُّتِ في المكان، والْقُدْرة على التحرُّكِ فيه بحُرّيَّة.

وقد حصل لبَني إسرائيل هذا التمكين، أيَّامَ امتلاكِهم لفلِسْطين، وتَسَلُّطِهِمْ على مُقَدَّراتها، وكان هذا في عُهُودِ طالوت وداود وسليمان عليهما السلام، وزَمنٍ غير طويل بَعْدَ ذلك.

• ﴿... وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾:

أي: وَنُرِيدُ بتنفيذ أقضيتنا تِباعاً أنْ نُرِي هؤلاء المفْسِدينَ في مِصْر، مُسْتَغِلِّين قُوَّة سُلْطَانهم، ما كانوا يَحْذَرُونَ من هلاكهم على أيدي الإسرائيليين أو بسببهم، كما سبق بيانه، وكان هذا هو الباعث لإصدار الأمر الفرعونيّ بذَبْحِ المواليد الذكور لبَني إسرائيل.

حذف معمول فعل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ إيجازاً، للعلم به، فهو ملاحظ ذهناً، والتقدير: «يَحْذَرُونه».

يقال لغة: «حَذِرَ الشَّيءَ يَحْذَرُهُ» ويقال: «حَذِرَ مِنْه» أي: خاف من شَرِّه واحْتَرَزَ مِنه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾:

أخذاً من دَلالاَتِ مختلِف النصوص، يظهر للمتدبّر أنّ المراد بالوحي إلىٰ أمّ موسىَ عليه السَّلام نوعٌ من الإعْلَام الخفيّ الّذي يكون لِغَيْر الأنبياء والمرسَلِين، ولا يُشْتَرَطُ له الاصطفاء بالنُّبُوَّة، إذْ قَدْ يأتي إلْهَاماً علىٰ شَكْل خواطِرَ قَوِيَّةٍ دافِعَةٍ بقوّةٍ إلى العمل بمقتضاها، وقد تأتي بواسطة حُلْم جَلِيٍّ يُرَىٰ في المنام، أو بواسطة مَلَكٍ يأتي بصُورة إنْسَان ناصحٍ غَيْرِ مَعْرُوف أنَّهُ مَلَك.

وقد جاء في بيانات الرَّسُول ﷺ، أنَّ الله عزّ وجلّ أَرسَلَ بَعْض ملائكته لبَعْضِ عِباده، فبلَّغُوهم وأَخبَرُوهم أخباراً صادقة.. دُون أن يكون المرسَلُ إليهم أنبياء، ومن هذا ما جاء في حديث الأقرع والأبْرص والأعْمَىٰ، عند البخاري ومسلم. ومنه أيضاً ما جاء في الصحيح من أنَّ الملائكة سلَّمَتْ على «عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْن» وهو ليس بِنَبِيٍّ. ومنه أيضاً ما جاء في حديثِ الّذي ذهَبَ ليزُورَ أخاً لَهُ في اللهِ، سَاكِنٍ في بَلَدٍ غير بَلَدِه،

فظهر له ملَكٌ وسَأَلَهُ عن قَصْدِهِ وحادَثَه، وهو لا يَعْلَمُ أنَّهُ ملك.

فهٰذِهِ الأنواعُ مِنَ الوحْيِ لَا تَقْتَضِي النُّبوَّة، ولَا تُشْتَرَطُ لَهَا النبوَّة.

وقد اتّفق جمهور أهل العلم على أنَّ النبوَّة لَا تكُونُ للنّساء، فَلَمْ تكُنْ أُمُّ مُوسَىٰ يُوحَىٰ إليها كما يوحَىٰ إلى الأنبياء.

• ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: أي: وأَوْحَيْنَا إلىٰ أُمّ مُوسَىٰ وَحْياً يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ أنِ اسْتَمِرّي على إرْضاعِهِ في الخفاء، عن أعْيُنِ الرُّقباء، وأَعْيُنِ مشيِّعي الْأَنباء.

• ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾: أي: فإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ أنْ يُعْلَمَ أمْرُه، ويَصِلَ خَبَرُهُ إلى جُنُودِ السُّلْطَةِ الفرْعَوْنِيَّة، وأَنْ يأتُوا إلَيْكِ لِيَذْبَحُوه.

• ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾: أي: فضعيه في الصُّنْدُوق «التَّابُوت» كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (طـه) وألْقِيهِ مع تابوته في نهر النيل طافياً يَجْرِي كمركب بَحْرِيّ صغير.

• ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾: أي: وَلَا تخافي عَلَيْهِ من الغرق إذا أَلْقَيْتِيهِ في اليمِّ بتَابُوتِهِ، فاللهُ رَبُّهُ حَافِظٌ لَهُ وحَاميه، ولَا تَحْزَنِي علىٰ فِراقِهِ إذْ هُو فِراقٌ في زَمَنٍ قليل.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾: جاءَتْ هـٰذِهِ العبارة فيمَا أوحَىٰ اللهُ إِلَيْهَا بمثابَةِ التَّعْلِيل لنَهْيها عَنْ أَنْ تَحْزَنَ لفراقِه، أي: إنَّا سَنَرُدُّهُ قَرِيباً إِلَيْكَ، إذْ تَكُونين أَنْتِ مُرْضِعَتَه وَحَاضِنتَه.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي: وإنَّا جاعُلُوهُ مستَقْبلاً حينَما يكُونُ أهْلاً للاصطفاء بالنبوَّةِ والرِّسَالةِ، نبيًّا من الأنبياء، ورَسُولاً من المرسَلين.

هذا البيان الذي جاء في هذه الآية (٧) يَدُلُّ على أنَّ وَضْعَهُ في التابوت، وإلقاءه في اليمّ، لم يكن عَقِبَ وِلادَتِه مباشرةً، بل كان بَعْدَ مُدَّةٍ

أرْضَعَتْهُ فيها سرّاً، وهِيَ تُخْفِي أنْ يكُونَ لَها طِفْلٌ صغِيرٌ تُرْضِعُه، وقد تكُونُ هـٰذِهِ المدَّةُ ثلاثَةَ أشْهُرٍ كَمَا ذَكَرَ الإسرائيليُّون في سِفرِ الخروج.

ويدُلُّ أيضاً على أنَّهُ قَدْ كان وَحْياً صَرِيحاً ببيانٍ قَوْلي، دلالَةً راجحةً غَيْر قطعيَّة.

• ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾:

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل» إلّا أنَّها لَا تُسْتَعْمل غالباً إلّا في أشراف الأهل، وذوي المكانةِ المطاعة فيهم، فآل فرعَوْن هم من كانت لهم مكانةٌ في قَصْرِه من أهْله، وكلمتُهم مُجابَةٌ عند سيّد القصر.

جاء في هذه الآية بيان أنَّ من التقطه من النيل إلى جانب شطِّ قصْرِ آل فِرْعَونَ هُمْ آل فرعَوْنَ، وهذا يَصْدُق بأن تكون اللّاقطة الأولى له امرأة فرعون، أو ابنته، أو بعض جَواري الْقَصر الفرعوْني، إذْ قَد وصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إلى آلِ فرعَوْنَ جميعاً، وعَلِمُوا به، وهُمْ أصْحَابُ الكَلِمَةِ المجابَةِ عنْد فرعون نفسه سيّدِ الْقَصر.

وجاء في هذه الآية أيضاً بَيانُ أنَّ الغاية من تقدير اللهِ وقضائه بالْتِقَاطِ آلِ فرعَوْن لَهُ من النَّهر، وتنشئتِهِ مَحْمِيًّا فيه، وتَرْبيَتِه كتَرْبِيَةِ أَوْلاد الملُوك، هي أن يكون في المستقبل عَدُوّاً لفرعَوْن وآلِهِ الكافِرين الجبَّارِين، وأعوانهم وأنصارهم وجنودهم، وأن يكون أيضاً سبَباً في إنزالِ الحزْنِ فيمَنْ سيَبْقىٰ منهم، بَعْدَ إهلاك اللهِ فِرْعَوْنَ ومَنْ كانَ معَهُ غَرَقاً في الْبَحر، وهُمْ يتابِعُونَ بني إسرائيل الخارجين من مصْرَ في اتّجاه سيناء.

• قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: **[وَحُزناً]** بضمّ الحاء وإسكان الزّاي، وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَحَزَناً]** بفتح الحاء والزّاي.

القراءتان لغتان عربيتان متكافئتان، ومعناهما واحد.

الْحُزْنُ والْحَزَنُ: ضدُّ الفرح والسُّرور، يقال لغة: «حَزَنَهُ الأمْرُ يَحْزُنُهُ حُزْناً». ويقال: «أَحْزَنَهُ الأمْرُ إحْزاناً». قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لغةُ قريش، و«أَحْزَنَهُ» لغة تميم.

ويقال: «حَزِنَ الرَّجُلُ يَحْزَنُ حَزَناً» فهو «مَحْزُونٌ، ومُحْزَنٌ، وحَزِينٌ، وحَزِنٌ» من قَوْمٍ «حِزَانٍ، وحُزَنَاءَ».

الحزْن: مشاعِرُ أَلَم في النفس، بسَببِ فواتِ محبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أو بسَبَب حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَوقُّعِ حُدُوثه، كالحزْنِ على محكومٍ علَيْه بالْقَتل، وهو يَتَرقَّبُ التنفيذ.

قال النحويون والمفسّرون: اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ من عبارة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقِبة، وليسَتْ لام الغاية.

فالمعنى: الْتَقَطُوه لتكون عاقبةُ أَمْرِه أن يَصِيرَ عَدُوًّا لمريدي قَتْله والتخلُّص منه فيهم، ولَيكونَ سَبَباً في إحْزَانِ سائر مَنْ يَبْقَى منهم، بَعْدَ هَلاكِ فرعَوْن ومَنْ مَعَهُ من آله، كالنساء الكَوَافِر، وكالّذين لم يخْرُجُوا من كُفَّارِ آل فرعَوْن، معَ فرعون وجنوده، لقتال بني إسرائيل الخارجين من مصر بقيادة موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

• ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾:

جاءت هٰذِهِ الجملة بمثابَة التعْلِيل لقضاء الله عزّ وجلّ، بأن يكُونَ موسىٰ عليه السَّلام في المستقبل عَدُوّا وحَزَناً لكفّارِ آل فرعون وأنصارهم وجُنُودِهم.

هَامَان: أخذاً مِن فَحْوىٰ النصوص فهِمْتُ أنَّ «هَامَان» هو الوزير الأوّل لفرعَوْن، والمعين الأكبر له على ارْتكاب جرائمه وعُدْوانَاتِه، وظُلْمه وطغياناته، وارتكاب خطاياه، مع الإصرار على الكُفر عناداً واستِكْبَاراً.

﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: أي: كانُوا مُذْنِبينَ عَنْ عَمْدٍ وإصرارٍ، اتّباعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسُّلطان، بفَرْضِ جَبَرُوتِهم وكِبْرِيَائهم في الأرض. وقرأ أبو جعفر: [خَاطِين] بحذف الهمزة، وهي لغة.

يقال لغة: «خَطِىءَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخَطْأً»: أي: أذنبَ عَنْ عَمْد، وكذلك: «أخْطأ».

وتستعمل هذه المادّة بمعنى الغَلَط عَنْ غير عَمْد، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا.

• ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: وقالت امرأةُ فِرعَوْنَ لَهُ: هٰذا الصبيُّ الّذي التقطْنَاهُ مِنَ الْيَمّ، قُرَّةُ عَيْنٍ لي، وقُرَّة عَيْنٍ لَكَ.

وقالَتْ له: لَا تَقْتُلُوه، أي: لاَ تُصْدِرْ أَمْرَكَ لجنُودِكَ بأَنْ يقتلوه، أو أصْدِر أَمْرَك بأن لاَ يَقْتُلُوه مع المواليد الذُّكُورِ من الإسرائيليّين، تنفيذاً لأمْرِك السابق.

وقالَتْ له: عَسَىٰ أنْ يَنْفَعَنَا إِذَا كَبِرَ وَنَمَا فِي قَصْرِنا، فَيَكُونَ لنا قُوَّةً علَىٰ الإسْرائِيلِيّينِ وغَيْرِهم، أَوْ عَسَىٰ أن نَجِدَ فيه خيراً ونُبوغاً، فنتَبَنَّاهُ وَنَتَّخِذَهُ وَلَداً لنا.

عسىٰ: فعلٌ غَيْرُ متصرّف، معناه المقاربة على سبيل الترجّي، وهي هُنَا تَامَّة لاَ تحتاج إلى خَبَرٍ منصوب أو هي ناقصة واسمها ضمير يعود على موسى، وخبرها المصدر المؤوّل من ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾.

• ﴿... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه الجملة حاليَّة، وقد دَلَّت علَىٰ أنّ الله

عزّ وجلّ صرفَ عَنْ أذْهَانِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ احْتمالَ أنْ يكون هذا الصبيُّ هو الْوَلَدَ المحْذُورَ منْه من بني إسرائيل، الذي صَدَرَ الأَمْرُ الفرعَوْنيُّ بقتل مواليد بني إسرائيل الذُّكور مِنْ أجله، إنْ صَحَّ أنّ المنجمين قالُوا لفِرْعَوْن: سيُولَدُ مَوْلُودٌ من بني إسرائيل يكون هَلاكُهُ وتقويض مملكتِه على يَدَيه، وهي مقولةٌ لم أجِدْ لهَا سَنَداً في غَيْر أقْوَال بعض المفسّرين.

ومعنى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ والحالُ أنَّهُمْ لم يَحْصُلْ لَهُمْ أقَلُّ تَصَوُّرٍ احتماليٍّ، بأنْ يكُونَ هذا الصبيُّ سَبباً في هَلاكِ فرْعَوْنَ وتَقْويضِ مملَكَتِه في مصر.

عبارة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: كنَايَةٌ عَن السُّرُور والرّضا، يقال لغة: «قَرَّتْ عَيْنُ فلان» أي: برَدَت، ويُكَنَّى بهٰذا التعبير عَنْ سُرُوره ورضاه، لأنَّ بَرْدَ العَين المضادَّ لسُخُونَتِها يكُون في حالة السُّرور والرِّضا.

• ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾:

الفؤاد: هُو عُمْقُ القلْبِ في كيانِ الإنسانِ النفسِيّ.

أي: وإنّ فؤاد أُمّ موسَىٰ بَعْدَ إلْقائه في تابوته في النّيل، نَحْو آخِر اللّيل، وفْقَ الوحْي الرَّبّانِيّ الذي جاءها، أصْبَحَ فَارِغاً، أي: خفيفاً طائشاً، غَيْرَ ذِي وزْنٍ ثقيلٍ يُثَبّته، وبخفَّتِهِ وطَيْشِهِ صَارَ مُؤَهّلاً لأنْ يَتَأَثّر بآلام نَفْسِها من أجل ولَدِها، فيُعْطِيَ بِطَيْشِه وخفَّتِه تَوْجيهَهُ لإرادتها، فَتُصْدِرَ أوامِرَها لِلِسَانِها بأنْ يَبُوحَ بما فَعَلَتْ سرًّا.

وعندئذٍ يفتَضِحُ أمْرُها، ويتَعَرَّضُ الصَّبِيُّ للقَتْل بَعْد استخراجِهِ من اليَمّ.

و«إنْ» في عبارة ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واسْمُها ضَمِيرُ الشَّأن الّذي يُحذَفُ دواماً في اللّسَانِ العَربيّ.

أي: إنَّ الشَّأْنَ الخطير أنَّ أُمَّ مُوسَىٰ كادَتْ لتُبْدِي أَمْرَ مَا فعلَتْ بصَبِيّها، إذْ وَضَعَتْهُ في تَابوتٍ، وألْقَتْهُ في النيل، وعندئذٍ يَفْتَضح أمْرُهَا، ويَشيعُ خَبَرُها.

يقال لغة: «أَبْدَىٰ الشيءَ وأَبْدَىٰ بِه» أي: أَظْهَره.

وقد تكون تعْدِية الفعل على التضمين، والتقدير: إنْ كادَت لتُبْدِي أَمْرَها مُتَحَدِّثَةً بشأن صَبِيّها وما فعلَتْ به إذْ أَلْقَتْهُ في النيل داخل صنْدوق فَهُو يجري مع الماء.

لكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ رَبَطَ علىٰ قَلْبها برباطٍ معنويٍّ من التجلُّدِ والصَّبْر، والثقة بالله والتوكُّل عليه، فهو الّذي أوْحىٰ إلَيْها وَحْياً على ما سَبَقَ بيانُه، بأن تضَعه في تابوتٍ وتُلْقِيه في اليمّ.

وبهذا الرَّبط الرَّبَّانِيّ ارْتَقَتْ مَنْزِلَتُهَا من فِئَةِ المؤمِنَاتِ إلىٰ فِئَةِ المؤمنين من الرِّجال، دلَّت على هذا عبارة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ المؤمنون الصابِرُون الثابتُون المتوكّلونَ على اللهِ من الرّجال، يضبطون بإراداتِهم الحازماتِ تَصَرُّفاتِهم على مقتضَىٰ الحكمة، بخلاف النساء فإنَّ طبائِعَهُنَّ تَغْلِبُهُنَّ فتدفَعُهُنَّ الْخِفَّةُ إلىٰ تَصرُّفاتٍ لَا تُحْمَد عُقباها، إلَّا مَنْ يَعْتَنِي اللهُ عزّ وجلّ بِها مِنْهُنَّ، فَيَرْبِطُ على قَلْبِها، فيَجْعَلُها في خصائصها النفسيَّة مِثْلَ فُضَلَاءِ الرّجال المؤمنين.

وهذا نظير وصْفِ الله عزّ وجلّ مَرْيم أُمَّ عيسَى عليه السَّلام، بأنَّها كانت من القانتين، ولم يَقُلْ من القانتات.

الرَّبْط على القلُوبِ في دَلَالَاتِ النّصوص القرآنيّة يُفيد معنى التثْبِيتِ والتقوية، لمَنْعِهَا من الاندفاع بخفَّةٍ وطَيْشٍ.

وعوامِلُ هذا الرَّبْطِ التَّثْبِيتي هي عوامل إيمانيَّة، من الثِّقَةِ باللهِ وبحكمَتِه، والتوكُّل عليه، وتَسْليم الأمْر إليه، والرِّضا بقضائه وقَدَرِه، إلى

سائرِ مُمِدّاتِ النَّفْس بالصَّبْر والحلْم والْقُدْرَةِ على تحمُّل المؤلماتِ والموجعات والمزْعِجات.

بخلاف الشَّدِّ علىٰ القلوب فَهُو يُفيدُ معنَىٰ الضغْط عَلَيْها بالمؤلماتِ والمكارِه والكُرُوبِ والمخاوف والأحزان، ونحو ذلك.

• ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: وقالت أُمُّ مُوسَىٰ عليه السَّلام بَعْدَ أَنْ ألقتْه في النيل في تابوته.

﴿لِأُخْتِهِۦ﴾: قالوا: اسْمُها مَرْيم، وقد كانت حينئذٍ فتاةً راشدَةً.

﴿قُصِّيهِ﴾: أي: تَتَبَّعِي تنقُّلاتِ أخيك في الصُّنْدُوق الّذي هو فيه، وتَتَبَّعِي حَرَكَتَه، وإلَىٰ أَيْنَ يَصل.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقُصُّهُ قصًّا وَقَصَصاً» أي: تتبَّعْتُ أَثَرَهُ شيئاً فشيئاً.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾: أي: فَعَلِمَتْ به، يقال لغة: «بَصُرَ بالشَّيْءِ يَبْصُرُ بَصَراً وَبَصَارَةً» أي: عَلِمَ بِهِ عِلْماً صحيحاً مُؤَكّداً، فَهُو بِهِ بَصِير.

﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي: حالَةَ كَوْنِها متجاوزةً مَكاناً يَفْصِلُ بَيْنَهَا وبَيْنَ النِّيل بمقدار هُو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجُودُ فيه مُرَاقِباً لمَا يَحْدُثُ في النَّهر.

الجنُبُ: الْبَعِيد، ويُطْلَقُ أيضاً على القريب، فهو من الألفاظ الّتي تُطْلَقُ علىٰ المتضادَّين، إلّا أنّ المراد هُنَا المعنى الأول، والله أعلم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: قُصِّيهِ في حالَةِ أنَّ الَّذِينَ يَعْنِيهم قَتْل مواليد بني إسرائيل الذكور، أو يَعْنِيهم إشاعَةُ الأخبار عنهم، أو نَقْلُها إلى جنود الظالمين، لا يَشْعُرونَ بوجودِ مُراقِب متابع لشيءٍ ما في النهر.

الشعُور بالشيء: العِلْمُ به، ولو من أدْنَىٰ درجات الإحساس به، أخْذاً مِنْ مَسِّ الشَّعر الذي يحْصُل به إحساسٌ خفيف.

• ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾: أي: ومنَعْنَاهُ بأَمْرِ التكوينِ من قَبولِ ثَدْي مُرْضِعَةٍ ما تُرْضِعُهُ غَيْر ثَدْي أُمّه.

التحريم: هو في اللّغة المنْع، وهذا المنع قَدْ يكُونُ بأمْرٍ تَكْويني، فيتحقَّقُ الامتناع بالجبر، وقد يكون بأمْرٍ تَكْلِيفي لذوي الإراداتِ المطيعة بالفطرة، أو الإرادات القادرات عل الطاعة والمعصية، وهذا المنع يُسمَّىٰ حينئذٍ نهياً تكليفياً.

مراضِع: جمْعُ «مُرْضِع» و«مُرْضِعَة» وهي الّتي تُرْضِعُ من ثَدْيها لبَناً.

• ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ وُصُولِ أُخْتِه إلى مكانِ طَلَبِ مُرْضعٍ للصَّبِيِّ الملتقَطِ والمنْتَشَلِ من النهر.

• ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: فقالَتْ أُخْته مَرْيمُ لمَّا عَلِمَتْ أنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ أَثْداءَ المرضعاتِ اللّواتي عُرِضْنَ عَلَيْه: هَلْ أدُلُّكُمْ علَىٰ أهْلِ بَيْتٍ يقومُون بإرْضاعه، وتَرْبِيَته، وحضَانَتِه، وخِدْمَتِه، لَكُمْ بالأَجْرِ، في كفَالَةٍ حَسَنَةٍ، وهم أَهْلُ نُصْحٍ لمَنْ يكْفُلُونه.

﴿نَٰصِحُونَ﴾: أي: مخْلِصُونَ، ليْسَ في كفَالَتِهِمْ غِشٌّ، وَلَا خيانَةٌ لأَمَانَة.

وأرادت بعبارَة: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ أمَّها، وأبَاها، ونفسها، وسائِر منْ في بيْتِ أبيها، إلَّا أنَّ الّتِي تُرْضِعُهُ هي أُمُّها.

وطوى النصّ ما جرىٰ من تفاوُضٍ بين طالبي المرضع للصّبيّ، وبَيْنَ أخْتِه الّتِي لَمْ تَكْشِفْ أنَّ لهَا عَلَاقَةً ما به، فجاءَ ما بعْدَ هذه الآيَةِ مَعْطوفاً علَىٰ هذا المطويّ، لإمكان الْعِلْم به بالاستنتاج الفكريّ.

• ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: فأرْجَعنَا الصَّبيَّ مُوسَىٰ إلىٰ أُمِّه، لتَقُومَ بإرْضاعه وكفالَتِهِ في نظر مُلْتَقِطيه، وأمَّا بحِكْمَةِ اللهِ فكَانَ لهٰذَا الرَّدّ مِنَنٌ ثلاثٌ علَىٰ أمّه:

المنَّةُ الأولى: أنْ تَقرَّ عَيْنُها، دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في الآيَة: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: أي: لِكَيْ تُسَرَّ وَتَسْعَدَ وَتَرْضَا بعَوْدَة طِفْلِها الرَّضِيع إليها.

المنَّةُ الثانية: أنْ لَا تَحْزَنَ بِسَبَبِ فِراقه لها، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾.

المنَّةُ الثالِثَة: أنْ تَعْلَم أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وهو ما جاء بيانُهُ في الآية (٧): ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ فَقَدْ رَدَّهُ اللهُ إلَيْها، وسيَجْعَلُهُ اللهُ عزّ وجلّ نبيًّا من الأنبياء، وَرسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِين، وقد دَلَّ على هذه المنة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وقَد جَاء التعليقُ على هذه الحقيقة بقول الله عزّ وجلّ: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ جاهِلُونَ لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة، ولا سيما وعْدُ الله بالبعْثِ والحياة الأخْرىٰ، ومَا فيها من جزاء بالثواب في الجنَّة دار المؤمنين المسلمين، أو جزاء بالعقاب في النار دار العصاة والمجْرمين، ولا يعلمون مِنَنَ اللهِ الكثيرة عليهم.

وقد سبقت النظرات التكامليّة بين هذا النَّصّ وما جاء بشأن موضوعه في سورة (طـٰه) في الآيات من (٣٧ ـ ٤٠).

❀ ❀ ❀

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيات بيان لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةٍ جَرَتْ لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام في مِصْرَ، وهُو في كمال رجُولَتِه، وشبابه، وقُوَّةِ جِسْمِهِ، وسَخَطِه علىٰ النظام الفرعَوْنِيّ المسَعْبِدِ المضْطَهِدِ المذِلِّ لِقَوْمِهِ الإسرائيليين.

وتَدُلّ هٰذِهِ الآيات بدلالاتِها الصريحة وبِفَحْواها على أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام كان عند حُدُوث هٰذِهِ القصّة يَسْكُنُ في بعض القصور الفرعونية، وقصور الملوك تكون في العادة خارج وسط المدينَة، أو خارجَ أسْوارِها إذا كانت لها أسوار.

وفي بعض الأيّام خَرَج من منزلِهِ، ودَخَلَ وسَطَ المدينَةِ في وقت يكون الناس فيه غافلين عمَّا يجري من أحداثٍ في أسواق المدينة، كوقت القَيْلُولَة، أو ما بَيْنَ المغرب العشاء.

ووصل إلى مكانٍ ما وسَطَ أسْواقِ المدينة، فوَجَدَ إسرائيليًّا ومصْرِيّاً يتخاصَمَان ويتضاربان تضارُبَ تقاتل.

- الإسرائيليّ من شِيعَتِهِ، أي: من قومه بني إسرائيل.
- والمصْرِي مِن عَدُوّه الّذين يُسَخِّرُون الشَّعْبَ الإسرائيليَّ ظلماً وعدواناً، ويستعْبِدُونهم.

فطلب الإسرائيليُّ المعُونَةَ من مُوسَىٰ الإسْرَائيلي، ذي القُوة المسْتَنِدة إلى سُلْطان الْقَصْر الفرعَوْني في نظر الناس.

فنظر موسَىٰ في الْخُصُومَة بينهما، فَعَلِمَ أنَّ المصريّ هُو المعتَدِي الظالم الباغي، الذي يُريدُ تَسْخِير الإسْرَائِيليّ بغَيْر حَقٍّ في عَمَلٍ لَا يَجِبُ علَيْه أنْ يَعْملَه.

وكان مُوسَىٰ شديدَ القوَّةِ الْبَدَنِيَّة، وكان المصْري يُهاجِمُ ويُضارب، وأراد موسَىٰ أن يُصْلِحَ بينهما، فتطاول المصْري وربّما حاول إبعاد موسىٰ، فأراد موسَىٰ أن يَدْفع المصْريّ انتصاراً للحق، فَدَفَعَهُ بقَبْضَةِ يَدِه القوِيَّة، فَسَقَطَ الْمصْريّ في الأرض قتيلاً من قُوَّة الدَّفعِ، أَوْ مِنْ مَكان السُّقُوطِ إذْ أصَابَ مِنْهُ مقتلاً.

فَلَمَّا رَأىٰ مُوسَىٰ أنَّ القِبطيَّ سَقَطَ قتيلاً ولم يكُنْ يُرِيدُ قتْلَه، نَدِمَ على ما جرَىٰ مِنْهُ، وقال:

﴿...هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

ودَعَا رَبَّهُ قَائِلاً:

﴿...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي... ﴿١٦﴾﴾.

وسَتَرَهُ اللهُ فَلَمْ يَفْتَضِحْ أَمْرُهُ، لأنَّ الإسرائيليَّ لم يَكْشِفْ عن اسْم موسَىٰ، ولم يكن أحَدٌ من المصريين قد شَهِدَ الحَدَث، ويظهر أنَّه ذكر

للنّاسِ أو لرجالِ الأمْن أنَّ رَجلاً عابراً شَهِدَ خُصُومَتَهُ مع المصري، فأراد أَنْ يُصْلِح بينَهما، فَدَفَعَ القبطيَّ بِيَدِه دَفْعَةً واحِدَةً سَقَط بِها قتيلاً.

فَحَمِد مُوسَىٰ رَبَّهُ على أنْ أنْعَمَ عَلَيْهِ بِسَتْرِ ما جَرَىٰ مِنه، ولَعَلَّهُ أدْرَكَ أنَّ الإسْرَائِيليَّ قَدْ يكُونُ في حقِيقَةِ أمْرِه مُجْرِماً مُذْنباً غَيْر صاحب حقٍّ كامل، فدَعَىٰ رَبَّهُ قَائلاً:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

لكنَّ مُوسَىٰ لم يطمَئِنَّ قَلْبُهُ لِعَدَمِ اكتِشَافِ أنَّهُ هُو الَّذِي قَتَلَ المصريّ في مكانٍ ما من أسواق المدينة، فأصْبَحَ في الْيَوْم الثاني خائفاً يَتَرَقَّبُ أقوال النّاس وإشَاعَاتهم، ويَخْشَىٰ أنْ يُشِيرَ أحَدٌ إلَيْه، وأنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ دَخَلَ أسْوَاقَ المدِينَةِ في أوائل اللَّيْل المنْصَرِم، قَبْلَ سُقُوطِ الْقَتِيل.

وشاءَتْ أَلْطَافُ اللهِ العِليِّ الحكيم أنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مِصْرَ إلى مَدْين، فأجْرَىٰ مقادِيرَهُ الخفيَّة، فَشَهِدَ في أوَّلِ النَّهار أنَّ الإسْرَائيليَّ الّذي كان طَلَبَ نُصْرَتَهُ بالأمْسِ، فَنَتَجَ عَنْ نُصْرَتِهِ له سُقُوط المصريّ قتيلاً بِدَفْعَةٍ دَفَعَهُ إيَّاها بجُمْعِ يَدِه، يَسْتَصْرِخُه الْيَوْمَ لِنُصْرَتِه ضِدَّ مصريّ آخَرَ يُخَاصِمُهُ ويُقَاتِلُه، فقال مُوسَىٰ للإسْرَائيليّ: ﴿... إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

وأدْرَكَ المصريّون الشهودُ من هٰذا، أنَّ مُوسَىٰ هو الّذي انْتَصَرَ للإسرائيليّ بالأمْسِ، وأنَّهُ هُو الَّذي قَتَلَ المصريّ، وأخَذَ النَّبأُ يَشِيعُ.

فأراد مُوسَىٰ أن ينتصر للإسْرائيليّ، فلَمَّا أقْبَلَ نَحْوَ المصريّ راغباً في أنْ يَبْطِشَ به، قال له المصريّ:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وشَاعَ الخبرُ وَذَاعَ، وَوَصَل إلى رجال القصر الفرعَوْني أنَّ قَاتِلَ المصريِّ هو مُوسَىٰ.

فَعَقَد وُزَرَاءُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ مَجْلِسَ تَشَاوُرٍ بشَأْنِ الحَدث، واتَّجهَتِ الْآرَاءُ لإصدار الأمرِ بِقَتْلِ مُوسَىٰ، عُقُوبَةً لَهُ على قَتْلِهِ المصريّ.

وعَلِمَ بَعْضُ مُحِبِّي مُوسَىٰ بالْأمْر، فجاء إليه مِنْ أقْصَىٰ المدينَةِ يَسْعَىٰ، وقالَ له:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

رُبَّما كان هذا الرَّجُل من موظّفي الْقَصْر الفرعوني، ورُبَّما كَانَ مُرسلاً من قبَلِ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بما يجري فيه من مُحِبّي موسَىٰ.

فأدْرَكَ مُوسَىٰ خطورة الأمْر، فقَرَّرَ أنْ يُهاجِرَ مُسْتَخْفِياً من مصر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

• ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: ولمَّا بَلَغَ مُوسَىٰ الإسرائيليُّ النَّاشِيءُ في القصر الفَرْعَوْنِيّ، اكتِمَالَ قُوىٰ رُجولَتِه ونُضْجِه الفِكْري والنفسيّ.

أشُدُّ الشَّيْء في اللُّغة: اكْتِمَالُه، والاكتمالُ يتناول مختَلف القوى الجسَدِيَّة والفكريَّة والنفسية. واكتمالُ كلِّ شيءٍ بَحَسبِه.

• ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: أي: واعْتَدل واستَقَام. **الاستواء في اللّغة**: الاستقامَةُ والاعْتدال. فوصف الله عزّ وجلَّ مُوسَىٰ بوصفين: أنّه بلَغَ أشُدَّه، وأنَّهُ اسْتَوىٰ.

والمرادُ باعْتدالِ الإنسان أنْ يأخُذَ كُلُ جُزْءٍ من أَجْزَائِهِ حظَّهُ وافياً، وفق الْخُطَّة المقدَّرَة لكَمَالِ نَوعْه.

• ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: جاءت هذه العبارة بضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بمنَّة اللهِ العظيمة عليه بالْحُكْمِ والْعِلِمْ.

الْحُكْمُ: فِقْهُ الأمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقّ والباطل وحُدودهما، ومَعْرِفَةُ الخير والشرّ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الحسَنِ والسّيِّىء، والجميلِ والقبيحِ وحُدُودها.

وبناء على فِقْهِ الأمور يسْتَطيع أنْ يُصْدِرَ مَنْ أُوتي الحكْمَ أحْكَامَهُ العلميَّةَ والْعَمَلِيَّة والقضائيَّة بما يُلائم الحقّ والخير والحَسَن الجميل، وما هو الأفضل في الأمور.

الْعِلْم: يَشْمِلُ ما اكتَسَبَهُ موسَىٰ عليه السَّلام من معارفَ دِينيَّةٍ ودنيويَّة واجتماعيَّة تتعلَّقُ بالنّاس، وفرديَّةٍ تتعَلّق بالأشياء وصفاتها، وبأفْراد الناس وصفاتهم وأنواع سُلُوكهم الإراديّ.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ⑭﴾: دلَّت هـٰذه العـبـارةُ عـلَـىٰ مَحْذُوفٍ يَنْبَغِي أنْ يُلاَحَظَ ذهناً، والتقدير: ولمَّا بَلَغَ مُوسَىٰ أشُدَّهُ واسْتَوَىٰ وأحْسَنَ سَالِكاً سَبيهلَ المحسنين آتيناه حُكْماً وعِلْماً، ضِمْن مجاري سُنَّتِنَا لعبادنا.

فالمعنى: ومثْلَ ذَلِكَ الجزاءِ الّذِي جَازَيْنَاهُ مُوسَىٰ على إحْسَانِهِ نَجْزِي كُلَّ المحْسِنين.

قول الله عزّ وجلّ بشأن موسَىٰ عليه السَّلام:

• ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑮ قَالَ رَبِّ إِنِّى

ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

• ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في هٰذِهِ العبارة شُرُوعٌ في بيانِ حَدَثٍ جَرَىٰ لموسَىٰ عليه السَّلام في مصر، بَعْدَ أَنْ بلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ، ولَمْ يكُنْ حينئذٍ رسُولاً ولا نبيّاً.

ومعلومٌ أنَّ الناسَ بحَسَب الْعَادَةِ يكُونُونَ في غَفْلَةٍ عمَّا يجري في أسواقِ المدينَةِ مِن أحداثٍ في وقْتَيْن.

الوقت الأوّل: وقْتُ الْقَيْلُولَة عند شِدَّةِ الحرِّ بَعْدَ زوالِ الشّمْسِ عَنْ كَبِد السماء، إذْ يَلْجَؤُونَ إلَىٰ السُّكُون في بيوتهم، أو داخِلَ مَحَلَّاتِهِم التجاريَّة.

الوقت الثاني: عقب غُروب الشمس، عند دُخول أوَّلِ اللَّيْلِ زاحِفاً، إذْ يَلْجَؤُونَ إلىٰ الراحَةِ والالْتِفَافِ على المصابيح، أو نحو ذلك بَعِيداً عَنِ أسواق الْبَيع والشراء، كان هذا قبل اكتشاف الكهرباء وتحَوُّل معظَمِ اللّيل إلى مِثْلِ النهار.

ويترجَّحُ لدَيَّ هٰذا الوقْتُ، إذْ جاء في الآية (١٨) قولُ الله عزّ وجلّ بشأْنِهِ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ . . . ﴿١٨﴾﴾: أي: فدَخلَ في صَبَاح اليومِ التَّالِي حالَةَ كَوْنِه خائفاً يَترَقَّبُ ما يَحْدُثُ من جرَّاءِ قَتْلِهِ المصريّ، هَلْ وَصَلَ الْعِلْمُ إلى رجال الْقَصر الفرعَوْني بأَنَّهُ هو القاتل؟.

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ لَمْ يَسْتَجبْ إلى إغراءاتِ فرعَوْن ورِجال قَصْرِه، فهو يخاف نِقْمَتَهُمْ علَيْه، إذْ لم يَنَلْ حُظْوَة عندهم وَلَا تمكينا.

• ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: أي: على وقْتِ غَفْلَةٍ عمَّا يجري في أسْوَاقِ المدينَةِ من أحداثٍ، وهٰذِهِ الغفلةُ كائِنَةٌ من أهل أسواقها.

الغفلَةُ عن الشيء: انْصِراف الذهْنِ عن ملاحظَتِهِ ومُرَاقَبَته، مع وجوده في مجال الإدْراك، أو وُجود أدلّتِه، وإمكان إدْراكه لولا وُجُود الصارِف أو السَّهْو. يقال لغة: «غَفَلَ عَنِ الشّيءِ يَغْفُل غُفُولاً وغَفْلَةً».

• ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾: أي: فوجَدَ في مكانٍ مَا من أسْواقِ المدِينة، رَجُلَيْنِ يتَخَاصَمان ويَتَضارَبَانِ تضَارُباً يُشْبِهُ التَّقَاتُل.

• ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: في هٰذِهِ العبارَةِ تفصيلٌ للانتِماء الْقَوْمِيّ لِكُلٍّ من الرَّجُلَيْنِ اللّذَيْن يقْتَتِلاَن.

هٰذا من شِيعَتِهِ: أي: هو إسرائيليٌّ، من بني إسرائيل الّذينَ هُمُ الأقلّيَّةُ المضطَّهَدُونَ المستَعْبَدُونَ في مِصْرَ في ذَلِكَ الوقت.

الشّيعة: كلُّ جماعةٍ لهم أمْرٌ واحِدٌ يشتركون فيه، وموسىٰ يشْتَرِكُ مع الشعب الإسْرَائيليّ حينئذٍ في النَّسَبِ، وعَدَدٍ من الرَّوابط القوميَّة والجذُور الدّينيَّة.

وهٰذا مِنْ عدُوِّه: أي: هُو مصريّ، مِنْ قَوْم فرعَون الّذِين هُمُ الجمهور الأعظم في مِصر، وهم بالتمكين الفرعوني لهم يضطّهِدُونَ الإسْرَائيليّين ويسْتَعْبِدُونَهُمْ ويُسَخِّرونَهُمْ في الأعمال بغير حقّ.

وبسبب هذا الإذْلال والاسْتِعْبَاد كان المصريّون أعداءً للإسْرَائيليين.

• ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾:

الاسْتِغَاثة: طلَبُ الْعَوْنِ، أو النَّصْر، أو طلبُ المساعدة على كشف نازلَةٍ، أو دَفْع مُصِيبَة، أو قضاء حاجَةٍ شديدَة، ونَحْو ذلِك.

أي: فاسْتَغَاثَ الإسْرَائيليُّ بموسَىٰ لِيَنْصُرَهُ علىٰ المصْريّ الظالِمِ.

• ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾:

فوَكَزَهُ: يأتي الْوَكْزُ في اللّغة للدلالَة على معنى الدَّفْعِ، والضَّرْب،

ويقال: «وَكَزَهُ، يَكِزُهُ وَكْزاً»: أي: ضَرَبَهُ بِجُمْعِ يَدِهِ علىٰ ذَقَنِهِ.

أقول: لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مُوسَىٰ قَدْ بَدَا لَهُ أنَّ القِبطِيَّ هُو المعْتَدِي الظَّالِم للإسرائيليّ، بَعدَ أَنْ حَاوَلَ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُما، مع مَا في نَفْسِهِ من ضغينَةٍ علىٰ مستَعْبِدِي قَوْمِهِ بغَيْرِ حَقّ. لَكِنَّ المصرِيّ بدأ يَتَطَاوَلُ بالْهُجُوم القتالِيّ علىٰ الإسْرَائيلِيّ، وموسىٰ يفصل بينهُمَا، وربما تطاول على موسى، وثارَتْ حَفِيظَةُ مُوسَىٰ، فأَرَادَ أَنْ يَدْفَعَ المصرِيّ عَنِ الإسْرَائيلِيّ، وكان ذَا قُوَّةٍ شَدِيدَة فوكَزَ المصْرِيّ بِجُمْع يَدِهِ على ذَقَنِهِ، فَسَقَطَ بها المصرِيّ قتيلاً، وهـٰذِهِ من الكبائِرِ الكُبْرىٰ عِنْدَ رِجالِ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِي، أنْ يَقْتُلَ إسْرَائيليٌّ مِصْرِيّ.

- ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾: أي: فقتَلَه، عبارة جرَىٰ بها الاسْتِعْمَالُ للدَّلاَلَة على هـٰذا المعنى. يُقالُ في الاستِعْمَالِ العربي: «ضَرَبَهُ فقَضَىٰ عَلَيْه» أيْ: فقَتَلَهُ.

- ﴿... قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾:

لمَّا رَأَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام المصْرِيّ قَتِيلاً، لَامَ نَفْسَهُ عَلَىٰ حِدَّةِ نَفْسِهِ وَتَسَرُّعِهِ وَضَرْبِهِ المصْرِيّ ضَرْبَةً قَصَدَ بِهَا دفْعَهُ ولَمْ يَقْصِدْ قَتْلَهُ، وذكَر أَنَّ مَا جَرَىٰ مَعَهُ من تَسَرُّعٍ، قَدْ كَانَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطان، لَا مِنْ عَقْل ورَوِيَّةٍ وبصيرة.

ووصَف الشيطانَ بأَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ واضِحُ الْإِضْلَالِ للإنْسَان، ليُخْرِجَهُ عَنْ صراط اللهِ المستقيم.

وأدْرَكَ مُوسَىٰ أَنَّ وظيفَتَهُ في مِثْل هـٰذِهِ الحالَةِ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحاً بَيْنَ الخَصْمَيْن، لا أَنْ يكونَ قاضِياً وحَاكِماً ومُنَفِّذاً حُكْمَهُ، إِذْ لَيْسَ من حَقِّهِ وَهُوَ فَرْدٌ من أفراد الرَّعِيَّةِ، وَلَوْ في دَوْلَةٍ كافِرَةٍ، أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ حَاكِماً وَمُنَفِّذاً أحكامَهُ، إِذْ لَا تَتَعَدَّىٰ صَلاحيَّاتُ أيّ فَرْدٍ من أفراد الرَّعِيَّة في مِثْلِ هـٰذه الحالَة حُدُودَ الإصْلاحِ بيْنَ المتخاصِمِينَ، أَمَامَ أُسُسِ الحقِّ الْوَاجب الّتي تَتَّفِقُ عَلَيْها العقول، ونزلَتْ بها شرائع الله لعباده.

وإذْ أدْرَكَ مُوسَىٰ هٰذا:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾: أي: رَبِّ إنِّي عَمِلْتُ عَملاً مُنْكراً مِنْ مِثْلِي لَمْ تَأْمُرْنِي بِهِ، ولَمْ تأذَنْ لِي بِهِ، فظَلَمْتُ نَفْسِي بارْتِكَابِهِ، فَاغْفِرْهُ لِي واغْفِرْ كُلَّ خَطَايَايَ.

غَفْرُ الذّنْب: سَتْرُه، وهٰذا يسْتَلزم مع فَضْلِ اللهِ التجاوُزَ عَنْهُ وعَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

• ﴿... فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾: أي: فاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فغفَر له.

وعَلَّمَ اللهُ عزّ وجلَّ عبادَهُ المؤْمنِين الثَّناء عَلَيْهِ بأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ في الوُجُود كُلِّه الْغَفُورُ الرَّحِيمَ.

الْغَفُور: أي: الكثير المغفرة، والعظيم المغفرة. صيغة: «فَعُول» من صِيَغِ المبالغة لاسم الفاعل.

الرَّحِيم: أي: الكثيرُ والعظيم الرَّحْمة. صيغة «فَعِيل» من صيغ المبالغة أيضاً لاسم الفاعل.

الرحْمَة: صفَةٌ مِن صِفاتِ الله الجليلة، وهي صفة نَفْسِيَّة نُثْبِتُهَا لله عزّ وجلّ على ما يليق بجلَالِهِ، ومن آثارها العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ الْبُؤْس، والإمدادُ بما يَسُرُّ، ويُسَكِّنُ النَّفس، ويُطْمْئِنُ القلْب، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ له، ونَحو ذلك.

• ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الْعِبارَة على قَضِيَّتَيْن.

القضِيَّة الأولىٰ: أَنَّ اللهَ عزّ وجلَّ أَنْعَمَ علىٰ مُوسَى بِسَتْرِ قَتْلِهِ للقِبْطِيّ، في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي كانَتْ حادِثَةُ الْقَتْلِ في أوائِلِها.

الْقَضِيَّةُ الثانِيَة: أَنَّهُ أَدْرَكَ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ الإِسْرَائيلِيُّ هو المذْنِب، وأَنَّهُ قَدْ نَصَرَهُ دُونَ حَقٍّ، بدافع ولائِهِ لقَوْمِه، ورُبَّما ظَهَرَ لَهُ من الأَمَارَات مَا رجَّحَ لَدَيْهِ هٰذا الظَّنّ، فعاهَدَ رَبَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ مُنَاصراً لِأَيِّ مُذْنِبٍ وَلَوْ كَانَ من قَوْمِهِ وشيعَتِه الإِسْرَائيلِيِّين، أو من أَقْرَبِ الناسِ إِلَيْه.

ظَهِيراً: أي: معيناً. **الظهير:** هو في اللّغة المعين، يُسْتَعْملُ هكذا للواحد والجمع.

الْمُجْرِم: المتَعَدِّي بذَنْبٍ كَبير.

• ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

• ﴿فَأَصْبَحَ﴾: أي: فَدَخَلَ في الصباح، وهُوَ أَوّلُ النهار.

• ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: أي: يَسِيرُ في أَسْوَاقِ المدينَة، حيْثُ المواضِعُ والأَسْوَاقُ اتي سار فيها بالأَمْس.

• ﴿خَائِفًا﴾: أي: خائِفاً مِنْ أَنْ يكُونَ قَدْ انْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ فيها أَنَّهُ هُو الّذي قَتَلَ القِبْطِيَّ بالأَمْسِ، فيَصِلَ الأَمْرُ إِلَىٰ القَصْرِ الفرعَوْنِيّ، فيُعَاقَبَ على ذَلِكَ بالقتل.

• ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أي: يُلاحِظُ بانْتِبَاهٍ شَدِيدٍ بسَمْعِه وبَصَرِه ما يتَّصِلُ بقتيل الأَمْسِ ومَنْ قَتَلَه.

• ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾: أي: ففوجِىء موسَىٰ بأنَّ الإِسْرَائيليَّ الّذِي طَلَبَ نُصْرتَهُ بالأَمْسِ على المصْرِيّ يَسْتَغِيثُ بِهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، طالباً أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَىٰ مِصْرِيّ آخر.

• ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: أي: يَصِيحُ مُسْتغيثاً به.

• ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾: أي: قالَ مُوسَىٰ للإسرائيليّ: إنَّكَ لمُمعِنٌ في الضَّلَالِ ظاهر الْبُعْدِ عَنْ جادة الْحَقّ.

الْغَوِي: الْمُمْعِنُ في الضَّلَالِ بُعْداً عَنْ صراط الحق.

فأدْرَكَ شُهُودُ الْحَدَثِ في السُّوقِ أَنَّ مُوسىٰ هُو الذي استغاثَ به الإسْرَائيليُّ بالأَمْسِ، فنَصَرَهُ فقَتَلَ خَصْمَهُ المصْرِيّ، وأَخَذَ النَّاسُ يَتَهَامَسُونَ بهَذا وَيُشيعُونَ الخبر، وَوَصَلَ النبأ إلى أَسْمَاع رجالِ الأمْنِ، فنَقَلُوهُ بِسُرْعَةٍ إلى رُؤسَائِهِم، وَوَصَلَ الْأَمْرُ إلى ذوي السُّلْطَة فِي الْقَصْرِ الفِرْعَوْنيّ.

• ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا...﴾ دلَّتْ هـٰذِهِ العبارة على أنَّ مُوسَىٰ أَخَذَتْهُ حِدَّةُ الانْتِصَارِ لِقَوْمِهِ الإسْرَائيلِيين، فَأَقْبَلَ نَحْو المصريّ، ليُصْلِحَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الإسْرَائيليّ فِيمَا يَظْهَر، وفي نَفْسِه أنْ يَبْطشَ بالْقِبْطِيّ إذَا رآهُ ظالماً، وأنْ يَحْبِسَ نَفْسَه عن التَّسُّرع حتى يَسْتوثق:

• ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾:

قرأ أبو جعفر: [يَبْطُش]. كسر الطاء وضمُّها لغتان عربيّتان في هذه الكلمة.

يَظْهَر أنّ المصريَّ هـٰذا كَانَ هو المعتَدِي الظَّالم، فَأَسْرَعَ إلى اتّهام مُوسَىٰ بأَنَّهُ هُو الّذِي قَتَلَ القِبْطِيَّ بالأَمْسِ، اعْتماداً على الظَّنِّ الذي حَفَّتْ بِهِ الْأَمَارَاتُ المرجّحات، ولِيُشِيعَ هـٰذا في شُهُودِ الْحَدَث، ولِيَصُدَّ مُوسَىٰ عَنْ أن يَتَدَخَّلَ في الأمْرِ مُصْلِحاً بَيْنَهُ وبَيْنَ الإسْرَائِيلِيّ، وفَجَرَ فِي شَتِيمَتِهِ لموسَىٰ، فقالَ لَهُ: مَا تُرِيدُ إلَّا أنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ من المصْلِحِينَ بَيْنَ الْخُصَماء، وفي هـٰذِهِ الشتيمَةِ إثارَةٌ لحفيظَةِ رِجَال الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ علَىٰ مُوسَىٰ إذَا وَصَلَهُمُ النَّبَأُ بِمَا جَرَىٰ.

• ﴿إِن تُرِيدُ﴾: أي: مَا تُرِيد، فحرف «إنْ» هنا حرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما».

• ﴿جَبَّارًا﴾: أي: مُتَسَلِّطاً بالْقُوَة، يُكْرِهُ الناسَ على ما يُرِيدُ بالْقُوَّةِ والْعُنْفِ والْقَهْر. ويأتي الجبّارُ بمعنىٰ المتكبِّر العاتي، والمؤدّىٰ واحد.

• ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: أي: من المصْلِحِينَ بَيْنَ الخُصَماء. يقال لغة: «أَصْلَحَ بَيْنَ الخُصَماء» أي: أَزَالَ مَا بَيْنَهُمَا من عَدَاوَةٍ وخِلافٍ وشقاق.

قول الله تعالى مُتَابعاً قِصَّة هٰذا الحدَث:

• ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

دلّت هٰذِهِ الآية علىٰ أنَّ ما أدْرَكَهُ أَهْلُ سُوقِ المدينةِ، من أنَّ مُوسَىٰ هُوَ الَّذِي قَتَل القِبْطِيَّ بالأَمْسِ، قَدْ وَصَلَ إلَىٰ مَلأِ الْقَوْمِ، وهُمْ رِجَالُ الْقَصْرِ الفِرْعَوْني، عَنْ طَرِيقِ رِجالِ الأمْن، وأنَّهُمْ عَقَدُوا مَجْلِساً وِزاريًّا علىٰ وَجْهِ السُّرْعَة، وأخَذُوا يَتشاوَرُونَ بَيْنَهُمْ لِلْحُكْم علىٰ مُوسىٰ بالْقَتْل، حتَّىٰ لَا يَتَجَرَّأَ الْإِسْرَائيلِيُّونَ عَلَىٰ السُّلْطَةِ الفِرْعَوْنِيَّة، ويُطَالِبُوا بالتَّحرُّرِ مِنْ ذُلِّ الاستِعْبَادِ والتَّسْخِير في مِصْر.

ودلَّتْ هٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أنَّهُ قَدْ يُوجَدُ في أخْبَثِ الأمَاكَنِ، ظُلْماً وكفراً وعُدْواناً، مَنْ يُدْرِكُ الحقَّ ويُحَاوِلُ نُصْرَتَهُ علَىٰ قَدْرِه، فهذا الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ مِنْ أقْصَىٰ المدينَةِ حَيْثُ تُوجَدُ الْقُصُورُ الفِرْعَوْنِيَّة، يَسْعَىٰ بِهِمَّةٍ وسُرْعَةٍ وَنَشَاطٍ لِيَصِلَ إلَىٰ مُوسَىٰ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُحِبِّي الحقِّ والعامِلِينَ لِنُصْرَتِهِ علىٰ مِقْدَارِ اسْتِطاعَتِه، ولَا بُدَّ أنْ يكُونَ مِمَّنْ يَعْرِفُ فَضَائِلَ مُوسَىٰ وأَخْلاقَهُ وَكَمالاتِهِ، وأنَّهُ وقَوْمَهُ مسْتَعْبَدُونَ فِي مِصْرَ بِغَيْرِ حَقٍّ. لَقَدْ عَلِمَ هٰذا الرَّجُلُ بنَفْسِهِ أَوْ مِنْ بَعْضِ رِجالِ الْقَصْرِ أَوْ مُوَظَّفِيهِ أنَّ مَجْلِسَ وزراءِ فِرْعَوْنَ وَكُبَرَاءِ مُسْتَشَارِيهِ عَقَدُوا مَجْلِساً للتَّشَاوُرِ في قَتْلِ مُوسَىٰ، والتخلُّص

مِنْ فِتْنَتِهِ وآثَارِهَا فِي بَنِي إسْرَائيل، فأسْرَعَ يَسْعَىٰ لِيُبَلِّغَ مُوسَىٰ النَّبأَ الْخَطِيرَ وَلِيَنْصَحهُ بأَنْ يَخْرُجَ من البلاد مَهَاجِراً من مِصْرَ كُلّها.

• ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: من أبْعَدِ مَسَاكِنِهَا عَنْ أَسْوَاقِهَا ومَتَاجِرها.

• ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي: يَسِيرُ سَيْراً فَوْقَ المشْي المعْتَادِ، ودُون الْعَدْو.

وهٰذا السَّعْيُ يَدُلُّ عَلىٰ حِرْصِ الرُّجُلِ عَلَىٰ أَنْ يَصِلَ إلى مُوسَىٰ ويبلِّغَهُ النَّبأَ قَبْلَ فوات الأوان.

• ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾

• ﴿ٱلْمَلَأَ﴾: أشرافُ الْقَوم وسَرَاتُهم الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ الْعَامَّة. والمرادُ هُنَا وُزَرَاءُ فِرْعَوْنَ ومَجْلِسُ مُسْتَشَارِيّه.

• ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾: أي: يَتَشَاوَرُونَ فيما بَيْنَهُمْ بأمْرِ قَتْلِكَ المصْرِيَّ.

• ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾: أي: يَتَشَاوَرُونَ بشأنِكَ ليَحْكُمُوا علَيْكَ بالْقَتْلِ، لأنَّكَ قتَلْتَ القِبطيّ انتصار للإسْرَائيليّ.

• ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾: أي: فَاخْرُجْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا مُهَاجراً حتَّىٰ لَا يَظْفَرُوا بِكَ فيَقْتُلُوه، وَأُأَكِّدُ لَكَ أَنَّنِي لَكَ نَاصِحٌ مِنَ النَّاصِحِينَ، فالْأَمْرُ خَطِيرٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ، لأنَّهُ إِذَا صَدَرَ الأَمْرُ بقَتْلِكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تتخلَّصَ مِنْ أَيْدِي زبانِيَةِ فِرْعَوْنَ ورِجال دَوْلَتِه.

فاسْتجابَ مُوسَىٰ لِنُصْحِ الرَّجُلِ الصادِقِ الناصح.

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

تمهيد:

في هـٰذِهِ الآيات بيانُ قِصَّةِ خُرُوجِ مُوسَىٰ مِنْ مِصْرَ مُهاجراً، في اتّجاه سِيناء، وَوُصُولِهِ إلَىٰ مَدْين، وزواجِهِ من ابْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالح فيها مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ واتَّبَعُوه، ومَا رافَقَ هـٰذِهِ القِصَّةَ مِنْ أحْداثٍ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: فاسْتجابَ مُوسَىٰ لنُصْحِ الرَّجُلِ الّذِي أخْبَرَهُ بأنَّ مَلأَ الْقَوْمِ يأْتَمِرُونَ بشأنِهِ لِيَقْتُلُوه، فَشَرَعَ في الخروج من مِصْرَ كُلِّهَا حالَةَ كَوْنِهِ خائفاً من أنْ يَصْدُرَ الأَمْرُ بالْقَبْضِ عليه، وسَوْقِهِ لتَنْفِيذِ حُكْمِ الْقَتْلِ به، وَحَالَةَ كَوْنِه يُلاحِظُ بانْتِباهٍ شَديدٍ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِه ما يَتَعَلَّقُ بالْحُكْمِ عَلَيْهِ بالْقَتْلِ،

وبالْقَبْضِ عَلَيْهِ أيْنَمَا وُجِدَ. وسَأَلَ رَبَّهُ داعِياً مَعَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ من شُرُوعه في الخروج قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ولاقْتِرانِ هـٰذا الدُّعَاءِ بأوَّلِ خطوات الخروج، جاء فعل ﴿قَالَ﴾ مَفْصُولاً دُونَ حَرْفِ عَطْفٍ. أي: ففعل ما يلي:

خرج ـ قال.

﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ **ربِّ**: أي: يَا رَبِّي، حُذِفت أداةُ النداء، وهو الأدَبُ في نِدَاء الرَّبّ، إذْ هُو أقْرَبُ إلى مُنَاديه من وَرِيدِه المتعلّق بقَلْبه. وحُذِفَتْ ياء المتكلِّم وأُبْقِيَتِ الكَسْرَةُ دَلِيلاً عليها، وهذا جائِزٌ عَرَبيًّا، وهو المناسبُ بلاغيًّا في دُعَاءِ الرَّبّ جلَّ جَلالُهُ، وكل ما جاء في القرآن من دُعاء الرَّب جاء بعبارة «رَبِّ» إلَّا في موضعين هما في ذات الله ومن أجل دينه فجاء: [يَا رَبِّ].

﴿نَجِّنِى﴾: أي: خَلِّصْنِي. يُقال لغة: «نَجَّىٰ فُلاَنٌ فُلاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُتوقَّع الحدوث.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي: من فِرْعَوْنَ والكَفَرَةِ من آلِهِ، ومن جُنُودِهِم. وقَدْ وَصَفَهُمْ بأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ لِعِلْمِه بِكُفْرِهم، وبأعْمالِهِم الظَّالِمَة لِعبَاد الله، ومِنْها أَنَّهُمْ إذَا قَرَّرُوا قَتْلَهُ فإنَّهُمْ يظْلِمُونَهُ بذَلِكَ، إذْ لَمْ يَقْتُل المصْرِيَّ مُتَعَمِّداً قَتْلَه، وإنَّما أَرَادَ دَفْعَهُ وإبعادَه، فنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ أنه سَقَطَ قتيلاً، لكِنَّ فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ يُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ بالْقَتْلِ، لأَنَّهُ إسرائيليٌّ يُدَافِعُ عَنْ بَنِي إسرائيل فِي مِصْرَ، ويُثِيرُ في نُفُوسِهِمْ دَوافِعَ الْخَلاَصِ من الاسْتِعْبَاد الفرعَوْنِيّ لهم بغَيْرِ حَقّ.

قول اللهِ تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿تِلْقَآءَ﴾: مَصْدَرٌ مِنْ مَصادِرِ لَقِيَ الشيْءَ. يُقَالُ لغة: «لَقِيَ فُلانٌ الشيْءَ لِقَاءً، وتِلْقَاءً، ولُقِيًّا» أي: اسْتَقْبَلَهُ.

وهو حالٌ على تَنْزِيلِهِ مُنزلَةَ اسْمِ الفاعل، والمعْنَىٰ: ولمَّا تَوَجَّهَ مُسْتَقْبِلاً مَدْين. أو هو نائب مفعول مطلق، والمعنى على هذا: ولمَّا تَوَجَّهَ تَوَجُّهاً كائناً تِلْقَاءَ مَدْيَنَ واسْتِقْبَالاً لها، عالماً بهَذا أو غَيْرَ عالم.

• ﴿مَدۡيَنَ﴾: هـٰذا اللَّفْظُ هو في الأصل اسم لقبيلَةِ «شُعَيب» عليه السَّلام، وأُطْلِقَ هـٰذا اللَّفْظُ على مَكانِ إقامَتِهِمْ، فَسُمّيتِ الْبَلْدَةُ باسْمِهِم. وهي مدينة خرابٌ على بَحْر الْقَلْزَم (= الْبَحْر الأحْمَر) وهي محاذِيَةٌ لتبوك من بِلَاَد الشام، على نحو سِتِّ مراحل منها[1].

• ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهۡدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قـالَ: أَرْجُـو مـن رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي وَسَطَ السَّبِيل الَّذِي يُنَجِّيني بِسُلُوكِهِ من الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فِي مِصْر، فأخْرُج عَنْ حُدُودِ سُلْطَانِهِم، إلى أرْضٍ لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَيْها.

• ﴿عَسَىٰ﴾: فِعْلٌ غَيْرُ مُتَصَرِّف، معْنَاهُ المقارَبَةُ على سَبِيل التَّرَجّي والتَّوَقُّع المقْرُون بالظَّنِّ الرَّاجِحِ.

﴿أَن يَهۡدِيَنِى﴾: أي: أنْ يحقّق لِي بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِه الهداية.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: وسَطَه، وهو أعْدَلُهُ وَأعْلَاه. **السبيل**: الطريق.

يقال لغةً: «هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ لَهُ، وهَدَاهُ إلَيْه» أي: بيَّنَهُ لَهُ، وأَوْضَحَهُ لَهُ، وأرْشَدَهُ إلَيْهِ، وأَعْلَمَهُ به.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِى حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَىَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾:

---

(١) انظر أطلس تاريخ الإسلام. د. حسين مؤنس. ص١٥٢ و٣٢٥.

دلّ هـٰذا الْبيَان عَلَىٰ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ هَدَاهُ سَوَاءَ السَّبِيل حتَّىٰ وَصَلَ أَرْضَ مَدْينَ، وَوَرَدَ مَاءَ أَهْلِهَا، وهُو بِئْرٌ يَستقُونَ مِنْهُ، ويَسْقُونَ مِنْهُ أنْعَامَهُمْ وَدوَابَّهُمْ.

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾: أي: وحِينَ أشْرَفَ مُوسَىٰ علىٰ الأرْضِ الّتِي فيها مَاءُ مَدْيَنَ، وَوَصَلَ إلَيْها، ففي الكلام مُضَافٌ محذوف، أي: ورد أرضَ ماء مدين.

يُقَالُ لُغَةً: «وَرَدَ فُلَانٌ الْمَكَانَ، ووَرَد عَلَيْه» أي: أشْرَفَ عَلَيْهِ دَخَلَهُ أم لم يَدْخُلْه.

• ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾: أي: وَجَدَ علَىٰ ماءِ مَدْيَنَ جماعَةً مِنَ النَّاسِ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مَا، يَسْقُونَ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ أَنْعَامَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ، أي: فَهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ الماءَ بالدِّلَاءِ ويَصُبُّونَهُ في نَحْوِ أجْرَانٍ، لِتَشْرَبَ أنْعَامُهُمْ وَدَوَابُّهُمْ مِنْها.

• ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾: أي: وَوَجَدَ مُوسَىٰ مِنْ خَلْفِ الأمَّةِ مِن النّاس الّذين يَسْقُونَ، امْرأَتَيْنِ تَدْفَعَانِ وَتُبْعِدَانِ أنْعَامَهُمَا عَنِ الماء.

﴿مِن دُونِهِمُ﴾: المرادُ هُنَا: مِنْ خَلْفِهِمْ، وهذا من معاني استعمال كَلِمَةِ «دُون».

﴿تَذُودَانِۖ﴾: أي: تَدْفَعَانِ وَتُبْعِدَانِ أنْعَامَهُمَا عَن الماء، والظَّاهِرُ أنَّها كانَتْ أغْنَاماً، حُذِفَ المفْعُولُ بِهِ إيجازاً لِلْعِلْمِ بِهِ من الْقرَائن.

يقالُ لغة: «ذَادَهُ، يَذُودُهُ، ذَوْداً، وذِياداً» أي: دفَعَهُ وَأبْعَدَه، ومِنْهُ ذَوْدُ الدَّوابّ عن الموارد.

• ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾: أي: قال مُوسَىٰ للامْرَأتين: مَا شأنُكما وَمَا

حَالُكُمَا الَّذِي جَعَلَكُمَا تَذُودَانِ أنْعَامَكُمَا عنِ الماء، ولا تُشَارِكان الأُمَّةَ بِسَقْيِ أنْعَامِكُمَا مِنَ الماء. **الخطب**: الشأنُ والحال.

• ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

قرأ أبو عمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعْفر: [**يَصْدُرَ**] مِنْ فعل: «صَدَرَ يَصْدُرُ» أي: انْصَرَفَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**يُصْدِرَ**] من فِعْل «أَصْدَرَهُ» أي: حتَّىٰ يَصْرِفُوا مواشِيَهُمْ من بَعْد أن يَسْقُوها.

يقال لغة: «صَدَرَ الرِّعاء» أي: انْصَرَفُوا. ويُقَالُ: «أَصْدَرَ الرِّعَاءُ دَوَابَّهُمْ» أي: سَقَوْها وَصَرَفُوها.

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وفيهما تفنُّن.

﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ جمْعٌ مُفْرَدُه «الرَّاعي» وهو مَنْ يحفَظُ الماشية ويَرْعَاها، ويُجْمَعُ أيْضاً على «رُعَاةٍ» و«رُعْيان».

والمعنى: لَا نُزَاحِمُ النَّاسَ في سَقِيِ مُوَاشِينَا أدباً وحَيَاءً، بَل نَنْتَظِرُ حتَّىٰ ينْتَهِيَ الناسُ مِنْ سَقِيِ مواشِيهم ويَنْصَرِفُوا، وبَعْدَئِذٍ نَسْقِي مواشِيَنَا.

والسَّبَبُ في قيامِنَا بوظيفَةِ سَقْيِ مواشي أَبِينا، أنَّهُ ليْسَ لَنَا إِخْوَةٌ ذُكُورٌ لِلْقِيام بهٰذِهِ الوظيفةِ، وأبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَرِدَ الماءَ ويَسْقِي مَواشِيه.

اعْتِذَارُهُما عَنْ أبِيهما دَلَّ علىٰ أنَّهُ لَا يُوجَدُ في أُسْرَتِهما ذَكَرٌ غَيْرُهُ يَسْقِي مَواشِيَه، وهُو شيخٌ كبير عَاجز عن القيام بهٰذِهِ الوظيفة.

قول الله تعالى:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَدَفعَتْ موسَىٰ الأرْيحيَّةُ والشهامَةُ والرَّغْبَةُ في فعل الخيْر ومُسَاعَدَةِ المرْأتَيْن الضَّعيفَتَيْن، فَسَقَىٰ لَهُما مَواشِيَهما، إذ صَارَ يَسْتَخْرِجُ الماء من البئر بالدّلَاء، ويَصُبُّ في الأجْرانِ، فتشْرَبُ مَاشيَتُهما.

جاء عند المفسّرين أقْوال لَيْسَ لها سَنَدٌ عنِ الرَّسُولِ ﷺ، منها ما يلي:

• سَارَ مُوسَىٰ عليه السَّلام مِنْ مصر إلى مَدْيَنَ لم يأْكُلْ إلَّا الْبَقَلَ وورق الشجر، حتَّىٰ لصِقَ بَطْنُهُ بظهره من الجوع، وإنَّ خضرة الْبَقْلِ لتُرَىٰ مِنْ داخِلِ جَوفه.

• وكان يَمْشِي حَافِياً، وسقَطَتْ نَعْلَا قَدَمَيْهِ من الْخَفَاء.

• وكانَ لِبئْرِ مَدْيَنَ غِطاءٌ حَجَرِيٌّ عَظِيمٌ، وكان الرِّعاء إذا فرغوا من وِرْدِهِمْ وَضَعُوا هذا الغطاء الحجري على فَم البئر، وكَانَ لاَ يَرْفَعُهُ إلَّا عَشَرَةُ رجال، فَرَفَعَهُ مُوسَىٰ وَحْدَه، ثمَّ رَدَّهُ إلى ما كان عليه بَعْدَ أَنْ سَقَىٰ لهما. وكانت المرأتان تسْقيان أغنامهما في فَضْلِ أغْنَامِ الناس.

وإذْ لَا تُوجَدُ أسَانِيد تُصَحّحُ هٰذِهِ الأقوال فَلَا دَاعِي لاعْتِمَادِهَا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾: أي: وبَعْدَ أَنْ سَاقَتِ المرْأتَانِ أغْنَامَهما، وابْتَعَدَتَا في اتّجاه دار أبيهما في مَدْيَن، إذْ كانت البِئْرُ في خارج مساكِنِ البلْدَة، وكان مُوسَىٰ يَتَجَوَّلُ في الشَّمْسِ حَوْلَ البِئْر، قَسَىٰ عليه حَرُّ الشَّمْس قَليلاً فَاخْتَارَ أَنْ يَجْلِسَ في ظلّ شجَرَةٍ ليسَتْ قَرِيبَةً من الماء.

دلَّ حَرْفُ «ثُمَّ» على تراخٍ زَمَنِيّ بَيْنَ عَمَلِهِ المبرور وبَيْنَ لُجُوئِهِ إلى ظِلّ الشجرة، ونَدرِكُ أَنَّ المرأتَيْنِ قَدِ ابْتَعَدَتَا بأغْنَامِهِما عن مَكَانِ البئر في اتّجاه مَسَاكِنِ مَدْيَنَ في هٰذِهِ المدَّة.

﴿تَوَلَّىٰٓ﴾: أي: ابْتَعَدَ عَن مَكانِ الْبِئْرِ ليَجلِسَ في ظِلّ شَجَرَةٍ ذاتِ ظِلّ.

فالمعْنَىٰ: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخيَةٍ نسبيّاً، ابْتَعَدَ عَنْ مَكانِ البِئْرِ، وأوَىٰ إلى ظِلّ شَجَرةٍ ذاتِ ظِلٍّ، ليْسَتْ قَرِيبةً من البئر بدليل فعل ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أي: ابْتَعَدَ، ورُبّما أَدْبَرَ أيْضاً، أي: أعْطَىٰ ظَهْرَه إلى جِهَةِ الْبِئْر، وجَعَلَ وجْهَهُ في اتّجاه مساكِنِ البَلْدَة، إذْ لفظ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ يعطي أيضاً معنى أدْبر.

• ﴿...فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فحِينَ وَصَلَ إلى الشَّجَرَة وجَلَسَ في ظِلِّها سَأَلَ رَبَّهُ قَائِلاً: رَبِّ إنِّي لِمَا سَبَقَ أنْ أَنْزَلْتَ إلَيَّ من النَّجاةِ من الظالِمِينَ، والوصُول إلى مَاءِ مَدْيَنَ، والاسْتِظْلَالِ آمِنًا في ظلِّ هٰذِهِ الشَّجَرةِ، قَدْ كُنْتُ فقيراً، وفي هٰذا ثناءٌ عَلىٰ اللهِ بِمَا أَنْزَلَ إليْهِ من خَيْرٍ تفضُّلاً مِنْهُ وإنْعَاماً، وألْمَحَ بهٰذا الدُّعاء إلَىٰ فَقْرِهِ إلَىٰ مَا سَيُنْزِلُ اللهُ إلَيْهِ من خَيْرٍ يَتَرقَّبُ تَوَالِيَ حُصُولِه، ومِنْهُ تأمِينُ طَعَامِهِ وسَكَنِهِ، وتزويجُهُ من زَوْجَةٍ صالِحَةٍ عفيفَةٍ شَرِيفَةٍ تُعِفُّهُ وَتَكُونُ لَهُ سَكَناً.

الفقير: مَنْ كانَ ذَا حاجَةٍ إلَىٰ شَيْءٍ ما وهُوَ غَيْرُ واجِدٍ لَه.

وفي الكلام مطويٌّ يَسْهُلُ إدْراكه، وهو أنَّ المرأتَيْن وصَلَتا إلى أبيهما وأخبرتاه خَبَرَ الرَّجُلِ الذي سَقَىٰ لَهُما، وليْسَ هو من أهل مَدْين، بل هو رجلٌ غريب.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: أي: فَعقِبَ دُعائِهِ رَبَّهُ مُباشَرَةً، وجَدَ أَنَّ إحْدَىٰ المرأتَيْنِ قَدْ وَصلَتْ إلَيْهِ عَائِدَةً بِرِسَالةٍ كَلامِيَّةٍ مِنْ أبيها، ووَجَدَ أنَّها تَمْشِي مَشْياً رَفِيقاً قد انْضَمَّ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ، فَكَأَنَّها عَلَىٰ مَطِيَّةٍ

اسْتِحياء، خجَلاً من أنْ تَأْتِي وَحْدَهَا وَتُكَلِّمَ رَجُلاً لَيْسَ مِنْ مَحَارِمها.

• ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: هـذه هـي الرِّسَالَةُ الكلاميَّة مِنْ أَبِيها الَّتي أَبْلَغَتْهُ إيَّاها.

• ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾: أي: أُؤَكِّدُ لَكَ أنَّ أَبي الَّذِي ذكرنا لَكَ سَابقاً أنَّهُ شيْخٌ كَبِيرٌ، يَطْلُبُ مِنْكَ بشِدَّة أنْ تَأْتِي إِلَيْهِ.

• ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: أي: لِيُكَافِئَكَ عَلَىٰ عَمَلِكَ الَّذي سَقَيْتَ لَنا بِهِ مَا شِيَتنا.

فاستجاب مُوسَىٰ عليه السَّلام لِدَعْوَةِ أبيها، ومشَىٰ مَعَها فِي اتّجاه مَسَاكِنِ مَدْين.

ذكر المفسّرُون أنَّ مُوسَىٰ ولم يَكُنْ بَعْدُ نَبِيًّا طَلَبَ من هـٰذِهِ المرأة أنْ تَمْشِي وراءَهُ، وأنْ تَصِفَ لَهُ الطَّرِيقَ، لئلَّا تُصِيبَ الرِّيحُ ثيابَها فَتَصِفَ لَهُ جَسَدَهَا، وهذا من أدَب وعِفَّةِ فُضَلَاءِ الرِّجال.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾: أي: فَلَمَّا جاءَ مُوسَىٰ أباهُمَا الشيْخَ الكَبيرَ وأكْرَمَهُ، وَقَصَّ عليه موسَىٰ الْقَصَصَ الَّتي جَرَتْ لَهُ في مِصْرَ مُنْذُ مِيلاده حتَّىٰ خُرُوجه من مصْر، ممَّا هُو ذُو شأنٍ يُذْكَرُ ويُرْوَىٰ، ولا أرَىٰ أنّه اقتصر عَلَىٰ حادِثَةِ سُقُوط المصْرِيّ قتيلاً بوكْزَتِهِ له.

﴿ٱلۡقَصَصَ﴾: مَصْدَرُ «قَصَّ» يقالُ لغة: «قَصَّ الشّيْءَ قَصًّا وَقَصَصاً» أي: تتَبَّعَ أثَرَهُ شيئاً فشيئاً. ويُقالُ: «قَصَّ عَلَيْهِ الخبَرَ قصًّا وَقَصَصاً» أي: حَدَّثَهُ به على مَا تَحَمَّلَهُ.

أُطْلِقَ الْقَصَصُ الذي هو مَصْدَرٌ، وأُرِيدَ بِهِ اسْمُ المفْعُولِ وهُوَ النَّبَأُ الْمَقْصُوص، و«ال» في لَفْظِ «الْقَصَص» تُشْعِرُ بالمقْصُوصِ ذِي الشَّأْنِ الذي يَحْسُنُ ويُفِيدُ عِنْدَ عُقَلَاءِ الرِّجالِ التحدُّثُ به وتَتَبُّعُ أحداثه.

• ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾: أي: قال الشيخ أبو المرأتين لموسَىٰ: لاَ تخَفْ مِنْ جُنود السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنيَّة، فَنَحْنُ فِي مَدْيَنَ تَقعُ خَارِجَ سُلْطة فِرْعَوْنَ وَنِظَام حُكْمِهِ. وبِوُصُولِكَ إلى هٰذِهِ الأرْض نَجَوْتَ مِن الْقَوْمِ الظَّالِمينَ، فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِهِمْ في أرْضِ مِصْر.

مَنْ هُو الشَّيْخُ أبو المرأتين من أهْلِ مَدْين؟

• جاء عند جمهور المفسّرين أنَّه شُعَيْبٌ الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلام، وليْسَ لهَذَا القول سنَدٌ يَرْفَعُهُ إلى الرسُول ﷺ.

• وقيل: اسْمُهُ شعيب على اسم الرَّسُول شعيب عليه السَّلام.

• وقيل: هو ابْنُ أخِي شعيب عليه السَّلام.

• وقيل: هو ابْنُ عَمِّهِ.

• وقيل: هو رَجُلٌ مُؤْمِنٌ من قَوْمِ شعيب.

أقول: جاء في الإصْحاح (٢) من سِفْر الخروج عند أهْلِ الكتاب أنّ اسْمَهُ «رَعُوئِيل» فقرة (١٨).

وجاء في الإصحاح (٣) من سفر الخروج أنّ اسْمَهُ «يَثْرُونَ» وأنَّه كَانَ كاهِنَ مَدْيَان. فقرة (١).

وجاء في كتاب قاموس الكتاب المقدّس: أنَّ «يَثْرُونَ» معناه: فَضْل، وأنَّ «رَعُوئِيل» معْنَاهُ: صَدِيق، أو خَلِيلُ الله. قالوا: ويظهر أنَّ هذا الاسْم كان اسْمَهُ الشخصيّ، وأنَّ «يَثْرُونَ» لَقبُ شَرَفٍ أُطْلِقَ عليه.

والّذي أرَاه أنَّه لا داعِيَ لاعْتِمَادِ قَوْلٍ بِعَيْنِه، وعلى الرُّغْم ممَّا عنْدَ أهْل الكتاب من أغالِيط كثيرة، فلا مانع عقلاً من أن يكون هذا الرجُل «رَعُوئيل» وأنّ لفظ «يَثْرُونَ» لَقَبُ شَرَفٍ أُطْلِقَ عليه، وأنَّه كان كاهِنَ «مَدْيَان» أي: كان ذَا رِياسَةٍ دينيَّة في قومِهِ، علَى مِلَّة الرَّسُولِ شُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلام.

قول الله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾:

الظاهر أنَّ هـٰذِهِ المرأةَ هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ وَأَبْلَغَتْهُ رِسَالَةَ أَبِيهَا، ودَعْوَتَهُ لَه.

أي: سَأَلَتْ أَبَاهَا أَنْ يَسْتَأْجِرَهُ لِيَرْعَىٰ غَنَمَهُ، وَيَقُومَ عَلَىٰ حفْظِهَا وَخِدْمِتها، فيَحْمِلَ عَنْهَا وَعَنْ أُخْتِهَا هـٰذا الْعِبْءَ.

وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بالْقُوَّةِ الْجَسَدِيَّة، وبالأَمَانَةِ النَّفْسِيَّة، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الثَّنَاءِ العِبَارَةُ الَّتِي جاءَتْ بأسْلُوبٍ كِنَائيٍّ: ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: إنَّهُ قَوِيٌّ أمِينٌ، وإنَّهُ خيْرُ مَنْ تَسْتَأْجِرُ إذا أَرَدْتَ أنْ تَسْتَأْجِرَ أَجِيراً عِنْدَكَ.

أمّا قُوَّتُهُ الْجَسَدِيَّة فَقَدْ رَأَتْ أَثْرَهَا في اسْتخراجِهِ الماءَ بالدِّلَاءِ من الْبِئْرِ بقُوَّةٍ وَهِمَّةٍ، عَلَىٰ الرُّغم مِنْ قُدُومِهِ إلى مَدْيَنَ مَاشياً على قَدَمَيْهِ مِنْ مِصْر. وأمَّا أَمَانَتُهُ فَقَدْ رَأَتْ آثَرَهَا في اختياره أن يَمْشِيَ أمَامَها إلى مَسْكَنِ أَبِيهَا حَتَّىٰ لَا تَصِفَ الرِّيحُ الّتي قَدْ تضْغَطُ على ثيابها جَسَدَها.

فَلَمَّا عَلِمَ «يَثْرُونَ» أخْبَارَ مُوسَىٰ في مِصْر، واسْتَوْثَقَ من ابْنَتِهِ أنَّهُ قَوِيٌّ أمِين.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

إذا كان للرَّجُل بَنَاتٌ أُخْرَيَاتٌ غَيْرُ هَاتَيْنِ البِنْتَيْن، فالأُخْرَيات إمَّا أنْ يَكُنَّ مُتَزَوّجات، وإمَّا أنْ يَكُنَّ صَغِيراتٍ، ولهـٰذا جاءت عبارة الْعَرْضِ خاصَّةً بإحْدىٰ ابْنَتَيْهِ، وَأشَار إلَيْهِمَا بِاسْمِ الإشَارَة هَاتَيْنِ لِيَسْتَبْعِدَ غَيْرَهُمَا.

وهٰذا دأبُ عُقَلاءِ الرِّجَال، أنْ يَخْتَارُوا هُمْ أزْوَاجاً أكْفِيَاءَ صَالِحِينَ لبَنَاتِهم، ولَيْسَ في مِثْل هٰذا الطَّلَب وإبْدَاء الرَّغْبَةِ منقصَةٌ لهم، بَلْ فيها مُرُوءَةٌ وقُوّة إرادَةٍ وحُسْنُ تَدْبير.

وجَعَلَ مَهْرَ مَنْ يَخْتَارُهَا مِنْهُمَا زَوْجَةً لَهُ أنْ يَكُونَ أجيراً عِنْدَهُ يَرْعَىٰ مَوَاشِيَهُ ومَصَالِحَهُ ثَمَانِي سِنِينَ، ورَغِبَ أنْ تَكُونَ عَشْراً عَلَىٰ سَبيل التَّفَضُّلِ مِنْهُ بسَنَتَيْنِ فَوْقَ حَقّ الْمَهْر، وقَدْ كانَتْ مُهُورُ الْبَنَاتِ علَىٰ مِثْلِ هٰذا الاسْتِئْجار مِنَ الْأُمُور الْمُعْتَادَةِ فِي الْأُمَم السَّابِقَةَ، فَقَال لَهُ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾: أي: فَهُوَ تَفضُّلٌ مِنْ عِنْدِكَ، لسْتَ مُلْزماً به.

وأبان لموسَىٰ أنَّهُ لَا يُرِيدُ بهٰذا الاستئجار أنْ يَشُقَّ عَلَيْهِ في الْعَمَلِ، فَيُحَمِّلَهُ مِنَ التَّكَالِيفِ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْهِ زَائِدَةٌ علَىٰ مَا هُوَ مَعْلُومٌ عُرْفاً من حُقُوقِ المسْتَأْجِرِ علىٰ الْأَجِيرِ عِنْدَه، وَوَعَدَهُ بأنَّهُ سَيَجِدُهُ إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحين.

• ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾: أي: علَىٰ شرْطِ أنْ تكُونَ أجِيراً لِي تَعْمَلُ بأمْري.

يُقال لغة: «أجَرَ فُلَانٌ رَبَّ عَمَلٍ يَأْجُرُهُ» أي: رَضِيَ أنْ يَكُونَ أجيراً لَهُ مُقَابِلَ أجْرٍ أوْ مَنْفَعَةٍ يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ قِبَلِ رَبّ العمل.

• ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾: أي: ثمانِيَ سنَوَات. **حِجَج**: جمع «حِجَّة» وهي تُطْلَق علَىٰ مَعْنَىٰ سنة، فيما تُطْلَقُ عَلَيْهِ، وهو المراد هُنَا.

• ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: أي: وما أريدُ باستئجاري لَكَ أن أُكَلِّفَكَ أعْمَالاً شَاقَّة عَسِيرة صَعْبَة. يُقال لغة: «شَقَّ الأمْرُ، يَشُقُّ، شَقًّا»، أي: صَعُبَ. ويُقَال: «شَقَّ فُلَانٌ علَىٰ فُلَانٍ» أي: أوقَعَهُ في المشَقّة، وهي العمل الصَّعْبُ الَّذِي فيه عناء.

أقول: وهٰذا يُعْتَبَرُ شَرْطاً مِنْ شُرُوط عَقْدِ الاستئجار للقيام بِعَمَل ما،

فإنْ خالَفَ المستأجِرُ، فحمَّلَ الأجيرَ عَمَلاً فِيه مَشَقَّةٌ بِحَسَبِ مُعْتادِ الناس، فلِلأجِير أنْ لا يَسْتَجِيبَ لِمُخالَفَتِه للشَّرْطِ.

• ﴿... سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: سَتَجِدُني إن شاء اللهُ في المستقبل وأنْتَ تَقُومُ بِخِدْمَتِي مِن المتَّصِفين بالصَّلاح، هذا وَعْدٌ مِنْهُ لموسَىٰ عليه السلام.

جاء لفظ «الصّالحين» في القرآن وصفاً للأنبياء والمؤمنين الذين يأمُرُون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويُسَارِعُونَ في الخيرات، وجاء أيضاً وصفاً للأوّابين الذين إذا عَصَوْا آبوا إلى اللهِ بالتوبة.

الصالح: هو مَنْ يتقي اللهَ في أعماله وتَصَرُّفَاتِه، وقد يزيد فيكونُ من الأبرار والمحسنين.

والتزمَ بالأدَبِ مع اللهِ إذْ وَعْدَ بما سَيَعْمَلُه مُسْتَقبلاً، فعلَّقَ الأمْرَ علىٰ مَشِيئةِ الله، وَهٰذا أمْرُ جاء التعليم القرآنيُّ بالْتِزَامِهِ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾.

إنَّ التَّعْلِيقَ على مَشِيئَة اللهِ بالنِّسْبَةِ إلى الأعمال المستقبليَّة، هو من مقْتَضَىٰ الأمُور الْعَقَدِيَّةِ، إذ المسْتَقْبَلُ غيبٌ ومَجْهُولٌ للإنْسان، فقد تقُومُ الموانِعُ فتمْنَعُ الإنسان من القيام بما وَعدَ به، وقد ينْزِل بالإنْسَانَ العجز، وقَدْ تَنْزِلُ بِهِ مَنِيَّتُه، ولهذا قالَ الله عزّ وجلّ في سورة (لُقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿... وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾:

❁ ❁ ❁

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾.

تمهيد:

اشْتَمَلَتْ هٰذِهِ الآيات عَلَىٰ لَقَطاتٍ من فَصْلِ خروج موسَىٰ بأَهْلِهِ مِنْ مَدْين، عازماً الْعَوْدَةَ إلى مِصْر، ومَا جرى لَهُ في طَرِيق العودة، من مكالمَةَ اللهِ لَهُ بجانب جبَلِ الطّور، واصطِفَائِهِ بالنُّبُوَّة، وبرِسالَةٍ عُظْمَىٰ.

وسبق لدى تدبّر سورة (طـه) تدبُّر تكامُليٌّ بيْنَ هذا النصَّ وبين ما جاء حول مضمونه في سورة (طـه) وفي غيرها من السّور، فلا داعي هُنَا إلى إعادة النظرات التكامليَّات بَيْنَه وبين النصوص الأخرىٰ الّتي تتعلّق بما جاء فيه، وأقتصر هنا على التدبُّر التحليليّ لهذا النصّ.

التدبّر التحليليّ:

قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَة علىٰ خَمْسِ قَضَايا:

القضيَّة الأُولى: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ رَضِيَ بِعَرْضِ شيخ مَدْيَن «يَثْرُون» وتَزَوَّجَ البِنْتَ الَّتِي اخْتَارَهَا من ابْنَتَيْهِ عَلَىٰ الشَّرْط الَّذِي عَرَضَهُ عليْهِ أبوها.

قالُوا: واسْمُها «صَفُّورَة» على مَا جاء عند أَهْلِ الكتاب في سفر الخروج.

وهٰذِهِ القضيَّةُ تُفْهَمُ باللُّزُوم الفِكْري، إذْ لَا يَقْضِي أجَلَ استئجارِه مهراً لِزَوْجَتِه مَا لم يَكُنْ وافق على الْعَرْضِ، وتَزَوَّج، وأدَّىٰ الخِدْمَةَ المطْلُوبَةَ، وانْتَهىٰ أَجلُها.

القضيَّةُ الثانِيَة: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام وَفَّىٰ الخِدْمَةَ لِوَالِدِ زَوْجَتِهِ، حتَّىٰ غايَةِ أجلِهَا المحدَّد، دَلَّ عَلَىٰ هٰذِهِ القضيَّةِ قولُ اللهِ عزّ وجلّ في الآيَة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: أي: فَلَمَّا قَام بالْخِدْمَةِ عَلَىٰ الوجْهِ المطْلُوب الْمُرْضِي لوالِدِ زَوْجَتِه، وأنْهَىٰ الْأَجَلَ الْمُحَدَّدَ بالشَّرْط.

وهُنا يَرِدُ سُؤال: وهو أنّ الأجَلَ قَدْ كَانَ مُتَرَدّداً بَيْنَ واجبِ وتَطَوُّع من عند موسى، فالواجب ثَمَاني سَنَوات، والتطوُّعُ سَنَتانِ زيادَةً عَلَيْهَا يَتَطَوَّعُ بِهَا مُوسَىٰ مِنْ عِنْدِهِ بِرّاً بِوَالِدِ زَوْجَتِهِ.

فأيّ الأجَلَيْنِ قضَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام؟.

أقول: لَقَدْ جاء في رِوايات مُتَعَدِّدَاتٍ عن الرَّسول ﷺ يُقَوِّي بَعْضُها بعْضاً، أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام قَضَىٰ أَبَرَّ الْأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُما.

وهٰذا هو المنتظر ممَّن هو دُونَ موسَىٰ عقلاً وحِكْمةً وفَضلاً، فكَيْفَ به؟!

وجاء في الأصحاح الثاني من سفر الخروج عند الإسرائيليين: أنَّ مَلِكَ مِصْرَ الّذِينَ كان يَقْسُو على بني إسرائيل بالاستعباد والإذْلَال، قَدْ ماتَ أثْنَاءَ وجود مُوسَىٰ في «مَدْين» وخَلَفَهُ من آلِهِ غَيْرُهُ.

ولعَلَّ هٰذا قَدْ حَرَّكَ عاطِفَةَ مُوسَىٰ أنْ يَعُودَ إلَىٰ قَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيل في مصر، ولا سيما كونُهُ قَدْ قَضَىٰ أجَلَ الخِدْمَةِ واجِبَهَا وتَطَوُّعَها، فَعزَمَ على الْعَوْدَةِ بأهْلِهِ إلَىٰ مصر.

قالوا: ولمَّا عَزَمَ علَىٰ الْعَوْدَةِ بأهْلِهِ إلَىٰ مِصْر، أعْلَمَ زَوْجَتَهُ بعَزْمِهِ، وطلَبَ مِنْهَا أنْ تَسْأَلَ أبَاهَا أنْ يُعْطِيَها مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ به.

فأخَبرَتْ أبَاهَا بالأمْرِ، وسَألَتْهُ أنْ يُعْطِيَها مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ به، فقال لها: لَكِ من غَنَمِي في هٰذا الْعَام مَا وَلَدَتْ مِنْ قَالِب لَوْن، أي: من لَوْنٍ مُخَالِفٍ لَوْنَ أُمِّه، كولَدِ أسْودِ الصّوف، من أُمٍّ ذاتِ صوف أبيض، أو العكس، وكانَتْ غَنَمُهُ سَوْداءَ حِسَاناً.

قَالُوا: فَوَضَعَتْ كُلُّها بقضاء الله وقَدَرِهِ قَوالِبَ ألوان، فكانت من حظِّ «صَفُّورَة» وحينَ انْطَلَقَ موسَىٰ مُتَوَجِّهاً شَطْرَ مِصْرَ سَاقَ هـٰذا القَطِيعَ من الغَنمِ المواليدِ مَعَه.

القضية الثالثة: أنّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام سَارَ بأَهْلِهِ مُتَوَجّهاً شَطْرَ مِصْر، مُفَارِقَاً أرْض «مَدْيـن» دلَّ عليـهـا قـول الله عزّ وجلّ في الآيـة: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: أي: فلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ الأوْفَىٰ وعزَم على العودَةِ بأهْلِهِ إلى مصر، وسَارَ بأهْلِهِ متَّجِهاً شَطْرَ مصْرَ حيْثُ قَوْمُه بَنُو إسْرَائيل.

الباء في ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾ للمصاحَبَة، أي: سَارَ مُصَاحِباً أهْلَه.

القضيَّة الرابعة: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام آنَس وهُوَ يَسِيرُ بأهْلِهِ ليلاً عَنْ بَعْدٍ نَاراً تتعَالَىٰ ألْسِنَةُ لهَبِهَا في الْجوّ، وكان الْبَرْدُ شديداً، ولَمْ يَقْدَحْ زِنَادُهُ لإيقادِ نَارٍ للاسْتِدْفَاءِ بها، وكَانَ الطّرِيقُ السّوِيُّ إلى مِصْرَ غَيْرَ وَاضِح، وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ آنَس نَاراً قول اللهِ عزّ وجلّ في الْآيَة: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾: أي: وحِينَ قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بأهْلِهِ مُتوجِّهاً شَطْرَ مِصْر، أنَسَ وهو يَسِيرٌ علىٰ الطَرِيق نَاراً تَلْتَهِبُ مُتَصَاعِدَةً مِنْ جَانِبِ الطُّور.

- ﴿ءَانَسَ﴾: أي: أَبْصر، يُقَالُ لغة: «أنَسَ الشَّيْءَ» أي: أَحَسَّ به. ويُقَالُ: «آنَسَهُ» أي: أبْصَرَه، أو عَلِمَهُ إذَا كانَ ممَّا يُعْلم، أوْ سَمِعَهُ إذا كان ممَّا يُسْمَع.

- ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: أي: من ناحِيَةٍ وَجِهَةٍ وَمَكَانٍ قَرِيبٍ من جَبَلِ الطّور. ويُسَمَّى عند الإسرائيليين: «جبل الله حُوريب».

- ﴿نَارًا﴾: أي: شيئاً مُشْتَعِلاً علىٰ شكْل نارٍ. قَالُوا: ولم تَكُنْ في الحقيقة ناراً، وإنَّما كانَتْ نُوراً علَىٰ شَكْلِ نَارٍ ذَاتِ لَهَب.

القضية الخامسة: أنَّهُ طَلَبَ مِنْ أَهْلِهِ زوْجَتِهِ وَوَلَدَيهِ ورُبّما كان معَهُمْ خادِمُهُمْ، أنْ يَمْكُثُوا لِيَذْهَبَ إلَىٰ جِهَةِ النَّار، راجياً أنْ يُحقِّقَ أَمْرَيْنِ أوْ أَحَدَهُما:

الأَمرُ الأول: أنْ يَسْتَفِيد خبراً من أهل النار عن أيْسَر وأقْرَبِ طَرِيقٍ مُوصل إلى مصر.

الأمر الثاني: أنْ يأتي بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ يُوقِدُونَ بها حطباً بغْيَةَ أَنْ يَسْتَدْفِئُوا مِنَ الْبَرْد.

دلَّ على هـٰذِهِ القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿...قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ لفظ «الأهل» يُطْلَقُ على الأقارب، والعشيرة، والأصحاب، والزّوجَةِ. وأهْلُ الدَّراهم سُكّانها.

• ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: **الْمُكْثُ**: التَّوَقُّفُ، والانتظار، والتمَهُّل، يقالُ لغة: «مَكَثَ بالمكان، يَمْكُثُ، مُكْثاً، وَمَكْثاً، ومُكُوثاً» أي: توقّف، وانتظَرَ، وتمَهَّل.

﴿لَّعَلِّيٓ﴾: جاء بعبارة التَّرَجّي، إذْ لَمْ يَكُنْ جازماً بتحقُّقِ كلا الأَمْرَيْنِ أوْ أحَدِهِما. وكذلك: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: أي: أتوقَّعُ دُونَ جَزْمٍ أنْ آتِيَكُمْ إذا ذَهَبْتُ إلى جهة النار وعُدْتُ، بخَبَرٍ عن أَيْسَرِ طَريق وَأَقْرَبِهِ مُوصِلٍ إلىٰ مصر، أو بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ لِتُوقِدُوا مِنْها حَطباً رجاء أنْ تَسْتَدْفِئُوا بناره.

الجذْوَة: مُثَلَّثَة الجيم في اللّغة، وهي الْجَمْرَة الملتهِبَة.

﴿تَصۡطَلُونَ﴾: أي: تَسْتَدْفِئُونَ، وهذه العبارة تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُمْ كانُوا يُعَانُونَ مِنْ شِدّةِ الْبَرْد.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٠)﴾:

أي: فلمّا أَتَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام النَّار، إذْ صار قَرِيباً من الْمَكانِ الّذِي آنَسَهَا فيه، نُودِيَ مِنْ قِبَلِ اللهِ عزّ وجلّ بِنِدَاء عَالٍ يَسْمَعُهُ، وقَدْ حَصَلَ هٰذا النداء قَبْلَ أنْ يُقَرِّبَهُ اللهُ نجياً، فَيُنَاجِيَهُ دُونَ رَفع صَوْت كما جاء في نصٍّ آخر.

• ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: شَاطِىء الوادي الأيْمَن هُو جَانِبُ الطُّور الأيمن، فشاطىء النهر، أو شَاطىء الوادي، هو جانبه.

ونفهم أنّ شَاطِىء الوادي الواقِعَ إلى جَانِب الْجَبَلِ هو أسْفَلُ الْجبَلِ الملاصِقُ للْوَادِي.

وَوُصِفَ بالأَيْمَنَ، لأنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ مُتَوَجِّهاً بوَجْهِهِ لِمنْطِقَةٍ وُسْطَىٰ مِنْ جَبَلِ الطور.

• ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

الْبُقْعَة: هي القطْعَةُ من الأرض المتميِّزَةُ ممَّا حَوْلَها.

الْمُبارَكَة: أي: الَّتِي جَعَلَ اللهُ عزّ وجلّ فيها البركة، وهي الزيادة والنماء من الخير.

مِنَ الشَّجَرَة: أي: من حُدودِ الشَّجرة وامْتِدَادَات جُذُورها وفُرُوعها، إذْ جَعَلَهَا اللهُ مُباركةً، وهي الّتي رأى موسى عليه السَّلام منها النار ساطعةً، ولم تكن ناراً لاهبة، وإنما كانت نوراً على صُورَةِ نار.

سمَّىٰ الإسْرَائِيليُّون هـٰذِهِ الشجرة في الأصحاح الثالث من سفر الخروج «عُلَّيْقَة» وظنّ بعْضُ باحِثِي أَهْل الكتاب أنّها من شَجَر «السَّنْط».

﴿...أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَن﴾: حرف تَفْسير للمقُول في النداء.

• ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: أُؤَكدُ لَكَ يا مُوسَىٰ ما أقولُ لَكَ، أَنا اللهُ الَّذي تُؤْمِنُ به، أَنْتَ وآباؤُكَ المؤْمِنُون الموحِّدُونَ، وأنا رَبُّ الْعَالَمِين جميعاً.

رَبُّ العالَمين: أي: خالِقُ الكائنات كلّها، والمتصرّفُ فيها بحكْمَتِه دواماً، وبسُلْطانِ رُبُوبيّته الشامِلَةِ لكلّ مَا في الكوْنِ من حوادث وتَصارِيف.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ «أَنْ» هُنَا مثل «أَنْ» في [أَنْ يَا مُوسَىٰ] حَرْف تفسير لِلْمَقُول في النداء.

• ﴿أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾: أي: ادْفَعْها مِنْ يَدِك إلَىٰ الأرضِ رَمْياً.

• ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾.

﴿تَهْتَزُّ﴾: أي: تتحرَّكُ تَحرُّكاً سَرِيعاً.

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: جانٌّ: نَوْعٌ من الحيَّات، أكْحَلُ العيْنَيْن، يَضْرِبُ إلَىٰ الصُّفْرَةِ، كثير الحركة وسَرِيعها، يُجْمَعُ على «جِنَّان» و«جَوَانّ».

أي: كأنّها جَانٌّ في السُّرْعَةِ والحركة المخيفة، لا في سائر الصفات، لأنّ هذا الصّنف من الحيَّاتِ غَيْر مُؤْذٍ.

• ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: أي: انْهزَمَ مُبْتَعِداً، مُعْطِياً ظَهْرَهُ لِجِهَةِ العصا الّتي انقلَبتْ حَيَّةً مخيفةً تَسْعَىٰ.

وَلَّىٰ: أي: ابْتَعَدَ. مُدْبِراً: الإدْبار: إعطاء الدُّبرُ للشيء، فجمع موسَىٰ عليه السَّلام بيْنَ الابتعادِ وإعطاء الدُّبُر.

• ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾: أي: ولَمْ يَكِرَّ راجعاً، من شِدَّةِ خَوْفه علَىٰ نفسه. وكان هٰذا مِنْهُ بحَسَب طبيعَتِه الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْها، ذات الحِدَّة والسُّرْعَةِ في التنفيذ.

• ﴿... يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: يَـا مُوسَىٰ أَقْبِلْ كارّاً إلىٰ المكان الّذي فَرَرْت مِنْهُ خَوْفاً مِنَ الحيَّة، ولَا تَخَفْ أَنْ تُؤْذِيَكَ، إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ بِتأْمِينِ رَبّكَ لَكَ.

فكَرَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام رَاجعاً امتثالاً وطَاعَة لأمْرِ اللهِ له.

هـٰذِهِ العبارة جاءَتْ مُقْتَطَعَةً من الحدَثِ الماضِي اقتطاعاً، وهذا الاقتطاع من الْإِبْدَاعَاتِ الرائِعَاتِ في القرآن المجيد.

• ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ... ﴿٣٢﴾﴾:

أي: أدْخِلْ يَدَكَ في جَيْب ثَوْبِكَ وأوصلها إلى إبطِكَ أخذاً من نصٍّ آخر، وأخْرِجْها بَعْدَ ذَلِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً مُضيئَةً لَا بَرَصَ فيها ولا بَهَق.

من غَيْرِ سُوء: احتراسٌ من أَنْ يسْبِقَ إِلَىٰ الذِّهْنِ أنَّها تَخْرُجُ برصَاءَ أو مَعيبةً بعيبٍ آخر.

قالُوا: فإذا هِيَ تُضِيء كالْبَرْق.

﴿... وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ...﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على الرُّغم من إقبالِهِ وعَوْدَته إلى المكان الذي فَرَّ مِنْه، امتثالاً لأمْرِ رَبّه، وعلى الرُّغْم من أخْذِهِ الحَيَّة الّتي عادَتْ عِنْدَ أخْذِهِ لها سِيرَتَها الأولى، كما جاء في نصٍّ آخر، ما زَالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجَفاناً ميكانيكيًّا من تأثير الخوف السّابق، فَعَلّمَهُ اللهُ أنْ يضُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَىٰ إلى جانب جِسْمِه الأيْسَرِ، حَيْثُ قَلْبُهُ، لِيَسْكُنَ مِنْ أَثَرِ الرَّهَب الَّذِي كَانَ قَدْ أصَابَه.

جَنَاحَكَ: أي: يَدَكَ، تَشبيهاً لها بجناحِ الطَّائِرِ الذي يَضُمُّه إِلَىٰ جَسَدِهِ عنْدَ التوقُّف عن الطيران.

واخْتَرْتُ في الْفَهْم الْيَدَ الْيُسْرَىٰ لأنَّها الأقْرب إلى تَسْكِين رَجَفَان الجانب الّذي فيه الْقَلْب، وأمَّا الْيُمْنَىٰ فَقَدْ أمْسَكَ بها العصا.

أقول: إذا كان انقلاب العصا حيَّةً مُرْعِبةً، قَدْ أخَافت مُوسَىٰ وهو بين يَدَي رَبّه يُكَلّمه، ففرَّ منها، فكَيْفَ يَكُونُ حَالُ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه، حينَ إجْرَاءِ هـٰذِهِ الآيَةِ الرَّبَّانِيَّة أمَامَهُمْ؟!!

﴿... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَذَانِكَ﴾ الفاء عاطِفَة للتفريع على ما أجْرَىٰ الله عزَّ وجلَّ من آيتي الْعَصَا واليد. «ذَانِ» اسم إشارة للمثنَّىٰ المذكر. والكاف لخطاب المفرد المذكر، والمشارُ إليه آيَتَا الْعَصَا والْيَد.

﴿بُرْهَانَانِ﴾: مثنَّى بُرْهَان، وهو الْحجَّةُ البيّنَةُ الفاصِلَة، وجمعُهُ براهين.

أي: فذانِكَ الخارقَانِ العَجِيبَان، قَلْبُ الْعَصَا حيَّةً مُخِيفَةً، وقَلْبُ الْيَد السَّمْراءِ بيضاءَ تَبْرُقُ كالْبَرْق، هُمَا حُجَّتَان بَيِّنَتَان فاصِلَتَان، تُثْبِتَانِ لِفِرْعُونَ وَمَلَئِهِ وجُنُودِهِم وأتْباعِهم أنَّكَ رَسُولٌ مُرْسَلٌ من رَبّ الْعَالَمِين.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾: في هٰذِهِ العبارة بَيَانُ أن المرسَلَ إليهم أوّلاً فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه.

الملأ: أشراف القوم وسَرَاتُهُمْ وَسَادتُهُمُ الَّذِين يملَؤُونَ عُيون العامّة. ومَلَؤُ فِرْعَوْنَ وُزراؤه ومُسْتَشَارُوه، حاشية قَصْرِه، وكُبَرَاءُ المصْرِيين المسانِدُون والموالُونَ لِفِرْعون.

ولمَّا كان سائر المصْرِيّين يَوْمئذٍ تبعاً لِفِرْعَوْنَ وملَئِه، كانت رسالَةُ موسَىٰ وهارون مُوجَّهَةً لهم جميعاً.

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: أي: إنَّهُمْ كَانُوا زَمَناً طويلاً فاسقين، وما زالُوا على فسقهم، فدلّت هذه العبارة على الغرض من إرسالِه إليهم، وهو دعوتهم إلى دين الله الحق.

الفاسق: العاصي، الخارج عن الحق، والتارك لأوامر الله، المتعرِّضُ للفساد والإفساد.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

أبانَ مُوسَىٰ عليه السَّلام لربّه أنَّهُ يَخافُ أنْ يَقْتُلوهُ عِقاباً علَىٰ قَتْلِهِ للمصريّ قبْلَ خُروجه من مصر إلى مَدين.

وأبان لربّه أيْضاً أنّ في لسانِهِ عُقْدَةً تَجعَلُهُ غَيْرَ مِنْطِيقٍ فَصِيحٍ في بيانه، وأنَّ أخَاهُ هارُونَ أفْصَحُ مِنْهُ لِسَاناً، وسَأَلَ رَبَّهُ أنْ يَجْعَلَهُ نَبيًّا ورَسُولاً مَعَهُ يكُونُ لَهُ مُعيناً وَناصراً، وسَبَبا مُرَجّحاً في تَصْدِيق الْقَوْمِ له، فالرَّسُولَانِ معاً أقْوَىٰ في نظر الناس من رسُولٍ واحد.

﴿رِدْءًا﴾: **الرِّدْءُ**: هو في اللّغَةِ الْمُعِينُ والنَّاصر، والقوة والعِمَاد، يقال لُغَةً رَدَأَ الْبَنَّاءُ الجدارَ مثلاً، أي: دعَمَهُ وقوّاه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

الْعَضُد: هو من اليد ما بَيْنَ المِرْفَق إلَىٰ الكَتِف، وجمعه «أعْضَاد» وشَدُّ عضُدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام كنايَةٌ عَنْ تَقْوِيَتِهِ بأخيه، وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ ربَّه قَدْ آتَاهُ سُؤْلَه.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾: أي: ونَجْعَلُ لَكُمَا قُوَّةً غَيْبِيَّةً مَعْنَوِيَّةً تَحْجُزُ فِرْعَونَ ومَلأَهُ وجُنودَهُ عَنْ أنْ يَصِلُوا إلَيْكُمَا بما فيه ضُرٌّ أَوْ أذًى لَكُمَا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: فَلا يَصِلُون إلَيْكُمَا وُصُولاً بشيءٍ يَضرُّكُمَا أَوْ يُؤْذِيكما. وهٰذا المنْعُ يَكُونُ بما نُرِيهم مِنْ آياتِنَا الَّتِي نُخِيفُهُمْ بها، فيَحْذَرُونَ أنْ يَهْلِكُوا إذا مَكَرُوا مَكْراً للإضرار بِكُمَا، أو كادُوكُما كَيْداً يُؤْذِي أحداً مِنْكُما.

﴿... أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾: هـٰذا وَعْدٌ من اللهِ عزّ وجلّ لِمُوسَىٰ وهَارُون، بأنَّهما وَمَنِ اتَّبَعَهُما الْغَالِبُونَ، في نهايَةِ مَسِيرَتهما في دَعْوَتِهما لِفِرْعَونَ وَمَلَئِهِ وسَائِرِ المصْريين.

وقَدْ حَقَّقَ اللهُ عزّ وجلّ هـٰذا الوعْدَ في نِهَايَةِ مَسِيرتهما الدَّعَوِيَّة، فأغْرَقَ فِرْعَوْنَ ومَلَأه وجُنُودَهم في الْبَحْرِ، وكانوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

❀ ❀ ❀

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

تمهيد:

في هـٰذِهِ الآيات لقطات مختزلات جدًّا مِنْ قِصَّة موسَىٰ عليه السَّلام، في دعوته لفرعَوْن وملَئِه وجنودهم، ومكابرة فرعون وادّعائه الإلٰهيَّة لمِلَئِه، واحتياله ببناء صرح عالٍ ليَطّلِع إلى آله موسى في جِهَةِ السّماء، مع بَيَان اسْتِكْبَاره هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وبيانِ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعونَ

إلى ربّهم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الْجَزَاء، وبيان مصيرهم في الدنيا إذْ نَبَذَهم اللهُ في اليَم في الدُّنيا فأغرقهم، وأتْبَعَهُمْ فيها لَعْنَةً شنيعَةً، وقضىٰ أنْ يكونُوا في الآخِرَةِ من الَّذِين لَزِمَهُمْ قُبْحُ الْعَذَاب الأَبَدِي الْخَالد، وقُبْحُ أشكالهم في السّعير، إذْ يقَبِّح حَرِيقُ النّارِ أشكالَهُمْ.

وبيْنَ هذا النصّ ونصوص أخرى جاءت في القرآن المجيد تَكَامُلٌ، في بيان المراد بيانُهُ من هـٰذِهِ المرحَلَةِ من تاريخ موسى في مِصْرَ، بعد أَنْ جعَلَهُ اللهُ نبيًّا ورَسُولاً إذْ كَلَّمَهُ بجانب الطُّور وهُو عَائِدٌ بأهْلِه من مَدْيَنَ إلى مصر، والنَّظَرَاتُ التدبّريَّة التكاملية بين هذا النَّصِّ وبين غَيْرِه من النصوص قَد سبقت لدى تدبّر سورة (طـه).

ويُلاحَظُ أنَّ هـٰذا النصّ من سورة (القصص) قد دَلَّ على لقطاتٍ من أحداثِ المراحل الأخيرة للنشاط الدّعويّ الذي قام به موسىٰ عليه السَّلام في مسيرته الدَّعويّةِ، ويُلْحَقُ به أخوه هارون عليه السَّلام.

وهـٰذِهِ المراحل الأخيرة مَسْبُوقَةٌ بإجراء اللهِ عزّ وجلَّ الآياتِ التِّسْعَ كُلَّها الّتي آتاها اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام، لإقناع فرعَوْنَ فَمَنْ دُونَهُ بأَنَّهُ هو وأخُوهُ رسُولان حَقًّا وصِدْقاً من عند الله رَبِّ العالمين، وإقناعهم بأنَّ الدين الّذي جاءا به هو من عند الله حقًّا وصِدْقاً.

ولا بُدَّ أنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُما قَدْ اقْتَرَنَتْ بالإقناعاتِ الفكريَّة بأنّ لهذا الكَوْنِ رَبًّا يَتَصَرَّفُ بكُلِّ شيءٍ فيه وحْدَه، بصفات ربُوبيّته العظيمة، وأنَّهُ هُو الإلَه الّذي يجب أنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيك.

وإذْ سبَقَ التَّدبُّرُ التكامليّ لدى تدبّر سورة (طـه/ ٤٥ نزول) فإنّي أقتصر هُنا على تَحْلِيل فقراتِ هذا النصّ من سورة (القصص).

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى. . . ﴿٣٦﴾﴾ :

أي: فلمّا جاء موسَىٰ عليه السَّلام فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ سائر المصريِّين، باستثناء مَنْ كان يكْتُمُ إيمانَهُ، بآياتنا التِّسْع، حالة كونها بَيّنات واضِحَاتِ الدلالات على أنَّها من اللهِ رَبِّ العالين، وهي:

(١) آيَة العصا التي تنقلب ثُعْبَاناً مُرْهِباً.

(٢) آيَة اليد الّتي تنْقَلِب بيضاء لامِعَةً كالْبَرْقِ مِنْ غَيْرِ سوء.

(٣) آيَة الطوفان، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (٩) بيانُ أنّ اللهَ أمْطَرَ عَلَيْهم بَرَداً لم يَكُنْ مِثْلُه، فأهْلَكَ النباتات وبَعْضَ الحيوانات والناس.

(٤) آيَةُ الجراد، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (١٠) أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بجرادٍ يُغطّي وجْهَ الأرض، ويأكُلُ جميع الشَّجَرِ النَّابِتِ في الحقول. وأنّ ذَلِكَ قد حَصَلَ.

(٥) آيَةُ الْقُمَّل، وجاء في سفر الخروج (٨) أنَّ هارُونَ ضَرَبَ بالْعَصَا تُرابَ الْأَرْض، فَصار الْبَعُوضُ على النّاس والبهائم، وأنَّ مُوسَىٰ أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بالذُّبّان، فَخرِبت الأرْضُ من الذّبّان، وهو الذُّبَابُ المؤذي.

(٦) آيَةُ الضّفَادع: وجاء في سِفْر الخروج (٨) أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بالضفادع الّتي تَصْعَدُ وتَدْخُلُ في البُيُوت، وتكُونُ في كُلِّ مَخْدَعٍ، وعلَىٰ كُلّ سَرِير، وتَسْقُطُ في الأطْعِمَة، وقد حَصَلَ ذلك.

(٧) آيَة الدّم، وقد جاء في سفر الخروج (٧) أنَّ مُوسَىٰ وهارونَ ضربَ كلٌّ منهما المياه بالْعَصَا، فتَحوَّلَ كُلُّ الماء الذي في النيل وغَيْره دماً.

(٨) آيَةُ الرّجْز، وهو عذابٌ من الله أنْزَله بِفِرْعُوْن وملَئِه وقومه، كَأَمْرَاضٍ وأوجاعٍ لَا عْهَدَ لَهُمْ بِمِثْلها.

(٩) آيَة السنين، وهي سنوات مُجْدِبات، حصَلَ فيها نقْصٌ من الثمرات، وطَمْسٌ على الأموال، وضغْطٌ على القُلُوب.

وقد سبق في سورة (طه/ ٤٥ نزول) بيان أدِلَّةِ هٰذِهِ الآيات التِّسْعِ من القرآن الكريم.

• ﴿... قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى... ۝٣٦﴾: أي: مَا هذا الَّذِي جاء به مُوسَىٰ من آياتٍ. إلَّا ظَوَاهِرُ أَعْمَالٍ من أعمال السِّحْر، وادِّعَاؤُه أنَّها آيَاتٌ بيّنَاتٌ خَوارِقُ يُجْرِيها رَبُّ العالَمِينَ لَهُ ادِّعاءٌ مُفْتَرىٰ.

الافتراء: اختلاقُ الكذِب واصطناعُهُ عَنْ عَمْد.

• ﴿... وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾: أي: ومَا سَمِعْنَا بهٰذا الذي جاء به موسَىٰ وأخوه هارون، من توحيد الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الإلَٰهيَّة لموجُودٍ أزليٍّ أبَدِيٍّ واحد، في أخبَارِ آبائِنا الأوَّلِينَ السَّابقين، الَّذِينَ كانُوا على مِثْل ديننا.

فموسَىٰ وهارونُ قَدْ جَاءَا بدِينٍ لم يسْبِقْ لنَا بِه عِلْمٌ، أوْ خَبَرٌ متوارثٌ عن آبائنا، فَهُما مُفْتَرِيان علَىٰ الحقيقة، ولَيْسَا على هُدىً، ولَمْ يَأْتِيا كما يَزْعُمَانِ بالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِ خالِقِ الكَوْن، وادّعَاءاتهما عن الْبَعْث والحياة الأخرى، والجنَّةِ دار المؤمنين المتقين، وجهنَّم دار الكافرين المجرمين، ادّعَاءاتٌ باطلات مفترياتٌ على الحقيقة. وما نَحْنُ عليه وما وَرِثْناهُ عَنْ آبائنا هو الْهُدَى.

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧﴾:

قرأ ابْنُ كثير: [**قَالَ مُوسَىٰ**] بحَذْفِ حَرْف العطف، وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَقَالَ مُوسَىٰ**] بإثبات حَرْف العطف «الواو» وفي القراءتَيْن إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ يَحْسُنُ الْوَصْلُ بحرف العطف «الواو» باعتبار أنّ الموضوع

يتحدّث عن الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السَّلام، ويَحْسُنُ الفصل باعتبار أن موسىٰ عليه السَّلام كان يتحدَّثُ في أحوال مختلفة، دون أنْ يكون جواباً لمقالتهم.

وقد دلت هذه الآية على رَدّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام على فرعون وملئه، إذ قالُوا عن آيات الله التِّسْعِ الّتي أجراها الله له: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ وعلىٰ بيانه الذي كان يُكَرِّرُهُ في أواخِرِ مَسِيرتِهِ الدَّعَوِيَّةِ في مصر، وهذا الرَّدَّ قد اشتمَلَ عَلَىٰ ثلاث قضايا.

القضية الأولى: دلّت علَيْها عبارة: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو: [**رَبِّيَ أَعْلَمُ**] بفتح ياء المتكلم:

أي: رَبِّي الّذي هُو رَبُّ كلِّ صَغِيرٍ وكَبيرٍ في الكَوْنِ من أحياء وغير أحياء، أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِمَنْ جاءَ بالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِه، وبمَنْ هُو كَذّابٌ يَفْترِي عَلَيْه.

وبمَا أَنَّهُ كذلِكَ، وهو الّذي يُعَاقِبُ مَنِ افْتَرَىٰ عَلَيْهِ، ويُجازي مَنْ أَطاع والْتَزَمَ هُدَاه، ويُعَاقِبُ مَنْ عَصَىٰ وتمَرَّدَ علَىٰ طاعَتِه، فَلْيَرْتَقِبْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَّا عَاقِبَةَ أمْرِهِ في الدُّنيا، ثُمَّ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الدين.

القضيَّة الثانية: دلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**وَمَنْ يَكُونُ لَهُ**] بالياء، وهما وجهان عربيان جائزان:

عبارة: «عَاقِبَةُ الدّارِ» وعبارة: «عُقْبَىٰ الدَّارِ» قَدْ جاءَتَا في القرآنِ المجيد للدَّلَالَة على دَارِ النَّعِيم يوْمَ الدّين.

وقد جاء في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) تَفْسِيرُ «عُقْبَىٰ الدَّار» بأنَّها جَنَّاتُ عَدْن، فقال اللهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

لفظ «عَاقِبَة» ولفظ «عُقْبَىٰ» مترادفان في المعنى، وهُمَا بمَعْنَىٰ: آخِرِ أيّ شيءٍ وخَاتِمَتِه، وبمعْنَىٰ: جَزَاءِ الْعَمل أو الأمْر.

و«ال» في لفظ «الدَّار» هي للكمال، ومعلوم أنّ الدار الكامِلَةَ في العَاقِبَةِ الحسْنَىٰ هي جنَّاتُ عَدْنٍ، وأنَّ الدار الكاملَة في العاقِبَةَ السُّوأىٰ، هي دركاتُ عَذَاب الحَرِيق، في جهَنَّم دار عذَاب المجْرمين.

والإضافة في عبارة: «عَاقِبَةُ الدَّار» وعبارة «عُقْبَى الدّار» هي على معنىٰ: «في» أي: عاقِبَةٌ حَسَنَةٌ جدّاً في الدّار العظيمة الكامِلَةِ في صِفَاتِها، والتي هي جَنَّاتُ عَدْنٍ، ذواتُ الدَّرجَاتِ الرَّفيعاتِ في عُمُومِ الجنَّة.

القضيّة الثالثة: دلَّت عليها عبارة: ﴿... إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ (٣٧)﴾:

الفلاح: الْفَوْزُ، والنَّجاةُ، والظَّفَرُ، والْبَقَاءُ في السُّلْطان.

أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم الّذِي هُو مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده، أنَّ الظّالمين بالافتراء علىٰ الله، أو بجُحُودِ رُبوبيَّتِهِ وإلَٰهِيَّته، والتمَرُّدِ علىٰ طاعَتِه، لَا يَكُونُ لَهُمْ فَلَاحٌ في الدُّنيا، ولا يكون لَهُم فلاحٌ في الآخِرَة يَوْم الدّين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ الْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾:

هَامَان: يظْهرُ أنّه الوزيرُ الأوَّل، والْيَدُ الْيُمْنَىٰ لِفِرْعَوْنَ، وذُو السُّلْطان النافِذِ في مَمْلَكتِه.

• ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أي: فاتّخذ يا هامانُ وسائِلَك لِيُوقِدَ الْعُمَّالُ النَّارَ علىٰ اللَّبِنِ من الطِينَ لِيَصِيرَ آجُرّاً.

• ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾: أي: فأمُرُ الْبَنَّائِينَ بَعْدَ تَهْيِئَةِ الآجُرّ اللازم بِبناء صَرْحٍ شاهق لي، واتَّخذْ كُلَّ مَا يَلْزم لذلك.

الصَّرح: هو في اللُّغَةِ الْقَصْرُ العالي، والبنَاءُ الشَّاهِقُ الذَّاهِبُ ارتفاعاً في الْجَوّ.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾: أي: لِأَطّلِعَ. «لَعَلَّ» هُنَا بمعنَىٰ لَام التعليل.

وقرأ نافع، ابْنُ كثير، وأبو جَعْفر، وأبو عمرو، وابن عامر: [**لَعَلّيَ أطّلِعُ**] بفتح ياء المتكلم.

أطّلِع: أي: أنْظُر وأُشاهد. يُقَال لغةً: «اطُّلعَ إلى الشَّيْء» أي: تَطَلَّعَ وَنَظَرَ لِيَعْرِفَهُ.

أقول: كانَ الإلَـٰهُ المعْبُود في تصوّرهم هو الّذي يجبُ على النّاس طاعَة أوامرِه ونواهيِه، والّذي يجبُ على الشَّعْب أنْ يَخْضَعُوا لَهُ خُضُوعاً تَامًّا.

ويَكْتَسِبُ هـٰذا الإنسانُ إلَٰهِيَّتَه بِقُوَّةٍ وِرَاثِيَّةٍ مِنْ آبائِه وأجدادِه الآلِهَة، وتَكُون هـٰذِهِ الْقُوَّةُ المعْنَوِيَّةُ في ذَاتِ الْمَلِك، وتَمْنَحُهُ هـٰذا الحقَّ مَتَىٰ مَلَك، إذْ تَحُلُّ فِيه رُوحُ الإلَٰهِيَّةِ الَّتي كانت في آبائِهِ وأجْدَادِه. (هكذا كانت عَقِيدَتُهُم المفتراة).

وبما أنَّ فرعَوْنَ قَدْ كانَ هُو مَلِكَ مِصْرَ غَيْرَ مُنَازَع، فإنَّهُ لَا يَعْلَمُ أنَّ لِلْمَلأَ وهُمْ أعْيَانُ مَمْلَكَتِهِ مِنْ إلَٰهٍ غيره، تجب طاعَتُه، ويجب الخضوعُ له، وبما أنّه هو إلَٰه الأعيان فلا بُدَّ أنْ يكُون إلَٰهاً لكلّ مَنْ دُونَهُمْ من شعب مملَكَته.

وبهٰذا أعْلَنَ أنّه إلَه كلّ شَعْبِهِ من المصْريين، ويُلْحَقُ بهم الإسْرَائِيليُّون.

وإذْ يَدَّعي مُوسَىٰ أنَّ إلَهَهُ في السَّمَاء، فَٱبْنِ لي يَا وَزيري هامان، ويا سَاعِدِي الأيمن، صَرْحاً من آجُرٍّ، لأرْقَىٰ في طبقاتِ هذا الصَّرْح، لَعَلّي أُشَاهِدُ في الأجْوَاءِ الْعُلْيَا إلَه مُوسَىٰ، فإذَا لَمْ أجِدْ لَهُ وُجُوداً، فَمُوسَىٰ كاذِبٌ في ادّعاء أنَّ إلَهَهُ في السَّماء.

إنَّ فرْعَوْنَ يخْدَعُ شَعْبَهُ، إذْ يَزْعُمُ أنَّهُ إذَا بَنَىٰ بِناءً عَالياً شاهِقاً، وصَعَد إلىٰ أعْلاَهُ، فَلا بُدَّ أنْ يُحِيطَ نَظَرُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، فإذا لَمْ يَجِدْ إلَه مُوسَىٰ، فإنَّ هٰذا الإلَهَ لَا وُجُودَ لَهُ، ومُوسَىٰ كاذِبٌ في ادِّعائه.

ولا بُدَّ أنْ تكونَ جماهِيرُ شَعْبه يومَئِذٍ من السَّذاجَةِ وضَحَالَةِ الفِكْر في دَرَكَةٍ تجْعَلُهُمْ يقْبَلُونَ هٰذِهِ الخديعة الفِرْعَوْنيّة.

أمَّا أذْكياءُ شَعْبِهِ فقَدْ أغْرَقَهُمْ بالمنافع، فَهُمْ بخُبْثٍ يُؤَيّدونَ أقوالَهُ، مع علمهم بأنَّها بَاطِلَةٌ ساقطَةٌ لا قِيمة لَهَا، وهم بهٰذا يُشَارِكُونَهُ في خداع جماهير الشَّعْبِ المصْرِيّ السَّاذج.

وأحْكَمَ فِرْعَوْنُ خدِيعَتَهُ الّتي أراد تَرْويجها في شَعْبه، إذْ قال قَبْل بناءِ الصَّرْحِ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿...وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فأظْهَرَ بهٰذِهِ العبارة اهْتِمَامَهُ بالتَّعرّف على إلَه مُوسَىٰ، فلَمْ يَقُل: وإنَّهُ من الكاذبين، بلْ جعل ذَلِكَ احتمالاً ظَنِيّاً، وأنَّ مُراقَبَةَ السَّمَاء من أعْلَىٰ الصَّرْحِ تَكْشِفُ صِحَّةَ هٰذا الظَّنِّ أوْ عَدم صِحَّته.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: وامْتَنَعَ فِرْعَوْنُ عَنْ قَبُولِ الحقِّ مُعَانَدَةً وَتَكَبُّراً. وتكَبَّرَ تكبُّراً شَدِيداً.

الاسْتِكْبار: يأتي في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ الامتناع عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ معانَدَةً وَتكبُّراً. ويأتي بِمَعْنَىٰ التَّكبُّرِ بِشِدَّةٍ، أخذاً مِنْ دَلَالَةِ صيغَة «اسْتَفْعَل».

أي: وتكَبَّرَ فِرْعَوْنُ هُوَ وَجُنُودُهُ تَكَبُّراً شَدِيداً، وامْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ الحقّ الرَّبَّانيّ، بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُعْطِيهِم شيئاً قليلاً من الْعُذْر.

● ﴿...وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[لاَ يَرْجِعُونَ]** بالبناء لِلْمَعْلُوم. وبيْنَ القراءتَيْن تَكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المَرادِ بَيَانُه، أي: وظَنُّوا أنَّهم لَا يُرْجَعُون بإرْجاع الله لهم، فَهُمْ لَا يَرجعُونَ، هٰذا ظَنُّهُمْ، لكنَّهُمْ يُرْجَعُونَ فَيَرْجِعُونَ مُطَاوِعين قَهْراً.

أي: ولَمْ يَقْبَلُوا أنْ يُؤْمِنُوا بَنَبأَ الْبَعْثِ وَالجزاء في حياةٍ أخرَىٰ، بَعْدَ هٰذِهِ الحياة الدنيا، للحسَاب، وفَصْل الْقَضَاءِ، وتحْقِيقِ الجزاء، مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالمِينَ، معَ أنَّ هٰذا النَّبأَ مَقْرُونٌ بِحُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ بيِّنَةٍ، وآيَاتٍ إعْجازِيَّةٍ بَاهِرَةٍ، آتاهَا اللهُ عزّ وجلَّ مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السلام.

وكانَ ظَنُّهُمْ الّذِي اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ لإنْكارِ يَوْم الدّين، ظنّاً تَوَهُّمِيّاً باطلاً، يَتَخَيَّلُ أنَّ الحياةَ قاصِرَةٌ علىٰ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

● ﴿...فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ...﴾: أي: فجَعَلْنَا فِي نَفْسِهِ غيظاً يَدْفَعُهُ لاتّباع مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ بَنِي إسْرائيل بِجَيْشٍ قَوِيٍّ لمقَاتَلَتِهِمْ، وقَتْلِ كُبرائِهم، وإعَادَةِ سَائِرِ شَعْبِ بَنِي إسْرَائِيلَ عَبِيداً، وجَعَلْنَا فِي نَفْسِهِ الْخَوْفَ مِن عَوْدَةِ مُوسَىٰ بَعْدَ هٰذا الخروج بِجَيْشٍ مُقَاتِلٍ، وَزَيَّنا لَهُ تَكْوِينَ جَيْشٍ لِمُلاَحقَتِهِمْ وَقِتَالِهِم، واسْتَدْرَجْناهُمْ حَتَّىٰ دَخَلُوا مُلاحِقين الإسْرائِيلِيّين مِنْ مَكانِ الْفَلْقِ في الْبَحْر الَّذي فَلَقَهُ اللهُ لَهُمْ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَ دُخُولُهُمْ جَمِيعاً في الطَّريق الَّذِي عَبَرَ مِنْهُ مُوسَىٰ وهَارُونَ

وَقَوْمُهُما وَمَا مَعَهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ عُبُورُ آخِرِ عابرينَ مِنْ بَنِي إسرائيل وما معهم ضَمَمْنَا على فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فِلْقَتَي الْبَحْرِ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ أجمعِين.

﴿فَنَبَذْنَهُمْ﴾: أيْ: فَطَرَحْنَاهُمْ، وأَبْعَدْنَاهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا يُطْرَحُ الشَّيْءُ المحْتَقَرُ المكْرُوهُ، ومِنْهُ نَبْذُ النَّوَاة.

• ﴿... فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: فَتَفَكَّرْ أيُّها الصَّالِحُ للنظر التَّفَكُّرِيّ أيًا كُنْتَ، في مَجَارِي قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وجَزاءَاتِهِ الْعَادِلَاتِ، كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ فِرْعَوْن وجُنوده الظالِمين ظلْماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، عناداً ومُكابَرَةً وإصْرَاراً على الباطل، اغتراراً بزينَة الحياة الدُّنيا.

هذا في الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرَة فَهُمْ خَالِدُون في عذَاب النار.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

• ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾:

أَئِمَّة: جَمْعُ «إمَام» وهُوَ مَنْ يُؤْتَمُّ بِه، وَمَا يُؤْتَمُّ بِهِ، أيْ: يُتَّبَعُ وَيُقْتَدَىٰ به.

أي: وَجَعَلْنَا ضِمْنَ نِظَام التكوين العامّ للمجتمع الْبَشَرِيّ الَّذِي لَا جَبْرَ فيه للأفراد، فِرْعَوْنَ ومَلَأَهُ وجُنُودَهُمْ، أئِمَّةً في الكُفْرِ، والشّرّ، والْفَسَادِ، والإفْسَادِ في الأرض، فهم بمُقْتَضَىٰ هٰذِهِ الإمَامَةِ الَّتي تَجْذِبُ مَنْ تَتَوجَّهُ إراداتُهم الحرَّةُ لِلْكُفْرِ بالحقّ، وفِعْلِ الشّرّ، والفَسَادِ والإفساد في الأرض، يَدْعُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إلى الكفريات وتوابِعها، المؤدّيَةِ إلى عذاب النار يوم الدّين، بِعَدْلِ اللهِ الرَّبّ، الذي وضَعَ النّاسَ في الحياة الدنيا مَوضع الامتحان.

فالمستجيبُونَ لِهٰؤُلاءِ الأئِمَّةِ يُتَابِعُونَهُمْ في ضَلَالَاتِهم أيْنَ سارُوا، وكيف اتَّجَهُوا، مختارِين بانقيادٍ طوعيّ، إذْ وَجَدُوا عِنْدَهُمْ ما يوافِقُ أهواءهم وشهواتهم ورَغباتِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا.

• ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: إنَّ دَعْوَتَهُمْ إلىٰ مَفْهُومَاتِهم ومناهِجِهم وأعْمَالِهِمْ هي في الحقيقة دَعْوَةٌ إلَىٰ النار، إذْ مَصِيرَهُمْ باستجابَتِهِمْ لهٰذِهِ الدَّعْوَة الّذي سَوف يَصِيرُونَ إلَيْه، هُو الْخُلُودُ في عذاب النار يوم الدّين.

تَحْلِيلُ مَعْنَىٰ الْجَعْل الْقَدَرِيّ في النظام العامّ للمجتمع البشريّ:

أكَرِّرُ هُنَا أنّ الْجَعْلَ القدَرِيَّ في النِّظَام الْعَامّ للمجْتَمع الْبَشَرِيّ، لَا يُلْغِي حُرِّيَّةَ الإرادة الفرديَّة، الموضوعَة في الحياة الدُّنيا مَوْضع الابتلاء. بَلْ هُو مِنْ تَمام ظُرُوفِ الامتحان الأمثَلِ للإرَادَات ذواتِ الحرّيَّةِ الكامِلَةُ في تَوَجّهَاتها.

وأضْرِبُ مثلاً علىٰ هٰذا فيما يلي:

مَنْ أَرَادَ من الناس أنْ يَخْتَبرَ ما في نُفُوس جماعَةٍ مُخْتَلِطة، لكُلّ فَرْدٍ مِنْ أفرادها إرَادَتُهُ الحرَّة، ورَغباتُهُ الخاصَّةُ الخبيثَةُ داخِلَ نَفْسِه، ومُيُولَاتُهُ ومَطَالِبُهُ الّتِي يَسْعَىٰ لِتَحْقِيقها، لِيَكْشِفَ اختياراتهم ومَسِيراتهم، فَمِنْ أحْسَن وسَائِل الاختبار أنْ يَضَعَ على مُفْتَرَقِ السُّبُلِ مَجْمُوعَاتٍ مختلفاتِ الاتجاهاتِ والأعمال، ولكُلّ مجموعةٍ مِنها من الصّفاتِ والسُّلُوكياتِ ما يَجْذِبُ فَرِيقاً من الجماعَةِ المختَلِطة.

ومن هٰذِهِ المجموعات مجموعَةُ خَيْرٍ، ومَجْمُوعَةُ شرّ، وهُنَا نلاحظ:

(١) أنّ مجموعَة أهل الحقّ والْخَيْر والرُّشْدِ والفضيلَة، يَتْبَعُها مُنْجَذِباً إليها، مَنْ لَدَيْهِمْ حُبٌّ لِلْحَقّ، والْخَيرِ، والرُّشْدُ، والْفَضِيلَة، بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة، رَاضِينَ بأنْ يَكُونوا أئِمَّةً لهم.

وفي فُرُوعِ صراط هؤلاء، يتْبَعُ طُلَّابُ عُلُومِ الدّين الْعُلَماء، وطُلَّابُ عبادة اللهِ بالصَّلَوات والصّيام والحجّ الْعُبَّاد، وطلاب الجهاد في سبيل الله المجاهِدِين.

(٢) وأنَّ مجموعَة أهْلِ الباطل، والشّرّ، والْغَيّ، والرّذِيلة، يتبعُهَا مُنْجذِباً إليها، ومُقْتَدِياً بها، مَنْ لَدَيْهِم حبٌّ للباطل، والشّرِّ، والْغَيّ، والرَّذيلة، بإراداتِهِم الحرَّة، راضِينَ بأنْ يكُونوا أئِمَّةً لهم.

وفي فروع سُبُلِ هؤلاء الأئمة الضالّين، يَتْبَعُ طُلَّابُ الشَّهَوَاتِ واللَّذَّات أئِمَّةً لَهُمْ فيها، ويتْبَعُ طُلَّاب الْمَالِ أئمة لهم فيها، ويَتْبَعُ طُلَّابُ السُّلْطَانِ وَظُلْمِ الْعِبادِ أئِمَّةً لهم فيها، ويَتْبَعُ طُلّابُ الْبَغْي والْفَسَادِ والإفْسَادِ في الْأَرْضِ أئِمَّةً لهم فيها.

وهكذا يَتْبَعُ كُلُّ فِريقٍ من النَّاسِ باختياراتهم الحرَّة، أئِمَّةً يُلائمُونَ مَا في نُفُوسِهِم، رَغْبَةً في اجْتماع الأشباه والنظراء بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ في زُمَرٍ يُلائِمُ فيها بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وهـٰذا من سُنَنِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيّ الَّتي فَطَرَ اللهُ عزّ وجلّ النُّفُوسَ علَيْها.

• ﴿...وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: وَيَوْم الْقِيامَةِ لَا يَجِدُ الْأَئِمَّةُ الكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ وَلَا مِنَ أُتَمَّ بِهِم مَنْ يَنْصُرُهُمْ، فَيَدْفعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، أَوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئاً منه.

النّصر: التَّأْييدُ، والْإِعَانَةُ، والْمُسَاعَدَةُ بالْقُوَّةِ، الَّتي تَدْفَعُ أوْ تَرْفَعُ مَكْرُوهاً عن المنصور.

• ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً... ﴿٤٢﴾﴾: أي: وأتْبَعْنَا فِرْعَوْنَ وجُنُودَهُ بَعْدَ إهْلَاكِهِمْ بِالْإغْرَاقِ في هـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً شَدِيدَة.

اللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبْعادُ مِنْ كُلّ خَيْر.

ويَتَحقَّقُ هـٰذا اللَّعْنُ بِمَا هُمْ فِيه مِنْ عَذَابٍ نَفْسِيّ وَرُوحِيٍّ بَعْدَ الموت، حتَّىٰ الْبَعْث. وبتَرْغِيب المؤمنين أنْ يَدْعُوا عليهم باللَّعْنِ كُلَّما جاء ذِكْرُهُمْ وقُصَّتْ قِصَّة كُفْرِهِمْ وطُغْيَانِهِم ومُعَانَدَتِهِمْ لآياتِ رَبّهم.

﴿...وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ويَوْم القيامَةِ هُمْ أيْضاً مِنَ الْمَطْرُودين المبْعَدِينَ مِنْ كُلِّ خَيْر.

المقْبُوح: المبْعَدُ مِنْ كُلّ خير، يقال لغة: «قَبَحَ اللهُ فُلاناً يَقْبَحُهُ، قَبْحاً، وقُبُوحاً» أي: أبْعَدَهُ من كُلِّ خيرٍ، فَهُو مَقْبُوح.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: «قَدْ» حَرْفٌ يَدْخلُ على الفِعْلِ الماضِي، فَيُفِيدُه التوكيد، واللّام واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ كما يرى كثير من النحاة.

وجاء هـٰذا التوكيد مُرَاعَاة لِحَالِ المقْصُودِين بالْخِطَابِ وهُمُ الكُفَّارُ برسالَةِ مُحمّدٍ ﷺ، وَبالْقُرْآنِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إياهُ عَنْ رَبّهم، باعْتِبَارِهِمْ قَدْ كَفَرُوا أيضاً بكتَاب التوراة الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ على مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

أي: ولَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ الكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاه عَلَيْه وهو التوراة، مِنْ بَعْدِ مَا أهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولى، قَوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَوْمَ صَالحٍ، وقَوْمَ لُوطٍ، وقَوْمَ شُعَيْب، عَلَيْهُمْ السَّلام، وَفِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ أيْضاً عَلَيْهِم لَعْنَةُ الله، حَالَة كَوْنِ هذا الكتابِ يتَّصِفُ بصفاتٍ ثلاث:

الصّفة الأولَىٰ: كَوْنُهُ بَصَائِرَ للنَّاس، أي: يشتمل على عِلْم، وحُجَجٍ وبراهِينَ، وعِبَرٍ للناس، ممَّا يَنْفَعُهُمْ لِدُنياهم وآخِرَتهم.

بَصَائِر: جمع «بَصِيرَة» وهي تُطْلَقُ علَىٰ الْعِلْم، والْخِبْرَة، والحجَّة، والعِبْرَةِ، من ضِمْن مَا تُطْلَقُ عَلَيْه.

الصِّفَةُ الثّانية: كَوْنُهُ هُدَى، أي: يَشْتَمِلُ على ما فيه هِدَايَة للناس، إلى ما فيه سعادتُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وآخِرَتهم.

الْهُدَىٰ: الدَّلَالَةُ عَلَىٰ ما فيه حقٌّ وخَيْرٌ وَصَلاحٌ وَرَشادٌ.

الصِّفَةُ الثالِثَةُ: كوْنُهُ رَحْمَةً، أي: يَشْتَمِلُ على ما فِيهِ رَحْمَةٌ للناس في عاجل أَمْرِهِمْ وآجِلِهِ، بما فيه من دلالَة على الحقّ والخير والصراط المستقيم، وتَحْذِير من الباطل والشّرّ، وسُبُلِ الضلال. وهٰذِهِ الدَّلَالَة أَثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله بعباده.

الرَّحْمَة: صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثارها العطاء، والمعونَة، والتوفيق. والدَّلَالَةُ عَلَىٰ الحقّ والخير والصراط السّويّ، وإزالَةُ البؤس، والإمدادُ بما يُسْعِدُ، ويُسَكِّنُ النَّفْس، ويُطَمْئِنُ الْقَلْبَ، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيه، إلى غير ذَلِكَ مِنْ عطايا وهِبَاتٍ وهدايَةٍ، وتحذيرٍ من الشُّرُور.

﴿. . . لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَضَعَ النَّاس الَّذِينَ أُنْزِلَتِ التوراةُ لِهِدَايَتِهِمْ مَا اشتَمَلَتْ علَيْهِ في ذَاكرَاتِهِمْ، فَيَتَذَكَّرُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ حَدَثٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مُنَاسَبَةٍ مَا يَهْدِيهم إلىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِم وآجله، فيَكُونَ ذَلِكَ دَافِعاً إِلَىٰ الْعَمَلِ بما جاء فيها من أوامر، أَوْ نَوَاهِيَ، أَوْ وَصَايا، أو نَصَائِحَ وإرْشَادَات.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثَّانِي من دُرُوس سورة (القصص) والحمدُ لله على إمْدَادِهِ، وتوفيقه، وفَتْحِهِ، ومَعُونَتِهِ.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٤٤ ـ ٧٠)

وهو درسٌ يَشْتَمل على مُتابَعَةٍ عِلاجيَّةٍ دَعوِيَّةٍ لكُبَراء مُشْرِكي مكة وما حولها بأساليب مختلفات، وفيه علاجاتٌ مضافَاتٌ إلى ما سبَقَ أنْ عُولجوا به في نجوم التنزيل الّتي نزلت قبل سورة (القصص). ونظراً إلى طول هذا الدّرس فَمِن المسْتَحْسَن أَنْ أُقْسِّمَهُ إلى أجْزاءٍ يُعْتَبَرُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا بمثَابَة وحْدَةٍ مُترابِطَةِ الدّلالات.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذه الآيات تَنْبِيهٌ لِلْمُعَالِجِينَ على دَلِيلٍ من أدِلَّة كَوْن القرآن مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ الله، إذْ جاءَ فِيه بَيَانُ أَحْدَاثٍ جَرَتْ لموسَىٰ وهو في الوادي المقَدَّسِ «طُوى» الواقع إلى جانب «الطور» وهذا الجانب يَقَعُ إلى الجهة الغربية من الوادي لا إلى الجهة الشرقيّة منه، وهذِهِ الأحداث ما كان لمحمّد أن يَعْلَمَها بحَسَب واقع حاله في قومه لولا أن أنزلها اللَّهُ علَيْه وأَعْلَمَهُ بها، إذْ لم يَكُنْ حاضراً هٰذِهِ الأحداثَ بداهَةً، وهُوَ أمِّيٌّ لَا يَقْرأ ولَا يَكْتُبُ فَهُو لم يَقْرأْهَا في كتابٍ من كُتُبِ أَهْلِ الكتاب، وهذا يَكْفِي

دَليلاً عنْدَ أهْلِ العقل والرُّشْد أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين.

وقد جاء بيان هٰذا الدَّليل بَعْدَ ذِكْرِ أَحْداثِ مُوسَىٰ عليه السلام في الدرس الثاني من دُرُوس السورة.

ولم يُوَاجِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الخطَابِ المقصُودِينَ بالمعالَجَة إعراضاً عنهم، في مقابل إدْبارهم وتَولّيهم، بَلْ خاطَبَ الرَّسُولَ مُحمَّداً ﷺ به، والْغَرَضُ إسْمَاعُهُمْ بأُسلُوبِ غَيْرِ مُبَاشر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: أي: ومَا كنْتَ مَوْجُوداً بجانِبِ المكانِ الْغَرْبِيّ الَّذِي نَاجَىٰ اللَّهُ بِهِ مُوسَىٰ في الوادي المقَدَّسِ «طُوى» بعد أن ناداه مِنْ شَاطِئ الوادي الأيمَنِ في البقعة المباركة، حتَّىٰ تَسْمَعَ دُون مُشَاهَدةٍ، مَا جَرىٰ من مُنَاجَاةٍ بَيْن مُوسَىٰ وربّه، فتَتَحدَّثَ به لِقَوْمِكَ، وهُو أمْرٌ حقٌّ يَشْهَدُ بِصْحَّتِهِ مُؤْمِنُو أهْلِ الكتابِ، لمطابَقَتِه لِمَا عَنْدَهُمْ من حقٍّ.

• ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: أي: وَقْتَ إنْهَائِنَا إلى مُوسَىٰ أَمْرَ مُكالَمَتِهِ، وجَعْلِه نبيّاً ورَسُولاً، وإيتائه آيَتَي الْعَصَا والْيَد، وتكليفِه أنْ يَذْهَبَ حاملاً رِسَالَةَ رَبِّهِ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فسائِرِ شَعْبِ مِصْر يوْمَئذ.

جاء التّعبير بضمير المتكلّم العظيم إشارة إلى ما جرىٰ في هذه الأحداث من أمُور جليلة عظيمة لا تَصْدُرُ إلّا عن اللَّهِ رَبّ العالمين.

• ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أي: وما كنْتُ من الحاضِرين في هٰذِهِ الْأَحْدَاثِ الشَّاهِدِينَ لَهَا.

الشّاهد: الحاضِرُ في الحدَث، أو المعاينُ لَهُ رُؤيا عَيْن، يقالُ لُغَةً: «شَهِدَ فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: عايَنَهُ بمعْنَى رآه رُؤْيا العين.

فجاءت الجملَةُ الْأُولَىٰ من الآيَةِ لِنَفْي وُجُودِهِ بجانب المكان يَسْتَمِعُ ما يَجْرِي فِيه من كلام.

وجاءت الجملَةُ الأخيرة من الآيَة لنفي حضورِه في وَسَطِ الْحَدَثِ يَرَىٰ بَعيْنَيْهِ مَا يَجْرِي، ويَسْمَعُ مَا يُقَالُ فيه من كلام.

وهٰذا من اسْتقصاء نَفْي الاحْتمالَات الَّتِي يُرادُ بِها الاسْتِهَانَةُ بمدَارِكِ المعالَجِينَ الذّهْنِيَّة، مع أنَّ إحْدىٰ الجملَتَيْن تُغْنِي عن الْأُخْرىٰ عن طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِّي.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

• ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾: أي: والسَّبَبُ فِي إعادَةِ إرْسَالِ الرُّسُلِ برِسَالَاتٍ مِنْ لَدُنَّا، أَنَّنَا أَنْشَأْنَا قُرُوناً عَدِيدَة بَعْدَ مُوسَىٰ والتوراة، فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ، فَنَسُوا وأهْمَلُوا وَضَيَّعُوا مَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَ رَبُّهُمْ من الدّين الذي اصطَفَاهُ للموضوعين مَوْضِعَ الامتحان من عباده.

فاقتضىٰ هذا الواقِعُ إرْسَالَ رُسُلٍ لَاحقين لِرُسُلٍ سابقين، وَكنْتَ أنْتَ يَا مُحَمَّدُ آخِرَهُمْ وَخاتمهم.

تَطاوَلَ عَلَيهِمُ العُمُرُ: أي: طال عليهم الزَّمَنُ الذي كان بمثابة وِعاءٍ لأعْمَار أفراد هٰذِهِ القرون.

القرن: هو من الناس أهل زمان واحد، وسُمُّوا قَرْناً لأنَّهم اقترنُوا معاً في ذلِكَ الزمان.

العُمُر: مُدَّة حياةِ الكائنِ الحيّ.

• ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾:

﴿ثَاوِيًا﴾: أي: مقيماً ومُسْتَقِرّاً، يقال لغة: «ثَوىٰ بالمكان، وثَوَىٰ فِي المكان، يَثْوِي، ثَواءً، وَثُوِيًّا» أي: أقام واسْتَقَرَّ فيه.

أي: ومَا كنْتَ يَا مُحمَّد مقيماً في أهْلِ مَدْيَنَ أيَّامَ وُجود مُوسَىٰ فيها، حتَّىٰ تَعْلَمَ أخبارَهُ وتَنْقُلَها.

وجَاءَتْ عبارة: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ دَالَّةً عَلَىٰ أنَّه صلوات اللّٰهِ عليه لَو كَانَ حيًّا في ذَلِكَ الزَّمَانِ في مَدْيَنِ، لَكَانَ رَسُولاً يَتْلُو عَلَى أهْل مَدْيَنَ آيات رَبِّهِ، بمقْتَضَىٰ الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْها كاملاً، مؤهَّلاً لأنْ يكون نبيّاً وَرَسُولاً.

• ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أي: فلَمْ نَتْرُك الْقُرُونَ الَّتي نَسِيَتْ أوْ أهْمَلَتْ أَوْ أَضَاعَتِ الدِّينَ الَّذِي أنْزَلْنَاه على مُوسَىٰ، ولَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رُسُلاً، أبْلَغُوهُمْ مِنْ جَدِيدِ الدّينَ الّذي اصْطَفَيْنَاهُ لَهُمْ، وكنْتَ يَا مُحَمَّدُ آخِرَهُمْ وَخَاتِمَتَهُمْ، لأَنَّنَا تَكَفَّلْنَا بِحفْظِ الكتاب الّذي نُنْزِلُهُ عَلَيْكَ وَهُو القرآنِ، وحِفْظِ هٰذا الدِّين حَتىٰ تَقُومَ السَّاعَة، نظراً إلى ما تطَوَّرَ إلَيْهِ المجتَّمعُ البشري من إمْكَانِ جَمْعِهِمْ على دِينٍ واحِدٍ، وتكليفِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ جميعاً، حتَّىٰ آخرِ مُمْتَحَنٍ سَيُوجَدُ في الناس، موضوع في الحياة موضع الاختبار، والمسؤوليَّة، والجزاء.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: أي: ومَا كُنْتَ بجانِبِ جبَلِ الطُّورِ حِينَ نَادَيْنَا مُوسَىٰ نداءاتٍ سبَقَ بيانُها في (الشعراء/ ٤٧ نزول) وفي (مَرْيم/ ٤٤ نزول) قَبْلَ أَنْ نُقَرِّبَهُ نَجِيًّا وَنُنَاجِيَه سِرّاً.

فما جاء في الآية (٤٤) تَدُلُّ القرائِنُ على حالة المناجاة، وما جاء في هذه الآيَةِ (٤٦) تَدُلُّ عبارَةُ: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ علَىٰ ما كان قبل أَنْ يُقَرِّبَهُ اللَّهُ نَجِيًّا، واللَّهُ أعْلَم.

• ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: فَمَا تَرَكْنَا النَّاسَ يتخبَّطُونَ في الظُّلُمَاتِ والضَّلَالَاتِ بَعْدَ أَنْ ضَاعَتْ وحُرِّفَتْ ونُسِيَتْ بياناتُنا الَّتِي سبَقَ أَنْ أنْزَلْنَاها، ولِكنْ جعَلْنَاكَ نَبِيًّا ورَسُولاً ونُنَزِّلُ عَلَيْكَ الْقُرْآن لِتُبَلِّغَهُ للنَّاس رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بِهِمْ.

وُضِعَ الاسم الظاهر في عبارة: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِير: «مِنَّا» للدَّلَالَة على صِفَاتِ رُبُوبيَّةِ الرَّبّ لِعبادِه، الَّتي قضَتْ أن يضَعَهُمْ مَوْضع الابْتِلاء، في ظروف الحياة الدُّنيا، ليحاسبهم، ويفصل القضاء بشَأْنهم، ثُمَّ لِيُجازِيَهُمْ على اختياراتهم وأعْمالهم يوم الدّين.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾:

نَذِير: يأتي اسمْاً للإنذار الّذي هو مَصْدَرُ فِعْل «أنْذَر». ويأتي أيضاً بمعنى: «مُنْذر».

والمعنى: لِتُنْذِر قَوْماً الإنْذَارَ الّذي سَبَقَ أَنْ أتاهُمْ مِنْ قَبْلِك، وبَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ.

هٰذا ما رأيْتُهُ هو الحقّ في هٰذهِ المسألَة، وأنَّ كلمة «مَا» في عبارة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ لَيْسَتْ نَافِية، بَلْ هي اسْمُ مَوْصُول.

وقد سبَقَ بَسْطُ ما يتعَلَّقُ بهٰذِه القضيَّة لدَىٰ تَدبّر الآية (٦) من سورة

(يس/ ٤١ نزول)[1].

و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغبةً في أَنْ يَضَعُوا مَا نُنْزِلُ علَيْكَ مِنْ قُرْآن في ذِاكراتهم، بَعْدَ أَنْ يَتبَلَّغُوهُ ويتَفَهَّمُوا معانيه، ورَغبَةً في أنْ يَتذَكَّرُوا مِنْهُ عِنْدَ كلِّ مناسَبَةٍ وكلّ حَدَثٍ وكُلّ عَمَلٍ ما يُلائم ذلِكَ ليَعْمَلُوا به.

لعَلْ: للتَّرَجِّي، ومِنْ لوازم المرجُوّ المترقَب الرَّغْبَةُ في تَحَقُّقِه، وإذْ لا يليق الترجِّي باللَّهِ عزَّ وجَلَّ، لأنَّهُ الْعَلِيم بما كان وبما هو كائِنُ وبما سيكون، فينْبَغِي حَمْلُ اللّفظ على لازمِ معناه، وهو الرغبة، وهذا يَليقُ بالله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

قول الله عزّ وجلّ بشأن عُتَاة كفّار مَكّة وأشباههم:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: إنَّ مَا هُمْ فِيه من كُفرِيَّاتٍ وأعْمَالِ بَغْي وظُلْمٍ وعُدْوانٍ وفُجُورٍ، وهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ والباطِلَ، والخيْرَ والشّر، والظُّلْمَ والْعَدْل، ويَعْلَمُونَ أنَّ اللَّهَ قَدْ أرْسَلَ رُسُلاً بَلَّغُوا وَبَشَّرُوا وَحذَّرُوا وأنْذَرُوا، كافٍ بمُقْتَضَىٰ الحقّ والْعَدْلِ لِأَنْ نُعاقِبَهُمْ علَىٰ ذُنُوبهم، فَنُنْزِلَ بِهِمْ مُصِيبَةً بسبَبِ مَا قَدَّمَتْ أيْدِيهم من آثام.

لكِنَّ مُعَاقَبَتَهُمْ في هٰذِهِ الحالَةِ تَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَلّا أرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِكَ، وَيُبَلِّغُنَا مَطْلُوبَكَ مِنَّا في رَحلَةِ امْتِحَانِنَا، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ونَفْعَلَ مَا تَأْمُرُنَا به، ونَتْرُكَ مَا تَنْهَانَا عَنْه.

وبما أنّ هٰذا الْقَوْلَ قَدْ يَحْمِلُ عُذْراً ظَاهِرِيًّا، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِقَطْعِ كلِّ أعْذَارِهِمْ، أَنْ نُمْهِلَهُمْ، ونُمِدَّ لَهُمْ، ونُرْسِلَ لَهُمْ رَسُولاً مبلّغاً ومَبيّناً

---

(١) انظر المجلد السادس، الصفحات من (٣٤ ـ ٤٢).

وَبَشيراً ونَذِيراً، ونُؤَخِّرَ عِقَابَهُمْ إلَى مَا بَعْدَ اسْتِيفاء شُرُوط البيان الكافي، والتَّحْذِيرِ والإِنْذار.

﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾: أي: هَلَّا أرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً، فكلمةُ ﴿لَوْلَآ﴾ هُنَا هي بمَعْنَىٰ «هَلَّا» أداةُ تحْضِيض.

وجواب: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ محذوف تقْديرُهُ لَعَاقَبْنَاهُمْ بإنْزَالِ المصائب العِقَابِيَّةِ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَنا محمَّداً وقَبْلَ أنْ نُنْزِلَ علَيْهِ القرآن. و«لَوْلَا» هٰذِهِ حرْفُ يَدُلُّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره. ولا بُدَّ لَهُ من جوابٍ مَذْكورٍ أو مُقَدَّر، وتكْثُرُ اللَّام في جوابها.

❁ ❁ ❁

قال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأن عُتَاة كفار مكّة وأشباههم إبَّان التَّنزيل إيضاً:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

القراءات:

• قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿سِحْرَانِ﴾.

وقرأها بَاقي القرّاء العشَرَة: [سَاحِرَان].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّت على مَا جاء بِهِ مُوسَىٰ ومُحَمَّدٌ عليهما الصلاة والسّلام.

وقراءَةُ «سَاحِرانِ» دَلَّت على وصْفِهِما فيما جاءا به. فالقراءتان

متكامِلَتان في الأداء البياني، إذ يَلْزَمُ من كون مَا جاءا بِهِ سِحْرَيْن أَنْ يكونا ساحِرَيْن، ويلزَمُ من كونِهِمَا سَاحِرَيْنِ أَنْ يكُونَ ما جاءا به سِحْرَيْن، فجاءَ التعبيران بلازِمِ كلٍّ منهما.

تمهيد:

في هَذِهِ الآيات بَيَانُ حَالِ المقصودين بالمعالَجَةِ بَعْدَ بِعْثَةِ الرّسول محمّدٍ ﷺ إِلَيْهم، وبيانُ بعْضِ جَدَليَّاتهم بشأن ما آتىٰ اللّهُ رسُولَهُ من آيات، وأنَّها لَيْسَتْ مُشَابِهَةً لِمَا أُوتَىٰ مُوسَىٰ، والرَّدّ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ كَفَرُوا بما أُوتي مُوسَىٰ من قَبْلُ، ثُمَّ كَفَرُوا بِما أُوتِي مُحمد، وزَعَمُوا كما زَعَمَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه أنَّ مَا جاءَ به مُوسَىٰ قَدْ كانَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْر، وأنَّ مَا جاء بِهِ محمَّدٌ مِنْ قُرْآنٍ مَعْجِزٍ هُوَ سِحْرٌ أَيْضاً، وأنَّ مُوسىٰ ومُحمّداً تَظَاهَرا على افتراء الدّينِ عن اللّهِ مسْتَخْدِمَيْنِ السِّحْرَ وَسِيلَةً لإقْنَاعِ النَّاسِ بفِرْيَتَيْهِما الدّينيَّة.

وجاء فيها تعليمُ الرَّسُول أن يتحدّاهم بأَنْ يأتُوا بكتابٍ هو أَهْدَىٰ من التوارة والقرآن حتَّىٰ يَتّبِعَهُ إِنْ كانوا صَادِقِين بأن التوراة والقرآن وضْعٌ بشَرِيٌّ، وليْسَ تنْزِيلاً من لَدُنْ رَبّ العالمين.

وجاء فيها بيانُ حَالِهِم الضَّالّ عن الحقّ وصراط الْهُدَىٰ اتّباعاً لأهوائهم، وأنّ الله لَا يحكُم لَهُمْ بالْهِدَايَة وهُمْ ظالِمُونَ، وبَيَانُ أنَّ اللّهَ وصَّلَ لَهُمُ الْقَوْلَ الهادي إلى الحقّ والخيرِ وصراطه المستقيم، رغْبَةً في أن يَتَذَكَّرُوا، فَمَسْؤُلِيَّتُهُمْ مَسْؤُولِيَّةٌ تامَّة، ولا عُذْرَ لَهُمْ في عَدَم اسْتَجَابَتِهم ولا شُبْهَةُ عُذْرٍ، فَلْيلَاقُوا مَصِيرَهُمُ الَّذِي أنْذَرَهُمْ بِهِ كِتَابُ رَبّهِمْ وَرَسُوله.

التدبّر التحليلي:

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ. . . ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وقَطْعاً لِأَعْذَارِهِم، وَكُلّ تَعِلَّاتِهِمْ، لم نُعَاقِبْهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهم وطغيانهم وظُلْمِهِمْ وعُدْوانِهِمْ، وفُجورِهم، قَبْلَ إرْسَال رَسُولٍ لهم، يتْلُو عليهم آيَاتِنَا ويبلّغُهم أوامِرَنَا ونَوَاهِينَا، ويوضِّحُ لَهُمْ صِرَاطَنَا المستقيم، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا الَّذِي أبْلَغَهُمْ إيَّاهُ رسولُنا مُحَمَّد، وتَلَا عَلَيْهِم ما أنْزَلْنَا علَيْهِ مِنْ كِتَابِنَا الْقُرْآن وَوَعَوْا بياناتِنَا، لم يَسْتَجِيبوا لِمَا دَعَوْنَاهُمْ إلَيْه، بَلْ افْتَعَلُوا تَعِلَّةً جَدِيدَةً قَالُوا فيها: هَلَّا أُوتِي مُحَمَّدٌ مِنَ الآيات الخوارقِ المعجزات مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ كَآيَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ حَيَّةً تَسْعَىٰ، وكآيَةِ الْيَدِ الّتي تنقَلِبُ بيضاءَ مضيئةً متلألئةً من غَيْر سُوء.

﴿لَوْلَآ﴾ هنا بمعنَىٰ «هَلَّا» أداةُ تَحْضِيضٍ.

قول الله عزّ وجل:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: كيْفَ يُطالِبُونَ بأَنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ لِتَصْدِيق بلاغاتِه عن رَبِّه، ولا سيما الكتابُ الّذي يَتْلُو عليْهم آياته، مِثْلَ مَا أُوتِي مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ من آيات باهِرَات، وهُمْ يَكْفُرُونَ بِما أُوتِي مُوسَىٰ من التوراة، ويَكْفُرُونَ بالآيَاتِ الّتِي آتاه اللَّهُ إيَّاها مُصَدِّقَةً أنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَمُصَدِّقَةً بَلاغَاتِه عَنْه، وقَالَ قَائِلُونَ مِنْهُمْ وسَكَتَ الآخَرُون: إنَّ مَا جاء بِه مَوسَىٰ سِحْر، فهو ساحر، وإنَّ مَا جاء به مُحَمَّدٌ من قُرْآن عجيب معجز هو أيضاً سِحْرٌ، فمحمَّد ساحِرٌ مِثْلُ مُوسَىٰ، وقَدْ اجْتَمعَا كالمتعاونَيْنِ على إثباتِ قضيَّةٍ واحِدَةٍ، هي توحيدُ الله في رُبُوبيّته وإلَهِيَّته، ونَفْيُ الشُّرَكاء، ومُحَارَبَةُ الأَوْثان، وإثباتُ يَوْم الدّين.

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعَاوَنَا، وينبغي حَمْلُ التعاون علَىٰ مَعْنَىٰ التَّلاقِي على إثباتِ قضيَّةٍ واحدة.

ولم يَرِدْ عيسَىٰ عليه السَّلَامُ في هذا المجال لأنَّ المشهور بَيْنَ الْعَرب

من دِيَانَتِه التثليث، وهو من الشِّرْكِ الذي يلْتَقِي المشركون معَهُ التقاءً ما، وهذا ما جعلهم يقولون كما جاء في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن محمد ﷺ:

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧﴾.

﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي: في الدِّيَانَةِ النَّصْرَانِيّة.

دلّ هذا البيان الرّبّاني في هذه الآية (٤٨) من السورة علَىٰ أَنَّ مشركي الْعَرب كانوا مطالَبين بالإيمان بما جاء به مُوسَىٰ عليه السَّلام من كتابٍ وآياتٍ، ومطالَبين بالْعَمَلِ بما جاء في التوراة من توحيدٍ ونَبْذٍ للشّرْك، فهم مُحَاسَبُونَ عَلَىٰ كُفرِهِمْ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وهم بَعْد بِعْثةِ محمّد ﷺ أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بَما جَاءَ به كُلٌّ من الرَّسُولَيْن عليهما الصَّلاة والسّلام، دلَّ علَىٰ هٰذا قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ في آخِرِ الآية:

﴿.. وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ۝٤٨﴾: أي: وقالُوا مُعْلِنين كُفْرَهُمْ ومؤَكِّدين قَوْلَهُمْ: إِنَّا بكُلٍّ مِمَّا جاء به مُوسَىٰ، ومِمَّا جاء به مُحَمَّدٌ كَافِرُونَ، وبكلٍّ من نُبُوَّتِهما ورِسَالَتِهما كافِرُون، لا نُؤْمِنُ بأَنَّهما نَبِيَّان ورسولان لِلَّهِ رَبِّ العالمين.

قول الله عزَّ وجل:

• ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٩﴾:

إنّ إعلان عُتَاةَ مُشْرِكي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَها إِبَّانَ التنزيل كُفْرَهُمْ بالتوراةِ وكُفْرَهُمْ بالْقُرْآن، يقْتَضِي عن طَرِيقِ اللُّزوم الذِّهْنِي أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُوسَىٰ

افْتَرَىٰ التوراة مِنْ عِنْدِهِ على رَبِّه، وأنَّ محمَّداً يَفْتَرِي الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِه عَلَىٰ رَبِّه.

والمحاجَّةُ الْجَدَلِيَّةُ في مُقَابلِ هٰذا الزَّعْمِ الواضِحِ الْبُطلانِ، تَقْتَضِي أنْ يُقَالَ لَهُمْ: أعْطُونَا كِتَاباً تعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، هُوَ أكْثَرُ هِدَايَةً إلَىٰ الحقّ والخير والفَضِيلَةِ وَمِنْهَاجِ السُّلُوكِ الْأَقْوَم، من التَّوْرَاةِ والْقُرْآن، فإنْ جِئْتُمْ بِهِ فإنَّنَا نَتبِعُهُ لأَنَّنَا طُلَّابُ حَقٍّ وهِدَايَةٍ إلى الَّتِي هِيَ أقْوَم، هٰذا إنْ كنْتُمْ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِكُمْ في أَنَّكُمْ تَعْتَقِدُون أنَّ التوراةَ والْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَىٰ الله.

هٰذِهِ المحاجَّةِ الْجَدَلِيَّة هي الَّتي عَلَّمَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إلَىٰ اللَّهِ مِنْ أمَّتِه، بِهٰذِهِ الآية.

• ﴿قُلْ﴾: أي: يَا أيَّها الرَّسُول ويا أيُّها المجادِلُ لَهُمْ مِنْ أُمَّتِه.

• ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ يَا أيُّها الكَفَرَةُ المشْرِكُون صَادِقِين مع أنْفُسِكُمْ في اعْتِقَادِ أَنَّ التَّوْراةَ والقرآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَىٰ اللَّهِ، فأنْتُمْ لهذا تكْفُرُونَ بهما، فاعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ مِنْ دُونِ كِتَابٍ يُنْزِلُه لهم، لِيُبَيِّنَ مَطْلُوبَهُ مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدّنيا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مشْتَمِلاً على الحقّ والخيْرِ والفضيلةِ والْهِدايَةِ إلى الصِّراط المستقيم.

فابحَثُوا عَنْ كتابٍ رَبَّانِيٍّ يَشْتَمِلُ علَىٰ هذا عنْدَ الناس أجْمَعِين، فإنْ جِئْتُمْ بِه، وَوَجَدْنَاهُ أكْثَرَ هِدَايَةً مِنَ التّوراةِ والْقُرْآن، فإنَّنَا نَتَّبِعُهُ، ولا نَجِدُ أيَّة غَضَاضَةٍ في اتّباعِهِ، لِأَنَّنَا طُلَّابُ حَقٍّ وَخَيْرٍ وَفضِيلَةٍ وَهِدَايَةٍ إلَىٰ الصِّراط المستقيم.

• ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: أي: هـو أكـثـر هِـدَايَـةً مـن الـتـوراة والـقـرآن. «أَهْدَىٰ» أفعل تفضيل من فعل «هداه لَهُ وَهَداهُ إلَيْهِ يَهْدِيه» أي: بيَّنَه له، وأوْضَحَهُ لَهُ وأرْشَدَهُ إلَيْه وَدَلَّهُ علَيْهِ وعرَّفَهُ به.

• ﴿.. إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين في زعْمِكُمْ أنَّ التوراة والقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ على الله، علَىٰ الرُّغم من أنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بأنَّ الله جلّ جلالُهُ بحكْمَتِهِ السَّنِيَّة لَا يَتْرُكُ عباده الذين وَضَعَهُمْ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، دُون أَنْ يُنْزِلَ إلَيْهِمْ كتَاباً يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيه مَطْلُوبَهُ مِنْهُمْ في رحْلَةِ امْتِحَانهم، وليُجْري حِسَابَهُمْ، وفَصْل القضاءِ بينهم، ومُجَازَاتَهُمْ يَوْمَ الدّين، عَلَىٰ وفْق مَا جاءَ فِيهِ مِنْ بيانَاتٍ وَتكاليف. وجاء استعمال «إنْ» للإشعار بأنّهم كاذبون غير صادِقين.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُول محمد ﷺ بشَأن المعالجين أنفسهم:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

جاءت هٰذِهِ الآية خطاباً للرَّسُولِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، والْغَرَضُ إسْمَاعُ المعالَجِين في السُّورَةِ، وهم عُتَاةُ كُفَّارِ مكَّةَ إبَّانَ التنزيل، بأنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ، وبأنَّهُمْ بلَغُوا في الضَّلَالَةِ أحطَّ دَرَكَةٍ وأخسَّهَا، فَلا تُوجَدُ دَرَكَةٌ أحَطُّ وأخَسُّ منها، وبأنَّهُمْ مِنْ غَيْرِ المطموع فيه أنَّ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُمْ بالْهِدَاية، لِأنَّ اللَّهَ بعَدْلِهِ وحكْمَتِه لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين.

• ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾: أي: فإنْ لَمْ يُطِيعُوك، ولَمْ يُحَقِّقُوا مَا طَلَبْتَهُ مِنْهُمْ في دَعْوَتِك ومُنَاظراتِكَ وَجدَلِيَّاتِك لَهُمْ بالَّتِي هِي أَحْسَن.

يقال لغَةً: «استجابَ فُلَانٌ للدَّاعي» أي: قَبِلَ دَعْوَتَه، وأطاعَه، وَحقَّقَ مَا طَلَبَ مِنه، ومن هذه الاستجابة الاتيانُ بكتابٍ هُوَ أهدى من التوراة والقرآن.

جاء في هذه العبارة استعمالُ «إنْ» الشرطيّة الدَّاخِلَة على عَدَمِ استجابَتِهم، لإشعارِهِمْ بأنَّهُمْ لم يَبْلُغوا بَعْدُ مَبْلَغَ الميْؤوس من إيمانهم

وإسْلَامِهِم، وقَدْ يُلاحَظُ في هذا أتباعُ الأئِمَةِ الْعُتَاةِ، لَا الْعُتَاةُ الطُّغَاةُ أنفسهم.

• ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي: فاعْلَمْ أنَّهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ إلَّا أَهْوَاءَهُمْ، والمعْنَى أنَّ اتباعَهُمْ في عَدَمِ اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ مَقْصُورٌ علَىٰ أَهْوَائهم، فَهُمْ لَا يَتبِعُونَ حَقًّا ولا خيراً وَلَا هُدىٰ.

«أَنَّمَا» مِنْ أدواةِ الْقَصْر، والْقَصْرُ هُنَا إضافي، وهو من قَصْرِ الموصوفِ الّذي هو «الاتّباع» على الصفة وهي «الأَهْوَاء».

الْهَوَىٰ: مَيْلُ النَّفْسِ إلى مَا تَحِبُّ ولَوْ كانَ فِيهِ ضُرٌّ وَشَرّ وإثْمٌ وعِصْيانٌ وكُفْرٌ وفُجور، وفي الْهَوَىٰ معَنىٰ السُّقُوط والْهُبُوطِ مِنْ عُلُوٍ إلى سُفُولٍ.

واتّباعُهُمْ أهواءَهم يَجْعَلُهُمْ ضَالّين حتماً ضَلَالاً بعيداً.

• ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾: اسْتفهامٌ يُرادُ به انْتِزَاعُ اعْتِرَافِ أهْلِ العقل والرُّشْدِ أُولِي الأَلْبَاب، بأنَّهُ لَا يُوجَدُ أحَدٌ أَضَلُّ مِنْهُ، إذْ يَبْلُغُ باتِبَاعِهِ هَوَاهُ غايَةَ مُنْحدَرِ الضلال.

وجاءت عبارة: ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ قَيْداً لازماً، لأنَّ مَنْ يلْتَزِمُ بهُدىٰ الله يَتَعَلَّقُ هَوَاهُ بمراضِي اللّهِ وَمَحَابِّهِ، فيَكُونُ هَوَاهُ تَبعاً لمَا يحِبُّ اللّهُ وَيَرْضىٰ.

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: أي: إنَّ اللّهَ لَيْسَ من حكْمَتِهِ أنْ يَحْكُمَ بالْهِدَايَةِ لِهٰؤُلاءِ المقْصُودِينَ بالمعالَجَةِ، ما دَامُوا علَىٰ كُفْرِهِم وطُغْيَانِهِم وظُلْمِهِمْ وجُحُودِهِمْ للحّق، وهُمْ يَدْخُلُونَ ضِمْنَ عُمُومِ الظالمِينَ من دَرَكَةِ الكُفر، ومن سُنَنِ اللّهِ الّتي لا تَبْدِيل فيها ولَا تَحْوِيل، إذْ هي مِنْ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِه وعَدْلِهِ، أنَّهُ لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالمين.

فَمعَنْىٰ ﴿لَا يَهْدِى﴾ هُنَا: لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَة، لأنَّ الْحُكْمَ لَهُم بالهداية لا يكُونُ إلَّا إذَا كانوا في واقِعِ حَالِهم مَهْدِيين، أمَا وهُمْ ظالِمُونَ ضَالُّونَ، فإنَّهُ مِمَّا يُنَافِي الحكْمَة أَنْ يَهْدِيَهُمْ فيَحْكُمَ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مَهْدِيُّونَ، واللَّهُ جلَّ جَلالُهُ لَا يُجْرِي تصاريفَهُ على خِلَافِ مقتضىٰ حكْمَته، وهٰذا مِنْ كَمَالِ صِفَاتِه.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ﴾: أي: وَنُؤَكِّدُ تأكيداً شديداً أنَّنا بصِفات الرُّبُوبيَّة.

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: جَعلْنَا القَوْلَ الذِي يَشْتَمِلُ علَىٰ مَطْلُوبنا من عبادنا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، يَصِلُ إلَىٰ مَرَاكِزِ وَعْيِهِمْ لمعانِيه وصُولاً تامًّا، حتَّىٰ امْتَلَكَتْ أَذْهَانُهُمْ هٰذهِ المعاني امْتِلَاكاً كافِياً، رغْبَةً مِنَّافي أَنْ يُؤمِنُوا إيماناً إراديًّا، ويُسْلِمُوا إسْلَاماً إراديًّا صَادِقاً، ويَتَذَكروا مِنْ مَعَاني الْقَوْل الذي وَصَّلْنَاهُ لَهُمْ مَا تَدْعُو لِتَذَكُّرِه الأحداث والمناسِبَاتُ والأعمال ما يجب منها فِعْلُه ويجب مِنْهَا تَرْكُهُ، لينجُوا من عذاب الجحيم، ويظْفَرُوا بجنَّاتِ النّعيم.

يقال لغة: «وَصَّلَ فُلَانٌ الشَيْءَ إلَىٰ فُلَان» أي: أنهاه إليه وأبْلَغَهُ إيّاه.

ولكِنْ جاءت التَّعْدِيَةُ في الآيَةِ بحرف «اللّام» لَا بِحَرْفِ «إلَىٰ» للدَّلَالَةِ على أَنَّ التَّوصِيلَ لمفهومات العقائِد الدّينيَّة، وكُبْرَيَات مطالِبِ الله مِنْ عباده في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، لَمْ يَقْتَصِرْ على إسْمَاع آذانهم، بَلْ بَلَغَ إلَىٰ عُمْقِ مَرَاكِزِ إدْرَاكِهِمُ الواعِي للْمَعَانِي، حَتَّىٰ امْتَلَكَتْ أجْهِزَةُ التَّفْكِيرِ فيهِمْ هٰذِهِ المعاني، إذْ من معاني اللام الجارَّةِ الْمِلْك.

والتقدير: وَصَّلْنَا إليهم الْقَوْلَ، وَأدْخَلْنَا مَعَانِيَهُ إلَىٰ أجْهِزَة التفكير فيهم، حتَّىٰ صَارَت أشْيَاءَ مَمْلُوكةً لَهَا بالتمليك الْجَبْرِي، الّذِي لَا تَستطيعُ

الإراداتُ الحرَّةُ دَفعَهُ وَلَا رَفْعَهُ، كما تَرَىٰ الْعَيْنُ الْقَمَرَ بَازِغاً، إذْ يَنْطَبِعُ في الذهنِ انطباعاً جَبْرِيّاً.

وبقِي علَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بما عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ إيماناً إرادِيًّا، وأَنْ يُسْلِمُوا لِلَّهِ إسْلَاماً إرادِيًّا طَوْعِيًّا لَا جَبْرِيًّا، تأثّراً بما عَلِمُوا من الحقّ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: راغبينَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا تَذَكُّراً مؤثراً فيهم إيماناً وإسلاماً.

❁ ❁ ❁

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآيَاتُ الأربع آياتٌ مَدَنِيَّةُ التَّنْزِيل، ضُمَّتْ إِلَىٰ سُورَةِ (القَصص) المكيَّة التنزيل لمراعاة اقتضاءَيْن.

الاقتضاءُ الأوّل: وُجودُ بعْضِ أَهْلِ الكِتَاب من يَهُودِ المدينَةِ، الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا صَادِقينَ، وَتَنْطَبِقُ عَليهم الصّفات الّتي جاءت في هذِهِ الآيات، وكان هذا بَعْدَ هجْرَةِ الرسُول ﷺ إلَيْها.

الاقتضاء الثاني: الدَّلَالَةُ علىٰ أَنَّ مَا جاء في سُورَة (القصص) من معالجاتِ لعُتَاةِ مُشْرِكي مكّة وَمَا حَولَها، مُتَجَدِّدُ التَّوْجِيهِ ولَو انْتَقَلَ الرَّسُولُ مُهَاجِراً إِلَىٰ المدينَةِ، ولَوْ هاجر أيضاً مُعْظم مؤمِني ومُسْلِمي أَهْلِ مَكَّة، فَدَعْوَة أَهْلِ مَكَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ بالهجرة إِلَىٰ المدينة.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ لفظ عامٌّ أُرِيدَ بِه خُصُوص من آمَنَ بالرسُول محمّد ﷺ، وَبالْقُرْآنِ الّذِي يَتنَزَّلُ عليه من أهْلِ الكِتَاب، من الْيَهُود كعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَام، وكَان حَبْراً مِنْ أحبار اليهود، وكالنَّجَاشي مَلِك الحَبَشةِ، وسَائِرِ مَنْ أسْلَمَ مِنْ أهْلِ الكتاب قبْلَ نزول هذه الآيات، أوْ هُو مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ مُسْتَقْبَلاً، بدليلِ استعمال الفِعْل المضارع في عبارة ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقَدْ دَخَلَ في الإسلام كثيرون جدًّا من أهل الكتاب عبر القرون ولا يزالون يدخلون.

- ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: أي: من قَبْلِ الْقُرْآنِ الّذِي يَتنَزَّلُ على محمد ﷺ.
- ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾أي: وإذا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ جَدِيدٌ يَتنَزَّلُ مِنَ القرآن.
- ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: أي: قالوا: آمَنَّا بهٰذا الْجَدِيد الّذي تَنَزَّل مِنَ الْقُرْآن، وقالوا: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا، ولم يَعْتَرِضوا على شيءٍ يَتنَزَّلُ مِنْه، ولو كان مخالفاً لِبَعْضِ أحكام التوراة أو الإنجيل الْعَمَلِيَّةِ مُسْتَسْلِمينَ لِلَّهِ فيما يُثْبِتُ من أحكام وفيما يَنْسَخُ مِنْها. وقَالُوا: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبلِ تَنَزُّلِ الْقُرْآن مُؤْمِنين بِرَبِّنا وَمُسْلِمِينَ لَهُ إسلاماً تامًّا لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةُ اعْتَراضٍ وَلَا هوى ولَا تَعَصُّب، ولَدَينا بشائر عن مُحمّدٍ خاتَمِ النبيين والمرسَلين، وكُنَّا مُسْتَعِدّين لأنْ نُؤمِنَ بِهِ ونُسْلِمَ لَهُ طَائِعِين.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

وعَدَ الله عزّ وجلَّ المُعنِيِّينَ بقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بأنْ يُؤْتِيَهُمْ أجرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، أي: ضِعْفَيْنِ عَنْ أمْثالِهِم مِنَ المؤمِنين الْمُسْلِمين الَّذِينَ لَمْ يَجْمَعُوا بَيْنَ إيمانٍ وإسلامٍ صحيحين سابقَيْن قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمّد ﷺ، وبَيْنَ إيمانٍ وإسلامٍ صحيحين بَعْدَ بِعْثَتِهِ.

وجاء هٰذَا الْوَعْدُ مَبْنِيًّا على سَبَبٍ يَتَضَمَّنُ تَحَلِّيَهُمْ بأرْبَعِ صِفَاتٍ فُضْلَىٰ مِنْ صِفَاتِ فُضَلاءِ المؤمِنينَ المُسْلِمين:

الصِّفَةُ الأُولى: صِفَةُ الصَّبْرِ، دَلَّ عَلَيْها قول اللّهِ عزّ وجل: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صَبْرِهم. «الباء» سبَبِيَّة. و«مَا» مَصْدَرِية، تُؤَوَّلُ مَعَ بَعْدَها بِمَصْدر.

ولَا يَخفَىٰ مَا يُلاقِيه مُفَارِقُو دِينِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ والنصارىٰ الّذِين يُسْلِمُونَ، من أذىً شَدِيدٍ من أُسَرِهِمْ وَأَهْلِ مِلَّتِهِمْ، كالحرْمَانِ من الرزْق، والقطيعَة، وتوجيه سِهَامِ الْعِدَاء، وأنْواعِ أخرَىٰ شَتَّىٰ مِنَ المصائب، وهٰذِهِ تحْتَاجُ من المؤمِنِ المسْلِمِ الصَّادِقِ صَبْراً عظيماً.

الصِّفَة الثانية: أَنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، دلَّ عَلَيْها قول اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: أي: ويَتخذُونَ الْحَسَنَة الَّتِي يَفْعَلُونَها، دَرِيئَةً تَصْطَدِمُ بها السَّيِّئَة الَّتي تُوَجَّهُ لَهُمْ، فَيَدْفَعُونَ بِذَلِكَ الأَذَىٰ والضُّرَّ عَنْ أنفُسِهِمْ. **الدّرِيئة**: مَا يَسْتَتِرُ بِهِ الصَّياد.

يقال لُغَة: «دَرَأَ فُلَانٌ دَرْءاً» أي: اتَّخذَ دَرِيئَةً، ويقالُ: «دَرَأَ الشَّيْءَ، دَرْءاً وَدَرْءَةً» أي: دَفَعَه. وَيقال: «دَرأ عَنْهُ الشيْءَ بِكذا» أي: دفعَهُ عَنْهُ.

إنّ دَرْأَ السَّيِّئَةِ بالحسَنَةِ مِنْ أَجلّ فضائل الأخلاق الاجتماعية.

وفي تقديم: [بِالْحَسَنَةِ] على كَلِمَة [السَّيِّئَة] في العبارة دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يبادِرُونَ دواماً بفَعْلِ الحسَنَاتِ الَّتي تكُونُ سَبَباً في دَفْع السّيّئاتِ الّتي كان من المرتقب أَنْ تُوَجَّهَ لهم، فإنْ وُجِّهَتْ لَهُمْ سَيِّئَةٌ كانت حَسَنَتُهُمْ بمثابَةِ دَرِيئَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُمُ الأذىٰ، ومن ذَلِكَ أَنْ يُدافِعَ عَنْهُمْ مَنْ نالَهُمْ إِحْسَانُهُ من الناس.

الصّفَةُ الثالثة: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ ممَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِه، دلَّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ: ﴿.. وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أي: ويَنْفِقُونَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، وَفي السُّبُلِ الّتِي طَالَبْنَا عِبَادَنا بأن يُنْفِقُوا فيها وهِيَ سُبُل الخير، بَعْضاً ممَّا رَزَقْنَاهُمْ.

حرف «مِنْ» في «ومِمَّا» حرفُ جَرٍّ معناهُ هُنَا التَّبْعِيض.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا لَغْواً مِنَ الْقَوْلِ، اسْتِهْزاءً بالمومنين، أو طَعْناً في الدِّين، ولَوْ كانَ علىٰ شَكْلِ الْمُزَاحِ واللَّهْوِ واللَّعِب، والْمُلَحِ المضْحِكَة الَّتي يَزْعُمُ مُطْلِقُوها أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بها اسْتِهْزَاءً ولا طَعْناً حَقِيقيًّا، أَعْرَضُوا عَنْهُ، ولَمْ يُشَارِكُوا فيه ولَوْ على سَبِيلِ اسْتِحْسَانِ للنكْتَةِ، أو استِحْسَانٍ للتَّقْلِيدِ المطابقِ للمقلَّد، وقالُوا لأصحاب اللَّغْو، والظاهر أَنَّهم كافِرُونَ صُرَحَاء، أو مُنَافِقُون يبْطِنُونَ كُفْرَهم:

• ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾: أي: وتُنْسَبُ إلينَا عِنْدَ رَبِّنا أعْمالُنا، فَنَحْنُ نُحَاسَبُ عَلَيْها، وتكُونُ لَنَا دُون غَيْرِنا، فَنُجازَىٰ عليها بفضل الله.

• ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: أي: وتُنْسَبُ إليكم أعمالُكُمْ عِنْدَ رَبِّكم، فانتُمْ تُحَاسَبُونَ عليها، وتكونُ لَكُمْ دُونَ غَيْرِكم، فَتُجَازَوْنَ عليها بِعَدْلِ الله.

• ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: أَمَانٌ مِنَّا عَلَيْكُمْ فَلَا نُقَاتلُكُمْ من أَجْلِ اسْتِهْزَائِكُمْ بالمؤمِنينَ وطَعْنِكُمْ في الدّين، وهو سَلَامُ مُغَارَقَةٍ لكُمْ ولما أَنْتُمْ فيه من لَغْوٍ تَعْصُونَ به اللَّهَ رَبَّكُمْ وَتَظْلِمُونَ بِهِ عباده المؤمنين.

﴿.. لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾: أي: لَا نُرِيدُ مشارَكَة الْجَاهِلِين، في جَهْلِهِمْ، وسَفَهِهِم.

يُقَال لغة: «ابْتَغَىٰ الشَّيْءَ» أي: أراده. أو طَلَبَه، ومعنَىٰ أرادَهُ هو المناسِبُ هنا.

والْمُرادُ بالجاهِلِينَ هنا: الْجُفاةُ السُّفَاءُ، وأصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَولهم: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشْتَدّ غَلَيَانُها، وهُو ضِدُّ تَحَلَّمَت، ويُقَالُ: «جَهِلَ فُلَانٌ عَلَىٰ غَيْرِه» أي: جفَا وَتَسَافَه، ومن هذا قولُ الشّاعر العربي:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

اللّغو: كُلُّ مَا لا يُعْتَدُّ بِهِ من كلامٍ وَغَيْرِه، وقَدْ أُرِيدَ باللَّغْوِ هُنَا مَا ظَاهِرُهُ لَغْوٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَيُرَادُ به الطَّعْنُ في الدّين، والاستهزاءُ بالْمُؤْمِنين، وَهٰذا اللَّغْوُ مِنْ صِفاتِ المنافِقين، ومنْ ظواهِرِ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ المؤمِنين، إذْ يُخفُونَ نفَثَاتِ كُفْرِهِمْ بألاعيب المُزاحِ، وَيَقُولُونَ مُعْتَذِرِين: كُنَا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، لا نَقْصِدُ الطَّعْنَ فِي الدّين، ولَا الاسْتِهزاءَ بالمؤمنين، وهُمْ كاذِبُون.

❁ ❁ ❁

قال اللّهُ عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُحمَّد ﷺ، وَيُلْحَقُ به كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِهٰذا الخطاب:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾.

كان عمُّ الرَّسُول ﷺ أبو طَالب الّذي كفَلَهُ بَعْدَ جَدّه عبد المطلب، وحماه ونَصَرَهُ ودفع عنْهُ مكايد كبراء مشْركي مكّة، وأعْلَنَ حِمَايَتَهُ لَهُ ونَصْرَه، مع أنه كان مُشْرِكاً على مَذْهبِ مشركي قومه، وكان الرّسُول بحُبٍّ

قَوِيٌّ وحِرْصٍ بالِغٍ يُرِيدُ مِنْ عَمِّهِ أنْ يُعْلِنَ إيمانه وإسْلامَه ولو سِرًّا بَيْنه وبيْنَهُ، ولو في أُذُنِهِ لِيَشْهَدَ لَهُ بذلِكَ عند رَبّه يوم الدّين.

لكنّ أبا طالب لم يحقّق رغْبَةَ ابْنِ أخيهِ محمَّدٍ رسُول اللَّهِ للناس أجمعين، وماتَ ولَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ رَسُولُ الله ﷺ كَلِمَةَ التوحيد، فَحَزِنَ من أجله، وتمنّىٰ له الهدايَة لِيُنْجِيَهُ اللَّهُ يَوْم الدّينِ من الخلود في عذاب النار، فأنزل اللَّهُ عَلَيْهِ هذه الآية.

روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المسيّب. ورَوى مُسْلِمٌ وغيره من حديث أبي هُرَيرة: أنَّ قَوْلَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نَزَلَتْ في أبي طالبٍ لمَّا امتَنَعَ من الإسْلام.

عبارَة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: هِدَايَتَهُ يُمْكن حَمْلُها على معنَيَيْن:

المعنىٰ الأول: إنَّك لَا تَسْتَطِيعُ أن تَجْعَلَ مَنْ أحْبَبْتَ مُؤْمِناً مُسْلِماً مَهْدِيًّا، بِطَريقةِ إلْزَمِيَّةٍ جَبْرِيّة، إذْ لَسْتَ خالقاً تَمْلِكُ الْخَلْقَ الْجَبْرِيّ، ولَسْتَ تَمْلِكُ الإلْزَامَ الْقَسْرِيّ على الهداية، لأنّ الإيمان والإسلام من أعمال الْقُلُوب وتَصَرُّفَاتِ الإراداتِ الحرَّة، والمطلوب في الدِّين هو الإيمان والإسلام بالاختيار الحرّ، ولَيْسَ بالإلْزَامِ والإكراه، ومن أعْلَنَ إيمانَهُ وإسلامَهُ وهو مُكْرَهٌ فإنَّهُ لا يُقْبَلُ ذَلِكَ منْهُ عنْدَ رَبِّه، ويُحَاسَبُ على ما في قَلْبه.

وبِمُقْتَضىٰ هذا المعنى تَكُونُ عبارة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ دالَّةً علىٰ مَعْنَى: أنَّ اللَّهَ هُو القادِرُ عَلَىٰ أنْ يَخْلُقَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده مَجْبُوراً علَىٰ الْهداية، كما خَلَقَ الملائكة الكرام مَفْطُورين على الإيمان بربّهم، والطاعَة له، ولكنَّه لم يضَعْهُم مَوْضِعَ الابتلاء والامتحان.

وإذْ وَضعَ اللَّهُ النَّاسَ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ والامتحان، الذي يقتضي حرّيّة

الإرادة، لم يكن من حِكْمَتِه أنْ يَجْعَلَ أحداً مِنْهُمْ مجبوراً بالفطرة على أن يكون مَهْدِيًّا، ولا أنْ يجعل أحداً مِنْهُمْ مجبوراً بالفطرة عَلَىٰ أن يكونَ ضالًّا، لأنّ هذا مُناقِضٌ لوَضْعِ الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحَان المستَلْزِمِ عقْلاً لحُرِّيَّةِ الإرادة، إذْ بين الْجَبْرِ وحُرِّيَّةِ الإرادة تناقض واضح.

المعنى الثاني: إنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ بِالْهِدَايَةِ لمَنْ تُحِبُّ، لأنَّ الْحُكْمَ بالْهِدَايَةِ أَو الضَّلَالَة هُو لِلّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، ولا تَمْلِكُ من رَبّك أَنْ يَحْكُمَ بِهدَايَةِ مَنْ تُحِبُّ، إنِ الحكْمُ إلّا لله، وهو يَحْكُمُ عَلَىٰ من يشاءُ بالضَّلَالَة، ولمَنْ يَشاءُ بالْهِدَايَة، لَكِنَّ مَشيئتَهُ لا تُفَارِقُ حكْمَتَه، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَحْكُمَ للضَّالِّ في واقِع حَالِه بأنّه كانَ مَهْدِيًّا، ولا أنْ يَحْكُمَ على ذي الهدايةِ في واقِع حالِهِ بأنَّهُ ضَالٌّ، بل مَنْ كان ضَالًّا في واقِعِ حَالِهِ حَكَمَ عليه بأنَّهُ ضَالٌّ بمَشيئَتِهِ تَعالَىٰ المطْلَقةِ الّتي لَا تُفارِقُ حِكْمَتَه، وَمَنْ كان مُهْتَدِياً في واقِعِ حَالِهِ حكَمَ لَهُ بالْهِدَايَة، بمَشِيئته المطْلَقَةِ الّتِي لَا تُفَارِقُ حكْمَتَهُ أيضاً.

وبمُقْتَضىٰ هذا المعنى تكُونُ عبارة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ دالَّةً علَىٰ معنَىٰ: أنَّ الْحُكْمَ بالْهِدايَةِ أو بالضَّلَالَةِ هو للّهِ وَحْدَه، وهُوَ سُبْحانَهُ يَحْكُمُ بمَشيئَتِهِ المَطْلَقَة، ولَكِنَّ صِفَةَ مَشيئتِهِ المطلَقَةِ لَا تُفَارِقُ صِفَةَ حِكْمَتِهِ، وَلَا تتَنَاقَضُ مَعَها ولا تَتَعَارض، بل صِفَاتُ اللّهِ جلّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ متكاملاتٌ فيما بَيْنَها، لا يُمْكِنُ أن يكُونَ بينها تَنَاقُضٌ أو تَضادّ، وهذا من كمال صِفَات الله.

وتأتي عبارة: ﴿.. وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ في الآيَةِ متَمِّمةً لِهٰذا المعنى الثاني، أي: وهو أعْلَمُ بالمهْتَدِينَ هدايَةً حقيقيَّةً في بَاطِنِ مَا في نُفُوسِهم وقُلُوبِهم، فَهُو يحكُمُ بالْهدايَةِ لِمَنْ يعلَمْ من نَفْسِه وقَلْبِه أنّه مُهْتَدٍ، ويَحْكُمُ بالضَّلالَة على من يَعْلَمُ من نَفْسِه وقَلْبِهِ أنَّهُ ضَالٌّ.

❀ ❀ ❀

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

القراءات:

• قرأ نافع، وأبو جعفر، ورُويس: [تُجْبَىٰ] بالتاء على أن الموصوف مؤنث.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ بالياء.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، لأنّ نائب الفاعل وهو ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ مجازيُّ التأنيث.

• وقرأ حَمْزَة، والكِسَائي: [فِي إِمِّهَا] بكَسْر الهمزة وصْلاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾ بضم الهمزة.

والجميع يبْتَدِئُون بضمّ الهمزة.

والقراءتان لُغَتَان عَرَبيّتانِ في النُّطْق.

تمهيد:

في هذه الآيات عَرْضٌ لمقالَةٍ منْ مَقالات بَعْضِ أئمَّةِ الشِّرْكِ في مكَّة، المشتَملَةِ على اعْتِذار مَنْ قَالَهَا عَن الدُّخول في الإسْلَام، بالتَّخوُّفِ من نِقْمَةِ مَنْ حوْلَهُمْ من النَّاس المشركين، أَنْ يتكاثَرُوا عَلَيْهِمْ وَيَتَخَطَّفُوهُمْ مِنْ أَرْضهم، وأُتْبعَتْ بالرَّدِّ المقْنِعِ المسقط لهذا التخوُّف، وبالتذكير بتَخَوُّفِ

أعْظَم هُوَ عُقُوبَةُ اللَّهِ لهم على كفرهم العنادِيّ الظالم الّذي لا عُذْرَ لهم فيه، وبه يكونُ إهلاكُهُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً، مشابهاً لإهْلَاكِ أقوام سَلَفُوا لم يَرْعَوْا نِعَمَ اللَّهِ الّتي أنعم بها عليهم، فكفَرُوا به، واتَّخَذُوا مِنْ دُونه شركاء، ولم يَسْتجيبوا لما دَعَاهُمْ رَبّهم إليه عن طريق رُسُلِهِ، من إيمانٍ صحيح وإسْلَامٍ صادق.

روَىٰ ابْنُ جَرِير، وابْنُ أبي حاتم، وٱبْنُ مَرْدَوَيْه، عن ٱبن عباس: أنَّ نَاساً من قريش قالُوا للنبيّ ﷺ: «إنْ نَتَّبِعْكَ يَتَخَطَّفْنَا النَّاسُ» فنزل قول الله عزّ وجل:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ... ﴿٥٧﴾﴾:

التدبُّر التحليليّ:

قول اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

[نُتَخطَّفْ]: أي: نُخْطَفْ بِشدَّةٍ من القبائلِ العربيَّةِ من حَوْلِنَا، إذْ نُخَالِفُ عَقَائِدهم، ولَهُمْ فِي مكَةَّ نُسُكٌ، ولَهُمْ بالأوثان حول الكعبَةِ وعلى ظهْرِها ارْتباط عابدٍ بمعبود.

يقال لغة: «خَطَفَ، يَخْطِفُ، خَطْفاً، وخَطَفَاناً، وخَطِفَ، يَخْطَفُ، خَطْفاً» أي: جذبَ الشيْءَ وأخذَهُ بِسُرْعَة.

ويقال: «اخْتَطَفَهُ، يَخْتَطِفُهُ، وتَخَطَّفَهُ، يتخطَّفُهُ» أي: خَطَفَهُ بِشدَّة، وقُوَّة.

هذه تَعِلَّةٌ اعِتْذاريّة، وجَّهَهَا بَعْضُ كُبَراء مشركي قُرَيش، وفيها معنى تخويف الرَّسُول والّذينَ آمَنُوا به، من قبائل الْعَرَب، إذْ يجْتَمِعُونَ على

قِتالِهِمْ، فيخْتَطِفُونَهُمُ اخْتِطافاً، ولا قِبَلَ لَهُمْ حينَئِذٍ بمواجَهَةِ قبائلِ الْعَرب إذْ تجتَمِعُ عَلَيْهم وتُقَاتِلُهُمْ، فلَهُمْ حقٌّ دينيٌّ مَوْرُوث في مَكَّة وَمَسْجِدِها، والكَعْبَةِ فيه، والأَوْثَانِ عَلَيْها ومن حَوْلها.

فأبان اللَّهُ عزّ وجلّ لهم، أنَّ التَّمْكينَ الّذِي هم فيهِ دَاخِلَ حُدُود حَرَم مَكَّة، والأَمْنَ الَّذِي هُمْ فِيه، والثَّمَرَاتِ الَّتي تُجبَىٰ إلَيْهِ من مُخْتَلِفِ بِلَادِ الأَرض رِزْقاً لَهُمْ وَلِلْوَافِدِين إلَيْهِمْ حُجَّاجاً وَزُوّاراً، هُو مِنْ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهم، ليَبْقَىٰ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ فيه مَثَابَةً للنَّاسِ وأَمْناً، رغبةً في أن يَعْبُدُوه وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ شيئاً.

ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ علَيْهم بها، لأنَّهُمْ ألِفُوا أَنْ يَعِيشُوا في مَكَّةَ آمِنينَ مَرْزُوقِين، ذوي مَكانَةٍ مُتَمَيّزَةٍ بَيْنَ قبائل العرب، مُنْذُ عَهْدِ إسْمَاعِيل عليه السلام، نظراً إلى أنَّهُمْ سَدَنَةُ بَيْتِ اللَّهِ، وحُمَاتُهُ، والمقيمونَ في حَرَمه.

أقول: ولَوْ رَجَعُوا قَلِيلاً إلَىٰ تاريخ نَيّفٍ وأرْبَعِينَ سَنَّة، لتذَكَّرُوا ما جَرَىٰ بأصْحَاب الْفِيل، وكيْفَ حَمَىٰ اللَّهُ بَيْتَهُ الحرامَ مِنْهم، وقَدْ جاءُوا لِهَدْمِه.

فالأمن الّذِي يَنْعَمُونَ بِهِ في مَكَّة مِنْ جَعْلِ الله إيَّاها حَرَماً آمِناً، ومَعْلُومٌ أنَّ الْأَمْنَ الدَّائم يَجْلُبُ الْأَرْزَاقَ.

• ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾: التمكِينُ من الشيء، الإقْدَار على التَّصرُّف فيه الموصِلِ إلى تحقيق المطلوب مِنْه، مع التثبيت في المكان، والْقُدْرَة على التَّحرُّكِ فيه بحُرّيّة.

حَرَماً آمَناً: هو حُدود حَرَمِ مَكَّة حَرَسَهَا الله.

• ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أَيْ: يُجْمَعُ وَيُسَاقُ إلَيْهِ ثَمَراتُ كلِّ شيْءٍ ذِي ثمراتٍ رزْقاً مِنْ لَدُنَّا.

معنى ﴿يُجْبَىٰ﴾ في اللُّغَة: «يُجْمَع» وضُمِنّ معنىٰ فعل «يُسَاق» فعُدِّي تعْدِيته بحرف «إلَىٰ» فصار المعْنَىٰ: يُجْمَعُ ويُساق إليه ثمراتُ كلّ شيء ذي ثمراتٍ تجْمَعُ وتُساق.

﴿مِّن لَّدُنَّا﴾: **لَدُن**: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ وَمَكانِيٌّ بمَنْزِلَةِ «عِنْد» إلّا أنَّهُ أقربُ من عنْد وأخصّ منه. **ولَدُنْ** مُلازمَةٌ للإضافة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: وَلكِنَّ وَاقِعَ حَالِ مُشْرِكي مَكّة أَنَّ أكْثَرهم لا يَعْلمونَ أنَّا نَحْنُ الّذِين جعَلْنا حَرَمَ مَكَّةَ مُمَكَّنا لَهُم، وتُجْبَىٰ سَوْقاً إلَيْه ثَمَرَاتُ كلّ شيء رِزْقاً من لدُنا.

وتابَعَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعالَجَتَهُمْ بشَأْنِ مَقَالَتِهِمْ للرَّسُول: «إنْ نَتَّبِعْكَ يَتَخطّفْناَ النَّاسُ» فأنْزَلَ في أواخِرِ الْعَهْدِ المكّيّ من سِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَوِيَّةِ قَوله في سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

دَلَّتْ هٰذهِ الآيةُ على أنّ النَّاسَ من حَوْلهم مِنْ قَبائِلِ الْعَرَبِ وسُكَّانِ كثيرٍ منْ قُراهُمْ، قَدْ تَعَرَّضُوا للتَّخَطُّفِ مِنْ قِبَلِ الْغُزَاةِ، بالْقَتْلِ والسَّبْي والنَّهْبِ والسَّلبْ وكُلّ صُوَرِ وأنواع الضُّرّ والأذى، وهُمْ في مَكَّةَ آمِنُونَ بتَأمِينِ اللَّهِ لَهُمْ، مَرَاعَاةً لبيْته الحرام الّذِي جَعَلَهُ بمقادِيره والْطَافِه آمِناً.

فَهَلْ مِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ وَحُسْنِ تَقْدِير عَواقِب الأُمُور أنْ يُؤْمِنُوا بالبَاطِلِ من الشِّرْكِ وأوثانه، وأنْ يَكْفُرُوا بِنِعْمَةِ اللّهِ عَلَيْهِم، وأنْ يُعَرِّضُوا أنفُسَهُمْ لسَخَطِ اللّهِ وعُقُوباتِه العاجِلَةِ والآجلَة.

وإذْ تَأثَّر بَعْضُ الّذِي آمَنُوا بمَقَالَة بَعْضِ المشْرِكين للرسول: «إنْ نَتّبِعْكَ يَتَخَطَّفْنَا النَّاس» فكانُوا على حَذَرٍ إلّا أنّ الله عزّ وجلّ حَمَاهم وحَفِظَهُمْ، ثُمّ جَعَلَهُمْ يُهاجِرُون مِنْ مَكَّة، وآواهم في مَوْطِنِ هِجْرَتِهم، ثُمّ

نَصَرَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَمَنَعَةً، كَانَ مِنَ الحكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ لَهُمْ ولِغَيْرِهم، أَنْ يُذَكِّرَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ بِمِنَّتِهِ عليهم، بأنّ آوَاهُمْ آمِنين في المدينَة، وأيَّدَهُمْ بنَصْرِه، ورزَقَهُمْ مِنَ الطيّبات، رَغْبةً في أنْ يشْكُرُوه على ما امْتَنَّ به عَلَيْهم، فأنزل جَلَّ جَلَالُهُ في الْعَهْدِ الْمَدَنيّ قَوْلَهُ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول). خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

• ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

ذَكَّرَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ المعالَجِينَ الَّذِين قالُوا للرسُول: «إِنْ نَتّبِعْكَ يَتَخَطَّفْنَا النَّاس» بأنَّ كُفرَهُمُ الَّذِي يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَتخَطَّفَهُمُ النَّاسُ، يُعَرِّضُهُمْ لعقابٍ مُعَجَّلٍ في الحياةِ الدّنيا من رَبّهِمْ، وهُو إهْلَاكٌ جماعِيٌّ شَامِلٌ، نَظِير الّذِي أنْزَلَهُ بأهْلِ قُرىً مِنْ قَبْلِهِمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وكِبْرِهِمْ، وفجُورِهم، واتّباعهم للأهواء والشهوات.

وشواهِدُ هٰذِ الْقُرَىٰ الْمَدَمَّرَة، الَّتي أَهْلَكَ اللَّهُ كُفَّارَهَا إهْلاكاً جَماعِيًّا، ظاهِرَةٌ في مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْض، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمُ الّتي كانوا يَسْكُنُونها، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلّا زَمَناً قليلاً، فلا يُوجَدُ مَنْ يَحْرِصُونَ على السُّكْنَىٰ فيها، بَلْ عَادَتْ فَدَخَلَتْ في مِلْكِ الله العامّ لَكُلّ شيءٍ في كوْنه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾: «كَمْ» اسمٌ ثنائي مبنيٌّ على السّكُون، يُعَبَّرُ به عن عَدَدٍ مُبْهَمِ الْقَدْرِ والجنس، فهو يحتاج إلى مُمَيِّز.

وكلمة «كم» هُنَا خبريّة تدلُّ على عَدَدٍ كثير، ومُمَيِّزُها ﴿مِن قَرْيَةٍۭ﴾:

أي: من أهل قَرْيةٍ، والمراد بالقرية كلّ أرض فيها بيوتٌ ومَساكِنُ مجتمعة، قَلّتْ أم كَثُرت، ولو بلَغَتْ مدينةً عظيمةً جداً.

والمعنى: وعَدَداً كثيراً من الْقُرَىٰ أَهْلَكْنا.

• ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: **الْبَطر**: الْغُلُوّ في المرَحِ والزَّهو.

والمعيشَةُ: مَا يُعَاشُ بِهِ من كلّ مطالب النّاس في الدُّنيا، وجمعها «معايش».

ويُقَالُ لغة: «بَطِرَ فُلَانٌ النِّعْمَةَ» أي: اسْتَخَفَّهَا فكَفَرَها. ويقال: «بَطِر الْحَقَّ» أي: أنْكَرَهُ ولَمْ يَقْبَلْهُ. «بَطِرَ يَبْطَرُ بَطَراً».

والمعنى: أخذَهَا المرَحُ والزهْوُ والكِبْرُ، فاسْتَخَفَّت نِعَمَ اللّهِ علَيْهَا، فَكَفَرتْها، وجَحَدَتْ حَقَّ اللّهِ عَلَيْها، فلَمْ تُؤْمِنْ بما يجب علَيْها أن تُؤمِنَ به، ولَمْ تُسلِمْ لِربِّها ولِرَسُوله، ولَمْ تُؤَدّ من طاعَةِ اللّهِ شيئاً ممّا يجب عَلَيْها أَنْ تطيعهُ فيه، فاسْتَحقّتْ أَنْ يُنْهِيَ اللّهُ عزّ وجلَّ ظُرُوفَ امتحانِهَا، فَيُهْلِكَهَا إهْلَاكاً جماعيًّا شاملاً، ولَعَذَابُ اللّهِ أكْبَرُ يَوْم الدّين.

• ﴿.. فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ..﴾: جــاءت الإشارة إلى مَسَاكِنِهم باسْم الإشارة الْمَوْضوع للبعيد، لأنَّ المعالجين في النّصّ، وهُمْ كُفّارُ مكّةَ إبّانَ التّنْزيل بَعِيدُون عن الأحقاف حيث مَسَاكن عاد، وعَنِ الحجر حيْثُ مساكِنُ ثمود، وعَنْ مساكِنِ قوم لوط، ومساكن قوم شعيب عليهما السلام.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمَناً قليلاً، أو إلّا مكاناً مِنْهاً قليلاً.

• ﴿.. وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾: من المعلوم أنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ مالِكُ كلّ شيءٍ في الوجود كلِّهِ دَواماً، لَا تَنْقَطِعُ ملكيَّتُه.

ولكِنْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أنّ يَمْلّكَ عبادَهُ الّذين هُمْ وَكُلُّ مَا يملِكُون

مِلْكه، تمليك تصَرُّفٍ بما يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفوا فيه، على سبيل الانتفاع المباشر، أو على سبيل العطاء للآخرين، ليَبْلُوهم فيما آتاهم في ظروف الحياة الدنيا.

فجعل انْتزاعَهُ جلَّ جَلَالُهُ ممتلكاتِهِمْ مِنْهُمْ بإهلاكهم بمثابَةِ مِيراثٍ يَرِثُهُ هو مِنْهم، إذْ لَا يُعْطِيهِمْ في مُقَابِلِهِ شيئاً، كما يَرِثُ النَّاسُ أَمْوالَ مَنْ مَاتَ مِنْ مَوَرِّثِيهم.

الميراث: مَا يَمْلِكُهُ الخَلَفُ من سَلَفٍ دُونَ عِوَض، ويشْمَلُ المادّيّات والمعنويات.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

• ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

استَمَلَتْ هٰذه الآيَة علىٰ بيان قاعِدَتَيْنِ مِنْ قواعِدِ سُنَنِ اللَّهِ في معامَلَةِ عباده:

القاعدة الأولى: أنّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ لا يُهْلك مجموعةً من القرىٰ هِيَ بِمَثَابَةِ دَولَةٍ واحِدَة لها قَرْيَةٌ كُبْرَىٰ تُعْتَبر كَأُمٍّ لَهَا، إذْ فيها مراكز إدَارَتِها، وقَصْرُ الحكم لِسُلْطَانها الأعظم، وفيها يَقْضِي أَهْلُ سَائر القرىٰ مَصَالِحَهُمُ الإداريَّة الكبرى، وغيرها من المصالح.

دلَّ على هٰذه القاعدة قول الله عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾:

أي: وَليس من سُنَّة رَبِّكَ أَنْ يُهْلِكَ الْقرىٰ الظَّالمةَ ظُلْماً من دَرَكة الكفرِ والطغيان، والبَغْي والفجور والعصيان، إهلاكاً جَمَاعيًا شاملاً، حَتَّىٰ يُعْلِمَها بما يَجِبُ علَيْها تجاه رَبّها، فيَبْعَثَ إليها في قَاعِدَةِ قُرَاهَا الكُبْرَىٰ

رَسُولاً يَتْلُو عَلَيها آياتهِ المنزَّلات، وفيها بيانٌ كافٍ، وتَبْشيرٌ لِمَنْ أطاع، وإنذارٌ لمن عصىٰ.

الأمّ: في اللُّغَةِ المَجْمَعُ والمضَمّ. وأمُّ الْقُرىٰ هي كُبْرَاها وعاصِمَتُها، الّتي تجْمع مبَانيَ إدَارَاتِها الكبْرىٰ، وقَصْرَ الحكم الأوَّلِ لها.

القاعدة الثانية: أنَّ الله ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ ليس من سنّتِهِ أنْ يُهْلِكَ الْقُرىٰ إهْلاكاً جماعِيًّا شاملاً، إلّا في حالَةِ كوْنِ أهْلِهَا ظالِمِينَ ظُلْماً تَسْتَحِقُّ بسَبَبِهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ.

دلّ على هذهِ القاعدة في الآيَةِ قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

• ﴿.. وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: ولَيْسَ مِنْ سُنَّتِنا أنْ نُهْلِك الْقُرىٰ إهْلاكاً جماعِيًّا شاملاً، في حَالٍ من الأحوال، إلّا في حَالَةِ كوْنِ أهْلِهَا ظالِمِين.

وينبغي حَمْلُ الظُّلْم هُنَا أخذاً مِنْ مُخْتَلِفِ دَلالاتِ النُّصُوصِ، على الظُّلْم الكَبِير من دَرَكَةِ الكُفْرِ العنادِيّ، وما يَلْزَمُ عَنْهُ من أعْمَالِ بَغْي وطُغْيَانٍ، وفُجُورٍ وعُدْوانٍ، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرض، وانتشار ذلك في أهل الْقُرىٰ انتشاراً طاغياً.

❁ ❁ ❁

قالَ اللّهُ عزّ وجل:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

القراءات:

(٦٠) • قرأ أبو عَمْرو: [**يَعْقِلُونَ**] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿**تَعْقِلُونَ**﴾ بضمير المخاطَبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، إحْدَاهُما تُخاطِبُهم، فيقول الله لهم: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾. والأُخْرَىٰ يَلْتَفِتُ اللَّهُ عَنْهُمْ فيقول على اعتبار أنهم غائبُون: [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**] مخاطباً المؤمنين.

(٦١) • قرأ قَالُون، والكِسَائي، وأبو جَعْفر: [**ثُمَّ هْوَ**] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**ثُمَّ هُوَ**﴾ بضَمّ الهاء.

والقراءتان وجهان من النطق في الْعَرَبيَّة.

(٦٢) و(٦٥) • قرأ يَعْقُوب: [**يُنَادِيهُمْ**] بضَمّ هاء الضمير في الآيتَين.

وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْرِ هاء الضمير فيهما.

وهُمَا وَجْهان عَربيّان في النُّطْق.

(٦٣) و(٦٦) • قَرأ أبو عَمْرو: [**عَلَيْهِمِ الْقَوْلَ**] و[**عَلَيْهِمِ الأَنْبَاءَ**].

وقرأهما حمزة، والكسائي، وخلَفٌ، ويَعْقُوب: [**عَلَيْهُمُ الْقَوْلَ**] و[**عَلَيْهُمُ الأَنْبَاءَ**].

وقرأهما باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءَ].

وهي وُجوهٌ عربيَّةٌ في النطق.

(٧٠) ●قرأ يعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبَيْن القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، إذْ يُرْجِعُهُمُ اللَّهُ إليه، فَهُمْ يَرْجُعُونَ مطاوعين بالْجَبْرِ الرَّبّاني.

تمهيد:

اشتملت هذه الآياتُ بصَرِيحِ ألفاظها، واللّوازم الفكرِيَّةِ الّتي تَدُلُّ عليها على ما يلي:

(١) اشتملت على علاج إقناعِيٍّ يكشِفُ أنَّ الحياة الدُّنيا الّتي يتشبَّثُ بالتعلُّقِ بها الكافرون، هي متاعٌ قَلِيلٌ زَائلٌ، وزينَةٌ خادعَةٌ لا بقاء لها، وأنَّ الآخِرَةَ الَّتي وَعَدَ اللَّهُ المؤمنين المتقين أنْ يُنَعِّمَهُمْ فيها نعيماً خالداً هي الْخَيْرُ العظيم الباقي الخالد.

(٢) واشتملت على مُقَارَنَةٍ بَيْنَ المؤمنِينَ المتّقِين الّذين وَعَدَهُمُ اللَّهُ وعْداً حَسَناً، بالسَّعادَة الأبَدِيَّة في جَنَّاتِ النعيم، الّتي يَدْخُلونَها خالِدِينَ فيها أبَداً بفضل رَبّهم، وبَيْنَ الكافِرينَ الَّذِينَ يتمَتَّعُونَ في الحياة الدُّنيا ببَعْضِ لذَّاتِها كما يَتَمَتَّعُ بها المؤمنُون المتَّقُون، ثُمَّ يكُون مَصِيرُهم أنْ يَكُونوا مُحَضَرِين في جَهَّنَمَ يَوْم الدِّين يَذُوقُونَ فيها عذاب الحريق، وهُمْ فيها خالِدُون أبداً.

(٣) واشْتَمَلَتْ على عَرْضٍ لقَطَاتٍ منْ مشاهِدِ يوم الدّين، لمَا فيها من اقناع تَرْهيبيّ، يَدُلُّ علىٰ خُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ مُدَبَّرَةٍ من قَبْلِ خَلْقِ العباد وَوَضْعِهِم مَوْضِعَ الامْتِحان.

(٤) واشتملَتْ على بيانٍ بشَأْنِ مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً، وأنَّه سيكُونُ بفَضْلِ اللَّهِ من الْمُحْسِنين.

(٥) واشتملَتْ على بَيَانٍ يَدُلُّ على أنَّ الرَّبَّ الخالقَ هو الّذي يَخْلُقُ ما يشاء، وهو الّذي يختار بإرادَتِه مَا شاء ممَّا هو الأحْكم والأصلح، فَهُو الذي يجب على العباد أَنْ يَعْبُدوه وحْدَهُ لَا شريكَ لَهُ.

أمّا الشُّرَكاء الّذين يتَّخِذُهُمُ المشركون أرْباباً وآلهةً من دُون الله، فلا يَخْلُقُونَ شيئاً، ولَيْسَ لَهُمُ الخِيَرَةُ في شيءٍ من الْخَلْقِ لا في غيرهم، ولا في أنفسهم، فهم لا يسْتَحِقُّون من الإلَهيَّةِ شيئاً. وقد تنزّهَ الله جلَّ جلالُهُ. عن أن يكون له شُرَكاء في رُبوبيَّتِه، أو في إلَهيّتِهِ.

(٦) واشتملت عن طريق اللُّزُومِ الذّهْنِيّ، على بَيَانِ أنَّ الْعِبَادَ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضع امتحان إراداتهم، وهذا يقْتَضِي أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ جَمِيعَ مَا تُكِنُّ صُدُورهم، وَجَمِيعَ ما يُعْلِنُون، ليحاسبهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيَهم يَوْمَ الدّين، علَىٰ وفْقِ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم.

(٧) واشتملت أَخيراً على عِدَّة قَضَايا إيمانِيَّةٍ ذَواتِ صِلَةٍ بما سَبَقَ أن اشتملَتْ عليه هٰذِهِ الآيات، وهي:

• أنَّ اللَّهَ لَا إلَهِ بحَقٍّ إلّا هو.

• وأنّ لَهُ الْحمْدَ كُلَّهُ في الأُولَىٰ والآخِرَة.

• وأنَّ لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمَ بين العباد، لَا يُشَارِكُهُ فيه أحَدٌ.

• وأنَّ العِبادَ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتحان، سَوْف يَرْجعُونَ إلَيْه يَوْمَ الدّين، بَعْدَ أن يَبْعَثَهُمْ إلى الحياة مَرَّةً أخرى، للْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضاء، وَتَنفِيذِ الجزاء.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾؟ وَفي القراءة الأخرى: [**أفلا يعقلون**]؟:

هٰذهِ الآيَةُ ذَاتُ هَدَفين: أَحَدُهُما عِلَاجيٌّ للمقْصُودِين الأوّلين بالعلاج في السّورة، وهم عُتَاةُ كُبرَاء مُشْرِكي مَلَّةَ إبّانَ التَّنْزِيل. والآخَرُ بيانيٌّ تَوْجيهيٌّ لِكُلّ الصالِحين للخِطَابِ الموضُوعين في الحياة الدنيا مَوْضع الابتلاء، وهٰؤُلاء يُنَاسِبُهُمْ قراءةُ: [**أفلا يعقلون**]؟ حَدِيثاً عَنِ الكافرين المغترين بمتاع الحياة الدّنيا وزينَتِها.

• ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾: أي: كُلُّ مَا آتاكُمْ رَبُّكُمْ في هٰذِهِ الحياة مِنْ شيءٍ، مَهْمَا كانَ في نظركم جليلاً وعظيماً، حتَّىٰ مَا يَنَالُهُ عظماءُ مُلُوكِ الأرْضِ مِنْ كُلّ ما يُحِبُّونَ أَوْ يَرْغَبُون فيه، فَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهِ مَتَاعاً مِنَ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وزينَةً من زِيناتها.

«ما» شرطيةٌ تفيد العموم «أُوتِيتُمْ» فعل الشرط «مِنْ شَيْءٍ» لبيان إبْهام «ما» و«مِنْ» جارَّةٌ بيانيَّة «فمَتَاعُ الحياة الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا» جواب الشرط، وجاءت «الفاء» رَابطةً لجواب الشرط.

• ﴿فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾: **المَتَاعُ**: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ لِوَقتٍ ما، ومَصِيرُه إلى الزَّوال. **الزِّينَة**: مَا يُرَىٰ بالحواسّ حَسَناً جميلاً، وَقَدْ يكُونُ خِدَاعاً وباطلاً. وكُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ للتَّحْسِينِ والتَّجْمِيل، وقَدْ يكُونُ طِلاءً وأصْبَاغاً لَا بقاء لها، والزينَةُ لَا تَعْدُو أَنْ تكُونَ مَتَاعاً زائلاً.

• ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾: أي: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا ادَّخَرَهُ لأهْلِ الإيمانِ والتَّقْوَىٰ في جنات النعيم يَومَ الدين خَيْرٌ وأبْقَىٰ، لِأَنَّهُ مُتَجدِّدٌ لَا يَنْقَطِعُ أبداً.

خَيْرٌ: لَهُ معْنَيانٌ: **الأول**: ما كان ذا حَقِيقَةٍ مُثْلَىٰ في النَّفْعِ والْحُسْنِ، ومحقِّقاً لسعادةٍ حقيقيَّةٍ غَيْرِ مَشُوبَةٍ بِمُنَغِّصَاتٍ ولا مُسْتَتْبِعَةٍ لمؤلمات أو مُكدّرات. **الثاني**: اسم تفضيل عَلى غَيْر قياس، بمَعْنىٰ: أفضل في النفع والْحُسْنِ وتحقيق ما تحبُّهُ النّفوسُ وتلَذُّه الحواسّ.

والمعنى الأول أليَقُ بما في الجنَّةِ من نعيم مقيم. والمعنى الثاني يلائِمُ ما يُسَمِّيه الناسُ خيراً من مَتَاع الحياة الدُّنيا، كالمَالِ.

• ﴿.. أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾: استفهامٌ فيه معنى التثريب والتّلويم إلى حدّ التوبيخ، وهو مُوَجَّهٌ للكفَرَة الّذين يتّبِعُونَ أهواءَهم وشهواتهم فيُؤْثِرُونَ الفاني الزائلَ المشوبَ بالألآم والأكدار، على الخير العظيم الخالد الخالصَ من كلّ الشوائب المنغّصَة.

أي: أنْطَمَسَتْ بصائِركُمْ فَلَا تَفْهَمُونَ الْفَرْق بَيْنَ الفاني المختلط بالمنغِّصَات، وبَيْنَ النعيم الخالد الخالص المصَفَّىٰ من كلّ الأكدار؟!!

هذا إذَا حَمَلْنَا «تَعْقِلُونَ» على العقل العلميّ. أمّا إذا حَمَلْنَاهُ علَىٰ العَقْل الإرادي، فالمعنى:

أَعَجَزْتُمْ وَضَعُفَتْ إِرَادَاتُكُمْ، فَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَعْقِلُوا بها أَهْوَاءَكُمْ وشَهَواتِكم بإِرادَاتِكُمْ، مُخْتَارِينَ بِها مَا يُحَقِّقُ لَكُمُ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّة، ويحميكُمْ مِنَ الشقاء الأبَدِيّ في عَذَابِ النّار؟!!.

كَيْفَ تُعَرِّضُونَ نُفُوسَكُمْ لعذابٍ أبَدِي وتَحْرِمُونَهَا مِنْ نَعِيمٍ أَبَدِي، من أَجْلِ شَهَواتٍ سَرِيعَاتِ الزّوال مشُوباتٍ بالمنغصاتٍ، وأهْواءٍ تتوهَّمُونَ أنَّها تَجْلُبُ لَكُمْ خيراً؟!!.

وعلى قراءَةِ [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**]: يكُونُ الْخِطابُ مُوَجّهاً للمؤمِنينَ، بشَأْنِ أحْوالِ الكافِرين، ولا يختلِفُ التحليل بالنِّسْبَةِ إلى الْعَقْلِ العلْمِيّ أو الْعَقْلِ الإراديّ.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾؟:

استفهامٌ يرادُ به انْتِزاعُ الاعتراف بنَفْي التَّساوي بَيْنَ مَنْ صَدَّقَ وعْدَ الله الْحَسَنِ بجَنّاتِ النّعيم يَوْمَ الدّين، فآمَنَ وأسْلَمَ فَهُوَ لاقِيهِ حتماً جَزاءَ ما قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِ في الحياة الدّنيا، وبَيْنَ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ وَعْدَ الله، واغْتَرَّ بِمَا يَنالُهُ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا الّذي يَنالُهُ بعَطاءٍ من اللَّهِ، كَما يَنالُ نَظِيرَهُ غَيْرُهُ مِنَ المؤمنين المصَدِّقين، ثُمَّ يَمُوتُ عَلَىٰ كُفْره، ويُقْضَىٰ علَيْهِ يَوْمَ الدّينِ بأنْ يَكونَ مِنَ المحضَرينَ فِي عَذَابِ جهَنَّمَ يَذُوقُ فيها الْحَريق بالنّار.

﴿لَٰقِيهِ﴾: اسم فاعل مضاف إلي مفعوله من فعل «لَقِيَهُ، يَلْقَاهُ، لِقَاءً» أي اسْتَقْبَلَهُ، واسْتِقبالُ وَعْدِ الله الحَسِن يلْزَمُ عَنْهُ تحقُّقُ السَّعادَةِ به.

[مِنَ الْمُحْضَرِينَ]: أي: من المُسوقين قَهْراً حَتَّىٰ يَحْضُرُوا عند رَبّهم، لمحاسَبَتِهمْ، وفصل القضاء بشأنِهِمْ، ومجازاتِهم علَىٰ كُفْرِهِمْ في نَارِ جهنم، وتكرَّرَ في الْقُرآن استعمالُ نَظِيرِ هٰذا التعبير على معنىٰ الحضور في جَهَنَّمَ دَارِ الْعذاب، ومنه: (أولئِكَ في العَذاب مُحْضَرُونَ ـ فَكَذَّبُوه فإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُون ـ ولَوْلا نَعْمَةُ رَبّي لكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِين).

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هذه الآياتِ عَرْضٌ بإيجازٍ لِمَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، وفي هذا المشْهَدِ ثَلاث زُمَر، زُمْرَتَان ظاهِرَتان، والزُّمْرَةُ الثالثة غَيْرُ ظاهرة.

الزُمرَةُ الأُولَىٰ: فَرِيقٌ مِنَ المشركين، وهُمْ ظَاهِرُون مُحْضَرُونَ للحساب، وفَصْلِ القضاء.

الزُّمْرَة الثانِية: زُمْرَةُ الَّذِينَ كانُوا في الدُّنيا قَدْ أَغْوَوُا الزُّمْرَة الأُولى، وهم أَيْضاً ظاهِرُونَ مُحْضَرُونَ.

الزُّمْرَة الثالِثَة: زُمْرة الّذِين كان المشركونَ يَعْبُدُونَهُمْ من دُون الله، ولَيْس في النصّ مَا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ ظاهِرُونَ مُحْضَرُونَ في المشهد.

وحركة المشهد تَشْتَمِلُ علَىٰ لقطات:

اللَّقْطَةُ الأُولى: يُنَادِي اللَّهُ عزَّ وَجلّ زُمْرَةَ المشْرِكين، دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النصّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ أي: تَزْعُمونَ أَنَّهُمْ شُرَكائي، فتَعْبُدونَهُمْ من دُوني.

اللّقْطَة الثانية: لقْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي النّصِّ، نَسْتَطِيعُ اسْتِخْرَاجهَا بالتَّأَمُّلِ. وهي أنّ زُمْرَة المشْرِكينَ يَقُولُونَ عَنِ الزُّمْرَةِ الثانية، رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَوْنَا، إِذْ زَعَمُوا لَنَا مَزَاعِمَ كثيرةً أَضَلُّونا بها، وأَنَّ مَنْ كُنَّا نَعْبُدهُمْ مِنْ دُونِكَ هُمْ آلِهَةٌ حَقًّا، لَهُمْ مُشَارَكةٌ للرَّبّ في بَعْضِ ربوبيته، أو هم شفعاء لنَا عِنْدَه.

اللّقطة الثالثة: لَقْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ في النصّ أيضاً، وهي أنَّ الله ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ يَسْأَلُ زُمْرَة الْمُغْوِين، الَّذِين سبَقَ أنْ قَضَىٰ بشَأْنِهم، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بأَنَّهُمْ مَجزيُّونَ بالْخُلُود في عذاب النار.

ومَضْمُونُ السُّؤال: هَلْ أَنْتُمْ أَغْوَيْتُمْ هٰؤُلَاءِ كَمَا يَقُولُونَ؟

اللّقطة الرابعة: تُصَوِّرُ اعْتَرافَ زُمْرَةِ الْمُغْوِينَ بما كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إغْواءِ الزُّمْرَةِ الأُولى، دلَّ على هذه اللّقْطَةِ قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ وفي النصّ:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾:

﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: ثَبَتَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ القضائيّ بِشَأْنِهِم، أَنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بِعَذَاب الْحَرِيق، لِكُفْرِهِمْ وإغْوَائِهِمْ مَنِ اسْتَجَابَ لَهُمْ، إِذْ حَاسَبَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ، وَقَضَىٰ بِشَأْنِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَ أتْبَاعَهُمْ الّذِينَ تأثَّرُوا بِهِمْ مِن المشْرِكين، وهٰذا يَدُلُّ على أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ يَفْصِلُ قَضَاءَهُ بشَأْنَ المتْبُوعين من المجرمين، قَبْلَ أَنْ يَفْصِلَ قَضَاءَه بشأن تابعيهم.

• ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ﴾:

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾: أي: أَوْقَعْنَاهُمْ في الْغَوايَة، وهي الإمعانُ في الضَّلَالِ والْبُعْدِ عَنْ صِرَاطِ الحقّ والْهُدَىٰ، بالْأَقْوال والأعمال الّتي كُنَّا نُضَلِّلُهُمْ بها، ونَسْتَدْرِجُهُمْ بها إلى الْغَوَايَة.

وإغواؤُنَا لَهُمْ قَدْ كانَ بسَبَبِ أَنَّنا غَوَيْنا، فبَدا لَنَا أَنْ نَضُمَّهُمْ إِلَىٰ حِزْبِنا، وَنَسْتَكْثِرَ بِهِمْ مِنْ أَنْصارِنا.

وهُنَا يُوَجَّهُ لَهُمْ سُؤَالٌ: هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونكُمْ؟ فيَتَبَرَّؤُونَ إِلَىٰ اللَّهِ من ذَلِكَ قَائلهين لرَبِّهِمْ: مَا كَانُوا إِيَّانا يَعْبُدُون، أي: بَلْ كانُوا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَواتِهم، دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النصّ:

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرنَا.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ﴾: أي: تَبرَّأْنَا مِنْهُمْ لَا نَحْمِلُ وِزْرَ عبادَتِهِمْ لَنَا، وَنَلْجأُ. إليك رَبَّنا أَنْ لَا نُعَذِّبَنا علَىٰ اتّخاذِنَا أَنْفُسَنا آلِهَةً مِنْ دُونِك لأَنَّنا لَمْ نَفْعَلْ هذا.

التَّبَرُّؤ: التَّخلّي والتَّخلُّص.

اللَّقْطَةُ الْخَامِسَة: تُصَوِّرُ عَوْدَةً إِلَى الزُّمْرَة الأُولى زُمْرَةِ المشركين، إِذْ يُقَالُ لَهُمْ: ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ من دُون الله.

فيَدْعُونّهُمْ، لِكِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، ويخيبونَ في نِدائِهِمْ آلِهَتَهُم،

فيَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بالعذاب في جَهَنَّم بحَسَب دَرَكاتِ كفرهم، وحِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، يتمَنَّونَ لو أنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا يَهْتَدُونَ آناً فآناً، استجابَةً لِرُسُلِهِمْ أو للدُّعَاةِ إلىٰ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهم، حينَما كانُوا يَدْعُونهم إلى الهدى.

دلَّ على هذه اللَّقْطة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النص:

• ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

جاءت هٰذهِ الآيَةُ بصِيغَةِ حَدَثٍ مضىٰ، وهو لَقْطَةٌ من لقطاتِ مَشْهَدٍ سوف يَحْدُثُ يوم الدّين، للدّلَالَة على أنَّه سَوْف يَحْدُثُ حَتْمَا، فهو حقيقةٌ من حقائق علم اللَّهِ المتعلِّقِ بالمستقبل الذي لا يُمْكِنُ أن يتخلَّف، ويكون هذا النّصُّ بَعْدَ الوقُوع حَدِيثاً عَنْ أمْرٍ مضىٰ.

• ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: أي: وقال الرَّبُّ أو مَنْ أمَرَهُ بأن يَقُولَ لَهُم: نَادُوا الَّذِينَ كُنْتُمْ في الحياة الدُّنيا اتّخَذْتُمُوهم شُرَكَاءَ لله، فعَبَدْتموهم من دُونه، لِيَنْصُرُوكُم الْيَوْمَ، أو لِيَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ رَبّكم.

• ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: أي: فصار كُلُّ مُشْرِكٍ يُنادِي مَعْبُودَه، فالْوَثَنيُّ نَادَىٰ وَثَنَه، وعُبَّادُ عيسَىٰ نَادَوْا يَا عيسَىٰ، وعبَّادُ مَرْيَمَ نَادَوْا يَا مَرْيم، وعُبَّادُ بُوذَا نَادُوْا يَابُوذا، وهكذا.

• ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: أي: فَمَا اسْتَجَابُوا لِنِدَاءاتِ عَابِدِيهم.

وهُنَا ظَهَرَتْ خَيْبَةُ المشْرِكِين، وَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّين، اتَّبَعُوا أهواءَهم وَتَقَالِيدَهُمُ العمياء، ولم يَعْمَلُوا بما كان الْعَقْلُ والرشْدُ يُمْلِيهِ عليهم، ولم يَسْتجيبُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، ولِلْعُلَمَاءِ الدُّعَاةِ مِنْ أتْبَاعِهم الّذين قَامُوا بواجب الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللَّهِ، والإيمانِ بما أُنْزِلَ علىٰ رُسُلِهِ والْعَمَلِ به.

وهُنَا يُوجَدُ مَطْوِيٌّ في النّصِّ يُمْكن اسْتنباطُهُ بالتَّأمُّل الْيَسير، وهو

أنّ اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَاب النارِ بِحَسَبِ دَرَكَاتِ كُفْرِهم، وأنَّهُمْ سِيقُوا إلى جِهَةِ جهنَّمَ حَتَّىٰ يَرَوْهَا، ويَرَوْا مَنَازِلَهُمْ فيها:

دَلَّتْ على هٰذا المطويّ عِبَارَة:

• ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: ورأوْا بأبْصارِهِمْ دَارَ الْعَذَاب، ورأوْا مَنَازِلَهُمْ فيها، والمصِيرَ الّذي هُمْ إلَيْهِ صَائِرُونَ.

• ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾: هٰذِهِ عِبارَةٌ مقْتَطَعَةٌ مِنَ أقْوَالِ المشركين إذْ رَأَوُا دارَ عَذَابِهِمْ وَمَنَازِلِهم فيها.

إنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ إلَّا التَّمَنِّي، فَيُعْلِنُونَ تمنّيَهُمْ قَائِلينَ هذا الْقَوْل، أَوْ مَا يَدُلُّ على مَضْمونِهِ.

«لَوْ» في هذهِ العبارة للتَّمنّي، أي: لِيَتَنَا كُنَّا في الحياة الدُّنيا نَهْتَدِي، اسْتِجَابَةً لمَا كانَ الدُّعَاةُ إلَىٰ اللَّهِ يَدْعُونَنَا إلَيْه آنَا فآنا.

والجوابُ محذوفٌ تَقْدِيرُه، فنَنْجُوَ مِنْ هٰذا العذاب، ونظفر بجنَّاتِ النعيم.

وهكذا ظهَرَتْ بالتَّدبُّر مَطْوِيَاتٌ، مَا كانت لتظْهَرَ بالتَّوقف عند تفسير كلمات النصّ وفِقَرَاتِه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْن بيانٌ مُوجزٌ عَنْ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، في مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء.

هٰذا مَشْهَدٌ يُجْمَعُ فيه الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ في الحياة الدُّنيا،

فيُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ فيقول لَهُمْ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؟: أي: الَّذِين أَرْسَلْتُهُمْ إليكُمْ، فَدَعَوْكم إلىٰ الإيمانِ بمَا أوْجَبْتُ عَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا به، وإلى الإسلام لِي وطاعَتِي فيما آمُرُكُمْ به وفيما أنْهَاكُمْ عنه.

والمعنى: مَا الّذِي أجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ بِهِ إذْ دَعَوْكُمْ؟ اسْتِفْهَامٌ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

إنَّهُمْ في الحقيقة قَدْ رَفَضُوا قَبُولَ دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يُجيبوهم إلَىٰ مَا دَعَوْهُمْ إلَيْه، فَهَلْ يُعْلِنُونَ مُبَاشَرَةً اعْتِرَافَهُمْ بِذَنْبِهِمْ؟.

إنَّهُمْ يَتَرَيَّثُونَ، لعَلَّهُمْ يَجِدُونَ جَوَاباً جَزَاؤُهُ أخَفُّ من جزاءِ الاعْتِرَافِ، فيتَفَكَّرُونَ، لَكِنْ لَا يَظْهَرُ لَهُمْ نَبَأٌ بَارِزٌ يُجِيبونَ به على السُّؤَال، وهٰذا النبأ قَدْ يُخَفِّفُ مِنْ جُرْمِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم.

لَقَدْ خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ عَلَيْهِمْ أَبْنَاءُ مَاضِي حَياتهم الدُّنيا، فَلَمْ يجِدُوا فيها نَبأً يخَفِفُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يجيبُوا بِهِ رَبَّهُمْ، دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجل:

• ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: فَخَفِيَتْ والْتَبَسَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاء. يُقَالُ لُغَةً: «عَمِيَتِ الْأَخْبَارُ والْأُمُورُ عَنْ فُلَانٍ، وعَمِيَتْ عَلَيْهِ» أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَت. وهٰذا قَدْ عَمَّ جَمِيعَ أفرادِهم، فَلَا أحَدَ مِنْهُمْ يَجِدُ جواباً مُخَفِّفاً.

• ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: فَهُمْ لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في تَشَاوُرٍ عَنْ جوابٍ يجيبُونَ رَبَّهُمْ به، لظُهُورِ الدَّهْشَةِ والْحَيْرَةِ والْعَجْزِ والذّلِّ والانْكِسَارِ، عَلَىٰ وَجُوهِمْ وعُيُونِهِمْ جَمِيعاً بغير اسْتِثْنَاءٍ، فلا أحَدَ مِنْهُمْ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يُسْأَلَ أوْ يُجِيب.

قول اللّهِ عزّ وجَلّ:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

قَضَتِ الحكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ بَعْدَ تَرْهِيب الكافِرين في الآيات من (٦١ ـ ٦٦) إطْمَاعَهُمْ بالتوبَةِ من كُفْرِهم، وبالايمانِ بالْحَقّ الّذِي أمَرهُمْ رَبُّهُمْ أن يُؤْمِنُوا به، وبِعَمَلٍ صَالح فيه مَرْضَاةٌ للّٰهِ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ إيمانهم، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ فَسَوْف يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ رَبُّهُمْ مِن الْمُفْلِحِينَ يَوْمَ الدِّين.

«أمَّا» حَرْفٌ فِيهِ معْنَى الشَّرْطِ والتوكيدِ دَائماً، والتفصيل غالباً، وهو نائبٌ عن أداة الشَّرْط وجُمْلَتِه، ولهٰذا يُؤَوّل بـ «مَهْمَا يكُنْ مِنْ شيْءٍ».

• ﴿مَن تَابَ﴾: أي: مَنْ رَجَعَ إلَىٰ رَبّهِ طالِباً غُفْرانَهُ وعفْوَه مِمَّا كَانَ فيهِ مِنْ كُفْرٍ، ومَعْلُومٌ أَنَّ أَوَّلَ دَرَكاتِ الكُفْرِ الشِّرْكُ باللّٰهِ.

• ﴿وَءَامَنَ﴾: أي: وآمَنَ بما أوْجَبَ اللّٰهُ علَىٰ عبادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به.

الإيمان: تَصْدِيقٌ إرَادِيٌّ قَلْبِيٌّ بالحق، مَعَ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْب، ومِنْ شأنِه أَنْ يُوَجِّهَ الإرادَاتِ للسُّلُوكِ الّذي يقْتَضِيه الإيمان.

• ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي: وعَمِلَ عَمَلاً صَالحاً فِيه مَرْضَاةٌ لله، يُعَبِّرُ بِهِ المؤمِنُ عَنْ صِدْقِ إيمانِه.

• ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾:

عَسَىٰ: فِعْلٌ غَيْرُ متَصَرِّفٍ، مَعْنَاهُ المقارَبَة على سَبيلِ تَوَقُّعِ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبلاً مع رَجَحَانِ الْوُقُوع.

ومِثْلُ هذا التعبير إذَا حَمَلْنَاهُ علَىٰ أَنَّهُ مُوَجَّهٌ مِنَ اللّٰهِ لِعَبْدِه، فَهُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ بِهِ، بِشَرْط انْتِهاءِ رِحْلَةِ امْتِحانِ الْعَبْدِ وهُوَ متحقِّقٌ بالشُّرُوطِ الّتي رُتِّبَ عَلَيْهَا الْوَعْدُ.

ويحْتَملُ أَنْ تكُونَ الجملَةُ تَعْبِيراً عمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَشْعُرَ به الْعَبْدُ، بَعْدَ التوبَةِ والإيمانِ والْعَملِ الصالح، مِنْ رَجَاءِ أَنْ يَسْتَمِرَّ حَالَهُ كذَلِكَ ويَمُوتَ عَلَيْهِ، لِيَكُونَ مِن الْمُفْلِحِينَ تَحْقِيقاً لِوَعْدِ الله.

الفلاح: النَّجاة، والْفَوْزُ، والظفر. وأصْلُ الْفَلاحِ: البقاء في النعيم والخير. قال الأزْهَرِيّ: وإنَّما قِيلَ لِأهْلِ الْجَنَّةِ مُفْلِحُونَ، لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الأَبَد.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

هٰذهِ الآيَةُ جَاءَتْ لِبَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار، وَهٰذِهِ صِفَةُ رَبِّكَ أيُّها الْعَبْدُ الصَّالِحُ للخطابِ أيًّا كُنْتَ.

ويَدُلُّ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلَيْ: ﴿يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ على أنَّ مَشيئَتَهُ جَلَّ جلالُهُ، مَشيئَةُ اخْتِيار، إذ الاخْتيَارُ هُوَ مَشيئَةُ الْأَخْيَرِ والأفْضَل.

يقال لغة: «اخْتَارَ فلانٌ الشيءَ» أي: انْتَقاهُ واصطفاه، إذْ رآه الْأَخْيَرَ والْأَفْضَل، وهٰذا أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ المشيئة، ومن كَمالِ صفات اللَّهِ أَنْ يَشَاءَ مَا هُوَ الْأَحْسَنُ والْأَفْضَلُ من الاحْتِمَالَات الممكِنَةِ الَّتي يَشَاءُ مِنْها، ولَيْسَتْ مشِيئَاتُهُ سُبْحَانَهُ مشِيئَاتٍ غَيْرَ مَرْتَبِطَةٍ بحِكْمَتِهِ في الاختيار، بَلْ هُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ عَلِيمٌ حَكيم.

وَأَمَّا غَيْرُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَنْ في الْوُجُود فَمَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةَ فِي خَلْقِ شيءٍ مَا أيِّ شيءٍ.

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: اسْمٌ من «الاختيار» أي: لَيْسَ لَهُمْ اختيارٌ في خَلْقِ أيِّ شيء، ولا أنْ يَقْتَرِحُوا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَخْتارُونه، فَلا يَسْتحِقُّونَ شيئاً من الْإِلٰهيَّة.

وظاهرٌ أَنَّ هٰذهِ الآيَةَ آيَةٌ إقناعيَّةٌ للمشركين الّذِين سَبَقَ تَرْهيبهم في الآيات من (٦٤ ـ ٦٦).

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾:

أي: ولمَّا كَانَ الْعِبَادُ مَوْضُوعِين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، ولهذا أرْسَلَ اللَّهُ لَهُمُ الرُّسُل، وأنْزَلَ آيَاتِهِ فِي كُتُبِهِ لِتُتْلَىٰ عليهم، وكَلّفَهُمْ أنْ يَتَّخِذُوها ذِكْراً، وأنْ يَتّبِعُوها، فَيَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فيها، كَانَ ممَّا لَا بُدَّ مِنْهُ أنْ يَعْلَمَ ربُّكَ أيُّهَا الصَّالِحُ للخطاب كُلَّ شيءٍ تُكِنُّهُ صُدُورُ عبادِه، وكُلَّ شَيْءٍ يُعْلِنُونه، لِأَنَّ حِسَابَهُمْ يَوْم الدِّين، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأنِهم، يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مَا يَكْسِبُونَهُ بِإرَادَاتِهم الحرَّة مِنْ عَمَلٍ باطِنٍ تُكِنُّهُ صُدُورُهم كالعقائد والنيّات، وعَمَلٍ ظَاهِرٍ بجوارِحِهِمْ يُعْلِنُونَهُ مِنْ أقوالٍ وأفْعَال.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: مَا تَسْتُرُهُ صُدُورُهم، يُقَالُ لُغَةً: «كنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَكُنُّهُ كَنًّا» ويُقَالُ: «أَكَنَّهُ يُكِنُّهُ» أي: سَتَرَه.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ وفي القراءة الأُخرى: [وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ]. وقد سبَق بيان تكامل القراءتيْن في الأداء البياني.

جاءت هذه الآيَةُ خِتَاماً لهٰذا الدَّرسِ الثالث من دُروس السّورة، لرَبط مَا جاء فيه بخَمْسِ قَواعِدَ مِنْ أرْكَانِ الإيمان، في الدِّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده:

القاعِدَة الأُولى: أنّ الغيبيّ الخالِقَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيءٍ، ولَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ، والذي وضَعَ المكلّفين مِنَ الناس مَوْضع الامتحان في رِحْلَة الحياة الدّنيا، هُوَ الله، دلَّ عَلَيْها: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾.

القاعدة الثانية: أنَّهُ لا يُوجَدُ مَعْبُودٌ في الوجود يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُه، وكلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ معْبُوداتٌ باطلاتٌ، افْتَرَاها المشْرِكُونَ على رَبّهم. دَلَّ على هذه القاعدة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

القاعدة الثالِثَة: أنَّ جَمِيعَ الْحَمْدِ مَا يُدْرِكُ الْمَخْلُوقُونَ مِنْهُ، ومَالَا يُدْرِكُونَ، في الحياة الأُولَىٰ للخلائق، وفي الْحَيَاة الأُخْرىٰ يَوْمَ الدِّين، هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فيه، دَلَّ على هٰذِهِ القاعدة: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾: أي: لَهُ وَحْدَهُ كُلُّ الحمد، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيم الْخَبَرِ «لَهُ» على المبتدأ «الْحَمْد».

القاعدة الرابعة: أنّ لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمَ بَيْنَ العِبَادِ يَوْم الدِّين، لَا يُشَارِكُهُ فِيه نبيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّب، دلَّ على هٰذِهِ القاعدة: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وفي هذه العبارة أيضاً قصْرٌ دلَّ علَيْهِ تقديم الخبر «لَهُ» على المبتدأ «الْحُكْم».

القاعِدَة الخامِسَة: أنَّ جَمِيعَ الخلائق يَرْجعُونَ إلَىٰ رَبّهم يَوْم القيامَةِ، بإرْجاع اللَّهِ لَهُمْ بالْبَعث إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، ليُحَاسِبَ مَنْ كانَ مَوْضُوعاً مِنْهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وليفْصِلَ القضاءَ بشَأْنه، وليجازيه، دلّ على هذه القاعدة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ] .

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُروس سورة (القصص) والحمد لله على إمداداته وفتْحِه ومَنِّه وتوفيقه، وأسألُهُ المزيدَ من هباته، والتّسْدِيد في أمْرِي كُلِه، وأنْ يَرْزُقني الإخلاص في القول والعمل.



(٧)
التدبر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٧١ ـ ٧٥)

وهو دَرْسٌ يشتمل على تعليم مُناظرة جدليّة حَوْلَ رُبُوبيَّة اللَّهِ التي لا يُشَارِكهُ فيها أحد، والّتي تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً إلَهيَّتَهُ، وأنَّهُ لَا شَرِيك لَهُ في إلَهيَّته، مع إقناعات فكريَّة، وعلاجٍ تَرْهيبيّ.

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُول ﷺ فلكُلّ داعٍ إلى اللَّهِ من أُمَّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾.

القراءات:

- قرأ قنبل: [بضِئَاءٍ] بالهمزة بدل الياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بِضِيَآءٍ﴾.

وهُمَا وَجْهان في النطق جائزان، إلّا أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة ألْيَنُ في النطق.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾.

﴿سَرْمَدًا﴾: السَّرْمَدُ: الدائم الذي لَا ينقطع.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ أي: تَفكَّرُوا لِتَرَوْا، المراد بالرُّؤيَةِ هُنَا الرُّؤْيَةُ الفِكْرِيَّة الهاديَةُ إلىٰ الحق. والاسْتِفْهام يُرادُ بِهِ الْحَثُّ علَىٰ التَّفكّرِ والنظر التأمُّلِيّ الْعقْلِي.

التعليم في هذه المناظرة الجدَليّة الإقناعِيَّة، يُوجِّهُ الدَّاعِيَ إلَى الله وإلى تَوحِيدِه في الرُّبُوبيَّةِ والإلَهيّة، أنْ يَطْرَحَ علَىٰ المشْرِكينَ الَّذِين يَعْبُدون من دُون الله السُّؤال حَوْل ظاهِرَتَيْنِ من ظواهر تَدْبير اللَّهِ في كَوْنِهِ، رَحْمَةً بعِبَادِهِ سُكَّان الأرض.

هُمَا ظاهِرَتَا اللَّيْلِ والنَّهار، اللَّتَّانِ هُمَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بسُكَّانِ الْأَرْضِ، إذْ وَاءَمَ بَيْنَ مَا فَطَرهُمْ عَلَيْه، وبَيْنَ مَا أعَدَّ لَهُمْ في الأرضِ الّتِي اخْتَارَهَا لِيَسْكُنُوها.

ومن هٰذِهِ المواءمَةِ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ لَيْلاً ليسْكُنُوا فِيه، وجَعَلَ لَهُمْ نهاراً ليعملوا فيه أعْمَالاً يَبْتغون بها مَا يَنَالُونَهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عليهم في أرْزاقهم ومطالب حياتهم.

الداعي إلى الله يخاطب المشركين مُسَائلاً: أتَفكَّرْتُمْ في ظاهِرَتي اللَّيْلِ والنّهار، اللّتَيْن تفضّلَ اللَّهُ الرَّبُّ الخالِقُ الحكيم الذي يخْلُقُ مَا يَشَاءُ ويَخْتَار بهما على عباده في الأرض رَحْمَةً بهم.

لَوْ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلهُ ـ لَمْ يَجْعَلْ هٰذا النظام القائم بَيْنَ الْأَرْضِ والشَّمْس، إذْ تَدُورُ الْأَرْضُ حَوْلَ نَفْسِها باتّجاه الشَّمْسِ في نظام دَقيقٍ جدًّا لم يَخْرِمْ طَوالَ مَلايينِ الْأَحقاب، بَلْ جَعَلَ الْأَرْضَ مُظْلِمَةً دواماً، لَا تُشْرِقُ عَلَيْها شَمْسٌ يَجَعَلُ فيها نهاراً بَلْ كَانَ اللَّيْلُ فِيها سَرْمَداً إلَىٰ يَوْمِ القيامَةِ.

فَهَلْ آلِهَتُكُمْ الَّتي تَعْبُدُونها منْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، قَادِرَةٌ على أَنْ تَأْتِيَكُمْ بضِيَاءٍ مِنْ كَوْكبٍ من الكواكب الملْتَهبَة، فتَجْعَل علَىٰ أَرْضِكُمْ نَهاراً تُحقِّقُونَ فيهِ كثيراً مِنْ مَصَالِحِ حياتِكُم؟؟.

إنَّ أَحَداً من المشْرِكين لَا يَسْتَطِيع أنْ يَدَّعِيَ أنَّ إلَهَهُ أَوْ آلِهَتَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ.

إنَّهُمْ لَا يَجدُونَ جواباً لهَذَا السُّؤَال، بل يَصْمُتُون، وفي هٰذا الصَّمْتِ

إعْلَانٌ عَنِ اعْتِرافِهِمْ بأَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبُّ الخالق يفْعَلُ ذلك.

عندئذ يقول لَهُمُ الدَّاعي إلى اللَّهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: أي: أيْنَ آذانُكُمُ الّتي تَسْمَعُ بيَانَاتِ الْحقّ، وَتنْقُلُها إلىٰ أجْهزَةِ التفكير فيكم حتَّىٰ تَعْقِلُوها، أصُمَّتْ فأنْتُم لَا تَسْمعُون.

واختيرت في النصّ هُنا عَقِبَ هٰذ الطَّرْحِ الْجَدَلِيّ عِبارَة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟! لأنّ السُّؤَالَ يَتَعَلَّقُ باحْتِمالِ مَا لَوْ جَعَلَ اللَّهُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلىٰ يَوْمِ القيامة، فالظُّلْمَةُ يُلائِمُها السَّمْعُ لَا الْبَصر.

ومثل هذا من الاختيارات الفنيّة الأدبية.

السؤال الثاني الذي يَطْرَحُهُ الدَّاعي إلى اللَّهِ المناظر للمشركين، نظيرُ السؤال الأوّلِ تماماً إلّا أنَّهُ يَتَعَلَّقُ باحْتِمَالِ أنْ يَجْعَلَ اللَّهُ النَّهارَ سَرْمداً إلىٰ يَوْم القيامة.

أي: لو جَعَلَ اللَّهُ النَّهارَ على الأرض دائماً لَا يَنْقَطِعُ إلىٰ يَوْمِ القيامة، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أنْ تَأتِيَكُمْ بلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فيه؟؟

إنَّهُمْ لَا يَجدُونَ جواباً لهذا السُّؤال أيضاً، بل يصْمُتُونَ، وفي هذا الصَّمْت إعلان عن اعترافِهم بأنَّهُ لَا أحَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبُّ الخالق يفْعَل ذَلِك.

عندئذٍ يقولُ لهم الدَّاعي إلى الله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي: أيْنَ أَبْصَارُكُمُ الَّتي تُبْصِرُ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في كَوْنِه، وتَنْقُلُهَا إلى أجْهِزَةِ التَّفْكِيرِ فيكم، فَتَسْتَنْبطُونَ مِنْها أنَّهُ لَا رَبَّ في الكَوْنِ إلَّا اللَّهُ، فَلَا إلَهَ إلَّا هو، أعَمِيَتْ أَعْيُنُكُمْ فَأَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ.

واختير في النصِّ هُنَا عَقِبَ هٰذا الطَّرحِ الجدَلِيِّ عبارَة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟! لأنَّ السُّؤَال يَتعَلَّقُ باحْتِمَالِ مَا لَوْ جَعَلَ اللَّهُ النَّهار سَرْمَداً إلى

يَوْمِ القيامة، فالنَّهَارُ يُلائمة اسْتِخْدَامُ الْبَصَرِ لرُؤْيَةِ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في كوْنه. ومثل هذا مِنَ الاختيارات الفنيَّة الأدبيّة.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

هذه الآيَةُ بَعْدَ تَعْلِيم المناظرَة الْجَدَلِيَّة، جاءت معطوفةً على ما جاء في الآيات من (٦٨ ـ ٧٠) لبيانِ التَّرَابُطِ في السُّورَةِ الّتي تَجْمعها وَحْدَةُ مَوْضوع.

أي: من آثار رَحْمَة اللَّهِ جلَّ جلالُهُ بعباده، ذَات الظَّوَاهِرِ الكونيَّة المتكرّرة أنَّهُ جَعَلَ للنَّاسِ اللَّيْلَ ليَسْكُنُون فِيه، والنهارَ لِيبْتَغُوا أرْزاقَهُمْ وَمَطالِبَ حَيَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ.

والخطاب في: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ مُوَجَّةٌ للنَّاسِ جَمِيعاً، فهذا الْجَعْلُ الحكيم من مِنَنِ اللَّهِ علَىٰ عباده في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

وفي عبارة: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من البديع اللّفُّ والنَّشْرُ الْمُرَتَّبُ. فاللّف في: ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ والنَّشْرُ في: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أوَّلُهُما لأوّل ما في اللّف، وثانيهما لثاني مَا في اللّف.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: وَنرْغَبُ في أنْ تشْكُرُوا، لنَمْنحَكُمْ سعادة الدُّنيا والآخرة.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَين بَيَانُ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يوم الدِّين، غير المشْهَدِ الذي سبَقَ تَدَبُّرُهُ في الدّرس الثالث من دُروس السُّورة.

وجاء بَدْءُ المشْهَدِ مُماثِلاً لما بُدِءَ به المشْهَدُ السَّابق، وفي هٰذا المشْهَدِ يَكُونُ المشرِكُونَ مُجْمُوعِينَ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ أَوّلِهَا وآخِرِها، فَيُناديهم الرَّبُّ جلّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ، نِدَاءً مطابِقاً للنداء الّذي نَادَاهُمْ إيَّاهُ في المشْهَدِ السَّابق، فيقولُ لهم:

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؟.

لكِنَّهُمْ في هٰذا المشهد قَدْ يُوجَدُ فيهم مَنْ يَعْتَذِرُون بأَنَّهُمْ لَمْ يَتَبَلَّغُوا مَا يجبُ عَلَيْهم تُجاهَ رَبّهم، من أنَّ اتّخاذ الشُّرَكَاء للَّهِ كُفْرٌ به، وأنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بهِ، دَلَّ على هذا المطْوِيّ في النصّ مَا جاء في الآية (٧٥) مِنْ إحْضَارِ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ قَدْ بلَّغُوهم أنَّ الشِّرْكَ باللَّهِ وَلَوْ مِنْ أوّلِ دَرَكاتِ الشِّرك كُفْرٌ باللَّهِ، واللَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وأنَّ مَنْ مَاتَ وهُوَ على شِرْكِه بِرَبِّه سَوْف يكُونُ خالداً في عذاب النار.

فقال الله تعالى:

• ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: أي: وَجَذَبْنَا بِسُرْعَةٍ وأَخْرَجْنَا من كُلِّ جَمَاعَةٍ، مَنْ كَانُوا في الدُّنْيَا قَدْ بَلَّغُوا جماعَاتِهِمْ واجبَ اللَّهِ علَيْهِمْ، وحذّرُوهُمْ من الشِّرْك بالله، وأبانُوا لهم أن مَصِيرَ المشركين هو الخلود في عذاب النار يوم الدّين.

وأوّلُ هٰؤلَاءِ الشُّهَدَاء الْمُرْسَلُونَ والأنبياء، ثم كُلُّ الدُّعاةِ إلى الله من الذي آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ واتّبَعُوهم، وبَلَّغُوا النَّاسَ مَا تَلَقَّوْهُ عن الْمُرْسَلِين، مِنْ أُصُول الدّين فَفُرُوعه.

وبَعْدَ إحْضَارِ الشُّهَدَاءِ من الرُّسُلِ والأنبياءِ والدُّعَاةِ إلى اللَّهِ من أَتْباع

الرُّسل، يُدْعَوْنَ لِتَقْدِيم شَهَادَاتِهِمْ بأنَّهُم بَلَّغُوا وبيَّنُوا مَا يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُونَ مِنَ المشركينَ في مَوْقف الحسَاب يَوْمَ الدِّين.

فيقولُ اللَّهُ عزّ وجلّ للجاحِدِينَ من المشركين: هَاتُوا بُرْهَانَكُمُ الَّذِي يُثْبِتُ مَا تَدَّعُونَ، دَلَّ علَىٰ هٰذا: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

لكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ بُرْهَاناً يُثْبِتُ ما يَدَّعُون، وقَدْ بَهَتَتْهُمْ شَهَادَاتُ الشُّهَدَاءِ علَيْهِمْ، فيَخْضَعُونَ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ كُلَّهُ لِلَّهِ، ولَيْسَ لهم شيء مِنَ الحقّ، دَلَّ على هٰذا: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ وبَحَثُوا عَنْ شُرَكَائِهِمْ لِيَنْصُرُوهم، أو لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهم، فلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهُمْ، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أثراً، إذْ كانُوا أوهَاماً أو أَسْمَاءً هُمْ سَمَّوْها لَا حقيقة لها، دَلَّ على هٰذا: ﴿.. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: وَضَاعَ مِنْهُمْ شُرَكَاؤهم الذين كانُوا يَفْتَرُونَهُمْ على اللَّهِ رَبّهم.

الشُّهَدَاءُ يَوْمَ الدِّين في دَلَالَات النُّصُوص القرآنيّة:

(١) جاء في القرآن بَيَانُ أَن النبيّين والشُّهَدَاءَ على النّاسِ من غير النبيّين يُؤْتَىٰ بِهِمْ، ليُؤَدُّوا شَهادَاتِهم علَىٰ الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لبلاغاتهم الّتي بَلَّغُوا بِهَا آيَاتِ رَبّهم، ومطالِبَهُ من عباده في رحلة امتحانهم:

● فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحفٌ/ ٥٩ نزول) بَشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامة:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: وجيء بالنبيّين وبالشُّهَدَاء من غيْرِ النبيّين، لِيَشْهَدُوا علَى أهل الجحود بأنهم بَلَّغُوهم آيات رَبّهم، ومطالِبَهُ من عباده في رحلة امتحانهم، والكتاب الذي يُوضع يَنْبَغِي أن يكون كتابَ أعْمالِ العباد، فهو المناسب

للشهداء وللقضاء بينهم بالحق، وقد يكون كتاباً عامًّا جامعاً لكل الكتب التي وزِّعَتْ عليهم وفيها تسجيل أعمالهم.

• وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وَيَوْم القيامَةِ نَبْعَثُ مِنْ كلِّ أُمَّةٍ كُبرَىٰ أو صُغْرَىٰ شَهِيداً من النبيِّين أو من غَيْرِ النبيّين من الدُّعاة إلى اللَّهِ أتباع الْمُرْسَلِين، لِيَشْهَدوا على الناسِ بأنَّهمُ بَلَّغُوهم رِسَالَاتِ رَبّهم.

ثُمّ بَعْدَ الْحُكْم على الّذِين كَفَرُوا بالكُفْرِ وباسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ في عذاب النار، لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ بأَنْ يُجادِلُوا أَوْ يَعْتَذِرُوا، وإذا سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَتَجاوزَ عَنْ جَرَائِمِهم، فَإِنَّهُمْ لَا يُسْتَعْتَبُون.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: ولَا هُمْ يُرْفَعُ عَنْهُمُ الْعَتْبُ واللَّوْمُ بالْعَفْوِ أو الْغُفْران، لِأَنَّ جَرَائِمَهُمْ هي من دَرَكاتِ الكُفْرِ الَّذِي لَا عُذْرَ لَهُمْ به.

• وقول الله عزّ وجلّ الذي سبق تدبّره آنفاً من سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا . . . ﴿٧٥﴾﴾.

(٢) وجاء في القرآن بالنسْبَة إلى رسُولِ اللَّهِ مُحَمَّد ﷺ، والدُّعاة إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّته.

• قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَيومَ القيامَةِ نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمَّةٍ كُبْرىٰ أَوْ صُغْرىٰ شهِيداً عَلَيْهِمْ

هُو مِنْ أَنْفُسِهِمْ لُغَةً وانْتِمَاءً، من النبيّين، أو من غير النبيّينَ، من الدُّعَاة إلَىٰ الله أتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، لِيَشْهَدُوا على الناس، بأنَّهُمْ بَلَّغُوهم رِسَالَاتِ رَبّهم.

وجئْنا بِكَ يَا مُحَمَّدُ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تُبَلِّغُهُمْ رِسَالاتِ رَبّك، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بمَا بَلَّغْتَهُمْ إيَّاه.

﴿.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ المشتَمِلَ على ما يلي:

أ ـ أنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ من الْأشياء الَّتي فيها نجاتُهُمْ يَوْم الدِّين وفَوْزُهم بجَنَّاتِ النعيم.

ب ـ وأَنَّهُ هُدًى يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ صِرَاطِ سَعادَتِهِم في دُنْيَاهم وآخِرَتهم.

جـ ـ وأنَّهُ رَحْمَةٌ لَهُمْ إذْ يُرْشِدُهُمْ إلى ما يَدْفع عنهم الضُّرَّ والْأذى، ويَجْلُبُ لَهُمُ الْخَيرَ العظيم في الحياة الدنيا وفي الآخرى.

د ـ وأنَّهُ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمين يُبَشِّرُهم بِرضوانِ اللَّهِ عليهم، وبالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في الجنَّةِ يوم الدين.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لأمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ اللَّهَ عزَّ وَجلَّ اصْطَفَىٰ ـ بصِفَةٍ عامَّةٍ ـ أمَّةَ مُحَمَّدٍ خَاتم المرسَلِينَ، لَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِهم، فجعلَهُمْ ـ بصِفَةٍ عامَّةٍ ـ عُدُولاً (وَسَطاً) إذْ لَا تَزَال طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ظاهِرِينَ على الحقّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ

خَالَفُهُمْ، وبِسَبَبِ ذَلِكَ تَكُونُ شَهَادَاتُهُمْ مَقْبُولَةً عند اللَّهِ على النَّاسِ يَوْمَ الدِّين، بأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ للناسِ كَمَا تبَلَّغُوها مِنَ الرَّسُول ﷺ، أوْ تبَلَّغُوهَا عَنْهُ بالسَّنَدِ المتَّصِلِ الْقَطْعِيّ، باعْتِبَارِ أنَّهم أُمَّةُ دَعْوَةٍ إلىٰ اللَّهِ وإلى صراطِهِ المستقيم، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُبَلِّغُوا الناسَ جميعاً رِسَالَاتِ رَبّهم الّتي أنْزَلَها على خَاتم أنبيائه ورُسُله، علَىٰ تَوَالي الْعُصُور والأحقاب.

• وقول الله عزّ وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً للّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾:

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: أي: هو اصْطَفَاكُمْ واختارَكُمْ مِنْ بَيْنِ جميع الأمم لتبليغ رِسَالَاته للناس.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾: أي: وَمَا جَعَلَ عليكم في الدِّين الذي أنْزَلَهُ على رَسُوله مُحَمَّد مِنْ ضِيقٍ وَشِدَّة، بَلْ هُو يُسْرٌ سَهْلٌ لَا إصْرَ فِيه.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾: أي: من قَبْلِ بِعْثَةِ محمد ﷺ، ومِنْهُ قولُهُ عليه السلام في دُعائه وهو يبني الكعْبَةَ مَعَ وَلَدِهِ إسماعيل عليهما السلام:

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ . . . ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة).

﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وَفي هٰذا الدِّين أنْتُم مُسْلِمُون.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنَّهُ بَلَّغَ رِسَالات رَبه.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: إذا قُمْتُمْ بواجِبِكُمْ فَبلغْتُمْ رِسَالات ربكم للناس. وبهذا انتهى تدبّر الدرس الرابع، والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (القصص) الآيات من (٧٦ ـ ٨٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

القراءات:

(٧٨) • قرأ نافع، وقنبل، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[عِنْدِيَ أو لم]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٧٨) • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [عَنْ ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِمِ» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَفٌ بضَمِّهِما، وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء وضمّ الميم.

(٨١) • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِيَةٍ] بالياء بَدَل الهمزة. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة ﴿مِن فِئَةٍ﴾ بالهمزة.

(٨٢) • قرأ حفص، ويَعْقُوب: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لَخَسَفَ اللَّهُ بنا. وقرأها باقي القرّاء العشرة [لَخُسف بِنَا] بالبناء لما لم يُسَّم فَاعِلُهُ.

ومَعْلُومٌ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هُوَ الّذي يَخْسِفُ بهم إنْ شاء.

تمهيد:

في هذه الآيات بيانُ لقَطَاتٍ مِنْ قصّة قارُون، وفي هذه اللّقطاتِ عِبْرَةٌ يَعْتَبر بها أولُو الْألبابِ الّذِين يُؤْمِنُون بالله وحكْمَتِه وعَدْله، ويُؤْمِنُونَ بيَوم الدّين، إذْ لقِصَّةِ قارُونَ أشْبَاهٌ كثيرة في التاريخ الإنْسَانيّ، ولَا يَزَالُ كثيرونَ منَ النّاسِ يُكَرِّرُونَ ما صَنَعَ قارُون، ويُنْزِلُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ عُقُوبَاتِهِ فيهم، بوجْوهٍ مخْتَلِفة غَيْرِ الْخَسْفِ الّذِي عاقَبَ بِه قارُونَ ومَنْ مَعَهُ علَىٰ قبائحهِ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبْقَىٰ.

وقصَّةُ قارُون وهُو مِن بني إسرائيل ذاتُ صلَةٍ فكْرِيَّةٍ بقِصّة فرعونَ في السّورة وهُوَ من المصْرِيين، وفيهما دلالة على أنّ سُنة الله في عباده واحدَةٌ فَمَن طغى وبَغَىٰ أهْلَكَهُ الله وعاقبَهُ بما هو له أهل، والعبرة فيهما متشابهة.

مختارات مِنْ قصة قارُونَ عِنْدَ أهْلِ التّاريخ مع مفهومات أخرى:

(١) رُوِي عن ٱبْن عباسٍ أنَّهُ كان ٱبن عَمّ مُوسَىٰ، فهو من الإسرائيليين في مصر، وقيل بشأن قرابتِهِ لموسى عليه السلام غير ذلك واللَّهُ أعلم.

(٢) تَدُلّ قرائنُ قصّتهِ أنَّهُ تَزَلَّفَ إلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، فمكَّنُوهُ مِنْ جَمْعِ ثَرْوةٍ

مَالِيَّةٍ عظيمةٍ في مصر، ليكُونَ عيْناً وَيَداً لهم على الإسْرَائيليين وهو مِنْهُمْ نَسَباً وقَوْميَّةً، فيكُون خادماً مُطِيعاً مِنْ خدّام الْقَصْرِ الفرعونيّ في قَوْمِه.

(٣) جمع من الأمْوال واكْتَنَزَهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَة، وأقْفَلَ عليها بأقفالٍ ذاتِ مَفاتيحَ، ولكَثْرَةِ هٰذِهِ المفاتيح وثِقَلِها تضْعُفُ الجماعةُ من الناس عن حَمْلِها بنَشاطٍ وقوَّة، فإذا حَمَلُوها مالَتْ ظُهُورُهم من ثِقَلِها عجْزاً عن النُّهُوضِ بها قَائمين، إذْ كانت مَفَاتيح حَدِيديَّة كبيرة تُلَائمَ الأقفال العظمية التي تقفَلُ بِها أبواب الكنوز.

(٤) وكان «قارون» يتعاظم علىٰ بني إسْرَائيل ويتبَاهَىٰ مُتفاخِراً بأمْوَالِه، ومَرَاكِبه، وَخَدَمِهِ، وزينَتهِ، إغراءً لكبراء قَوْمِهِ أنْ يكُونوا مثْلَه أعْوَانَ الْقَصْرِ الفرعَوْنيّ علَىٰ قَومِهِمْ، حَتَّىٰ لا يَثُوروا على التَّسْخِير والاسْتعبادِ الذي هُمْ فيه.

(٥) وعَظَهُ الناصِحُونَ أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والإيمانِ من قومه الإسرائيليين، فقالُوا لَهُ: لَا تَفْرحْ مُسْتَكْبِراً بما آتاكَ اللَّهُ من أمْوالٍ وزِينَةٍ وَخَدَمٍ وأعْوَان، وابْتَغ في هٰذا الّذِي آتاكَ اللَّهُ إيَّاهُ ثوابَ الدَّارِ الآخرة، ودرجاتِ النعيم في الجنَةِ دَارِ الخلُود يَوْمَ الدّين، ولَا تَنْسَ أنْ تَأخُذَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا، لحاجات حياتِكَ ومطالِب نَفْسِك ممَّا أبَاحَ الله.

ورأَوْهُ شحيحاً بخيلاً، لا يُقَدِّمُ إحساناً ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فقالوا لَهُ: وَأَحْسِنْ إلى النَّاسِ كما أحْسَنَ اللَّهُ إلَيْك، شُكْراً لله على مَا آتاك.

ورَأَوْهُ مُفْسِداً يَبْتَغِي بإفْسَادِه مصَالِحَ نَفْسِهِ، وخِدْمَةَ فرعونَ وآله، ضِدَّ قَوْمِهِ بني إسْرَائيل، فقالوا له: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ في الأَرْضِ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين، أي: فَهُوَ يَنْقِمُ عليهم ويُعَاقِبُهم.

فاسْتَكْبَرَ عَنْ أنْ يَعْتَرِفَ بأَنَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ أمْوَالٍ وَمَتَاعٍ وزِينَاتِ الحيَاةِ الدُّنْيَا، هو من فضلِ اللَّهِ عليه، وأَنَّ اللَّهَ هُو الّذي آتاهُ ذَلِك، فَرَدَّ علَىٰ

نَاصِحِيهِ بكلِمَةِ كُفْرٍ بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَمنَّتِه علَيْه، فقال لَهُمْ جاحداً نِعَمَه: إنَّمَا أُوتِيتُ هٰذا الَّذِي أَمْلِكُهُ مُكافَأَةً كَوْنِيَّةً لي علَىٰ عَلْمٍ عِنْدِي بأسْبَابِ تَحْصِيلِ الثَّرَواتِ، وحُسْنِ التَّدْبير والتَّصرُّفِ في اكْتِسَابِ الأمْوالِ والمنافع واللَّذَّاتِ والزِّينَاتِ وَمظاهر المجْدِ والعظمة.

(٦) وَإمْعَاناً في تَعَاظُمِهِ واسْتِكْبَارِه علَىٰ قَوْمِهِ، أرادَ أَنْ يُظْهِرَ لقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائيل مَا هُوَ فِيه من غِنَىٰ وَمَجْدٍ وعظَمَةٍ وَزِيناتٍ من زِيناتِ الحياة الدّنيا، فأعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكباً كبيراً مُحلّىً بالزِّينات، فيه المراكب الّتي تَجُرُّهَا الْخُيُولُ علَىٰ مَا هُو مَعْتَادُ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِي، وفيه الْخَدَمُ والْحَشَمُ والأعلامُ التزينيَّةُ وغَيْرُ ذَلِكَ مِن مظَاهِرِ الْعَظَمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَخَرَجَ يَمُرُّ بهذا الموكِب في طُرُقَاتِ أحْيَاءِ وَمَسَاكِنِ بني إسرائيل في مصر، ولَا بُدَّ أَنْ يكُونَ ذَلِك بإذْنٍ من الْقَصْرِ الفِرْعَوْني، إذْ فِيه تَقْوِيَةٌ شَأْنِهِ بَيْنَ قَوْمه.

فكان بَنُو إسْرَائيلَ في أَحْيَائهم وَمَسَاكِنِهم وهُوَ مَارٌّ بمَوْكِبهِ الْفَخْمِ في طُرُقَاتِهِمْ فَرِيقين:

الفريق الأول: فَرِيقُ الدَّهْمَاء، وهُمْ عَامَّة النَّاسِ وسَوَادُهم الأكْبَر، الّذِين تَغُرُّهُم وَتَفْتِنُهُمْ مظاهِرُ الحيَاةِ الدنيا وَزِينَاتُها، ونُفُوسُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بها، ولمَّا رأىٰ هٰؤلَاء مَوكِبَ قَارُونَ بعظَمَتِهِ وَزِينَاته قالُوا: يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِي قارون، إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عظيم.

الفريق الثاني: الْقَلِيلُونَ الَّذِين أُوتُوا الْعِلْمَ الْحَقّ، والبَصِيرَةَ الواعِيَةَ، وقُلُوبُهُمْ ونُفُوسُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بالآخِرَةِ، وَثَوابِ اللَّهِ العظيم فيها.

وهؤلاء لمَّا رَأَوْا مَوْكِبَ قَارُونَ لَمْ يَغْتَرُوا به، ولَمْ يَكْتَرِثُوا له، ورَأَوْا أنَّ ثوابَ اللَّهِ يَوْم الدِّينِ خَيْرٌ وأعْظَمُ وأبْقَىٰ.

وسَمِعَ هٰؤلاء مقالَةَ فَرِيق الدَّهْماء فقالُوا لهم: وَيْلَكُمْ مِنْ تَمَنِّيكم أَنْ تُؤْتَوْا مِثْلَ ما أُوتِيَ قَارُون، ومِنْ تَصَوُّرِكُمْ أَنَّهُ لَذُو حظٍّ عظيم، اعْلَمُوا أَنَّ

ثوابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ خَيْرٌ وأجَلُّ وأعْظَمُ وأبْقَىٰ، لِمَنْ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وعَبَّرَ عِنْ صِدْقِ إيمانِه بِعَمَلٍ صَالِحٍ فيه مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزَّ وجل، واعْلَمُوا أنَّ صفاتِ الْإيمانِ الصحيح الصّادِقِ، مع التعبير عنْهُ بالْعَمَلِ الصَّالح، مَا يُلَقَّاهَا بتوفيق اللَّهِ ومَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ إلَّا الصَّابِرُون، الّذِين لَا يُعْطُونَ نُفُوسُهُمْ هواها، فيكفُونَ نَفوسَهُمْ عمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عليهم صَابِرِينَ، ويؤَدُّونَ ما يُقَرِّبُهُمْ إلى اللَّهِ مِنْ أعمالٍ تَشُقُّ علىٰ نفوسهم صابرين، بإرادات قويَّةٍ تَشُدُّهُم إلَىٰ ما أعَدَّ اللَّهُ لِعِبادِهِ الصَّالِحين في جناتِ النّعيم يوْمَ الدّين.

(٧) رُوِي أنَّ قَارُونَ أعْطَىٰ امْرَأةً بَغِيًّا مَالاً، لتَقُولَ لموسَىٰ في مَلأ من بني إسْرَائيلَ إنَّكَ زَنَيْتَ بي، ففَعَلَتْ هٰذِهِ الْبَغيُّ مَا طَلَبَ مِنْهَا قارُون، فانْتَفَضَ مُوسَىٰ علَيْهِ السَّلامُ مُغْضَباً، وصَلَّى لِرَبِّه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أقْبَلَ على المرأةِ البغيّ، فاسْتَحْلَفَهَا بِشَأْنِ ما زَعَمَتْ، وقال لَهَا: مَا حَمَلَكِ علَىٰ هٰذا؟ فَقَذَفَ اللَّهُ في قَلْبِهَا رُعْباً، فَقَالَتْ: إنَّ قَارُونَ هو الّذِي اسْتَأْجَرَها لِتَقُولَ هٰذِهِ الْفِرْيَة، واسْتَغْفَرَتْ، فَخَرَّ مُوسَىٰ لِلَّهِ سَاجداً، ودَعَىٰ علَىٰ قارون.

(٨) فَخَسَفَ اللَّهُ بقارُونَ وبدارِهِ الْأَرْض، ولَمْ يَجِدْ أَحَداً يَحْمِيهِ مِنْ عِقَابِ الله، ولَمْ يَجدْ لَدَىٰ آلِ فِرْعَوْن مَنْ يَنْصُرُه، لِأَنَّ رَبَّهُ قَدْ أَنْزَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ خَسْفاً فَأهْلَكَتْهُ وابْتَلَعَتِ الأرْضُ دَارَهُ وكُنُوزه ومَنْ قَضَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإهْلَاك من أهله وأنْصارِه، وأقْبَرَهُمُ اللَّهُ في بَاطِنِ مَكانِ الْخَسْفِ، وكانَ هٰذا لَيْلاً أوْ عِنْدَ الْفَجْر.

(٩) أمّا فِرِيقُ الدَّهماء الّذِين سَبَقَ أَنْ تَمَنَّوا أَنْ يكون لَهُمْ مِثْلُ مَا آتَىٰ اللَّهُ قارُون، فَقَدْ أصْبَحُوا يَقُولُونَ مُذْعِنِينَ لحكْمَةِ اللَّهِ ومعترفين بفَضْلِ اللَّهِ عليهم إذْ لم يَجْعَلْهمُ مِثْلَ قَارُون، وعَالِمِين بأَنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ وتضييقه إنَّما هُما لِحِكْمَةِ امْتِحانِ كُلِّ فَرْدٍ بما آتاه الله، ولَيْسَ مَنْ بَسَطَ الله

لَهُ الرّزقَ قَدْ فضَّلَهُ رَبُّهُ بذلك على مَنْ قَدَرَ عليه الرّزْق، بل قد يكونُ سَبَبَ طغيانِهِ وَهَلاكه، وأصْبَحُوا يُدْرِكُون أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِم إذْ لَمْ يَجْعَلْهُم مِثْلَ قَارُون، إذْ لو كانوا مِثْلَهُ لكانَ من المحتَمِلِ أَنْ يَطْغَوْا مثْلَما طَغىٰ، وأَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابُ اللَّهِ مِثْلَمَا نَزَلَ به، وأعْلَنُوا أنَّهُ لَا يُفْلَحُ الْكَافِرُونَ.

توجد مَرْويَّاتٌ في قِصَّةِ قارونَ ما اسْتَسَغْتُها، ولم أَجِدْ لَهَا أسَانِيد تَجْعَلُها مقْبُولَةً فيما يُرْوىٰ، فَأَعْرَضْتُ عنها.

التَّدبُّر التحليلي:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

• ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾:

«قارُون» كان ابن عم مُوسَىٰ في أرْجَح الرّوايات، ولفظه ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيّة والْعُجْمَة.

• ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: أي: كَانَ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، وجَرَتْ أَحْدَاثُ قِصَّتِه الآتِية إذْ كَانُوا يُنْسَبُونَ إلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بَعْدَ عَوْدَتِه مِنْ مَدْيَنَ نَبيًّا وَرَسُولاً، فَهُمْ قَوْمُ مُوسَىٰ من ذلِكَ الحين، إذْ كان قائِدَهم والمطالِبَ بحُقُوقِهِمْ، عِنْدَ فِرْعَوْن وآلِهِ وسَائِر السُّلْطة الحاكمة في مصْرَ حينَئذٍ.

• ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: أي: فَظَلَم قَوْمَهُ الإسْرَائيليّينَ وفي مقدمَتِهِمْ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهم، وصَار يَنْشُر فيهم الفساد والإفساد.

البغي: تجاوُزُ الحَدِّ المألُوفِ نظيرُه لَدىٰ الجائرين عن الصراط المستقيم، ويُطْلَقُ علَىٰ الْغُلُوّ في الكِبْر، والظُلْم، والفساد والإفساد في الأرض.

ومِنْ بغْيِهِ على مُوسَىٰ عليه السّلام مَا جاء في قصَّتِه عند المؤرخين من أنَّه اسْتَأْجَرَ امرأةً فاجرَةً لتَتَّهِمَهُ بأنَّهُ فَجرَ بها، فَصَلَّىٰ مُوسَىٰ عليه السلام ركْعَتَيْن، وتَوَجَّهَ لها سَائِلاً مَنِ اسْتَأْجَرَك للافتراء عليَّ، فقالَتْ أمَامَ جُمْهُورِ قَوْمِهِ: قَارُون، فظَهَرَتْ بَراءَتُهُ وَخَسِئَ قارون.

ومَا كان باسْتِطَاعَة «قارون» أنْ يَبْغِيَ على قَوْمِهِ وهُوَ مِنْهُم لَولَا أنَّهُ تَزَلَّفَ إلَىٰ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي، وجَعَلَ نَفْسَهُ خادِماً لمصَالح فِرعَوْنَ وآلِهِ فِي قَوْمِهِ، ضِدَّ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ومَن اتَّبَعَهُمَا، فَمَكَّنَ لَهُ فِرْعَوْنُ فِي مِصْرَ أَنْ يَجْمَعَ أمْوالاً كثِيرَةً وَيَكْنِزَهَا في كُنُوز، وأنْ تَكُونَ لَهُ مظَاهِرُ سُلْطَانٍ واسْتِكْبارٍ علَىٰ قَوْمِهِ، ليكُونَ عَوْناً للْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ علَىٰ إذْلَالِ بَنِي إسْرَائيل في مِصْر، وتَسْخِيرهم واسْتِعبادهم.

• ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾:

الكُنوز: جَمْعُ مُفْرَدُه «الكَنْز» وهو المال من الذَّهَب والفضّةِ والجواهِرِ الكريمة ونحو ذلِكَ، الَّذِي يُدْفَنُ في باطِنِ الأَرْض، أو في أَمَاكِنَ حَصِينَةٍ دَاخِلَ مَبَانِي لَا يُسْتَطاعُ الْوُصُول إلى داخِلِها إلَّا بقُوىً عظيمةٍ تُفُوق الْقُوَىٰ المعتادة للناس.

وقَدْ آتىٰ اللَّهُ عزّ وجَلَّ قَارُونَ بتَمْكِينهِ منَ الوسائل السَّببيَّةِ كنُوزاً كثيرةً، اكْتَنزَها فِي مَباني حصينَةٍ، ذَاتِ أبوابٍ تُقْفَلُ بإحْكَام بالِغ، فَلَا تُفْتَحُ إلَّا بمَفَاتِيحَ خَاصَّةٍ بها، وقَدْ جَمَعَها فِي ظِلِّ خِدْمَتِه لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ ضِدَّ قَوْمِه.

• ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾: «مَـا» اسْـمُ مَـوْصُـول بِمَعْنَىٰ الّذي «إنَّ» واسْمُها وَخَبَرُها صِلَةُ الموصول، ولهٰذا جاءت «إنَّ» مَكْسُورةً.

﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾: الضمير يَعُودُ على اسْم الموصول «ما» ولفظ «مَفَاتِح» جَمْعُ «مِفْتَح» وهو المفْتَاح، وفي الجمع يُقال: «مفاتح» و«مَفَاتِيح».

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾: يقالُ لُغَةً: «نَاءَ بالرَّجُلِ الْحِمْلُ» أي: ثَقُلَ عَلَيْهِ فَأَمَالَهُ عَجْزاً عَنِ النهوض بِهِ قَائماً.

و«الْعُصْبَةُ» هِيَ الجمَاعَةُ مِنَ النَّاس.

فَدَلَّت الْعِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ مَفَاتِحَ أَبْوابِ كُنُوزِ قَارُونَ، إذَا حَمَلَتْهَا الجماعَةُ منَ الرِّجال ذَوِي الْقُوَّةِ، مَالَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ ثِقَلِهَا عَجزاً عَنِ النُّهُوضِ بها قَائمين.

أقول: هٰذا يَسْتَلْزِمُ ذِهْناً أَنْ تَكُونَ مَفَاتيح حَدِيدِيَّةً كبِيرَةً، تُفْتَحُ بِهَا أقْفَالٌ عظيمَةٌ مَثْبَتَةٌ فِي أبواب الكنوز، أمّا ما قيل من أنّها صغيرة، أو مِنْ جُلُودٍ فغيْرُ مقْبُولٍ عقلاً.

وقال لَهُ عُقَلاءُ قَوْمِهِ ورَاشِدُوهُمُ المؤمِنُونَ، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ في مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونُ عَلَيْهِما السلام، خَمْسَ مَقَالاَتٍ نَصَحُوهُ وَوَعَظُوهُ بها، جاء في هٰذا النَّصِّ بيَانُ عُنْوَانَاتِها، وهيَ كما يلَي:

المقالَةُ الأولَىٰ: دلَّ عليْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي أيّاً كُنْت قَوْلَ قوم قارونَ له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ يأتي الفَرَحُ في اللُّغَة بمعنىٰ البَطَرِ والأَشَر، أي: بمعْنَىٰ الاسْتِكْبَارِ والتفاخِرِ والتَّعَالي علَىٰ الناس، ومعْلُومٌ أنَّ مَنْ فَرِحَ بكَثْرَةِ أمْوَالِه، طَغَىٰ

فَرحُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ فَطَمَسَها، فَصَارَ يَتَصَرَّفُ تَصرُّفَ الطُّغَاة، وهذا المعنَىٰ هو المراد هُنَا مِنَ النَّهْي عَنِ الْفَرح.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: أي: كُنْ عَلَىٰ حذَرٍ من نِقْمَةِ اللَّهِ علَيْكَ وعِقَابه، فَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بإرادَتِهِ في زُمْرَةِ مَنْ لَا يُحِبُّهم اللَّهُ عزّ وجلّ، فَقَدْ جَعَلَها عُرْضَةً لِنقْمَةِ اللَّهِ وعِقَابِهِ الشديد.

فالعبارة استخدمَتْ على سَبِيلِ الكنايَةِ للتَّرْهِيبِ من عقابِ اللَّهِ الشديدِ ونِقْمَتِه، كما عاقَبَ الْفَرحينَ المسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِه.

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عزّ وجل: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾: **وابْتَغ**: أي: واطْلُب، يُقَالُ لغة: «بَغَىٰ الشَّيْءَ وابْتَغَاهُ، أي: طَلَبَه.

المعنى: واطْلُبْ فيما آتاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ كثيرٍ، وَوَافِرٍ مِنْ زِينَةِ الحياةِ الدُّنْيَا، وتَمَكُّنٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، ثوابَ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، لأَنَّهُ ثوابٌ خَالِدٌ فِي جَنَّاتِ النعيم، فاعْمَلْ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ لِيَبْلُوكَ، أعْمالاً صالِحَةً تُرْضِي اللَّهَ عَنْكَ، فَيُدْخِلَكَ فِي رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلَكَ من الخالِدِينَ في جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّين.

المقالَةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

هٰذِه مَقَالَةٌ احْتَراسِيَّةٌ تَكْشِفُ حُدُودَ المنْصُوحِ به في المقالة الثانية، أيْ: ولَا تَفْهَمْ أَنَّنا نَنْصَحُكَ، أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ ما آتاكَ اللَّهُ مُوَجَّهاً لتَحْصِيلِ ثَوَابِ الآخِرَةِ في جنَّاتِ النَّعيم، بَلْ نَقُولُ لَكَ أيْضاً: وَلَا تَتْرُكْ نَصِيبَكَ الَّذِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَمْتِعَ به مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ ما تُحِبُّ أَنْ تكُونَ مُرَفَّهاً فِيهِ أنت ومَنْ تُحبُّ ممَّا أحَلَّ اللَّهُ لك.

أَصْلُ معْنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ التَّرْكُ، وهٰذا المعنى هو الملائم هنا.

المقالة الرابعة: دلَّ عليْها قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾:

تَدُلُّ هٰذِهِ النَّصيحَةُ الموجَّهَةُ لقَارُونَ مِنْ قَوْمِه وفي مقدمتهم موسَىٰ وهارونُ عليهما السلام، علَى أنَّ قَارُون كان شحيحاً مُمْسِكاً، لا يُسَاعِدُ فُقَراء قَوْمِهِ وضُعَفَاءَهم ومَسَاكِينَهُمْ وذوي الحاجاتِ فيهم، بَلْ يَتعاظَمُ ويَسْتَكْبِرُ ويتَفَاخَرُ عَلَيْهِم، دُونَ أَنْ يُحْسِنَ إلَىٰ ذَوِي الضَّرُوراتِ والحاجَاتِ فيهم، بمالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَل.

يقال لغة: «أَحْسَنَ الرَّجُلُ إِحْسَاناً» أي: فَعَلَ مَا هو حَسَنٌ، كَبَذْلِ مالٍ في وجْهٍ مِنْ وُجُوه الخير الّتي يُبْتَغَىٰ بِها وَجْهُ اللَّهِ عزّ وجلّ، وكتَوْجِيه نَصِيحَةٍ حَسَنَةٍ بقَوْلٍ لَيِّنٍ رَفيق، وكَمُسَاعَدَةٍ بِعَمَلٍ مِنَ الأَعْمَالِ الحسَنَةِ ممَّا يُحِبُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِعْلَهُ.

وتُطْلَقُ الحسَنَةُ علَىٰ الصَّدَقَة، وكلُّ هٰذه المعاني ملائمة لحَمْلِ المقالَةِ علَيْها، لكن يأتي في مُقَدِّمَتِها بالنِّسْبَةِ إلى قارُون، دَعْوَتُهُ إلى الإحْسَانِ بِبَذْلِ مَالٍ ممَّا أَحْسَنَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ في وُجُوهِ الخير والبّر.

وَلَا يَرِدُ هُنَا معنَىٰ الْإِحْسَانِ في العبادة الّذي هُو المرتَبَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِب عبادة الله «التَّقْوىٰ والْبِرّ والإِحْسَان» فَقَدْ جاء تفسير هٰذا الإحسان في بيان الرَّسُول ﷺ بقوله: «أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاه».

فَدَعْوَة قَارُونَ إلى أَنْ يُحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، دعْوَتُهُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا هُو حَسَنٌ كَمَا سبَقَ بيانه.

المقالة الخامسة: دَلَّ علَيْها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الْفَسَادُ: التَّلَفُ الّذي يُصِيبُ شيئاً مَا، ويُحَوِّلُهُ مِنْ كَوْنِه صَالحاً نافعاً،

إلى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالحٍ ولا نَافع، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضَارًّا كريهاً مُفْسِداً لِغَيْرِه من الأشياء الصَّالِحَة.

ويَشْمَلُ الْفَسَادُ الماديّاتِ، والمعنويات النفسيَّة، والمفْهُومَاتِ الفِكْرِيَّة، فَإِتْلَافُ المباني الصالحة والمزارع النافِعَةِ مِنَ الإفْسَادِ في الأرْض، وتَرْبِيَةُ النُّفُوسِ علىٰ الحقْدِ والحَسدِ، وكَيْدِ الناس وسَلْبِ أموالِهم بغَيْرِ حقٍّ، والطَّمَعِ بمَا آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وإفْقَارِهِمْ وإذْلَالِهِمْ وتَسْخِيرِهِمْ بالإكْرَاهِ، واسْتِعْبَادِهِمْ بغَيْر حقٍّ، من الْإِفساد في الأرض، وَطَرْحُ الشُّبُهَاتِ ضِدَّ أرْكانِ الْإِيمان، وأرْكانِ الإسلام، وأحْكَامِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لعِبَادِهِ، في الأخْلاقِ، والمعاملات، والعباداتِ المحْضَة، والآدابِ، وغَيْرِ ذَلكَ، من الإفساد في الأرض.

هٰذِهِ النصيحة الموَجَّهَةُ لقارُونَ مِنْ قِبَلِ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ وأَهْلِ الرُّشْدِ فيهم وفي مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَىٰ وهارُونَ عليهما السلام، تَدُلُّ على أنَّ قَارُونَ كَانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ يَحْصُلُ بِهَا فَسَادٌ في الْأَرْضِ، كظُلْمِ الإِسْرَائِيليّينَ قَوْمِه، والعُدْانِ عَلَيْهِمْ في أمْوَالهم ومُمْتَلَكَاتِهِمْ الثابِتَةِ والمنْقُولَة، وإذْلَالِهِمْ وسَوْقِهِمْ مُسَخَّرِينَ لِأَسْيادِهِ آلِ فِرْعَوْن، ونَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَأَكْلِ أمْوَال النّاسِ بِالْبَاطِلِ وتَسْلِيطِ بَعْضِ النّاسِ علَىٰ بَعْضٍ، بما مَكَّنَهُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وآلُهُ من سُلْطان، وَكَنَشْرِ الْعَقِيدَةِ الْفِرعَوْنِيَّة الوثنيَّةِ في بَنِي إسْرَائيل، الْقَائِمةِ علَىٰ تأْلِيهِ فِرْعَوْنَ واعتبارِهِ رَبَّهُمُ الأعْلَىٰ.

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: كُنْ على حَذْرٍ شدِيدٍ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعِقَابِهِ، فَمَنْ جعَلَ نَفْسَهُ بارادَتِهِ مِنْ زُمْرَةِ الّذِين لَا يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عزَّ وَجلّ بسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُفْسِدين في الأرض، فقد جَعَلَها عُرْضَةً لِنِقْمَتِهِ، وعَذَابٍ مِنْهُ يُخْزِيه وَيُذِلُّهُ.

وهٰذه العبارة قد اسْتُخْدِمَتْ اسْتِخدام نظِيرَتِها السابقة، عَلَىٰ سبيل

الكِنَايَةِ للتَّرْهِيب من عِقَاب اللَّهِ الشَّدِيدِ ونِقْمَتِهِ، كما عاقَبَ المفْسِدِينَ في الأرض مِنْ قَبْلِهِ.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكايَةً لمَا رَدّ بِهِ قَارُونُ علىٰ نَصَائِحِ قَوْمِه له، ومَا أبَانَهُ اللَّهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ تَعْلِيقاً علَىٰ مقالِ قارُون:

• ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

لَقَدْ كَانَ رَدُّ قَارُونَ علىٰ النَّاصِحِينَ لَهُ مِنْ قَوْمِه، مُوَجَّهاً ضِدَّ قولهم لَـهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فقـال لـهـم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾: أي: لَمْ أَمْلِكْ مَا مَلَكْتُهُ مِنْ أَمْوَالٍ، وَلَمْ أَحْصُلْ عَلَىٰ مَا حَصَلْتُ علَيْهِ مِن زِيناتٍ، وما أَتَفَاخَرُ به وأتباهىٰ به علىٰ قَوْمِي، بِعَطَاءٍ أعْطَانِيه اللَّهُ إحْسَاناً، بَلْ أُوتِيتُهُ وَحَصَلْتُ علَيْهِ ضِمْنَ الأنْظِمَةِ السَّببيَّة، الَّتِي تَأْتِي ثَمراتُها وَنَتَائِجُها مَبْنِيَّةً عَلَىٰ أسبابها، وبِنَاءً علَىٰ عِلْمِي بالأَسْباب، واتِّخاذِي لها اتِّخاذاً حَكِيماً، مَلَكْتُ مَا مَلَكْتُهُ، وحَصَلْتُ علَىٰ مَا حَصَلْتُ عليه، فَلَا تَقُولُوا لِي بغباءٍ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أَنْتُمْ جاهِلُونَ لَا تعْلَمُونَ أَسْبَابَ اكْتِسَابِ الْأَمْوالِ وَجَمْعِها، ولَا أَسْبابَ اكْتِسَاب الْمَجْدِ، والْوُصُولِ إلىٰ مَرَاتِبِ الرِّفْعَةِ والْعِزَّةِ والْعُلُوِّ في الْأَرْض.

لَقَدِ انْتَفَخَ الْغُرُورُ في صَدْرِهِ وَرَأْسِهِ، حتَّىٰ طَمَسَ بَصِيرَتَهُ، فَجَعَلَهُ يَجْحَدُ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدَرَهُ، مُسْتَبْعِداً عَنْ ذِهْنِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مُسَبِّبُ الْأَسْبَاب بأَلْطَافِهِ وتَدَابِيرِهِ الخفِيَّةِ، وغافِلاً عَنْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي آتاهُ مَا هُوَ فِيه، هُو القادِرُ علَىٰ أَنْ يَسْلُبَهُ مَا آتاهُ، أَوْ يُهْلِكَهُ فَيَصْرِفَهُ عَنِ الحياةِ الدُّنيا وعَنْ كُلِّ مَا آتاهُ فِيها، وَيَقْذِفَ بِهِ إلى عَذاب الْجَحِيمِ، جزاءَ كُفْرِهِ بربّه.

وَجَاءَ البيانُ الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ كاشِفاً جَهْلَ هٰذا المغْرُور بذكائِهِ وعِلْمِهِ بالأسْباب، إذْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِمَنْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ،

الَّذِينَ سَلَبَ ذَواتِهِمْ مِنْ كُلٍّ مَا يَمْلكُونَ وَكانُوا قَبْلَ أنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ أشَدَّ مِنْهُ قُوَّة وأكْثَرَ مِنْهُ جَمْعاً.

فقال اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي هٰذا البيان:

• ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ... ﴿٧٨﴾﴾؟؟!!.

اسْتِفْهَامُ تَلْوِيمِيٌّ تَثْرِيبِيّ، يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ علْم بِمَنْ أُهْلِكَ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الماضِيَة، وعَلَىٰ عِلْمِ بأنَّهُمْ قَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً، وأكْثَرَ مِنْهُ جَمْعاً لِلأَمْوالِ، واكتِنَازاً لَهَا.

أي: أعَاشَ بَعِيداً عَنِ الحضارة ومَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الإخبارِيُّونَ عَنِ الْقُرُونِ الماضِيَة، وَمَا جَرَىٰ لهم، وهُوَ مِنْ أُجَراءِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْني، وَمِنْ عِلْيَةِ سُلَالَاتِ بَنِي إسْرَائيل؟!! وبِسَبَبِ ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأكْثَرَ جمعاً.

لكِنَّهُ يَعْلَمُ هٰذِهِ الحقيقة ولا يَجْهَلُها، فَلْيُعِدَّ نَفْسَهُ لِمَصِيرٍ يَكُونُ فِيه هَالكاً مُعَذّباً، جزاءً لَهُ على حُجُودِه، الَّذِي أسْقَطَهُ فِيه اغْتِرَارُهُ بِنَفْسِهِ وبِمَا يَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، وجزاءً لَهُ علَىٰ بَغْيِهِ واسْتِكْبَاره وعُدْوانِه على قَوْمِه.

• ﴿.. وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: وَحِينَ يَقْضِي اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بإهْلَاكِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، فإنَّهُ يُهْلِكُهُمْ ويُنْهِي وُجُودَهم فيها، دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ وَيُحَاسِبَهُمْ، إذِ السُّوَالُ والحِسَابُ وَفَصْلُ الْقَضَاءِ إنَّما يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، قَبْلَ تَنْفِيذِ الجزاء.

أَمَّا الإهْلَالُ في الحياةِ الدُّنْيا، فَالْغَرَضُ مِنْهُ إيقَافُ شُرُور أَهْلِ الشَّرّ، وتَطْهِيرُ المجتمع البَشَرِيّ مِنْ دَاءٍ بَشَرِيٍّ وَبَائِيّ، زَادَ عَنْ حَدِّهِ الَّذِي تَقْتَضِيه حِكْمَةُ ابْتِلَاءِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبعض.

الْمُجْرِمُون: المذْنِبُونَ ذُنوباً كُبْرَىٰ مِنْ دَرَكاتِ الذُّنُوب الَّتي تَجْعَلُ مُرْتَكِبيها من الخالِدِينَ في عذاب النار، وهٰذا المعنَّىٰ مُصْطَلَحٌ قُرْآنيٌّ، دلَّ عليه اسْتقراء النُّصوص القرآنية.

قول الله عزّ وجلّ مُتَابعاً الحديث عَنْ قارُونَ:

• ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

بَعْدَ أنْ رَدّ قَارُونُ على نُصْحِ أولي الْعَقْل والرُّشْدِ لَهُ بقَوْلِهِ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أرادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهم رَدًّا عَمَلِيًّا يُبَيِّنُ لَهُمْ فيه تَمَيُّزَهُ علَىٰ سَائِرِ قَوْمِهِ الإسْرَائيليّين، بما يَمْتَلِكُهُ مِنْ أمْوالٍ وَقُوَّةٍ وتَمكُّنٍ فِي مِصْر، يَجْعَلُ جَمْهُورَ قَوْمِهِ يَغْبِطُونَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، ويَتَمَنَّوْنَ أَنْ يكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا أُوتي، ويُعْلِنُونَ أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيم لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ في ذَلِكَ الْوَقْتِ مِثْلَ ما أُوتي، وذَلِكَ بخُضُوعِهِ لِفرْعَوْنَ وآلِه ونُصْرَتِهِ لهم، وفي هذا اسْتِدْرَاجٌ لِبَعْضِ قَوْمِهِ أَنْ يَقْتَدُوا به، على خلاف مَا عَلَيْهِ مُوسَىٰ وهارون، ويَغْلِبُ علَىٰ الظَّنّ أنه اسْتَأْذَنَ فِرْعَوْنَ وَرِجَالَ قَصْرِه، أَنْ يَخْرُجَ على قَوْمِهِ في زِينَتِه، لِيُطَوِّعَهُمْ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنيّ.

ولتحقيق هٰذهِ الْغَايَةِ أَعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكِباً يَعْظُمُ في عُيُونِ جُمهور قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، لِيَمُرَّ بِهِ في أحْيَاءِ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ، ويُرِيَهُمْ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ مَجْدٍ وعزَّةٍ وَمَكانَةٍ رَفِيعةٍ فِي مصر.

وكان لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ مَرَاكِبُ تَجُرُّهَا الْخُيُول، فإذا خَرَجُوا مارِّين فِي الطّرقات، حَفَّتْ بمراكِبهم الجنُودُ والحرَسُ والأعلامُ والزيناتُ، اسْتعلاء بعَظَمَةِ مُلْكِهم، واسْتِكْباراً بِقُوَّةِ سُلْطانهم.

ويَظْهَرُ أَنَّ قَارُونَ فَعَلَ شبيهاً بِذَلك، لِيَمُرَّ بمَوْكبِهِ في أحْيَاءِ بني

إسْرَائيلَ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ولم يكن قَدْ فَعَلَ هٰذا مِنْ قَبْلُ، لكِنَّهُ أرادَ أنْ يَرُدَّ علَىٰ نَاصِحيهِ، بحَرَكَةٍ عَمَلِيَّةٍ في مَشْهَدٍ يَبْهَرُ بِهِ جُمْهُورَ قَوْمِهِ.

فلَمَّا مَرَّ في أحياء قَوْمِهِ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ، أدْهَشَ جُمْهُورَ عَامَّةِ قَوْمِهِ، وسَوَادَهُمُ الأَعْظَمَ، ومِنَ الْمُعْتَادِ في أمْثَالِ هؤلاءِ في كُلِّ شَعْبٍ وفي جماهير كُلِّ أمَّةٍ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الحياة الدُّنْيا، إذْ هي المَسَيْطِرَة علَىٰ تَصَوُّرَاتِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ، وانْدِفَاعاً مَعَ دَهْشَتِهِم قالوا: ﴿.. يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وتَحَقَّقَ لِقَارُونَ مَا كَانَ يَرْمِي إلَيْهِ مِنْ تَدْبيرِه هٰذا.

عِنْدَئِذٍ أسْرَعَ أولُو النُّهَىٰ والعِلْمِ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ بقيادة مُوسَى وهَارُون عليهما السَّلام، لإصْلَاح الإفسادِ الْفِكْرِي والنَّفْسِيّ الَّذِي أحْدَثَهُ هٰذا الاسْتِعْرَاضُ الخادِعُ في السَّوَادِ الأَعْظَم من بَنِي إسرائيل.

دَلَّ علَىٰ هٰذا قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: وانْطلَقَ الْفُضَلاءُ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل يُبَشِّرُونَ بهٰذِهِ الحقيقة، في جماهِير العامَّةِ الَّذِينَ فُتِنُوا بالاسْتِعْراضِ الْفَخْمِ الَّذِي صَنَعَهُ قارون.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي: احْذَرُوا هَلَاكَكُمْ وَعَذَابَكُمْ، مِمَّا فُتِنْتُمْ بِهِ، إذْ تَمَنَّيْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَارُون، إنَّ هذا يَجْعَلُكُمْ تَسْتَحْذُونَ فَتُقَلِّدُونَهُ في طَرِيقَتِهِ، إذ جَعَلَ نَفْسَهُ عبْداً مِنْ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ، وكافراً باللَّهِ وباليَوْم الآخِرِ مِثْلَهُ، وخارِجاً عَنْ دِينِ آبائه وأجدادِه، دِين الله الحقِّ الذي اصطفاه لعباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

كلمةُ «وَيْل» كلمة عذاب.

• ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: أي: الثوابُ العظيم الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ طاعَتِهِ خيرٌ مِنْ هٰذا الّذي اسْتَعْرَضَهُ قارُونُ، وخَيْرٌ مِن كُلّ مَا لَدَىٰ فِرْعَوْنَ وآلِهِ، وخَيْرٌ مِنْ كُلِّ الدُّنْيا وما فيها، ويفهم هذا قياساً على ما لدى قارون، مع مفهومات العقيدة الإيمانية في كلّ رسالات الله للناس.

• ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي: هذا الثوابُ العظيم مُعَدٌّ بقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، لِمَنْ آمَنَ بمَا أَوْجَبَ اللَّهُ علَىٰ عبادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وعَبَّرَ عَنْ صِحَّةِ إيمانِهِ وَصِدْقِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فيه مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزّ وجلّ، لأَنَّهُ ممَّا أَمَرَ بفِعْلِهِ إذَا كان فِعْلاً أو أَمَرَ بتَرْكه إِذَا كَانَ تَرْكاً، وبهٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَكْتَسِبُونَ الصِّفَة المؤهِّلَةِ لثواب الله العظيم يوم الدّين.

﴿.. وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: أي: وَلَا يَنَالُ هٰذِهِ الصِّفَة المؤهِّلَة لِثَوابِ اللَّهِ العظيم إِلَّا الصَّابِرُون.

دَلَّ عَوْدُ الضَّمِير في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ على الإيمان والْعَمَل الصَّالِحِ الَّذين دَلَّ عَلَيْهما: «مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً» علَىٰ أَنَّهما بِمَثابَةِ صِفَةٍ واحِدَةٍ هي شَرْطٌ للظَّفَرِ بثواب اللَّهِ العظيم يَوْمَ الدِّين، إِذَ الإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ بما كَلَّفَ اللَّهُ عبادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ آثارٌ في السُّلُوكِ من عَمَلٍ صالحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزَّ وجل، فَهُمَا مَعاً بِمَثَابَةِ صِفَةٍ واحِدَةٍ، فَصَحَّ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَيْها بالإفْرادِ والتَّأْنِيث، أَخْذاً من لازِمِ مَفْهُومِ النَّصْ.

يُقَالَ لُغَةً: «لَقِيَ الشَّيْءَ وتَلَقَّاهُ» أَيْ: أَخَذَهُ وَنالَهُ.

لَكِنَّ تَأَثُّرَ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ بَنِي إِسْرائيل بمَوْكِب قَارُونَ قَدْ كَانَ بَالِغَ الْعُمْقِ فِي نَفُوسِهِمْ، فَكَانُوا بحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلىٰ إِقْنَاعٍ عَمَلِيٍّ يُصَحِّحُ لَدَيْهِمْ مَا أَفْسَدَهُ مَوْكِبُ قَارُونَ الاسْتِعْرَاضِيُّ الْعَمَلِيُّ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِقَارُونَ وبَدَارِهِ والأَرْض.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «خَسَفَ اللَّهُ بِقَوْمِ الْأَرْض» أي: جَعَلَها تَغُورُ بِهِمْ إلىٰ الأَعْمَاقِ فَيَغِيبُونَ فيها مَقْبُورِينَ هَلْكىٰ.

أي: فَأَتْبَعْنَا اسْتِعْرَاضَهُ الكَيْدِيَّ التضليليَّ، بما يَمْحُو آثَارَهُ في نُفُوسِ الجمهور الأَعْظَمِ مِنَ الإسْرَائِيليّين مَحْواً كُلّيًا، وبإقْنَاعٍ عِقَابِيّ عَمَلِيّ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِه الْأَرْضِ.

• ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: فَلَمْ تُوجَدْ لَهُ فِئَةٌ ذَاتُ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ فِي مِصْرَ يَنْصُرُونَهُ، فَيَمْنَعُونَ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ عِقَابِ الله.

«من» في: ﴿مِّن فِئَةٍ﴾ جاءَتْ مَزِيدَةً لتَأْكيد عُمُوم النَّفْي والتَّنْصِيصِ عليه.

ولَمْ يَسْتَطِعْ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وَجُنُودُهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ الَّذِي نَزَل بِه، لَقَدْ غَيَّبَتْهُ الْأَرْضُ وَغَيَّبَتْ دَارَهُ وكَثِيراً مِنْ كُنُوزِهِ فِي بَاطِنها.

• ﴿.. وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: أي: ومَا اسْتَطَاعَ هُوَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَا نَزَلَ بِه، لَقَدْ كانَ يَسْتَكْبِرُ علىٰ قَوْمِهِ اسْتِكْبَارَ الْمَغْرُورِين بما لَدَيْهم مِنْ أَمْوَالٍ وخُدَّامٍ وأعْوَانٍ ومظاهِرِ عزَّة وقُوَّةٍ واسْتِعْلَاء في الأرض، فَلَمْ يَنْفَعْهُ اسْتِكْبَارُهُ شَيْئاً، حِينَ أَرَادَ الله العزيز الْقَهَّارُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِ عِقَابه.

ودَخَلَ أَوَّلُ نَهَارِ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِيها الْخَسْفُ عَقِبَ مَوْكِبِ الاسْتِعْلَاءِ الاسْتِعَرَاضِي، وشَاعَ في النَّاسِ نَبأُ الْخَسْفِ الَّذِي غَيَّبَ قَارُونَ وَدَارَهُ في باطِنِ الْأَرْض، وَعَادَ الْمفتُونُونَ مِنْ الجمهُور الأعْظَم مِنْ بني إسْرَائيل إلى رُشْدِهم وَإيمانِهِمْ، وحمِدُوا اللَّهَ عَلىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، وأَدْركُوا حِكْمَةَ اللَّهِ فِي بَسْطِهِ الرِّزْقَ وَتَضْييقِهِ، وأَنَّ الْبَسْطَ لَيْسَ تَكْرِيماً، وأَنَّ التضييق ليس إهانَةً.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

كلمة «وَيّ» مِنْ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ومِنْ [وَيكَأَنَّهُ]: كَلِمَةَ تَعجُّبٍ، وهي: اسْمُ فِعْلٍ بمَعْنَىٰ: «أَعْجَبُ» أو «نَعْجَبُ» وقَدْ تَلِيها كافُ الْخِطَابِ.

• ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ..﴾:

• ﴿وَأَصْبَحَ﴾: أي: ودَخَلَ فِي صَبَاحِ لَيْلَةِ الْخَسْفِ بقارون.

• ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾: وَهُمُ الْجُمْهُورُ الأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائيل الّذينَ كَانُوا يُريدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا، وَفَتَنَتْهُمْ مَظَاهِرُ مَوْكِبِ قَارُون، فَقَالُوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

• ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: أي: باليَومِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ لَيْلَةِ الخسْفِ بقَارُونَ.

• ﴿يَقُولُونَ﴾: أي: يَقُولُ أَفْرَادُهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: [وَيكَأَنَّهُ]: الّذِي ظَهَرَ لي، أَنَّ كَلِمَةَ «وَيْ» بمعْنَىٰ «أَعْجَبُ» أو «نَعْجَبُ» وأَنَّ الكاف كَافُ الْخِطابِ، وأَنَّ الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا تَقْرِيرٌ للْحَقِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُمْ وَكَانُوا يَجْهَلُونَهُ أَوْ يَغْفُلُونَ عَنْه، فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْ نُفُوسِهِمْ كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِمْ هذا الأَمْر حتَّىٰ رَأَوْا بُرْهَانَهُ، أَمْراً وَاقِعاً مَشْهُوداً، بقَضَاءِ اللَّهِ العَزِيزِ الجبّار.

فَالمعنى: اسْمَعْ أَيُّها المخاطَبُ تَعَجُّبي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جاهِلاً أَوْ غَافِلاً، عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الله هُو الّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء من عباده وَيَقْدِرُ (أي: ويُضَيِّقُ الرِّزْقَ) علىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِه، وأَنَّ ذَلِكَ لِحِكَم هو يعلمها، وَلَيْسَ الْبَسْطُ تَكْرِيماً وَلَا التضْييقُ إهَانَةً، ولَيْسَ أَمْرُ الْبَسْطِ

والتَّضْييقِ رَاجعاً إلَىٰ عِلْمِ الْعِبَاد أَوْ جَهْلِهِمْ باكْتِسَاب الأرْزاق، بَلِ الْأَمْرُ خَاضِعٌ لقضاء اللَّهِ وَقَدْرِه.

وجاء في نُصُوصٍ أخرى بَيَانُ أَنَّ الْغَرَض مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ لبَعْضِ العباد، وتَضييقِه علَىٰ بَعْضِهِمْ، أَنْ يَبْلُوَ اللَّهُ عزّ وجلّ كُلًّا فِيما آتاه في ظروف الحياة الدُّنيا.

• ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾: أي: لَولَا أَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ يُؤْتِنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ، بَلْ أَبْعَدَنَا وَحَمَانَا مِنَ بَسْطِ الرِّزْقِ الْمُطْغِي والموصِلِ إلَىٰ مَا وَصَلَ إلَيْهِ قَارُونَ، من طُغْيَانٍ وبَغْيٍ وَخَسْفٍ عقاباً لَهُ وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: هذه العبارة نظيرة سابِقَتِها، والمعْنَىٰ: اسْمَعْ أيُّها الْمُخَاطبُ تَعَجُّبِي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جَاهِلاً أَوْ غَافِلاً عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ في كَوْنِهِ وَسُنَنِهِ فِي عباده، عَدَمُ فَلَاح الكافِرِينَ، الَّذِينَ يَتَمَرَّدُونَ علَىٰ رَبّهِمْ، وَيَجْحَدُونَ نِعَمَهُ عَلَيْهم، ولَا يُؤْمِنُونَ بمَا فَرَضَ عَلَيْهِم أنْ يُؤْمِنوا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم.

الْفَلَاح: الظَّفَرُ بالمراد، والْفَوْزُ بجنَّاتِ النعيم يوم الدين.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُرُوسِ سُورَة (القصص) والحمْدُ للَّهِ علىٰ مَدَدِه وَتَوْفيقه وفَتْحِه.



(٩)
التدبر التحليلي للدّرس السّادس من دُرُوس سورة (القصص)
الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

تمهيد:

اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّة التَّعْقِيبَ علىٰ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه الّذِين أرَادُوا الْعُلُوَّ في الأرْض، فانْزَلَقُوا إلى كُفْرٍ وجَرائِمَ حَرَمَتْهُمْ مِنَ السَعَادَةِ بِنَعِيم الجنَّةِ يَوْمَ الدّين، وجَعَلَتْهُمْ مِنْ أهْلِ الْعَذابِ خالِدينَ في الجحيم، يذُوقُونَ عَذَابَ الْحَرِيق. والتعقيب على قِصَّةِ قارون الّذِي أرَادَ الْعُلُوَّ في الأرضِ، فأنْزَلَقَ إلَىٰ مِثْلِ مَا أنزلَقَ إليه فِرْعَوْنُ وَمَلُؤه.

والْغَرَضُ مِنْ هٰذا التَّعْقِيبِ، بيانُ أَنَّ إرَادَةَ الْعُلُوّ في الأرْضَ، إذَا اتَّجَهَتْ في الإنْسَانِ اتِّجَاهَا جَازِماً مُسَيْطِراً على مشاعِرِه وتَصَوُّرَاتِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ تنطَمِسَ بَصِيرَتُه، ومَتَّىٰ انطَمَسَتْ بَصِيرَتُهُ انْزَلَقَ إلىٰ جِهَةِ الحضِيضِ في أفكاره ومَفْهُومَاتِه، وفي حَرَكات نَفْسِهِ وسَكَنَاتِها، وفي أخْلاَقِهِ وتَصَرُّفَاتِه، وفي سُلُوكِه داخِلَ المجتمع الْبَشَرِيّ، آثِماً ظَالِماً مُعْتَدِياً جبَّاراً مُفْسِداً، ورُبما زاد في انزلاقه حتَّىٰ بَلَغَ حَضِيضَ الْكُفْرِ بِرَبِّه وبمَطالِبِه مِنْ عباده، في رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، رِحْلَةِ الامْتِحانِ والابْتِلاء.

ولا بُدَّ أنْ يَخْسَرَ مِنْ سَعَادَةِ الدَّار الآخِرَةِ ونَعِيمِها على مقدار انْزِلَاقِه هَابطاً في اتّجاه الحضيضِ، ثُمَّ يَسْتَحِقُّ من العذاب في جَهَنَّمَ على مقدارِ هُبُوطِهِ في ارْتكابِ كَبَائِرِ الإثم، والجرائم الفِكرية والنفسيَّةِ والسُّلُوكيَّة، فإذا بَلَغَ حضيضَ الكُفْرِ كَانَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّار.

واسْتَدْعَىٰ هٰذا البيانُ ذِكْرَ الْخُطَّةِ الكُلّيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَزاء الرَّبَّانيّ يَوْم الدِّين، وبيانَ أنّ الجزاء لا يقتصر على العقاب المعَجلّ كما حصل لفرعون وقارون، من إغراقٍ وخَسْفٍ، بَلِ الجزاءُ الأَسَاسُ هو الذي يكُونُ يَوْمَ الدّين، ومَا جَرَىٰ في الدُّنيا لِلْمُهْلَكِينِ هُوَ من التّدْبِيراتِ العاجلات،

لإصلاحِ أوضاعٍ في المجتمعِ الْبَشَرِي، ولِيَرَىٰ النَّاسُ أمْثِلَةً مِنْ عِقَاب اللَّه، رغْبَةً في أن يَعْتَبِرَ بها المُعَتبرون أولُو الألباب.

التدبر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

جاء في القرآن لفظ «الدار الآخرة» ولفظ «دَار الآخِرَة» ثماني مرّات، والمرادُ بكلّ واحِدٍ منها «الجنَّة» وهذا من التخصيصَات القرآنيَّة في العبارات، فصارت العبارة بمثابَةِ عَلَمٍ على الجنّة.

وجاء في الآيَة اسْتِعْمَالُ اسْمِ الإشارَة الموضوع للمشار إلَيْهَا الْبعِيَدة البعيد «تِلْكِ» لأمْرَين: بُعْدِ مكانِها عَنِ المخاطب، وبَعْدِ مَكانَتها وارْتفاع مَنْزَلَتِها، بما جعلَ اللَّهُ فيها مِنْ نِعيم عظيم، وممَّا لا عَيْن رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خطر على قَلْبِ بَشر.

وجاء الخطاب في الآيَة لكُلِّ صَالح للخاطب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، فكأنّ اللَّه يُخَاطِبُ عبادَهُ فَرْداً فَرْداً.

﴿نَجْعَلُهَا﴾: أي: مُسْتقْبلاً في الواقع التنفيذي، بَعْدَ الحساب، وفَصْل القضاء يَوْم الدّين.

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾:

إنَّ إرَادَة الْعُلُوّ في الأرض، بمَعْنَىٰ الاسْتِكْبَار، والتعاظُم، لتحقيقِ حظوظِ النُّفُوسِ مِنَ الدُّنْيا، والتَّفَاخُر علَىٰ عِبَادِ اللَّهِ بها، لَيْسَتْ من شَأْنِ المتقين، فضلاً عن الأبرار والمحسنين.

إنَّ مِنْ شَأْنِ المتَّقِينَ التواضُعُ لِلَّهِ، وعَدَمُ إرادَةِ الْعُلُوّ في الأَرْضِ لتَحْقيقِ حُظُوظِ النُّفُوسِ مِنَ الدُّنيا، وإنْ رُفِعَتْ شِعَارَاتُ إرَادَةِ نُصْرَةِ الإسْلَامِ

والمسْلِمينَ، وإقَامَةِ الْحُكْمِ الإسْلامي، فَمَنْ كان مَطْلَبُهُ تَحْقِيقَ الْعُلُوّ في الأرْضِ للوصول إلى حُظُوظ نَفْسِه، سَقَطَ عنْدَ امْتِحَانِهِ بالوصُولِ إلى مَغْنَم كبير ممَّا يُحِبُّ من زينَةِ الحياة الدُّنيا، كالإطماع بمالٍ وَفير، أَوْ مَنْصِبٍ خَطِير، أو مَرْكَزٍ اجْتِمَاعِيٍّ رَافِع، أو ثناءٍ عَطِرٍ ذَائع، وتمزَّقَتِ الشّعَارَاتُ السَّابِقَاتُ، واشْتَدَّتْ بِنَسْفِهَا إلى القُمَامَاتِ رِيَاحُ الواقِع.

وإرَادَةُ الْعُلُوّ في الأرض لتحقيقِ حظوظِ النَّفْسِ، لَا بُدَّ أنْ تَجُرَّ صَاحِبَهَا إلى إرَادَةِ الْفَسَادِ، لتحقيق المراد، فحظوظ نُفوسِ الأفراد من الدُّنيا لا تتحقَّقُ إلَّا بالفساد.

أمَّا طَلَبُ الإمَارَةِ، أو الْوَظيفَةِ الإدَارِيَّة، أو الوظيفة الدّينيَّة، أو الرِّضَا بشيءٍ من ذَلِكَ، لإقَامَة الحقِّ والْعَدْلِ وَرَفْعِ الظُّلْمِ، ولإقامَةِ أحكام الإسْلام وشرائِعِه، ونَشْرِ دين اللّهِ في الأرض، والدَّعْوَةِ إليه، وتَبْليغ بيانَاتِهِ للنّاس، مع الصِّدْقِ في كُلّ ذلِكَ، فَلَا يَدْخُلُ في عُمُومِ إرَادَة الْعُلُوّ في الأَرْضِ، بَلْ لَهُ عُنْوَانٌ آخَرُ يَدْخُلُ في عُمُومه هُوَ الجهادُ في سبيل الله، إنَّ المؤمنين الصّادقين المتَّقِينَ لَا يُريدون الْعُلوَّ في الأرض، وَإنَّ إرادَة العُلُوّ في الأرْضِ لا تكُونُ إلَّا مَدْفُوعَةً بِعَوَامِلِ الكِبْر، ورَغَباتِ تحقيق حُظُوظِ النفْسِ من الدّنيا، وقلّما يَسْلَمُ طَالب مراتِبِ الدنيا مِنْ داء حبّ العلوّ في الأرض، لتحقيق حظوظ النفس من الدنيا، ولهذا كان يتهرّبُ منها طلّاب الآخرة.

● ﴿. . وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: جاءت في القرآن كَلِمَةُ **[الْعَاقِبَة]** مُعَرَّفَةً بـ(ال) الّتي تَدُلُّ علَىٰ كَمالِ مَا عَرَّفَتْهُ أَرْبَعَ مَرَّات، والمرادُ بها في كلِّ هذه المواضِع الْعَاقِبَةُ الحسَنَةُ في جَنَّاتِ النعيم.

المتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يقُونَ نُفُوسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ في العَذَابِ يَوْم الدّين، بإيمانٍ صَحِيح صادق، وَعَمَلٍ صالحٍ فيه مَرْضَاةٍ للّهِ عَزَّ وجَلَّ، يُعَبّرُون به عَنْ صدْقِ إيمانهم، ثم يرتقون في درجات مرتبة التقوىٰ، وقد يرتقون إلى مرتبة البرّ فمَرْتَبَة الإحسان.

• ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

جاء في هذهِ الآيَةِ بَيَانُ الْقَاعِدَةِ الكليَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْم الدّين، وهذِهِ الْقَاعِدَةُ تَشْتَمِلُ على مَادَّتَيْن:

الْمَادَّةُ الأُولى: دَلَّتْ علَيْها عبارة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي: مَن أتَىٰ رَبَّهُ يَوْمَ القيامَةِ بالْحَسَنَةِ المقبولَة عنْدَه تعالى، مُسَجَّلَةً في كِتَاب أعْمَالِه الّذي لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرةً إلّا أحْصَاهَا، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ خيرٌ مِنْهَا ثواباً عليْها وجزاءً حَسَناً، وثبت في نصوصٍ أُخرىٰ أنَّ أدْنَىٰ ثوابه على الحسنة عشرةُ أضْعَافها، إلى سَبْعمائة ضِعْفٍ، إلى أضْعاف كثيرة لا يَعْلَمُها إلّا الله، وفُهِمَ كوْنُ هذا جزاءً، من الجزاء المصرَّحِ به بالنسبة إلى من جاء بالسيّئة.

والمُرَادُ بالْحَسَنَةِ مَا يَكْسِبُهُ الإنسانُ بإرادَتِهِ الحرَّةِ ابْتغاءَ مرضَاةِ رَبِّه، مِنْ حَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ أو فِكْرِيَّةٍ أو جَسَدِيَّة، يُقَدِّمُ بها طاعَةً لِرَبِّهِ من ذَاتِهِ أو مِمَّا يَمْلكهُ أوْ ممَّا يخْتَصُّ به، ولو خاطِرَةً فيها نَفْعٌ وخير يُقَدِّمُها في سبيل اللَّهِ وطاعَةً له، أو نِيَّةً قَلْبِيَّةً مِنْ وراء إرادَةِ كسْبٍ صالحٍ ظَاهِرٍ أوْ باطن عَمِلَهُ أو قَام مانِعٌ من عَمَلِهِ لَمْ تُنْقَضْ بِهِ إرَادَتُه.

وكلُّ مكْسُوبٍ إرَادِيّ يَدْخُلُ في عُمُوم مَطْلُوبَات اللَّهِ من عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا، إلْزاماً أو تَرْغيباً وَنَدْباً، ويُطْلَقُ عَلَيْهِ عُنْوَانُ «الْحَسَنَة» كبيراً كان أمْ صغيراً، ظاهراً كان أمْ خَفِيًّا، ولو كان في صِغَرِهِ وَخَفَائِهِ ممَّا لَا يَعْلَمُهُ إلّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

يُقَالَ لغة: «جَاءَ بكذا» أي: أتَىٰ به، ويُفْهَمُ من القرائِنِ بوضوحٍ أنَّهُ أتَىٰ بالمكسُوبَةِ الحسَنَةِ إلى رَبِّهِ في كتاب أعمالِهِ يوم الدّين.

لفظ «الحَسَنة» مؤنث لفظ «الحسَن» وهو الشيء الجميل، ولا يَأْمُرُ اللَّهُ ولَا يُرَغِّبُ إلّا بالجميل، وعلى النّقِيضِ تماماً ما يأمُرُ بِهِ الشيْطانُ أو يُرَغِّبُ فيه.

المادّة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْها عِبارَة: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

كانَ من المتَبادِرِ أَنْ يُقَالَ: وَمَنْ جَاءَ بالسّيّئَة فَلَهُ مِثْلُها. فَمَا الحِكْمَةُ مِمَّا عُدِلَ إِلَيْهِ مِمَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِطْنَاب.

أقول: دَلَّتْ هذِهِ الْعِبَارَةُ المختارَةُ فِي النَّصّ على عدّة قضايا:

الأولى: نَفي الزّيادةِ على الْمِثْلِ بأسْلُوب الْحَصْرِ والْقَصْر، عن طَرِيق النَّفْي والاستثناء.

الثانية: الإشعار باحْتِمالِ الغفرانِ والْعَفْو، لأنَّ نَفْيَ الزّيادة على المثل، لَا يَدُلُّ علَىٰ الجزاء بالْمِثْلِ حَتْماً، بَلْ إذَا حَصَلَ الجزاء فَلا تكونُ فيه زيادةٌ على المثل، وقدْ يَحْصُلُ الغفران والعفو.

الثالِثَة: اسْتِعْمَالُ عبارَةِ: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَدُلُّ على المطابَقَةِ التامَّةِ بين السّيِّئَة وَجَزَائِها، حتَّىٰ يُقَالَ في الجزاء هو عَيْنُ الْعَمَلِ لشِدَّةِ المطابَقة بَيْنهما، بخلاف التعبير بلَفْظِ «مِثْل» أَوْ نَحْوِها، فإنَّهَا تَحْتَمِلُ الزّيادَةَ ولَوْ قَلِيلاً كَمَا تَحْتَمِلُ النُّقْصَانَ في فَهْمِ الناسِ لمعنى المماثَلَةِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، لكِنَّ الجزاء الرَّبَّانِيَّ على السّيّئَةِ إذا حصل فهو لا يَزِيدُ على المطابَقَةِ حَتْماً.

الرّابعة: التَّنْصِيصُ بعِبَارَة كُلِّيَّةٍ عَامَّة، على أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئات، لَا يُجْزَوْنَ إلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ، فلا يُزَادُ أحدٌ منهم على ذلك.

وهذِهِ القضايا الأرْبَعُ لَا تُسْتَفَادُ من عبارة: وَمَنْ جَاءَ بالسّيّئَةِ فَلَهُ مِثْلُها.

وجاء في القرآن بشأن الجزاء على السَّيئة ما يلي:

(١) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ الأنعام.

أي: فلا يُجْزَىٰ إذا جُوزِي جزاءً كاملاً إلَّا مثْلَهَا.

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا... ﴿٢٧﴾﴾ يونس.

أي: إنْ جوزوا جزاءً كامِلاً فجزاء سَيّئَةٍ بِمثلها.

(٣) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴿٤٠﴾﴾ غافر.

أي: فلا يُجْزَىٰ إذا جُوزِي جزاءً كاملاً إلَّا مِثْلَها.

فدلت جملة النصوص على حقيقةٍ واحدة جاء تفصيلها في آية سورة (القصص).

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرس السادس من دُروس سورة (القصص).

والحمد لله على فتحه ومدده ومعونته وتوفيقه.



(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (القصص) الآيات من (٨٥ ـ ٨٨) آخر السورة

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

القراءات:

(٨٥) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**رَبِّيَ أَعْلَم**] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

(٨٨) • قرأ يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بِبنَاءِ الفعل للمعلوم. وقَرأَها بَاقي القُرّاء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ببناء الفِعْلِ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ.

وبين الْقِراءتَيْن تَكَامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

الآية (٨٥) من هذا الدَّرْس نَزَلَتْ في الْجُحْفَة[1] أثناء هجرة الرسُولِ ﷺ إلَىٰ المدِينة.

ويشتمل هذا الدَّرْسُ على بُشْرَىٰ للرَّسُول ﷺ بالْعَوْدَةِ إلى مَكَّةَ فاتِحاً، وفيه وصَايا تَرْبَوِيَّةٌ للرَّسُول، وهذِهِ الوصايا مُوجَّهَةٌ تَبعاً للدُّعَاةِ إلَىٰ الله عزَّ وجلّ مِنْ أُمّتِه، في مَسِيرَاتِهِم الدعويَّة.

التدبّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلَّ خِطاباً لرسُوله محمَّد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

في هٰذه الآيَة الّتي نَزَلَتْ على الرَّسُول ﷺ في الْجُحْفَةِ أثناءِ هِجْرَته إلى المدِينة، بُشْرَىٰ لَهُ بأنّ اللَّهَ سَيَرُدَّهُ إلَىٰ مَكَّة، على رُغْمِ أنوفِ الَّذِينَ أَخْرَجُوه فأخْرَجُوهُ مِنْها مُهاجراً إلى المدينة.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذي أَوْجَبَ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ تَبْليغَ الْقُرْآن الَّذِي يُنَزَّلُ عليك، فقُمْتَ بما فَرَضَ اللَّهُ عليك مِنْ التَبْلِيغ، فكَان قِيامُكَ بهٰذا الواجب سَبباً فِي إخْرَاجِكَ وإخْراجِكَ من البَلْدَةِ الحبيبَة إلى قَلْبكَ مَكَّةَ المكرَّمَة، مُهَاجراً مِنْها إلى المدينَة.

• ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: أي: لَمُرْجِعُكَ إلَىٰ مَكَانِ عَوْدٍ فيها مُسْتَقْبلاً، وهٰذَا وعْدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، ويتَضَمَّنُ بالتَّبَعِ وَعْداً للمؤمِنين المسْلِمينَ الّذِين هَاجَرُوا مِنها.

«رَادّ» اسْم فاعل، يُسْتَعْمَلُ في الحال والاسْتقبال كالْفِعْلِ المضَارع،

---

(١) **الجحفة**: كانت ميقات أهل الشام ومصر، وهي الآن دَارِسَة، ومكانها قريب من قرية «رابغ» على الطريق بين مكة والمدينة.

وهنا مسْتَعْمَل في الاستقبال لأنَّهُ أَمْرٌ مَوْعُودٌ بِه عِنْدَ نُزُولِ النَّصّ، ولَمْ يَتحقَّقْ إلَّا بَعْدَ سِنين، والرَّدُ هو الإرجاع والإعادة.

«مَعَاد»: اسْمٌ صَالحٌ لأنْ يَكونَ اسْمَ مكانٍ واسْمَ زَمَان، ولكِنَّ الرَّدّ يقْتَضِي هُنَا أن يكون اسْمَ مكان، والمكان الموعُودُ بالرَّدّ إلَيْه هو مكة المكرمَّة حفظها اللّه وحَرَسَهَا وزادها تَشْرِيفاً وتعظيماً.

وقَدْ حقَّقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هذا الَّذي وعَدَ بهِ رَسُوله ﷺ فَرجَعَ إلَىٰ مَكَّةَ في عُمْرَةِ الْقَضَاء، بَعْدَ عَامِ صُلْح الْحُدَيبيَة، وعَادَ إلَى مَكَّة فاتِحاً مُنْتصراً عَامَ الْفَتْح، بِجَيْشٍ لِا قِبَلَ لأَهْل مكَّة ومُقَاتِلِيها. بِمُواجَهَتِه وصَدِّه.

وقَبْلَ دُخول الرَّسُولِ ومَعَهُ قُرابَةُ أَلْفَيْن، لأداء العمرة التي عُرِفتْ بِعُمْرةِ القضاء، بأكثر من سنة وقبل صُلْحِ الحديبيَة، أرَىٰ اللَّهُ رَسُولَهُ رُؤيا حَقّ، فيها وعْدٌ بأنْ يَدْخُلَ الْمَسْجدَ الحرامَ ومَعَهُ عَدَدٌ كثير من المؤمنين معتمراً، دلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة [الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نـزول): ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله الله تعالى:

﴿... قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾: لَـمَّا كَـانَ خُرُوجُ الرَّسُول ﷺ من مكّة مُهَاجِراً قَدْ يَجْعَلُ في نُفُوسِ المتَعَجِّلين أصْحَابِ النَّظر الْقَصِير، الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ سُنَنَ اللَّهِ في المجتَمَعِ الْبَشَرِيّ، شُعُوراً بانْتِصَارِ مُشْرِكي مَكَّة عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، الأَمْرِ الَّذِي جعَلَهُمْ يَتْرُكُونَ بَلَدَهُمْ وَيُهَاجِرُونَ مِنْهَا خَوْفاً علىٰ نفُوسِهم مِن قُوىٰ أئِمَّةِ الشِّرْكِ في مكة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعَلِّمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ لِمَنْ يَرَىٰ أَنَّ لَدَيْهِمْ تَصَوُّراتٍ باحْتِمالِ أَنْ يَكُونَ

مُشْرِكُو مَكَّة علَى حَقٍّ، ولَهٰذا نَصَرَهُمُ اللَّهُ فَأَخْرَجُوا مُحَمَّداً والَّذِين آمَنُوا بِهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ في مكَّة، وألْجَؤوهُمْ إِلْجاءً إِلَىٰ أَنْ يُهَاجِرُوا مِنها، وتَوَقَّفَتْ نظراتُ هَؤلَاءِ عنْدَ هٰذا الحدِّ، ولَمْ يضَعُوا في حُسْبَانِهِمْ أَنْ تَكُونَ هذِهِ الهجرة سَبَباً في إعْدادِ قَوِيّ قِتالِيَّة يَنْصُرُ اللَّهُ بِها رَسُولَهُ والَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، عَلَىٰ مُشْرِكي مَكَّةَ المعانِدينَ في مَعَارِكَ قتالِيَّة، وأنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ إعْدَادِ جَيْشٍ مُقَاتِلٍ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِ مَكَّة لِلإِسْلَامِ والمسلمين، ويَنْتَهِي الشِّرْكُ والمشْرِكُونَ فيها.

وقد جاء في هذَا التعليم الرَّبَّانِيّ للرَّسُولِ ﷺ، أن يَقُولَ: رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ مَنْ جَاءَ بالْهُدَىٰ مِنَ اللَّه، وبَلَّغَهُ للنَّاسِ فعادَاهُ المضِلُّونَ، وَمَنْ هُوَ مُوغِلٌ في ضَلَالٍ مُبِينٍ، بَعيداً عن الحقّ والْهُدَىٰ والْخَيْرِ والفضيلة وصِراط اللَّهِ المستقيم، أي: وبما أنَّ اللَّهَ رَبِّي أعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذي عِلْم بهٰذا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْصُر مُسْتَقْبِلاً مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ نَصْراً حَقِيقيّاً مُؤَزراً ونهائياً عَلَىٰ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبين، أَمَّا الصِّرَاعَاتُ الْمَرْحَلِيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الحقّ وأَهْلِ الْبَاطِلِ فَهِيَ سِجَالٌ مُتَدَاوَلَةُ الْغَلَبَةِ والْهَزِيمَةِ بَيْنَ الْفَرِيقين، بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّه في المجتمع البشري، لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا في صُدُور المؤمنين، ولِيُمَحِّصَ[1] مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وهُوَ الْعَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُور.

هذا يُفْهَمُ عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الْفِكْرِيّ، لأنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، فَهُو بِحكْمَتِه وبِوَعْدِهِ الكريم، لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ في آخرِ مَرَاحِلِ الصِّراع مَنْ جَاءَ بالحقّ، علَىٰ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبين.

فالعبارة كنايَةٌ عَنْ هٰذا المعنى، الَّذي فُهِمَ عَنْ طريق اللَّزوم الكفري.

وتقديرُ الْعِبَارِة: قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم، يَعْلَمُ مَن جاء بالْهُدَى، ويَعْلَمُ مَنْ هُو في ضَلالٍ مُبين، وهو بحكْمَتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ في

---

(١) وليُمَحّص: أي: وليمْتَحِنَ.

آخِرِ مَرَاحِلِ الصِّراعِ من جاء بالْهُدىٰ على مَنْ هو في ضَلَالٍ مبين[١].

قول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً لرسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

• ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟﴾: وَمَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ ويَتْلُوَ عَلَيْكَ آيات رَبّك.

أَصْلُ معنى «الرَّجاء» مُطْلَقُ التَّوَقُّع لِلْمَرْغُوبِ فيه، أو المخوف مِنْه.

• ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾: أي: ومَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي، فَلَمْ يكُنْ لَكَ كَسْبٌ مَا فِي ذَلِك، بل اصْطَفَاكَ رَبُّكَ نَبِيّاً، واصْطَفَاكَ رَسُولاً، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكَ آياتِ كِتَابِهِ لِتُبلِّغَهُ للنَّاس، دون توَقُّعِ سابقٍ منْكَ لهذا.

• ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: لَمْ يُلْقَ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ إِلَّا إِلْقَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبّكَ لَكَ وللنَّاسِ أجْمَعِين.

رَحْمَةُ اللَّه: صفة مِن صفاتِه الجليلة، وهي صفَةٌ نفسِيَّة للَّهِ عزّ وجلّ نُثْبِتُها لَهُ على ما يَلِيقُ بجَلَاله، ومن آثَارِهَا العطاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البؤس، والإمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ ويُسَكِّنُ النفْسَ، ويُطَمْئِنُ الْقَلْب، ومن آثَارِهَا إِنْزَالُ مَا يَهْدِي وَيُرْشِدُ إلى ما يَجْلُبُ سَعَادَةَ الدُّنيا والآخرَة، فإنْزَالُ الكِتَابِ علَىٰ رسُولِ اللَّهِ مُحمّدٍ ﷺ هو من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعِبادِه.

• ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾: أي: فَلَا تتأَثَّر بما يَنْشُرُهُ أو

---

(١) أفعل التفضيل لَا يَنْصِبُ المفعول به عند النحاة، فتقدير عَاملٍ مَحْذُوف لفظاً ملاحظ ذهْناً أمْرٌ تقتضيه العبارة. ولولا قرار النحويين هذا لآثرتُ أن تكون كلمة «مَنْ» مفعولاً به لا فعل التفضيل «أعْلَم» إذْ لا أرى مانعاً من أنْ تقول مثلاً: فلانٌ أشربُ الناسِ ماءً، والمنشار أقطع الأدوات أشجار الغابة.

يُوَسْوِسُ به المضِلُّونَ، ويُرَدِّدُه الجاهِلُونَ وَقَصِيرُو النَّظرِ الذين يَتَوَهَّمُون أنَّ رَبَّكَ تخلَّيٰ عَنْ نَصْرَتكَ، إذْ مَكَّنَ أئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفر في مَكَّة من اضطهاد الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوك، وإذْ مَكَّنَهُمْ مِنْ إيذائِكَ باتِّهَامَاتِهِم الكاذبات الظّالمات، كاتّهامِهِم لَكَ بأنَّكَ سَاحِرٌ، أو شاعِرٌ، أَوْ تَفْتَرِي على رَبّك فتَنْسُبُ إلَيْهِ الآيَاتِ والسُّورَ الّتي تَتْلُوها عليهم.

إنَّكَ إذَا تَأَثَّرتَ بهٰذِهِ الأشياء، فضَعُفَ يَقِينُكَ بأنَّ رَبَّكَ سيَنْصُرُكَ حَتْماً في نهايَةِ مَرَاحِلِ الصّراع الَّذي لا بُدَّ مِنْه؛ بحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ في المجْتَمَعِ البشريّ، فإنَّكَ تكُونُ بهَذا التّأثّر ظَهِيراً مُعِيناً لِلْكافِرِينَ عَلَىٰ نَفْسِك. **الظهير**: المعين.

لكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ محمّداً ﷺ لَا يَتَأَثَّرُ بهٰذِهِ الْعَوَارِضِ المشَوِّشة، بَيْدَ أَنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ لَهُ والْمَقْصُودُ بِهِ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وَلَا سيما الَّذين لا خِبْرَة لَهُمْ بسُنَنِ اللَّه في المجتمع البشري. ومن التأثّر الذي يكُون بهِ الداعي إلى اللَّه ظَهيراً للكافرين ضَعْفُهُ أو تهاوُنُهُ في مُتَابَعَةِ تبليغه آيات اللَّه، أو في الدَّعْوة إلى رَبِّه، أو تَسَلُّلُ بعض مفاهيم الشرك السببيّ إلى نفسه، أو نحو ذلك.

قول اللَّه عز وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

• ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وفي القراءة الآخرى: [**تَرْجِعُون**].

وفي هاتين الآيَتَيْن بيانُ أربَع وَصَايا، يَتْبَعُهَا بيان أرْبَعِ قضايا، وهي مُوجّهة لِلرسول ﷺ باعْتِباره أوَّلَ مُخَاطَبٍ بِبَيَانِ اللَّهِ لعبادِهِ، ويُلْحَقُ به سَائِرُ الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، ولا سيما أئمَّةُ المتقين،

حَامِلُو رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ، والنُّصْحِ والإرْشادِ، والأمْر بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المنكر، وهي بمثابَة تفصيل إيمائيّ لعبارة. **[فَلا تَكُونَنَّ ظهيراً للكافرين]**.

الوَصِيّةُ الأولىٰ: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أي: ولا تتأثّرْ بمكايد الكافِرينَ الضِّدِّيَّة، وتأخُّرِ نَصْرِ رَبّكَ لَكَ الذي تأتي مقاديرُهُ على وفْقِ حكْمَته، فيكُونَ ذلِكَ صَادًّا لك عَن مُتَابَعَة تَبْلِيغ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ وَقْتِ إنْزَالِهَا إِلَيْكَ، بل بَلِّغْها بَعزيمَةٍ قويَّةٍ عَقِبَ إنْزَالها.

- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: ولَا يَصْرِفُنَّك، الضمير يَعُودُ عَلَىٰ الْكافِرين في الآية السابقة (٨٦).

يقالُ لُغَةً: «صَدَّهُ، يَصُدُّهُ، صَدّاً، وصُدُوداً» أي: صَرَفَهُ عَمَّا هُو فيه، أو منَعَهُ عن مُتَابعَةِ مَا هو فيه.

- ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: عَنْ تَبْلِيغ آياتِ اللَّهِ الّتي هي وَظيفتُكَ الأولَىٰ في رِسالَتِك، أو عن الْعَملِ بها، وهو الوظيفة الثانية من وظائف رِسالتك، إذْ يجب أنْ تكون أسْوَةً حسَنَةً، لعباد اللَّهِ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الإبتلاء.

- ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أي: بَعْدَ وَقْتِ إنْزالِهَا إلَيْكَ دُونَ تَهاوُنٍ أو تباطُؤٍ أو تقصير.

«إِذْ» ظَرْفُ زَمَانٍ لحدَثٍ مضىٰ. وهو مُضَافٌ لجملَةِ: «أُنْزِلَتْ إلَيْك».

الوصيَّة الثّانية: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّه عزّ وجل: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: وادْعُ إلى الإيمان بِرَبّك لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيّتِه، وادْعُ إلَى الإيمانِ بالدِّين الَّذِي كَلَّفَكَ أنْ تُبَلِّغَهُ للنَّاس، وادْعُ إلى سُلُوكِ صراط رَبّكَ المسْتقيم، الَّذِي يُنزِّلُ معَالِمَهُ وَحدُوده.

هذه الدّعْوة الّتي أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِها، فيها تكليفٌ لَهُ أَنْ يَشْرَحَ ويُبَيِّنَ ويُفَصِّل للنّاس على مَقَادِيرِ أفْهَامهم قضايا دينِهم، وهٰذِه تكاليفُ زائِدَةٌ على تَبْلِيغ مَا يُنْزِلُ اللَّه عزَّ وجلّ إليه من آياتِ كتابه، الأمْر الذي جاء في الوصية الأولىٰ.

الوصِيَّة الثالثة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: في تَوجيه مِثْلِ هذا النَّهي عَن الشِّرْكِ للرَّسُولِ المجتبىٰ ﷺ عِدَّةُ أغْراضٍ:

(١) إعْلامُ الكافِرِينَ بأنَّ الرَّسُولَ الَّذِي اجْتَباه اللَّهُ جلّ جلالُهُ لتُبلِيغ رسالَتِه، أوَّلُ الّذين ينهاهم اللَّهُ عن الشِّرْك مَهْمَا كَانَ شِرْكاً خفِيًّا، ومِنْهُ تصَوُّرُ أنْ لِلأسْبَاب تَأثيراً دُونَ تَدَخُّلِ خَلْقِ اللّهِ لمَا يَنْتُجُ عَنْها.

(٢) تَحْذِيرُ المؤمِنينَ أَتْباع الرَّسُولِ ولَا سيما الدُّعاة مِنْهُم، مِنْ الشِّرْكِ مَهْمَا كَانَ خَفِيًّا، إذْ هُمْ مَشْمُولُونَ بالوصايا الْمُوجَّهةِ للرَّسُول ﷺ تَبعاً له.

(٣) التَّأْكيد على رَبْطِ فُرُوعِ الدِّينِ بأصُولِه، كُلَّمَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ البيانِيَّة ذلك ومعلومٌ أن توحِيدَ اللَّه في رُبُوبيَّتِه وفي إلٰهيَّته والتَّحْذِيرَ الشَّديد من الشِّرْكِ، من الأركان الأولَىٰ في الْعَقِيدة الإيمانيَّة فِي دِينِ اللَّهِ لعباده، والحِكْمَةُ الدَّعَوِيَّةُ تَقْتَضِي تَأْصِيلَ هٰذا الرُّكْنِ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ يَحْسُنُ فيها تأكِيدُهُ، ولو كان الخطابُ مُوَجّهاً بوصَايا للرَّسُول ﷺ المعصُوم حتماً من الشِّرْكِ ومِنَ المعاصِي الّتي تتنافىٰ مع درجات مرتبَةِ المتقين.

الوصِيَّة الرَّابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي: ولَا تدعُ مَعَ اللّهِ مَدْعُوّاً آخَرَ، قَدْ يَتَوَهَّمُ الجاهِلُون من دُعائِكَ له أنَّهُ شَرِيكٌ للّهِ في إلٰهيَّته، فَكُنْ شَدِيدَ الحذَرِ في دُعَائِكَ وفي أَقْوالِكَ، حتَّى لَا تَنْزَلِق إلىٰ قَوْلٍ يَتَوَهَّم مِنْهُ بَعْضُ النَّاسِ جوازَ تأْلِيهِ غَيْرِ اللَّه، فيَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَنداً لَهُمْ في ادّعاء الإلهيَّة له.

دَعَاني إلى هذا الْفَهم مَا جاء في الوصية الثالِثَة من النَّهْي عن الشِّرْك، ودَعَاءُ غير اللَّهِ من الشِّرْك إذا حَمَلْنَا اللَّفظَ على المتبادر منه، وبهذا تكُونُ الوصيَّةُ الرابعةُ تكراراً للوصية الثالثة: أو بمثابَة التكرار لها. أمّا الْفَهْمُ الّذي ظَهَرَ لِي فهو يُضِيفُ نَهْياً جَدِيداً ذا دَلَالَةٍ خاصَّة.

وجاء في النّصّ بَعْدَ هٰذِهِ الوصَايا الأَرْبَع بيانُ أَرْبَعِ قَضايا إيمانِيَّة، هي من أركان الإيمان الكبرىٰ، تأصيلاً لهَا، ورَبْطاً لِفُرُوعِ الإسلام بها.

القضية الأولى: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ بحَقٍّ فِي الْوُجود كُلّهِ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وكُلُّ مَعْبُودٍ من دُونِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ إلٰهيَّةٌ مطْلقاً، بل الإلٰهيَّةُ المدَّعَاة لَهُ باطِلَةٌ ومُفْتَرَاةٌ علَىٰ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

القضية الثانية: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾:

هَالِكٌ: أصْلُ الإهْلَاكَ في اللُّغَةِ الإمَاتَةُ. ويَقَعُ أيْضاً على إفْنَاءِ الأشياء واسْتِئْصَالها.

وقدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ على أَنَّهُ يَبْقَىٰ مِنَ الإنْسَانِ لَا يَفْنَىٰ عَجْبُ الذَّنب، وَمِنْهُ تكُونُ نَشَأَتُهُ الأخرىٰ عند البعث، فالفَنَاء الْعَامّ بمعنَىٰ إعدام كلِّ شيءٍ غَيْرُ مُراد، فلا بُدَّ مِنْ فَهْم (هَالِك. على معنَىٰ): «مَيّت» وَتكونُ العبارة على تقدير: كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ سَيكُونُ أو سَوْفَ يكُونُ هَالِكاً أي: مَيّتاً، حتَّىٰ أَهْلُ الملأ الأعْلَىٰ، ومنهم «جبرائيل، وإسْرَافيل، ومِيكائيل» فلا يَبْقَىٰ في الْوُجُودِ حَيٌّ غَيْرُ اللَّه جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطَانه.

[**إلاّ وَجْهَهُ**]: أُطْلِقَ لَفْظُ الْوَجْهِ، والمرادُ كُلُّ ذَاتِهِ، تبارَكَ وتَعَالَىٰ، مُرَاعَاةً لمَا يَفْهَمُه المخْلُوقُونَ، منْ إطْلَاقِ أكْرَمِ شيءٍ فيهم وهو الْوَجْهُ علَىٰ كُلّ ذَوَاتهم في اسْتِعْمالَاتهم، وهو من إطلاقِ الْبَعْضِ وإرادة الكلِّ على سبيل المجازِ المرسل.

القضية الثالثة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجل: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: أي: لَهُ جلُ جلالُهُ الحكم التُكليفيّ لعبادِه الْمُمْتَحنِين، إذْ هُو الرَّبُّ الخالِقِ المتصرف بكُلّ عباده. وله الْحُكْمُ القضائيّ الَّذِي يفْصِلُ بهِ بين عباده الَّذين وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامتحانِ في الحياة الدُّنيا، ولَهُ الحكْمُ التَّنْفِيذيُّ لكُلِّ أمْرٍ يَتمُّ بِه قَدَرُهُ وقَضَاؤه، فَلَا حُكْمَ في الْوُجُود كُلِّهِ بِشَأْنِ هٰذِهِ الأُمُورِ إلَّا للَّهِ وَحْدَه لَا شَرِيكَ له.

وهٰذِهِ القضيَّةُ مُوجَّهَةٌ بالدَّرَجَة الأولَىٰ لِلْحُكْم علَىٰ العباد يوْمَ الحساب وفَصْلِ القضاء، تمْهِيداً لِتَنْفِيذ الجزاء، مع عُموم دَلالَتِها كلّ ما سبَقَ بيانه.

الْقَضِيَّة الرَّابعة: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلَىٰ حُكْمِهِ، وفَصْلِ قَضائِهِ بَيْنَكُمْ، تُرْجَعُونَ بَعْدَ بَعْثِكُمْ من مَوْتِكُمْ، وَقيامَتِكُمْ مِنْ أجداثِكُمْ، ثُمَّ إلَىٰ حُكْمِهِ بِتَنْفِيذِ جزائِهِ فِيكُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُم في الحياة الدُّنيا أيُّها الموضُوعونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابتلاء.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَة (القصص) والحْدُ للَّهِ على مَدَدِه، وفيض عطائه، وتوفيقه وفَتْحه.



(١١)
ملحق
مستخرجات بلاغية من سورة (القصص)

في هذه السُّورة روائع وبدائع بلاغيَّة كثيرة، وأَسْتَخرج منها لهذا الملْحَق أشباه ما اعْتَدْتُ على اسْتخراجِهِ في السّور التي سَبَقَ تدبُّر آيَاتِها ودُرُوسها.

أوّلاً

الإيجاز الرائع بالحذفِ والطَّيِّ بَيْنَ مَنْطُوقِ الْجُمَل، وهَذا النوع من الإيجاز كثير في هٰذهِ السورة، ويَكْشِفُهُ مَا يقْتِضيهِ الترابُط الْفِكْرِيّ بين الجمل، وقَدْ يأتي المطويُّ في هذه السورة مُصَرّحاً بِهِ في سُورَةٍ أُخرىٰ، ولا سيما بالنّسْبَةِ إلىٰ القِصَص الَّتي يُرَىٰ أنَّها مُكرَّرَة في بَعْضِ السُّور، والتدبُّر المتأني يكْشِفُ أنَّها متكاملة فيما بَيْنها.

ومِنْ هذا الإيجاز مَا أذْكُرُه فيما يلي دون تفصيل مُوسّع:

(١) قول اللَّه عزّ وجلّ بشَأن مُوسَى وهو رضيعٌ انتشَلَهُ آل فرعْون من النيل، وأخته مَرْيم الّتي تتابعُ أحداثَ انتقاله وهو داخل التابوت في الماء، حتَّى انتشَلَهُ آل فرْعَوْن، دون أنْ تُشْعِرَ أحداً بأن لَهَا صلَة ما به.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ...﴾ أي: وَحَرَّمْنَا علَى مُوسَىٰ تَحْريماً قدريًّا المراضِعَ فمنعْناه بالقضاء والْقدر من أن يقبل ثَدْي إحداهُنَّ لِنَرُدَّه إلَىٰ أُمّه، وكانت أختُه مريم تَقصُّ أخباره، فلَمّا وَصَلَتْ إلى حيْثُ يُطْلَبُ لَهُ مُرْضِعٌ يَقْبَلُ ثَدْيَها، قالَت للطالِبينَ، هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وهُمْ لَهُ نَاصِحُون؟

(٢)وقول اللَّه عزّ وجلّ بشأن مُوسَىٰ بَعْدَ أن اكْتَمَلَتْ رُجولَتُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: ولَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ واسْتَوىٰ وكَانَ في سُلُوكِهِ في نَشَأتِهِ، وفي شبابه، وفي اكْتِمَالِ رُجُولَتِهِ، مِنَ الْمُحْسِنينَ، آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً، وكذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ المحْسِنينَ ضِمْنَ سُنَّنِنا في عبادنا، إذْ نُؤْتِيهم حُكْماً وَعِلْماً.

(٣) وقول اللّه عزّ وجلّ بشأن حَدَثٍ من الأحداث الّتِي جَرَتْ لمُوسَى قبل فراره مِنْ جُنودِ فرْعَوْنَ إلَىٰ مَدْين:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فتَدَخَّلَ مُوسَىٰ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا فَتطاولَ عَلْيهِ المصْرِي معتزّاً بعُنْصُرِيَّتِه، فوكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْه.

دلَّ على أنَّه تَدَخَّلَ ليُصْلِحَ بينهما حادثَةُ اليوم التالي إذْ قَالَ لِهُ المصريّ الآخر: ﴿..وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

(٤) وقَوْلُ اللّه عزّ وجلّ بشأنِ مُوسَىٰ أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: قال رَبِّ بما أنْعَمْتَ عليَّ بالسّتر فَلَمْ تَكْشِفْ أَنِّي أنا الَّذِي قتَلْتُ المصريّ. كان هذا قَبْلَ أن يُكْشَفَ أَمْرُهُ في اليوم التالي.

(٥) وقول اللّه عزّ وجلّ بشأن مُوسَىٰ عليه السلام حين وَصَلَ إِلَىٰ أرْض مَدْيَنَ فاراً مِنْ مِصر وَجُنُودِ فرعَوْن:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ووَجَدَ مِنْ دُونِهِم امْرَأتَيْنِ تَذُودان (أي: تُبْعِدَان) اغْنامَهُما.

(٦) وقول اللّه عزَّ وجلّ بشأن مُوسَىٰ عليه السلام أيضاً: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ واسْتَأْذَنَ أَبَا زَوْجَتِهِ أَنْ يُسَافِرَ إلى

مصر، مُسْتَصْحِباً زَوْجَتَهُ وولَدَه، وأذِنَ لَهُ، وأعَدَ ما يَلْزَمُ لهذا الرَّحيل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وإنّي ذَاهِبٌ إلى المكان الّذي هي فيه ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من أهْلِها ﴿بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(٧) قول اللّه عزَّ وجَلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا . . . ﴿٤٦﴾﴾: أي: إذْ نادَيْنا مُوسَىٰ.

ثانياً: الكناية

وهي اللَّفظ المسْتَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحِ التّخاطب، للدَّلَالَة بِهِ على معْنَىٰ آخَرَ لازم لَهُ، أو مصاحب له، أو يُشَارُ بِهِ عادَة إلَيْهِ، لمَا بيْنَهُما من الملابَسَةِ بوجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

وهي من أساليب التعبير الرَّفِيعِ، عن المراد بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَة، وهي من أبْدَع وأجْمَلِ فُنُون الأدَب، وفيها إشعار المخاطب بأنَّهُ من الأذكياء أولي الألْبَاب الّذِينَ تكْفِيهُمُ الإشاراتُ، واللّمْحيَّاتُ فِي الْعِبَارَات.

وممَّا في السورة من الكنايَة ما يلي:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ بشَأْنِ أمّ مُوسَىٰ حِينَ وضَعَتْهُ في التابوت وألْقَتْهُ في اليمّ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾:

جاء في هٰذِهِ الآية كِنايَتَان:

الكنايَة الأولَىٰ: الكنايَة بالفراغ للدَّلالَة علَىٰ الخِفَّةِ الَّتي يطِيشُ بها الفارغ وَلَا يَثْبتُ، ومَعَ طَيْشِ الْفُؤَادِ يُبْدِي الإنسان ما يَجِبُ أنْ يكونَ كاتماً له محافظاً علىٰ سِرِّيّتِه.

الكناية الثانية: الكِنَايَةُ بالرّبط للدّلَالَةِ علَىٰ التَّثبيتِ المعنوي. أو نقول: شُبِّه التثبتُ المعنويُّ بالرَّبْطِ الذي يَثْبُتُ بِه المرْبوط، واسْتُعير الفعل في «رَبَطْنا» للدّلالَة بِه على معنى الفعل في «ثَبَّتْنا».

(٢) وقول اللَّه عزّ وجلّ بشأن موسَى عليه السلام وفرعون ومَلَئِهِ وأتباعهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

في رَدّ مُوسَىٰ عليه السلام على فرعون وملَئِهِ كِنَايَةٌ عَنْ إِنْذارِهِم بعقاب اللَّه عزّ وجلّ، لأنَّ اللَّهَ أعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالْهُدَىٰ ومَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ وهيَ الجنَّة، ويَلْزَمُ مِنْ هٰذا أَنَّ مَنْ أبَىٰ أن يَسْتَجِيبَ للْهُدَىٰ فَلَهُ عذابُ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

ونَظِيرُ هٰذه الكنايَة مَا جَاءَ في قول اللَّهِ عزّ وجلّ لِرَسُوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: فَهُو يَنْصُرُ وَيُثِيبُ مَنْ جاء بالْهُدَى، وهو يَخْذُلُ ويُعَاقِبُ مَنْ هُو في ضَلَالٍ مُبين.

ثالثاً: ممّا يَحسُنُ في البيان مخالَفَةُ مقتضى الظاهِرِ لدَواعٍ بلاغيّة

أ ـ من مخالفة مقتضىٰ الظاهر الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبعيد لداعٍ بلاغي، ومنه ما يلي:

(١) قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾:

جاء في هذه الآيَةِ اسْتِعْمالُ اسْم الإشارة الموضوع للبعيد «تِلْكَ»

للدّلَالة على ارْتفاع مَنْزِلَةِ آيات القرآن المجيد، بأنَّها كلامُ اللَّه عزّ وجلّ، وبأنَّها معجزة في أَلْفَاظِهَا وَفي جُمْلَةِ معانيها.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

جاءت الإشارة إلى «الدَّارِ الآخِرَة» الَّتِي هِيَ الجنَّةُ باسْم الإشارَة «تِلْكَ» الْمَوْضُوعِ للمشار إلَيْهِ الْبَعِيد، لِبُعدِ مكانِهَا الآنَ في الحياة الدُّنيا، ولارْتِفَاعِ مَكَانَتِهَا العظيمة، بما جَعَلَ اللَّهُ فيها من نَعِيمٍ عظِيمُ مقِيم خالِدِ، وبما جعل اللَّهُ فيها للمتقين ممّا لَا عَيْنٌ رأتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ علَىٰ قَلْبِ بَشَر.

ب ـ ومِنْ مُخَالَفَةِ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ يَتَحَدَّثَ المتكلّم الواحد عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ الْجماعَة، ويَحْسُنُ تَسْمِيَتُهُ ضَمِيرَ المتكلّم العظيم.

وَجاء في السُّورَةِ أَمْثِلَةٌ كثيرةٌ من حَدِيث اللَّهِ عزّ وجلَّ عَنْ نَفْسِه بضمير المتكلّم العظيم، لتربيَةِ المهابَة مِنْه جلّ جلاله، أو لأنّ مضْمُونَ الكلام يَتَعَلَّقُ بأمُورٍ هي من خَصَائِصِ الرَّبّ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانِه. ومِنْ هٰذه الأمْثِلة:

[نَتْلُو عَلَيْكَ ـ ونُريدُ أَنْ نَمُنَّ ـ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً ـ ونَجْعَلَهُمْ الوارِثِينَ ـ وأَوْحَيْنَا إلَىٰ أُمّ مُوسَىٰ ـ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا ـ آتَيْنَاهُ ـ سَنَشُدَّ عَضُدَكَ بأخيك ـ ونَجْعَلُ لكُما سُلْطاناً ـ فلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ بآياتِنا].

رابعاً: من الفنون البيانيّة إيراد الجملة مورد التعليل دون دليل لفظيّ يَدُلّ عليه

وهذ الْفَنُّ لَهُ أمثلة كثيرة في القرآن المجيد، ومن أَمْثِلَتِهِ في سورة (القصص) ما يلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ في خطاب موسَىٰ عليه السلام بجانب الطور:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

جملة: **[إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فاسِقِينَ]**: أُورِدَت مَوْرِدَ التعليل، أي: نُرْسِلُكَ رَسُولاً إليهم، لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِنا، ومَعَك بُرْهَانَان هما الْعَصَا والْيد من رَبّك لأَنَّهُمْ كانوا قَوْماً فَاسِقِين، والْحِكْمَةُ تقتَضِي إرْسَالَ رَسُولٍ لَهُمْ وَإِنْذَارَهُمْ قبَلْ إنْزَالِ الْعِقَابِ المعَجَّلِ عَلَيْهِم بالإهْلَاك.

خامساً

التوكيد للجمل بأدواتِ التوكِيد لدَوَاعٍ بلَاغيَّة، يُرَاعَىٰ فيها حَالُ المخاطَبين، أو حالُ المتكلّم.

وفي السَّورة من هذا التوكيد أمْثِلَة كثيرة جدّاً، لَا تخفىٰ عَلَىٰ مَنْ نظر المستخرجات البلاغيَّة من السَّور الَّتي جَاءَتْ قبلَ سورة (الْقَصَص) وباستطاعَتِهِ أنْ يَقِيسَ عليها، ولا سِيما حينما يَضَعُ أدواتِ التوكِيد أمَامَ عيْنَيْهِ، وباستطاعته أن يسْتعين بكتابي «البلاغَة العربية ـ أسُسُها، وعُلُومُها، وفُنُونها» وأنْ يَنْظُرَ موضوع «مؤكدات الإسناد الخبري» في الجزء الأول منه، في الصفحات من (١٨٦ ـ ١٩٣).

وأقتصر على هذه المستخرجات من هذه السورة تاركاً للمهتمين بعلوم البلاغَة مجالاً واسعاً للاستخراج، فالقرآن معين ثَرٌّ في كلّ مجالٍ من مجالَاتِه الفكرية والعلمية والأدبية.





سورة الإسراء

وتسمى سورة «بني إسرائيل»
وتسمى سورة «سبحان»

١٧ مصحف ٥٠ نزول
وهي مكية إلا:

- الآية: (٢٦) فمدنية.
- والآيتين: (٣٢ و ٣٣) فمدنية.
- والآية: (٥٧) فمدنية.
- والآيات من (٧٣ - ٨٠) فمدنية.

على ما ذكر علماء القراءات والله أعلم.



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ

٢ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [أَلاَّ يَتَّخِذُوا] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني.

٧ ـ • قرأ ابن عامر، وشعْبَة، وحَمْزَة، وخلف: [لِيَسُوءَ].
وقرأ الكسائي: [لِنَسُوءَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِيَسُوؤُوا].
وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنُّنٌ في التعبير، فالفاعل=

وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا

= الحقيقيُّ المقدِّرُ هو الله، والفاعلُ السَّببِيُّ الناس.
ومؤدّىٰ القراءات واحد.

٩ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانَ] وصلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف فقط.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْقُرْءَانَ].

٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [وَيَبْشُرُ] من فعل «بَشَرَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ من فعل: «بَشَّرَ».

١٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَيُخْرَجُ].
وقرأها يعقوب: [وَيَخْرُجُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَنُخْرِجُ﴾.
ومؤدّىٰ هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّن في التعبير.

١٣ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يُلَقَّاهُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَلْقَاهُ﴾.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ

١٤ ـ • كلمة (اقۡرَأ) أبْدَل همزَتَها ألفاً مَدِّيَّة، أبو جعفر في الوصْلِ والوقف، وحمزة وهشام في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة وصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قرأ يَعْقُوبُ: [ءَامَرۡنَا] بمعْنَىٰ: كَثَّرْنَا، يُقالُ لغة: «آمَرَ اللَّهُ القومَ إيماراً» أي: كثَّرَ نَسْلَهُمْ وَمَاشيتهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمَرۡنَا﴾ بمعنىٰ وجَّهْنَا لهم أمْراً تكْلِيفيًّا إلْزاميًّا.

ويأتي هذا الفعل أيضاً بمعنىٰ: كثَّرْنا، يقال لغة: «أمَرَ اللَّهُ الْقَوْم» أي: كَثَّرَ نَسْلَهُمْ ومَاشيتهم.

فبين القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٩ ـ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبو جَعْفر: [وَهۡوَ] بإسْكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

وهُما لغتان عربيّتان.

وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟

٢٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [إِمَّا يَبْلُغَانِّ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾.
ومؤدّىٰ القِراءَتَيْنِ واحد، وهما من التفنُّن في البيان.
٢٣ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: ﴿أُفٍّ﴾ بكسر الفاء مع التنوين.
وقرأها ابن كثير، وٱبْن عامر، ويعقوب: [أُفَّ] بفتح الفاء دون تنوين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أُفِّ] بكسر الفاء دون تنوين.
وهي لغاتٌ عربيّة لهذه الكلمة.
٣١ ـ • قرأ ابن كثيرٍ [خِطَآءً].

=

ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ

= وقرأها ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [خَطَأً].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿خِطْأً﴾.

الخِطْءُ، والخَطأُ يقَعَانِ على الذنب.

وأمّا قراءة ابن كثير، فيظْهَرُ أنّها لُغَةٌ كالْخِطْءِ إلّا أنَّ مُدَوِّني المعجمات اللُّغَوِيَّة لَمْ يَذْكُرُوها، وكونُها قراءة متواترة يَكْفِي لإثباتها، ففي لغات العرب كثيرٌ لم تُدَوِّنْهُ المعجمات اللّغويّة.

٣٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَلَا تُسْرِفْ] بتاء المخاطب، وهو خطاب موجَّهٌ للوليّ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ بياء الغائب، والضمير يعود على الوليّ.

والقراءتان من التَّفَنُّن في التعبير.

٣٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بالقِسْطَاسِ] بكسر القاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بالقُسْطَاسِ] بضم القاف.

وهما لغتان عربيّتَان في هذه الكلمة.

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [سَيِّئَةً]. =

ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿سَيِّئُهُ﴾.

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في أداء المعنَىٰ المراد، أي: كلُّ مَنْهِيّ عنه من ذَلِكَ الذي نَهَىٰ اللَّهُ عنهُ في الآيات السَّابقات كانَ سيِّئُهُ الذي يَكْرَهُهُ رَبُّك مَكْسُوبَةً سَيِّئَةً، يسْتَحِقُّ فاعِلُها أَنْ يُعاقَبَ عليها.

٤١ ـ • قَرَأَ حمزة، والكسائي، وخلف: [لِيَذْكُرُوا].

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أصْلُها ليتَذَكَّروا.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد. أي: لِيَذْكُر قسمٌ من الناس ذكراً لا مبالغة فيه، ولِيَذَّكَّر قسم أهل السّبقِ ذكراً فيه اجتهاد وحرصٌ شديدٌ على المسابقة في الخيرات والقربات.

٤٢ ـ • قرأ ابن كثير وحفص: [كَمَا يَقُولُونَ] بالياء. وقرأها باقي القراء العشرة بالتاء [كَمَا تَقُولُونَ] وبينهما تكامُلٌ في الأداء البياني بين الغيبة والخطاب.

٤٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا تَقُولون] بالتاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالياء: [عَمَّا يَقُولُون]. وبينهما تكامل في الأداء البياني.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر [يُسَبِّحُ لَهُ] بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاء.

وهما وجهان عربيان جائزان متكافئان.

٤٤ ـ • قرأ يعقوب بضم الهاء من [فِيهُنَّ].

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء [فِيهِنّ] وهما لغتان في هاء الضمير.

إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا

٤٥ ـ • قرأ السوسي، وأبو جَعْفر: [وَإِذَا قَرَاتَ] بإبدال الهمزة ألفاً، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة.

٤٥ ـ • كلمة «القرآن» هنا وفي الآية السابقة (٤١) أبدل الهمزة ألفاً ابنُ كثير، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط. وباقي القراء بالهمزة.

٤٩ ـ • قرأ نافع، والكسائي، ويعقوب: [أئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً إنَّا]؟.

وقرأها ابن عامر، وأبو جعفر: [إذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أئِنَّا]؟.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أئِنَّا﴾.

ومؤدّى هذه القراءات واحد، فالاستفهام، ذُكِرَ أمْ لم يُذْكَرْ مُقَدَّرٌ ذِهْناً.

مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً

٥٤ ـ • أبدَل الهمزة من [يَشَا] ألفاً في الموضعين أبو جعفر في الوصل والوقف.
وحمزة وهشام في الوقف فقط.
وباقي القرّاء العشرة قرؤوها بالهمزة الساكنة: [إِنْ يَشَأْ].

٥٥ ـ • قرأ نافع: [النَّبِيئِينَ] مع المدّ المتصل. ولورش ثلاثة البدل.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿النَّبِيِّين﴾.

٥٥ ـ • قرأ حمزة، وخَلَفٌ: [زُبُوراً] بضَمّ الزاي، وهو جمع «الزُّبُر» وهو المكتوب.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿زَبُوراً﴾ بفتح الزاي. وهو الكتاب المزْبُور.
ومؤدىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٥٦ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادْعُوا] بكسر اللام في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة بضم اللام: [قُلُ ادْعُوا] مراعاة لضمّ العين.

٥٧ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ] بكسر هاء الضمير وميم الجمع.
وقرأ حمْزَة، والكسائي، وخلف بضمّهما [رَبِّهُمُ الْوَسِيلَةَ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسْرِ الهاء وضمّ الميم ﴿رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾.
وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النطق.

فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾

٦٠ ـ • قرأ السّوسي: [الرُّويَا].
وقرأها أبو جعفر: [الرُّيَّا].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الرُّؤْيَا﴾.
ووقف حمزة كالسُّوسي وأبي جعفر.

٦١ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا] مراعاةً لضم الجيم في اسْجُدُوا وصلاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالكَسْر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بالكسر على الأصل.

٦٢ ـ • أثبت ياء المتكلم في: [أَخَّرْتَنِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل. وابن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف.
ولَمْ يُثْبِتْها باقي القراء العشرة فقالوا: ﴿أَخَّرتَنِ﴾ في الوصل والوقف.

٦٤ ـ • قرأ حفص: [وَرَجِلِكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَرَجْلِكَ﴾ الرَّجْل اسم جمع الرَّاجِل الماشي على رِجلَيْه. ويظهر أنّ كَسْر الجيم لغة.

رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

---

٦٨ و٦٩ ـ • قرأ ٱبن كثير، وأبو عمرو: بنون المتكلم العظيم في الأفعال التالية: [نَخسِفَ ـ نُرْسِلَ ـ نُعيدَكُم ـ فَنُرْسِلَ ـ فَنُغرِقَكُمْ].

وقرأها رُوَيس عن يعقوب، وأبو جعفر بخُلْفٍ عن ٱبْن وردَان: [يَخسِفَ ـ يُرْسِلَ ـ يُعيدَكُم ـ فيُرْسِلَ ـ فَتُغرِّقَكُمْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَخسِفَ ـ يُرْسِلَ ـ يُعيدَكُمْ ـ فيُرْسِلَ ـ فيُغرِقَكُمْ].

ومؤدى هذه القراءات واحد، وفيها تفنُّنٌ في الأداء البياني، وزيادة ترهيب في [فَتُغرِّقَكُمْ].

٦٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِنَ الرِّياحِ] بالجمع، وهو يدلُّ على تعدّد أنواعها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مِنَ الرِّيحِ﴾ بالإفراد، وهو يَدُلُّ على الجنس.

إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ

٧٢ ـ • في [فهو] قراءتان إسكان الهاء وضمها كما في الآية (١٩).

٧٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيهُمْ] بضم هاء الضمير.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيهِمْ﴾ بكسرِ هاء الضمير.
وهما لغتان عربيتان.

٧٦ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [خِلاَفَكَ] أي: بَعْدَك.
وقَرَأهَا باقي القراء العشرة: [خَلْفَكَ] أي: وراءَ ظهرِك الذي تولّيه إيَّاهم عند خروجك.
ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

٧٧ ـ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلِنَا] بإسكان السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة بضمها: ﴿رُسُلِنَا﴾.
وهما لغتان عربيّتان.

زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

٨٢ ـ • قرأ أبو عَمرو، ويَعْقُوب: [وَنُنْزِلَ] من فعل: «أنزل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَنُنَزِّلَ] من فعل: «نزّل»، أنزل ونزّل مُتكافِئان.

٨٣ ـ • قرأ ابن ذكوان، وأبو جعفر: [وَنَاءَ]: أي: ونهض كالمثقلِ من حِمْل، وهو كناية عن الابتعاد، مع إعطاء مظهر الاستكْبار.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَنَأَىٰ﴾ أي: ابْتَعَد.
وبين هاتين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فقراءة: [وَنَاءَ] تَدُلُّ علىٰ إعراض المتثاقل المستكبر، وهذه صفة بعض الناس، وقراءة ﴿وَنَأَىٰ﴾ تَدُلُّ على الإعراض مع الابتعاد عن الحق وطاعة الله، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

٨٨ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَان] وحمزة في الوقف.
وباقي القراء العشرة: ﴿الْقُرْآن﴾.

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ

٩٠ ـ • قرأ نافع، وٱبن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جعفر: [تُفَجِّرَ] من فعل: «فَجَّرَ» المضعف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفْجُرَ﴾ من فعل: «فَجَرَ» غير المضعف.

والقراءتان تُعَبِّرَان عَنْ مقالتين قالهما كبراء كفار قريش، فقال بعضُهُمْ: حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا من الأرض يَنْبُوعاً، مشيراً إلى أرض لينة.

وقال بعضهم: حَتَّىٰ تُفَجِّرَ مشيراً إلى أرض صخريَّةٍ صَعْبَة التشقق.

٩٢ ـ • قرأ نافع، وٱبن عامر، وعاصم، وأبو جَعْفر: [كِسَفاً] بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان السين [كِسْفاً].

كِسْف، وكِسَف، جمع «كِسْفَة» بمعنىٰ: قطعة. فالقراءتان متكافئتان.

٩٣ ـ • قرأ أبو عمرو، ويَعقوب: [تُنْزِلَ] مِنْ فعل «أنْزَل».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُنَزِّلَ﴾ من فعل «نَزَّلَ» المضعَّف.

أنْزَل، ونزّل، متكافئان، فالهمز أخو التضعيف.

٩٣ ـ • قرأ ٱبن كثير، وٱبن عامر: [قَالَ سُبْحَانَ] بالفعل الماضي.

وقرأها باقي القراء العشر: ﴿قُلْ سُبْحَانَ﴾ بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال له الله عزّ وجلّ: قُلْ، فقالَ.

كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ

٩٧ ـ • أثبت الْيَاء في لفظ [الْمُهْتَدِي] نافِع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، في الوصل، وأثبتها في الوصل والوقف يعقوب.
وحَذَفها باقي القراء العشرة فقالوا: ﴿الْمُهْتَدِ﴾ وهذا الحذف من الإيجاز الذي له نظائر.

٩٨ ـ • في: [أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا] القراءات التي ذُكِرَتْ في الآية (٤٩).

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم في: [رَبِّيَ إِذًا] نافع، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر.
وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

١٠١ ـ • قرأ ٱبْن كثير، والكسائي، وخَلف: [فَسَلْ]. وحمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فاسْأَلْ﴾.
والقراءتان وجهان عربيان في فعل الأمر من فعل «سَأَل».

١٠٢ ـ • قرأ الكِسَائي: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلّم وهو موسى عليه السلام. =

إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بضمير المخاطب وهو فرعون عليه اللّعْنة.

وبين القراءتين تكاملٌ في بيان الواقع الذي أجاب به موسى عليه السلام، إذْ قال لِفِرْعَوْنَ: لَقَدْ عَلِمْتُ أنا، ولَقَدْ عَلِمْتَ أنْتَ.

١١٠ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة: [قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

وقرأها يعقوب: [قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوُ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوُ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

(٢)
ممّا جاء في السُّنَّة بشأن هذه السورة

(١) روى البخاري عن ٱبْن مسعود رضي اللَّهُ عنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، ومَرْيم» إنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

«في بني إسرائيل» أي: في سورة «بني إسرائيل» وهي «الإسراء».

«مِنَ العِتاق الأُوَل»: أي: من النفائس الْقَدِيمة. **العِتَاق**: جمع «العتيق» وهو القديم الكريم النفيس، ذو القيمة العظيمة القديمة الّتي تعتبر من الكنوز.

«وهُنَّ مِنْ تِلَادِي»: أي: وهُنَّ من النفائس القديمة ذاتِ القيمة العظيمة عِنْدِي، وهذه العبارة مؤكِّدَة للعبارة الأولىٰ بغية التنْبيهِ على شرف هذه السور.

ولا بُدّ أنْ يكون ابْنُ مسعود رضي الله عنه قد سمع هذا من الرسول ﷺ، ولوْ لَمْ يُصَرَّحْ في السَّند هذا.

(٢) وروى الترمذي في جامعه، في أبواب الدُّعاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

«كانَ النبيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرَأَ الزُّمَرَ وبَنِي إسْرَائيل».

أي: وسورة «الإسراء».

(٣) وروى الإمام أحمد بسَنَدِه عن عائشةَ قَالت:

«كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حتَّىٰ نَقُولَ: ما يُرِيدُ أَنْ يُفْطِرَ، ويُفْطِرُ حتَّىٰ نَقُولَ: ما يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وكانَ يَقْرأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بني إسْرَائيل، والزّمَر».

أي: كان يتْلُو هَاتَيْنِ السورتين: الإسراء، والزُّمَر.

❋ ❋ ❋

(٣)
موضوع سورة «الإسراء»

تدور آيات هذه السورة حول وحدة الرّسَالَات الرَّبَّانية للناس، ومن أمثلة هذه الوحدة، ذكْرُ بعض العناصر الماديَّةِ والمعنوية العَقَديَّة والتشريعيّة والْخُلُقِيَّةِ الجامِعَةِ بَيْنَ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عليه السلام، الْمُطَالَبِ بِها بَنُو إسرائيل حتَّىٰ إِنْهَاءِ الْعَمَلِ بها بِبعْثَةِ محمد ﷺ، وبين الرسَالة الخاتِمَةِ، رِسَالَة مُحَمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقد جمع الله عزّ وجلّ لخاتم رُسُلِهِ محمد بن عبد الله ﷺ بَيْنَ أعظم مَسْجِدَيْن أُسِّسَا لعبادة الله عزّ وجلّ في الأرض بحادِثَةِ الإسراء:

أوّلُهما: المسجد الحرام في مكة المكرمة، وفيه الكعبَةُ المشرفَةُ أوّلُ بيت وُضِع للناس، والّذي رفع قواعِدَهُ على أسُسِه القديمة إبراهيم مع ولَدِهِ إسْمَاعيل عليهما السلام، بوحْيٍ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتعيينِ مكانه وتحديد حُدُوده.

وثانيهما: المسْجدُ الأقْصَىٰ في الْقُدْس، ويظهر أنّ أوّلَ من بناه إبراهيم عليه السَّلامُ بَعْدَ رَفع قواعد الكعْبَة بأرْبعين سنة، دلَّ على هذا ما رواه البخاري ومُسْلم عَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلُ؟.

قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قُلْتُ: ثُمَّ أيّ؟. قال: (الْمَسْجِدُ الأَقْصَىٰ).

قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟. قال: (أَرْبَعُونَ سَنَة)».

وظاهرٌ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُعْنَىٰ ببناء المسجد الأقْصَىٰ في هذِهِ المدَّةِ غَيْرُ إبراهيم عليه السلام[1]، ورُبَّما شَارَكَهُ ابنُهُ إسْحَاقُ عَلَيْهِ السلام واللَّهُ أعْلَم،

(١) تبعتُ بهذا الفهم الشيخ محمّد بن الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير».

وظاهرٌ أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ يتَحدَّث عن بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، لا عن تأسِيسِها الأوّل في تاريخ البشر.

وقد أنْزَل الله عزّ وجلّ على رسوله محمّد ﷺ القرآن خاتمة كُتُبه للناس، وجَمَعَ فيه زُبْدَةَ مَا في كتُبه للأوّلين، ومنها التوراة الكتاب الرَّبَّاني الّذي آتاه اللَّهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ففي القرآن كُلُّ البيانات والتعليمات الرَّبَّانِيَّة السّابِقَةِ في كُتُبه، وكلُّ الأحكام الّتي لها صفة الدَّوام، لَا صِفَةُ التعليمات والأحْكَام الزَّمَنِيَّة الْمَرْحَلِيَّة المتتابعة، أو صفة الأحكام العلاجيَّة لأمَّةٍ من الأمم، كالأحكام العلاجيَّة التي فرَضها اللَّهُ على بني إسرائيل بسَبَبِ ظُلْمِ منهم.

ومِنَ الأمْثِلَة على هذا اشتمالُ سورة (الإسراء) على الوصَايَا العشر الّتي كتبها اللَّهُ عزّ وجلَّ لموسَىٰ في الألْواح، مع وصَايا أخرىٰ مُضَافَة، وبياناتٍ مُفَصَّلَاتٍ.

ومن الأمْثِلة أيضاً بيانُ مَا أعْلَمَ اللَّهُ به بني إسرائيل في التوراة، بشأن تاريخِهِم المستقبلِيّ، وَمَا سَيكُونُ مِنْهُمْ من إفسادٍ في الأرض ومن عُلُوٍّ كَبِير فيها، وكَيْفَ أنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شديداً بعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ.

وألَمَحَ جلَّ جلالُهُ إلى أنّ عِلَّةَ أجْيَالِ بني إسْرَائيل النفسيَّة أَنَّهم مُتَشبِّهُونَ بحُب العاجِلَةِ، فهُمْ في الغالب منهم يحبُّونَ العاجِلةَ ويَذَرُونَ الآخرة، فيُنْفِقُونَ كلّ ما لدَيْهم من طَاقَاتٍ، وكلَّ ما لديهم من ذكاء وحِيلةٍ ومكْرٍ، في الحصول على متاع الحياة الدُّنيا.

واقتضىٰ الْبَيَانُ الحكيم الّذي تُفْهَمُ منْهُ وَحْدَةُ الرَّسالات الرَّبَّانيَّة، التوجُّهَ لدعوة بني إسرائيل وكلّ أهل الكتاب وغيرهم إلى الدُّخول في الإسلام الدّين الرَّبَّاني الخاتم، ومعالَجَتِهِمْ معالَجَاتٍ مَبْدَئِيَّة، تمهيداً للمعالجَات الموسَّعَات الّتي سَتَكُون بَعْدَ هِجرة الرَّسول إلى

المدينة، واحتكاك الرَّسُول بالمستوطنين من اليهود فيها.

واقتضىٰ الْبَيَانُ الحكيم أيضاً مُتَابَعَةَ مُعَالَجَةِ مُشْرِكي مَكَّة، بناءً على المعالجات السابقات، الّتي أنْزَلَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ قَبْلَ سُورَة (الإسْرَاء) مع العناية بما استجدَّ مِنْ أَمْرِهِم.

واقتضىٰ أيضاً توجيه تَرْبياتٍ للرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ تتعلَّقُ بِمَسِيرَتِه الدَّعَوِيَّة، وتَتَعَلَّقُ بعَلَاقته التَّعَبُّدِيَّة بِرَبّه.

ومَعْلُومُ أنَّ جميع الوصايات والتعليمات في السُّورَةِ مُوَجَّهَةٌ لكلِّ مَنْ آمَنَ تكليفاً، وهي بيان دَعَوِيٌّ لغير المؤمنين.

ومن طبيعة المعالجاتِ الدّعَويَّة أن تتنقَّلَ في القضايا الجزئيَّة بحسب واقع حال الْمُعَالَجِين. ومن عجيب المعالجات في هذه السُّورَة كثْرَةُ مَا فيها من إجابات على أسْئُلَةٍ مَطْوِيَّةٍ في السُّورة لم يُصَرَّحْ بها، وهذه الأسْئِلة المطويَّةُ تُفْهَمُ من الإجابَةِ العلاجيَّة، وبسبب هذا فقد تخفىٰ على مُتَدَبّر هذه السُّورة وَحْدَةُ مَوْضوعها.

فالسُّورة تَدُلُّ بفَحْوَىٰ مقدِّمَاتِها على وحْدَةِ الرّسالات الرَّبَّانيَّة، ودَعْوَةِ أهل الكتاب، ولا سيما بنو إسرائيل إلى الدُّخول في الإسلام، مع بيان تاريخهم المستقبلي، وتوجيه مُقدّماتٍ دَعَوِيَّةٍ علاجِيَّةٍ لهم، ومُتَابَعَةِ علاجٍ لكُفَّارِ قُرَيشٍ إبَّانَ التَّنْزِيل، وفي ضمن ذٰلِكَ توجيهات بوصايا للمؤمنين، وتربيةٌ توجيهيَّة للرَّسُول ﷺ.

ويُلاحظ في كلِّ ذلك المرْحَلَةُ الّتي وصَلَ إليها الرسول ﷺ في مَسِيرَته الدّعويَّة إبَّان نزول السّورة، والأحْدَاثُ الّتي جَدَّتْ، والمواقف الّتي حَدَثَتْ أو اسْتَمَرَّتْ أو تكَرَّرَتْ من مواقف المشركين.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروس سورة (الإسراء)

سورة (الإسراء) سورة متشابكة الترابط بخُطُوطٍ ذهْنِيَّةٍ غَيْرِ منْظُورَة، ولتَيْسِيرِ تَدَبُّرِها أُقَسِّمُها إلى (٢١) دَرْساً.

الدّرس الأول: الآية (١) منها.

وهذا الدّرْس يشْتَمِلُ على تنزيه اللَّهِ عزّ وجلّ، وتمجيد قُدْرَتِه وحِكْمَتِه، وبيان حَدَثِ إسرائه برسوله محمّد ﷺ من المسْجِدِ الحرام، إلى المسْجِد الأقصَىٰ، لِيُرِيَهُ من آياتِه، فَيُدْرِكها بحَاسَّتَيْ سَمْعِه وبَصَرِه.

الدّرس الثاني: الآيات من (٢ ـ ٨).

وهو يشتمل على أنّ الله عزّ وجلّ آتَىٰ موسى كتابَ التوراة، وجَعَلَهُ هُدىً لبني إسْرائيل، وأنَّه جَلَّ جلالُه أعْلَمهُمْ فيه بلقطاتٍ بارِزاتٍ من تاريخهم المستقبليّ، الذي سيخالفون فيه التعليمات الّتي أنْزِلَتْ إليهم في الكتاب، فَيُفْسِدُونَ في الأرْضِ إفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتين، بإراداتهم الحرَّة، واختياراتهم الّتي لا جَبْرَ فيها، ويَعْلُونَ عُلُوًّا كبيراً، وأنّ اللَّهَ سَيَنْتَقِمُ منْهُمْ في كِلْتَا المرَّتَيْنِ، فيُسَلِّطُ علَيْهم من عباده مَنْ يُكْثِرُونَ الْقَتْلَ فيهم، ويُعَذِّبونَهُم، ويُذِلُّونَهُمْ، ويُمَزِّقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وأبان لهم أنّ هذِهِ سُنَّتُهُ الدائمة فيهم كلّما أفْسَدُوا في الأرضِ وطَغَوْا وبَغَوْا، فإذا استقامُوا واستكانوا رَحِمَهم.

وأبان لهم أنّ عاقبة الكافِرين منهم بما أنزل اللَّهُ على رُسُلِهم، وبمحمد خاتم أنبيائه ورسُله، وبالقرآن الذي أنزلَهُ عليه، عذابٌ أليمٌ في جهنم، كما هي عاقبة سائر الكافِرين.

الدرس الثالث: الآيتان: (٩) و(١٠).

وهو دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بالْقُرْآن، ووظيفته التي تَشْتَمِلُ على ثلاثة عناصر:

(١) الهداية للّتِي هي أَقْوَمُ.

(٢) تبشير المؤمنين الَّذِين يَعْمَلُونَ الصالحات، بالأجْرِ الكبير يوم الدين.

(٣) وَعِيد الكافرين الّذِين لا يُؤمِنُونَ بالآخرة بالْعَذاب الأليم يوم الدّين.

وذكر هذه الصفاتِ للقُرْآن بَعْدَ ذِكْرِ الكتاب الّذي آتاه الله موسَىٰ عليه السلام، وبَعْدَ ذِكْرِ بعض ما يتعلَّقُ بالأحداثِ المستقبليَّة لبني إسرائيل، يتَضَمَّنُ دَعْوَة بني إسرائيل إلى الدُّخول في الإسلام، دُونَ مواجهتهم بالخِطَاب، مع دعوة كُلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إلى الدُّخول في الإسلام عقيدةً وعملاً.

الدرس الرابع: الآية (١١).

وفي هذا الدَّرسِ إلْمَاحٌ إلَىٰ أنّ الإنسان عَجُولٌ، يُحِبُّ الدُّنيا العاجلَةَ ولو انتهىٰ به حبُّهُ لها، أو حُصُولُهُ علىٰ ما يحبّ منها، إلى شقائه الأبدي.

ويُعْرِضُ عن الآخِرَة ويَذَرُها، ولو كانَ عَمَلُهُ لها يَجْعَلُه من أصْحَاب السعادة الأبَدِيَّة والنّعِيم العظيم الخالد.

والدّليل على هذا أنّه في مطالِبِهِ القريبة الزّمنيَّة من الحياة الدنيا، كالمالِ، والولَدِ، والمنْصَبِ، والحبيبَةِ، يَدْعُو رَبَّهُ بإلحاحٍ أنْ يَهبَهُ مطلوبَه، مُتَصَوِّراً أنَّهُ سَيَنَالُ به السّعادة، دون أنْ يَضَعَ في حُسْبانه أَنَّهُ قَدْ يكونُ شرًّا له، وجالباً لَهُ تَعَاسَةً، وشقاءً، وعذاباً، وخَيْبَة.

وهذا من قِصَرِ نظر الإنسان وحُبِّه للعاجِلَة، ولو كان من المؤمنين باللَّهِ وبالْيومِ الآخر، فكَيْفَ يكُونُ حالُهُ إذا كان من الكافرين المنكِرين؟!

وذكر هذا الدّرس بعدما سَبَق يُشْعِرُ بأنّ العلّة النفسيَّة الّتي تَصْرِفُ بني

إسرائيل عن الدُّخول في الإسلام، هي أَنَّهم يُحِبُّونَ العاجلة، ويتشبَّثُونَ بها ويَذَرُونَ الآخِرَة، على خلاف مطلوب اللَّهِ من عباده في رحلة امتحانهم.

الدرس الخامس: الآية (١٢).

وهذا الدَّرْسُ يتضمّن تذكيراً أو تَنْبيهاً على آيَتَيْنِ من آياتِ عِنَايَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ بعباده في الأرض، في حياة الابتلاء، إذْ جعل لهم اللَّيْلَ والنهار، وفيهما لهم منْفَعَتَانِ عظيمتان:

(١) أَنْ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمْ في الأعمال التي يَقُومُونَ بها لمصالح دُنياهم.

(٢) أن يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنين والْحِسَاب، بَعَدّ الأيّام الّتي تمرُّ عليهم، وأنهى الله عزّ وجلّ هذا الدَّرس بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾. والمتفكر المتدبر يرى هذا التفصيل ظاهراً في كلّ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شيْءٍ، وظاهراً في بيانات الله المنزَّلاتِ في آيات كتابه.

الدّرس السادس: الآيات من (١٣ ـ ١٧).

وهذا الدرس يشتمل على فقرات من قانون الجزاءِ الربّاني المعجّل والمؤجل، للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ومن موادّ هذا القانون ما يلي:

المادّة الأولى: كُلَّ إنْسانٍ موضوعٍ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، يرتبط به عَمَلُهُ الإختياريُّ، لا يَنْفَكُّ عنْهُ، ولا يتعدّاهُ إلى غيره، فهو كالْمُعَلّق في عُنُقِه.

المادّة الثانية: إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُخْرِج للمكلَّفِ يَوْم القيامَةِ كتابَ عَمَلِه الّذي عَمِلَه في رِحلة امتحانه، فيلقاهُ مَنْشُوراً، ليُجْرِي حسابَهُ، وفَصْل القضاء بشأنه على وَفْقِ كتابه.

ويقال له: اقرأ كتابَكَ كَفَىٰ بنفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

المادّة الثالثة: من اهتدىٰ بأَن اخْتَار لنَفْسِهِ أنْ يُؤْمِنَ ويَعْمَلَ صالحاً، فهو وحْدَهُ المستفيد من اختياره سَبيلَ الْهُدَىٰ.

المادّة الرابعة: مَنْ ضَلَّ بأنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكْفُرَ ويَعْمَلَ عملاً سَيِّئاً، فهو وحْدَهُ الّذي يَنَالُ جزَاءَ اختياره الحرّ عذاباً أليماً خالداً.

المادة الخامسة: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ منْ شَأْنها أَنْ تَكْسِبَ وِزْراً وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ.

المادّة السادسة: لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعِ الامْتِحان، على عصيانهم لأوامره ونواهيه في الإيمان والعمل، حتَّىٰ يُرْسِلَ إليهم رسُولاً يُبَيِّنُ لهم مَا يجب عليهم تجاه رَبِّهم الذي يُمِدُّهم دواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِه.

ودلّت نُصُوصٌ أخرىٰ على أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ بَعَثَ في كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فلا عُذْرَ للأُمم.

أمّا الأفراد الَّذِين لم تَبْلُغْهمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَا يُعَذِّبُهُمْ حتَّى يُتِمَّ لَهُمْ شُرُوط امتحانه لهم، وله فيهم الاختيار العادل، وربّما يجْعَلُهُمْ بمَثَابَةِ البهائم الّتي يُنْهِي اللَّهُ وجودَهَا فتكُونُ تُراباً، والله أعلم.

والحقّ الّذي لا مَحِيدَ عَنْهُ أنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

المادّة السابعة: أَنَّ الإهلاكَ الجماعيَّ المعجّل في الحياة الدنيا لَهُ سُنَّةٌ حكيمة من سُنَن اللَّهِ في عِباده.

أن يُوَجّهَ لمتْرَفي أَهْلِ الْقُرَىٰ أوامِرَه بفِعْلِ الصَّالحات، ونواهيَهُ بتَرْكِ المنكرات، لكنَّهُمْ يَفْسُقُون خارجين عن طاعة رَبّهم، فيُغْدِقُ اللَّهُ عليهم خيرات الحياة الدنيا فيَكْثُر مُتْرَفُوهم، وَيَتَعَاظم الفِسْقُ فيهم، حتَّىٰ يكونَ هُو

الطَّاغي على جميع أفرادِهم، وعندئذٍ يكونُ من الحكمةِ أنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بهم الإهلاك العام الشّامل، إذ تَنْعَدِمُ فيهم ظروف الامتحان السّوي، بسبب تحوّل بيئتهم إلى بيئة عَدْوىٰ بفسادٍ طاغٍ تَنْعَدِم معه اختيارات الأفراد الحرَّة.

وختم الله عزّ وجلّ هذا الدّرْس بالتذكير بالْمُهْلَكِينَ السَّابقين من أهل القرىٰ السالفة إهْلاكاً جماعيًّا شاملاً.

وهذا الدرس متصلٌ فكريًّا بالدروس السابقة اتصالاً جليًّا.

الدرس السابع: الآيات من (١٨ ـ ٢١).

وهو درس يتضمّن بيانَ سُنَّة اللَّهِ فيما يُؤْتي عبادَهُ من متاعِ الحياة الدنيا في رحْلَةِ امتحانهم، على وَفْقِ حكْمَتِه وعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ منْ أفرادهم، وهذه السُّنَّة تَشْتَمِلُ على أَرْبَع مَوادّ.

المادّة الأولى: من كان يُريد الحياة الدُّنيا فقط، ولا يريد الآخرة، عجّلَ الله لَهُ مِنْ مَتاعها بحَسَبِ إرادَتِهِ الّتي تقتضيها حكمتُه.

ولا يكون مُريدو الحياة الدّنيا مُتَسَاوين فيما يؤتيهم من مَتَاعها، بَلْ مِنْهم من يُوسِّعُ الله له بَحَسَبِ عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، ومنهم من يُضَيّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بحَسَبِ عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، وهو جلّ جلالُهُ العليم الحكيم الخلّاقُ الوهّاب.

لكنّ عاقبة كلّ واحدٍ من هؤلاء جَهَنَّمُ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً.

المادّة الثانية: مَنْ كانَ مؤمِناً ويُرِيدُ الآخِرَةَ إرادةً جازمَةً، وسَعَىٰ لنَيْلِ ثواب الله فيها السَّعْيَ الْمطلُوبَ للظفر به، شكر اللَّهُ لَهُ سَعْيَهُ، فأثابَهُ ثواباً جزيلاً في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

ويُعْطِيه الله من متاع الحياة الدُّنيا بحَسَب عِلْمِهِ به وبما في دَاخل نفسه.

ومُرِيدُو الآخرة لا يكونون متساوينَ فيما يُؤْتيهم الله من متاعِ الحياة الدنيا، بلْ منهم مَنْ يُوَسّعُ الله لَهُ بحسَب عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، ومنهم مَنْ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بحَسَبِ عِلْمِهِ به، وبما في داخل نفسه، وهو جلّ جلالُه العليم الحكيم الخلاقُ الوهاب.

المادة الثالثة: إنّ كُلّ واحِدٍ من مُريدي العاجِلَةِ ومُريدي الآخرة، يُمِدُّهُ الله بعَطاءاته من متاعِ الحياة الدُّنيا ومطالب النفوس منها، بحَسَبِ عِلْمِه وحكمَته، مُوَسّعاً أو مضيّقاً، وعطاء الله لعباده ليَسْ ممنوعاً عن أحَدٍ في الحياة الدنيا، أمَّا التفاضُلُ في التوزيع فهو يرجِع إلى علم اللَّهِ بعباده، وحِكْمَتِهِ في إمدادِه لكلّ فردٍ من أفرادهم.

المادّة الرابعة: عطاءاتُ اللَّهِ عزّ وجَلَّ قائِمَةٌ على التفاضُلِ لَا علَىٰ التّساوي، في الدُّنيا دار الابْتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء.

ومَنْ فضَّلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ في الدنيا بإمْدَاداتِه قَدْ يكونُ مَحْرُوماً، أو غَيْرَ مُفضَّلٍ يَوْم الدِّين.

ومَنْ جَعَلَهُ الله قَلِيلَ الحظُوظ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، قَدْ يَكُونُ هُوَ المفَضَّلَ علَىٰ نظرائِه يَوْم الدّين.

الدرس الثامن: الآيات من (٢٢ ـ ٣٩).

وهو درس يشْتَمِلُ على أوامِرَ ونواهِي ووصايا عظيمة، وبياناتٍ حولَها.

ومعظم هذِه التعليمات ممّا الْتَقَتْ عليه الرسالات الرَّبَّانيَّة للموضوعين في الحياة الدُّنيا موْضِع الابتلاء، ولا سيما كتاب التوراة الذي أنزله اللَّهُ عزّ وجلّ على مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، والوصايا العشر الّتي كتبها له في الألواح.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٠ ـ ٦٠).

وهو درس يشتمل على مُتَابعةِ مُعَالجاتٍ للّذِين كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكي

مكَّة، بحَسَب المواقف الَّتي كانوا عليها إبّانَ تنزيل السورة، وهذه المواقف منها ما هو قَديم ومنها ما هو جديد.

الدرس العاشر: الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

وهو درسٌ يَعْرِضُ اللَّهُ عزّ وجل فيهِ لقطةً من إباء إبليس أن يسْجُدَ لآدم، وذريعتِه في رفْضِه أنْ يَسْجُدَ له، وإعْلانِه بوقاحَةٍ إلْزَامَ نفسه بأن يُغْوِيَ ذُرّية آدم سائقاً لهم إلى شقائهم الأبَدِيّ، إذا أخَّرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ ولَمْ يُمِتْهُ إلى يَوْمِ القيامة، مع بيان بعض خُطَّتِه في الإغواء، وبيان ما رَدَّ اللَّهُ بِه عَلَيه.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٦٦ ـ ٧٠).

وهو درسٌ يكْشِف الله به أنّ النّاسَ يلجؤون إلى ربّهم عنْدَ المخاوف والضرورات الشديدات، فإذا كَشَف عَنْهُم الضُّرّ مُسْتجيباً لأدعيتهم أعْرَضُوا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الإنسان كفورٌ بنعْمَةِ اللَّهِ عليه، مع أنَّ الله جلَّ جَلَالُهُ قد كرَّمه.

وفيه معالجة للنَّاس تُجَاه هذِهِ الصِّفَةِ الذميمة فيهم، الناتجة عن اختيارهم الحرّ، ليتَهَرَّبُوا من تأديَةِ واجب الشكر.

الدرس الثاني عشر: الآيتان: (٧١) و(٧٢).

وهو درس يشتمل على عرض لقطة من لقطات مشاهد يوم الدين، لأنّ العلاج الدعويَّ الحكيم، ينبغي أنْ يُذَكِّرَ المعالَجَ آناً فآناً بالمُرْهبات المحذّرات من عذاب الله على الكفر والفسوق والعصيان.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٧٣ ـ ٧٧).

وهو درسٌ فيه تَرْبيةٌ للرَّسُول ﷺ، بحسب الصّيغة الظاهرة، وهو في حقيقته يتضمَّن إيئاساً لكبراء مشركي مكَّة، من تنازُلِ الرَّسُولِ أو تَهَاوُنِه في بَعْضِ ما أنزل اللَّهُ إليه، حتَّى يَكُفُّوا عن اتِّخاذ وسائلَ لاسْتِدْراجه بزُخْرُفِ

من الْقَول قَدْ يُوحي إلى الرسُولِ ﷺ باحْتمال وُجُودِ مصْلَحةٍ للدِّين وانتشاره بين كبراء قومه، إذَا لَانَ لهم في بعض ما يطالبونه به ممّا لا يُؤَثِّر على جَوْهَرِ الدّين وأحْكَامِه وشرائعه، فحذّر الله رَسُولَهُ من أنْ يَرْكَنَ إليهم، ولَوْ رُكوناً قَليلاً، وهذا التحذير يتضمَّنُ تَحْذِيراً للدُّعاة من أُمَّتِهِ من الاستجابة لمطالِبِ الكبراء والقادة السّياسيين في إصْدَارِ الفتاوىٰ التي فيها تنازُلٌ عن أحكام الله.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨١).

وهو دَرْسٌ فيه أمْرٌ للرَّسُول ﷺ فلسائر المسلمين، بإقامة الصَّلَاةِ في أَوْقَاتٍ بينَتْهَا الآيات، وأمْرٌ لَهُ بأنْ يتهجَّدَ من اللّيْلِ نَافِلَةً له، وهذا موصُولٌ بالآية الأولى من السُّورة، الَّتي جاء فيها أنَّ الله أسْرَىٰ بِعَبْدِهِ من المسْجِدِ الحرام إلى المسْجِد الأقْصىٰ، وقَدْ ثَبَتَ في السُّنَّة أَنَّ الصَّلَواتِ الخمس قَدْ فُرِضَتْ في لَيْلَةِ الإسراء.

وفي هذا الدَّرس آياتٌ مَدَنية التنزيل فيها بشَارَةٌ لَهُ بفَتْحِ مكَّة، وتعليمٌ لَهُ مَا يَدْعُو بِهِ رَبَّهُ في هذه المناسبة، وما يُعْلِنُهُ عِنْدَ دُخُولها فاتحاً.

الدرس الخامس عشر: الآية (٨٢).

وهي قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في السّورَةِ بشأن القرآن في:

(١) الآيَتَيْن: (٩) و(١٠).

(٢) والآيَتَيْن: (٤٥) و(٤٦).

الدرس السادس عشر: الآيتان: (٨٣) و(٨٤).

وفيه بيان بشَأْنِ وَصْفِ الإنْسَانِ الْجَحُود، إذْ مِنْ شَأْنِهِ أنّ اللَّهَ إذا أَنْعَمَ عَلَيْه أعْرَضَ ونأىٰ بجانبه، عن الصِّلَةِ بِرَبِّهِ وعن العمل بمراضِيه، أمّا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا فإنَّهُ يكونُ يَؤُوساً.

وهذا الدَّرس موصول بما جاء في السّورة عَنْ وَصْفِ سُلُوك الإنسان في:

(١) الآية (١١).

(٢) الآيات من (٦٧ ـ ٦٩).

الدرس السابع عشر: الآية (٨٥).

وفي هذا الدَّرسِ بيان السؤال عن الرُّوح، والإجابَة الرَّبَّانية على هذا السُّؤال.

ويظهر أنَّهُ قَدْ تَكَرَّرَ السُّؤال عن الرُّوحِ في هذه المرحلة من مراحل سيرة الرَّسُول ﷺ الدَّعوية، فكان من الحكمة الإجابَةُ على هذا السؤال.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٨٦ ـ ٨٩).

وهو دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآن، وأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لو شاء لمسَحَ مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ كلَّ ما يحفَظُ مِنْه.

وفي هذا الدَّرْسِ تَحَدٍّ للإنْسِ والْجِنِّ بأَنْ يأتُوا بمِثْلِه ولَوْ كانَ بعْضُهُمْ لبَعْضٍ ظهيراً.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُول بما جاء بشأن القرآنِ في السُّورة، في:

(١) الآية: (٩).

(٢) الآية: (٣٩).

(٣) الآيتان: (٤٥) و(٤٦).

(٤) الآية: (٦٠).

(٥) الآية: (٧٣).

(٦) ثمّ في الآيتين: (١٠٥) و(١٠٦) من الدرس (الحادي والعشرين).

الدّرس التاسع عشر: الآيات من (٩٠ ـ ١٠٠).

وفيه بيان بَعْض مطالب الّذين كفَرُوا التعنُّتيَّة من الرَّسُول، مع بيان حكْمَةِ الله في عدَمِ الاستجابة لمطالِبهم.

وفيه إنذارٌ لهم وتَرْهيب من عذابٍ شديدٍ يوم الدّين.

وفيه رَدٌّ على بعْض أسئلةٍ مطويَّةٍ في النّصّ مُوجَّهَةٍ من الّذين كَفَرُوا، وتَدُلُّ الإجابَةُ المصَرَّحُ بها عليها.

الدرس العشرون: الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤).

وفيه عرضُ لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ومَا قالَهُ الله لبني إسْرَائيل من بعد موسَىٰ بأمْرٍ تكوينيّ، جَعَلَهُمْ به مُوزَّعين في أشتاتٍ من الأرْض، ثم يأتي بهم إلى فِلِسْطين لَفِيفاً، ليكونَ لَهُمْ علُوٌّ مؤقَّتٌ في الأرْض، ثُمَّ ليُلاقُوا مَصِيرَهُمُ المحتوم، بحَسَبِ سُنَّةِ اللّهِ فيهم.

الدّرس الحادي والعشرون: الآيات من (١٠٥ ـ ١١١) آخر السورة.

وفي هذا الدَّرْسِ حَدِيثٌ عن القرآن، وتعليم للرسُول مَا يقُولُهُ للمشركين المعاندين، وثناء على الذين يُؤْمِنُونَ بالقرآن والرسُولِ من أهل الكتاب.

وفيه توجيه للدّعاء بأسماء الله وصفاته.

وتوجيه لأدب مقدار رَفْعِ الصَّوْتِ في الصلاة.

وختمت السّورة بقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله فَلِكُلّ مسلم:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(٥)
التّدبُّر التّحليلي للدرس الأول من درُوس سورة (الإسراء)
الآية (١)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآية الأولى من السُّورَةِ، تُمَجّدُ بحادثة الإسراء الّتي فضَّلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ بها رسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ، إذْ أسْرَىٰ به في جُزْءٍ من لَيْلَةٍ واحِدَةٍ، مِنَ الْمَسْجِدِ الحرام في مكَّة المكرّمة، إلى الْمَسْجِد الأقْصَىٰ في القدس الَّذِي بَارَكَ حوْلَهُ، لِيُرِيَهُ مِنْ آياتِهِ العظيمَةِ بِبَصَرِهِ، ولِيُسْمِعَهُ بأُذُنِهِ مَسْمُوعَاتٍ هِيَ مِنْ آيَاتِهِ العظيمة، إذْ كانَ الرَّسُولُ ﷺ فيها قَدْ وهَبَهُ رَبُّهُ خَصِيصَتَيْنِ انْفَرَدَ بهما: إحْدَاهما في سَمْعِه، فجعَلَتْهُ يَسْمَعُ من الأصواتِ ما لَا يَسْمَعُ غَيْرُهُ من السّامِعِين والسَّامِعَات. وأُخْرَاهما في بَصَرِه، فجَعَلَتْه يُبْصِرُ بِعَيْنَيْهِ من المرْئِيَّاتِ ما لا يُبْصِرُ غيْرُهُ من الْمُبْصِرينَ والمبْصِرَات، بدليل وصْفِ اللَّهِ عزّ وجلَّ لَهُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: إنَّهُ هو وَحْدَهُ المختَصُّ مِنْ عِبادِ اللَّهِ حينَئذٍ بأعْظَمِ سَمْعٍ وأعْظَم بَصَر.

التدبّر التحليلي:

• ﴿سُبْحَٰنَ﴾: اسْمَ عَلَمٌ لمعْنَىٰ الْبَرَاءَةِ والتَّنْزِيهِ، وفيه زيادة الألف والنون، وهُوَ ممنوعٌ من الصرف.

وهو في موضع المصدر، والأصل فيه: «أسَبّحُ تَسْبيحاً» أي: أنَزِّهُ

تَنْزِيهاً، وأُقَدِّسُ تَقْدِيساً، وتَأْتي: «سُبْحَانَ الله» ونَحْوها بمَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ، أو بمَعْنَىٰ التعجيب من أمْرٍ عظيم.

والتَّنْزِيهُ بالنِّسْبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ، هو تَبْرِئَتهُ مِنْ كلّ مَا لَا يليق بجلالِهِ وعظيم سُلْطانِه، وكمالِ صِفَاتِهِ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وكَمالِ أفْعَالِهِ وَتَصاريفِه.

● ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾: كَلِمةُ «سُبْحانَ» أضِيفَتْ إلى اسْم الموصُولِ الذي يُرادُ به هُنَا مَنْ دَلَّتْ عَلَيْهِ صِلَتُهُ، وهو اللَّهُ ـ جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ فَهُوَ الّذِي أسْرَىٰ بِعَبْدِه مُحَمَّدٍ ﷺ من الْمَسْجِدِ الحرام إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الّذِي بَارَكَهُ وبَارَكَ حَوْلَه.

وجاء التعبيرُ عن الله عزّ وجلّ باسم الموصول لأنّ الغرضَ التعريفُ بحادثة الإسراء التي دلَّتْ عليها صِلَةُ الموصول، وَالتَّعْجيبُ من تخصيص الرَّسُول بها، وبما جرَىٰ لَهُ فيها من جلائِلِ الهبات والمِنَنِ الرَّبَّانِيَّة والمشاهداتِ العجيباتِ من آيات اللَّهِ جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

● ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: جَعلَهُ يَسْرِي لَيْلاً. يقال لغة: «سَرَىٰ وأَسْرَىٰ فُلَانٌ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ وأسْرَىٰ به» أيْ: قَطَعَهُ بالسَّيْر. ويقال: «سَرَىٰ فُلَانٌ بِفُلَانِ لَيْلاً وَأَسْرَىٰ به» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه. فَفِعْلا «سَرَىٰ، وأَسْرَىٰ» متماثِلَان في حالَتي اللُّزُومِ والتَّعْدِية.

«سَرَىٰ يَسْرِي، سَرْياً، وسِرَايَةً، وسُرَىً» و«أَسْرَى يُسْرِي إسراءً» أي: سارَ ليلاً، قال أهل اللّغة: وقد يُذْكَرُ اللّيلُ توكيداً.

والمرادُ: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ رَسُولُ اللَّهِ مُحمَّد ﷺ، وقَدْ فَهِمَ أهل التَّفْسِير مِن إضافَةِ «عَبْد» إلَىٰ الضمير العائِدِ علَىٰ الله الذي أسْرَىٰ بِهِ أنَّها إضافة تَشْرِيفٍ لِرَسُولِه.

أقُول: هذه الإضافة جاء نظيرها بالنسبة إلى زكريا عليه السلام،

وجاءت كلمةُ «عَبْد» مضافةً إلى ضمير المتكلّم العظيم «عبدنا» بشأن «محمد» و«داود» و«أيُّوب» و«نوح» عليهم السلام. وجاءت كلمة «عباد» مضافةً إلى ضمير المتكلّم العظيم مراداً بها الرُّسُل، وغير الرُّسُل مِنْ عباد الله مؤمنين وغير مؤمنين.

ويظْهَر لي أنَّ ذِكْرَ مُحمَّدٍ ﷺ هُنا بِأنَّه عَبْدُ اللَّهِ يُقْصَدُ بِهِ دَفْعُ أوْهَامِ مَنْ يَتوهَّمُ ارْتفاعَ مَنْزِلَتِهِ عَنْ كَوْنِهِ عَبْداً لله، بِسَبَبِ الإِسْراءِ بِهِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ، وما تَبِعَهُ مِنْ عُرُوجٍ به إلى السَّمَاء، كما تَوَهَّمَ النَّصارىٰ إذْ أَلَّهُوا عيسَىٰ عليه السلام، بِشُبْهَةِ أَنَّ أُمَّهُ حَمَلَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ.

• ﴿لَيْلًا﴾: أي: في لَيْلٍ ذي شَأْنٍ عظيم جَعَلَ اللَّهُ لَهُ خُصُوصِيَّةً جَلِيلَة، فأَسْرَى فيه وعَرَجَ بِرَسُولِه، كما جَعَلَ لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ خُصُوصِيَّةً فأنْزَلَ فيها القرآن.

دلَّ ذكْرُ: ﴿لَيْلًا﴾ مع أنَّ الإِسْرَاءَ إنما يكونُ باللّيل، وَدَلَّ تنكيرهُ علَىٰ أنَّهُ ليلٌ عظيم ذو خُصُوصيَّةٍ جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ له.

• ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: **الْمَسْجِد الحرامُ**: الكَعْبَةُ المشرّفَةَ وسائِرُ المكان المخصّص للعبادة حَوْلها. وسُمِّيَ حَراماً لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ مكانَهُ آمِناً مَمْنُوعاً بالأَمْرِ التَكْوينيّ من نَحوِ البراكين والزَّلَازِلِ والْخَسْفِ، ومَمْنُوعاً بالأَمْرِ التكليفيّ، مِنْ نَحْوِ التَّقاتل والْعُدْوانِ والإضرار فيه وإرادَةِ الإِلْحَادِ فيه بظُلْم.

الحَرَام: هو في اللُّغَةِ الممنُوعُ منه، أو من فِعْلِ شيءٍ غير مأذونٍ به فيه، أو من القُرْبِ مِنْه، ونحو ذلك.

وقَدْ وصف اللَّهُ عزّ وجلَّ حَرَمَ مَكَّةَ بأنَّهُ حَرَمٌ آمِنٌ:

فقال تَعَالَىٰ بشَأْنِهِ مُتَحدِّثاً عَنْ كُفَّارِ قُرَيش في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وَقال تَعَالَىٰ أيضاً في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ووصف اللَّهُ البيتَ الحرام بأنَّهُ مُبَارَكٌ وَهُدًى للعالمين، فقال عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

فالمسجد الحرام وما حوله حرَمٌ آمِنٌ، وبَرَكَاتُ اللَّهِ مِنْ بلاد الدُّنيا تُجْبَىٰ إلَيْهِ وَهُوَ مبارَكٌ وهُدىً لِلْعَالِمين، وأوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ لعبادة الله.

• ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: **المسْجدُ الأقصىٰ**: هو بيت المقدس، في مَدِينة الْقُدْس.

الأقصىٰ: أي: الأبْعَد بالنِّسْبَةِ إلى الْمَسْجِد الحرام، إذْ لم يكن في الأرض مَسْجَدُ أُسِّسَ لعبادة الله وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ أَبْعَدُ مِنْهُ عن المسْجِد الحرام، وتُوجَدُ معابِدُ وَثنيَّةٌ كثيرة مُنْتَشِرَة في الأرض، أقْرَبُ مِنْهُ إلى المسجد الحرام وأبْعَد.

ولم يذكُر المؤرخون وُجُودَ مَسْجِدٍ أُسِّسَ لعبادة الله وحْدَهُ أقْرَبَ إلى الْمَسْجِدِ الحرام من بيت المقدس، ولا أرى مانعاً من أنَّه كانت توجَدُ مَسَاجِدُ أسَّسَها بَعْضُ أنبياءِ اللَّهِ ورُسُلِهِ هي أقْرَبُ إلَىٰ الْمَسْجِدِ الحرام، إلَّا أنَّهَا دَرَسَتْ ومُحِيَتْ آثارُها، ولا دَاعِي لحمْلِ لفظة «الأَقْصَىٰ» على مَعْنَىٰ الْقَصِيّ، واعتبار «أفْعَل» التفضيل مستعملاً على غير بابه، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: أي: الذي جعَلْنا فيه وحَوْلَهُ بَركاتٍ مَادِّيَّةً مِنْ خَيْرَاتِ الأرض، ومَعْنَوِيَّةً مِنْ فُيوض عطاءات الله المعنويّة.

مِنّة اللَّهِ عزّ وجلّ على رسُوله محمد ﷺ بالإسْرَاءِ والْمِعْرَاج:

كثُرَتِ الرّواياتُ ذَوَاتُ الأسانيد الصحيحة، إلّا أنّ في مُتونِها اختلافاً بالْبَسْطِ والإيجاز، وبتقديم وتأخير بعض الأحداث، ويتَعَذّرُ الجمع بينها في نَسَقٍ واحد، وأوْلاَهَا بالذّكر روايةٌ جاءت في صحيح مسلم من طريق شيْبانَ بْنِ فرُّوخ، عن حمّاد بْنِ سلمة قال: حَدَّثَنا ثابِتُ الْبُنَانِي، عن أَنسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«أُتِيتُ بالْبُرَاقِ ـ وهو دَابَّةٌ أبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ ـ قال: فَرَكِبْتُهُ حَتَّىٰ أتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس. قال: فَرَبَطْتُهُ بالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بها الأنْبِيَاء. قال: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فجاءني جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بإناءٍ مِنْ خَمْرٍ وإنَاءٍ من لَبَنٍ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَة.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَىٰ السَّمَاءِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أنْتَ؟. قالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْه؟. قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فَإذَا أنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَى السَّمَاءِ الثّانية، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟. قالَ جِبْرِيل، قيل: ومَنْ مَعَكَ؟. قال: محمّد. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فإذا أَنَا بابْنَي الْخَالَة: عِيسَىٰ بْنِ مَرْيم، ويَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّاءَ عَلَيْهما السَّلام، فَرَحَّبَا، وَدَعَوَا لي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟. قالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قال مُحمّد: قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟. قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فإذا أَنَا بيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، إذا هُوَ قدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، قِيلَ: مَنْ هٰذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمّد. قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإذَا أَنَا بإدْرِيسَ. فَرَحَّبَ وَدَعَا

لِي بِخَيْرٍ. قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخامِسَة، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عليه السلام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَة، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ عليه السلام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّد. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُور، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذهبَ بي إِلَى السِّدْرَةِ المنْتَهَىٰ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيلَة، وإذَا ثَمَرُهَا كالْقِلَالِ[1]. قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إليَّ مَا أَوْحَىٰ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَنَزَلْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فقالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟. قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْساً. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

(١) **القِلَال**: جَمْعُ «قُلَّة» وهي إِنَاءٌ مِنْ فَخَّار، منه كبيرٌ ومنه صغير، والقُلَّةُ مِنْ قِلَالِ هَجَر تَسَعُ نَحو قِرْبَتَينِ ماءً، وقدر القُلَّتَيْنِ بالمساحة: ذراعٌ ورُبْعُ الذِّرَاع، طولاً وعَرْضاً وعُمْقاً.

التَّخفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، حَتَّى قال: يَا مُحَمَّدُ، إنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شيْئاً، فإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً واحِدَةً. قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إلى مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التخفيف. فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إلَىٰ رَبِّي حَتَّى اسْتَحَيْتُ مِنْهُ».

ورَوىٰ البخاري عن جابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول:

«لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وأقول: إنَّ مِنَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْرَاءِ والمِعْرَاجِ قَدْ كانَتْ لِكَامِلِ ذَاتِهِ، الجامِعَةِ لِرُوحِهِ ونَفْسِهِ وكُلِّ خَصَائِصِ حَيَاتِهِ الدُّنْيا، وادِّعَاءُ أَنَّها كانَتْ مَناماً مَنْقُوضٌ بِتَكْذِيبِ قُرَيشٍ للإسْرَاء، إذْ لَوْ كانَتْ مَناماً لَمْ يَجِدُوا تَعِلَّةً لتَكْذِيبها، وادِّعَاءُ أَنَّها كانتْ بالرّوحِ لا بِكَامِلِ الذَّاتِ خُرُوجٌ بالْمِنَّةِ عمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ، ولَا دَاعِيَ لَهُ، إذْ لَيْسَ فِي حَادِثَتَي الإسْرَاء والمِعْرَاجِ مَا يُنَافِي الجائِزَاتِ الْعَقْلِيَّةَ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُم سُلْطَانُهُ، والاشْتِغَالُ بِمُنَاقَشَةِ آراءِ النَّاسِ الَّتي لَا قِيمَةَ لَهَا في هذا الْمَجَالِ، تَشْوِيشٌ لَا حَاجَةَ إلَيْهِ، وفُضُولٌ يُعَكِّرُ صَفَاءَ الأَفْكَار، ويُهْدِرُ بَلَا فَائِدَةٍ مِنْ ثَمِينِ الأَعْمَارِ.

﴿.. لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي: لِنُرِيَهُ بأداة بَصَرِه، وَنُسْمِعَهُ بأدَاةِ سَمْعِهِ، بَعْضَ آياتنا الْعُظْمَى، وقَدْ دَلَّ علَىٰ المطويِّ قَوْلُ اللَّهِ

عَزَّ وجلَّ في وصْفِ النبيّ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي: فَقَدْ سَمِعَ ورَأَىٰ من آيَاتِنَا الْعُظْمَىٰ.

دَلَّ عَلَىٰ حُضُورِهِ بِكَامِلِ ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ وتَخْصِيصِه بهذِه الْمِنَّةِ التوكيد بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الإسْمِيَّة ـ وضَمِيرُ الْفَصْلِ».

ووصْفُ الرَّسُولِ بَأَنَّهُ: «السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» يُفيدُ تخصيصَهُ في تلك اللّيلَةِ، بغَايَةِ السَّمْعِ، وغايةِ البصَرِ، لإدراكِ بعض آياتِ اللَّهِ العظمى المسموعةِ بأداةِ السَّمْعِ، والْمَرْئيَّةِ بأدَاةِ الْبَصَر.

والآيات العظيمة الّتي رآها بِبَصَرِهِ وسَمِعَهَا بِسَمْعِهِ قَدْ كَانَتْ حِينَما عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوات، فأوحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلوات الْخَمْس، وشَاهَدَ بِبَصَرِهِ السِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، وشاهدَ من عجائب آيات اللَّهِ مَا شَاهد.

فالآية تَدُلُّ بِصَدْرِهَا علَىٰ الإسْرَاء مِنَ الْمَسْجِدِ الحرام إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَىٰ، وَتَدُلُّ بآخِرِها: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ علَىٰ الْمِعْرَاجِ الّذِي جَاءَ تَفْصِيلُ بَعْضِ أَحْدَاثِهِ في الأحاديث الصَّحيحة الصَّريحة، أي: وعَرَجْنَا بِه إِلَىٰ السَّمَاوات حَتَّىٰ السِّدْرَةِ الْمنتهَىٰ لِنُرِيَهُ من آياتِنَا العظمَىٰ. ودَلَّ على كونِها عظْمَىٰ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ المتكلِّم العظيم في: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

السَّنَةُ الّتي امْتَنَّ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها على رسُوله بالإسراء والمعراج:

وردت في تحديد السّنة التي امتنّ الله فيها على رسوله محمّد ﷺ بالإسراء والمعراج عدّةُ روايات ليس فيها ما يرقى إلى درجَةِ الصحيح أو الحسن.

فقيل: كان الإسراء والمعراجُ قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: قَبْلَها بأربع سنين، وقيل: قبلَها بخمس سنين، وقيل: قبلَها بسَنَة، وقيل: قبلها بثمانية عشر شهراً.

وقد نظرت إلى تَرْتِيب نُزُول سورة (الإسراء) فوَجَدْتُ أنها الخمسون بحَسَب تَرْتيب النزول، وأنّ بَيْنَها وَبين أوّل سورة مَدَنية وهي سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) سِتًّا وعِشْرين سورة، وقَدْ عَدَدْت صفحاتها مع صفحات سورة (الإسراء) فوجدتها (١٩٦) صفحة تَزيدُ أو تنقص أقل من صفحة، ووجَدْت أنّ هذه الصفحات تعادل ثُلُثَ المصْحَفِ تقريباً.

ثم نظَرْتُ في قول الله عزّ وجلّ في أواخر سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: على تَمَهُّلٍ فيه توقُّفٌ وانتظار بَيْنَ تَنْزِيلِ نُجُومه.

فرأيتُ أنّ ثُلُثَ المصحف مع حِكْمَةِ التَّمَهُّلِ يحْتَاجُ خَمْسَ سِنين أو أرْبَع سنين تتنَزّلُ فيها نجومه.

ولهذا أستَبْعِدُ بشدّة أنْ يكون هذا القدر قَدْ نَزَل في أقَلَّ مِنْ أربع سِنِين، وقياساً على مَا نَزَلَ قَبْلَهُ مِنْ سُورٍ مَكِّيّة.

وعلى هذا فمِنَّةُ اللّهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ علىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْراء والمعراج، قد كانت قبل الهجرة بخَمْسِ سنين، أو بأرْبع سنين على أقَلّ تقدير.

وعلى هذا فالصلوات الخمس قد فُرِضَتْ في السَّنة الثامِنَة، أو التاسعة، مِنْ بِعْثَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، لأنّها قَدْ فُرِضَت في لَيْلَة الإسْرَاء والمعراج، كما جاء في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس الأول من دُروس سورة (الإسراء) والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته ومَدَدِه.

❋ ❋ ❋

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٢ ـ ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

القراءات:

(٢) • قرأ أبو عَمْرو: **[أَلاَّ يَتَّخِذُوا]** بياء الغائبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ بتاء المخاطبين. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، إحْداهُما في الحديث عن بني إسرائيل، والأُخرَىٰ خِطَابٌ لهم.

(٧) • قرأ ٱبن عامر، وشعْبَة، وحَمْزَة، وخلف: **[لِيَسُوءَ]** أي: لِيَسُوءَ اللَّهُ وُجوهَكُم.

وقرأها الكسائي: **[لِنَسُوءَ]** بضمير المتكلّم العظيم. وقرأها باقي القرّاءِ الْعَشَرَة: **[لِيَسُوؤُوا]** أي: لِيَسُوءَ عِبادٌ لَنا وُجُوهَكُمْ. وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنُّنٌ في التعبير، فالفاعل الحقيقيُّ المقَدَّرُ هو الله، والفاعلُ السَّبَبِيُّ الناس، ومؤدَّىٰ القراءات واحد.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يَشْتَمِلُ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلّ آتَىٰ مُوسَىٰ كتاب التوراة، وجَعَلَهُ هُدىً لبني إسرائيل، وَأَنَّهُ جلَّ جلالُهُ أعْلَمَهُمْ فيه بلَقَطاتٍ بَارزَاتٍ مِنْ تَاريخِهِمُ المستقْبَلِيِّ، الَّذِي سَيُخَالِفُونَ فيه التعليمات الَّتي أُنْزلَتْ إِلَيْهِمْ في كتاب التوراة، فَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ إفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتَيْن، بإراداتِهِمُ الْحُرَّة، واخْتِيَاراتِهِمُ الّتي لَا جَبْرَ فيها، ويَعْلُونَ في الأَرْضِ عُلُوًّا كبيراً، وأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي كِلْتَا الْمَرَّتَيْنِ، فَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مِنْ عبادِهِ مَنْ يُكْثِرُونَ فِيهِمُ الْقَتْلَ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ، وَيُذِلُّونَهُمْ، وَيُمَزِّقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هذِهِ هِيَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ فِيهِمْ كُلَّمَا أَفْسَدُوا في الأَرْضِ وطَغَوْا وَبغَوْا، فإذا اسْتَقَامُوا واسْتَكانُوا رَحِمَهُمْ.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَةَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ علَىٰ رُسُلِهم، قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّد ﷺ، والكافِرينَ مِنْهُم بمُحمَّدٍ خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ بَعْدَ بِعْثَتِه، وبالقرآنِ الّذِي أنْزَلَه علَيْه، عَذَابٌ أَلِيمٌ في جهنَّم يَوْمَ الدِّين، كما هِي عَاقِبَةُ سَائِرِ الكافِرين.

ثمّ إذَا نَظَرْنَا إلى هذا الدَّرْسِ بتَأَمُّلٍ وَإمْعَانٍ، وإلَىٰ الدَّرْسِ الأول الّذي تضَمَّنَ التَّنْويهَ بمِنَّةِ اللَّهِ علَىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْرَاءِ والْمِعْرَاج، وبما جاء في مَطْلِعِ الدَّرْس الثالث الآتي، من إنْزَالِ القرآن المجيد عَلَيْه، المتَحَلِّي بأكْمَلِ الصِّفَاتِ الَّتي يتحلَّىٰ بها كتابٌ من الله للنّاس، وبما سَبَقَ أَنْ أنزل اللَّهُ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) مِنْ بيان أنَّ اللَّهَ أوْرَثَ الكتابَ الَّذِينَ اصْطفَاهُمْ مِنْ عبادِه، وهُمْ أُمَّةُ مُحمّد ﷺ، وذَلِكَ في الآية (٣٢) مِنْها، وبما سَبَقَ أَنْ أنْزَلَ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأنِ أمَّةِ محمّد ﷺ وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

إذَا أمْعَنَّا النَّظَرَ في كلّ هذا وتدَبَّرْنَا ما يَدُلُّ عليه إلْماحاً ظَهَرت لنا الحقائق التالية:

الحقيقة الأولىٰ: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ فضَّلَ محمّداً ﷺ، علَىٰ موسَىٰ عليه السّلام، بِمِنَّةِ الإسراء والمعراج وبمكالمتِهِ بالْوَحْيِ إليه في السَّماء السّابعة أو عند سِدْرَةِ المنْتَهَىٰ، وبمِنَّةِ مُشَاهَدَاتِ جَليلاتٍ لبَعْضِ آياته العظمى، في مُقَابلِ مِنَّةِ اللَّهِ على مُوسَىٰ إذْ نَادَاهُ وكَلَّمَهُ بجانب الطّور تكليماً، وإذْ قَرَّبَهُ نَجيًّا.

الحقيقة الثانية: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ فضَّلَ مُحمّداً ﷺ بأنْ أنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن الْمعجِزَ الجامع لزُبْدَةِ مَا أَنْزَلَ في كُتُبِهِ السابقة، والخاتِم لكُتُبِهِ للناسِ، والمحفوظَ بحْفِظِهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه ـ في مُقَابل كتاب التوراة الَّذِي آتاه اللَّهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وجَعَلَه هُدىً لبني إسْرَائيل، ولهذا لم يتكفَّلِ اللَّهُ بحفْظِه.

ومَعْلُومٌ أنَّ القرآن المجيد أجْمَعُ لصِفَاتِ الكمالِ من التوراة ومِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ علَىٰ رَسُولٍ من رُسُلِه.

الحقيقة الثالثة: أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ أعْلَمَ بَني إسْرَائيلَ فيما أنزل على مُوسَىٰ، ورُبّما على غيره من رُسُل بني إسْرائيل، بأَنَّهُمْ غَيْرُ صَالِحِينَ لحَمْلِ رِسَالَةِ اللَّهِ للنَّاس، لأنَّ تَاريخهم المستقْبَلِيّ الَّذِي سَبَقَ في عِلْمِ اللَّهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ما كانَ، ومَا هُوَ كائِنٌ، ومَا سَيكُونُ، أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ في الأرْضِ حَرِيصين علَىٰ الْعُلُوّ فيها، وأنَّ ذَلِكَ يكونُ بإراداتهم الحرَّةِ الَّتي لا مُجْبِرَ لها، وبأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ وحَكَمَ فَعَدَلَ سَيُسَلِّطُ عَلَيْهِم إلى يوم القيامَةِ كلَّما أفْسَدُوا في الأرض إفْساداً عَرِيضاً، مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب.

ولهذا لم يَصْطَفِهِمْ لهذا المجْدِ العظيم، وهو أَنْ يَحْملوا رِسَالَةَ تَبْلِيغِ

رِسَالَتِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وهِدَايةِ عباد اللَّهِ بالحق، إذْ تاريخُهُمْ المستقْبَليُّ لَا يُؤَهِّلُهُمْ لَحِمْلِ هذِهِ الرِّسَالَة.

إنَّ ذُرِّيَّاتِهِمْ مُؤَهَّلُونَ لمشارَكَةِ إبْلِيسَ في إغْوَائِهِ وإغرائِهِ وإضْلَالِهِ لِذُرِّيَاتِ آدم.

الحقيقة الرّابعة: أنَّ اللَّهَ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وشَمَلَ عِلْمُهُ مَا كانَ ومَا هُوَ كائِنٌ ومَا سَيَكُونَ ـ قَدْ سَبَقَ في عِلْمِهِ أَنَّ أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أيّ عِرْقٍ أَوْ لَوْن أوْ لُغَةٍ، صَالحةٌ بمَجْمُوعِها لَا بكُلِّ أفرادِها، لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَة، والْمُحَافَظَةِ عَلَيْها، وتَبْلِيغِها للنَّاس، ولهدايةِ عباد اللَّهِ بالحقّ، وإذَا حَكَمُوا فَهُمْ يَحْكُمُونَ بالْعَدْل، وأَنَّهُمْ ستَبْقَىٰ فيهمْ طَائِفَةٌ ظَاهِرِينَ على الحقّ لَا يَضُرُّهم مَنْ خالَفَهُمْ حتَّى تَقُومَ السَّاعَة، وهذا يَكُونُ باختيارهم الحرِّ دُونَ جَبْرٍ وَلَا إكْراه.

ومِنْ أجْلِ هذا اصْطَفاهُمُ اللَّهُ واجْتَبَاهُمْ لِحَمْلِ رِسالَتِهِ الْخَاتِمَةِ، وحِفْظِ كتابِهِ المجيد القرآن، وتَبْلِيغهما للنَّاسِ، ولِهِدَايَةِ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ مُخْتَلِفِ الأُمَم والشُّعوب بالْحَقِّ، وقَدْ أَثْبَتَ تَاريخ الأُمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ هذِهِ الحقيقة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾:

أَلْمَحُ أَنَّ العطفَ في ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هُو على مُلَاحَظٍ ذهْناً من فَحْوَىٰ الآيَةِ الأولى، أي: آتَيْنا مُحمَّداً القرآن، وفَضَّلْناه بالإسْراءِ والمِعْرَاجِ، وآتَيْنَا مُوسَىٰ الَّذِي كلَّمْنَاهُ بجانِبِ الطور وقَرَّبْنَاهُ نَجيًا كِتَابَ التَّوْرَاةِ.

ولَدَىٰ التأمُّلِ فيما فَضَّلَ اللَّهُ به محمّداً ﷺ، وفيما فَضَّلَ اللَّهُ به مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، نُدْرِكُ بِوُضوحٍ ٱرْتِقَاءَ دَرَجَاتِ التَّفضيلِ الّتي فَضَّلَ اللَّهُ بها محمّداً خاتمَ أنبيائه ورُسُلِهِ عليهم الصَّلاة والسلام ارتقاءً كبيراً، على دَرَجَاتِ التفضيل الَّتي فَضَّلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها مُوسَىٰ عليه السَّلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: وجَعَلْنَا كِتَابَ التّوراةِ هُدَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وافْتَخَرُوا بأنّه كِتَابُ اللَّهِ لَهُمْ، لَا عَلَىٰ معْنَىٰ التخصيص بأنَّهُ هُدىً لهم فقط، بَلْ هُو هُدىً لِلْمِصْرِيين لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَىٰ واتَّبَعُوه، وهُدىً لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ وأرَادَ أنْ يُؤْمِنَ بِالحَقِّ المنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، واسْتَمَرَّ هُدىً للصَّالِحِينَ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ حتَّىٰ هَجَرُوهُ، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِم.

هُدىً: أي: هادياً وَدَالًّا ومُرْشِداً إلى الحقِّ، والخيْرِ، والفضيلة، وإلى صراطِ اللَّهِ المستقيم. اسْتُعْمِلِ المصدَرُ بمعنى اسم الفاعل، للإشعار بأنَّ كُلَّ شيءٍ فيه يَدُلُّ علَىٰ مَا فِيه نَجاحٌ وفلاحٌ وعاقِبَةٌ حسَنَة مُسْعِدَةٌ لِمَنِ اتَّبَعه.

﴿.. أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾: أي: واشْتَمَلَ هذا الكتابُ علىٰ خِطابٍ من اللَّهِ لبني إسْرَائِيلَ تَفْسِيرُهُ، أَنْ لا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَكيلاً تَكِلُونَ إلَيْهِ أُمُورَ هِدَايَتِكُمْ إلى مَا فيه سَعَادَتُكُمْ فِي دُنْياكُمْ، وفي آخِرَتِكُمْ، ومِنِ اتّخاذِهِمْ وكيلاً من دُونِ اللَّهِ اتكالُهُمْ علَىٰ عقولِهم وآرائِهم، واتكالُهُمْ على الموسْوِسين المضلّين من الإنْسِ والجنّ، واتكالُهُمْ على مَا يشْعُرُونَ بأنهم يمتلكونه ممّا وهبهم الله ربهم.

الوَكيل: هُوَ مَنْ يُسَلَّمُ إلَيهِ أَمْرٌ مَا، ويُكْتَفَىٰ به في اختياره أوْ عَمَله، من قِبَلِ مَنْ جَعَلَهُ وَكيلاً له.

والتَّوَكُّل علَىٰ الله: الاستسلامُ إلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبير الأمُورِ وتحقيق ما

يَرْغَبُ فيه المتوكِّل إلَيْه، مع القيام بالأسْبَابِ المسْتَطَاعَةِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ طَاعَةً لأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

لكِنَّ بني إسْرَائيلَ قَدْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، تَرَكُوا التوكُّلَ علَىٰ اللَّهِ، واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ وُكَلَاء، فاسْتَسْلَمُوا لآرَائِهِم، وعُقُولِهِمْ الَّتِي أضَلَّتْهُمْ، واسْتَسْلَمُوا للْمُضِلِّين المغْوين من الإنس والجنّ، واتَّخَذُوهُمْ وُكَلَاءَ لَهُمْ من دُون اللَّهِ، بِسَبَبِ اتِّباعِهم أهواءَهُمْ وَشَهَواتِهم وَإرادَاتِهِمُ الْفُجُورَ والْعُلُوَّ في الأَرْضِ علىٰ النَّاس بغَيْرِ حقّ، وحِينَ آتاهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ تَمْكيناً فِي الأرض اتَّخَذُوا لَهُ أسْبَابَهُ تَوَكَّلُوا على ما لَدَيْهم مِنْ قُوَىٰ، فَطَغَوْا وَبَغَوْا، فَعَلَيْهِم الآنَ أنْ يَترَقَّبُوا سُنَّةَ اللَّهِ فيهم الَّتي أعْلَمَهُمْ بها، وهِيَ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَاب، ويُتَبِّرُ وَيُحَطِّمُ مُنْشَآتِهِم تَتْبيراً شاملاً.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾: نِداءٌ من اللَّهِ لبني إسْرَائيل، أي: يا ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ في السَّفِينَة، وقد ظهر لي ترجيح احتمال النداء على الاحتمالات الأخرى.

وجاءَ في القرآن أنّ الّذينَ بَقِيَتْ لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَ الطُّوفَان كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السلام.

والمعروف أنّ بني إسرائيل هُمْ من ذُرِّيَّةِ «سَامٍ» ولَدِ نوحٍ عليه السَّلام.

وفي تذكيرهم بِأَنَّهُمْ ذُرِّيَّةُ مَنْ آمَنَ بِنُوحٍ مِنْ ذُرِّيَّتِه، تَحْذِيرٌ إلْمَاحِيٌّ لَهُمْ بأَنَّهُمْ إِذَا كَفُروا واتَّخَذُوا سبيلاً غير سَبِيلِ رَبِّهم، عَرَّضُوا نُفُوسَهُمْ لِنِقْمَةِ اللَّهِ عليهم، وإنْزَالِ عِقَابِهِ المعَذِّب لَهُم، كَمَا عَذَّبَ أقواماً قَبْلَهُمْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ نوح عليه السَّلام، وأغْرَقَ قَبْلَهُمْ الكافِرَ مِنْ أوْلَادِ نوح مع سائِر كفّار قومه.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾: أي: إنَّ نُوحاً كَانَ مُتَحَقِّقاً بِعُبُودِيَّتِهِ لِرَبِّه، خُضُوعاً وطاعَةً وامْتِثالاً لأوامِرِه ونَواهِيه، وَكَانَ شَكُوراً لِنِعَمِ اللَّهِ علَيْه، من دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ والْمُحْسِنين.

شَكُور: صيغَة مبالغةٍ لاسم الفاعل «شَاكِر» فَوَصْفُ نُوحٍ عليه السلام بأنَّهُ «شَكُور» يَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ لمْ يقتَصِرْ في شُكْرِهِ على القيام بحُقوق درجاتِ مَرتَبَةِ التَّقوى مِنْ فعل الواجبات وتَرْك المحرّمات، بَلْ كانَ يَقُوم بفَضَائِلِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِّر، ودَرَجات مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، تَقَرُّباً إلَىٰ رَبِّهِ بنَوافِلِ العبادات والقُرْبَاتِ.

وفي هذا الثناء من الله عزّ وجلّ على نوحٍ عَلَيْهِ السلام، اسْتِحْثَاثٌ لراغبي الدَّرَجَاتِ الرَّفيعاتِ عند اللَّهِ عزّ وجلّ أنْ يَكُونُوا شَكُورِينَ، مُسْتَزِيدينَ من نوافل العباداتِ والْقُرباتِ.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: وأَنْهَيْنَا إلَىٰ بَنِي إسرائيل فيما أنزَلْنَا إلَيْهِم منْ كتابٍ خَبَراً عن تاريخهم المستقبليّ، فوصَلَ إِلَيْهِمْ، وَوَعَاهُ مِنْهُمْ عُلَمَاؤُهم، ومَنْ سَمَع مِنْ عُلَمائهم، ويشمل عنوان «الكتاب» كلَّ مَا أنزل الله على رُسُلهم وأنبيائهم من كُتُبٍ هي ملحقة بما أنزل الله على موسى، ويُسمونها أسفار الْعَهْدِ القديم، ويجعلونَ لها عنوان «الكتاب المقدس» لأنَّ أنبياءهم ورُسُلَهُمْ يحكمون بالتوراة الكتاب المنزل على موسى عليه السلام.

يقال لغة: «قضىٰ إليه الأمْرَ» أي: أنهاه إليه، أصل معنى «القضاء» في اللّغة، إمضاءُ الشّيءِ وإنْهَاؤه وإتمامُه، ومعلومٌ أنَّ إنْهاء كلّ شَيْءٍ يكُونُ بحَسَبِه، قولاً أو فِعْلاً أو إرادَةً أو حُكْماً أو غير ذلك.

• ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾: أي: أُقْسِمُ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ إفْسَاداً

عَرِيضاً مُنْتَشِراً مَرَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ، بِدَليلِ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ وَصَفَهُمْ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بقَوْلِهِ تعالَىٰ:

﴿.. كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فَدَلَّ هذا البيانُ عَلَىٰ أنَّ دَأْبَهُمْ أَنْ يَسْعَوْا في الأرْضِ فساداً، مَهْمَا وجَدُوا إلى الإفْسادِ سبيلاً، وهذا في كُلّ وقْتٍ، وحيْثُما وُجِدُوا.

فإعْلَامُهُمْ بالإفسادِ مَرَّتَيْنِ، مِنْ ضِمْنِ سَعْيِهم الإفساديّ العَامَ، يَدُلُّ بوُضوحٍ على أنَّهما مَرَّتَّانِ كُبْرَيَانِ مُتَفَاقِمَتَانِ في الشَّناعَةِ والانتشار.

الفساد: التَّلَفُ والْعَطَب، وتحوُّلُ الشيْءِ عَنْ كونِهِ صالحاً نافعاً إلَىٰ كونه غير صالح ولا نافع، بل رُبَّما يَصِيرُ ضارًّا كرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: العمل الذي تكون به هذه الأمور، فَمِنَ الإفساد الدَّعْوَةُ إلى الكفر والإلْحاد، ونَشْرُ المذاهبِ الفكْرِيَّةِ المضادّةِ لِدِينِ اللَّهِ الحق، ونَشْرُ الوثَنِيَّات، وأَعْمَالِ السّوء، وإقامةُ مُؤَسَّسَاتِ الرّبا، ودُورِ الزّنا، ودُورِ شُرْبِ الخمور، وإنْشَاءُ مَعَامِلِ صُنْعِها، وإلزام النساء بإزَالَةِ حِجَابِهِنَّ عَنْ غَيْرِ مَحَارِمِهِنّ، وإقامةُ دُور القمار، ونَشْرُ أعمال القمار، والدَّعْوَةُ إلَىٰ إباحَةِ مُحَرَّمَات الفروج، وتأسِيسُ المنظَّمَاتِ الْعَلَنِيَّةِ والسِّرِّيَّة الّتي تَعْمَلُ لِهَدْمِ دين الله وإقامَةِ نُظُمٍ مُضَادَّةٍ لشرائعِ اللَّهِ لعبادِه، كالماركسية الشُّيُوعية، والاشتراكيَّة، والماسُونيَّة، والهِبِّيَّة، والفوضويّة، ومنظمة شهود يَهْوَه.

ومن الإفْسَاد في الأرض تخريب الْعِمْرانِ لَا لإصلاحِه أو إقَامَةِ مَا هو خيرٌ منه، وقَتْلُ النفوس الّتي حرَّمَ اللَّهُ قَتْلَها إلّا بالحقِّ، والظُّلْمُ والْعُدْوانُ وأَكْلُ أموال الناس وسَلْبُهَا بغير حقّ.

ومن الإفساد في الأرض نَشْرُ الرِّشْوَةِ بَيْنَ مُوظَّفِي الدَّوْلَةِ وعُمَّالِها،

وتَدْرِيبُهُمْ على تَرْكِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِم أنْ يُؤَدُّوهُ ما لَمْ يأْخُذُوا مَا يُرْضِيهِمْ مِنْ مَالٍ ظُلْماً وعُدْواناً، أو تكُنْ لَهُمْ بأدائِهِ مصْلَحَةٌ خاصَّة.

إلى غَيْر ذلك من أمور يَعْسُرُ إحصاؤها.

• ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾: أي: وأُقْسِمُ لَيَكُونَنَّ لَكُمْ عُلُوٌّ كبيرٌ في الأرض بأسْبَابٍ منكم وتَمْكِينٍ مِنَّا، فيكُونُ لَكُمْ سُلْطانٌ وَقُوَّةٌ وكَلِمَةٌ نَافِذَةٌ، وتَمَكُّنٌ مِنْ تَحْقِيقِ مَا تُرِيدُون ضِمْنَ حُدُودِ سُلْطانكم.

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الْعُلُوَّ الّذِي وصَفَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّهُ كبير، يَكُونُ لَهُمْ مَرَّتَيْنِ أيضاً.

وقَدْ نظرْتُ في تاريخ بني إسْرَائيل فَلَمْ أَجِدْ لَهُمْ عُلُواً كبيراً كما وصَفَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، إلَّا في عَهْدِ داوُد وسُلَيْمانَ عَلَيْهما السّلام، ومن مظاهِر هذا العُلُوّ خُضُوعُ «بِلْقِيسَ» مَلِكَةِ «سَبأ» ورِجالِ دَوْلَتِها «لِسُلَيْمَانَ» ومُلْكِهِ العظيم، واسْتَمَرَّ هذا الْعُلُوّ قَلِيلاً بَعْدَ «سليمان» عليه السَّلام.

ثم فَسَدَ بنو إسرائيل، وعَبَدُوا الأوثان، واتَّبَعُوا الأهواء والشَّهوات، وتصَارَعُوا علَى السُّلْطة، فسلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ «نَبوخَذْ نَصَر» المعروف باسم «بُخْتَنْصَّر» ملك «بابل وآشور». إذْ غزاهُمْ عِدَّةَ غزوات، فقتل منهم وسَبَىٰ، وكان آخرُها سنة (٥٨٨) قبل المسيح عليه السلام، وفي هذِهِ الغَزَاةِ سَبَىٰ كلَّ شعب يهوذا، وأحْرَقَ هيكل سليمان، وبَقِيَتْ مَدِينَةُ «أورُشَليم» خراباً، حتى مَكَّنَهُمْ مِنَ العودة إليها مَلِكُ فارِس «دَارِيُوس» بَعْدَ أنِ انْتَصَرَ الْفُرْسُ على البابليين في عدّة معارك.

وكانت عوْدَتُهُمْ بَعْدَ نَيِّفٍ وأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ سَبْيِهم على مَا ذَكَرُوا.

واتَّجَهَتْ آراءُ المفسِّرين الاجتهاديَّة إلى أنَّ المرَّة الثَّانية قَدْ مضَتْ، وأنَّهَا كانَتْ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّة، إذْ دَخَلَتْ مَمْلَكَةُ الإسْرَائيليّين تَحْتَ سُلْطانِ الرُّومَانيّين سنة (٤٠) ق.م. ثمّ حَاوَلُوا الخروج على سُلْطَةِ

الرُّومانيّين، فأرْسَلَ قَيْصَرُ روميَّة جيشاً كبيراً للقضاء علىٰ تمرُّدهم نحو سنة (٤٠) م فخَرَّبَ أُورُشَليم، وأحرق معْبَدَهُمْ، وقتل من اليهود قرابة «ألف ألف» وأسَرَ قرابة تسعين ألْفاً منهم، ثُمَّ أجْهَزَ الرُّومَانيّونَ على مَنْ بقي مِنْهُمْ سنة (١٣٥) م فتشتَّتَ اليهود في الأرض، ولم تخرج أورُشليم من حكم الرُّومان حتَّىٰ فَتَحها المسلمون في عَهْدِ خِلَافَة عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه سنَةَ (١٦) هجرية صُلْحاً.

لكِنّي رَأَيْتُ أَنَّ بَنِي إسْرَائيلَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُلُوٌّ في الأرض بَعْدَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عليه السَّلامُ وذُيُولِ عَهْدِهِ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أنَّهُ عُلُوٌّ كبيرٌ كما وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ.

وإذَا نَظَرْنا إلَىٰ واقِعِهم المعاصِرِ الآنَ، في القرن العشرين المسيحيّ وبداياتِ الْقَرْنِ الْحَادِي والعشرين، وَجَدْنَا أنَّ بَنِي إسْرَائيلَ قَدْ أَوْجَدُوا بأسْبَابِهِمْ وتَمْكِينِ اللَّهِ لَهُمْ أَمْرَيْنِ عظيمين:

الأمْرُ الأوّل: إفسادُهُمُ الْعَرِيضُ في كُلِّ الدُّنيا، وفي كُلِّ دُوَلِ الأَرْضِ وشُعُوبها، فَمَا مِنْ شَرٍّ وَلَا فَسَادٍ ولا حَرْبٍ قَامَتْ، ولَا مَذْهَبٍ أوْ حِزْبٍ يُحَارِبُ اللَّهَ ورُسُلَهُ ودِينَهُ الْحَقّ، إلّا كانوا هم شَيَاطِنَهُ المدَبِّرِينَ لِخُطَطِهِ، وأصْحَابَ المكْرِ والكَيْدِ والْعَملِ لِبَذْرِ بُزُوره، وَنَشْرِ نَبْتَاتِها الْخَبِيثَاتِ حتَّىٰ تَعَمَّ بِلَادَ الدُّنيا، وجَمِيعَ شُعُوبِ الأرض، متحالِفِينَ مع إبْلِيسَ وجنُودِه من شياطين الجنّ والإنْسِ.

الأمْرُ الثاني: بُلُوغُهُمْ إلى عُلُوٍّ في الأَرْضِ لَمْ تَبْلُغْهُ أمَّةٌ مِنَ الأُمَم، ولَا شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوب، دُونَ أنْ تَكُونَ لَهُمْ دَوْلَةٌ ظاهِرَةٌ عُظْمَىٰ تَحْكُمُ العَالَمَ بِمَا لَدَيْهَا مِنْ قُوَّةٍ قَاهِرَة.

لَقَدْ سَاقُوا وقَادُوا رُؤُوسَ دُوَلِ الْعَالَم، عَنْ طَرِيق منَظمَاتِهِم السِّرِّيَّة الشيطانيَّة الَّتِي أَسَّسُوها، وفي مُقَدّمَتِها:

(١) المحافل «الماسُونية».

(٢) نوادي «الرُّوتاري».

(٣) نوادي «اللّيُونْز» = الأسود.

(٤) الأحزاب الشيوعية والاشتراكية.

(٥) منظمة «شهود يَهْوَه».

(٦) فِرَقُ «الباطنيّة».

إلى غيرها من المنظمات الفاسدة المفسدة[1]، فلا تجدُ دَوْلَةً في العالم تُشَهِّرُ بجرائمهم وتطالب بمحاسبتهمْ عليها على الرغم من شناعتها ضدّ شعب فلسطين الأعزل، مع سيطرتهم على الاقتصاد وأموال شعوب الأرض، وسيطرتهم على الإعلام، وعلى معظم القوى العلمية والثقافية والإداريّة في العالم، إلى غير ذلك.

فالذي أراه أن مَا عَلَيْهِ اليَهُودُ الآنَ هُو المرَّةُ الثانية إفْسَاداً وعُلُوًّا كبيراً في الأَرْض.

ويُؤَيّدُ هذا الْفَهْمَ مَا جَاءَ قُبَيْلَ أواخِرِ سُورَةِ (الإسراء) الَّتي أسْأَلُ اللَّهَ عزّ وجلّ أنْ يَفْتَحَ عَلَيَّ في تَدَبُّرِها:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

تأخير هذه الآية إلى أواخِرِ السُّورَةِ، فيه حِكْمَةُ تَرْكِ الأمْرِ للآراء الاجتهادية، حتّىٰ يكشف الواقع المرادَ بِهِ، وهو من الإعلام بالمستقبليات إعلاماً لَمْحِيًا.

---

(١) انظر ما جاء في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» وما جاء في كتاب «ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، آخر الجزء الثاني» وكتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

أي: وقُلْنَا بأمْرٍ تكوينيّ لبني إسْرَائيل: اسْكُنُوا في شَتَاتِ الأَرْضِ، وقَدْ تَحقَّقَ هذا إذْ آثَرُوا التخلُّصَ مِنْ ضَغْطِ حُكْمِ الرُّومانيين سنة (١٣٥)م.

﴿. . فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾: أي: فإذا جاء وَقْتُ تحقيقِ وعْدِ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، جِئْنَا بكُمْ مِنْ مَوَاقِعِ شتاتِكُمْ في الدُّنْيا، طَامِعينَ بأنْ تَكُونَ لَكُمْ دَوْلَةٌ عُظْمَىٰ تَحْكُمُ العالَمَ حُكْماً ظَاهِراً، لَا حُكْماً مِنْ وراءِ حُجُبِ أُجَرَائِكُمْ وعُمَلائِكُمْ مِنْ شُعُوبِ الأرْض، وعِنْدَئِذٍ سَيَسُوءُ عبادٌ لَنَا وُجُوهَكُمْ، وَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الأَقْصَىٰ معظِّمِينَ لَهُ، كَمَا قَدَّرْنَا أنْ يَدْخُلُوه في أوّل مَرَّةٍ في عَهْدِ خِلَافَةِ عُمَر، ومَعَهُمُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يُحَطِّمُونَ مُنْشآتِ قُوَّاتِكُمْ تَحْطِيماً شَدِيداً يَجْعَلُها كأكوام الرِّمال والحصَىٰ.

اللّفِيفُ: مَا اجْتَمَعَ من النّاسِ من أخْلَاطٍ شَتَّىٰ، ومن قَبَائِلَ شَتَّىٰ. وظاهرٌ أنَّ اجتماع الْيَهُودِ في هذا الْعَصْرِ في فِلِسْطِينَ مِنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ، ومن كلِّ بلاد الشَّتاتِ تحْقِيقٌ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ بأنْ يأتِي بهِمْ لَفِيفاً لِيُلَاقُوا مَصِيرَهُمُ المحتُومَ، مُسْتَفِيدينَ قَبْلَ ذَلِكَ مِمَّا وَصَلُوا إلَيْهِ مِنْ عُلُوٍّ كبير، ولَمْ يُجْمَعُوا مِثْلَ هذا الْجَمْعِ قَبلَهُ في تاريخهم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

أي: ومِمَّا أنْهَاهُ الله عَزَّ وجلَّ إلَىٰ بَنِي إسْرَائيلَ في الكتاب على مَا سَبَقَ تَدَبُّرُهُ، قَوْلُهُ لَهُم: فإذا جاءَ وَقْتُ وَعْدِ عِقابِنَا لِكُم علَىٰ إفْسَادِكم في المرَّةِ الأُولى، بَعَثْنَا عليكم عباداً لنا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ، ضِمْنَ تَصَارِيفِنَا الَّتِي تَجْرِي مِنْ خِلَالِ أسْبَابٍ إنْسَانِيَّة يتَحرَّكُ فيها النَّاسُ باخْتِيَارَاتِهِمُ الحرَّة، فَدَخَلُوا دِيَارَ مُدُنِكم وبَلْدَاتِكُمْ عَنْوَةً قَاهِرِينَ لَكُمْ يتَرَدَّدُون ذاهِبِينَ وَآيِبِينَ،

يَبْحثُونَ عَمَّنْ يَقْتُلُونَهُ مِنْكُمْ، وَعَمَّنْ يأسِرُونَ، وَعَمَّا يَسْلُبُونَ ويَغْنَمُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَمُمْتَلَكَاتِكُمْ، ونَحنُ نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِقَاباً لَكُمْ.

الْبَأْسُ: هُنا الشَّدَّةُ في الحرْب.

جَاسُوا: تَرَدَّدُوا ذاهبين وآيبين بحْثاً وتَفْتِيشاً، يقال لغة: «جَاسَ، يَجُوسُ، جَوْساً، وجَوَسَاناً» أي: تَرَدَّدَ ذاهباً وآيباً. ولَا يَفْعَلُ هذا في دِيَارِ الأعْدَاء إلَّا مَنْ دَخَلَها عَنْوَةً، مُقَاتِلاً مُحَارِباً، يَقْتُلُ، وَيَأْسِرُ، ويَسْلُبُ، ويَغْنَمُ، بقُوَّةٍ لَا قِبَلَ لِعَدُوِّهِ بِصَدِّها.

خِلَالَ الدِّيَار: أي: في كُلِّ مِنْفَرجٍ مَا بَيْنَ شَيْئين من دِيَارِكُمْ.

وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ تَمَكُّنِ الْمُسَلّطِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِ كلِّ مَكَانٍ مِنْ دِيَارِهم، حتَّىٰ مَا كان من خِلَالِ دَاخِلَ بُيُوتِهم.

وأثْبَتَ التاريخ أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَلَّطَ عليهم «بُخْتَنَصَّر» مَلِكَ بَابلَ وآشُور، فقتل وأسَرَ وَغَنِمَ، وسَاقَ بقَايَاهُمْ أَسْرَىٰ إلَىٰ بلاده، كما سَبَقَ بَيَانُه.

وأَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أَنَّهُ بَيَانٌ قُرآنِيٌّ دَلَّ عَلَىٰ أنَّ مضْمُونَ هذا الْوَعْد قَدْ تحقَّقَ فِعلاً قَبْلَ نُزُولِ هذا البيان القرآنيّ.

الْوَعْدُ: هُوَ الإخبار بما تَمَّ العزْمُ علَىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يكُونُ في الْخَيْر، ويكُونُ في الشرّ، يقال لُغَةً: وَعَدَهُ بنَفْعٍ، ووعَدَهُ بِضُرّ.

ووعْدُ الله هُنَا لبني إسْرَائيلَ بالعقاب على أَيْدِي عبادٍ لَهُ غَير مُؤْمِنينَ، هُو بمعْنَىٰ تمْكِين البابلِيّين والآشوريّين، من اتّخاذ الوسَائِلِ للتَّسلُّط علَىٰ عُصَاةِ بني إسرائيل وكُفَّارِهِمْ مع وُجُودِ الكِتَابِ الرَّبَّانِيّ عندهم، ووُجودِ أنبياءِ فيهم يُحَذِّرُونَهُمْ، ويُنْذِرُونهم عقابَ اللَّهِ لهم، وبمعنىٰ إغراء مَلِكِ بَابل

وآشور بالطَّمَعِ بالتَّسَلُّطِ عليهم، وسَلْبِهِمْ مَا يَمْلِكُون، وإغراء الإسْرَائيليّين بالتكبُّر والتفاخُرِ والتعالي على الملُوكِ بما كانَ لهم من مُلْكٍ عظيم أيَّام سُلَيْمان، وأنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوا لاسْتِرْجاعِ هَذَا الْمُلْكَ الَّذي فَقَدُوه، وكَسْرِ رُؤُوس الْمُلُوكِ مِنْ حَوْلهم.

وسابقُ عِلْمِ اللَّهِ الكَاشِفِ لأحْدَاثِ المستَقْبَل، يَكْفِي للْجَمْعِ بين إراداتِ العباد الحرّة الّتي لا جَبْرَ فِيها، وبَيْنَ تَحْقِيقِ مُرَادِ اللَّهِ منْ بَاطِنِ أَعْمَالِ الْخَلَائِق الإراديَّة.

لفظ «عباد» يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ الموجودَاتِ ذوات العلم، إذْ هم جميعاً عبادٌ مَمْلُوكُونَ لله الرَّب خالِقِهم، والممدّ لَهُمْ دواماً بعطاءات رُبُوبيّته، سواءٌ أكانوا مُؤْمِنين أَمْ كافِرين، حتَّى الملائكة فقد وصفهم اللَّهُ عزّ وجلّ بأَنَّهُمْ عبادٌ مُكْرَمُونَ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..﴾:

• ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾: **أكْثَرَ نَفِيراً**: أي: أكثَرَ رِجَالاً قادِرين على أنْ يخْرُجوا إلى القتالِ ممّا كنْتُمْ عَلَيْه قَبْلَ السَّبْي.

المعنى: وبَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ مُتَراخِيةٍ ذكر المؤرخون أنَّها نَحْوُ أربعين سنة أَرْجَعْنَا لَكُمُ الكرَّةَ المنتصِرَة على الذين سَبَوكُمْ، فَعُدْتم إلى فِلِسْطِين.

الْكَرَّة: الرَّجْعَة، وَالْحَمْلَةُ الراجِعَةُ إلى جِهَةِ الْعَدُوِّ لِقِتَالِهِ، بَعْدَ الْفِرَارِ من وجْهِهِ أو الهزيمةِ أو الانْكسارِ. **والكَرَّة**: واحِدَةُ الكَرِّ، وهو الرُّجُوعُ إلى الوراء لاستئناف الإقبال إلى الأمام.

هذه العبارة تَدُلُّ إلْماحاً معَ النظر إلى التاريخ أنّ بعض الإسرائيليّين

اتَّصَلُوا بمَلِكِ فارِسَ، حينما كانوا في أَسْرِ الأشُوريّين من غير الواقعين في الأَسْرِ أو ممّنْ فَرَّ مِنْهُم، وحَرَّضُوهُ على قتالِهِمْ، وَوَعَدُوه بأنْ يُعاونُوهُ، فوجَدَ مَلِكُ فَارِسَ الْفُرْصَةَ مُواتِيَةً لَهُ للظفر بغنيمَةٍ كبيرة، فحارب «كُورَشْ» مَلِكُ فارس البابليين، فهزمهم، ثم حاربهم المَلِكُ بَعْدَهُ «دَاريوسُ» ففتح بَابِلَ، وأَذِنَ لليَهُودِ في سنة (٥٣٠) ق م أَنْ يَرْجعُوا إلى أورُشَلِيم ويُجَدّدُوا دَوْلَتَهُمْ، فعادوا تائبين إلى ربّهم ممَّا أَحْدَثُوا من كُفْرٍ وفَسَادٍ وإفْسَاد.

لكِنَّهُمْ عَادُوا إلى مَا كَانوا قَدْ نُهُوا عَنْهُ من فسادٍ وإفسادٍ، فانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ انتقامَاتٍ جُزئِيَّة، دُونَ أنْ يكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ ظاهر في الأرض، حتَّىٰ آثَرُوا الهجْرَةَ مِنْ فِلسْطِينَ، والتَّوَزُّعَ في بلاد الدُّنيا غَرْبِها وشَرْقِها وجَنُوبِها وشمالِها، ولم يَبْقَ لهم وُجُودٌ بَارِزٌ في فِلِسْطِين.

● ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ . . . ﴿٧﴾﴾:

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾: أي: إِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُوَ حَسَنٌ يَرْضَاهُ اللَّهُ.

﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾: أي: وإِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُو سَيِّءٌ قبيحٌ لَا يَرْضَاهُ الله.

هذا خطابٌ خاطبَ اللَّهُ بِهِ بَنِي إسْرَائيلَ، وهُوَ يَدُلُّ على مادَّتَيْنِ مِنْ موادّ الجزاء الرَّبَّاني لكلّ عبادِهِ الموضُوعِين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء، مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الخلْق.

المادّة الأُولى: مَنْ عَمِلَ عَملاً حَسَناً يَرْضَاهُ اللَّهُ كسَبَ لنفسه ثواباً حسناً، ويكونُ بِذَلِكَ قَدْ أَحْسَنَ لفائِدَةِ نَفْسِهِ.

المادّة الثانية: مَنْ عَمِلَ عَملاً سَيّئاً لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لعِقَابٍ يَسُوؤُهُ، ويَكُونُ بذلِكَ قَدْ أَسَاءَ لِنَفْسِه، فَجَرَّ لنَفْسِهِ عذاباً يُؤْلِمُهُ إذا لَمْ يَغْفر اللَّهُ له بمقتضى حكمته. يقال لغة: «أَسَاءَ فُلَاناً، وأَسَاءَ لَهُ، وأَسَاءَ إلَيه، وأَسَاءَ عَلَيْه، وأَسَاءَ به» أي: فعل به مَا يَكْرَه، فلا حاجَةَ إلى تأويلاتٍ لا لُزُومَ لَهَا، إذْ جاء الاستعمال: ﴿فَلَهَاۚ﴾ ولم يأتِ: فَعَلَيْها. بَيْدَ

أنَّه قَدْ جاء في مواضِعَ مِنَ الْقرآن اسْتِعْمَالُ حَرْف «على» للإشارة إلى أنَّهُ قَدْ تَسبَّبَ في أنْ يَنْزِلَ الْعِقَابُ مُنْصبًّا علَيْهِ من فوقه، وكلُّ ما يقضيه اللَّهُ جلّ وعَلا، لَهُ العلُوُّ والْفَوْقِيَّةُ دَواماً.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿..فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـٔۥُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾:

مَا جَاءَ في هذه الآية (٧) يَنْبغِي تَدَبُّرُهُ مع قول الله عزّ وجلّ عَقِبَ بيَانِ لقطاتٍ مُوجَزاتٍ جدًّا مِنْ قِصَّة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام وفِرْعُونَ عَلَيْهِ اللَّعْنَة، وبَعْدَ بيان أنَّ فِرْعَوْنَ أراد أنْ يَسْتَفِزَّ بني إسْرَائيل من الأرْضِ الّتي هم فيها في مصر، فأغْرَقَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَه:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾: أي: وقُلْنَا قَوْلاً تكوينيًّا مَسْبُوقاً بقَدَرٍ فقضاء.

اتّجهت آراء المفسّرين إلى أنّ المراد بهذِهِ الآية: اسْكُنُوا أَرْضَ فِلَسْطِين، فإذا جاءَ وعْدُ الحياة الآخِرَةِ يَوْمَ القيامة جِئْنَا بِكُمْ لِفَيفاً، لكني كما سبَق أنْ ذكَرْتُ أرَىٰ أنَّ هذه الآية (١٠٤) مُكَمِّلَةٌ للبيان الذّي جاء في الآية (٧) على طريقة القرآن في توزيع عَنَاصِرِ قضايا القِصَصِ وَالأَحْدَاثِ المستَقْبَلِيَّةِ على نُصُوصٍ مُفَرَّقَةٍ، لِتُفْهَمَ فَهْماً تكامُلِيًّا مِنْ قِبَلِ مَنْ يَفْتَحُ اللَّهُ علَيْهِم مُتَدبِّرين.

والمعنى: فإذا جاء وقْتُ تحقيقِ عُقُوبَتِكم على إفْسَادِكُمْ العريض في المرَّةِ الآخِرَةِ، جِئْنَا بِكُمْ مِنْ مَوَاقِعِ تَفَرُّقِكُمْ في الدُّنيا إلَىٰ فِلِسطِين، بتَدْبيراتٍ أَنْتُمْ تَتَّخِذُونَها، ظانّين أنَّها تحقّق لكم ما تُرِيدُون من سُلْطَانٍ، ومُلْكٍ عظيم، فتكونون في فلسْطين لفيفاً مِنْ أخْلاطٍ شَتَّىٰ قادِمَةٍ مِنْ شَرْقِ الدنيا وغَرْبِها وجنوبها وشمالِها، وبَعْدَ ذَلِكَ نَبْعَثُ عليكُمْ عباداً لَنا يَغْلِبُونَكُمْ

وَيَسُومونكُمْ سُوءَ الْعَذَاب، ولَا يَكُونُ هَدَفُهم إبادَتَكُمْ، بل هَدَفُهُمْ أن يُعيدُوكم إلى وضْعِكُمْ غَيْر الاسْتِثْنَائيّ، وهُوَ مَا ضُرِبَ عليكُم مِنَ الذِّلّةِ والمسْكَنَة، الّتِي تَسُوؤُكم مِنْ أعْمَاقِ نُفُوسِكُمْ وقُلُوبِكُمْ، فَتَظْهَرُ آثارُ هذِهِ المسَاءَةِ على وُجُوهِكُمْ دَواماً. أو لتكونَ غَايَةُ بَعْثِهِمْ تَحْقِيقَ هذا.

فاللّامات الجارة في الآية (٧) متعلقة بمحذوف تقديرُه: «بَعَثْنَا عليكم عباداً لَنَا أُولي بَأسٍ شديد» وهُوَ مستفاد من النظير السابق، واللّامات معناها التعليل، وهي في: [لِيَسوءُوا] ـ [لِيَدْخلوا] ـ [لِيُتَبِّرُوا].

ودلَّ على الحالتين الغالبة والاستثنائية قول الله عزّ وجلّ بشأن اليهود، في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

فالْوَضْعُ غَيْرُ الاسْتِثْنَائِيّ، الشَّامِلُ لمعْظَم أحْوَالِ تَاريخِهِم الّذِي بَدأ بَعْدَ فَسَادِهِمْ وإفسادِهم وسُقُوطِ مَمْلَكَتِهِمْ:

(١) أَنَّهُمْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة (= الضَّعْفُ والْهَوان) أيْنما وُجِدُوا ملاحَقِين لقتالهم، في كلّ أحوالهم، باسْتثناءِ حالَةٍ يُمِدُّهُمُ اللّهُ فيها بحَبْلٍ معْنَويٍّ لِيُؤَدِّبَ بِهِم المسْلِمينَ الْعُصَاة، ويُمَكِّنُ فيها دُوَلاً مِنْ شُعُوب الأرْضِ منْ أنْ تُعْطِيَهُمْ حَبْلَ قُوَّةٍ يَسْتَعْلُونَ به.

(٢) أَنَّهُمْ بَاءُوا بغَضَبٍ مِنَ اللّهِ، أي: حَلُّوا بِهِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ دائماً فيه، ما دامُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وفَسادِهم وإفسادهم لا يَدْخُلُونَ في دين اللّهِ الحقّ، الذي جعَلَهُ عَامًّا شاملاً للنَّاسِ أجْمَعِينَ.

(٣) أَنَّهُمْ ضُرِبَتْ عَلَيْهُم المسْكَنَةُ، أي: التظاهُر بالضَّعْفِ والحاجَةِ والذُّلّ، ولَوْ كانُوا عَلَىٰ خِلافِ ذَلِكَ في الواقع.

هذه العقوباتُ الرَّبَّانِيَّة نَزَلَتْ بهم بسبب أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيات اللَّهِ، وكانُوا يَقْتُلُونَ الأنبياء بغَيْرِ حقّ، وكانوا يَعْصُونَ رَبَّهُم، وكانوا يَعْتَدُونَ على عباد الله.

وأخلافُهُمُ الملْتَزِمُون بما كانَ عليه آباؤهم تَنْسَحِبُ عليهم هذِهِ العقوبات الرَّبَّانِيَّة.

• ﴿.. وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: وليدخُلوا المسْجِدَ الأَقْصَىٰ مُنْتَصِرين، ومُعَظِّمِينَ لَهُ وَمُقَدِسِينَ، كما دَخَلُوه كذلِكَ أَوَّلَ مَرَّة. وَهذا يَنْطَبِقُ علَىٰ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ الْمُحَمَّدِيَّة، الّذين دَخَلُوهُ في عَهْدِ خلافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب، فأَحَاطُوهُ بالْعِنَايَةِ والرِّعَايَةِ والنظافة والاحْترام، وجَعَلُوهُ مكاناً صالحاً للعبادة، بَعْدَ أنْ خَرَّبَهُ وأَلْقَىٰ عَلَيْه الأَقْذَارَ والْقُمَامَاتِ الْبَابِلِيُّون، والرُّومانِيّون نِكايَةً بالْيَهُودِ وإذْلالاً وإهانَةً لهم، ولم يَدْخُلوهُ، بَلْ خَرَّبُوه ودَمَّرُوه وأحْرَقوه دونَ دُخولٍ إلى حَرَمِه دُخُولَ استِمْتَاع وانتفاع.

• ﴿.. وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾:

التّتْبير: التكْسِير، والتحطيم، والتّفْتِيت، بِشِدَّة.

﴿مَا عَلَوْا۟﴾: أي: الّذي عَلَوْهُ مُنتَصِرِينَ فَاتِحِين مِنْ مُنْشآتِ وَمُؤَسَّسَاتِ الْيَهُودِ في فِلسطِين «ما» اسم موصول، والضمير العائد عليه محذوف مقدَّر ذهناً.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ هؤلاءِ الفاتِحِين مِنْ عبادِ اللَّهِ، يَمْلِكُونَ قُوىً تَفْجِيرِيَّةً قَادِرَةً على التَّتْبِيرِ والتفْتِيتِ بشِدَّةٍ، حتَّىٰ يَتَحوَّلَ البناء العظيم الشَّاهِقُ فَيَكُونَ تَلَّةً من الرَّمْلِ والْحَصَىٰ.

والأَحَادِيثُ الصحيحة تُبَيّنُ أنّ مَعْرَكَةً حَاسِمَةً فَاصِلَةً، سَتَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمين والْيَهُود، وأنَّ الْمُسْلِمينَ سَيَكُونُونَ هُمُ الغالبين المنتصرين، ولَكِنَّ تحقيق هذا الْوَعْد يتوقَّفُ على المسلمين أنفُسِهم، فالأمْرُ مَشْرُوطٌ بأنْ

يكُونوا مُسْلِمِينَ حقًّا، وبأنْ يُعِدُّوا لهذا الانتصار عُدَّتَهُ ضِمْنَ أنْظِمَة الله السَّبَبِيَّة في كَوْنه.

ولَكِنَّ عقابَ اللَّهِ لليهودِ لا يكونُ عقابَ استئصالٍ وإبَادَةٍ شاملَة، لِمَا للَّهِ فيهم من حِكْمَةٍ أو حِكَمٍ، كما كان للَّهِ من حِكْمَةٍ في إنظار إبليسَ إلى إنهاء ظروف الحياة الدّنيا.

قول الله عزّ وجلّ في مُتَابَعَةِ مَا أَنْهَاهُ إلَىٰ بني إسْرَائيل من بيانٍ عن لقطاتٍ مِنْ تاريخهم المسْتَقْبَلِيِّ، يَنْصَحُهُمْ، ويُحَذِّرُهُمْ، ويُبَيّنُ لهم أنَّ جَهَنَّمَ هي عاقبة الكافِرِينَ جَميعاً مِنْهُمْ ومِنْ غَيْرِهِم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾:

في هذه الآية الّتي خَتَمَ اللَّهُ بها هذا الدَّرْس الثاني بيانُ ثلاث قضايا وجَّهَهَا اللَّهُ لبَنِي إسرائيل، وهي تَشْمَلُ عَامَّةَ الْيَهُود ومن على شاكِلَتِهِم:

القضيَّةُ الأُولى: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ﴾: أي: بَعْدَ مُعَاقَبَةِ اللَّهِ لَكُمْ بِأيْدِي عبادٍ لَهُ (وهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَهْماً مِنْ عِدَّةِ أدِلَّةٍ وقرائِنَ) يُبْقِي اللَّهُ لَكُمُ الرَّجاءَ بأنْ يَرْحَمَكُمْ ويَتُوبَ عليْكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ ضِمْنَ عبادِه المرحُومين. ومَعْلُومٌ أنَّ هذه الرَّحْمَةَ الخاصَّةَ مَشْرُوطةٌ بالإيمانِ بما أوْجَبَ اللَّهُ الإيمانَ به، وبِعَمَلٍ صالحٍ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ هذا الإيمان والصِّدْقِ فيه، أخْذاً مِنْ دَلاَلاتِ النُّصُوص القرآنيَّةِ الكثيرة، وهذا إنّما يكون بإسلام مَنْ يُرِيدُ لنفسه النجاة والسَّعَادَة الأبديَّة منهم.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ﴾: أي: وإنْ عُدْتُم إلى مِثْل مَا كُنتُمْ عَلَيْهِ من إفسادٍ عَرِيضٍ في الأرض، وطَمَعٍ في أنْ يَكُونَ لَكُمْ عُلُوٌّ كبيرٌ ومُلْكٌ عَظِيمٌ، عُدْنَا إلَىٰ اتِّخاذِ تَدْبيراتٍ تُرْجِعُكُمْ إلَىٰ وَضْعِكُمْ الَّذِي ضُرِبَ علَيْكُمْ من الذِّلَّةِ والمسْكَنَةِ، مَعَ إقامَتِكُمْ الدَّائِمَةِ بمَوْقِعِ غَضَبٍ من اللَّهِ عليكم.

وجاء في العبارة استعمال «إِنْ» للإِشْعَارِ بأَنَّهم بَعْدَ هذِهِ الضَّرْبَةِ العنيفة الشَّدِيدة، يَيْأَسُونَ مِنْ أَنْ يتَحرَّكُوا تَحَرُّكاتٍ يَرَوْنَ أنَّها قَدْ تُوصِلُهُمْ إلَىٰ المُلْكِ الْعَظِيم الَّذِي يَطْمَعُونَ فِيه.

وَتُشْعِرُ هذِهِ العبارة أيضاً بأنَّ هذه الضَّرْبَةَ الْعَنِيفَةَ لَهُمْ تَكُونُ قَبْلَ نُزُول عيسَىٰ عليه السّلام، إذْ تَتَابَعُ الأحْدَاثُ بَعْدَ نُزُوله تتابعاً متواصلاً حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ في خاتِمَتِها، ولَيْسَ في الأرض مَنْ يقول: «الله».

ومع تتابُعِ هذه الأحْدَاثِ، يكون تفكير اليهود في الْعَوْدَةِ إلى اتّخَاذ تَدْبيراتٍ تُعِيدُ لَهُمْ مُلْكَ سُلَيْمَانَ من الأمُورِ المستَبْعَدَةِ جدًّا.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلّ: ﴿..وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾:

الْحَصِيرُ: الْحَابِسُ المانِعُ مِنَ الْحَرَكة، وهذا يَنْطَبِقُ على السِّجْن. أي: وَجَعَلْنَا جَهنَّمَ يَوْم الدّينِ لِلْكَافِرِينَ سِجْناً دَائماً، دلَّ على الدّوام النصوصُ الكثيرة القطعيَّة بأنَّ الكافِرِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ الدِّين في جَهَنَّم خَالِدِين.

هذِهِ القضيَّةُ الَّتي جاءَتْ في هذِهِ الْعِبَارَة تَشْمَلُ كُلَّ الكافِرِين، ويَدْخُل في هذا الْعُموم كُفَّارُ الْيَهُود، ففيها إنْذَارٌ لَهُمْ بعذابٍ خالِدٍ في جهَنَّمَ يَوْمَ الدّين.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب الّتي أعْتَدَهَا اللَّهُ عَزَّ وجَلّ، ليُعَذِّبَ فيها الكافِرِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدّين. وهو مَمْنُوعٌ من الصرف لِلْعَلَمِيَّة والتأنِيث.

ويُقَالُ للقَعْرِ البعيد في اللُّغَةِ: جَهَنّم. ويقال: بئْرٌ جهنّم، أيْ: بَعِيدَة القعر.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دُرُوس سورة (الإسْراء) والحمد لله على إمداده ومعونته وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الإسراء) الآيتان (٩ و١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

القراءات:

(٩) ● قرأ ابْن كثير: [الْقُرَانَ] وَصْلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْقُرْءَانَ].

وهما وجْهان عَربيان في النطق.

● وقرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي: [وَيَبْشُرُ] من فعل: «بَشَرَهُ يَبْشُرُه» بمعنى أخْبَرَهُ بمَا يَسُرُّهُ، وهذه القراءة تُنَاسِبُ أصحاب الدَّرجات الدنيا من المؤمنين.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» وهذه القراءة تُنَاسِبُ أصْحَابَ الدَّرَجَاتِ الرَّفيعَاتِ مِنَ المؤمنين، إذْ فيها معنىٰ تعْظِيمِ البِشَارَةِ الموجَّهَةِ لهم.

فبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

جاء في هذا الدَّرْسُ بَيَانُ مِنَّةِ اللَّهِ على رَسُولِهِ محمّد خاتم الأنبياء والْمُرْسَلِين بالقرآنِ المجيد، وعَلَىٰ الأُمَّة المحمَّدِيَّةِ إذْ جَعَلَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ هي الوارثَةَ لِكتَابِ رَبِّ العالمين للناس أجمعين، وهي الأمَّة الخاتمة.

في مُقَابِلِ بيانِ مِنَّةِ اللَّهِ على موسى عليه السلام وبني إسرائيل بالتَّوْرَاة في الدرس الثاني.

وبالتقابُل يَظْهَرُ تفضيل محمّد ﷺ علىٰ مُوسَىٰ عليه السلام، وتفضيل أمَّةِ محمد ﷺ على بني إسرائيل.

التدبر التَّحْلِيليّ:

ذكر الله عزّ وجلَّ في هذا الدَّرْسِ القرآنَ المجيد، وأبَانَ مِن صِفَاتِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ ثَلاثَ صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الأُولَىٰ: أنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هي أقْوَمُ، فَقَالَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

هذه العبارَةُ تَتَحَدَّثُ عَمَّا في القرآنِ المجِيدِ مِنْ دَلَالَةٍ على السُّلُوكِ الإرَادِيّ الأقْوَمِ، النَّفْسِيّ والْخُلُقِيِّ والْجَسَدِيّ، لِلْموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، في كُلِّ جوانِبِ حياة الإنْسَانِ أفْراداً وَجَمَاعَات.

﴿يَهْدِى﴾: أي: يَدُلُّ وَيُرْشِدُ ويُبَيِّن.

﴿أَقْوَمُ﴾: أي: أقْرَبُ إلى الاعتدالِ الكامل، يقال لُغة: «قَامَ الأمْرُ، أوْ قَامَ الشَيْءُ» أي: اعْتَدَل، ولفْظُ «أقْوم» أَفْعَلُ تفضيل منه، ولمَّا كان اعتدال السُّلُوك الإنسانيّ أمْراً نِسْبيًّا كان المناسبُ في هدايته أن تكون هداية للتي هي أقوم، أي أقرب إلى الاعتدال. فالمعنى: إنَّ هذا القرْآن في كلِّ سُلُوك بَشَرِيٍّ أنزلَ اللَّهُ له حكماً فإنَّه يَهْدِي فيه للَّتي هي أكْثَرُ

اسْتِقَامَةً من المكْسُوبَاتِ البشريّة، وأكثَرُ قرباً إلى الاعتدال الكامل، من كلّ مَا يَدْعُو إلَيْهِ دَاعٍ مَا، ومِنْ كلٍّ ما يُفَكِّرُ فيه مُفَكِّرٌ مَا، ومِنْ كلٍّ ما يَضَعُهُ واضِعُ نظامٍ أوْ مُرْشِدٌ إلى عَمَلٍ، مَا لَمْ يَكُنْ مُطَابِقاً لِمَا جَاءَ فِي هَدْيِ الْقُرآن.

وهذا يَشْمَلُ كُلَّ أحْكَام السُّلُوكِ الّتي دَلّ عليها القرآنُ في كلّ أمْرٍ من أُمُورِ حياةِ الإنسان الْجَسَدِيَّة وَغَيْرِ الْجَسَدِيَّة، مِمَّا يَدْعُو إلى فِعْلِه أو يَدْعُو إلى تَرْكه.

أمثلة:

(١) إنَّ الأقْرَب إلى الاعتدال الكامل بين الرهبانيَّة والإباحيَّة في قضاء شهوات الفروج، هو الزواج المشروع ضمن حُدود مثنى وثُلَاث ورُباع، وضِمْنَ حُدُود الأحكام التفصيليّة المنظمة له.

(٢) إنّ الأقربَ إلى الاعتدال الكامل بين الرأسمالِيَّة والاشتراكية، هو نظام الإسلام الاقتصادي، الذي يُعادِلُ بَيْنَ حقِّ الفرد وحُرِّيَّته، وبَيْنَ حَقِّ الجماعَة.

(٣) إنّ الأقرب إلى الاعتدال الكامل بين نظام الحكم الاسْتَبدادي، والنظام الديمقراطي، هو نظام الحكم الإسلاميّ الرَّبَّانيّ فيما لله فيه أحكامٌ مُبْرَمَة، والشُّورِي فيما تَرَكَهُ اللَّهُ لاجتهادات الناس وتجرِبَاتهم.

وهكذا إلَىٰ سَائر نُظُمِ الإسلام وأحْكَامِه في الفروع.

ولَمْ يَتَعَرَّضْ الْبَيَانُ في هذا النّصّ للخبريّاتِ الّتي هي حقٌّ لَا رَيبَ فيه، في كلِّ قَضِيَّةٍ تتعلّق بما كَانَ أو بما هو كائنٌ أو بما سَيَكُون أو بما لَا يمكنُ أنْ يكُون، من الواجبات والجائزات والمستحيلاتِ عقلاً، لأنّ نصوصاً قرآنيَّة كثيرة أبانت أنّ القرآن حَقٌّ لَا رَيْبَ فيه.

الصّفة الثانية: أنَّهُ يُبَشِّرُ المؤمِنينَ الّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات بأنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً يَنالُونَهُ يَوْمَ الدّين، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿.. وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾:

التَّبْشِيرُ: الإخْبَارُ بما يَسُرُّ وَيُفْرِح. وقَدْ يُسْتَعْمَلُ في الشرِّ وفيما يَسُوءُ مَعَ قَرِينة. يقالُ لغة: «بَشَّرَهُ، وأَبْشَرَه» أي: أخبره بما يَسُرُّه. ويُقَال: «بَشَّرَهُ بكذا، وأَبْشَرَهُ بِهِ، وبَشَرَهُ بِهِ».

المؤمنين: أي: المتصفين بالإيمان بما أوجب الله الإيمان به إيماناً صحيحاً صَادِقاً، واسْتَمَرُّوا على هذا الإيمان دُونَ أنْ ينْقُضُوهُ بمُكَفِّرٍ مِنَ المكفّراتِ، حتَّى ماتُوا وهُمْ مُسْلِمُون.

الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات: أي: الّذِي يُعَبِّرُونَ عن صِحَّةِ إيمانهم وصِدْقِه بأعْمَالٍ صَالحاتٍ يُحِبُّ اللَّهُ مِنْ عباده أَنْ يَعْمَلُوها، وهذا يَشْمَلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أمْرَ إيجاب، أو أمْرَ نَدْبٍ وتَرْغيب.

ويشمَلُ أيضاً الأعمال الّتي يتحقَّقُ بها تَرْكُ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ نهْيَ تَحْرِيم، أوْ نَهْيَ نَدْبٍ وَتَرْغيب. والتعبير بالأعمال الصالحات هو من «الإسلام».

وَجَاء في القرآن تَفْصِيلُ الأَجْرِ الكَبِيرِ بصُوَرٍ كُلِّيَّةٍ مُجْمَلَةٍ فيما أعَدَّ اللَّهُ للمتقينَ في جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، وفِيمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنْ جزاءٍ حَسَنٍ في مُدَّة الْبَرْزَخ بين الموْتِ والْبَعْث للأرْواح والنفوس، وجَمْعُ هذِهِ النُّصُوص وتَدَبُّرهَا تَدبُّراً تكامُلِيًّا مُفَصَّلاً يحْتَاج أكْثَر من مُجَلَّدٍ كبير.

وجاء تَنْكِيرُ الأجْر معَ وصْفِهِ بأنَّه كبير في قوله تَعالَىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّهُ كبيرٌ جدًّا لَا يَحُدُّهُ وَصْفٌ كلامِيٌّ، والعبارة على تقدير: بأنَّ لهم أجراً كبيراً، وحَذْفُ الجارّ قبل «أنَّ» قياسٌ مطّرد.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أنَّهُ يُنْذِرُ الّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرةِ بأنَّ اللَّهَ أعْتَدَ لَهُمْ

عَذَاباً أَلِيماً، فَقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

جاء التَّعْبِيرُ بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ للإشْعَارِ بِعِظَمِ الْعَذَاب الأَلِيم الذي أعْتَدَهُ اللَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ للكافِرِين.

ولمَّا كَانَ الكُفْرُ بِبَعْضِ أَرْكَانِ الإيمان مُوجباً لِلْخُلُودِ في العذاب الأليم يَوْمَ الدّين بدار تَعْذِيب المجْرِمين، اقْتَصَر النَّصُّ هُنَا على ذِكْرِ الكُفْرِ بالحياة الآخرة، الّتي تكُونُ بِبَعْثِ الموتَىٰ للحساب وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزَاءِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الإسراء) والحمْدُ للَّهِ على مَعُونَتِه وتَوْفيقه وفيض عطَائه.



(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (الإسراء)
الآية (١١)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ الموجَز الذي هو آيَةٌ واحِدَةٌ إلْماحٌ إلَىٰ أنّ الإنْسَانَ عَجُولٌ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِه ولَا يَتَّبِعُ مَنْطِقَ عَقْلِهِ، فَهُو يحبُّ الدُّنيا الْعَاجِلَة، ولو انْتَهَىٰ بِهِ حُبُّهُ لَها أوْ حُصُولُهُ علىٰ مَا يحبُّ مِنْها إلى شقائِه وعذابِهِ الأَبَدِيّ، وهُو يُعْرِضُ عَنِ الآخِرَة وَيَذَرُهَا غَيْرَ عَابِئٍ بها، وَلَوْ كان عَمَلُهُ لَهَا يجْعَلُهُ مِنْ أَصْحَاب السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، والنعيم العظيم الخالد.

والدَّليلُ علَىٰ هذا مِنْ وَاقِعِ حَالِهِ في سُلُوكِهِ الحياتيِّ تُجاه مَطَالِبِهِ الْقَرِيْبَةِ الزَّمنِيَّة مِنَ الحياة الدُّنيا، كالمال، والْوَلِدِ، والمنْصِب، والدار، والحبيبَة.

أَنَّهُ يَدْعُو رَبَّهُ أو من يَعْتَقِدُ بأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَهُ بإلْحَاحٍ، لتحقيقِ مَطْلُوبِهِ الّذِي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ به، مُتَصَوِّراً أَنَّهُ سَيَنَالُ بِه السَّعَادَة، دُونَ أنْ يضَعَ في حُسْبَانِهِ وَتقدِيرَاتِه احْتِمَالَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ شرًّا له، وجَالباً لَهُ تَعَاسَةً وشقاءً وَعَذَاباً وخَيْبَةً.

وهذا مِنْ قِصَرِ نَظَرِ الإنْسَانِ، وعَدَمِ تَطَلُّعِهِ إلى احتِمالاتِ المستقبل الّذي لم يَصِلْ إلَيْهِ امْتِدادُ رُؤيَتِهِ الفِكْرِيَّة، ومِنْ شدَّةِ تَعَلُّقِ نَفْسِه بالْعَاجِلَة وَحُبِّهِ لَهَا، الأَمْرِ الّذي يَمُدُّ غِشَاوَةً على بَصِيرَته، وقد يكونُ بعض هؤلاء من الذين يؤمنون باللّهِ واليوم الآخِر، فكيفَ يكون حال الذين لا يؤمنون باللّهِ واليوم الآخر.

وقد جاء هذا الدَّرْس بَعْدَ بيان عاقِبة الّذين لَا يُؤْمِنُون بالآخرة، وفيه إشعارٌ بأنّ بني إسْرَائيل الّذين تَحدَّث الدَّرْسُ الثاني من دُروس السُّورَةِ عنهم، مُبَيِّناً أَنَّهُمْ سَيَفْسِدُون في الأرض مَرَّتَيْنِ كُبرَيَينِ، وسَيَعْلُونَ عُلُوًّا كبيراً، وسَيُعَاقِبُهُم اللّهُ علَىٰ ذلِكَ كما سَبَقَ شَرْحه، يُعَانُونَ مِنْ دَاءٍ نَفْسِيٍّ خَطِيرٍ، جُرْثُومَتُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَيَذَرُونَ أَوْ يَكْفُرُونَ بالآخِرَة، ويَتشَبَّثُونَ بالمال والشهوات ورَغباتِ الْعُلُوِّ في الأرض، على خِلَافِ مَطْلُوبِ اللّهِ مِنْ عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

وبهذا انْكَشَفَ لنا الرّبطُ الفِكْرِيُّ بيْنَ هذا الدَّرسِ وبَيْنَ سَابقَيْهِ الثاني والثالث.

التدبّر التحليلي:

• ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾:

حذفت الواو من «يَدْعُو» في كتابة المصحف مراعاة لسقوطها في الوصل.

مقدّمة:

• يحبّ الإنسان شيئاً اغْتِرَاراً بما يتَهَيّأُ له منه، أو طلباً لِلَذَّةٍ عاجِلَةٍ تحْصُل لَهُ مِنْهُ، ولَكِنَّهُ قَدْ يكونُ بَعْدَ ذَلِكَ شَرًّا عظيماً له.

• ويَكْرَهُ الإنْسَان شيئاً نُفُوراً ممّا يَتَهَيّأ له فيه، أو تجافياً عَنْ أَلَمٍ عاجلٍ يحْصُل لَهُ مِنه، ولكن قد يكونُ الشيْءُ الّذِي كَرِهَهُ خيراً عظيماً له.

وقد نَبَّهَ اللَّهُ عزَّ وجلّ على هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

أي: واللَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَ إحَاطَةٍ للماضِي والحاضِرِ والْمستَقْبَل، وللظاهِرِ والباطن، وأنتم لا تَعْلَمُونَ مِنْ هذا الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلاً جدًّا.

والسَّبَبُ أنَّ نظرَة الإنسان إلى الأشياءِ نظرةٌ قَصِيرَةٌ سطحيَّة عَجْلَىٰ، فهو لا ينْظُر بعُمْقٍ وَشُمُولٍ، وَلَا تَمْتَدُّ رُؤْيَتُهُ الفِكْرِيَّة إلى احْتِمَالَاتِ المسْتَقْبَل، وتَجَارب الآخرين من الناس، إلى حقيقة ما يَسْتَثير عوامل حُبِّه، أو يَسْتَثير عوامل كراهيته.

أمثلة:

(١) يُعَاقِرُ بعضُ النَّاسِ الْخَمْرَة أو المخدّراتِ لتَحْصِيل لَذَّةٍ عَاجِلَةٍ أو اغْتِرَاراً بالْحُصُولِ عَلَيْها، لكِنَّهُ في حقيقة أَمْرِه يتجرَّعُ سُمًّا يَظْهَرُ أثَرُهُ الْمُعَذِّبُ لَهُ بَعْد حِين.

فالشيءُ الّذِي رآه بتَعَجُّلِهِ خيراً لَهُ، هو في حقيقَتِهِ شَرٌّ له.

(٢) ويُحِبُّ اللِّصُّ اسْتِلَابَ أمْوَالِ النَّاسِ بغير حقّ، إذْ يَرَىٰ هذا أعْجَلَ وَسِيلَةٍ لاكْتِسَابِ الثَّرْوَةِ الكبيرة، لكِنَّ لُصُوصيَّتَهُ تَجْلُبُ لَهُ شرًّا كبيراً وعَذَاباً أليماً.

فالشيْءُ الَّذِي رآه بتَعَجُّلِهِ خيراً لَهُ، هو في حقيقته شرٌّ له.

(٣) ويَعْشَقُ شابٌّ غِرٌّ إحْدَىٰ الفاسِقَاتِ الماجِنَاتِ اللّعُوب، ويَطْلُبُ بإلْحَاحٍ أنْ يَتَزَوَّجها، ظانًّا أنَّهُ إذَا تَزَوَّجها نَالَ خيراً عظيماً، وَلَا يَسْمَعُ فيها نُصْحَ نَاصِحٍ مُجَرِّبٍ حكيم. لكنَّه مَا يَلْبَثُ بَعْدَ أنْ يَتَزَوَّجها حَتَّىٰ يَبْكِي بكاءَ الثَّكْلَىٰ مِنَ الشّرّ المسْتَطير الّذي جلَبَتْهُ إلَيْه هذه الماجنة، وعِلّتُهُ أنَّهُ طَلَبَ اللّذَة العاجلَة، ولم يَنْظُرْ إلى المستقبل الّذي حذّرَهُ مِنْهُ أهل الْعَقْلِ والرُّشْدِ والتجارب.

فالشيءُ نَفْسُه الّذي رآه بتعجُّلِهِ خيراً له، هو في حقيقته شَرٌّ له.

(٤) وأكثر النّاس يحبُّونَ لذَّاتِهم من الحياة الدّنيا وأنواع متاعها، ويغترُّون بزيناتها، فيَتْرُكُونَ الآخرة وما فيها من نعيم عظيم خالد، وقد يكْفُرون بها، فيكونُ مَا أحَبُوه من الدنيا شرًّا مسْتطِيراً، وجالباً لهم في آخِرَتِهِمْ عذاباً كبيراً.

وفي كلّ هذا يُقَالُ للمتَعَجِّلِ المغرور: طلَبَ لنَفْسِه الشرّ في حقيقة الأمْر، بطَلَبِهِ لنفْسِه ما رآه بتَعَجُّلِهِ وقِصَرِ نَظَرِه خيراً له.

وأضرِبُ مثَلاً قصّة أمِير طَلَبَ عَسَلاً مُذَاباً بالماء، فَدَسَّ فيه بعْضُ أعدائه سُمًّا قَاتلاً، فَشَرِبَه مُتَلَذِّذاً به.

فقال أعرابيٌّ فصِيحٌ عَلِمَ بالأمْرِ شعراً:

مَنْ سَيَحْمِي نَفْسَ الأمِيرِ وَقَدْ ... شَرِبَ السُّمَّ شُرْبَهُ الْعَسَلَا

أي: شَرِبَ السُّمَّ في حَقيقَةِ الأمْرِ شُرْبَهُ الْعَسَلَ في ظَنِّهِ واعْتقاده.

ونَسْأَلُ نَحْوِيًّا مُتَمكِّناً: كيف تُعْرِبُ «شُرْبَهُ الْعَسَلا»؟.

فيقول: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُبَيِّنٌ للنوّع، وأصْلُ العبارة: شَرِبَ شُرْبَ مَزِيج ماءٍ وعَسَلٍ، لكنَّهُ كانَ في الواقع مُخْطِئاً في تقديرِه، إذْ شَرِبَ في حقيقة الأمْرِ سُمًّا، فجاء التعبير الموجز: شَرِبَ السُّمَّ شُرْبَهُ الْعَسَلَا.

بَعْدَ هٰذِهِ المقدَّمَةِ يَسْهُلُ علَىٰ المتَدَبّر فَهْمُ النّصّ القرآنيّ، في آيَةِ هذا الدرس.

فالمعنى: وَيَدْعُو الإنْسَانُ بالشَّرِّ في حقيقةِ الأَمْرِ الخافِيَةِ عليهِ، دُعَاءَهُ بالْخَيْرِ الّذي يَتَهَيَّأُ لَهُ بتَعَجُّلِهِ وَقِصَرِ نَظَرِهِ وَعَدَمِ شُمُولِ مَعْرِفَتِهِ. والسَّبَبُ كَوْنُهُ عَجُولاً يَتَّبعُ أَهْوَاءَهُ وشَهَواتِهِ، فتُلْقِي غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِه.

وقياساً على المثال الذي ذكَرْتُهُ آنِفاً يُمْكن إعرابُ «دُعَاءَهُ بالْخَيْر» مَفْعُولاً مُطْلقاً مُبيّناً للنّوع، وبهذا يظْهَرُ معنى الآيَة ظُهوراً واضحاً خالياً من إشكالاتٍ تَرِدُ عليه.

وفعل: «يَدْعُو» بمعْنَىٰ يَدْعُو رَبَّه، أو يَطْلُبُ على أيّ وَجْه، يُقَال لغة: «دَعَا بالشّيء، دَعْواً، ودَعْوَةً، وَدُعَاءً، ودَعْوَىٰ» أي: طَلَب إحضارَه، أَوْ إيجاده، أو فِعْلَهُ، أَوْ نحو ذلك.

الإنسان: المرادُ به هنا جنْسُ الإنسان بوَجْهٍ عَامّ، ومَا جاء في هذه الآيَة ينْطَبِقُ على أكْثَرِ الناس لَا على جميع أفرادهم، لأنَّ مَنْ آتاه اللَّهُ عَقْلاً وَرُشْداً وبَصِيرَةً واعِيَةً، فإنَّهُ إذا رَغِبَ في شيءٍ دَعَا رَبَّهُ قائلاً: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ في هذا الشيءِ خَيْرٌ لي في دِيني وَدُنْيَاي وعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَيَسِّرْهُ لي، واقْضِ لي به، وإنْ كان فيه شَرٌّ لي في ديني ودُنيايَ وعاجلِ أَمْرِي وآجِلِهِ، فاصْرِفْهُ عَنّي واصْرِفْني عَنْهُ، واقْدُرْ لي الْخَيْرَ حَيْثُ كان، ثم رَضّني به، أو نحو هذا الدُّعاء.

وإذا ضاقَتْ عليه الحياة وتكاثَرَتْ علَيْهِ الآلام وَرَغِبَ في الموْتُ

قال: اللَّهُمّ أحْيِنِي مَا كانت الحياةُ خَيْراً لي، وأَمِتْنِي إذَا كانَ الموتُ خيراً لي.

وقد سَبَقَ بيانُ صِلَةِ هَذا الدَّرْسِ بما قَبْلَهُ، بخُطُوطٍ فِكْرِيَّةٍ غير مُعَبَّرٍ عَنْهَا بالألْفَاظ.

وبهذا تمّ تدبّر الدَّرْس الرابع من دُروس سورة (الإسراء) والحمْدُ لِلَّهِ على مَدَدِه، وتوفيقِهِ، وفَتْحِهِ، وإلْهَامَاته.



(٩)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الإسراء) الآية (١٢)

قال اللَّه عزّ وجّل:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

تمهيد:

هذا الدّرس يتضَمَّنُ تَذْكيراً بآيَتَيْنِ منْ آيات عنايَة اللَّهِ عزَّ وجلّ بِعبَادِه في الأرْضِ، في حَيَاةِ الابْتِلَاء، أَوْ تَنْبيهاً عَلَيْهِا بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ تَلَقَّىٰ تَنْبِيهاً عَلَيْهِما.

وهما آيتا اللّيل والنهار، إذْ جَعَلَ الخالِقُ الرَّبُّ الحكيم فيهما للنَّاسِ منفعَتين عظيمتين:

الأولى: أنْ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِم في الأَعْمال التي يَقُومُونَ بها لمصالح دُنياهم.

الثانية: أَنْ يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحسابَ، بعَدِّ الأيّام الّتي تمُرُّ عليهم.

وقَدْ أنهى اللّه عزّ وجلّ هذا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

وهذا الدّرْس مُتَّسِقٌ مع مَنْهَج القرآن في السُّور القائم على التَّنْبِيه أو التَّذْكير بآيات رُبُوبيَّةِ اللّهِ في كَوْنِهِ وَأَحَدِيّتِه فِيها، الَّتي يَلْزَمُ عَنْها عقلاً تَوْحيدُهُ فِي الإلٰهيّة، وعلى التَّنْبِيهِ أو التّذْكير بآيَاتِ نَعَمِ اللّهِ عَلىٰ عبادِهِ وعِنَايَتِهِ بِهِمْ في دار الحياة الدنيا، حَيْثُ وَضَعَهُمْ فيها مَوْضِعَ الابتلاء، لاسْتثارَةِ دَوافعِهِم لأداء واجب شُكْرِ اللّهِ علَىٰ نِعَمه الكثيرة.

وخَطُّ هذا التَّنْبِيهِ والتَّذْكِير مُتَّصِلٌ اتِّصَالاً تكامُلِيّاً في مُعْظَم السُّوَرِ، ومُتَتَابِعٌ في مُعْظَم نُجُومِ التنزيل، اهتماماً بتوحيد الرَّبُوبيَّةِ وتوحِيد الإِلٰهيَّة للّٰهِ عزَّ وجلَّ إذْ هُمَا القضيَّتَانِ الأُولَيان من قضايا أركانِ الإيمان.

ونظراً إلىٰ مَبْلَغ العِنَاية بآيَتي اللَّيلِ والنّهار، جاء في القرآن التنبيهُ عَلَيْهما والتذكير بهما من جوانب مختلفة، في (٣٨) نصّاً مُوَزَّعَةٍ في (٣٤) سورة، ودراسَةُ هٰذِهِ النُّصُوصِ بتأمُّل وإمعانِ نظر، يتطلّب إفراداً لها في بحث خاصٍّ عسَىٰ أَنْ يفتح اللّهُ عليَّ بهِ في مُلْحَقٍ من ملاحق تدبُّرِ السّور.

التدبّر التحليلي:

● ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾: العطْفُ في هذه الجملة هو من قبيلِ عَطْفِ مَوْضُوعٍ علَىٰ مَوْضوع سَابِقٍ يَلْتَقِيان في كَوْنِهما مِنْ آثار خَلْقِ اللّه وتَدْبيراتِه وتَصاريفهِ الحكيمة في كوْنِه.

أي: وَقَصَدْنَا بِخَلْقِ اللّيلِ والنّهار، وأَسْبَابِ تَدَاوُلِهِمَا بإِتْقَانٍ بالِغٍ عجيب، مُرْتَبِطٍ بحَرَكَةِ الأَرْضِ حَوْل نَفْسِها باتّجاهِ الشّمْسِ، ضِمْنَ بُعْدٍ

بَيْنَهُما مُحْكَمِ التدبير، وسَبْحٍ في مَدَارٍ لَا تَحِيدُ عَنْهُ دقيق الْمِسير، أَنْ يَكُونَا آيَتَيْنِ دالَّتَيْن عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِنَا الَّتي لَا يُشَارِكُنَا فيها أَحد، وعلَىٰ عِنَايَتِنَا بِعبادِنَا الّذِين جعَلْنَا الأرض مَكَانَ سُكْنَاهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الأُولَىٰ.

الآية: العلامَةُ الظاهرة الدَّالَّةُ عَلَىٰ أَمْرٍ ما.

- ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

مَحْوُ الشيء: إذْهابُ أثره. يقال لغة: «مَحَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ» أي: أَذْهَبَتْهُ ولَمْ تُبْقِ له أثراً.

ومَعْلَومٌ أنَّ اللَّيْلَ هو مَحْوٌ لِلْمَرْئِيَّاتِ عَنْ أَنْ تُرَىٰ بالأبصار، بَسبب ذهَاب الضَّوْءِ الْكَاشِفِ لها. لكِنْ إذَا بَقِيَ ضَوْءٌ مَا، أَوْ نُورٌ ما، كَنُور القمر، أو أضواء النجوم، فإنَّ المِقْدَارَ الّذي أصَابَهُ المحْوُ من المرْئيَّات هُوَ اللَّيلُ في الْحَقِيقَة، لأنّ اللَّيل مَحْوٌ، وحينَ يَنْعَدِمُ كُلُّ ضَوْءٍ أَوْ نُورٍ كاشِفٍ فهُو لَيْلٌ كامِل، ودُونَ ذلِك يُسَمَّى ليلاً باعْتِبار النِّسْبَةِ الغالِبَة التي أصابَهَا مَحْوُ الرُّؤيَة.

مُبْصِرَة: أي: مُسَبِّبَة لإِبْصَارِ أصْحَابِ الْعُيُونِ السّلِيمَةِ الأشياءَ القابِلَة لأَنْ تُبْصِرَها، قال أبو إسحاق: مَعَنىٰ: «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهم، وقال الأخْفَشُ: تُبَصِّرُهم فتجعَلُهُمْ بُصَراء، وهذا المعنى هو الملائم هُنَا فيما أرَىٰ.

المعنى؛ فجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ مَحْواً للمرْئِيَّاتِ عَنْ أن تُرَىٰ بالأبْصَارِ، بَسَببِ انْعِدَام الكاشفِ لها من ضياءٍ أو نُور، وجَعَلْنَا آيَة النَّهَار مُسَبِّبَة لإِبْصَارِ أصْحاب الْعُيونِ السّلِيمَة لها.

ولكلّ من المحوِ والكَشْفِ مَنَافِعُهُ الْجَلِيلَةُ بِالنّسْبَةِ إلى الناس.

- ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: هذه العبارة جاءت لبيان إمْكَانِ ابْتغاءِ الرِّزْقِ وغيره من فَضْلِ اللَّهِ في كُلٍّ مِنَ اللَّيل والنّهار، دُونَ حَرَج، فيما أرى.

لكِنْ جاء في نُصُوصٍ كثيرة الإرْشادُ إلى اختيار أَنْ يكُونَ اللَّيلُ سَكناً، وأَنْ يكونَ النهار مَعَاشاً للعمل في اكتسَاب الأرْزاق، فإنَّه الأفضل للصحة، والأكثر ملاءمة لطبيعة الحياة في الأرْضِ ولِنظَامها على ما خلق اللّهِ.

• ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾:

أي: إنَّ توالي اللَّيْلِ والنَّهارِ مُتَدَاوِلَيْنِ مِنْ فوائِدِه، عِلْمُ عَدَدِ السِّنين الْقَمَرِيَّة والشَّمْسِيَّة، إذْ نِظَامُ تداوُلِ اللّيلِ النّهار لَهُ ارْتِباطَانِ:

أحَدُهُما: ارتبَاطٌ بالْقَمَرِ بَدْءاً بظُهُورِهِ، هِلَالاً وتزايُدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ بَدْراً، وتناقُصِه حتَىٰ لَيْلَةِ الْمحَاق، وبهذا يَتِمُّ شَهْرٌ قَمَرِي، وبِمُرُور اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً تَكُونُ قَدْ مَرَّتْ سَنَةٌ بَالْعَدِّ الْقَمَرِيِّ لِلأَشْهَرِ، والسنة القمرية تعادل (٣٥٤) يوماً تقريباً.

ثانيهما: ارتباطٌ بالأرض إذْ تَدُور حوْلَ نفسها دَوْرَةً كامِلةً في:

ثانية	دقيقة	ساعة
٤,٠٩	٥٦	٢٣

باتّجاه الشمس، وهٰذِه المدّة تُسَمَّى اليوم النجمي.

وتَدُورُ في مَدارِ حوْلَ الشمْسِ في زَمَنٍ قدرُه:

ثانية	دقيقة	ساعة	يوم
٩,٥٤٠	٩	٦	٣٦٥

وهذه المدة تُسَمَّىٰ السَّنَة الشّمْسِيَّة.

وحينما يَعُدُّ النَّاسُ الأيام ويُلاحِظُونَ ارْتِبَاطَها بالأرض والقمر والشمس، يَعْلَمُون عَدَدَ السَّنين القمريّة، وعَدَد السِّنينَ الشمسيَّة، ومُلاحَظَةُ دَوْرَةِ الأَرْضِ حَوْل نَفْسِها وحَوْل الشّمْس، ودَوْرَةِ الْقَمَرِ حول نَفْسه وحَوْل الأرْضِ، تفْتحُ مجالاً واسِعاً أَمَامَ أصْحَاب الأذهان الرّيَاضِيَّةِ، لتَعلُّمِ الْحِسَابِ ذي الشجَرَة الفِكْرِيَّةِ العظيمة، ذاتِ الفُروعِ الكثيرةِ الْمُمْتَدَّةِ في أبْعَادٍ غير ذاتِ نهاية.

الحسَاب: الْعَدُّ لكلّ ما هو قابلٌ لِأَنْ يُعَدَّ، وهذا عنوان لكلّ الْعُلوم

الرياضية الَّتي تَعْتَمِدُ الْعَدَدَ أسَاساً لأعْمَالها، وتَدْخل فيها الهندسيات، وحسابات السُّرْعَات على اختلافها، وهذا العلم بَحْرٌ لا سَاحِلَ له يَدْخُلُ في كلّ العلوم التي تُسَمَّى علوماً طبيعيَّة أو فلكيَّة أَو نحْوَهَا.

• ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾:

التَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ، وكَشْفُ حُدُودِ الأجْزَاء المتلاصِقَةِ بإظْهارِ ما بَيْنَها من انْفِصَالٍ، ولَوْ لَم يكُنْ مَرْئيّاً، لتَمْيِيزِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْراكِ الْفِكْرِي.

أمّا خَلْقُ اللَّهِ عزّ وجلّ في كوْنِه فَهو قائمٌ على التفصيل الدقيق، حتَّى لَا تَطْغَىٰ ذَرَّةٌ، علَىٰ ذَرَّة، ولا خَلِيَّةٌ علي خَلِيَّة، ولا نَجْمٌ على نجم، ولَا كَوْكَبٌ على كوكَب، ولَا نَجْمٌ علىٰ كَوْكب، إلّا بإرادة العزيز الجبَّار. وبهذا التفصيل الدقيق ذي الضوابط الرَّبّانيّة القاهِرَة، لَا تَسْتطِيعُ الشمسُ على الرُّغم مِنْ جاذِبيّتِها العظيمة أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَر، وتَجْذِبَهُ إِليها وتَبْتَلِعَهُ، ولَا تَسْتَطِيعُ الأرضُ أن تَجْذِبَ بقوّة جاذبيتها القمر إليها، وتجعَلَهُ جزْءاً منها. ولَا تَسْتطِيعُ شُمُوسٌ عظيمةٌ أعْظَمُ مِنْ شمْسِنَا أَنْ تَجْذِبَ بجاذِبيَّاتها مجموعتنا الشمسيَّة.

كذلك كتابُ اللَّهِ القرآن المنزّلُ هُدىً للعالَمين، هو أيضاً مُفَصَّلُ الْبَيان تفصِيلاً مُحْكماً، في كلّ القضايا الّتي تتعلَّقُ بها هِدَايَةُ العباد، إلى النجاة والفوز والفلاح يوْمَ المعاد.

فجاءت هذه الجملةُ الكليَّة مناسبة لما جاء في هذا الدرس الخامس، ومناسبة لما جاء في الدرسَيْن الثالث والرابع قبله، مع أنّها ذاتُ عُمُومٍ شامل يشمل الكونيّات، والبيانات المنزَّلَات.

لفظ ﴿كُلَّ﴾ منصوبٌ بفعلٍ يُفَسِّرُه ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ لاشتغاله بالْعَمَلِ بضميره عنه، كما يَرَىٰ النحويون.

وبهذا تمَّ تدبُّر الدرس الخامس من دروس سورة (الإسراء) والحمد للّه على معونته وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبر التحليلي للدّرس السادس من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٣ - ١٧)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ أَبو جَعْفر: [وَيُخْرَجُ] بضم الياء وفتح الراء بالبناء لما لم يُسَّم فاعله. وقرأ يَعْقُوب: [وَيَخْرُجُ] بفتح الياء وضم الراء على أنّ الفاعل ضمير يعود على طائر. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بالنّون المضمومة مع كسر الراء على أنَّ الفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

والمؤدّىٰ من هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّنِ في التعبير.

(١٣) • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [يُلَقَّاهُ] أي: يُوَجَّهُ لَهُ لِيستَقْبِلَه ويَلْقَّاهُ. وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةُ: ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أيْ: يَسْتَقْبِلُهُ وَيَتَنَاوَلُه. وبين

القِراءتين تكامل في الأداء البيانيّ، أي: يُوجَّهُ له من قِبَلِ الملائِكَة فيَتَناوَلُهُ ويَلْقَاه.

(١٦) • قرأ يَعْقُوب: [ءَامَرْنَا] بمَعْنَىٰ كَثَّرْنا، يُقالُ لغة: «ءَامَرَ اللَّهُ القومَ إيمَاراً»، أي كثّرَ نَسْلَهُمْ ومَاشيتهم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿أَمَرْنَا﴾ أي: وجّهْنَا لهم أمْراً تكليفيّاً إلْزامياً. ويأتي أيضاً بمعنى: كثرنا مثل: «ءَامَرْنَا» فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدّرْس يَشْتَمِل على فِقراتٍ من قانون الجزاء الرَّبّاني المعجّل والمؤجّل، لِلمَوْضوعين في الحياة الدنيا موضع الإبتلاء.

وصِلَتُهُ بما جاءَ في دروس السورة قبله واضحة، فالدَّرْسُ الثاني جاء فيه إنذار بني إسرائيل بعقاب اللَّهِ المعجَّل والمؤجّل، والدّرس الثالث جاء فيه بيان ما اشتمل عليه القرآن المجيد من هدايةٍ، ومِنْ بَيانِ ثواب الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات يوم الدّين، وعقابِ الذين لا يُؤْمِنون بالآخِرةِ بالْعَذَاب الأليم يوم الدين. والدرسُ الرابع جاء فيه بيان السّبَب الصارِفِ للإنسان عن العمل للأخِرَةِ، والدرسُ الخامس جاء فيه تذكيرٌ ببَعْض آيات اللَّهِ الدَّالَّة على وحْدَانيَّتِه في ربوبيته ووحدانيته في إلَهيَّتِه، والدّالَّةِ على عِنَايَتِه بعبادِهِ الَّتِي تُوجِبُ عليهم أن يَعْبُدوه وحْدَه، وأَنْ يَشْكُرُوه على ما أوْلَاهُمْ من نِعَم، لِيَقِيَهُمْ عذابَهُ، ويَمْنَحَهُمْ ثوابَهُ في جَنَّاتِ النعيم.

التدبّر التحليلي:

يشتمل هذا الدرس على بيانٍ مُوجزٍ لعشْرِ قضايا تتعلّقُ بالجزاء الرَّباني وهي ما يلي:

الْقَضِيَّة الأُولَىٰ: دَلّ عليها قولُ اللَّه عزّ وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾:

أي: وَكُلَّ إنْسَانٍ مَوْضُوعٍ فِي الْحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، لأنّ الموضوع يتعَلّقُ بإلْزَامِهِ عَمَلَه لمحاسَبَتِه عليه ومجازاته.

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي أثْبَتْنا مَسْؤُوليَّته عَن عَمَلِهِ في عُنُقِهِ إثباتاً دائماً، يقال لغة: «أَلْزَمَ الشَّيْءَ» أي: أثْبَتَهُ وأدامه. ويقال: «أَلْزَمَ فُلَانَا الشَّيْءَ»: أي: أثْبَتَ الشيْءَ به إثباتاً له صفةُ الدوام.

أُطْلِقَ لفظ «طَائِر» على مَا يَكْسِبُهُ الإنسان في رِحْلة امتحانِهِ فِي الْحَيَاة الدُّنْيا، من عَمَلٍ جَسَدِيٍّ أَوْ نَفْسِيّ، على سبيلِ الإستعارة.

لأنَّ قُدْرَة الإنسانِ على الكَسْبِ الإرادِيّ الظَّاهِرِ والباطِنِ تَكُونُ حبيسَةً في ذَاته، كالطائر في القَفَصِ، وحينَ يَعْمَلُ الإنْسَانُ عَمَلَهُ الإرادِيّ الَّذي يُحَاسَبُ عليه عند رَبّه، فإنَّهُ يَطِيرُ مِنْ ذاتِهِ الّتي هي قَفَصُهُ، فإذا طَارَ لَمْ يَسْتَطِعْ إعادتَهُ إلى قَفَصِه، لَكِنْ تَبْقَىٰ مَسْؤُوليَّتُهُ عَلَيْهِ، مُلَازِمَةً له، مَا لَمْ يَغْفِرْها اللَّهُ أو يَعْفُ عَنْها، بطَائِرٍ آخرَ هُوَ كَسْبٌ حَسَنٌ قد يمْحُو اللَّهُ بِهِ أثَرَ الكَسْبِ السَّيِّئ، على قاعدة: «إنَّ الحسَنَاتِ يَذْهِبْنَ السَّيِّئَات».

وذُكِرَ لفْظُ «عُنُق» في عبارة ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ كِنَايَةً عَنْ كُلّ ذَاتِ نَفْسِه، وذلك لأنَّ الأسِير يُوضَعُ الْغُلُّ فِي عُنُقِهِ والمرادُ حَبْسُ ذاتِهِ عن الْفِرار، وكذلِكَ الْمُجْرِمُ إذَا أُخِذَ وأُرِيدَ قَوْدُهُ إلى سِجْنِهِ أوْ عِقَابِه.

وإعْرَابُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ﴾ نظير: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ على ما ذكَرْتُ في آخر الدَّرْس السابق.

الْقَضِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾:

دلَّت هذه القضيَّةُ علَىٰ إحْدَىٰ وَسَائِلِ الإثبات الَّتي تُقَدَّمُ لَهُ يَوْم القيامة، ليجْرِيَ حِسَابُهُ على كَسْبِه الإراديّ في رِحْلَة امْتِحانه، ولِيَجْري فَصْلُ الْقَضَاء بشَأنه، محسناً كان أم مُسِيئاً، أخْذاً مِنْ واقع كتابِهِ الْمُسَجَّل عليه، ثُمَّ تكُونُ مُجازاتُهُ تنفيذاً لما قضىٰ ربُّهُ بِشَأْنِه.

ولَسْنَا نَدْرِي صِفَة هٰذا الكتاب، لَكِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَىٰ مَا هُوَ مُطابِقٌ مُطَابَقَةً تَامَّةً لواقع حَيَاتِهِ في الدنيا، صُورَةً وصَوْتاً ونيَّاتٍ، وأعمالاً نَفْسِيَّةً باطِنَة، كالكفر، والحِقْدِ، والحسَد، وإرادَةِ الشّرّ، في جانب السّيِّئات، وكذٰلِكَ ما يُقَابلها في جَانِب الحسنات.

يُعْطَىٰ الإنسان كتابَهُ، فإنْ كان مِنْ أَهْلِ الْيَمين فإنَّهُ يُعْطَاهُ من أمامه بيَمِينِه، وإنْ كان من أهل الشّمال فإنَّهُ يُعْطَاه بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاء ظَهْرِه، فَهُو يَلْقَاهُ حِينَ يُلَقَّاهُ مِنْ مُوَظَّفِي التوزِيعِ، فَيَجِدُهُ مَنْشُوراً، أي: مَبْسُوطاً أَمَامَ عَيْنَيْهِ، كصَفْحَةٍ واحِدَةٍ يُشَاهِدُ فيها سِجِلَّ حَيَاتِه كُلِّها، إذْ يَلْقَاهُ مَنْشُوراً.

القضيَّةُ الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

الْحَسِيب: المحاسِبُ الَّذِي يَعُدُّ على مَنْ يُحَاسِبُهُ مَا هو له، ومَا هُو عَلَيْه، بِحَسَبِ المقادِير الدقيقَةِ الَّتِي لا زيادَةَ فيها وَلَا نَقْص.

أي: وَبَعْدَ أَنْ يُعْطَىٰ كِتَابَهُ المشْتَمِلَ عَلَىٰ صُورَةٍ كامِلَةٍ لحياته في رِحْلَةِ امْتِحَانِه، يُقَالُ لَهُ مِنْ قِبَلِ مَنْ سَلَّمَهُ الكِتابَ من الملائكة، إقْرأْ أَنْتَ كِتَابَكَ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ على ما كسَبْتَ بإرادتِكَ فِي الحياة الدُّنيا، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْمَفْطُورَةِ عَلَىٰ الصِّدْقِ والأَمَانَةِ الْيَوْمَ حَسِيباً علَىٰ ذَاتِكَ، بِشَأْنِ مَا قَدَّمْتَ في رِحْلَةِ امْتِحَانك، ولو جادَلَ لسانُك، ولَوْ كَذَبْتَ وَأَلْقَيْتَ مَعَاذِيرَكَ طَامِعاً بأنْ تُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِكَ الْعَذَابَ. بالجدَالِ بالباطل، إنَّك في قرارة نَفْسِكَ ستَعْتَرِفُ بِكُلِّ ما هُوَ مُسَجَّلٌ عَلَيْكَ فِي كِتَابِكَ، أمَّا ما هو لَكَ من

صالحاتٍ، فَسَتَجدُه مُضَاعَفاً أضعافاً كثيرة، وأمّا مَا هوُ علَيْكَ مِنْ سَيّئات فلا تجدُ في شيءٍ مِنْهُ ظلماً لك.

القضيّة الرابعة: دَلّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾:

أي: مَنِ اختارَ لنَفْسِهِ بإرادَتهِ الحرَّة أَنْ يَهْتَدِي، ومشَىٰ في حيَاته على صراط اللَّه، مُتَّبِعاً مَا أَنْزَلَ لِعبَادِهِ من آياتٍ بَيّنَاتٍ، فإنَّه لَا يَهْتَدِي إلّا لمَصْلَحَةِ نَفْسِه، إذْ هُوَ المستفيدُ الوحِيدُ من سُلُوكِه سبيل الْهُدى، فالأَجْرُ الّذِي أعَدَّهُ اللَّهُ للمهتدين يوم القيامة، يُوزَّعُ على أفرادِهم بِحَسَبِ وَاقِعِ حَالِ كلٍّ مِنْهم، ولَا يُعْطَىٰ من نَصِيب المهتَدِي العامل قَرِيبٌ وَلَا حَبِيبٌ مَهْما اشْتَدَّتْ قَرابَتُهُ، ومَهْمَا عَظُمَ حُبُّهُ له.

وقد جاءت العبارة بأسلوب الحصْرِ بأداة «إنما».

وجاءَ فِعْل: [يَهتَدِي] بصِيغَةِ الفعل المضارع للدَّلاَلَة على مَسِيرَتِه المتجدّدَةِ المتكرِّرَةِ على صِرَاط الْهُدَىٰ، بَعْدَ خُطْوَةِ الْهِدَايَةِ الأُولى الّتِي تَحقَّقَتْ بالإيمان والإسلام الصَّحِيحَيْن الصّادِقَيْن.

القضيّة الخامسة: دلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ﴾:

أي: وَمَن اخْتَار لنَفْسِه بإرادَتِه الحرَّة أَنْ يَضِلَّ بَعِيداً عن صِرَاطِ اللَّه، وسَالكاً سُبُلَ الضَّلَالِ، مُتّبِعاً أهْواءَهُ وَشَهواتِهِ وَوَسَاوِسَ شياطِين الإنْسِ والجنّ، فإنَّهُ لَا يَضِلُّ إلَّا جَانياً على نَفْسِه، ومُسَلِّطاً علَيْها نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابه، وهو وَحْدَه المجْنِيُّ عَلىٰ نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِه، وَلَا أَحدَ يَنالُهُ ضَرَرُ ضَلَالِه. ومَنْ اتَّبعَهُ باختياره الحرّ فإنَّ المتّبِعَ يَجْني عَلَىٰ نَفْسِه بما كَسَب من شَرٍّ، وحِينَ يكُونُ للمتْبُوع تأثيرٌ مَا على التابع في سُلُوك سُبُلِ الضّلال، فإنَّهُ يَحمِلُ إثْمَ ضَلَالِهِ ويَحمِلُ إثْمَ إضْلَالِهِ لِغَيْرِهِ، دُونَ أَنْ يُخفِّفَ هذا من إثْم

التّابع، لأنَّهُ قَدْ كانَ في اتّباعه حُرّاً مُخْتاراً، ولَمْ يَكُنْ مُكْرَهاً ولَا مَجْبُوراً.

القضيَّة السادسة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

سبق مُطابق هذه العبارة في الآية (١٨) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف ٤٣ نزول) بَياناً للمسؤوليَّة الشخصيَّةِ في قانون الجزاء الرَّبّاني.

المعنى: ولا تَحْمِلُ نَفْسٌ وازِرَةٌ من شأنها أَنْ تَحْمِلَ أَوْزَارَهَا الّتِي تَكْتَسِبها، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرىٰ قَدْ حَمَلَتْ بِمَا اكتسبَتْ أَوْزَاراً وذُنوباً.

الوِزْر: لُغةً الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، ومن الأحمال الثقيلة أسْلِحَةُ الحرب، ولَمَّا كان ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإِثْمِ مِمَّا يَتَحَمَّلُ به الإنْسانُ مَا يُشْبِهُ الحِمْلَ الثقيل، أُطْلِقَ في اللُّغَةِ لفظ «الوِزْر» علىٰ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكَلَّفُ المختَارُ، المسؤُولُ عن أعْمَالِهِ الإراديَّة.

وجمْعُ الوِزْرِ «الأوزار» يُقَالُ لغة: «وزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوَزْراً، وَزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثقيلاً، أو ارْتكَبَ ذَنباً يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عِقَابٌ، فهو «وازِرٌ» وهي «وازِرَة».

القضيَّة السَّابعة: دَلَّ عليها قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾:

دلَّتْ هذه العبارة على أنّ الله عزَّ وجَلَّ قَدْ قَضَتْ حِكْمَتُه أَنْ لا يُعَذِّبَ الموضوعِين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، على عِصْيانهم لأوامِرِه ونواهيه، في الإيمان والْعَمل، حتَّىٰ يُرْسِلَ إليهم رسولاً يُبَيّن لهم ما يجب عليهم تُجاه رَبّهم الَّذِي يُمِدُّهُمْ دَواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّته.

ودَلَّتْ نُصُوصٌ أُخْرى على أَنَّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ بَعَثَ في كلِّ أُمَّةٍ رسُولاً، فَلَا عُذْرَ للأمم.

أمّا الأفراد الذينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعَوَةُ رَسُولٍ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ لَا يُعَذِّبُهم حتَّىٰ يُتِمَّ لهم شُرُوط امْتِحَانِهِ لَهُم، وله سبحانه وتعالىٰ فيهم الاختيار العادل ولا يظْلِمُ اللَّهُ أحداً مثقال ذرَّة.

القضية الثامنة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [ءَامَرْنا] بمَعْنَىٰ: كَثَّرْنا. وقراءة ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى: وَجَّهْنَا لَها أمْراً تكليفياً بفعْل الصَّالحات وتَرْكِ المنكرات، وتأتي بمعْنى كَثَّرْنا.

المترفُون: الذين هم كثيرو الاستمتاع بما أنعم اللَّهُ عليهم من متاع الحياة الدّنيا، والبَطِرُون المستكْبِرون.

والمعنى: وَإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ أَهْلَ قَرْيَةٍ إهْلَاكاً جماعِيّاً في الحياة الدُّنيا، لأنَّ الحِكْمَةَ تقتضي إهلاكهم بسَبَبِ كُفْرِهم وطُغْيَانهم وَفَسَادِهِمْ وإفْسَادِهم، فإنَّ لنَا سُنَّةً لِتَحْقيق هٰذَا الإهلاك.

وهذه السُّنَّةُ تتَلَخَّصُ بأمْرين:

الأمْر الأوّل: أَنْ نُوَجِّهَ لَهُمُ الأوامر والنواهِيَ الصارمة، فنأْمُرَهم بفِعل الصّالحات، ونَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ المنكرات، ونُحَذِّرَهُمْ من الفسْقِ بالخروج عَنْ طَاعَتِنا.

إلَّا أَنَّهُمْ لِسُوئِهِم يَفْسُقُونَ ولَا يُطيعُون، وتَكُونُ الكَثْرَةُ غَيْرُ المتْرَفَةِ فيهم تَابِعَةً لَهُمْ بالتَّقْليد الأعمىٰ، وبالْخُضُوعِ لأكابرهم دُونَ وَعْيٍ منهم.

الأَمْرُ الثاني: أَنْ نُوَسِّعَ عَلَيْهِم في الأَرْزَاقِ والخيراتِ ووافِرَاتِ من متاع الحياة الدنيا وزيناتها، حتَّىٰ يَكْثُرَ مُتْرَفُوهُمْ وَيكُونُوا هُمُ النِّسْبَةَ الْغالِبَة، والذين لم يَكُونوا مُتْرَفِين يَتَحَرَّرُون من تَبَعِيَّتِهم لِلْمُتْرَفين السَّابقين، فَلا تكُونُ على بَصَائِرِهِمْ غِشَاوَةٌ أَلْقَتْهَا سُلْطَةٌ اجْتِمَاعيَّةٌ ذاتُ تَاثير، بَلْ هؤلَاء

يَسْلُكُونَ سبيل سَابِقِيهم اتِّباعاً للأهواء والشهوات، ورَغبات الفجور والْعُلُوّ في الأرض.

ويَصِير المجتَمَعُ بَوجْهٍ عامٍّ مجتمعاً مَيْؤُوساً من إصلاحِه عن طَرِيق إرَادات أفراده الْحُرَّة، ويَتعاظَمُ فيه الْفِسْقُ والْفُجُورُ، والْبَغْيُ والطغيان، والظُّلْمُ والْعُدْوان، وعندئذٍ يكون من الحكمة أنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِم الإهلَاك الْعَامّ الشامل، إذْ تَنْعَدِمُ فِيهم ظُرُوف الامْتِحَانِ السَّوِيّ.

القضيَّةُ التاسِعَة: ذَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾:

جاءَ في هٰذِهِ القضيَّةِ التَّذْكِيرُ بأنَّ اللَّهَ عَزّ وَجَلَّ قَدْ عَاقَبَ بالإهلاك العامّ الشَّامِل أقواماً سَابِقِينَ كثيرين، تَطْبيقاً لمادّةٍ من موادّ قَانُونِ جزائه العام المعَجَّل في الحياة الدُّنيا.

«كَمْ» اسم يقع على عَدَدٍ مَا بمعنى كثير، وهذه تُسَمَّى خَبَرِيَّة، ولإبهامها ودَلَالَتِهَا على مَجْهُولِ الجنْس فهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إلى التمييز، ومُمَيِّزُها هنا عبارة ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

الْقَرْنُ: هو من الناس أهل زمَانٍ واحد، وسُمُّوا قَرْنَا لأنَّهُمْ اقْتَرَنُوا معاً في ذلِكَ الزّمَان.

فالمعنى: وعدداً كثيراً من الْقرون أهْلَكْنَا مِنْ بَعْدِ نوح عليه السلام، أي: ومن بَعْدِ إهْلاكِ قَومه.

القضية العاشرة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: وَلَا تَحْمِلْ أيُّها الدّاعِي إلَىٰ اللَّهِ رَسُولاً فَمَنْ دُونَهُ هَمَّ كَثْرَةِ الكافِرِينَ وَدُعَاةِ الضَّلالِ والفسادِ والإفساد في الأرْض، ولَا تَسْتَعْجِلْ فِي

طلب إهلاكهم، فاللَّهُ رَبُّكَ الّذِي خَلقَهُمْ ووضعهم في الحياة الدنيا مَوْضِع الامْتحَان عليمٌ بأمْرِهم خَبيرٌ بتدابيرهم ومَكْرِهم وكيدهم، بَصِيرٌ بكل مَا يَعْمَلُون، فتوكَّلْ عليه، وسَلِّمْ أمْرَكَ إليه فإنَّهُ يَكْفِي أوْلِياءَهُ شُرورَ أعدائه.

«الباء» في [بِرَبّك] زِيدَ للتوكيد، والأصل، كفى رَبُّكَ.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس السادس من سورة (الإسراء) والحمد للَّه على توفيقه ومعونته وفتحه.



(١١)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٨ ـ ٢١)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبُو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة بالضم. وهما وجهان عربيان في النطق.

تمهيد:

هذا الدرس بتضمّن بيَان سُنَّةِ اللَّهِ فيما يُؤْتي عِبادَهُ من متاعِ الحياة

الدنيا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، على وفْقِ حكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفرادهم.

وهذا الدرس موصول مع دروس السورة السابقة بالخطّ الذي يَنْطَلِقُ من كون الإنْسان المؤهّل للامتحان، موضوعاً في ظروف الحياة الدنيا المختلفة لامتحان إرادَتِه الحرَّة، بَيْن طَريقي الخيروالشرّ.

وهو يجب على أسْئِلَةٍ مَطْوِيَّةٍ غير مَذْكورة في النّصّ، إلّا أنَّه يَسْتَطيعُ المتدبِّر اسْتِنْباطَها مِنَ الجواب عليها، وهذا كثير في القرآن، وفي هذه السّورة شواهد متعدّدةٌ علَيْهِ.

التدبُّر التحليلي:

يتساءَلُ الإنسانُ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ فيما يَمْنَحُ عباده من متاع الحياة الدنيا وزينَتِها وَمَا يُحِبُّونَ مِنْها؟

- هَلْ يَخْصُّ الكافِرين بِمَزِيدٍ من العطاء مِمَّا يُحِبُّون من زينَةِ الحياة الدنيا؟

- هل يَخُصُّ المؤمنينَ بمَزيدٍ من العطاء؟

- هَلْ يَجْعَلُ عَطاءَه بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بكُلّ فَرْدٍ من أَفْرادِ عباده متفاضِلاً، لِيَبْلُوَ كُلَّ فَرْدٍ بمَا آتاهُ بحَسَبِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ فيه؟

فجاء الجوابُ الرَّبَّانيُّ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ هٰذا الدَّرسُ، أنّ عَطاءَ اللَّهِ لِعَبادِهِ مؤمنِيهِمْ وكافِريهم قائمٌ على التفاضُلِ بَيْن الأفرادِ، بحَسَب حِكْمَةِ اللَّهِ وعِلْمِهِ بِكلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهم، ولكنّ هذا الجوابَ جاء مُفَصّلاً مَقْرُوناً ببَياناتٍ دالَّاتٍ على حِكْمَةِ اللَّه، وتَنْبيهٍ علَى الجزاء الّذي أعَدَّهُ يَوْمَ الدِّينِ للكافرين، بحَسَبِ تَنَازُلِ دَرَكاتهم، ولِلْمُؤْمِنينَ بحَسَبِ تفاضُلِ دَرَجاتِهِمْ في الإيمَانِ والْعَمَل.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ يَدُلُّ عليه لفظ ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ في الآية التالية، أي: من أراد الحياةَ العاجلة في الدنيا. **العاجِلَة**: مؤنَّثُ الْعَاجِل، وهو ضدُّ الآجل، وأُطْلِقَتْ في القرآن على الحياة الدُّنيا، واختير هذا العنوان لِيَنْسَجِمَ مع ما جاء في الآية (١١) من وصف الإنسان بأنّه عَجُولٌ.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: قَدَّمْنَا لَهُ فِيهَا عُجَالَةً مِنَ مَتاع الحياة الدُّنيا.

[مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ]: أي: وَمَا نُقَدِّمُ مِنْ عُجَالَةٍ خاضِعٌ لِمَشيئَتِنا الَّتِي لا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا، ونُقَدِّمُه، لِمَنْ نُرِيدُ من عبادِنا، وهذا يَدُلُّ علَىٰ التفاضُلِ في الْعَطاءِ بَيْن الْعِباد.

ومُرِيدُ الْعَاجلَةِ هُوَ الَّذي لا يُؤْمِنُ بالآخِرَة، فَلَا تَعَلُّقَ لِنَفْسِهِ وقَلْبِهِ إلّا بمَتَاعِ الحياة الدُّنيا وَزِيناتها، فَلَا حَظَّ لهُ يوم الدّين بشيءٍ من جنَّاتِ النعيم، بَلْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ عَذَابَ جِهنَّمَ يوم القيامة حَرِيقاً بنارِها.

﴿يَصْلَىٰهَا﴾: أي: يَحْتَرِقُ بنارِها، إذْ يَذُوقُ فيها عَذابَ الْحَرِيقُ، يقال لُغَةً: «صَلِيَ النَّار، وصَلِيَ بِهَا» أي: احْتَرَقَ فيها، ولا مَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً، وهذا خاصٌّ بالأَشْقَيْنَ الكافِرِينَ المجرمين.

﴿مَذْمُومًا﴾: أيْ: مُوَجّهاً لَهُ الذَّمُّ واللَّوْمُ علَىٰ ماجنَىٰ من إثم عظيم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدّنيا.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطْرُوداً مُبْعَداً مع إِهانَةٍ وإذْلَال. يقال لغة: «دَحَرَهُ، يَدْحَرُهُ، دَحْراً، وَدُحُوراً» أي: طرَدَهُ، ودَفَعَهُ بعُنْفٍ شَدِيدٍ، لِيُبْعَدَهُ، مع إهَانَةٍ وإذْلَال.

فالمعنى: مَنْ كَانَ مِنَ الْمَوْضَوعينِ موضع الامْتحان في الحياة

الدُّنيا، يُرِيدُ باسْتمرارِ حتَّى نِهايَةِ رِحْلَةِ امتحانه، لَذَّاتِهِ، وأنواعَ مَتاعِه من الحياة الدنيا العاجلة، كافراً الآخِرَةِ ولَا يَسْعَىٰ للنّعِيم فيها سعياً مَا، قَدَّمْنا لَهُ عُجَالَةً منْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، بمَشيئَتِنا المقتَرِنَةِ بحِكْمَتِنَا وَعِلْمِنا بِعَبْدِنا الَّذِي نَعَجِّلُ له، لكِنْ لَاحَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بشيءٍ من نعيم الجنَّة، بَلْ جَعَلْنَا لَهُ جهَنَّمَ دَارَ عذابِ المجرمين يوم القيامة يَحْتَرِقُ بنارِها حَالَةَ كَوْنِهِ مَذْمُوماً مَلُوماً مَطْرُوداً بعُنْفٍ وشِدَّةٍ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحَماتِنَا.

قول اللّه عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾:

اختلَفَ أسْلُوبُ التَّعْبِير هُنَا عن أسلوب التعبير في الآية السابقة، فجاء هُنَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بَدَل ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وأفْهَمُ من هَذا أنّ اللّهَ عزّ وجلّ قَدْ جعَلَ لِمَنْ كَانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ مُعْظَمَ حياتِهِ بِتَجدُّدِ، إمْكان أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِزَمَنٍ كافٍ لأنْ يُؤْمِنَ وَيَعْمَلَ عملاً صَالحاً يَسْعَىٰ بِه للظَّفَرِ بِجنَّاتِ النعيم يوْمَ الدّين، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في حياته يُرِيدُ الآخِرَةَ بَتَجَدُّدٍ في زمَنٍ طَوِيلٍ مَنْ عُمْرِه.

وَلكِنَّ إرادَةَ ثوابِ الآخِرَةِ في جنَّاتِ النَّعِيم، لَا تَنْفَعُ الْمُرِيدَ مَالَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا إيمانٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ بما أوجب اللّهُ الإيمان بِهِ، في الدِّين الّذي اصطفاه لعباده، وعَمَلٌ صَالِحٌ ظَاهرٌ أَوْ بَاطِنٌ يكونُ مُعَبِّراً في السُّلُوكِ عَنْ صِدْقِ الإيمان. دلَّ على هذا قَوْل اللّه عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: ومن هٰذا السَّعي في الْعَمَلِ الظاهِرِ: إعْلَانُ كِلَمَةِ التوحيد، والصَّلَاة للّهِ وَحْدَه لا شَرِيك له، وأداءُ أيّ رُكْنٍ آخَرَ مِنْ أَرْكانِ الإسلام. ومن هٰذا السَّعْي في الْعَمَل الباطن الْعَزْمُ على الْتِزام شَرَائع الإسلام، والرِّضا عن اللّهِ، والتسْلِمُ الْقَلْبِيُّ والنَّفْسِيُّ لَه، وحُبُّ اللّهِ

وَرَسُولِهِ وأهْلِ الإيمان والتقوىٰ، وكراهيةُ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيان.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جُمْلَةً حَالِيَّةً، ومن المعلوم أنّ الحالَ وصْفٌ لصَاحِبها قَيْدٌ لعاملها، أي: وَسَعَىٰ للآخِرَةِ سَعْيَها في حَالَة كَوْنِهِ مُؤْمِناً، ثُمَّ مَاتَ وهُوَ علَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُضْ إيمانَه.

• ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: جاءت «الفاء» مزيدةً في صَدْرِ هذه الجملة التي هي خَبر «مَنْ» في: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ لأنَّ فيها رائِحة الشّرط، وهي تقع على المفرد والجمع، ومراعاة للمعنىٰ الجمْعِيّ فيها جاء خبرهَا ممَّا يَدُلُّ علىٰ الجمع «أولٰئك».

واختير في الخبر هنا اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارْتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم، بسبب إيمانهم، وسَعْيِهِمْ لثوابِ الآخِرَة عن طَرِيق مَرْضَاةِ اللَّه.

وَفعل ﴿كَانَ﴾ هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الكيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ.

أي: فأولٰئك رفيعو المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِم تحقَّقَ أَنَّ سَعْيَهُمُ الْمَدْفُوعَ بإيمانِهِمْ مَشْكُورٌ لَدَيْه.

والْعَمَلُ المشكورُ عِنْدَ اللَّهِ الجليلِ الكريمِ الوهَّابِ ذي الْجُودِ العظيم، هو المجْزِيُّ بِثَوابٍ يُنَاسِبُ عظَمَةَ رُبُوبِيّتِه، مع الثناء على الْعَامِلِ بِعَمَلِه الصالح، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإيمانَ مِنْ أَعْمالِ الْقُلُوب، لأنَّهُ اختيارٌ إرادِيٌّ لَا تَرَدُّدَ فيه ولَا قَلَق.

الشُّكْرُ: مَقَابِلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ بما يُرْضي الْعَامِلِ، وقَدْ يَشْمَلُ الثناء بالْقَوْلِ الّذي يُرْضيه، لكنَّ هذا يخْتَصُّ بعُنْوانِ الْحَمْد.

وأجَلُّ شُكْرِ اللَّهِ للمُحْسِنين من عباده يَكُونُ بإدْخالهم دَارَ النعيم يوم الدين، وجَعْلِهِمْ خَالِدِينَ فيها.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾.

﴿نُّمِدُّ﴾: أي: نَزِيدُ في الْعَطَاءِ يقال لغة: «مَدَّ، وأَمَدَّ»: أي: زَادَ، فإذا كان عطاءً فهو زيادة في العطاء.

﴿كُلًّا﴾ مفعُول به لـ﴿نُّمِدُّ﴾ مُقَدّمٌ عليه لتوكيد مضمون الخبر الذي اشتَمَلَتْ عليه الآية، والذي يجيبُ على سؤالٍ مطويٍّ، يقول فيه السائل: لماذا يُوسِّعُ اللَّهُ علَىٰ بَعْضِ الكافِرين وغلاة العصاة بالأموال وكثيرٍ من متاع الحياة الدنيا وزينتها وزخْرُفِها؟! ولماذا لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ حتَّى يكونَ التضييق عليهم سبباً من أسباب دَفْعِهِمْ إلى الإيمان الصحيح الصادق والْعَمل الصالِحِ والاستقامة على صراط اللَّه؟!

والجواب المنطقيُّ الْعَقْلِيُّ الّذي يَدُلُّ على حِكْمَةِ الحكيم، أَنَّ ظُرُوفَ الامتحان الأَمْثلِ للناس في الحياةِ الدُّنيا، تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ فُصُولُ الموضوعين موضع الامتحانِ مُتَسَاوِيَةً في الخُطَّةِ العامَّة لحيَوَاتِهِمْ فيها، دُونَ تَمْيِيزٍ لِفَصْلٍ عَلَىٰ فَصْل، وبما أنَّ الْفُصُولَ مُخْتَلِطَةٌ في مَوَاقِعِ الامتحان، فالحكمة تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لكلِّ فَرْدٍ مَوَادُّ امْتِحانٍ تُلَائِمُ واقِعَ الْفَصْلِ الّذِي هو مِنْه.

وبناءً عَلَى هَذا فَكُلّ فَرْدٍ مِنْ أفراد الكافِرينَ والمؤمنين، والمجرْمين والمسلمين، والْعُصَاة والمطيعين، لَهُ موادُّ امْتِحَانٍ تُلائم واقعَهُ النَّفْسِيَّ الّذِي فَطَرَهُ اللَّهُ عليه، فالأفْضَلُ والأحْكَمُ لامتحان بَعْضِ الأفراد الغِنَى، ولامْتِحان آخَرِين الفقر، ولامتحان بعضهم الصحّة ولامْتحان بعضهم المرض، ولامتحان بعضهم العزّ، ولامْتحان بعضهم الذّلُّ، أو تَقْلِيبُ الْفَرد بَيْنَ الاحْتِمالَاتِ المختلفات، ولا يَعْلَمُ الأَكْثَرَ حِكْمَةً لكلِّ فَرْدٍ إلاَّ اللَّهُ الحكيم العليم الخبير.

فمعنى الآيَةِ بَعْدَ هذا البيان: أنّ اللّه عزّ وجلَّ يُمِدُّ بعطاءاتِهِ من الدنيا في ظُروف الحياة الدُّنيا الّتي جَعَلَها لابتلاء عِبادِه، هؤلاءِ الكافِرِينَ وغُلَاةَ العصاة، وهؤلاء المؤمنِين والمتقين، على وفْقِ حكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفرادهم، ومَا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ ايُّها المستَفْهِمُ عَنْ حِكْمَتِه مَمْنُوعاً عَنِ الكافِرِينَ وغُلَاةِ العصاة في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، فالامتحانُ الأَمْثَل يَقْتَضِي هذا، وبما أنّ عطاءات اللّه تكونُ على وفق حكْمتِه وعِلْمِهِ بكُلِّ فرد من عبّاده، وبما أنّ الأفراد متفاضلون في تكوينِ اللّه لأجسادهم وخصائِصِها ولخصائِص نفوسهم، فلا بُدّ أن يكونوا متفاضلين في عطاءات اللّه لهم.

[**محظوراً**]: أي: ممنوعاً.

وقد أبان اللّهُ عزّ وجلَّ في سُورَة (الزّخرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) حِكْمَتَهُ في أَنَّهُ لَمْ يُخُصَّ الكافِرِينَ بالعطاء الواسع من زينَات الحياة الدّنيا، باعتبار أَنَّ الأعمار في الحياة الدّنيا قصيرة، وأنَّ الدُّنيا لَا تساوِي عند اللّهِ جناح بَعُوضة، أمَّا المؤمِنُونَ فَلَهُمْ يَوْمَ الدّين نَعِيم عظيم جدّاً يَكُونُونَ فيه خالدين بلا نهاية.

هٰذه الحكمة هي أَنَّ تَفْضِيل الكافِرِينَ بالْعَطاء الواسع من زينات الحياة الدُّنيا، فِتْنَةٌ للّذينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعدادٌ لأَنْ يُؤْمِنُوا، إذْ تَضْعُفُ مُقَاوَمَتُهُمْ تَجاه مُغْرِيَاتِ الحياة الدنيا، فيَخْتَارُون سُبُلَ الكُفْرِ والعصيان، لِتَكُونَ لَهُمْ حظُوظٌ واسِعَةٌ مِنْ زِيناتِ الحياة الدّنيا، وبهذا يكونُ الناسُ باسْتثناء الْمَعْصُومِينَ منهم بعِصْمةِ اللّه، أمَّةً واحدة كافرة.

فقال اللّهُ عزّ وجل فيها:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

الزُّخْرُف: الذَّهَبُ، وأنواع الزّينَاتِ، وزُخْرُفَ الْبَيْتِ مَتَاعُهُ.

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: انْظُر وتفكَّرْ أيُّها الصالح للخطابِ في حِكمِتنا من تفضيلِنَا بَعْضَ عبادنا على بَعْضٍ في عَطَاءاتِنَا من متاع الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا وَاقِعٌ مَشْهُودٌ لكلِّ ناظر، ولكنّ مَعْرِفَةَ الحكمَةِ مِنْه تحتاجُ إلىٰ تفكُّرٍ سَلِيم.

وقد أعان اللّهُ جلّ جلالُه على اكتشاف الحِكْمَةِ بالتحليل السّابق آنفاً.

وهَذا التفضيل في الحياة الدُّنيا، القائمُ على التفاوُتِ في الخصائص الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة بيْنَ الأفراد، لتهْيِئَةِ الامتحان الأمثل، يَهْدِي المتفكِّرَ إلىٰ أَنَّ عَطاءَاتِ اللّهِ في الحياة الآخِرَةِ، لِمُجْتَازِي رحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدّنيا، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ دَرَجاتٍ وَأَكْبرَ تَفْضِيلاً، لأَنَّ مُكْتَسَبَاتِهِمْ الإرادِيَّةَ الّتي يَتَرَتَّبُ عليها الجزاءُ يَوْمَ الدِّين، مُتَفَاوِتَةٌ مَا بَيْنَ أحَطِّ دَرَكاتِ جَهَنَّمَ إلَىٰ أعْلَىٰ دَرجاتِ الْفِرْدَوْس في جنّات النعيم، فقال اللّهُ عزَّ وَجَلَّ مُنَبِّهاً عَلىٰ هٰذِهِ الحقيقة: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾:

أي: أكْبَرُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم، وأكْبَرُ تَفْضِيلاً بِعَطَاءات النَّعِيم وَوَسَائلِهِ فيها. ويُقَابلُ هٰذَا تَفَاوُتُ المعذَّبين في النَّارِ، بِتَنازُلِ الدَّرَكاتِ وانْحِطَاطِها حَتَّى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ منها، وبِتَزَايُدِ مَقَادِيرِ الْعَذَاب، بِحَسَبِ مَقَادِيرِ ذُنُوبِهِمْ وجرائمهم الّتِي اكْتَسَبُوها في الحياة الدّنيا بإرادَاتِهِمُ الحرَّة.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس السابع من دُروس سورة (الإسراء).

والحمْدُ للّهِ على فَتْحِهِ وتوفيقه ومَدَدِهِ ومعونته.

❁ ❁ ❁

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دُرُوس سورة (الإسراء)
الآيات من (٢٢ - ٣٩)

قال اللَّه عزّ وجل:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا (٣٤) وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**إِمَّا يَبْلُغَانِّ**].

وقرأَهَا باقي القراء العشرة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾.

ومؤدّي القراءتين واحِدٌ، وهو من التَّفَنُّن في البيان.

(٢٣) • قرأ نافع، وحفص، وأبو جَعْفر: ﴿أُفٍّ﴾ بِكَسْرِ الفاء مع التنوين. وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: [**أُفَّ**] بفتح الفاء دون تنوين. وقرأها باقي القرّار العشرة: [**أُفِّ**] بكسر الفاء دون تنوين. وهي لغات عرَبِيَّةٌ لهذه الكلمة، وفي هذه الكلمة لغاتٌ أخرى.

(٣١) • قرأ ابْن كثير [**خِطَاءً**] بِكَسْر الخاء وطاء مفتوحه وألف بَعْدها. وقرأها ابْنُ ذَكْوان، وأبو جعفر: [**خَطَأً**]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿خِطْئًا﴾.

الخِطْءُ والْخَطَأُ يَقَعَانِ علَىٰ الذَّنْب، أمّا قراءة ابن كثير: [**خِطَاءً**] فيَظْهَرُ أنَّها لُغَةٌ كالخِطْء، إلَّا أنَّ مُدَوِّني المعْجَماتِ اللّغويَّة. لم يذكُروها، وكوْنُها قراءة متواتِرَةً يكْفِي لإثباتها، ففي لُغَاتِ الْعَرَبِ كثيرٌ لَمْ تُدَوِّنْهُ المعْجَماتُ اللّغَوِيَّة.

(٣٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**فَلَا تُسْرِفْ**] بناء المخاطَبِ، وهو مُوجَّهُ للْوَلِيِّ.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**فَلَا يُسْرِفْ**] بياء الغائب، والضمير يعُودُ على الْوَلي.

والقراءتان من التفنُّن في التعبير.

(٣٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: [**بِالْقِسْطَاسِ**] بكَسْرِ القاف.

وقرأها باقي القرة العشرة: [بِالْقُسْطاسِ] بضمّ القاف. وهُما لغتان عرَبِيَّتانِ في هذه الكلمة.

(٣٨) • قرأ نافع، وابْن كثير، وَأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [سَيِّئَةً].

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أَدَاء المعنَىٰ المراد، أي: كُلُّ مَنْهِيٍّ عنْهُ من ذَلِكَ الَّذِي نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ في الآيات السَّابِقاتِ كَان سَيِّئُهُ الَّذِي يكْرَهُهُ رَبَّكَ مَكْسُوبَةً سَيِّئَةً يَسْتَحِقُّ فاعِلُها أَنْ يُعَاقَبَ عَلْيها.

تمهيد:

هذا الدَّرْس يشتمل على أوامِرَ وَنواهي ووَصَايا عظيمة، وبيانَاتٍ حَوْلَها. ومعظم هذه التعليمات مما الْتَقَتْ عليه الرّسَالات الرَّبَّانيّة، لِلْمَوْضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ولا سيما كتاب التوارة الّذي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ على مُوسَىٰ عليه السلام، والوصايا العشر الَّتي كتَبَها لَهُ في الألواح.

وفي هذا الدرس بَعْضُ تفصيل لما جاء في الآية (٩) من أنَّ هذا القرآن يَهْدِي للَّتي هي أقوم فهو موصولٌ بالدرس الثالث من دُروس السّورة.

التدبّر التحليلي:

في هذا الدرس (١٤) وصيّة من أوامر اللّه ونواهيه لعباده، مُوجَّهَةٌ للرَّسُول باعتباره أوّل مُكَلَّفٍ من أمَّتِهِ ويَجِبُ عليه أنْ يَكونَ أَوَّل المسْلِمين، وباعْتِبارِهِ مُتَلَقِّيَ الوحْي من ربّه، ومُوجَّهٌ تَبعاً بأسْلُوب الخطابِ الإفراديّ لكلِّ صالّح للخطابِ من أُمّتِه، وهٰذِهِ الوصايا مَحْصُورَة بحَاصِرَيْنِ مُتَماثِلَيْنِ

مُتكامَلِينِ قبل بَدْئِها وبَعْدَ خِتَامِها. فالحاصِرُ قَبْلَ بَدْئها هو قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ والحاصر بَعْدَ خِتَامِها هو قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

ويَدُلُّ هٰذان الحاصران على أنّ طاعَةَ اللَّهِ في الوصايا الواقعة بَيْنَهما في النَّصّ مِنْ تَوْحِيدِهِ في إلٰهيَّتِهِ، مع دَلَالَتِهما على التَّحْذِير من اتّخاذِ إلَهٍ آخَرَ مع اللَّهِ في قضايا أخِرَىٰ لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْها هذِهِ الوصايا، ومضمون الحاصَرِين يمثّلِ وصِيةً من الوصايا مؤكدة لمضمون الوصية الأولى.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي: لَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ مَعْبُوداً آخر غير اللَّه، فهذه العبادة من الشّرْك.

• ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ جاء التعبير بالْقُعُودِ لأنَّه يَدُلُّ على الْعَجْز وانخفاضِ المكانَةِ، فلفظ «القاعد» يُكَنَّىٰ بِهِ عن العاجز الذي يَنْظُرُ إلَيْهِ القائمون العامِلُون أصْحَابُ العزائم نظراتِ اسْتِعْلَاءٍ علَيْه، واسْتِهَانَةٍ به، وذمٍّ لِكَسَلِهِ وجُبْنِهِ وضَعَتِه، فَهُوَ مَذْمُومٌ عند اللَّهِ وملائكتِه، وعباده الصّالحين، وهذا من عقوبات اللَّه له في الدنيا.

﴿مَّخْذُولًا﴾: أي: غير مُعَانٍ وَلَا مَنْصُورٍ عند حاجَتِه إلى مَنْ يُعينُه ويَنْصُرُه، وهذا من عُقَوبات اللَّهِ له في الدّنيا، وشركاؤه لا تغني عنه شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخِرَة.

• ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾: في هذه العبارة الّتي خُتِمَ بها الحاصِرُ الأخير بيانٌ لعقوبَتِهِ يَوْمَ الدِّينِ علَىٰ شِرْكه، بإلْقَائِهِ في جهَنَّم خالداً فيها مُخَلّداً، حالَةَ كونِهِ مَلوماً مَدْحوراً.

﴿مَلُومًا﴾: أي: مَوْصوفاً بالذَّنْبِ والإثم، وهو شِرْكُه، والشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، وجُرْمٌ كبير، مع لوازم هذا الشرك من سُلوك سَيِّئٍ.

﴿مَدْحُورًا﴾: أي: مطروداً مُبْعداً مع إهانَةٍ وإذْلال عن مواطن تنزُّلات رَحَماتِ اللَّهِ. وبَعْدَ تَدَبُّر الحاصِرَين أَسْتِعينُ باللَّهِ في تَدَبُّر الوصايا:

الوصية الأولى: دَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾:

أي: وأنْهَىٰ رَبُّكَ إرادتَهُ التكليفيَّةَ بِقَضاءٍ مُبْرمٍ تَفْسِيرُه: أنْ لَا تعبُدُوا إلَّا إيَّاه. أي: اجْعَلُوا كُلَّ عباداتِكُمْ مَحْصُورَة به وَمَقصُورَةً عليه، وهذا الخطابُ مَوَجَّهٌ لكلِّ الموضُوعين في الحياة الدُّنْيا مَوْضع الامْتحان، مع خطاب إفراديٍّ يخاطَبُ بِهِ كلُّ واحِدٍ منهم دَلَّتْ عَلَيْه عبارة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بالخطاب الإفرادي.

واخْتِيرَ هنا مِنْ أسماء اللَّهِ اسْمُ «رَبّ» لأنْ وَحْدَانيَّة الرُّبُوبيَّةِ للَّهِ عزّ وجلَّ تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً وَحْدَانيَّتَهُ في إلَهيّتِه، فلا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سواه، إذِ الْعِبادَةُ حَقُّ الرَّبِّ الْمُمِدِّ بِعَطاءَاتِ رُبُوبيَّتِه مَا دَامَ الْعبدُ لَهُ وُجُودٌ مَمْدُودٌ بمَدَدٍ ما.

الوصِيَّة الثانية: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وقضىٰ موجباً عليكم:

- أنْ تُحْسِنُوا بالوالِدَيْنِ إحْسَاناً. يقال لغة: «أحْسَنَ به، وأحْسَنَ إلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُو حَسَن، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾.

- ومحرّماً عليكم أن تُسيئوا إليهما. ومن صُور الإسَاءَة إليهما ما يلي:

(١) التضجُّرُ منهما أو مِنْ أحَدِهِمَا في حالة الكِبَر وكثْرةِ المطالب

والاعتراضات والتّدخلات في الصغائر، وكثرة الأوامر والنواهي، بتوجِيهِ كَلِمةِ: «أفّ» ومثل «أفّ» ما يُسَاويها من الكلام المؤذِي لنَفْسِ الوالِدَيْن.

«أفّ» اسم فعل مضارع بمعنى «أتضجر» وفيها عشْرُ لغات. فقال اللّه عزّ وجلّ خطاباً للولد ذكراً كان أم انثىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾:

«إمَّا» مركبة من «إنْ» الشرطية و«ما» الزّائدة. والنون في ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ نُونُ التوكِيد الثقيلَة، وهذه النون في الفعل المضارع بعد «إمَّا» تكادُ تكُونُ واجبة. وكذلك ما جاء في القراءة الأخرى: [يَبْلُغَانِّ].

وفي عبارَةِ [عِندَكَ] دَلَالَةٌ عَلَىٰ أنّ الْوَالِدَ الكبير المساكِنَ الّذي تكثُر تكاليفُهُ وأوامِرُهُ ونواهِيهِ، وتَدَخُّلَاتُه في الصَّغائِرِ، من شأْنِهِ أَنْ يُثِيرَ الضّجَرَ، بخلاف غير المساكن، وعلى الرُّغم من ذلك فالْوَلَدُ مأْمُور بالصُّبْرِ والتحمل، وعَدَمِ تَوجيه كَلِمَةِ أفّ، فَضْلاً عمَّا هو أشَدُّ مِنْها.

(٢) النَّهْر، وهو الزَّجْرُ، وهو أشدّ مِنْ تَوْجيهِ كلمة «أُفّ» فقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: يُقَالُ لُغَةً: «نَهَرَ فُلانٌ فلاناً، يَنْهَرُهُ، نَهْراً» أي: زَجَرَهُ وأغْضَبَهُ، ومِثْلُ النَّهْرِ مَا يُسَاوِيه مِمَّا يُؤْذي.

(٣) ما هو أشَدُّ من النَّهْرِ والزَّجْر، كَالشَّتْم والسَّبِّ والضَّرْب، وهَذَا يُفْهَمُ مِنْ فَحْوىٰ الخطاب عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الْفِكريّ، والنَّهْيُ عن هذا الأشدّ يُفْهَمُ مِنْ باب أوْلَىٰ، ولَوْ لَمْ يُصَرَّحْ به في النَّصّ.

ومن صُورِ الإحسانِ بالوالِدَيْن ما يلي:

(١) توجيهُ القولِ الكريم لهما، وهو القول الذي فيه تكريم للمخاطبِ ورَفْعٌ من شأنه، وإرْضاءٌ لِنَفْسِه، فقال اللّهُ عزّ وجل خطاباً للولَدِ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: أي: وقُلْ لَهُمَا قَوْلاً فيهِ تكْرِيمٌ لَهُما، وتعظيم لِفَضْلِهما ومنّتِهما فيما تحمَّلا منه عَنَاءِ تَرْبِيَةٍ وإحْسَانٍ مِنْهُما إلَيْكَ.

(٢) التَّذَلُّلُ لَهُمَا، والتواضُعُ بَيْنَ أيْدِيهما، تخفيفاً على أنْفُسِهِمَا مِنْ مشاعِرِ الضَّعْفِ والتناقُصِ في مُخْتَلِفِ الْقُوى، وهي مشاعِرُ غير سارَّةٍ بَعْدَ مَا كانَا عَلَيْه في شَبَابِهما وكُهولَتِهما من قوّة ونشاطٍ وحَيَويّة، إذْ يَجِدَانِ فِي وَلَدِهِما مَا فَقَدَاهُ في أنْفُسِهما، فقال اللَّهِ عزّ وجل للولد: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ في هٰذِهِ العبارة تَشْبيه التذَلُّلِ للوالِدَيْنِ بِتَذَلُّلِ الطائِرِ حِينَ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لِفِرَاخِهِ أو لِزَوْجه أو لِغَيْرِهما، ولَكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لفظُ المشَبَّهِ بِهِ، وإنَّمَا كُنِّيَ عَنْهُ بشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهُوَ الجناح، وأُضِيفَ هذَا المكَنَّىٰ به إلَىٰ المشَبَّه.

وهذا على ما ظهر لي هو من التشبيه البليغ المكنَّىٰ فيه عن المشَبَّهِ به بِبَعْضِ لوازمه[1].

فالمعنى: لِيَكُنْ أيها الولَدُ ذُلُّكَ لِوَالِدَيْكَ، كَطَائِرٍ يخْفِضُ جناحَهُ تَذَلُّلاً مِنَ الرَّحْمَةِ.

الخفض في اللُّغَة: التواضُعُ ولِينُ الجانب، والميْلُ إلى المنخفض المطْمَئِنِّ من الأرْض، وهو ضِدُّ الرَّفْع.

وذُكِرَ قَيْدُ: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ لاسْتِبْعَادِ التَّذَلُّلِ نفاقاً ظاهريّاً، أو بِدَافِعِ الطَّمَعِ بشيءٍ من أمْوالهما، أو نَحْوِ ذَلِكَ من مصالِحَ دُنيويَّة.

(٣) الدُّعَاءُ لَهُما، إذْ دُعَاءُ الْوَلَدِ لِوَالِدَيْهِ هو من أعمالِهِمَا، ولَوْماتَا. فقال اللَّهِ عزّ وجلّ لِلْوَلَد: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

الكاف في ﴿كَمَا﴾ للتعليل، أيْ: لأَجْلِ أنَّهما رَبَّيَانِي حَالَةَ كوني صَغيراً، لا أستطيعُ أنْ أَقُوم بشؤوني لنَفْسِي.

---

(١) وهذا ما أثبته في كتابي «البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها» ولم أرَ هذه العبارة من باب الاستعارة، بل هي من التشبيه المكني.

الرَّحْمَة: الّتي يَدْعُو بها الولد لوالديه تَشْمَلُ دَفْعَ كلّ سُوءٍ عنهما وجلب كلّ خير لهما. ولا يخفىٰ مَا في جَعْل الوَصيَّة الثانية الأمْرَ بالإحْسَانِ للوالِدَيْنِ والنهْيَ عَنْ عُقُوقِهما من العناية العظيمة بها.

الوصيّة الثالثة: الأمْرُ بجعل المكسوبات الإراديَّة النفسيَّةِ مكْسُوباتٍ صالحات، على وفْقِ مَا هدَىٰ اللَّهُ إلَيْهِ عباده من أعمال القلُوب والنفوس الإراديَّة، كالإيمان الصحيح الصادق بما أوجب اللَّهُ الإيمانَ به، وكَالنيّاتِ بابتغاء مرضاة اللَّهِ من وراء الأعمال الَّتي أمَرَ بها، وكَحُبّ الحقّ والخير وطاعة اللَّه، وكراهية الباطِلِ والشّرّ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ.

دلَّ على هٰذه الوصِيَّة قول اللَّه عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

لَمْ يَأْتِ التكليفُ فِي هذِه الوصِيَّةِ تَكليفاً مُبَاشِراً بأمْرٍ أو نَهْيٍ، وإنَّما جاءَ بأُسْلُوب الكِنَايَة، ولَمْ يأْتِ بأسْلُوبِ الخطاب الإفرادي كبَعْضِ النظائر السابقة، وإنَّما جاء الخطابُ فيها عامًّا لكُلّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

المعنَىٰ: أنْتُم مُطَالَبونَ بالإيمان، وبابتغاء طاعَةِ رَبّكم والتَّقَرُّبِ إلَيْه في نيَّاتِكم من وراء أعْمَالِكُمْ، ومطالَبُونَ بالتَّسْلِيم الكامل له في أوامِرِه ونواهيه، وسائِر تكاليفه وأحْكامه، وقضائِه وقَدَرِه، ومطالَبُون بِحُبُّ الحقّ والخيْرِ والفضائل والمتحلّين بِها، وبكراهية الباطِلِ والشّرّ والرذائل وبُغْض أصحابها، ومطالبُونَ بأنْ لَا تَحْسُدُوا النَّاسَ على ما آتاهم حسَداً مَذْمُوماً، ومطالَبُونَ بابتغاء مَرْضاةِ اللّه وأن تكونوا مخلِصِين لَهُ فيما تقومون بِهِ من بِرّ للوالِدَين، إلى غير ذلك من أعمال النفوس الإرادية، ورَبُّكُمْ أعْلَمُ بما في نُفُوسِكُمْ، وهُو يجازيكُمْ عليها بِعَدْلِه أو فَضْلِه.

واعْلَمُوا أنَّكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَالِحِينَ في نُفوسِكُم، بإيمان صحيح صادقٍ

مطابقٍ لمطلوب اللَّهِ منكُمْ، وبِرَغْبَةٍ صادقةٍ في رِضْوانِ رَبِّكُمْ عَنْكُمْ والظَّفْرِ بثوابِهِ العظيم، فإنَّكُمْ ستقَعُونَ في أخْطَاءٍ وسَتَرْتَكِبُونَ ذُنُوباً، فَكُلُّ بني آدم خَطَّاؤون، لكنّ بواعِثَ الإيمان فيكم، وهو رأسُ صلاح نفوسِكُمْ، وستجْعلُكُمْ رَجّاعِين إلى رَبّكُمْ بالاستغفار والتوبَةِ والْعَمَلِ الصَّالح، كُلَّما ارْتَكَبْتُمْ ذُنُوباً وخَطَايَا.

فإذا كُنْتُمْ أوّابِينَ رَجّاعِينَ بصِدْقٍ إلَىٰ رَبّكُمْ، وكان إيمانكُمْ صحيحاً سَلِيماً، فإنَّ رَبَّكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ، لأنَّ مِنْ صفاتِ رَبِّكُمْ ذاتِ الكَيْنُونَةِ الدَّائِمة أنَّهُ غَفُورٌ لِلأَوَّابين.

الأوّابُون: الرَّجَّاعُونَ إلَىٰ اللَّهِ رَبّهم بالاستغفار والتوبة والْعَزْمِ علَىٰ الطاعَةِ، بَعْدَ السُّقُوطِ في المعصِيَةِ والإثم.

فعل «كَانَ» في جُمْلَةِ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ يَدُلُّ على الكيْنُونَةِ الدائمة، فغُفْرانُهُ للأوّابين من صفاته الدائمة جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

وهذه الْجُمْلةُ دلّت بالكِنَايَةِ على أنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ إذاً رَجَعُوا إليه بالاستغفار والتوبَةِ والْعَزْم على الطاعَة، فقَدْ جاءت تَعْلِيلاً لكلام مَطْوِي تَقْدِيره: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ وارْتَكَبْتُمْ ذِنُوباً وكُنْتُمْ بَعْدَهَا أَوَّابِينَ يِغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

غَفُوراً: أي: كثِيرَ السّتْر لذُنوب عباده، الذي يَتْبَعُهُ عَدَمُ المؤاخَذَة عَلَيْها، مَا لَمْ يكونُوا مِنَ المجاهرين الماجنين.

الوصية الرابعة: الأمْرُ بإيتاء ذي القربَىٰ حَقَّه، وإيتَاءِ الْمِسْكِينَ حَقّهُ وإيتاء ابْنِ السَّبِيلِ حقّه، دَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزّ وجل بأسْلُوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ذُو الْقُرْبَىٰ: أي: صاحِبُ القرابَة في النَّسب، ومعلومٌ أنَّ بَعْضَ أقرباء

النّسبِ لهم حُقُوق مَالِيَّة كالأولاد الفقراء على آبائهم، وكالأباء والأمَّهاتِ الفقراء على أَوْلَادِهِم، على وفْقِ مَا جاء بيان هذا في السُّنَّة.

وهٰذه الحقوق الماليّةُ لذوي القربَىٰ، غَيْرُ حُقُوق صِلَةِ الرّحم للقرابات القريبَةِ والقراباتِ البعيدة في النسب.

وَالمسْكِين: وهُوَ مَنْ يَبْدُو مِنْ ظَاهِرِ حَالِهِ أَنَّهُ فَقِير، كالسَّائل الَّذِي يَدَّعي الفقر، وكالَّذِي يَتَعَرَّض لِعَطَاءِ المْحسِنِينَ وَلَوْ لَمْ يَسْأَلْ بِلِسَانِه، وهذا المسكين قَدْ يكون فقيراً في واقِع حَالِهِ، وقَدْ لَا يَكُونَ، وعِنْدَ الْجَهْلِ بِوَاقِعِ حَالِهِ فالأَصْلُ مُعَامَلَتُه بَحَسَب ظاهِرِ حَالِه، أمَّا في حَالَةِ الْعِلْم بغِناهُ فإنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ، فَلَا يُعْطَىٰ مِنْ أمْوَالِ الزَّكاة، ولكِنْ إذَا رَأَىٰ الْبَاذِلُ أَنَّ في إعْطَائِهِ مصْلَحةً هي من مقاصِدِ الدّين، فإنَّهُ يُعْطِيهِ مِن الصَّدَقَاتِ العامَّةِ لَا مِنْ أمْوَالِ الزَّكاة.

وٱبْنَ السَّبِيل: وهو المسافِرُ، فإنْ نَزَلَ ضيفاً كَانَ لَهُ حَقُّ الضِّيَافَةِ، وَإنْ كانَ مُنْقَطِعاً لَا يَمْلِكُ مَا يُوصِلُهُ إلىٰ بَلَدِه، فإنَّهُ يُعْطَىٰ مِنَ الزَّكَاة مَا يُوصِلُهُ إلى بَلَدِهِ، إلَّا أن يكون في بَلَدِه فقيراً فإنّهُ يُعطىٰ أكثر من ذلك.

وأُطْلِق على المسافِرِ أنَّه: «ٱبْنُ السَّبِيلِ» لأنَّه غريبٌ لَا تُعْرَفُ لَهُ نِسْبَةٌ فِي مَكانِ غُرْبَتِه، الَّتي هُوَ فيها عَابِرُ سَبِيل، فإذا قِيلَ: هُو ٱبنُ مَنْ؟ كَانَ الْجوَابُ: هَو ٱبْنُ السبيل.

الوصيّة الخامِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِير، دلَّ عَلَيها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾:

التَّبْذِير: تفريقُ المالِ بإسْرافٍ، مأخوذٌ من بَذْرِ بُزُور الزّرْع مُفَرَّقَةً مُنْتَشِرَةً دُونَ تَعَمُّدٍ لِمَواقِعِها، وهو مَذْمُوم شرعاً، لمجاوزَتِه ما هُو مقبولٌ في الإنفاق.

قال الشافِعِيُّ: التبذيرُ إنفاقُ المال في غَيْرِ حَقِّهِ، ولا تَبْذِيرَ في عَمَلِ الخير.

أقول: كُلُّ إنفاقٍ في معْصِيَةِ اللَّهِ هو من التَّبْذِير، وكُلُّ إنْفَاق يَزِيدُ علَىٰ تحقيق المطْلُوبِ للنُّفوسِ مِمَّا أباحَ اللَّهُ هُوَ من التَّبْذِير، وكُلُّ إنْفَاقٍ فِيه ضُرٌّ أَوْ أذىً هُوَ من التَّبْذِير، وكُلُّ إنفاقٍ عَشْوَائيٍّ لَا تُعْرَفُ فيه مَواقِع الْمَالِ المبْذُولِ هو من التبذير، وهو عَبَثٌ لَا تفْعَلُهُ العقلاء.

• فَمِنَ التبْذِيرِ إنفاقُ الأموال في شِراء الْمُسْكِرَات، والمخدِّرات، والْمُفتِّراتِ.

• ومِنَ التَّبْذِيرِ مَا يَزِيدُ على حَاجَاتِ المدعُوِّين في الولائم، ثُمَّ يُرْمَى الزائِدُ في الْقُمَامَاتِ.

• ومِنَ التَّبْذِيرِ إنْفَاقُ أَمْوالٍ كَثِيرَةٍ في إطْلَاقِ قَذَائِف نَارِيَّةٍ تُري في الْجَوِّ مَا يُعْجِبُ النَّظر، وتَنْطَفِئُ فِي عَدَدٍ من الثواني.

• ومِنَ التَّبْذِير ما يُصْنَعُ مِنْ ثيابٍ مُزَرْكَشَةٍ مُزَخْرَفَةٍ للنِّسَاءِ، لحُضُور حفَلَاتٍ يَتَبَاهَيْنَ بها علىٰ قريناتِهِنّ، وهي ذواتُ قِيَمٍ باهظةِ الثَّمنِ ولَا تُلْبَسُ إلَّا لِحَفْلَةٍ أَوْ حَفْلَتَيْنِ.

• ومِنَ التَّبْذِير مَا يُبْذَلُ مِنْ أمْوالٍ لِلأَوْثَانِ الَّتي تُزَيَّنُ بِها الْقُصور.

• ومِنَ التَّبْذِير مَا تُزَخْرَفُ بِهِ الْقُصُورُ للتَّباهِي والتَّفاخِرِ، مع حُصُول مُتْعِةِ الأنفس بما هو دُون ذَلِك، ولا سِيما تَغْليفُ جُدْرانِها وأَعْمِدَتِها ونحو ذلِكَ بِصَفَائحِ الذَّهَب والفِضَّة.

• ومن كان دَخْلُهُ الشَّهْرِيُّ يَكْفِيهِ ويَكْفِي أسْرَتَهُ لَوْ اقْتَصَدَ وأنْفقٍ بِعَقْلٍ وحِكْمةٍ، فصارَ يُنْفِقُهُ في نصف شَهْرٍ أو في ثُلُثَيْ شَهْرٍ، فَهُو من الْمُبَذِّرِين.

وجاء في عبارة الوصيَّةِ التَّوكيدُ بالمفعُول المطْلَق: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ للدّلالَة على أنَّ إنفَافات ممَّا يَحْكُمُ علَيْها أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ بأنَّها من التَّبْذِير، إذِ المعْنَىٰ: ولَا تُبذِّرْ تَبْذِيراً واضِحاً يَحْكُمُ عَلَيْهِ أصْحابُ الْعُقُولِ الْمُجَرِّبُونَ الخبيرون بأنَّهُ من التَّبْذِير.

ووَصَفَ اللَّهُ المبَذِّرِينَ بأَنَّهُمْ أَخْوَانُ الشَّياطِين، أي: مُصَاحِبُوهُمْ والمتأثِّرُون بوَسَاوِسِهِمْ وَنزَغَاتِهِم، والسَّبَبُ في هَذا أنّ انْعِدام الرُّشْدِ في الإنْفَاقِ لَدَيهِمْ، يَجْعَلُهُمْ عُرْضَةً للتأثّرِ بِنَزْغٍ شيطانيٍّ يَضْغَطُ علَىٰ هَوىً طارِئٍ لَدَيْهِم، فَيَنْدَفِعُونَ لِتَحْقِيقِهِ مَهمَا بَذَلُوا مِنْ أَمْوَالٍ فيه، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ ضَابِطٌ إرَادِيٌّ يَتَحَكَّمُ بأهْوَائهم، وتَسْتَخِفُّهُمْ شيَاطينُ الإنْسِ والجِنّ، وَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ من المباحات إلى المكْرُوهَاتِ، فإلَىٰ المحَرَّمَات الصُّغْرَى، فإلَى الكبائِرِ الكُبْرَىٰ، ثُمَّ إلى الكُفْرِ والعِياذُ باللَّه، وذَلِكَ بِحَسْبِ غَلَبَةِ سُلْطَانِ الْهَوَىٰ والشهوات على كلّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهم.

فَقَولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ قَدْ دَلَّ عَلَىٰ هذا بنَصِّهِ وبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّة.

وَفِعْلُ «كَانَ» في هذا النّصّ يَدُلُّ على الكَيْنُونَةِ الدَّائِمة، أي: إنَّ المبَذِّرِينَ هُمْ إخوانُ الشَّيَاطِين دَواماً، والشيطانُ كفورٌ لربِّه دَواماً.

وقَدْ جاءَتْ هذه **الوصيَّةُ الخامسَةُ**: (النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِير) بمثابَةِ بيان مُلْحَقٍ **بالوصِيَّة الرَّابعَة** (الأمر بإيتاء ذي الْقُرْبَىٰ والمسكين وٱبْن الْسَبِيل) ولهذا جاءَت الآيَة (٢٨) مُتَمِّمةً للْبَيَان الّذي جاء في الوصِيَّةِ الرَّابعة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾: في التحليل النّحْوِي، مِثْل ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ الّتي سبق بيانها في الآية (٢٣).

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: أَيْ: قَوْلاً حَسَناً سَهْلاً عَلَيْكَ أنْ تَقُولَهُ، فالْقَولُ الْحَسَنُ سَهْلٌ علَىٰ كلّ ناطِقٍ أَنْ يَقُولَهُ، إذْ لَا كُلْفَةَ فِيه، ومن القول الميسور الوعْدُ الجميل، والاعتذار المقبول.

المَيْسُور: الشيْءُ الْمَيَسَّرُ السَّهْلُ اللّيِّنُ المنْقَاد، وتقول: يَسَّرْتُ لَهُ الْقَوْلَ: أي: لَيَّنْتُهُ له.

أي: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْ إيتاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ والمسْكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ، لِكَوْنِكَ غَيْرَ ذِي يَسَارٍ وَغِنًى، وكانَ إعْرَاضُكَ عَنْ إعْطائِهِم لأجْلِ ابْتِغَاء أَنْ يُوسِّعَ رَبُّكَ عَلَيْكَ الرِّزْقَ بِرَحْمَتِه، وأَنْتَ تَتَرَقَّبُ ذَلِكَ، فَقُلْ لَهُمْ قولاً حَسَناً مَيْسُوراً لَكَ أَنْ تَقُولَهُ لهم.

فَعَدَمُ الْبَذْلِ مَعَ الْعُسْرِ في الأموال يُهَوِّنُ مِنْ وَخَزَاتِه الْيُسْرُ في الأقوال.

الإعراض: إعْطاءُ الْعَارِضِ، أي: جانبِ الْوَجْه، وهو وَسَطٌ بين الإقبال والإدْبار، ولَيْسَ المرادُ الْحَرَكَةَ فِي الْجِسْم هُنَا، بَلِ المرادُ عَدَم الإعْطاءِ ولكِنْ بِرِفْقٍ، إذِ الإقْبَالُ مُطْمِع، والإدْبارُ مُوجِع، أمَّا الإعْرَاضُ مَعَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ الْمَيْسُورِ فَمُقْنِع.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَة: التَّوْجِيهُ للتَّوْسُّطِ والاعْتِدالِ في الإنفاق، دَلَّ عَلَىٰ هذه الوصيَّة قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ بأُسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾:

جاء التّعبير عن الأمرِ بالْقَصْدِ في الإنفاقِ وهو التوسّط والاعتدال، بالنَّهْي عن الطَّرَفَيْنِ الذَّميمَيْنِ وهُمَا الشُّحُّ والْبُخْلُ في الإنفاق، ويقابِلُهُما الإسْرافُ والتَّبْذير.

• أمّا الشّحُّ والْبُخْلُ فقد جاء التَّعْبير عَنهما بِكنَايَةِ قَبْضِ الْيَدِ وضَمِّهَا بِعُنْفٍ إلَىٰ جِهَةِ الْعُنق، حتىٰ تَكُونَ كَالمغْلُولَةِ إلَىٰ الْعُنُق.

الْغُلّ: طَوْقٌ من حَدِيد أو جِلْدٍ يُجْعَلُ في عَنَقِ الأَسِير أو المجرم، أو في يَدَيْه، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وتَطَوَّقانِ بالْغُلّ، وتُعْقَدُ به سِلْسِلَةٌ أو نحوها لجرّهِ وَقَوْدِه.

ولَمَّا كانَ الشَّحِيحُ ويُلْحَقُ بِهِ الْبَخِيلُ، من عَادَتِهِ حينمَا يُطْلَبُ مِنْهُ الإنفاقُ أَنْ يَقْبِضَ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ وعُنْفٍ، ومَسِيرُ هٰذِه الْحَرَكَة الطَّبيعي يَكُونُ

إِلَى جِهَةِ الْعُنُقِ، إِذْ يُدِيرُ جِسْمَهُ إلى جهَةِ الشِّمَالِ عن مُوَاجَهَةِ الطالب، فَحَرَكَةُ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ تكونُ إلىٰ جهَةِ عُنُقِهِ، فيكُونُ حِينئذٍ بمَثابَةِ مَغْلُولِ الْيَدِ إِلَىٰ عُنُقِهِ، كَانَ مِنْ بَدِيعِ الكِنَايَاتِ أَنْ يُقَالَ له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لَا تَكُنْ شَحِيحاً ولَا بَخِيلاً في الإنْفَاقِ عَلَىٰ نَفْسِكَ وأَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ وضَيْفِكَ وغَيْرِهم.

هذا التعبير الكِنَائي، قد امْتَزَجَتْ فِيهِ اسْتَعَارَةٌ قَائِمَةٌ عَلَىٰ تشبيه الشحيح بالأَسِيرِ الَّذِي غُلَّتْ يَدُهُ إلىٰ عُنُقِه، فَهُو من الأَمْثِلَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي امْتَزَجَتْ فِيها الكِنَايَةُ بالاسْتِعَارَة، أو بِالتشبيه، على تَقْدِير: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ كالمغْلُولَة إلى عُنُقِك.

ويُوحِي هٰذا التَّعْبِيرُ بأنَّ الشَّحِيحَ يَأْسِرُهُ شُحُّهُ، فَيَجْعَلُ يَدَهُ كالْمَغْلُولَةِ إِلَىٰ عُنُقِهِ، برِباطٍ من داخِلِ نَفْسِه.

● وأَمَّا التَّبْذِيرُ والإسرافُ فَقَدْ جاء التَّعْبِيرُ عَنْهما بكِنَايَةِ بَسْطِ الْيَدِ بَسْطاً كامِلاً، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولَا تَبْسُطْهَا الْبَسْطَ كُلَّه، لأنَّ بَعْضَ الْبَسْط مَحْمُودٌ، وهو الْجُودُ والكَرَمُ والتوسِعَةُ في الْبَذْلِ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّه عزّ وجلّ، ولَكِنْ دُونَ أَنْ يَصِلَ هَذا إِلَىٰ حَدِّ الخروج عَنِ الحِكْمَةِ والرُّشْدِ في التَّصرُّف.

وحينما تقتضي المصلَحَةُ الإسلامِيَّةُ بَذْلَ كُلِّ شَيْءٍ يكُونُ بَذْلُهُ إيثاراً حَكيماً، وعَملاً رَشيداً، وإحْسَاناً رَفيعاً، وهو كالتضْحِيَةِ بالنَّفْس جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وعلَىٰ هٰذا يُحْمَلُ ما فَعَل «أبو بكر» رضي اللَّهُ عَنْه. حينما جاء إلى الرَّسُول ﷺ بِكُلّ مَا يَمْلِكُ لتَموْيل القتال في سبيل اللَّه، فقال الرسُولُ له: مَاذَا تَرَكْتَ لِعِيالِكَ؟ فقال: تَرَكْتُ لَهُمْ اللَّهَ ورَسُوله.

وفي خِتَام هٰذه الوصيَّة بالْقَصْدِ في الإنفاق قَال اللَّه عزَّ وجل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾:

﴿مَلُومًا﴾: أي: موصُوفاً بما تُلامُ علَيْهِ من سوء تصرُّف، أو بارْتكاب أَمْرٍ مَذْمُومٍ لَا رُشْدَ ولَا عَقْلَ فيه.

﴿مَّحْسُورًا﴾: أي: كَالًّا عاجِزاً عَنْ تَحْقِيق مطْلُوبَاتِك من دُنياك أو آخِرَتِك. وأرىٰ أنَّ هٰذيْن الوصْفَيْنِ يَلْحَقَانِ كُلًّا مِنَ الْمُمْسِكِ شُحًّا وبُخْلاً، والباسِطِ تَبْذِيراً وإسْرَافاً.

أمَّا الْمُمْسِكُ شحًّا أو بُخْلاً، فَهُوَ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وملائِكَتِهِ وعِنْدَ النَّاس، ثُمَّ يكُونُ مَحْسُوراً غَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ تحْقِيقِ كثيرٍ مِنْ مطلوبَاتِه عنْدَ رَبّه يَوْمَ الدّين، وإذا تعرَّضَ لِمَا يُحْوِجُهُ لمساعَدَةِ الناس لَمْ يَجِدْ مَنْ يُسَاعِدُهُ ويُعِينُه، فَقَدْ كانَ شَحِيحاً غَيْرَ مُعِينٍ لَهُمْ، فيَقْعُدُ حَزِيناً مَحْسُوراً، لَا يَجِدُ مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ المساعدة.

وإمَّا الباسِطُ تَبْذِيراً وإسرافاً بلا عَقْلٍ وَلَا رُشْدٍ، فَهُو سَفِيهٌ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَعِنْدَ النَّاس، ثُمَّ يَكُونُ مَحْسُوراً غير قَادِرٍ علَىٰ تَحْقِيقِ كثيرٍ مِنْ مَطْلُوبَاتِه عَنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدّين، وقَدْ يَجْعَلُهُ تَبْذِيرُهُ وإسْرافُهُ فَقِيراً مُحْتَاجاً إلى صَدَقَاتِ المزكّين، وعَطَاءَاتِ الْمُحْسِنين، فَيَقْعُد مَحْسُوراً نَادِماً على مَا فَعَل أيَّامَ سَفَهِهِ مُبَذّراً مُسْرِفاً في غَيْر طَاعَةِ اللَّهِ وفِعْلِ الخير.

وأتْبَعَ اللَّهُ عزّ وجلّ الوصايا: «الرابعَة» و«الخامسة» و«السّادسة» المتعلّقة بالأموالَ بقوله مُبيناً حِكْمَتَهُ في بَسْطِ الرِّزْقِ وَتقديرِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بعباده، فقال جلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾:

في هذه الآيَةِ تكمِيلٌ لِبَعْضِ مَا جاء في الآيات من (١٨ ـ ٢١) فَهِي موصولَةٌ بالْخَطّ الْفِكْرِيّ المارّ فيها.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يُوسّعه ويُكَثّره.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: ويُضَيّقُ وَيُقَلّل عَن الحاجَة، يقال لغة: «قَدَرَ اللَّهُ

على فُلَانٍ الرِّزْقَ، وقَدَّرَهُ عَلَيْهِ» أي: ضَيَّقَهُ وقَلَّلَهُ عَنْ حاجَتِهِ وحَاجَةِ عِيَالِه.

وَبَسْطُ اللَّهِ الرِّزْقَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، وتَضيِيقُهُ علَىٰ بَعْضِ عباده، إنَّما يَكُونُ بِمَشيئَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُه ـ ومَشيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهِ، فكَمَا أنَّهُ بِعزَّتِه يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، هُوَ حَكِيمٌ دواماً، ومشيئَتُهُ المطْلَقَةُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَته. ودَلَّتْ على حِكْمَتِهِ جَمْلَةُ التَّعْليل في آخِرِ الآيَة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾:

الخبير: الْعَالِمُ بالأَمْر أوْ بِالشَّيء عِلْماً قائماً على تَجْرِبَةٍ لَهُ، وإدْراكٍ لجُزْئِيَّاتِه، فَهُو بِخِبْرَتِهِ يخْتَارُ مَا هو الأحْكَمُ والأحْسَنُ له.

الْبَصِيرُ: المدْرِكُ بِبَصَرِهِ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أنْ يُرَىٰ حتى الخفايا الباطِنَة.

الْمَعْنَىٰ: إنَّ رَبَّكَ الّذِي يُمِدُّكَ بِعَطَاءَات رُبُوبيَّتِهِ دواماً، يا أَيُّها الموضوع في الحياة الدُّنيا موضع الامْتِحَانِ، قَدْ جَعَلَ مِنْ مَوَادِّ امْتِحَانِهِ لِعِبَادِه، بَسْطَ الرِّزْقِ بتَفَاضُل، وَتَضْييقَ الرِّزْقِ بِتَفاوُتٍ، وهو عَلِمٌ بِعِبَادِه عِلْمَ خِبْرَةٍ، بَصِيرٌ بِكُلِّ خفَايَا نُفُوسِهِم، فَهُوَ بَحسَبِ عِلْمِهِ بكلِّ فَرْدٍ من أفرادهم، وعِلْمِهِ بمَا هُوَ الأَحْكَمُ والأَمْثَلُ لاختبارِه في رحْلَةِ الحياة الدُّنْيَا، رِحْلَةِ الامْتِحانِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لَهُ بِالمقْدَارِ الأكْثَرِ حكْمَةً، أوْ يضيِّقُهُ عَلَيْهِ بالمقْدَارِ الأَكْثَرِ حِكْمَة.

الوصِيَّة السّابعة: النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الأَولَاد خَشْيَةَ الْفَقْر، إذْ كان هذا من عادات بَعْضِ أَهْلِ الجاهِلِيَّة من العرب، دَلَّ على هٰذِهِ الوصيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزّ وجل قَوْلَهُ في سورة [الأنْعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول] مِنْ آية قيل: هي ذَاتُ تنزيلٍ مَدَنيٍّ، ضُمَّتْ إلى سُورَةٍ مكيّةِ التنزيل والله أعلم.

﴿... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ... ﴿١٥١﴾﴾:

﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾: أي: خَوْفَ حُدُوثِ فَقْرٍ في المستَقْبَل: **الإمْلاَقُ**: الْفَقْر الشَّدِيد، يُقالُ لغة: «أَمْلَقَ الدَّهْرُ مَالَهُ» أي: أَذْهَبَهُ أو أفسَدَه.

[**مِنْ إِمْلاَقٍ**]: أي: مِنْ فَقْرٍ موجُودٍ حَاصلٍ. «مِنْ» معناها التعليل أي: من أَجْلِ فَقْرٍ مَوْجُودٍ حاصل.

[**خِطْأً كَبِيراً**]: أي: إثماً وَذَنْباً كبِيراً.

كان من عادة بَعْضِ العَرب في الجاهليّة أَنْ يتخلَّصُوا من بناتِهِمْ بِالقَتْلِ وأداً، أي: دفناً لَها في التراب عَقِبَ وِلَادَتِها، وكانَ بَعْضُهُمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إذا كَبِرْنَ خَوْفاً مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ خَوْفاً من الْعَارِ إذَا سُبِينَ مِنْ قِبَلِ الْغُزَاةِ.

وهٰذَانِ النَّصَّانِ يتَعَلَّقَانِ بقَتْل الأولاد، للتخلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عليهم، بسبب الفقر المخوف من حُدُوثِهِ أو الواقع فِعلاً.

وهُمَا مُتكامِلان لَا مُكَرَّران:

• فَمَا جاء في سورة (الأسراء) جاء التعبير يه بعبارة: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خَشْيَةَ حُدُوثِ فَقْرٍ في المستَقْبل، وجاء التَّعْقِيبُ عليه في الآية بعبارة: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ففيها تَقْدِيمُ رِزْقِ الأولاد على رِزْقِ الآباء، لأنَّ الفقر أمْرٌ مَخْوفٌ مِنْ حُدُوثِهِ في المستقبل.

• ومَا جاء في سورة (الأنعام) جاء التعبير فيه بعبارة: [**مِنْ إِمْلَاقٍ**] أي: من فَقْرٍ واقعٍ، وجاء التعقيبُ عليه في الآية بعبارة: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فَفِيها تقديمُ رِزْقِ الآباء علىٰ رِزْق الأوْلاد، لأنَّ الْفَقْرَ أمْرٌ واقِعٌ موجود والآبَاء بحاجَةٍ آنِيَّةٍ إلى الرِّزْق.

فتكامل النَّصَّانِ في أدَاءِ المعْنَىٰ المراد، وجَاءَ تأْخِيرُ آيَةِ (الأنْعَامِ) إِلَىٰ

المرحَلَةِ المدنية على ما قيل، لأنَّ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الأَوْلَادِ فيها مجموعٌ مَعَ وَصَايا فيها بيانَاتٌ مِنَ المناسِبِ تَأْخِيرُ تَزِيلها إلىٰ الْعَهْدِ الْمَدَنى، وضُمَّتْ إلى سُورَةٍ مِكيَّةٍ للدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ مَطْلُوبَ اللَّهِ فِيها بَعْدَ إكمالِ الدِّين، يَجِبُ تَوْجِيهُهُ في زَمنٍ يُعَادِلُ أوَاسِطَ النِّصْفِ الثاني من المرحَلَةِ المكيّة.

عبارة: ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ تَشْمَلُ الذُّكُورَ والإناثِ، ولَكِنْ كَانَ مِنْ عادَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا من البنات أكْثَرَ مِنْ تخلُّصِهم من الذكور، ويَقُولُ قائلهم: «وَأْدُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ».

المعنى: لا تُقتُلُوا أَوْلَادكُمْ لتَتَخَلَّصُوا مِنَ النفقَةِ عَلَيْهِمْ خَشْيَةَ أنْ تُصَابُوا في المستَقْبَلِ بالْفَقْر بسبَب النَّفقَةِ عليهم، فاللَّهُ بعظَمَةِ رُبُوبيَّتِهِ كفِيلٌ بأنْ برْزُقَهُمْ وَيرْزُقَكُمْ، إذا نَفَدَتِ النَّفَقَةُ الّتِي في أيْدِيكم، وقد يكونُ رِزْقُكُمْ بسبَبِهِمْ أوْ عَنْ طَرِيقهم إذا كَبِرُوا، ولمَّا كانَ الباعِثُ هُنَا خَشْيَةَ حُدُوثَ الْفَقْرِ مستقبلاً، لَا واقِع الفقر، كان البيان مشتَملاً على تقديم رزْقِ الأوْلَادِ على رِزْقِ أوْليائِهم الّذين يُنْفِقُونَ عَلَيْهم، لأنَّ الأمْرَ هُنَا يَتَعَلَّقُ بالحذَرِ من المستقبل المجْهُولِ، وفِيه شَكٌّ في اللَّهِ ووَعْدِهِ، ومقادِير رِزْقه، وفيهِ تخَلٍّ عَنْ واجِب التوكُّلِ عليه تبارَكَ وتعالَىٰ. بخلاف الحالة الأخرى، وهي قَتْلُ الأولادِ للتخلُّصِ من واقِع الفقر، ومَا فيه من آلَامٍ تُحْدِثُ اضطراباً في النَّفْسِ والْفِكْرِ قَدْ يُغَشِّي على ثَوابِتِ الإيمانِ ورَكائِزه وتَصَوُّراتِه، فيَجْعَلُ صَاحِبَهُ يَتَصَرَّفُ تَصرُّفَ غَيْر المؤمنينَ، لذَلِكَ كانَ بحاجَةٍ إلىٰ مَا يُزِيلُ الْغَشَاوَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَفِكْرِه، حتَّىٰ تَتَبَيَّنَ لَهُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ الإيمان، وهِيَ: أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ وَيرْزُقُ أَوْلَادَه، فَلا دَاعِيَ للتَّخُلصِ من واجِب النَّفَقَةِ عليهم، ومن واجب السَّعْي لاكتسابها كما أَمَرَ اللَّهُ، فالقضيَّةُ واجِبٌ إجتماعِيٌّ مضْمُونُ النتائج بكَفالَةِ الخالِقِ الرازق.

الوصيّةُ الثامِنَة: النَّهْيُ عَنِ الزِّنَىٰ والاقْتِرَابِ مِنْهُ بالمقدِّماتِ الَّتِي قَدْ

تَجُرُّ إلَيْه، دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّه عزّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾: النَّهْيُ عَنِ اقْتِرابِ الزِّنَىٰ أَبْلَغُ من النَّهْي عن الزِّنَىٰ نَفْسِه، وَفي النَّهْي عَنِ الاقْتِراب معْنَىٰ النَّهْي عَنِ المقَدِّماتِ الَّتِي قَدْ تُفْضِي إلَيْهِ، كالملامَسَةِ والتقبيل ونحو ذلك.

يُقَال لُغَةً: «قَرِبَ الشيْءَ، يَقْرَبُهُ، قُرْباً، وَقُرْباناً» أي: دَنَا مِنْه ـ وبَاشَرَه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً﴾: أيْ: إنَّهُ فَاحِشَةٌ دواماً، ففِعْلُ «كَانَ» هُنا مَعْنَاهُ الوجُودُ الدائم.

الفاحشَة: كُلُّ قَبيحٍ تَجاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ وَيُغْضَىٰ عَنْهُ عَادَةً من قَوْلٍ أو فِعْلٍ. قَال أهل اللُّغَة: كُلُّ شيءٍ جاوز قَدْرَه وحَدَّهُ فَهُوَ فاحِش. وجاء في القرآن استعمال: (الفاحِشَة، والفحشاء، والفواحش» في الكبائر المتعلِّقَةِ بشَهواتِ الْفُرُوج.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ **سَاءَ**: فِعْلٌ يُقَالُ في إنْشَاءِ الذّمّ على سَبيلِ المبالغة، وهُوَ: مِثْل: «بِئْسَ». والمعنى: وبِئْسَ الزِّنَىٰ سبيلاً إلَىٰ تحقيق شهَواتِ الْفُرُوج.

وقد شدّد اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في النَّهْي عَنِ الزِّنا، وجاء في القرآن بشأنه سِتَّةُ نُصوصٍ متكامِلَةُ الدَّلالاتِ فيما بينها.

الوصية التاسعة: النَّهيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إلَّا بالحقّ، دَلَّ هذه الوصِيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾:

لَقَدْ خلَق اللَّهُ النَّاسَ في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا لِيَبْلُوَهُمْ أَنُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، أي: ليكْشِفَ دَرجَاتِهِمْ في حُسْنِ الْعَمل، ويُقَابِلُ هَذا كَشْفُ دَرَكَاتِهِمْ فِي سُوءِ الْعَمل، وهذا الإبتلاءُ يَسْتَتْبِعُ في حِكْمَةِ اللَّهِ الْحَسَابَ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ الجزاء بِحَسَب الأحكام القضائيّة الَّتي تَصْدُرُ مِنَ اللَّهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، عَلَىٰ مَا كَشَفَ ابْتِلَاؤه في رِحْلَةِ الحيَاةِ الدُّنيا، ويَعْفُو بِحِكْمَتِهِ عَنْ كثيرٍ مِنْ سَيِّئَاتهم.

ولَهٰذا حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ عَلىٰ عِبَادِهِ قَتْلَ النُّفُوسِ بغَيْرِ حَقٍّ، لأنَّ هٰذا يُعَارِضُ حِكْمَتَهُ فِي وَضع النُّفُوسِ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضعَ الامْتِحَان، فالأصْلُ في النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ صيانَتُها مِنَ الْقَتْلِ ولو كانت كافِرَةً بِربّها.

وقَتْلُ النَّفْس بوسِيلَةٍ من الْوَسَائِلِ الّتي جَعَلَها اللَّهِ عزّ وجَلَّ أسْبَاباً لانفصال الرُّوح عنها، إذِ النُّفُوسُ هي الّتِي تَذُوق الموْتَ، والإنسانُ مُكَوَّن من نَفْسٍ، وَجَسدٍ يَحْتَوِي على النَّفْس ذَاتِ الْخَصَائص الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عليها، وَرُوحٍ تُمِدُّ النَّفْسَ والْجَسَدَ بالحياة، كالآلَةِ الكهْرُبائِيَّةِ ذاتِ الخصائص الّتِي تعَمَلُ بمُقْتَضَاهَا، إذا دَخلَتْ في أسلاكَها الخاصَّةِ الطاقَةُ الكهربائيّة أدَّتْ أعمالها، وإذَا انْفَصَلَت عَنْها الطاقَةُ الكهربائية تَوَقَّفَتْ عَنِ الْعَمل.

ولأجْسَادِ الأحياء نظامٌ رَبَّانِيٌّ خاصٌّ، فإذَا أُصِيبَ مَا جَعلَهُ اللَّهُ فِيه مَقْتلاً بإصابَةٍ قاتِلَةٍ، انْفَصَلَتْ فِيه الرُّوحُ عَن النَّفْسِ، فَتَذُوقُ النَّفْسُ بهذا الانْفِصَالِ الموتَ، ويَصِيرُ الْجَسَدُ مَيّتاً لَيْسَ فِيهِ حَيَاةٌ تَجْمَعُ كُلَّ أعْضَائِهِ الرَّئِيسَةِ الّتي يَكُونُ بها حيّاً.

فَمَعْنَىٰ قَتْلِ النَّفْس اتِّخاذُ وسِيلَةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَباً لانْفِصال الرُّوحِ عَنْها، أمَّا الإماتَةُ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ فَلا تَكُون إلَّا بخَلْقِ اللَّهِ أَوْ إذْنِه.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ نَهَىٰ عَن اتّخاذِ وَسِيلَةٍ ما من الوسائل الّتي جَعَلَها في نِظَامِهِ التّكْوِيني سبباً من أسْبَاب انْفِصَالِ الأرْواح عَنِ النُّفُوس.

النّفْسُ: هِيَ المادَّةُ الَّتِي أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا خَرِيطَةَ الْكَائِنِ الحيّ الحاويَة لِكلِّ صِفَاتِه المعنويَّةِ والْجَسَدِيَّة، فإذا دَخلَتْ فِيها الطَّاقةُ الرُّوحِيّة، بالشُّرُوط الّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَها، صَارَت النُّفُسُ وَكُلُّ مَا الْتَحَقَ بها من جَسَدٍ كَائِناً حَيّاً.

وأحْيَاناً تُطْلَقُ النَّفْسُ علَىٰ الرُّوح، وأحياناً تُطْلَقُ الرُّوح عَلَىٰ النَّفْس، لكِنَّ تَدَبُّر النَّصُوص بِعُمْقٍ يَدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ مَا تَكُونُ بِهِ الحياةِ، وأنَّ النَّفْسَ ما يَحْتَوِي خَرِيطَةَ الكائِنِ الحيّ، بصِفَاتِهِ المعنويَّةِ والْجَسَدِيَّة.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ الحقُّ هُنَا هُوَ مَا أَذِنَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيهِ بالقتل، أَوْ أَمَرَ به، كَقَتْلِ الْقَاتِلِ الَّذِي لَمْ يَعْفُ عنْهُ بَعْضُ أَوْلِياءِ المقتول، وكقَتْلِ الزّاني المحْصَنِ رَجماً، وقَتْلِ الْمُرْتَدِّ عن الإسلام المفارِقِ لجِماعَةِ المسْلِمين، وَقَتْلِ المقاتلينَ من الكافِرين، وقَتْلِ الصَّائِلين، وقَتْل ذوي الحِرابَةِ الخارجين على نظام الدَّوْلَة المسْلِمة، وقِتَال الفِئَةِ الْبَاغِيَة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾:

كان من عادَةِ عشائرِ وقبائلِ الْعَرَبِ في الجاهليّة قبلِ الإسْلام، أنْ يَقْتُلُوا في مُقَابِلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً، أعْداداً كثيرةً مِن عَشِيرَةِ أو قَبِيلَةِ القاتِل، وتتّسع بهَذَا دوائِرُ التقاتُلِ والعداء، وهذا مُنَافٍ لِقَانُونِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، الَّذِي يَقْضِي بِحَصْرِ جَرِيمَةِ الْقَتْلِ ظُلْماً وعُدْواناً بالْقَاتِلِ، دُونَ أَنْ يتعَدَّىٰ ذَلِكَ إلى أَوْلِيَائِهِ، أو عشيرَتِهِ، أَوْ قَبِيلَتهِ [لِوَلِيّهِ] إضافة «الولي» إلى ضمير المقتول تفيد العموم، فهو يَنْطبقُ على الواحد فأكْثر.

وبِحَصْرِ جريمةِ هذا الْقَتْلِ بالْقَاتِلِ، يَكُونُ مِنْ حَقِّ أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ وهم

مُسْتَحِقُّو الإرْث مِنْ تَرِكَتِهِ، أنْ يُطَالِبُوا بالقِصَاصِ، أو بأنْ يَرْضَوْا أَوْ يَرْضَىٰ بَعْضُهُمْ بالدِّيَة، وبِهَا يَكُفُّ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ عَنِ المطَالَبَةِ بالْقِصَاصِ مِنَ القَاتِلِ.

وبهذَا جَاءَ الإسْلام، فَحَمَّلَ القضاءَ الشَّرْعِيَّ، والدَّوْلَةَ الإسْلامِيَّة، مَسْؤولِيَّةَ الْقَبْضِ على الْقَاتِلِ، والْحُكْم عَلَيْهِ بالْقصَاصِ إذا طَالَبَ أَوْلِياءُ الْقَتِيلِ بالْقِصَاصِ إجْماعاً، أَوْ بِدَفْع الدِّيَةِ المقرَّرَةِ شَرْعاً، إذَا رَضِيَ بَعْضُهُمْ بالْعَفْوِ عَنِ الْقِصَاصِ، وَقَبُولِ الدِّيَة، وَتَقُومُ الدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ بالتَّنْفِيذِ في حَالَةِ الْحُكْمِ بالْقِصَاصِ، وبإلْزَام الْقَاتِلِ بالدِّيَةِ في حَالَةِ الْحُكْمِ علَيْهِ بِدَفْعِ الدِّيَة، وهٰذا نصْرٌ من اللَّهِ جلَّ جَلالُهُ لِأَوْلِيَاءِ الْقَتِيل.

فالمعْنَىٰ بَعْدَ هذا البيان: وَمَنْ قُتِلَ مظْلُوماً عَمْداً وَعُدْواناً، فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ (وهُمْ وَارِثُوه) سُلْطَاناً (أيْ: قُوَّةً تُحَقِّقُ قانُونَ الْعَدْلِ) بالْحُكْم الشَّرْعِيّ الرَّبَّانِيّ، وبالدَّوْلَةِ التَّنْفِيذيَّةِ الْمُسْلِمَة، فَعَلَىٰ الْوَلِيّ فَرْداً كَانَ أَمْ أَكْثرَ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ تَقَالِيد أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ الآثِمَة الظَّالِمَة، الناشِرَةِ لِلْعِدَاءِ والتقاتُل، بيْنَ الأُسَرِ، والْعُشَائِرِ، والقبائل، فَلَا يُسْرِفْ في الْقَتْلِ، بالمطالَبَةِ بِدِمِ غَيْر القاتل، أو بالْعَمَل عَلَىٰ قَتْلِ أعْدَادٍ من أُسْرَةِ الْقَاتِلِ أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ قبيلَتِهِ، أَوْ قَوْمِهِ، لأَنَّ كُلَّ هٰذا مُنَافٍ لِلْحَقّ والْعَدْل، إذ هُوَ مَنْصُورٌ بالْحُكْمِ الرَّبَّانيّ، وبالدَّوْلَةِ المسْلِمَةِ المنَفِّذَةِ لشَرْع اللَّهِ، وأَحْكامِ دِينِهِ لعِبَادِه.

وهذا يَتَضَمَّنُ مُطَالَبَةَ الْمُسْلِمينَ جَمِيعاً، بإقَامَةِ دَوْلَةٍ مُسْلِمَةٍ تَحْكُمُ بِشَرْعِ اللَّهِ، وتَنْصُرُ المظْلُومِينَ وأَوْلِيَاءَهُم عَلىٰ الظَّالِمِينَ الْمَعْتَدِين.

الوصية العاشرة: النَّهْيُ عَنِ الاقتراب مِنْ مَالِ الْيَتيم إلّا بالَّتِي هيَ أحْسَن، دَلَّ عَلَى هٰذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ. . . ﴿٣٤﴾﴾:

ثُمَّ أَنْزَل اللَّهُ عَزَّ وجلّ في الْعَهْدِ المدَنِيّ مُطَابِقَ هذِهِ الوصِيَّة، ضِمْنَ

وَصَايا مُتَعَدِّده، ضُمَّتْ إِلَىٰ سُورَةِ (الأنْعَام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكية في الآيتيْن (١٥١ و١٥٢) مِنْها.

النَّهْيُ عَنِ الاقْتِراب كما سبَقَ آنِفاً لَدَى تَدَبُّرِ الآية (٣٢) أبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ مُبَاشَرَةِ الشَّيْء.

إنَّ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ الضُّعَفَاءِ تُغْرِي ذَوِي النُّفُوسِ الطَّامِعَةِ الآثِمَةِ، بأنْ يَأْكُلُوهَا ظُلْماً وعُدْواناً، وَبأَنْ يَسْتَأْثِرُوا بها لأَنْفُسِهِمْ، إذْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ الأَوْصِيَاءَ عَلَيْها، وَمَالِكُوهَا لَا يَسْتَطيعُون مُرَاقَبَتَهُمْ ولَا مُحَاسَبَتْهُمْ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِمْ فِيها.

وكانَ أَهْلُ الْجاهِلِيَّةِ يَسْطُونَ عَلَىٰ أمْوالِ الْيَتَامَىٰ، سَواءٌ أَكانوا إخْوَانَهُمْ أَمْ أَخَوَاتِهِمْ، أم أَوْلَادَ إِخْوَتِهِم، أمْ أَوْلَادَ أَيٍّ قَرِيبٍ من أقربائِهم، فَيَضُمُّونَهَا إلى أمْوَالهم، ظُلْماً وعُدْواناً.

فَشَدَّدَ اللَّهُ عزّ وجلَّ وأكَدَّ في الإسْلام التَّحْذِيرَ مِن الأقْتِرَاب مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ اقْتِرَاباً يُغْرِي بأخْذِ شيءٍ مِنْها بغَيْرِ حَقٍّ، أو بِالانتفاع بشيءٍ مِنْها بغَيْرِ حَقٍّ، أو اقْتِرَاباً مُفْسِداً إفْسَاداً ما.

واسْتَثْنَىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ لِحفْظ المالِ، أو لِلإنْفَاقِ مِنْهُ علَىٰ اليتيم، أو لإِصْلَاحِهِ، وَتَنمِيَتِه، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ عَدَم الاقْتِرابِ مِنْه.

وجاءَتْ هذه الوصيَّة بأسْلُوب الخطاب الجماعِيّ، لتحميل الجماعَة الْمُحِيطَةِ باليتيم مَسْؤُولِيَّةُ المراقَبَةِ والمحاسَبَةِ والتَّدَخُّلِ لحفظ مالِهِ، مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ أحَدٌ بغَيْرِ حَقٍّ، ولِحفْظِهِ من أَنْ يَتَعَرَّضَ للنقصِ والفساد بالإهمال.

اليتيم: هو الولد الصَّغير الذّي مَاتَ أبُوهُ مِن النَّاس، ويَبْقَى يتيماً حتَّى يَبْلُغَ الْحُلُم، ويُجْمَعُ على «أيْتام» و«يَتَامَىٰ».

[إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] أيّ إلَّا اقْتَرباً وَمُباشَرَةً بالمكْسُوبَةِ الَّتِي هِيَ أحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الاقتراب والمباشرة، على ما سبَقَ بيانه.

[حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ]: أي: حتَّىٰ يَبْلُغ اكْتِمَالَه، أشَدُّ كُلِّ شيءٍ اكْتِمَالُ تَنامِيه، بحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتِمَال.

وجاء بيانُ هذا الاكتمال بأنَّه إينَاس الرُّشْدِ في الْيَتِيم، بقول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ... ﴿٦﴾﴾.

دلَّت هذه الآية على أنّ بلوغ الحُلُم لا يكفي لتسْلِيم اليتيم أمواله، بل لا بُدَّ من بلوغه الرُّشْد في تصرُّفاته. ولمَّا كان الْعُدْوانُ علىٰ مَالِ الْيَتيم عُدْواناً عَلىٰ حَقِّ ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يُدَافِعَ عَنْ حُقُوقه، جَعَلَ اللَّهُ عزّ وجل عُقُوبَة مَنْ يأكُلُ مَالَ اليَتِيم ظُلْماً كَمَنْ يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ ناراً، فقال تبارَك وتَعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَسَيُعَاقِبُ اللَّهُ عزّ وجلّ نَفُوسَهُم بَعْدَ الموتِ في مُدّةِ البرْزخ بأنْ يَذُوقُوا عَذَابَ سَعِير، أي: عَذَابَ مَسِّ لَهَبِ نَارٍ، دَلَّ على أنَّهُ من أنواع عذاب القبر استعمالُ «السّين» من أدواتَ المستقبل، فالمستقبل الْبَعِيدُ الَّذِي يكونُ يومَ الدّين تُسْتعْمَلُ لَهُ في القرآن بِوَعْدٍ من الرَّبِّ كَلِمةُ «سَوْف» فيما ظهر لي.

الْوَصِيَّةُ الحادِية عشرة: الأمْرُ بالوفاء بالْعَهْد، دلَّ علَىٰ هذِهِ الوصيَّةِ قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾﴾:

الْعَهْدُ: كلُّ مَا بَيْن الْعِبادِ من مَوَاثِيقَ يَلْتَزِمُونَ بالْوَفَاءِ بها، علىٰ مَا اتّفَقُوا عليه، وكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ به ونَهَىٰ عَنْهُ، وأعْلَنَ الْمُسْلِمُ بِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ، وبَايَعَ اللَّهَ عَلَيْهِ بإعْلَانِه إسْلَامَه.

والْوَفَاءُ بِالْعَهدْ: تَحْقِيقُ مَا تَمَّ عَلَيْهِ الْعَهْدُ وافِياً تَاماً، بلَا نَقْضٍ ولا إخْلَافٍ، وَلَا نَقْصٍ.

يقال لغة: «أَوْفَىٰ الشيءَ، يُوفِيهِ إِيفاءً وَوَفَّاهُ يُوَفِّيهِ تَوْفِيَةً» أي: أَتَمَّهُ وافِياً كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوص. ويُقَالُ: «أَوْفَىٰ ووفَّىٰ فُلَاناً حَقَّهُ» أي: أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وافِياً غَيْرَ مَنْقُوص. ويقال: «أوفَىٰ بالْوَعْدِ والْعَهْد» أي: حَقَّقَ مَا وَعدَ بِهِ، أَوْ عَاهَدَ عَلَيه، تامّاً غَيْرَ منْقوصٍ.

والوفاء بالْعَهْدِ مِنْ فَضَائِلِ الصِّدْقِ في التّعَامُلِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّه، ومِنْ فَضَائِلِ الصِّدْق في التعامُلِ بَيْنَ الإنْسَانِ والإنْسَان، وتَعَمُّدُ عَدَم الوفاء بِالْعَهْدِ كَذِبٌ وَخِيَانَةٌ، ومَعلُومٌ أَنَّ الصِّدْقَ والأَمَانَةَ من الْجُذُورِ الكُبْرَىٰ لفَضَائِلِ الأَخْلَاق، وفَضَائِلُ الأَخْلَاقِ من كُلّيَّاتِ الدِّين الَّذي اصطفاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ لعباده، فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا.

الوصية الثانية عشرة: الأمْرُ بإيفاء الكَيْلِ والْوَزْنِ بالْقِسْطاسِ المستقيم، دَلَّ علىٰ هذه الوصية قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

تَعْتَمِد الْمُبَادَلَاتُ فِي مُعَامَلَاتِ الْبَيْعِ والشِّراء وَنَحْوِهِما بَيْنَ النَّاسِ، عَلَىٰ الكيل فيما يُكالُ، وَعَلَى الْوَزْنِ فيما يُوزَنُ بَحَسَبِ اعْرَافِ النَّاس.

الكَيل: تَحدِيدُ مقدار الشيء بوسَاطَةِ آلَةٍ مُعَدَّةٍ لذلك، يُقَدَّرُ بها حَجْمُه، أو يُقَاسُ بها طُولُهُ وعَرْضُهُ، وهٰذه الآلَةُ مُتَعَارَفٌ عليها. وإيفاءُ الكَيْلِ جَعْلُهُ وافِياً غَيْرَ منْقُوص.

وحين يَكِيلُ البائِعُ للشّاري كيْلاً غَيْرَ وافٍ يَكُونَ آكِلاً لبَعْضِ مَالِهِ بالباطِل، وكذلِك حِينَ يكيلُ الشّاري لِنَفسِهِ كيلاً زَائِداً عَلَىٰ حَقِّهِ، يكُون آكِلاً لِبَعْضِ مَالِ البائِعِ بالْباطِلِ.

الْقُسْطَاس: بضَمّ الْقَافِ وكَسْرِها، أَضْبَطُ الْمَوَازِينِ وأعْدَلُها، وجاءَ

في الْوَصِيَّةِ وَصْفُهُ بِالمسقِيم لِتَوْكِيدِ وُجُوبِ كونِه مُعْتَدِلاً، لَمْ تَدْخُلْ فِيهِ يَدٌ عَابِثَةٌ، وَلَم يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ ضَبْطَهُ التَّامَّ.

وأبانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في الوصيَّة أنَّ إِيفَاءَ الكيل، وَالْوَزْنَ بالْقسطاسِ المستقيمِ خَيْرٌ لِلإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ بزِيَادَةٍ علَىٰ حَقِّهِ، أَوْ نَقْصٍ مِنْ حَقّ الشَّخْص الَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَه، فَيَجْلُبَ ذَلِكَ لَهُ خَسَارَةً وعُقَوبَةً له في مالِهِ في الدُّنيا، وهو أيضاً أَحْسَنُ مآلاً يَوْمَ الدِّين.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: **التَّأويلُ**: الإرْجاعُ، والتَّصْيِيرُ. ومَعْلُومٌ أَنَّ التَّبَرُّؤَ: مِنْ أكْل أموال الناس بالْبَاطِلِ أحْسَنُ جَزاءً، فَالجزَاءُ هو الَّذي يُرْجِعُهُ اللَّهُ إلَىٰ الإنْسَانِ عَلَىٰ ما أَصْدَرَ مِنْ عَمَلِه، وأَحْسَنُ تَصْيِيراً، فالجزاءُ هُو الذي يَصِيرُ إِلَيْهِ الإنْسَانُ، وهُو إمَّا أنْ يكون مَصِيراً حسناً، أوْ مَصِيراً سَيِّئاً بَحسَب عمله الذي قدَّمه.

الوصية الثالِثَة عشرة: النَّهْيُ عَن تَبَعِيَّةِ الإنْسَانِ لغَيْرِه فيما لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وإذْ هُو من التَّقْلِيدِ والاتّباعِ الأعْمَىٰ، مع أَنَّ الخالِقَ الْفَاطِرَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ قَدْ وَهَبَ الإنْسَانَ أَدوَاتِ الْمَعرْفِةِ، ومن أعظمها السَّمْعُ والْبَصَرُ والْفُؤاد (وهُوَ الْقُوَّةِ الْمُفكِّرَةُ الْمَدْرِكَةُ الْعَاقِلَة).

دَلَّ علَىٰ هٰذِهِ الوصيَّةِ قوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ، بأسْلُوب الخِطَاب الإفرادِيّ لأنَّ البواعِثَ هُنَا بِواعِثُ فَرْدِيَّة:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي: وَلَا تَتْبَعْ. يُقَالُ لُغَةً: «قَفَا الشيءَ يَقْفُوه قَفْواً، وَقَفَاهُ يَقْفِيهِ قَفْياً» أي: تَبِعَهُ، والأَصْلُ اتّبَاعُ الإنسانِ مِنْ قَفَاهُ، فالْقَفَا مُؤَخَّرُ الْعُنُق.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ولَا تَتَّبِعْ شَيْئاً لا تَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وصَوابٌ، أو

هُو الأرجَحُ والأفْضَلُ مِنْ غَيْرِه، لتحقِيقِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دفْعِ مضَرَّة.

• المشْرِكُ يَتَّبِعُ فِكْرَةً لَا يَعْلَمُ أنَّهَا حَقٌّ وصَواب، ولَا يَعْلَمُ أنَّ مَا يَعْبدُ مِنْ دُون اللَّهِ يجْلُبُ لَهُ بِعِبَادَتِهِ نَفْعاً أو يَدْفَعُ عَنْهُ ضرّاً، وإنَّما يُقَلِّدُ تَقْليداً أعْمَىٰ، ويَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عَلْم.

• والّذي يُقَاتِلُ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً وَيَنْصُرُ عصبيَّةً، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، واتّباعُهُ هَذا الْتزامٌ بمفاهِيم جاهِلِيَّة لَاحقَّ فيها ولَا رُشْدَ.

• ومُلْتَزِمُ أوامِرِ قَادَةِ الحزب الَّذي يَنْتَمِي إلَيْهِ، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، إذْ قَدْ تَكُونُ أوامِرُ القادَةِ مَدْفُوعَةً بأهْواءٍ ومَصَالِحَ شخصيَّة، فالمُلْتَزِمُ بها من الأفْرَادِ المنتمِينَ إلى الحزب، يَعْمَلُ على تَحْقِيق أهواء القادة، ومصالحهم الخاصَّةِ، ورُبَّما كان هؤلاء القادةُ خائِنين يَعْمَلُون بأوامِرِ أعْداء الأمَّةِ كُلّها، كحِزْبٍ عَرَبيٍّ يَعَمَلُ قادَتُهُ بأوامِرَ سِرِّيَّةٍ من المحَافِلِ الماسُونيَّةِ ذَاتِ القِيادَةِ اليهوديَّةِ في العالم.

ومُلْتَزِمُ مَذْهَبٍ وَضْعِيٍّ مِنْ مَذَاهِبِ الناسِ بكُلّ مَا فِيه، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ ولَا بنَتَائِجِهِ وَلَا بآثارِه عِلْمٌ، وَحِينَ تَظْهَرُ آثَارُ المذهَبِ الفاسِدَةُ والْمُفْسِدَةُ لِلأَفْرَادِ ولِلأُمَّةِ جَمِيعاً، يَقُول: مَا كُنْتُ أتَصَوَّرُ أنَّ هٰذَا المذْهَب سَيُلْقِي بالمجتمع كُلِّه في هذِهِ الأوحال، وهٰذا لَا يَصْلُح عُذْراً، لأنَّهُ خَالَفَ وَصِيَّةَ اللَّهِ ابْتِداءً، فَاتَّبَعَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

ومُلْتَزِمُ مَذْهَب اجْتِهَادِيٍّ في مسَائل الدِّينِ، الْتِزَاماً تَعَصُّبيًّا، فَهُو لَا يَرَىٰ حَقًّا إلَّا مَا ذَكَرَهُ مُدَوِّنُو المذهَبِ في كلِّ مسألَةٍ، وَفي كُلّ قَضيَّة، ويَجْعَلُ كُلَّ اجْتِهَادٍ خالَفَ رَأْيَ مَذْهَبِهِ اجْتِهاداً باطِلاً، يَدْخُلُ فِي عُمُوم الّذِين يَقْفُونَ مَالَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ. مَا أحْكَمَ هذِهِ الوصِيَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ، ذَاتَ الْمَفْهُوم الْكُلِّيِّ الَّذِي هو مِنْ جَوامِعِ الْكَلِم!! إنَّهَا تنْطَبِقُ علىٰ صُوَرٍ كَثيرَةٍ جِدّاً يَصْعُبُ حَصْرُ مُفْرَدَاتها.

• ﴿. . إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾:

المرادُ بالْفُؤادِ هُنَا عُمْقَ الجهازِ الْمُدْرِكِ المفكّر العاقِلِ داخِلِ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّة.

وإثباتُ مَسْؤُوليَّةِ السَّمْع والْبَصَرِ والْفُؤَادِ في الإنْسَانِ، هو في الحقيقة إثْبَاتٌ لِمَسْؤُولِيَّةِ إرَادَتِهِ فِيه، فَهِيَ مَنَاطُ مَسْؤُولِيَّتِهِ في رِحْلَةِ ابْتِلائِه في الحياة الدُّنيا، مُقْتَرِنَةً بِبَاقِي شُرُوط امْتِحَانِهِ الأمْثل.

فَالسَّمْعُ يُقَدِّمُ لِلْقُوَّةِ المدْرِكَةِ الْمُفكِّرَة الْعَاقِلَةِ مِقْداراً كبيراً من المعارف الَّتِي تُبَيِّنُ لَهُ بِوُضوحٍ كثيراً مِنَ الحقائق، ومنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عقلاً أَنْ يَقْفُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

والْبَصَرُ يُقَدِّمُ لَهَا مقداراً كبيراً من المعارفِ، ومِنْها أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

والْفُؤَاد (الّذِي هُوَ عُمْقُ الْقُوَّةِ المفكِّرَةِ العاقِلَةِ في الإنسان) يُقَدِّمُ لَهُ بتَحْلِيلَاتِهِ جُمْلَةً مِنَ الحقائِقِ المعرفيّة، ومِنْها أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَقْفُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

ويُقَاسُ على السَّمْعِ والْبَصَرِ سَائِرُ الحواسِّ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة.
والمعنى: يَا أَيّها الإنْسَانُ ذُو الإرَادَةِ الحرَّةِ الواعِيَة، لَقَدْ مَنَحَكَ رَبُّكَ فُؤاداً تُدْرِكُ بِهِ كثيراً مِنْ حَقَائِقِ الأشياء، بتحليلاتِه الذَّاتِيَّة، وعن طَرِيق مَا تُقدمُ لَهُ حَوَاسُّكَ الظَّاهِرَة، وأجَلُّها السَّمْعُ والْبَصر، فَلَا تَتَّبِعْ في سُلُوكِكَ في الحياة مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم، ففي هَذا الاتّباعِ تَعْطِيلٌ لِمَا وَهَبَكَ رَبُّكَ مِنْ أدواتٍ ظاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ، تَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ تَعْلَمَ الْحَقَّ والصَّوَاب، وَمَا هُوَ الأَرْجَحُ والأفْضَلُ مِنْ غَيْرِه، لِتَحْقِيق مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مضَّرةٍ، فَلِمَاذَا اتَّبَعْتَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، في كَذَا، وكذَا، وكَذا؟؟.

ألـم يَهَبْكَ رَبُّكَ سَمْعاً تَسْمَعُ بِهِ؟!. أَلَمْ يَهبْكَ بَصَراً تُبْصِرُ بِهِ؟!. أَلَمْ

يَهَبْكَ فُؤَاداً تُفكِّرُ بِهِ، وتَعْقِلُ بهِ، وتُدْرِكُ به حَقَائِقَ الأُمُورِ الَّتِي اتبَعْتَهَا وأنْتَ جاهِلٌ لَا تَعْلَمُ أنَّها حَقٌ وخَيْرٌ ورُشْد، وكَانَ باسْتطاعَتِك أَنْ تُدْرِكَ أنَّها بَاطِلٌ وشَرٌّ وإثم، أَوْ أَنْ تكُفَّ نَفْسَكَ عن اتّباعها إنْ لم تَعْلَمْ حَقيقَتَها؟؟!

الوصيّة الرابعة عشرة: النهْيُ عن الكِبْرِ ومِنْ مظاهِرِهِ أنْ يَمْشِيَ الإنْسَانُ في الأرضِ مُسْتَكْبِراً مُتَبَخْتَراً مُتَعَالِياً عَلَىٰ عِبادِ اللَّه، دلَّ على هٰذهِ الوصِيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلّ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرَادِي: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾:

المَرَحُ: الاخْتِيَالُ والتَّبَخْتُر في المشي، وَأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشاطِ وتجاوُزُ الحدِّ فِي الحرَكَاتِ.

وجاء في وَصَايَا لُقْمَانَ لِابْنِهِ قَوْلُهُ لَهُ، كما جاء في سورة [لُقْمانَ/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾:

وصَايا لُقْمَان لابْنِهِ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ اللَّهُ بها النَّاسَ، في الشرائِعِ والرَّسَالَاتِ السَّابقاتِ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ أَوْرَدَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ تعْلِيماً لِلآبَاءِ مَا يُوصُونَ بِهِ أَبْنَاءَهم، وثناءً على لُقْمَانَ إذْ قام بهذا الواجب التَّرْبُويّ تُجاهَ ابْنِه، وإشعاراً بأنَّ هذا مِنْ تعاليم الإسلام.

تَصْعِيرُ الخَدِّ للنّاسِ: إِمَالَةُ الْوَجْهِ عَنْهُمْ علَىٰ سَبِيل الإعراض استكباراً عَلَيْهِم، وهُو ظاهِرَةٌ مِنْ ظَواهِرِ الكِبْرِ في السُّلُوكِ والْعُجْبِ بالنَّفْس.

وكلٌّ مِنْ تَصْعِير الخدِّ للنَّاسِ، والمشْي فِي الأرْضِ على وجْهِ المرَحِ والاختيالِ اسْتِكْبَاراً علَىٰ النَّاس وَافْتِخاراً، وتَعَالِياً عَلَيْهِمْ، ممَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ في عبادِهِ، باسْتِثْناء مَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَةٌ دينِيَّة، كاخْتِيالِ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِم لَدَىٰ مُوَاجَهَتِهِ لِنِدِّه من الكافِرين فِي الحرْب.

[وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرحاً]: أي: وَلَا تَمْشِ أيُّها المؤمنُ الْمُسْلِمُ فِي الأرْضِ مِشْيَةَ تبخْتُرٍ واخْتِيَال وَتَفاخر، فَاللَّهُ عزَّ وَجلَّ لَا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ علَىٰ النَّاسِ، مستَكِبْرٍ بِمِشيَتِهِ، ولَا يُحِبُّ كلَّ فَخوُرٍ على الناس بنَفْسِهِ، أو بما آتاه اللَّهُ من مَفَاخِرِ الحياة الدُّنيا.

وكشَفَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ للمستكْبِرِ المختالِ فِي مِشْيَتِهِ وَاقِعَ حَالِهِ الصغير، فأبَانَ لَهُ أنَّهُ حين يَضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلِهِ، ويتَطَاوَلُ مُسْتَعْلِياً بقَامتِهِ على الناس، لَنْ يَسْتَطِعَ أَنْ يَخْرِق الأرْضَ أو أَنْ يَبْلُغَ الجبالَ طُولاً.

وفي هذا إمْعَانٌ إلْماحِيٌّ بِتَحْقِيرِ المسْتَكْبِرِ، فالأرضُ الَّتِي يَمْشِي علَيْها أَصْلَبُ مِنْ قُوَّتِهِ، والصُّخُورُ الجامِدَةُ المكَدَّسَةُ جِبالاً أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِهِ، فَلَا يَزْعُمَنَّ أنَّ شِدَّةَ الْوَطْءِ، أو تَطاوُل الجسْمِ، يَمْنَحانِهِ عِظَماً حَقِيقِيّاً.

فَمَهْلاً بِنفْسِكَ أَيُّهَا المستَكْبِرُ المتَبَخْتِرُ، إِلَىٰ أيْنَ أَنْت ذَاهِبٌ بِنَفْسِكَ، مُتَطاوِلاً بِجِسْمِك، إِلَىٰ جِهَةِ الأَرْضِ فَتَرْفُسُهَا بِقَدَمَيْكَ، وَإِلَىٰ جِهَةِ السَّمَاء فَتَنْطَحُهَا بِرَأْسِك.

هَوِّنْ عَلَيْكَ، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ مَهْمَا تَبخْتَرتَ عَلَيْها، إِنَّك إِنْ تَحَدَّيْتَهَا هَشَّمْتَ جِسْمَكَ وَحَطَّمْتَه، ثُمَّ إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً، مَعَ أَنَّهَا مَهْمَا عَلَتْ فِي جِسْمِها عَنْ مُسْتَوىٰ مَا انْبَسَطَ مِنَ الأَرْضِ، فَهِيَ أَقَلُّ قِيمَةً مِنَ الإنْسَانِ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِكمالَاتِهِ المعْنَوِيَّة.

فلا تحاوِلْ أَنْ تكْسِبَ الْمَجْدَ بالتَّبَخْتُرِ والْخُيلَاءِ على خلْقِ اللَّه، إِنَّ المجْدَ الإِنْسَانِيَّ لَا يَكُونُ بطُولِ الأَجْسَامِ ولَا بِعَرْضِها، ولا يكُونُ بِتبخْتُرِهَا وَضَرْبِها الأَرْضَ بأقْدامِهَا حِينَ مَشْيها.

فيا لهذا مِنْ تَبْكِيتٍ للمُسْتكبرينَ بديعٍ ورَائع!!

وبَعْدَ أن انتهت الوصَايا (١٤) أَتْبَعَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ بِقَولِهِ مُعقِّباً عليها في خطابٍ مُوَجَّهٍ للرَّسُولِ محمَّد ﷺ ويَتضَمَّنُ بياناً لكلّ صالح

للخطاب، . . ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾: وفي القراءة الأخرىٰ [سَيِّئَةً].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المشارُ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَا سَبَقَ في الوصَايا.

﴿سَيِّئُهُۥ﴾: أي: الجانِبُ السَّيِّئُ مِنْهُ وهو المنهيُّ عَنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المأمُورَ بِهِ مَنْهيٌّ عن ضِدِّهِ، فسَيِّئُهُ هُوَ المنْهِيُّ عَنْهُ وهو ضِدُّ الذي أَمَرَ اللَّهُ به، فضِدُّ بِرِّ الْوالِدَيْنِ والإحْسَانِ إليهما عُقُوقُهما، والإسَاءَة إليهما.

وَقِرَاءة [سَيِّئَةً] تُحْمَلُ علَىٰ المنهِيِّ عَنْه، وعَلَىٰ ضِدِّ المأمُورِ به، فهُو السَّيئة، أي: القبيحة المذْمُومَةُ.

﴿مَكْرُوهًا﴾: أي: غَيْرَ مَحْبُوبٍ.

فالمعنى المستفاد من قوله عزّ وجل: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾: كُلُّ مَا جاء في الوصايا (١٤) السَّابقة في هٰذا الدَّرْس، فالسَّيء المنْهِيُّ عَنْهُ بمَنْطُوقِ اللَّفْظِ أو بمَفْهُومِهِ مَكْرُوه عنْدَ رَبِّكَ بِصِفَة ثَابِتَةٍ دَواماً.

فِعْلُ «كان» هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الكَيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ المستقرة.

• ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ . . . ﴿٣٩﴾﴾:

أبانَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بهٰذا البيان أنَّ مَا جاء في الوصايا (١٤) هو من الحكمة في السُّلُوك الإنساني، وفيه دَلِيلٌ على أَنَّ التَّعْليمات السُّلُوكية الّتي جاءت في القرآن يَنْطبِقُ عَلْيها عنوان: «الحكْمَة» ولَسْتُ أَرَىٰ تخصيصَ عنوان الحكمة بالسُّنَّةِ النَّبويَّة فهماً مِن ظواهِرِ بعض النصوص، بَلْ بَعْضُ ما جاء في السُّنَّةِ عن الرَّسول ﷺ هُوَ مِنَ الحكمة حتماً.

الحكمة: وضْعُ الأشياء في مواضعها الملائمة لهَا، عملاً، أو فِكْراً، أَوْ مَعْرِفَةً وفَهْماً وفِقْهاً، أو اعْتِقَاداً، أو غير ذلك من صُور السُّلُوك الإرادي، أو التعليم الْهَادِي إليْه.

والحكيم: هو الّذِي يضع الأشياء في مواضِعِها الملائمة لها، ويختارُ أفْضَل الأشياء وأتْقَنَهَا وَأحْسَنَهَا في الأمُورِ المختلفة، لمَا يُعْطِي أحْسَنَ نتيجة.

والله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ أحْكَمُ الحاكمين، وأحْكَمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمته بالِغَةٌ الغايَةَ دَواماً فِي كلِّ شيء.

عبارة: ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ تَدُلُّ على أنّ عُنْوانَ «الْحِكْمَةِ» يَنْطَبِقُ على أمُورٍ كثيرة، وهٰذِهِ الوصَايَا بَعْضٌ مِنْها.

ويجبُ أنْ نَفْهَم أنَّ كلَّ مَا أنْزَلَ اللَّهُ علَىٰ رَسُلِهِ وأنبيائه عليهم السَّلام من الوصايا هو من الحكْمة.

وثبت في النُّصُوصِ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ آتَىٰ بَعْضَ عِبَادِه مقادير من الحكمة في الفِكْر وفي السُّلُوكِ وفي اختياراتهم في الحكم والإدارة.

وأنْهَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ هذا الدَّرْسَ بقَوْله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقد سبَق تَدَبُّره عَنْدَ بَدْءِ تَحْلِيلِ هذا الدَّرس، وسبَقَ بيان أنَّ هذا القول بمثابَة حَاصِرٍ ختامي بَيْنه وبَيْنَ الحاصِرِ الأوّل تطابُقٌ في بدايَتِهِ وتكامل في آخِره، وهٰذا مِنْ بدائع القران، فالحاصران من أوّل الدَّرْس ومن آخِره لَيسا مُجرَّدَ إشَارَةٍ رَمْزِيَّة، بَلْ هُو عبارة ذَاتُ دَلاَلَةٍ فِكْرِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ جَامِعَةٍ لمَا جاء بَيْنَ الحاصِرَيْن من جُزْئيات.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدَّرْس الثامن من دُررس سورة (الإسراء) والحمد للَّه على مَدَدِه ومعونته وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٤٠ ـ ٦٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا

شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

القراءات:

٤١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لِيَذْكُرُوا] من فعل «ذكَر».
وقرأها باقي القراء العشرة: [لِيَذَّكَّرُوا] أصلُها لِيَتَذَكَّرُوا، من فِعْل «تَذَكَّر» وبين القراءتَيْن تكامُلٌ، إذْ بَعْضُ الناسِ يَذْكُر ذِكْراً بلَا تَكَلُّف، وبعْضُ الناسِ يَتَذَكَّرُ بِتَكَلُّف حرصاً منه على المسابقة في الخيرات.

٤٢ ـ • قرأ ابن كثير، وحفصٌ: [كَمَا يَقُولُونَ] بالْيَاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [كَمَا تَقُولُونَ] بالتاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في الأداء البياني، إحْدَاهما بالخطاب، والأخرىٰ بالحديث عن الغائبين.

٤٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا تَقُولُونَ] بالتاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [عَمَّا يَقُولُونَ] بالياء.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعْبة، وأبو جعفر: [يُسَبِّحُ لَهُ] بالياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تُسَبِّحُ لَهُ] بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيّان جائزان.

٤٥ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [وَإِذَا قَرَاتَ] بإبْدَالِ الهمزة ألفاً، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَإِذا قَرَأْتَ] بالهمزة.

وهما من اللَّهجات العربيّة.

٤٥ ـ • كلمة «القرآن» هنَا وفي الآية السابقة (٤١) أَبْدَلَ الهمزة أَلِفاً ٱبْنُ كثير، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة.

٤٩ ـ • قرأ نافع، والكسائي، ويَعْقُوب: [أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتا إِنَّا]؟ وقرأها ابْن عامر، وأَبُو جَعْفر: [إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا]؟.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا]؟

ومؤدَّىٰ هـٰذِهِ القراءات واحد، فالاستِفْهام ذُكِرَ أَمْ لم يُذْكَرْ هو مُقَدَّر ذِهْناً.

٥٤ ـ • أبْدَلَ الهمزة مِنْ [يَشا] ألفاً في الموضِعَيْن أبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة وهشام في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة بالهمزة الساكنة: [إِنْ يَشَأْ].

٥٥ ـ • قرأ نافع [النَّبِيئِينَ] مع المدّ المتصل، ولورش ثلاثة البدل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّبِيِّينَ].

وهما وجهان عربيان.

٥٥ ـ • قرأ حمزة، وخَلَف: [زُبُوراً] بضَمّ الزَّاي، وهو جمع «الزِّبْر» وهو المكتوب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [زَبُوراً] بفتح الزّاي، وهو الكتاب المزبُور. ومؤدَّىٰ القراءَتَيْنِ واحد.

٥٦ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: [قُلِ ادْعُوا] بكسر اللّام في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ادعُوا] بضم اللام في الوصل، مراعاة لضم العين.

وهما وجهان عربيّان في النُّطْق.

٥٧ ـ • قرأ أبو عمرو، ويَعْقُوب: [رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ] بِكَسْرِ هاء الضمير وميم الجمع.

وقرأها حمزة، والكسائي، والكِسَائي: [رَبِّهُمُ الْوَسِيلَةَ] بضمهما.

وقرأها باقي القراء العشرة، بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم: [رَبِّهِمُ الْوَسِيلَة] وهي وجُوهٌ عربيَّة في النطق.

٦٠ ـ • قرأ السُّوسي: [الرُّويَا]. ورواية في الوقف لحمزة.

وقرأها أبو جعفر: [الرُّيَّا]. ورواية في الوقف لحمزة.

وقرأها بَاقي الْقُرّاء العشرة: [الرُّؤْيَا].

تمهيد:

هذا الدَّرس يَشْتِمل على مُتَابعةِ معالجاتٍ للّذين كَفَرُوا من مُشْرِكِي مكَّة، بحَسَب المواقف الَّتِي كانُوا عليها إبَّانَ تَنْزِيل السورة، وهذه المواقف مِنْهَا مَا هُوَ قَدِيم ومِنْها ما هُوَ جَدِيد.

التدبّر التحليلي:

باستطاعة المتَدَبِّر أن يُقَسِّمَ هـٰذا الدَّرْسَ إلى (٧) فُصُولٍ مُتَشَابِكَةِ الْخُطُوطِ الْفِكْرِيَّةِ فيما بينها.

وهـٰذه الفصُول تُعَالِجُ مشركي مكَّة إبّان تنزيل السورة بشأنِ عَدَدٍ من المواقِف التي يُصِرُّونَ علَيْها وبشأنِ أسْئِلَةٍ تَرَدَّدَتْ في نُفوسِهِمْ، أو طَرَحُوها وطَوَىٰ النَّصُّ القرآنِيُّ ذِكْرَهَا، مُكْتَفِياً بالإجابَةِ عَلَيْها. وفيها تعْلِيمٌ للرسول

وتَرْبِيةٌ له، وكشْف لَمْحَةٍ من تارِيخ الناس المستقبليّ بالنِّسْبَةِ إلى دِينِ اللهِ لعباده، وعقوبات اللهِ لهم، وبيانٌ بشَأنِ حِكْمَةِ اللهِ في عدم استجابتِهِ لمطالب المشركين إذْ ألَحُّوا في المطالَبَةِ بإجراء آياتٍ مادّيَّة كبرى. وبيان أنّ اللهَ عزّ وجلّ يُخَوِّفُ الكافرين بصُوَرٍ مختلفةٍ من التخويفات، إلّا أنهم لم يكونوا يَكْتِرِثون لَها، بل يَزِيدُون طُغْياناً.

الفصل الأول

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لمدّعِي أنّ الملائكة بنَاتُ الله من المشركين.

﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

أصْفَاكُمْ: أي: آثَرَكُمْ. والفاء في: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تعطف على محذوف.

رَبُّكُم: أي: خَالِقُكُمْ ومُمِدُّكُم بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِهِ دَواماً ما دُمْتُم في الْوُجُودِ، وهُو الَّذِي يَبْلُوكُمْ، وَيُحَاسِبُكُمْ، ويَفْصِل القضاء بشأنِكُمْ، ويُجَازِيكُمْ يَوْمَ الدّين.

والمعنى: أتَنَازَلَ رَبُّكُمْ عَنْ وَحْدَانِيَّته في رُبُوبيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ، وفَضَّلَكُمْ علىٰ نَفْسِهِ، فَآثَرَكُم بالْبَنِينَ، واتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الملائِكَةِ إنَاثاً بالْوِلاَدَةِ، أَوْ بالتَّبَنِّي، ثُمَّ جَعَلَهُنَّ شركاءَ لَهُ فِي إلَهِيَّتِهِ، المسْتَلْزِمَةِ لمشارَكَتِهِمْ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ؟!!

إنَّ هـٰذا الأَمْرَ قبيحٌ مِنْكُمْ جدّاً أنْ تَعْتَقِدُوه وَتَقُولُوه، لمنافَاتِهِ لِلْحَقِّ والْوَاقِعِ، ولكُلِّ منْطِقٍ عَقْلِيٍّ سَلِيمٍ، ولكُلِّ رَأْيٍ سَدِيد.

إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً شَنِيعاً جِدًّا في وَصْفِ رَبِّكُمْ بما هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً أنْ يتَّصِفَ به.

الملائِكَةُ مُخْلُوقُونَ مِنْ نُور، وهُمْ عِبادٌ للهِ مُكْرَمُون، وأجْسَادُهم نُورانيّة، فلا يراهُمُ الْبَشَرُ بحَسَب العادة، وهُمْ قَادِرُونَ علىٰ التَشكُّلِ بالْأَشْكالِ الجسمانيَّة الَّتي يَسْتَطِيعُ البشر أَنْ يَرَوْها.

ولفظ «مَلائكة» جَمْعٌ مُفْرَدُه «مَلَك» و«مَلَاك» ومادّةُ الكلمة مأخوذَةٌ من «الْأَلُوك» و«الْمَأْلَكَة» و«الْمَأْلُكة» بمعْنَىٰ الرِّسَالَة الّتي يَحْمِلُها الرَّسُول، ويُؤَدّيها حسْبَ التْكليف، يقالُ لغةً: «أَلَكَ بَيْنَ الْقَوْمِ أَلْكاً، وأُلُوكاً» أي: حَمَلَ بَيْنَهُمْ رِسالَة.

ولمَّا كانت الملائكةُ رُسُلَ رَبِّهِم في كَوْنه، لتأدِيَة الوظائف الَّتي يَأْمُرُهُمْ بها، كانَ مِنَ المناسِبِ تَسْمِيَتُهُمْ مَلائكة، الواحد منهم «مُلْأَكٌ» أي: حَامِلُ رِسَالَة، وبتسهيل الهمزة صَار اللَّفْظُ يُنْطَقُ «مَلَاكاً» ثُمَّ بِحَذْفِ الألف صَارَ «مَلَكاً».

وقَدْ سَبَقَتْ دِراسَةُ عقيدةِ مُشْركي الْعَرَب في الجاهلية بِتَدَبُّرِ النصوص القرآنيَة الوارِدَة حَوْلَها، في الملْحَقِ الثاني مِنَ مَلَاحِقِ تدبُّرِ سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) حول معالجة المشركين بشَأْن عَقِيدَتِهِم في الملائكة. فلْيُرْجَعُ إليه[١].

الفصل الثاني

قال الله عزّ وجلّ بشأن المشركين تُجاه تَصْرِيفه العلاجيّ لهم في القرآن المجيد:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

التصريف: التَّنويع والتغيير، واتّخاذُ مختَلِفِ الوجوه الممْكِنَة للوصل إلى الغاية، أو لمعالجة الأمْرِ الّذي يرادُ التأثير فيه بأحسن الوسائل.

والتَّصْرِيف في القرآن هو تنويع أساليب الحجج والْبَراهينِ

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الثاني، في الصفحات من (١٧٢ ـ ١٩٣).

والإقناعات، وتنويع أساليب الترغيب والترهيب والتربية، بحَسب اختلاف طبائع الناس، ومستَويَات قُدْراتِ الفهم لَدَيهم، وبحَسَب ما لدىٰ أصنافهم من استعداداتٍ للاستجابة، وقدرةٍ على مُخالفةِ أهوائهم وشهواتهم، ومخالفة المعْتَاد المألُوف من الْبَاطِلِ أو الشّرّ، أو ما فيه ضرٌّ أو أذىً.

ويَسْتَوفي هذا التَّصْرِيفُ كلَّ الاحتمالات الّتي يُرْجَىٰ نَفْعُها ولَوْ لبَعْضِ الأفراد أو الجماعات، لقطع أعْذَارِ المكلَّفِينَ، حتَّىٰ لا تكونَ لَهُمْ حُجَّةٌ عِنْدَ رَبّهم.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾: أصْلُها: «لِيَتَذَكَّرُوا» أدْغِمتِ التّاءُ بالذّال فَصَارَتْ ذالاً مُشَدَّدَة. واللّام الجارّة معناها التعليل، على تقدير لتهيئة كلّ ما من شَأْنِه أَنْ يَتَذَكَّروا بِهِ باختيارهم الحرّ، وبهذا التَّصْريف تنقطع أعْذارُهم. وليس المراد: ليتحقَّقَ تَذَكُّرُهم في الواقع، فلَوْ كان هذا هو المراد لتَذَكَّرُوا جَمِيعاً، لأنّ ما يُريدُه اللهُ لا يمكن أنْ يتخلَّف.

التَّذَكُّر: اسْتِدْعَاءُ الْمَعْلُومَةِ المخْتَزَنَةِ في الحافِظَةِ مِنْ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ في النَّفْسِ، إلَىٰ سَاحَةِ الْمُدْرَكَات الحاضِرَة المشهودَةِ بِعَيْنِ التَّفكُّرِ عِنْدَ التَّذكُّر، والْغَرَضُ حَثُّ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ على الاستِبْصار، بُغْيَةَ إدْرَاكِ الحقِّ الّذِي يَهْدِي إلَيْهِ التَّصْرِيفُ في الْقُرآن، فَمَنْ رأىٰ الحقَّ حقًّا، وكَانَ لَدَيْهِ اسْتِعَدادٌ نَفْسِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ به، ولَوْ خالَفَ أهواءَهُ وشهواتِهِ، ومَطَالِبَهُ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، كانَ تَذَكُّرُهُ قائِدَهُ إلى الالْتزام بالحقّ، والالْتِزَام بما يَدْعُو إلَيْهِ الحقُّ من سُلُوكٍ في رِحْلَةِ امْتِحانِهِ في الحياة الدُّنيا.

فالْغَرَضُ من التَّصْريف في القرآنِ، أنْ يكُونَ وَسِيلَةً من الوسائِلِ الّتِي يَتَذَكَّرَ بها الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، وعندئذٍ يَنْتَفِعُ بالتَّذَكُّرِ الّذِينَ لَديهِمُ استعدادٌ نَفْسِيٌّ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة الحقّ، على مقدارِ ما لَدَيْهِم من استعدادٍ لمخالَفَةِ أهوائهم وشهواتِهِم ومطالِب نفوسهم من الحياة الدُّنيا، وبهذا تتفاضَلُ استجابَاتُهُمْ.

والضَّمِيرُ في [ليذكروا] يَعُودُ على المعنِّيينَ بالمعالَجَةِ في هذا الدَّرْس، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ المعانِدُون، الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهِم ومُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِم، ولهذا جاء في وصْفِهِم قول اللهِ عزّ وجلّ في الآية:

● ﴿...وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾: أي: ومَا يَزِيدُهُمْ هـٰذا التَّصْرِيفُ في القرآن، وهـٰذا التَّذَكُّرُ الّذِي يَحْصُل لَهُمْ في سَاحَةِ المدْرَكات الحاضِرات المشْهُوداتِ بِعَيْنِ التفكّر إلّا نُفُوراً.

النفور: الصَّدُّ والابْتعادُ كحالَةِ المذْعُور الشارد، أو المتَمَنِّعِ المتراجِعِ بحِرَان.

إنّ من شأن التَّصْرِيف في القرآن المذكّر لَهُمْ أَنْ تَتولَّدَ به لدَيْهم القَنَاعَةُ الكافِيَةُ بالْحَقّ الرَّبَّانِيّ، وبالهدايةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلَّتِي هي أَقْوَم.

ولمَّا كَانَ التَّصْرِيفُ القرآنيُّ الْمُتَتابعُ عَلَيْهِمْ لَا يَزِيدُهُم إلَّا نُفوراً، كَانَ هـٰذا دَلِيلاً عَلىٰ أنَّ عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ لَيْسَتْ عَدَمَ اقْتِنَاعِهِم بالحقِّ والْهُدَىٰ، وإنَّما هي غَلَبَةُ أهوائِهم وشهَواتِهِمْ والتعلُّقِ بمطالب نفوسِهم من زيناتِ الحَياةِ الدُّنيا، على إراداتِهِمْ، ويَشْمَلُ هـٰذا حُبَّهُمْ للعَاجِلَة وإيثَارَهَا علَىٰ الآخِرَة، وهذا مَوْصُولٌ بأحَدِ خُطُوطِ السُّورَةِ وهو بيان أنَّ الإنْسانَ عَجُول.

وقد نَزَلَ بشَأْنِ التَّصْرِيفِ في القرآنِ قَبْلَ نُزُول هـٰذا النّصّ نَصَّانِ آخران:

الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن القرآن:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾:

أي: فأبَىٰ أكْثَرُ مُشْرِكي مَكّة إبَّانَ التّنزيل ومَنْ تَأَثَّرَ بِهِم إلَّا شِدَّةً فِي الكُفْر.

الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾:

فدلَّ نصُّ سورة (طـه) علىٰ أنّ المقصودَ بالتّصْريف في القرآن من الوعيد الرَّغْبَةُ في أنْ يَتّقُوا عِقَابَ الله لهم، أو في أنْ يُحْدِثَ لَهُمُ الوعيدُ ذِكْراً ذا تأثيرٍ ما فيهم.

ودَلَّ نَصُّ سُورَة (الفرقان) على أنّ أكْثَرَ مُشْرِكي مكة قد أبَوْا إلّا غُلُوّاً في الكُفر، مع ما حَصَل لَهُمْ من تَذَكّر.

ودَلّ نصُّ سورة (الإسراء) على أنَّ هؤلاء المعالَجِينَ، مَا كَانَ يَزِيدُهُمُ التَّذكّر الّذي يَحْصلُ لَدَيهم بالتّصريف في القرآن إلّا نُفُوراً.

فبين هٰذِهِ النُّصُوص تكامُلٌ ظاهر.

الفصل الثالث

قال الله عزّ وجلّ يُعَلِّم رَسُولَهُ ﷺ فكُلَّ داع إلى الله مِنْ أمّتِه فِقْرَةً جَدَلِيَّةً مِن فقرات مجادَلَةِ المشركين، مع تَعْقِيبٍ رَبّانِيٍّ كاشف للحقّ:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

وفي قراءة جمهور القراء العشرة: [**كما تقُولُونَ**] خطاباً للمشركين.

اشتملت الآية (٤٢) من هٰذِهِ الآياتِ على تعْليم حُجَّةٍ بُرهَانِيَّةٍ تُثْبِتُ أنَّهُ لَا يُوجَدُ آلِهَةٌ مَعَ اللهِ عزّ وجلَّ كَمَا يَفْتَرِي المشْرِكُون.

يَزْعُمُ المشْرِكُونَ أنَّهُ تُوجَدُ آلِهَةٌ حَقٌّ مَعَ اللهِ، ولَهَا تصاريفُ في الكَوْن، وتَأْثِيراتٌ في النَّاسِ، وَتَنْفَعُ مَنْ يَعْبُدُها.

إنَّ الإلَهَ الحقَّ لا بُدَّ أنْ تَكُونَ لَهُ مُشارَكَةٌ للهِ في صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، وَمَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا مَا يَشَاءُ في الْكَوْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نِدّاً للهِ جلَّ جلالُهُ، والنِّدُّ لا بُدَّ أنْ يُنَفِّذَ مَا أَرَادَه، فإذا كَانَ مُرَادُه مُعَارِضاً لمُرَادِ نِدِّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْطَدِمَا، ليُنَفِّذَ كُلٌّ مِنهما مُرَادَه، فَمِنْ صفاتِ الرَّبِّ أَنَّهُ إذا أرادَ شيئاً فَعَلَه.

لكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْن خاضِعٌ لنِظَامِ رَبٍّ واحِدٍ، وكُلُّ جُزْءٍ فِيهِ محْكومٌ بقوانِين الوحْدَةِ الكليَّةِ للكَوْن، على الرُّغْم من وُجودِ احْتِمالاَتٍ كثيراتٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الكَوْنُ عليها، هذا يَدُلُّ على أنَّ المختارَ الخالِقَ الرَّبَّ هُوَ وَاحِدٌ لِلْكُونِ كُلّه.

فَلَوْ كانت الْآلِهَةُ الأرْبَابُ الَّتي يُؤْمِنُ بها المشْرِكُونَ لَهَا رُبُوبيَّاتٌ حَقِيقيَّةٌ يَقْدِرُونَ بها علىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُون، لَمَا تَرَكُوا رَبَّ الْعَرْشِ والسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ يُمْسِكُ بنواصِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ من جُزْئيَّاتِ الكَوْنِ، وَيَتَصَرَّفُ بِهِ عَلَىٰ مُرَادِهِ ضِمْنَ قَوَانِينِهِ العامَّةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْهُ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، ولَابْتَغَوْا إلى مُقَاوَمَةِ ذِي الْعَرْشِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ لتَحْقِيقِ مُرَادَاتِهِمْ ولَوْ في حُدُودِ رُبُوبِيَّاتِهِم الجزئِيَّة.

• ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾: أي: قُلْ أيُّها الدّاعي إلى اللهِ للمشركين، الّذين يَعْتَقِدُونَ أنَّ لِشُرَكائهمْ قُدراتِ خَلْقٍ هِيَ من صفاتِ الرُّبُوبِيَّة، كالنَّصْرِ علىٰ الأعْدَاء، والرِّزْقِ، وَهِبَةِ الذُّرِّيَّةِ، والتأمِينِ في المخاوف.

فالمعنى: لو كانَ مع اللهِ آلِهةٌ أرْبابٌ ولَوْ ضِمْنَ حُدُودِ رُبُوبِيَّاتٍ مَحْدُودات.

• ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ في الحديث عنهم، وفي قراءة جُمْهور القُرَّاء العشرة: **[كما تقولون]** خِطَاباً لَهُم.

• ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: أي: إذَنْ لكان من أمْرِهم أنْ

طَلَبُوا سَبِيلاً يُمَكِّنُهُمْ مِنْ كَفِّ سُلْطَانِ ذي الْعَرْشِ، عَنْ المجَالاَتِ الَّتِي يُرِيدُون أَنْ يُحَقِّقُوا فِيها رُبُوبيَّاتِهِم، بِتَنْفِيذِ مُرَادَاتِهِمْ الَّتِي يُرْضُونَ بِهَا عَابِديهمْ.

﴿إِذًا﴾ «إِذَنْ» حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الكلام معناه الجواب والجزاء لكلامٍ سابق.

﴿لَّٱبْتَغَوْاْ﴾: أي: لَطَلَبُوا. «بَغَىٰ الشيءَ وابْتَغَاه» أي: طَلَبَه.

• ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: أي: إِلَىٰ صَاحِبِ العرشِ وهو الله جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُه.

﴿سَبِيلًا﴾: أي: طَرِيقاً مَادِّيًا أوْ مَعْنَوِيًّا يُمَكِّنُهُمْ من تَحْقِيقِ رُبُوبياتهم بِفِعْلِ مَا يُرِيدُونَ فِعْلَهُ لعبادِيهم في الأرض.

لكنَّهُمْ لم يَسْتَطِيعوا ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُمْ رُبُوبيَّةٌ ما، فليس لَهُمْ إِلَهيَّةٌ ما.

بَعْدَ هٰذا التَّعْلِيمِ الْجدَليّ أبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ مُنَزَّهٌ تَنْزِيهاً كامِلاً عَنْ كُلِّ مَقالاَتِ المشْرِكينَ الشِّرْكيَّة، فقال تعالى:

• ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: تنزَّهَ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ وتَعَالَىٰ عُلُوًّا لَا حُدودَ لَهُ ولا نِهَاية، وَتَرَفَّعَ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تليقُ بجَلاَلِهِ وعظيم سلطانه.

تَعَالَى: أي: عَلَا عُلُوًّا لَا حُدود له ولا نِهايَةَ له، فَهُو مُتَرَفِّع عَنْ كُلِّ الصفات الّتي لَا تليق به، ومتَنَزّهٌ عَنِ الحاجَةِ لذَاتِهِ أَوْ لِصفَاتِهِ.

• ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: أي: عَمَّا يَقُولُ المشرِكُونَ مِنْ مَقَالاَتِ شِركِيَّةٍ، تَجْعَلُ مَعَ اللهِ إلَهاً، أَوْ تَجْعَلُ مِنْ دُونِهِ إلَهاً، مَهْمَا كَانَتْ مُشَارَكَتُهُ له في اعْتِقَادِهِمْ صَغِيرَةً أَوْ جُزْئِيَّةً.

• ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أيْ: عُلُوّاً كبيراً لَا تَحُدُّهُ حُدود.

• ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ... ﴿٤٤﴾﴾:

أي: تُنَزِّهُ بِصُوَرٍ كَثِيرَةٍ من التَّنْزِيهَاتِ الْمُوَجَّهَاتِ للهِ عزّ وجلّ، السَّمَاوَاتُ السَّبْعَ والْأَرْضُ وَذَوَاتُ مَنْ فِيهِنَّ مِنْ كُلِّ ذي عِلْم.

التَّسْبيح: التَّمجيدُ بالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ بِبَيَانِ براءة اللهِ عزّ وجلّ مِنها. بخلافِ «التَّوْقِير» إذْ هو التمجيدُ بالصِّفَاتِ الْوُجُودِيّةِ الّتِي هِيَ مِنْ كَمَالَاته جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

أمّا تَسْبِيحُ ذَوَاتِ الكائِنَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إدْرَاكٌ عَلميٌّ، فإنْ كان بِلِسَانِ حَالِها، فصِفَاتُها الَّتِي خَلَقَها اللهُ عزّ وجلّ كامِلَةَ الإبْدَاع والإتْقَانِ تَدُلُّ دَلَالَةً عَقْلِيَّةً علىٰ تَنْزِيه الرَّبّ جلَّ جَلَالُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَليقُ به، يفْقَهُ هذا مَنْ يَفْقَهُهُ ويَغفُلُ عَنْهُ الغافلون.

واللهُ قديرٌ علىٰ أنْ يَجْعلَ كُلَّ ذرَّةٍ من ذَرَّاتِها تَنْطِقُ بِمَا يَدُلُّ علىٰ تَسْبِيحِ اللهِ عزّ وجلّ.

وشواهِدُ هٰذا في مُكْتَشَفَاتِ هٰذا الْعَصْر صَارَتْ تُقَرِّبُ إلَىٰ الْأَذْهَان أنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْطِقَ كُلَّ شيء، إنَّ شَرِيحَةً مَعْدَنِيَّةً بِحَجْمِ رَاحَةِ الكَفِّ ممَّا يُعَدُّ للكُومْبيوتر، تَنْطِقُ بِوَسَاطَةِ جهازٍ مِنْ مكتَشَفَاتِ الناسِ بِكَلَامٍ قَدْ يُفَرَّغُ فِي كُتُبِ خِزَانَةٍ كامِلَةٍ، فَلَيْسَ مِنَ المستَغْرَبِ أنْ يَجْعَلَ اللهُ عزّ وجلّ ذرَّاتِ كُلِّ شَيْءٍ في الكونِ مَفْطُورَةً عَلَىٰ التَّسْبيحِ الموجَّهِ للهِ الّذي خَلَقَهَا وَيُمِدُّهَا دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

• ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾:

• ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾: أي: وَمَا مِنْ شيءٍ في الوجود كُلِّه إلَّا يُسَبِّحُ اللهَ تَسْبِيحاً مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، أي: يُنَزِّهُ اللهَ ويثني علَيْه بصِفَاتِ كماله.

«إنْ» أدَاةُ نفيٍ مثل «ما». وفي الجملَةِ قَصْرٌ بالنَّفْيِ والاستِثْنَاءِ، وهو قَصْرٌ إضَافيٌّ.

ويَدْخُلُ في هـٰذا الْعُمُوم كُلُّ ذَرَّةٍ فَهِي شيء، وكُلُّ نواةٍ في الذَّرَاتِ فهِيَ شيء، وكَلُّ «أليكْترون» يَدُور حولَها فَهُو شيءٌ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾: **الفقه**: الْفَهْمُ. والفِطْنَةُ. ويُسْتَعْمَلُ الْفِقْهُ للدَّلَالَةِ علىٰ العِلْم بِبَوَاطِنِ الْأُمور، وخَفَايَاها، وَبواطِنِها، فهو أَخَصُّ مِن مُطْلَقِ الْعِلْم على هذا.

فالّذِين يُدْرِكُونَ إدْراكاً عَقْلِيًّا، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ يُسَبِّحُ بِلِسَان حالِهِ عن طَرِيق إدْراكِ إتْقَانِ خَلْقِ اللهِ له، تَسْبيحاً مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، يَعْجِزُونَ عَنِ الْعِلْم بِبواطِنِ أمُورِها وخَفَايَاها في أعماقها الّذي هُو الْفِقْهُ. والْغَافِلُونَ بَعِيدُونَ جدًّا عن فَهْمِها وإدْراكِها.

• ﴿.. إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾: جَاءَ هـٰذا الْبَيانُ تَعْلِيلاً لسؤال مَطْوِيٍّ، وإطْمَاعاً للذّينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقّ، بأنّهُمْ إذا تَابُوا وآمَنُوا وأسْلَمُوا غَفَرَ اللهُ لهم.

والسُّؤال المطويُّ الّذِي يكْشِفُهُ التَّدَبُّرُ ذِهْناً: لِمَ لَمْ يُنْزِل اللهُ عِقَابَهُ بالمشْرِكِين الْمُصِرِّينَ على كُفْرِهِمْ عناداً وَجُحُوداً؟.

والجواب: إنَّ اللهَ كَانَ حَلِيماً، أي: إنَّهُ حَلِيمٌ دَواماً بعباده، وفعل «كانَ» هنا يَدُلُّ على الكيْنُونَةِ الدَّائِمَة.

الْحَلِيم: أي الكثير الْحِلْم الَّذِي لَا يَعْجَلُ بمُعَاقَبَةِ عباده الْمُجْرِمِين، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا، ويَسْتَجِيبُوا لِرَبّهِم فيما دعاهم إليه، فإذا استجابُوا غَفر لهم لِأَنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ غَفُور، كثير المغفرة لعباده.

الفصل الرابع

قال الله عزّ وجلّ خِطاباً لِرَسُولِه وبَيَاناً لِوَاقِعِ حالِ أئِمَّةِ المشركينَ في مَكَّة حِينَما كَانَ يَتْلُو عليهم القرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

في هذه الآيات بيان الصّفات الّتي تَتَّصِفُ بها على التّوزيع زُمَرُ أَئِمَّةِ المشركين، في مكَّةَ ومَا حَوْلَها إبَّانَ التنزيل، وهُمُ المعنيُّونَ بالمعالَجَةِ في السُّورة، وفي عِدَّة سُوَرٍ قَبْلَها، تُجاهَ سَمَاعِهم القرآن، وقد جاء في السُّورة الحديثُ عن القرآن وما فيه من هداية تبشير وإنذار في الآية (٩) فهذا البيان موصول بخطِ الحديث عن القرآنِ في السورة مع خطِّ المعالجين.

ولكلّ زُمْرَةٍ من زُمَر هؤلاء المعنيين بالمعالَجة، صِفَةٌ تُلائم الدَّرَكَة الكُفْرِيَّةِ الَّتِي هُو فيها، وقد جاء الكلام عَامًّا بِشَأْنِهم، إلَّا أنَّ باستطاعَةِ المتفكّر المتدبّر أنْ يُدرِكَ أَنَّهُ بَيَانٌ مُقَسَّمٌ علَىٰ زُمَرِهِم، ولدَىٰ تَفْصِيل الصفات الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَاهذا البيان ظهر لي أنّها أرْبَعُ صفات:

الصّفة الأولى: انصرافُ نُفُوسهم عن اسْتِمَاعِ القرآن انصرافاً كُلّيًا، وهذه الصّفة تَظْهَرُ لَدَى زُمْرَةٍ مِنْهم.

دلَّ على هـٰذِهِ الصِّفَةِ قولُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً للرَّسُولِ ويلحق به دعاة أُمَّتِهِ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

إنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ، الَّتِي يَكُون فيها الجزاء على مَكْسُوبَاتِ

الموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، هم مُتَعَلِّقُون بشهواتِهِم وأهوائهم من الحياة الدُّنيا، لَا يَعْنِيهم شَيْءٌ ممَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيَان، فمِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفوسُ بخَلْقِ اللهِ أَنْ تَنْصَرِفَ عمَّا لَا يَعْنِيها وهِيَ مَشْغُولَةٌ شُغْلاً تامًّا بما يَعْنِيها، فإنْ كان الذي لَا يَعْنِيها مَسْمُوعاً فإنَّها لَا تَسْمَعُه، وإنْ كان مَرْئِيًّا فإنَّها لَا تَرَاه.

قَدْ تَسْمَعُ أذانُهُمْ أصْواتاً غَيْرَ ذَاتَ دَلَالَة، وقَدْ تَرَى عُيُونُهُمْ أشْباحاً لَا تُمَيِّزُ بَيْنَها.

والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وُجُودُ حجابٍ خَفِيٍّ من انْشِغَالِهم التامّ فيما يَعْنِيهِمْ، وهذا الحجابُ الْخِفِيُّ المسْتُور يَحْجُبُ عن أسْمَاعِهِم إدْرَاكَ الأقوال الَّتي تَطْرُقُ آذانَهم، فإذا سُئِلُوا بَعْدَ ذلِكَ: مَاذَا سَمِعْتُمْ؟ قَالُوا لم نَسْمَعْ شيئاً. وهذا الحجابُ الْخفيُّ المستورُ يَحْجُبُ عن أبْصَارِهم إدْرَاك مَا عُرِضَ عَلَيْها، فإذا سُئِلُوا بَعْدَ ذَلك: مَاذا رأيْتُمْ؟ قَالُوا لَمْ نَرَ شَيْئاً.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أصْلُ القِرَاءَةِ النُّطْقُ بِمَكْتُوبٍ علَىٰ شيءٍ بقَلمٍ مَا، وبالتَّوسُّعِ في الاسْتِعْمَالِ أُطْلِقَتْ على المنْطُوق من الكلام ولو كانَ اسْتَدْعاءً من الذَّاكِرَة، وليشْمَلَ النَّصُّ ما يَقْرَؤُه من المكتوب غير الرسول ﷺ.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: جعَلْنا بَيْنَك وَبَيْنَ اسْتِمَاع الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ لِقَرَاءَتِكَ الْقُرْآنَ حِجاباً مَانِعاً مِنْ وُصُولِ قِرَاءَتِكَ إلَىٰ أسْمَاعهم، وهذا الحجابُ مَسْتُورٌ غَيْرُ مَرْئِي، فَهُو أثَرٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ أثَار صَدِّ نُفُوسِهِمْ عن تَلَقِّي الْقُرْآنِ، بِسَبَبِ عَدَمِ إيمَانِهم بالجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ الدِّين.

والمرادُ بالْجَعْلِ هُنَا ما جَبَلَ اللهُ عَلَيْهِ النُّفُوسَ بالتَّكْوِين العامّ، فَكُلُّ مَنْ لم يُؤْمِنْ بالآخِرَةِ وَمَا فِيها مِنْ جَزَاءٍ رَبَّاني، يَنْصَرِفُ انْصِرَافاً تامّا عَنْ

تَفَهُّم أوْ تَلَقِّي مَعَارِفَ إيمانِيةٍ فِيها إبْعَادٌ لَهُ عَمَّا هو مُتَعَلِّقٌ بِه من أمُورِ دُنْياه.

الصفة الثانية: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ من المعْنِيِّين بالمعالجة، يَسْتَمِعُونَ آياتٍ من القرآن تُقْرأ عليهم، وتَصِلُ إلى مواطِنِ السَّمْعِ في أدْمِغَتِهِمْ، لكِنَّهُمْ لَا يُعْمِلُونَ قُدْراتِ التفكير لدَيْهم في فَهْمِ دلالاتها.

دلَّ على صِفَةِ هٰذِهِ الزُّمْرَةِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا... ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أغْطِيَةً، جَمْعُ «كِنَان» وهو الغِطَاء، وكلُّ شيءٍ يَقِي شيئاً يَسْتُرُه.

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلاً شديداً في السَّمع. وقد يَصِلُ الْوَقْرُ إلَىٰ الصَّمَم.

والمرادُ بالْجَعْلِ هنا أيْضاً مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النفوس الإنْسانيَّةُ كُلُّها. إذَا انْحَطَّتْ بإرادَاتِها الحرَّةِ إلى دَرَكَةِ أنَّها تَسْمَعُ الأقوال الْهَادِيَةَ ولَا تَفْقَهُ دَلَالَاتِها، لِأَنَّ قُلُوبَها وهي مَرَاكِزُ التفكير والْفَهْمِ والْوَعْيِ في أكِنَّةٍ، وهٰذِهِ الْأَكِنَّةُ تَحْجُبُ عَنْهَا الإدْرَاكَ بِفَهْمٍ وَوَعْيٍ لدَلَالَاتِ الأَقْوَالِ الَّتِي تَصِلُ إليها، علىٰ أَنَّ هٰذِهِ الأقوال الهادِيَةَ إذاً وَصَلَتْ إليها فإنَّهَا تَصِلُ إليها باهِتَةً ضعيفَةً بسَبَبِ الوقْرِ الّذِي في آذانِهِمْ، وهو ما أحْدَثَهُ انصرافُهُمْ عن الآخِرَةِ وتَعَلُّقُهُمْ بالدُّنيا، وأهوائهم وشهواتهم منها.

وظاهِرٌ أنَّ مَرَضَ هٰذِهِ الزُّمْرَة أخَفُّ قَلِيلاً مِنْ مَرَضِ الزُّمْرَةِ الأولى.

- ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: أكِنَّةً حَاجِبَةً لَهُمْ عَنْ فِقْهِهِ.

الصِّفَة الثالثة: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ مِنَ المعْنِيِّينَ بالمعالَجة، يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ اسْتِمَاعِ الْقُرآنِ، وَيَفْهَمُونَ بَعْضَ آيَاتِه، لكِنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا آيَاتٍ دَالَّاتٍ علىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلٰهِيَّتِهِ، وفَهِمُوا مِنها الدَّلَالَةَ علىٰ بُطْلَانِ مَا

يَعْبُدُونَ مِنْ آلِهَة، ضَاقَتْ صُدُورهم، واشْمَأَزَّتْ نُفُوسُهُمْ، لتعَلُّقِهم بآلِهَتِهِمْ، وَوَلَّوْا على أدْبارِهِمْ نافِرِينَ مِنَ الْمَجْلِسِ الّذي يُقْرأ فِيهِ القرآن.

دلَّ على صِفَةِ هٰذِهِ الزُّمْرَةِ قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . .وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾: **وَلَّوْا**: أي: أدْبَرُوا ونَأَوْا.

عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ: أي: جَاعِلِين مَا كَرِهُوا اسْتِمَاعَهُ من توحِيدِ الرُّبوبيَّةِ والإلٰهِيَّةِ للهِ عزّ وجلّ وَحْدَهُ، وإبْطَالِ آلِهتهم الَّتي يَعْبُدُونها مِنْ دُون الله، مَطْرُوحَةً على أُبَارِهِمْ، غَيْر عابئِينَ بها، وَلَا مُكْتَرِين لَها، لمخالفتِها لمَأْلُوفَاتِهِمْ الاعتقاديّة الَّتي يَتَشبَّثُونَ بها.

نُفُوراً: أي: وَلَّوْا حَالَةَ كَوْنهم نَافِرين. **النُّفُور**: الصَّدُّ والابْتِعاد كحالَةِ المذْعُور الشَّارِدِ، أو الْمُتمنِّع المتَراجِعِ بِحِرَان. ويُلَائِمُ هذا المعنى أنْ نَفْهَمَ: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ بمَعْنَىٰ تَرَاجُعِهِمْ تراجُعاً علَىٰ الأمْكِنَةِ الواقِعَةِ خَلْفَ أدْبارِهم، وَوُجُوهُهُمْ إلَىٰ جِهَةِ مَجْلِس تِلَاوَةِ الْقُرْآن، أو قراءَتِه.

وظاهِرٌ أنَّ مَرَض هٰذِهِ الزُّمْرَةِ أخفُّ من مَرَضِ الزُّمْرَتَيْنِ: الأولى، والثانية.

الصِّفَة الرَّابعة: وَتُوجَدُ زُمْرَةٌ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآن، ويَفْهَمُونَ من دَلَالَاتِ آيَاتِهِ على مَقَادِيرِ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْراتِ فَهْم، ويُدْهِشُهُمْ مَا سَمِعُوا مِنْهُ، ويُدْرِكُونَ بَعْضَ مَا فِيهِ مِنْ إعجازٍ بَلاغِيّ هُوَ فَوْقَ مُسْتَطاعِ الْبَشَر، وَيَخْشَوْنَ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ جَمَاهِيرهم، فَيُسرُّ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ أنْ يُشيعُوا في النّاسِ أنَّ مُحَمّداً مَسْحُور، يُلْقِي إلَيْهِ الجِنُّ مَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ مِنْ قُرْآن، وهؤلاء الْجِنُّ هُمْ قُرناءُ الّذِينَ سَحَرُوهُ مِنَ الإنْس.

دلَّ على صِفَةِ هٰذِهِ الزُّمْرَة قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾:

أَفْهَمُ من هٰذِهِ العبارَة أنَّ المعنيّين بالْبَيان يَسْتَمِعُونَ بأداةِ اسْتِماعٍ فِكْرِيَّةٍ رَافِضَةٍ ابْتِدَاءً قَبولَ مَعَانِي مَا يَسْمَعُونه، ولَوْ كَانَ حَقًّا جَلِيًّا، وهٰذا شيءٌ خَفِيٌّ دَاخِلَ نُفُوسهم، لَكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ عَلِيمٌ به، وهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ عِلْمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَوْ كانُوا شُرَكَاءَ في الكُفْرِ العناديّ الجحوديّ القائم على الباطل، وشُرَكاء في المكْرِ الذي يمكُرُونَهُ للصَّدِّ عَنِ الْقُرْآنِ، وَفِتْنَةِ المؤمنين عَنْ دِينِهِمْ، باتّهامِهِم الرَّسُولَ ﷺ بأَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ.

- ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: أي: حِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكِ اسْتِماعَ عازِمٍ ابْتداءً عَلَىٰ الرَّفْضِ، وتَصَيُّدِ مَا يَتَّخِذُونَهُ ذَرِيعَةً للتَّشْهِيرِ بِك، والطَّعْنِ فيما تَتْلُو عليهم من القرآن.

- ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: أي: وَحِينَ تَنَاجيهم يُسِرُّونَ الحديثَ فيما بيْنَهم.

يُطْلَقُ لفظ «نجوى» على الإسْرار بالحديث، ويُطْلَقُ على المتَنَاجِين، وهو من الوصف بالمصدر، ويَسْتَوِي فيه الواحِدُ وغيره. يقال لغة: «نَجا فُلَانٌ فُلاناً الحديث، يَنْجُوهُ، نَجْواً، ونَجْوىٰ» أي: أَسَرَّ إِلَيْهِ الحديث.

- ﴿...إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾:

أي: حِينَ يَقُولُ المشْرِكُونَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة من كُفَّارِ هٰذه الزُّمْرَة الرابعة، في أَحَاديث سِرِّيَّةٍ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ مِنَ المؤمنين: مَا تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً، تُمْلِي عليه قُرَنَاء السَّحَرَةِ من الجنّ هٰذا القرآن الّذِي يَتْلُوهُ، فتَتَأَثَّرُون به.

يفعلون هذا بُغْيَةَ فتنة المؤمنين عن دِينهِم، مَكْراً بالرَّسُولِ وبما يُنَزِّلُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيات كتابِهِ المجيد.

جاء في العبارة اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ للدَّلَالَةِ على أنَّهم صَارُوا يُرَدِّدُونَها لِيُشِيعُوها بَيْنَ الناس، بينما جاءت العبارة في سورة (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

ويظهر أنَّهُمْ بَعْدَ أنْ قَالُوها إِبَّانَ سُورَةِ (الْفُرْقَان) بَدَا لَهُمْ أنْ يُرَدِّدُوها لتكُونَ شَائِعَةً مَقْبولَةً عِنْد الناس، فجاء التعبير في سورة (الإسراء) بعبارة: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقد سبق في تدبّر سُورَةِ (الفرقان) تحليل هذه العبارة.

وقد ذكرهم الله عزّ وجلّ بوَصْفِ الظَّالِمِينَ في (الفرقان) وفي (الإسراء) لأنَّ الصِّفَةَ البارِزَةَ فيما اتَّهَمُوا به الرَّسُول بأنَّه مَسْحُورٌ، هِيَ صفة الظلْم لشَخْص الرَّسُول ﷺ الّذي يتَلَقَّىٰ الوحْيَ عَنْ رَبّه، ولَا يَسْتَطيعُ السَّحَرَةُ أنْ يُؤثِّرُوا على شيءٍ من قُدْراتِهِ الفكرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، ولم يظهر في شيء من صفاتِه ما يَدُلُّ على أنَّهُ مَسْحُور.

وقد كرَّم الله رَسُولَهُ بقولِه له:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾:

أعاد اللهُ عزّ وجلَّ هنا في سورة (الإسراء) مَا كان قَدْ خاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ في سورة (الفرقان) في الآية (٩) منها.

وإذْ جاء التحليلُ التدبُّريُّ مُوسَّعاً لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الفرقان) حَوْلَ الآية (٩) المطَابِقَة للآية (٤٨) من سورة (الإسراء) فإنّي أقتصر هُنَا على بيانٍ غير مستفيضِ التفصيل.

فالمعْنَىٰ: انظر يا محمّد بفكرك الذي لا تحتاجُ مَعَهُ إلى تأمُّلٍ وتَدقيقٍ وتعمُّقٍ، مُتَعَجِّباً مُسْتَنْكِراً كَيْفَ اصْطَنَعُوا كاذِبين مُفْتَرِين لَكَ أوْصَافاً، يَكْشِفُ الْفِكْرُ القريب بُطْلَانَها، لمنافاتها لِصِفَاتِكَ العظيمَةِ الّتي تَتَحَلّىٰ بها، وَيُدْرِكُها كلُّ ذي فِكْر، ولو لَمْ يَكُنْ فَطِناً وَلَا أَلْمَعِيًّا، وَلَا بَاحِثاً متعمّقاً، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْخِطَابَ للرَّسُول خِطَابٌ لِكُلِّ ذي نظر فكريّ.

وجاءت كلمة «الأمْثال» بالجمْع إذْ سَبَقَ لهم أنْ وَصَفُوا الرَّسُول ظُلْماً وعُدْواناً بأنه ساحر، وبأنَّهُ كذَّاب، وبأنَّه مَجْنُون، ووصفوه هنا بأنَّهُ مَسْحُور، مع ما بَيْنَ بَعْضِ هٰذِهِ الصفات من تناقض يُسْقِطُ أقوالهم.

ونلمح في عِبارة ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ إبْداعاً قَائماً على عكْسِ التشبيه.

فالأصْل في التشبيه أن يُقالَ: جعَلُوكَ مِثْلَ المسْحُور، أو مثل السَّاحر، أو مِثْل المجْنُون، ونحو ذلك.

لكنَّ النّصّ القرآنِيَّ كَرَّمَ الرَّسُولَ عَنْ هَذا، فعَبَّر عن عملهم بأنَّهم اخْترَعُوا مِنْ عِنْدِهم رُسُومات، وضَرَبُوهَا كما تُضْربُ النقود تثبيتاً لها، وادَّعَوْا أنَّها تُشْبِهُكَ. وهذا أسْلُوبٌ من تكريم الرسُولِ عَنْ شَتَائِم أئمة المشركين له عجيب.

وإذ وَصَفُوا الرَّسُول بهٰذِهِ الصفات المتعارضات المتناقضات الّتي لَيْسَ من العقول اجْتِمَاعُها في شخْصٍ واحِدٍ، فإنَّهُمْ قد وضَعُوا نفوسَهُمْ في مَتَاهَةٍ فِكْرِيَّةٍ مظْلِمةٍ بعيدَةٍ عن سبيل الحق، فقال تعالى: ﴿... فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾: أي: فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أن يُحَدِّدُوا لِنُفُوسِهِمْ سَبيلاً يُقْنِعُونَ بِهِ جَماهِيرَهُمُ الّذِينَ يَدِينُونَ لهُمْ بالْوَلاء، بسَبَبِ أنَّهُمْ ضَلُّوا ضلالاً بعيداً.

الفَصْل الخامس

قال اللهُ عزّ وجلّ مُبيّناً تكريرَهُمْ مَقالَتَهم التعَجُّبِيَّةَ بِشَأنِ الْبَعْث:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

إنّ الْمَعْنِيّينَ بالْمُعالَجَةِ في السُّورَةِ مِنْ أَئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّةَ ما زالُوا بالنِّسْبَةِ إلى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والآخِرَةِ والجزاء فيها، عِنْدَ مَوْقِفِهِمْ الاسْتِغْرابيّ التَّعَجُّبِيّ، يُطْلِقُونَ فِيهِ الاسْتِفْهامَ التَّعَجُّبِي، دُونَ أَنْ يَضِيفُوا إشْكالاً أو اعْتِراضاً، حتَّىٰ يُعالَجَ بما يُلائِمُهُ ويَدْفَعُهُ ويَكْشِفُ سُقُوطَهُ بِدَلِيلِ بُرْهَانِيّ، وَقَدْ سَبَقَ في نُجومِ التَّنْزِيلِ بيانُ سُقُوطِ هٰذا الاستِنْكار التعجبيّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، بأنَّ الخالِقَ الذي خَلَقَهُمْ في المرَّةِ الأولَىٰ هُوَ الّذي وضَعَ في خُطَّتِهِ أنْ يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهاء ظُروفِ الحياة الدُّنيا كُلِّها، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وَشُروطَ الحياة الأخْرَىٰ، ويَبْعَثُ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ الحياة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، فأهْلُ الجنَّة يكُونونَ خالِدِينَ فيها، وأصْحَابُ النَّار الكافِرُون المجْرِمُونَ يكونون خالِدين فيها.

فعبارتُهُمْ: ﴿...أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ هي تَكْريرٌ لمَا سَبَقَ أنْ قَالُوه بشَأْنِ هذا الموضوع.

الرُّفَات: الحُطامُ، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وانْدَقَّ.

فجاء التعليم الرَّبَّانِيُّ للرَّسُول ﷺ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّتِهِ مُشْتِملاً علىٰ شيءٍ من الحِدَّةِ والْعُنْفِ في الإجابة، إذْ لَمْ يَكْتَفُوا في الإجابات السَّابقات بنحو: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

فجاء في هذا التعليم من سورة (الإسراء):

• ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ . . . ﴿٥١﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: إنَّ تَحوّلَ أجْسادِكم إلَىٰ رُفاتٍ مُنبَثٍّ فِي تُراب الأرْض، لَا يُغَيّرُ مِنْ حَقِيقَةِ قُدْرَةِ اللهِ علَىٰ إعَادَتِكُمْ شَيْئاً، فَقَدْ فَطَرَكُمْ أَوّلَ مَرَّةٍ وَلَم تكونُوا شيئاً مَذْكُوراً، أفَيَعْجِزُ عَنْ إعادتِكُمْ إلى الحياة بَعْدَ أنْ يُمِيتُكُمْ، وَيُفَرّقَ رُفَاتَكُمْ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، ضِمْنَ الممكنَات العقلية.

وأبَيّنُ لَكُمْ حَقِيقَةً أَكْثَرَ مِمّا تُشَاهِدُون من تَفرُّقِ رُفاتِ الْمَوْتَىٰ في تُرَابِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَنَّ هـٰذا التُّرَابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بِمُرُور الزَّمَنِ فَيَكُونُ حِجارَةً صُلْبَة، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حَدِيداً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فيكُونُ حجارَةً كريمة كالزَّبَرْجَدِ، والياقوت، والزّمُرُّدِ، والألْمَاسِ، ونَحْوها، فهـٰذه حجارةٌ لَهَا قِيمَةٌ كبيرة في صُدُورِكم.

فَسَيَقُولُون: إذَا تَحوَّلَ رُفاتُنَا حِجارةً أَوْ حَدِيداً أوْ حجارةً كريمَةً، فَمَنْ يُعِيدنا إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى؟!

فقل لهم: يُعيدُكُم إلَىٰ الحياةِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوّل مَرَّة، على أنّ الإعادة إلى الحياة لا تستلزم إعادّة أعيانِ رُفاتِ الأجْسادِ، بل يكْفِي إنْشَاءُ أجْسَادٍ من خريطة النفس الباقية.

• ﴿. . . فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ . . . ﴿٥١﴾﴾: أي: فَسَيُحرّكُونَ إلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالّاً على الثبات عند مَوْقفِ الْمُستَبْعِدِ الْمُتَعَجّب المنْكِر.

وإذْ لَا يَجِدُونَ تَعِلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا غَيْرَ الإنكار بأسْلُوبِ التَّعَجّب، فإنَّهُمْ يلْجَؤُون إلى السُّؤَالِ عَنِ الْوَقْتِ الّذي تكُونُ فيه القيامَةُ والْبَعْث، فجاء في النصّ:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ...﴾؟ أي: مَتىٰ يكونُ هٰذا الإحياءُ إلى الآخرة لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتَنْفِيذ الجزاء؟

• ﴿... قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾: أي: أتَوَقَّعُ أنْ يكونَ قَرِيباً، وهٰذا الجوابُ يحْتَمِلُ معنَيْين:

المعنى الأول: توقُّعُ قُرْب مَوْتهم، فإنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حقائِقُ الآخِرَة الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وهُمْ في الحياة الدنيا، فَمَنْ مات قامَتْ قِيامَته.

المعنىٰ الثاني: تَوَقُّعُ قَرْبِ السَّاعَةِ الَّتِي يكُونُ بِها إنْهاءُ ظُرُوف الحيَاةِ الدُّنْيا، وهو قُرْبٌ نِسْبِيٌّ، يُقَاسُ على ما سَبَقَ من عُمْرِ الحياة الأولىٰ للأَحْياء جميعاً.

على أنَّ النّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ للحَيَاةِ الأخرىٰ، لا يُحسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بيْنَ الموتِ والبَعْثِ، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نُفُوسِهِمْ انْعداماً تامّاً، فَهُمْ يتصَوَّرُونَ حين الْبَعْثِ أنَّهُمْ يَسْتَيْقِظُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نامُوهَا في سَاعَةٍ من نهار، وإحْسَاسُ ميِّتِ أوَّلِ النَّاسِ بالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَاثِلٌ لإحْسَاسِ مَيِّتِ آخِرِ النَاس.

دَلَّتْ على هٰذا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، ودَلَّ علىٰ أنَّهُمْ يظُنُّونَ أنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا قَلِيلاً الآية الأخيرة من هذا النصّ، وهي قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾:

أي: بَعْثُكُمْ لمَلاقَاةِ أَحْداثِ الحياةِ الآخِرَة، يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُم رَبُّكُم لِلْحِسَاب (وقد تكونُ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ بوسَاطَةِ بَعْضِ مَلائكَتِهِ) فتَسْتَجِيبونَ طَائِعِينَ اسْتِجَابَةً مَصْحُوبَةً بِحَمْدِه والثناءِ عَلَيْهِ بما هو لَهُ أهل، وتَظُنُّونَ وأنْتُمْ مَسُوقُونَ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ أنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ في الْبرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلَّا زمناً قليلاً.

«إنْ» حرف نفي بمعنى «ما».

الفصل السادس

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الفصل تَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ أنْ يأمُرَ المؤمِنِينَ، ولا سيما الدعاة إلى اللهِ مِنْهم، بأنْ يَقُولُوا لَدَىٰ مخاطَبَاتِهِمْ، ومُنَاظراتِهِمُ الْجدَلِيَّةِ، وَدَعْوتهم إلى دين اللهِ الحقّ، المقالَةَ الَّتِي هي أحْسَنُ، لأنَّ الكلامَ قَدْ يَجُرُّ إلى الخِصَامِ فالتّعادي، فالتقاتل، بسبب النزْغِ الشيطانِيّ الّذي يَنْزِغُهُ بَيْنهم.

وفيه بَيَانٌ تَرْبَوِيٌّ للرسُول ﷺ وإشْعارٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ بِتَفْضِيلِهِ علىٰ غَيْرِهِ مِنَ النَّبِيّين، وهـٰذا يُحَمِّلُهُ أعْبَاءً ثَقِيلَةً في مَسِيرَتِهِ لتأدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِه الخاتِمَة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾:

وجَّهَ الله عزّ وجلّ في الآيات من (٢٢ ـ ٣٩) أرْبَعَ عَشْرَةَ وصيَّةً

لِلْمُؤْمِنِين سَبَقَ تَدَبُّرهَا، وتوجيهها كانَ بخطاب مُبَاشرٍ من اللهِ جلَّ جلالُهُ، وبَعْدَهَا وجَّهَ خطاباً مباشراً للمشركين الّذِين زَعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ الله أنَّبَهُمْ فيه على افترائهم الباطِل، وعلى نُفُورِهم من حُجَج القرآنِ وبَيَاناته. وبَعْدَهُ علَّمَ رسُوله فِقْرةً جِداليَّة إقناعيَّة يجادل بها المشركين بشأن اعتقادهم الباطلِ في آلِهَةٍ من دون الله جل جلاله وعظم سلطانه. وبعدها أبانَ لَهُ صِفاتِ أئمة الشرك في مكة تجاه القرآن، وهذه الصفات تنطبق على أمثالهم. وبَعْدَها عَلَّمَهُ فِقْرة من فقرات مناظَرَتهم بشَأْنِ إنْكارِهم للبعث واليوم الآخر.

وفي هـٰذِهِ الآياتِ أمَرَ اللهَ عزّ وجلَّ رسُولَهُ بأنْ يُخَاطِبَ المؤمنين بتَعْلِيماتٍ مُلْحَقَاتٍ بوصايا الله، أعْطَاهُ اللهُ بها صِفة المعلّم المنفذ لأمر ربّه. وبأنْ يخاطِبَ المشركين خِطَاباً إقناعيًّا يَهْدِيهم إلى أنّ آلِهتَهُمْ لَنْ تَنْفعَهُمْ إذا جَرَّبُوا أنْ يَدْعُوها لتكشف عَنْهُمْ ضُرّاً يَنْزِلُ بهم.

هـٰذا التنويعُ بَيْنَ خِطاب اللهِ المباشرِ للناس، وبَيْنَ تكليف الرسُول أنْ يُخاطِبهم، يَدُلُّ على أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ يمْنَحُ رَسُولَهُ وَظيفَةً حَرَكِيَّةً في تأدِيَةِ رِسَالَتِهِ أكْثَرَ مِنْ وَظِيفَةِ مُبَلِّغِ كتابَ رَبّه، فهو يُمارسُ أمْراً وَنَهْياً وتَرْبيَةً وإقْنَاعاً وقيادَةً بأمْرِ اللهِ لَهُ بذلك، وهُو مَهْدِيٌّ بِهَدْي الله لَهُ، ومُسَدَّدٌ بتَسْدِيدِ اللهِ له.

وفي هذه الآيَةِ يأمُرُ اللهُ رسُولَهُ بأَنْ يَأْمُرَ المؤمنينَ بِضَبْطِ ألْسِنَتِهم، واختيار الأحْسَنِ من الأقوالِ في كُلّ الأحوال، ولا سِيما لدَىٰ مُخَاطَبَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، ولدَىٰ مُخَاصَمَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْض. ولدى قيامهم بوظيفَةِ دَعْوَةِ غَيْرِ المسلمين إلىٰ دين اللهِ الحقّ. ولدى معاملتهم لهم.

إنّ ضَبطَ ألْسِنَةِ المؤمنين باختيار الأحْسَنِ من الأقوال، جُزْءٌ مِنْ بِنَاءِ المجتَمَعِ الإسْلَامِيّ الْفَاضِلِ، المتميِّزِ تَهْذيباً وأَدَباً وحَضَارَةً راقية.

فجاء في التَّعليم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾.

أي: قُلْ لعبادِي المؤمنين لِيقُولُوا دَواماً المقُولَةَ الّتي هي أحْسَنُ في اختياراتِهِمْ لأقوالهم.

﴿يَقُولُوا۟﴾ مجزومٌ بلَامِ أمْرٍ مَحْذُوفة، دلَّ عَلَيْهَا فعل «قُلْ» وحَذْف هذه اللّام لَهُ شاهِدٌ من كلام العرب، وهذا أحْسَنُ الآراء النحويَّةِ فيما ظهر لي. ولَهُ نظير في الآية (٣١) من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول).

واخْتِير الفِعْلُ المضارِعُ ﴿يَقُولُوا۟﴾ لِيَدُلَّ على مُطَالَبَتِهم باختيار المقُولَاتِ الأحْسَنِ في كُلِّ ما يَنْطِقُونَ به، فإذا طَبَّقَ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ هٰذا الأدَبَ الرَّفِيعَ، كَانَ الْمُجْتَمَعُ الإسْلَامِيُّ مُحَقِّقاً أرْقَىٰ حَضَارَةٍ مثْلَىٰ في مجالِ أدَبِ الْقَوْلِ، وأسْلُوبِ الخطابِ، في مخْتَلِفِ أَحْوال الرضَىٰ والغضَبِ، والوِئامِ والخِصَامِ، واللَّذاتِ والآلام، والمسَرَّاتِ والأحْزان.

﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: صِفَةُ مَوصُوفٍ مَحْذُوفٍ تقديرُهُ: المقولاتِ الّتِي هي أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِها، والأمْرُ باختيارِ الأحْسَنِ دَوَاماً يَتَضَمَّنُ حَثَّ الْمُسْلِمين على الارْتقاء في دَرَجَاتِ سُلَّمِ الحضارَة المثْلَىٰ في مَجالِ الأقوال، إذ هُمْ مطالَبُون بِالأحْسَنِ فَالْأحْسَن دَوَاماً.

إنّ الْأَمْرَ بضَبْطِ اللِّسَانِ، والْبُعْدِ عن الأقْوالِ السَّيِّئَةِ، واختيار الأحْسَنِ فَالأحْسَنِ مِنَ الأقوال، من الْأُمُور الَّتي وَجَّهَتِ التعليماتُ الإسْلَامِيَّةُ لَهَا عِنَايَةً عظيمة، ارْتقاءً بالمجتعِ الإسْلَامي في تَهْذِيب أقوالِ أفرادِهِ ارْتقاءً حَضارِيّاً رَفيعاً.

جاء في حديث رواه الترمذيُّ وأحمد والنسائيُّ وغيرهم من معاذ بن جبل رضي الله عنه، بعْدَ أن أجابه الرَّسُولُ ﷺ عن الأعمال الّتي تُدْخُلُه الْجَنَّة، قال له:

«ألَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

قال مُعاذٌ: قُلْتُ بلَىٰ يَا رَسُولِ الله، قال مُعَاذ: فأخَذَ بلسانِهِ ثُمَّ قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هٰذا» قُلْتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، وإنَّا لمؤَاخَذُونَ بِمَا نَتكَلَّمُ بِهِ؟ فقال:

«ثَكِلَتْكِ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النّار عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

قال الترمذي: حديث حَسَنٌ صحيح[1].

إنَّ كثيراً من الْخُصُومات الشَّدِيداتِ والمشاحَنَاتِ والتَّغَاضُبِ إلىٰ حَدِّ التقاتُلِ، تُثِيرُها بَيْنَ الْمُسْلِمِين أَقْوالٌ غَيْرُ حَسَنَةٍ، ويَعْمَلُ الشَّيْطَانُ بِنزَغَاتِهِ في النُّفوسِ على إثارَةِ غَضَبِها لِيُوقِعَ بَيْنَ المسْلِمينَ الشَّحْنَاء والْبَغْضَاءَ والْعِدَاءَ والتَّقَاتُل.

وكذلِكَ يفْعَلُ الشَّيْطَانُ بَيْنَ المسْلِمِ وغَيْرِ الْمُسْلِمِ في المخاطبَاتِ، ولا سِيمَا حينما يَقُومُ المُسْلِمُ بوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ، إذْ يَنْزَغُ فِي نَفْسِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ لِيُوجّهَ للدَّاعِي الْمُسْلِمِ أقوالاً جارِحَةً، ورُبَّما يكون فيها سَبٌّ وشَتْمٌ وهُزْءٌ وسُخْرِيةٌ، وعنْدَئِذٍ يَنْزَغُ فِي نَفْسِ الْمُسْلِمِ ليُقَابِلَ السيّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، فَيَسْقُطَ بذَلِكَ جِهَادُهُ الدَّعوِيُّ، وتَتحوَّلُ المحادَثَةُ بَيْنَهُما إلىٰ مُصارعَةٍ فمُقَاتَلَة.

دلَّ على هذا قَوْل الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿... إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣﴾:

نَزْغُ الشيطان: وَساوسُهُ وتَسْوِيلاتهُ الّتي يَحْمِلُ بها الإنسان على الشرِّ ومَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاه. يُقال لغة: «نَزَغ فلانٌ بيْنَ القوم» أي: أفْسَدَ بينهم وحَمَل بعْضَهُمْ على بَعْضٍ. ويُطْلَقُ النَّزْغُ على الكلام الذي يُقْصد به الإغراء والإفساد بيْنَ الناس.

---

(١) قال ابن رجب الحنبلي: وفي هذا نظر، أي: في تصحيح الترمذي له. انظر: «جامع العلوم والحكم» له عند شرح الحديث.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: أي: إنَّ الشَّيْطان إبليس وجُنُودَهُ مِن الجنّ هُمْ أعْداءٌ دواماً للإنْسَان آدَمَ فذُرّيَّاتِهِ، وعَدَاوَتُهُمْ مُبينَةٌ ظَاهِرَة.

أمّا الإنسانُ المؤمن فالشَّيطانُ حَرِيصٌ على أنْ يُغْوِيَهُ حتَّىٰ يَعْصِي رَبَّهُ، وحتَّىٰ يَخْرُجَ من الإسْلام والإيمان، ثُمَّ يُوغِلَ في الكُفْر ويكون في الدَّرْك الأسْفَل من النار.

وأمّا الإنْسَانُ الكافرُ فَالشّيطانُ حَرِيصٌ على أنْ يَسْتَدْرِجَهُ ويُنْزِلَهُ مُوغِلاً في دَرَكَاتِ الكُفْر، حتَّىٰ يكُونَ من أهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَل من النار.

وهٰذِهِ العَدَاوَةُ تَظْهَرُ بِوُضوحٍ من خِلَال وَسَاوسِه في نَفْسِ الإنسان، فإنَّهُ لَا يُوَسْوِس لَهُ إلَّا بَشَرٍّ وإثْمٍ ومَعْصِيةِ للهِ عزّ وجلّ، وهٰذِهِ تُزْلِقُ الإنْسَانَ إلى عَذَاب الله، أفَلَيْسَ هٰذا من عداوته الظاهرة لكلّ إنْسَان؟؟

وهٰذا النَّزْغُ يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ المؤمنين المسْلِمينَ سَيَسْتَجِيبُ لِوَسَاوِسِ الشيطان، ويَقَعُ في معصية الله تباركَ وتعالىٰ، فاقتضَىٰ هذا أنْ يُخَاطِبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بقوله:

• ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: من كُلِّ عَلِيم بكُم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي: فَيَغْفِرْ ذُنُوبكم إذا سقَطْتُمْ في معصيَته، بِمُقْتَضَىٰ حِكمَته، لأنَّ مشيئتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ عُقوبةً لكُمْ على مَعَاصِيكُمْ، إذا اقتضَتْ مشيئَتُهُ الحكيمَةُ عُقُوبَتَكُمْ.

فالمغفِرة والعفْوُ والعقابُ كُلُّ ذَلِكَ إنَّمَا يكُونُ بمَشيئَةِ اللهِ الحكيمة، الّتي لَا يُوجَدُ في الْوجُودِ مَا يُلْزِمُها أوْ يُؤَثّر عليها، فالمشيئة المطلقَةُ المقْتَرِنَةُ بالحكْمة دَوَاماً من صفات كَمالِه، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

ولمَّا كان الرَّسُولُ ﷺ مسؤولاً فقط عن أدائِه وظائف رِسالَته، وَلَيْسَ مِنْهَا أَنْ يُلْزِمَ النَّاسَ أوْ يُجْبِرَهُمْ على الإيمان والطاعَةِ، أوْ يُحَوِّلَهُم عَن

تَنَكُّب صراط رَبهم، إلى الالْتزام بِسُلُوكِهِ، قال الله عزّ وجلّ لَهُ: ﴿...وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾: أي: مَسْؤُولاً عن اختياراتهم في رحْلَةِ امْتِحانهم، ولا عَنْ أيّ سُلوكٍ مِنْ وَاقِعِ سلوكاتهم الإراديّة.

وكيل الرجُل في اللُّغة: الّذي يَقُومُ بأمْرِه، سُمِّيَ وَكيلاً لأنَّ مُوَكِّلَهُ قَدْ وَكَلَ إلَيْهِ الْقِيَامَ بأمْرِهِ.

فالمعنى: وما أرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ لتكُونَ قائماً على الناس بصِفَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وكيلاً عَنَّا على الناسِ، إنَّما أنْتَ مكلّفٌ أن تَقُومَ بوظائف رسالَتِكَ، وهِيَ التَّبْليغُ، والتَّعليمُ، والتذكيرُ، والمعالجةُ بالتربية والمحاجَّةِ واتّخاذِ الوسَائل الإقْناعِيّة، وحُسْنُ قيادَةِ مَنِ اسْتَجابَ لَكَ وأطاعَكَ.

ولَسْتَ مطالباً بتحويلِ النّاس من الكُفْر إلى الإيمان، ومن العِصْيَانِ إلى الطاعة، ومن الضّلالِ إلىٰ الْهُدَىٰ، بَلْ كُلٌّ وَاحِدٍ منهم موضوع موضع الامتحان بَعْدَ تبليغه وإجابتِه تُجاهَ رَبّه مسؤولٌ عن نَفْسِهِ مسؤوليّةً تامَّة.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا النصّ وغيره أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ إذْ وَهَبَ الناسَ إراداتٍ حُرَّةً لِيَبْلُوهم فيما آتاهُمْ، فإنَّه تبارَكَ وتَعالَى لا يَسْلُبُهُمْ هٰذِهِ الإراداتِ، ولَا يُكْرِهُهُمْ، ولا يأذَنُ للرّسُولِ وللمؤمنين بإكْراهِهِمْ، بَلْ يَتْرُكُ لهم حُرّيّاتهم في اختياراتهم، لينالُوا جزاءَهُم في الآخِرَةِ علىٰ ما اخْتَارُوهُ لأنْفُسِهم مما هو خيْرٌ لها، وممّا هُو شرٌّ لها.

إنَّهم مُوْهُوبُونَ أدَواتِ الْعِلم والْمَعْرِفَةِ، والإراداتِ الحرَّة، ليكُونوا مسؤولين مسؤوليَّةً تامَّةً عن اختياراتهم. ولَيْسُوا قُطْعَانَ أغْنَامٍ لا عقولَ لَهَا حتى تكون يا محمّد مَسْؤولاً عن حفظهم وحمايتهم، وإكراهِهِمْ على الدخُول في حظائِرَ تحميهم من الذِّئاب، فَوَظيفَتُكَ لَيْسَتْ كوظيفَةِ الْوَكيل على قطيعٍ من الغنم، بل أنْتَ مبَلّغٌ مُعَلّمٌ مُرْشِدٌ داع إلى سُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيم، وعلى النَّاس أنْ يُؤَدُّوا واجباتِهِم تجاهَ رَبِّهم.

وبَعْدَ خطابِ الله عزّ وجلّ المباشرِ للمؤمنين المسلمين، خصَّ الله رسوله محمّداً ﷺ بخطابٍ أشْعَرَهُ فِيهِ بإلماح ضِمْنيّ دُون أنْ يكُونَ في اللّفظ مَا يَدُلُّ علَيْه، بأنَّهُ قَدْ فَضَّلَهُ على سَائِرِ مَنْ خَلَق في السَّمَاواتِ والأرض، وهـٰذا مَوْصُولٌ بما بدأَتْ به السُّورَةُ، ومَا جَاءَ في الآيات الأولى منها من إلماح إلى تفضيل الرسول محمّد ﷺ بالإسراء والمعراجِ حتَّىٰ سِدْرَةِ المنتهى، ليُرِيَهُ من آياتِه، وليُسْمِعَهُ من كلَامِهِ وَحْياً من وراء حِجابٍ في ذلك المكان الرفيع.

فقال الله عزّ وجلّ لرسُوله:

• ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾:

أي: وَرَبُّكَ يا مُحَمَّدُ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ بمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْض، وهُنَا مَطْوِيٌّ لَمْ يُذْكر، قَدْ يُدْرَكُ إلْماحاً من ورَاءَ سَحَابٍ، من قِبَلِ بَعْضِ المتدبّرين وبالنَّظر إلىٰ السّياق،، أي: وبِعِلْمِنَا بكُلِّ مَنْ في السماوات من ملائكة، وكلِّ مَنْ في الأرض من ملائكةٍ وإنْسٍ وجنٍّ، فَضَّلْنَاكَ عَلَيْهم جميعاً، إذْ آتَيْنَاكَ مَا لَمْ نُؤْتِ أحَداً منهم من تكريم وتشريف.

• ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ كَمَا فَضَّلْنَاكَ علىٰ جَمِيعِ مَنْ خَلَقْنَا في السَّمَاوَاتِ والأرض.

• ﴿. . .وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي: ومن أمْثِلَةِ تَفْضِيلِ بَعْضِ النبيّين علىٰ بَعْضٍ أنَّنا آتيْنا داود زَبُوراً فَضَّلْناه بِهِ على كثير من أنبياء بني إسرائيل الّذين لَمْ نُؤْتِهِمْ كُتُباً.

والزّبور الّذي آتاهُ الله عزّ وجلّ داود عليه السَّلام كتابُ حِكَمٍ ومواعظ ونَصائح، ومُنَاجاةٍ للهِ وتضرُّعٍ ودعاء، وتمجيدٍ وتقديسٍ له وثناءٍ،

وحَمْدٍ له على جليل صفاته وعظيم مِنَنه، وفيه وصْفٌ لأحوال الأشرار وتميكن الله لهم من فِعْلِ الشرِّ ضدّ الضعفاء والمساكين واليتامى، وأنّ الأشرار يَجْحَدُون الجزاء، ويَتَوَهّمُون أنَّ اللهَ لاَ يَطْلُبُهُمْ ليُقِيم عَدْلَهُ فيهم، إلى نحو ذَلِكَ من ابتهالات.

وهو ينْقَسِم إلى مزامير، ويَشْتَمِلُ على (١٥٠) مَزْمُوراً، بحَسَبِ ما هُو مُدَوَّنٌ في الْعَهْدِ القديم عند أهل الكتاب.

وبَعْد هٰذا رَجَعَ الْبَيَانُ في السُّورة إلى تَعْلِيم الرَّسُول فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ أسْلُوباً من أسَاليب إقْناعِ المشْرِكِين بأنَّ آلِهَتَهُمْ من دُونِ اللهِ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيئاً، فَلْيُجَرِّبُوا مَعَهُمْ الدُّعَاءَ لكَشْفِ الضرِّ عَنْهُمْ إذا نَزَلَ بِهِمْ، فإنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَه عَنْهُم، ولا يَمْلِكُونَ تَحْوِيلَهُ، فقال الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾:

أي: قل يا مُحمّد ويَا كُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أمتِه للمشركين: أَجْرُوا مع آلِهتكم الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنَّهُمْ شُركاءُ للهِ في إلَهيَّتِهِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ مُشَارَكَةً مَا لَهُ فِي رُوبُوبيّتِه، تَجْرِبَةَ الدُّعَاءِ إذَا نَزَلَ عَلَيْكُمُ الضُّرُّ فَعَمَّ مَشَاعِرَكُم وَنُفُوسَكُمْ، فَادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُوا الضُّرَّ عَنْكُمْ كَشَفَ إزالةٍ تَجْعَلُهُ عَدَماً، أَوْ لِيُحَوِّلُوهُ عَنْكُمْ إلَىٰ مكانٍ مَا، أو إلى أعدائِكُم كَمَا تُحِبُّون.

فإذا دَعَوْتُموهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُم لَا يَمْلِكُونَ قُدْرَةً مَا يَكْشِفُون بِهَا الضُّرَّ عَنْكُمْ كَشْفَ إزالَةٍ إلى الْعَدَمِ، ولا يَمْلِكُون قُدْرَةً مَا يُحَوِّلُونَ بِها الضُّرَّ عنكم.

إنَّ تَجْرِبَةَ الدُّعَاءِ من أعظم اخْتبارَاتِ صِحَّةِ كَوْنِ المدْعُوِّ إلَهاً حَقًّا، قادِراً عَلَىٰ إجَابَةِ الدَّاعي وإيتائه سُؤْلَهُ عِنْدَ شِدَّةِ الضَّرُورَة.

أمّا الآلِهَةُ من دُونَ اللهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ فإنَّها آلِهَةٌ باطِلَةٌ، إذْ هِيَ إمَّا أَوْهامٌ، أو لها وُجُودٌ ولكنَّها عاجِزَةٌ عن إجَابَةِ مَنْ يَدْعُوها وإيتائِهِ سُؤْلَهُ.

وليسَ في الوجود كُلِّه إلَهٌ رَبٌّ يُجيبُ دُعَاءَ المضْطَر إذا دَعَاه غَيْرُ اللهِ الواحِدِ الأحد، الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ بِحَقٍّ سِوَاه.

ولِهٰذا جَاءَ في البيانِ الرَّبَّانِيِّ بَعْدَ هٰذا التَّعْلِيم، قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾:

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي: المنْزِلَةَ ذَاتَ الْقُرْب من الله، وهٰذِهِ الوسِيلَة تُنَالُ بالتَّقَرُّب إلىٰ الله بالأعْمَالِ الصّالحة مِنْ مَحابّه جَلَّ جلَالُهُ.

ومَنَازِلُ الْقُرب من اللهِ عزّ وجلّ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ بَعْضُهَا أرْفَعُ مِنْ بَعْضَ، وكُلُّ ارْتِقَاءٍ فيها يَزِيدُ الْعَبْدَ قُرْباً مِنْ رَبِّه، وكُلَّما اجْتَهَدَ الْعَبْدُ للتَّقَرُّبِ إلى اللهِ بالأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ازْدَادَ ارْتقاءً فِي دَرَجَاتِ الوسِيلَةِ قُرْباً من الله جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ.

فالمعنى: أُولئِكَ الْفُضَلَاءُ رَفِيعُوا المنْزِلَةِ عنْدَ رَبّهم، هُمُ الّذينَ يَسْتَجِيبُ اللهُ لَهُمْ مِنْ عِبادِه إذَا دَعَوْهُ، وهُمُ الَّذِيْنَ يَنْتَفِعُون من دُعَائِهِمْ إلَهَهُم، لأنَّ إلَههم هو الإلَه الْحَقُّ، إذْ هو رَبُّ كلِّ شيءٍ، الْقَادِرُ عَلَىٰ فِعْلِ مَا يَشاء، وهو الذي يُجيبُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ ويُؤْتيهِ سُؤْلَهُ ضِمْنَ مقتضَىٰ حِكْمَتِه، أو يُعْطِيه خيراً مِمَّا سألَ.

أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين «أولَئِكَ» للدَّلَالَة على ارْتفاعِ مَنْزِلَتِهِم عِنْدَ رَبّهم، بإيمانِهم، وصِدْقِ إسْلامِهِم، وباجْتِهَادِهم فيما يُقَرِّبُهُمْ إلَيْه من الأعْمَال الصالحة.

وقد وصَفَهُمُ اللهُ في هٰذِهِ الآيَةِ بصِفَاتٍ ثلاث:

الصِّفَةُ الأُولى: أنَّهُمْ يَبْتَغُونَ إلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ، باجْتِهَادهم في صالحات الأعمال التي تجعَلُهم أقْرَبَ فَأقْرَبَ مَنْزِلَةً من رَبِّهِم، وبِتسابُقِهِمْ في فِعْلِ الخيراتِ يَظْهَرُ أيُّهُمْ أقْرَبُ مِنْ رَبّه مَنْزِلَةً.

• ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي: يَطْلُبُونَ إضَافَةً إلَىٰ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، المنْزِلَةَ ذَاتَ الْقُرْبِ مِنْه، باجْتِهَادِهِمْ بِنَوافِلِ العبادات والْقُرُبَاتِ، ومَعْلُومٌ أنَّهُمْ باجْتِهَادِهِم يُسَابِقُونَ، وبما أنَّ المتَسَابِقِينَ من الْعُبَّاد لَا بُدَّ أنْ يَكُونُوا مُتَفَاضِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَا بُدَّ أنْ يَكْشِفَ تَسابُقُهُمْ أيُّهُمْ أقْرَبُ فأقْرَبُ مَنْزِلَةً من رَبّه.

يَبْتَغُونَ: أيْ: يَطْلُبُون.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ عَنِ الأقْرَب يُشْعِرُ بأنَّ الْعَبْدَ كلَّما كَانَ أقْرَبَ مَنْزِلَةً مِنْ رَبّه بمُجَاهَدَتِهِ، كَانَتْ أدْعِيَتُهُ لِرَبِّهِ أسْرَعَ اسْتِجابَةً وأكْثَرَ قَبُولاً، وآتاهُ اللهُ سُؤْلَهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مضطرّاً، فَدَلَّتْ هٰذِهِ العبارة باللُّزوم الفكريّ على تَسَابُقِهم في التقرُّب إلى الله، وتفاضُلِهِمْ في الْقُرب.

والمعْنَىٰ: أيُّهُمْ أقْربُ فَهُوَ أسْرَعٌ استجابةً، وأكثر قبولاً عنْد رَبّه.

وما ظهر لي في هذا الْبيان القرآنيّ المختزل، جاء بيانُه صَرِيحاً واضحاً في حديث قُدْسِيّ صحيح، رواه البخاريُّ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قال: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًا فَقعدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ، وَمَا تَقرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيْءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عليه، ومَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الّتِي يَمْشِي بها، وَإنْ سَألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وإنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أنَا فَاعِلُهُ

تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نفسِ المؤمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

أمّا إجابةُ اللهِ عزّ وجلّ المضطَرَّ إذا دَعاهُ، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ عزّ وجلّ إِحْدَىٰ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَدُلُّ بِهَا عَلَىٰ وُجُوده، ولَوْ كان الدَّاعي المضطَّرُّ كافِراً، وبهذا يَظْهَرُ للمشركين الْفَرْقُ واضِحاً بَيْنَ دُعَائِهِمْ لآلِهَتِهم مِنْ دُون الله، ودُعَائِهِمْ للهِ رَبِّهِم ورَبِّ السَّمَاواتِ والْأَرْض وما فيهما ومن فيهما.

الصّفةُ الثانية: أَنَّهُمْ يَرْجُونَ مُتَرَقِّبينَ دَواماً رَحْمَةَ اللهِ، دَلَّ على هٰذِهِ الصِّفَة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ عَطْفاً علىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

يَرْجُونَ: أي: يَتَوقَّعُونَ آناً فآناً على تَوالِي الأزمان.

رَحْمَتَهُ: أي: آثارَ رحْمَتِهِ، وآثارُ رحْمَتِه العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ الْبُؤس، والإمداد بما يَسُرُّ، ومنها الغفرانُ والعفْوُ عَنِ السّيّئات، إلى غير ذلك من جَلب كلّ مَا يُحِبُّ الإنسان، ودَفْعِ كلّ مَا يَكْرَهُ. ومِنْهَا الثوابُ الجزيلُ على فِعْلِ الطاعَاتِ والْقُربات في العاجلة والآجِلَة.

الصّفةُ الثالثة: أَنَّهُمْ يَخافُون عَذَابَهُ الَّذِي أَوْعَدَ به الكافِرِينَ والْعُصَاةَ، فهم بهذا الخوف يَجْتَنِبُونَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، ويَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ، ما استطاعُوا إِلَىٰ ذَلِكَ سبيلاً.

دلَّ على هٰذِهِ الصفة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾: أي: فيجعَلُهُمْ الْخَوْفُ يَجْتَنِبُونَ مَعْصِيَتَه.

وخَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ الآية بقَوْلِهِ مُنْذِراً بأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيم شدِيد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: أي: إنَّ عذاب رَبِّكَ أيُّها الصّالح للخطابِ، الّذي أَعْتَدَهُ للكافِرِين والْعُصَاةِ، عَذَابٌ شَدِيدُ أَلِيم يَحْذَرُهُ دَواماً المؤمِنُونَ أُولُوا الألْبَاب، فيتوسَّلُونَ إلى حِمَايَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْه بالإيمَانِ به، والإسْلاَمِ لَهُ، وطَاعَتِهِ والْعَمَلِ بما يُرْضِيه من عباده.

يقال لغة: «حَذِرَ الشيْءَ، وحَذِرَ مِنْهُ، يَحْذَرُ، حَذَراً» أي: خافَهُ واحْتَرَزَ مِنْه، فهو «حَاذِرٌ» و«حَذِرٌ» والشيْءُ «مَحْذُورٌ» و«مَحْذُورٌ مِنْهُ».

وبَعْدَ أَنْ عالج اللهُ عزّ وجلَّ المشركين، وأمَرَ بِمُعَالَجَتِهم، لإقْنَاعِهِمْ وقَطْعِ أعْذَارِهِمْ، وأمَرَ رَسُولَهُ بأنْ يُوصِيَ المؤمنين بأن يَقُولُوا المقالات الَّتِي هي أحْسَنُ، وأَنْ يُصْلِحُوا ما في سَرَائِرِهِمْ الّتِي يَعْلَمُها اللهُ وقَدْ يجازيهِمُ علَىٰ السّيّئَاتِ منها، وألْمَحَ إلْمَاحاً خفيًّا لِرَسُولِهِ بأنَّهُ فَضَّلَهُ على العالمين، وأمَرَهُ بأنْ يُعَالِجَ المشْرِكِين مِعَالَجَةً إقناعِيَّة تَعْتَمِدُ على اختبارٍ تجريبيٍّ لآلِهَتِهم، ولِلرَّبِّ جَلْ جَلالُه، وأبَانَ صِفَةَ المؤمِنِينَ الصادقين الَّذِين يَسْتَجِيب دَعواتهم، انتقَلَ إلى بَيَانِ أحْوَالِ النَّاسِ المستقبليَّة، وأنَّهُمْ بمَعَاصِيهم سَيَسْتَحِقُّونَ إهْلاَكَهُمْ فِي قُرَاهم، أوْ إنْزَالَ عَذَابٍ شَدِيدٍ فيهم، فقال اللهُ عزّ وجلَّ:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وما مِنْ أهْلِ قَرْيَةٍ «إنْ» حرف نفي، مثل «ما»، و«مِنْ» جيء بها زائدة لإفادة الاستغراق.

القرية: كُلُّ مجمَّعٍ سَكَنِيٍّ وتوابِعُهُ، ولو كان مَدينةً عظمىٰ جدّاً.

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾:

يتَحدَّثُ اللهُ عزّ وجلَّ بضمير المتكلّم العظيم الدّالّ على عظمة ربوبيّته، وأنَّهُ هو القاهر فوق عباده.

مَهْلِكُوها: أي: سَنُهْلكها إهْلاَكَ استئْصَالٍ كإهْلاَكِ عادٍ وثمود، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الْقُرَىٰ الَّتي سيُهْلِكُها قد وصلَتْ بِكُفْرِها وطُغْيَانها إلى استحقاقِهَا الإهلاكَ الشامل بحكمة الله عزّ وجلّ، كما أهْلَكَ كفّارَ القرون السابقة.

﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾: أي: أَوْ سَنُعَذِّبها عذاباً شديداً دُون عَذَابِ الاستئصالِ. وهٰذا يَدُلُّ على أنّ القُرىٰ الَّتِي سَيُعَذِّبُها لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ عَذَابِ الاستئصال بالإهلاك الشامل، وهذه رُبَّما تكُونُ مُسْلِمَةً، إلَّا أنَّ كَثْرَةَ مَعَاصِيها من دُون الكُفْر قَدْ جعلَتْها تَسْتَحِقُّ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بها عَذَاباً شديداً، ولَوْ كان هذا العذابُ بأيْدِي النَّاسِ من الجبابَرة أو الكَفَرَة، وهٰذا العذابُ قَدْ وَجَدْنَا أمْثِلَةً كثيرةً مِنْهُ، فِي تاريخ النّاسِ، وفي بُلْدانِ المسْلِمين، فَكَمْ تعَرَّضَ الْمُسْلِمُونَ لعَذَابِ شَديدٍ في قُراهُمْ وعواصِمِهم الكبرىٰ علَى أيْدِي أعْدَائِهِم الكَفَرَةِ، ولَوْ كانُوا منْ أَعْرَاقِهِمْ وأقوامهم والنَّاطقين بلغاتهم.

فلا حَاجَةَ بَعْدَ هٰذا الْفَهْم لتخصيص لفظ «قرية» في عبارة: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بوصف: «كافِرَة» فالتعميمُ في العِبارَة يَشْمَلُ القُرىٰ الّتي يكونُ أهْلُهَا كافِرين، والْقُرىٰ الَّتِي يَنْتَمِي أَهْلُهَا إلى الإسلام، فَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أنَّ كُلَّ مُجَمَّعٍ سَكَنِيٍّ للنّاس، سَيَمُرُّ أَهْلُهُ في مُسْتَقْبَلِ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ في مَرْحَلَةٍ يَكُونُون فيها كافِرينَ طُغَاةً يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ الشامِلَ، كما أَهْلَكَ اللهُ بعَدْلِهِ وَجَبَرُوتِ رُبُوبيَّتِهِ قومَ نُوحٍ، وعاداً، وثَمُودَ، وقَوْم لوط، وقَوْمَ شُعَيب. أو في مَرْحَلَةٍ من التَّمادِي في المعَاصِي يكونُونَ فيها مُسْتَحِقِّينَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمْ عذاباً شديداً.

وهٰذا الذي سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ بشأن مستقبلِ تَارِيخ الناس، مَكْتُوبٌ مَسْطُورٌ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظ، دلَّ على هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿... كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾: أي: كَانَ بَيَانُ ذَلِكَ الإهلاك أو العَذاب الشّديد الوارِد في الآيَةِ مُدَوّناً مَكْتُوباً في اللَّوْحِ المحفوظ، من قبل أن يخْلُقَ الله النَّاسَ، وَيَضَعَ الممتحنين مِنْهُمْ موضع الامْتِحان الفِعْلِيّ في الحياة الدُّنيا.

مَسْطُوراً: أي: مكتُوباً كِتَابَةً يَعْلَمُها اللهُ عزّ وجلّ. يقال لُغَةً: «سَطَرَ الكتابَ، يَسطُرُهُ، سَطْراً» أي: كتَبَه.

وأرِيدَ بلَفْظِ «الكتاب» هنا في الآية، اللَّوْحَ المحفوظ، لِلْعِلم مِنْ

سوابِقِ التنزيل، أنَّ الكِتَابَ الْجَامِعَ للمَعْلُومَاتِ عن الكائِنَاتِ هُوَ «اللَّوْحُ المحْفُوظ» فلفظ «ال» في «الكتاب» هنا عَهْدِيَّة.

وجاءَتْ في الآية عبارَةُ: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قَيْداً لازماً، لِدَفْعِ تَوَهُّم أنّ هـٰذِهِ الإجراءاتِ العِقَابيَّةَ سَوْفَ تكونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ عندَ قيام السَّاعَةِ الّتي يَكُونُ بِها إنْهاءُ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا. بَلْ سَتَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ إذْ يَكُونُ النَّاسُ ضِمْنَ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا.

وجاءَ النَّفْيُ الاسْتِغْرَاقِيُّ والاسْتِثْناءُ في الآية لإفادَةِ الْقَصْرِ والْحَصْر، أيْ: ومَا قَرْيَةٌ فِي الأَرْضِ للنَّاسِ إلَّا سَيُهْلِكُهَا اللهُ عزّ وجلَّ أَوْ يُعَذِّبُها عذاباً شَدِيداً قَبْلَ يَوْم القيامَةِ، لأنَّ الْمُهْلَكَةَ قَدِ استحقَّتِ الْإهلاكَ بِكُفْرِهَا وَطُغْيانِها وفُجُورِها، ولأنَّ الْمُعَذَّبَةَ عَذاباً شَدِيداً قَدِ اسْتَحقَّتْ أنْ تُعَذَّبَ عَذاباً شديداً، بِكَثْرَةِ ذُنُوبِها ومَعَاصِيها، وخروجِهَا عن صراط رَبّها المستقيم.

وهذا قَصْرٌ إضافيٌّ من قَصْرِ مَوْصُوفٍ علَىٰ صِفَةٍ، بحَسَبِ مُقَرَّرَاتِ البْلاغِيّين.

وإخراجُ الْعُمُومِ الذي دَلَّ عليه النَّفْيُ المستَغْرِقُ والاستثناء، عَنْ أَصْلِ دَلَالاَتِه، ممّا لا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ التدبُّر المتأنِّي السَّليم، والله أعلم.

الفصل السابع

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن تَرْبيةٌ من اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله ﷺ ويُلْحَقُ بِه

أصْحَابه، بشأن أرْبَعِ قضَايا، مع بيانٍ تَعْقِيبيٍّ يكْشِفُ اللهُ عزّ وجلّ بِهِ واقِعَ حَالِ الْكَافِرِين، تُجاهَ آيَاتِهِ التَّخْوِيفيَّة:

القضيَّةُ الأولى: تَطَلُّعُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ، دُونَ طَلَبَ صَرِيح منه أدباً مع رَبِّهِ، وتَطَلُّع نفوس بَعْضِ أصحابه، أنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ جلَّ جَلَالُهُ لطَلَبِ كبراء مشركي قومه آياتٍ مُعْجِزاتٍ، مِنَ المعجزاتِ الماديَّةِ، كعَصَا مُوسَىٰ، ونَاقَةِ صالح، وإحياء الموتىٰ لعيسَىٰ علَيْهِم السلام، رجَاءَ أنْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ، ويَسْتَجِيبوا لدَعْوَتِهِ، ويَتَّبِعُوا ما جاء في القرآنِ الّذي يَتَنَزَّلُ علَيْه.

القضية الثانية: تَطَلُّعُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ، دُونَ طَلَبِ صَرِيحٍ مِنْه، وتَطَلُّعُ معْظَم أصحابه، أنْ يَنْصُرَهُمْ اللهُ علىٰ عَدُوّهِم ليتخَلَّصُوا من الاضطهادِ الَّذِي هُمْ فيه من قِبَلِ أئِمَّةِ المشركين فِي مَكَّة.

القضيَّة الثّالثَة: ما أحْدَثَهُ المشْرِكُون من ضَجِيجِ إعْلامي، حَوْل ما امْتَنَّ اللهُ به على رسُولِهِ محمّد ﷺ، مِنْ مِنَّةِ الإسراء والمعراج، وَحَدِيثِهِ عَنْهُما للمؤمنين، ووُصُولِ خَبَرِهِما إلى مُشْرِكي قومه.

القضية الرابعة: مُتَابَعَةُ المشركين ضَجِيجَهُمُ الإعْلاميّ بشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، الشَّجَرَةِ الملْعُونَةِ المذكُورَة في القرآن، والمتْلُوَّةِ بألْسِنَةِ المؤمنين، كلَّما تَلَوْا الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة: (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾:

هٰذِهِ الآيَةُ تتعلَّقُ بالْقَضِيَّةِ الْأُولَىٰ مِنَ القضايا الأربع، الَّتي ذكَرْتُهَا في التمهيد.

وقَدْ دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ طَلَبُوا من الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، أنْ يُجْرِيَ اللهُ لَهُ آياتِ خوارقَ اقْتَرَحُوها، كَأَنْ يُنَحِّيَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّة، أَوْ أنْ يَجْعَلَ بَعْضَ جبالها أو بَعْضَ مواضِعَ مِنْها ذَهباً، كما أخْرَجَ لصالح عَلَيْهِ السَّلام النَّاقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنَها قومُهُ وكانت قِصَّةُ هٰذِهِ النَّاقَة، وقِصَّةُ صالح عليه السَّلام وقومِهِ ثمود متداولةً بَيْنَهُمْ، وكَأَنْ يأتِيَهُمْ بآياتٍ كآياتِ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وآيات عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

فأبانَ اللهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ قادِرٌ على إرْسال مَا يَطْلُبُون وَمَا يَقْتَرِحُونَ من آيات خارقات، من نَوْعِ الآيَاتِ المادّيّات اللّواتي تُدْرَكْنَ بالحواسّ الظاهرة، إلّا أنّ من سُنَّتِهِ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ أنَّهُ إِذَا اسْتَجابَ لمطالِب الْقَوْم، فأجْرَىٰ لِرَسُولِهِ الآيَةَ أو الآيَاتِ الّتِي اقْتَرحُوها أو الّتي يَقْتَرِحُونَها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أنْ يُهْلِكَهُمْ بعذَابٍ، وَيَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إذْ لَا يَكُونُ مِنَ الحكْمَةِ إمْهَالُهُم وتأخِيرُهُمْ إلَىٰ آجالِهِمْ.

وقَدْ أثبتَتِ التجارِبُ الْبَشَرِيَّةُ، أنَّ الخوارقَ الَّتِي يَقْتَرِحُها الْكَافِرُونَ المعانِدُون الجاحِدُونَ، على رُسُلِ رَبّهم، إذَا أجْرَاهَا اللهُ عزّ وجلّ فإنّها لَا تُغَيِّرُ مِنْ وَاقِعِ حَالِهِمْ شَيْئاً، إذْ هُمْ في قُلُوبهم مستيْقِنُونَ، إلَّا أنَّهُمْ جَاحِدُونَ، وَمَا يَقْتَرِحُونَهُ مِنْ آياتِ خَوارِقَ، لاَ يَعْدُو أنْ تكونَ مطالبَ تعنُّتِيَّة، وليْسَ من الحكْمَة أنْ يَخْرِقَ اللهُ عزّ وجلّ سُنَنَهُ فِي كونِهِ لِلْجَاحِدِين المتَعَنّتين، الَّذِينَ يَطْرَحُونَ المطالِبَ على سبيل التَّشَهِّي والتّلاعُبِ بالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّة.

ومِنَ الأمْثِلَةِ الواقِعِيَّة في تاريخ الْأُمَم أنَّ كُفَّارَ ثَمُودَ لَمْ يُؤْمِنُوا، على الرُّغْم من أنَّ اللهَ عزّ وجلّ اسْتَجَابَ لطَلَبِهِمْ، فأخْرَجَ لَهُمْ مُعْجِزَةَ النَّاقَةِ

علىٰ وفْقِ مَا طَلَبُوا تَماماً، فَكَانَ من الحكْمَةِ تَعْذِيبُهُمْ، وإهْلاَكُهُم إهْلَاكَ استئْصالٍ.

فاللهُ عزّ وجلّ لَمْ يَشأْ أنْ يُعَرِّضَ أهْلَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الحرام، لعذَابٍ شاملٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلاَكَ استِئْصَالٍ عامٍّ، وهُمُ الصَّفُّ الأوَّلُ من قوم خاتم رسُلِهِ وأنبيائه، وفي كثيرٍ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةٌ أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا بَعْدَ أنواع من العلاج الحكيم، في بضْعِ سنين، يُهْلِكُ اللهُ فيها الكبراء المعانِدِين بجُحود، الّذِينَ يَمْنَعُونَ أتباعَهُمْ مِنَ الإيمان والإسلام، وهذا ما تحقّقَ فِعلاً بَعْدَ بِضْعِ سنين، ثمَّ بَعْدَ فتح مكة.

فالمعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ وفْقَ مُقْتَضَيَاتِ الْحِكْمَةِ، من ﴿أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المقترحَاتِ من الخوارق المادِّيَّة، الَّتِي طَلَبَهَا أهْلُ الجحود مِن كُبَرَاءِ وأئِمَّةِ مُشْرِكِي مَكَّة ﴿إِلَّآ﴾ مَا قَضَتْ به حِكْمَتُنَا بَعْدَ ﴿أَن﴾ كَشَفْنَا للنَّاسِ بالتَّجْرِبَةِ أنَّ المستَيْقِنِين الجاحِدِين لَا يُؤْمِنُونَ، ولَوْ أَجْرَيْنَا لَهُمُ الخوارقَ الَّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدَ ﴿كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ وَ مِنْ أمْثِلَةِ المكذِّبينَ الأوّلِين أنّنا ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ المعجزَة الخارقَةَ للعادَةِ، على وَفْقِ مَا اقْتَرحُوا عَلَىٰ رَسُولِهِمْ صَالح، وكانت هـٰذِهِ الناقَةُ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ لهم، إذْ جَعَلَتْهُمْ يُدْرِكُونَ آيَةَ الحقِّ بأبْصارِهم ﴿فَظَلَمُواْ﴾ جاحِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وظَلَمُوا بِعَقْرِهَا، فاسْتَحَقُّوا العذاب الشامِل المسْتَأْصل.

وبَعْد أنْ كشَفْنَا للنّاس طبائعَ المكذِّبين الجاحِدِينَ بتَجْرِبَة كُفَّارِ ثمود، صارَ مِن الحكْمةِ أنْ لا نَسْتَجِيبَ لمطالِبِ الكافرين التَّعَنُّتِيَّة، وأنْ تَكُونَ آيَاتُنَا آياتِ تَخْوِيفٍ علىٰ أنّنَا قادِرُونَ علىٰ أنْ نَفْعَل ما نَشَاءُ ﴿. . .وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾ أي: ومَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلَّا لِتَحْمِلَ للنَّاسِ رِسَالَةَ تَخْوِيفٍ لَهُمْ بِعَذَابِنا، وهـٰذِهِ الآياتُ نختارُها ونُجْرِيها بِحِكْمَتِنَا، ولا نَجْعَلُ خَرْقَ سُنَنِنَا الكونيَّةِ أُلْعُوبَةً للمتشهِّينَ المتعنِّتين الجحُودينَ، الَّذِينَ كَذّبوا رَسُولَنَا بَعْدَ أَنْ أَرَيناهُمْ آياتِ صِدْقه الخوارِقِ، وكذَّبُوا بِكِتَابِنَا الّذِي نُنَزِّلُ

آياتنا البيِّنات عَلَيْهِ، ويَتلُوهُ علىٰ النَّاسِ تِباعاً علَىٰ وفْقِ مَا أَنْزَلْنَاهُ.

الباء في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ زِيدَتِ للتوكيد.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ... ﴿٦٠﴾﴾:

أي: واذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إذْ قُلْنَا لَكَ إنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالنَّاس، ووضْعُكَ مَعْنَىٰ هٰذِهِ الإحَاطَةِ فِي ذَاكِرَتِكَ، يَجْعَلُكَ مُطْمَئِنًّا مَعْ وَعْدِ رَبِّكَ لَكَ ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ بالنَّصْر، إلَىٰ أَنَّكُمْ مَنْصُورُونَ لَا مَحَالَة، إلَّا أنَّ تَحْدِيدَ الْوَقْتْ وكَيْفِيَّةِ النَّصْرِ خَاضِعَانِ لإرَاداتِنَا الْحَكِيمَة، لَا لرَغَبَاتِكُمُ المتعجِّلَة.

هٰذه هي القضيَّة الثانيَّة الَّتي دَلَّ عَلَيْهَا الْعِلَاجُ الرَّبَّانِيُّ، بالتذكير بما سَبَقَ تَنْزِيلُهُ في نُجُومِ القرآن، قَبْلَ نُزُول سُورَةِ (الإسراء).

وقَدْ بَحَثْتُ في سَوابِقِ التنزيل بِحَسَبِ تَرْتِيب نُزُول السُّور، فَوَجَدْتُ أنَّ الْمُحَالَ عَلَيْهِ والْمَطْلُوبَ تَذَكُّرُهُ دَواماً، هُو قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) بِشَأْنِ الّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ من أئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّة وكُبَرائِهِم:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لَيْسَ الذين كفرُوا من أئمة المشركين في مكَّةَ مَعْذُورِينَ في عَدَم إيمانهم، بل هُمْ غَارِقُونَ في أَوْ حَالِ التَّكْذِيب بالحقّ، مَعَ ظُهُوره لهم، وعِلْمِهِمْ بِصِدْقِ الرَّسُولِ مُحَمّد ﷺ، ومَهْمَا مَكَرُوا وَكَادُوا فإنّ اللهَ من وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، فَهُوَ قَدْ يُمْهِلُهُمْ ليقطع كُلَّ أَعْذَارِهم، إلَّا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَتْرُوكين، وغَيْر مُفْلِتينَ من عذاب رَبّهم وانتقامِه، فَهُو مُحِيطٌ بهم بعِلْمه، وسُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ إحَاطَةً تَامَّةً، لَا تَدَعُ لهم مَهْرَباً، ولَا بُدَّ بَعْدَ حِينٍ أنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿...وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ... ﴿٦٠﴾﴾.

هذا البيان من الآية يشتمل على القضيّتين الثالثة والرَّابعة، اللَّتَيْن أثار عليهما كبراء المشركين وأئِمَّتُهُمْ ضجيجاً إعلاميًّا. بُغْيَةَ الصَّدّ عَنْ تَصْدِيق الرَّسُولُ مُحَمَّدٍ ﷺ، والتأثير على بَعْضِ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَتَغَلْغَلْ بَعْدُ الإيمان في قُلُوبهم

فالقضيَّةُ الثالثة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

الرُّؤيَا: هي مَا أَرَىٰ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ آيَاتِهِ لَيْلَةَ أَسْرَىٰ بِهِ من الْمَسْجِدِ الحَرام إلى المسْجِدِ الأقْصَىٰ، وعَرَجَ به إلى السَّماء السابعَةِ فإلىٰ سِدْرَةِ المنتهَىٰ، وكانَتْ رُؤيَةً بَصَرِيَّة، وسَمِعَ مَعَهَا كلامَ رَبِّهِ وَحْياً من وراءِ حجاب، فقد كان الرّسُولُ لَيْلَتئذٍ سَمِيعاً بَصِيراً.

الأكثر في استعمالِ كلمة «الرُّؤيَا» لِمَا يُرَىٰ في المنام من حُلُم، ولكِنْ تُسْتَعْمَلَ كلمة «الرُّؤيا» عند العرب لما تراهُ العَيْن في اليقظة.

قال ابْن بَرّي: وقَدْ جاءَ «الرُّؤيَا» في الْيَقَظة، قال الراعي[1]:

فـكَـبَّـرَ لِـلـرُّؤيَـا وَهَـشَّ فُـؤَادُهُ وبَـشَّـرَ نَـفْـساً كَـانَ قَـبْـلُ يَـلُـومُـهَـا

وظاهِرٌ أنَّ الرُّؤيَا هنا بَصَرِيَّةٌ في اليقظَةِ لَا في الحُلُم، وعليه قولُ أبي الطَّيِّب المتنبيّ في بَدْر بْنِ عمَّار:

مَضَىٰ اللَّيْلُ والْفَضْلُ الَّذِي لَكَ لَا يَمْضِي ورُؤيَاكَ أحْلَىٰ في الْعُيونِ مِنَ الغُمْضِ

الْغُمْض: النوم.

---

(١) انظر لسان العرب لابْنِ منظور، مادة (رأىٰ).

ونُقِلَ عَن ابْنَ عَبّاسٍ أنّ الرُّؤيَا في الآية هنا هِي رُؤيا عَيْن أُريها النبيُّ ﷺ ليلةَ أسْرِيَ به إلى بيت المقدس.

فالمعنى: ومَا جَعَلْنَا الرُّؤيَةَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ لَيْلَةَ أسْرَينَا بكَ من المسْجِد الحرام إلى المسْجِدِ الأَقْصَىٰ، وعَرَجْنَا بِكَ إلى السَّمَاءِ السابعة فسِدْرَةِ المنْتَهىٰ، وَمَا جَعَلْنَا أمْرَنَا لَكَ بالْحَدِيث عن هـٰذِهِ المنَّةِ العظيمة، إلَّا فِتْنَةً (أي: امْتِحاناً وابْتَلاءً) للنّاس.

ويظْهَرُ أثَرُ هـٰذا الامْتِحان في الَّذِينَ أعْلَنُوا إسْلامَهُمْ ولمَّا يَتَغَلْغَلِ الإيمان في قُلُوبهم، أمَّا الّذِين كانُوا مؤمنينَ حَقًّا فيزْدادُون إيمَاناً، وأمَّا الكافِرُونَ فَيَزْدَادُونَ كُفْراً، ويَجِدُونَ ذَرِيعَةً يَتَذَرَّعُون بها لفِتْنَةِ النَّاسِ وصَدِّهِمْ عن الإيمان بالحق، إضافةً إلىٰ ذَرائِعِهِمْ الّتِي كانُوا يَتَذَرَّعُونَ بها، وهي ذرائع باطلة.

والقضية الرابعة: دلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾: هي شجرة الزّقُوم، الَّتِي سَبَقَ في نجوم التنزيل أن جاء ذِكْرُهَا في سُورَة (الْوَاقِعَةِ/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾:

وقد سبق في سورة (الواقعة) تدبُّرُ هـٰذِهِ الآيات، وفي الملحق الثاني من ملاحق تدَبُّرِهَا تدبُّرُ النصوص القرآنية الواردة بشأن شجرة الزّقوم، وهي ثلاثة نصوص:

الأول: الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

الثاني: الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

الثالث: الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

وجاء في نص سورة (الصافات) بيانُ أنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم وكَوْنُ هٰذِهِ الشجرة تَخْرُجُ في أصْلِ الجحيم هو طَرْدٌ لَهَا وإبْعَادٌ عَنْ كُلِّ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ، فَهِيَ مَلْعُونَةُ الذَّاتِ، أي: مَطْرُودَةٌ إلَى قَاعِ الجحيم، لأنَّهَا هنالك طَعَامُ الأثيم، وطَلْعُهَا كأنَّهُ رُؤُوس الشياطين، لَقَدْ أُبْعِدَتْ كما أُبْعِدَ المعَذَّبُونَ بالْأَكْل مِنْها، فَهُمْ في الْجَحِيم علىٰ دَرَكَاتِهِمْ مِنها.

فالمعنى: وجَعَلْنَا الشجرَةَ الملْعُونَةَ المطْرُودَة إلَىٰ أصْلِ الجحيمِ علىٰ ما أبَنَّا في القرآن فِتْنَةً للناس أيضاً.

وجاء التّصْرِيحُ بكَوْنها فِتْنَةً للظَّالِمِينَ، في قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: عذاباً للظّالِمِين في دَارِ العذاب يَوْم الدِّين.

وخَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ آيت هذا الفصل السابع من الدّرْس التاسع من دُروس السورة بقوله تَعَالَىٰ:

﴿... وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

أي: ونُخَوِّفُ هَٰؤُلَاءِ المعنيين بالعِلَاجِ، وهم أئمة مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ

التَّنزيل، بالمخوّفاتِ مِنَ البأسَاء والضّرّاءِ لعلَّهُمْ يَتضرَّعُون، فما يزيدهم تَخْويفنا إلّا طُغْياناً كبيراً.

الطُّغْيَان: هُوَ تجاوزهُمْ الْحُدُودَ المعتادَةَ في أهْلِ الكُفْرِ والْفُجُور، وغُلُوُّهم في معادات الحقّ، ومُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الرَّسُول، ومحاولة إطفاءِ نور الله بأفواههم، وصدِّ النّاسِ عن كتاب اللهِ المجيد.

والكِبَرُ وصْفٌ يُسْتَعْمَلُ في المادِّيَّاتِ وفي المعنويات بالتوسُّعِ اللُّغَويّ.

وبهذا انتهى تَدَبُّر الدرس التاسع من دُرُوس سورة (الإسراء).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.



(١٤)
التدبر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

٦١ ـ • قرأ أبو جَعْفر: [**لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا**] بضم التاء في الوصل مراعاة لضم الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالكسر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا].

٦٢ ـ • أثْبتَ يَاء المتكلم في: [أَخَّرْتَنِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل، وابْن كثير، ويَعْقُوب، في الوصل والوقف.

ولم يُثْبِتْها باقي القراء العشرة، فقالوا: [أَخَّرْتَنِ] في الوصْلِ والوقَف. وحذْفُ ياء المتكلّم كثير في العربية.

٦٤ ـ • قَرأ حَفْص: [وَرَجِلِكَ] بكسر الجيم.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة بإسْكان الجيم: [وَرَجْلِكَ].

الرَّجْلُ: اسم جمْع الراجل الماشي على رِجْلَيْه. ويظهر أنَّ كسْرَ الجيم لغةٌ جاءت في رواية حفص عن عاصم.

تمهيد:

هذا الدَّرس يَعْرِضُ اللهُ عزّ وجلّ فيه لقْطَةً من إباء إبْليس أنْ يَسْجُدَ لآدم، وذَرِيعَتِه في رَفْضِهِ أنْ يَسْجُدَ لَه، وإعْلَانِهِ بوقاحَةٍ إلْزَام نَفْسِه بأنْ يُغْوِيَ ذُرِّيَّة آدم، سَائِقاً لهم إلَىٰ شقائهم الأبَدِيّ، إذَا أَخَّرَهُ رَبُّهُ ولم يُمِتْهُ إلَىٰ يَوْم القيامة، مع بيانِ بعْضِ خُطَّتِهِ في الإغْوَاء، وبيان ما رَدَّ اللهُ به عليه.

التدبّر التحليلي:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تَدَبُّر النّصوص القرآنيّة المتعلّقة بخَلْقِ آدم وما رَافَقَهُ من أَحْداث، تَدبُّراً تكامُلِيًّا، ومِنْها ما جاء من آياتٍ في هذا الدرس، ولهـٰذا فإنّي اقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر فِقَرَاتِ هذا الدَّرْس.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ... ﴿٦١﴾﴾:

أي: وضعَ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي أيًا كُنْتَ، هٰذِهِ القضاياَ الَّتي نُحدِّثُكَ بها، من الأحْدَاثِ الّتي جرَتْ وقْتَ قَوْلِنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَم، بَعْدَ أنْ قَالُوا: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] وبَعْدَ أنْ أجْرَيْنَا بَيْنَ آدم وبَيْنَ الملائكة مُبَارَاةَ العِلْم، فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ جَمِيعاً إلَّا إبْلِيسَ، فقد كان من الجنّ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَة، فَفَسَق خارِجاً عَنْ أمْرِ رَبّه، إذْ أمَرَهُ بالسجود مع الملائكة.

قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قالَهُ إبليس في بَعْضِ مواقفه:

• ﴿... قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾: استفهامٌ استنكارِيٌّ فِيهِ معنَىٰ الكِبْرِ الْعُنْصُرِيّ، افْتِخاراً بالنَّارِ الّتِي خُلِقَ منْها، واحْتِقَاراً للطِّينِ الّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدم.

أي: لا يَلِيقُ بي وأنَا المخْلُوقُ مِنْ نَارٍ أنْ أسْجُدَ للّذِي خَلَقْتَهُ أوّلَ مَا خَلَقْتَهُ طيناً من تراب وَمَاءٍ، ولمَّا سَوَّيْتَهُ نَفَخْتَ فِيهِ الرُّوح وجَعَلْتَه كائِناً حيًّا، وأرَدْتَ أنْ تُفَضِّلَهُ علينَا، فأمَرْتَنَا بالسُّجودِ له، إنَّني لَا أسْجُدُ لَهُ مع السَّاجِدِينَ له من مَلَائكتِك.

ويظْهَر لي ـ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ في التدبّر التكامُلِيّ ـ أنَّ إبليس قالَ هٰذا الكلام في نَفْسِه، مُوَجّهاً خِطَابَهُ لِرَبِّهِ حِينَ أبَىٰ أنْ يَسْجُدَ لآدَم.

قول اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً لمعنَىٰ ما قالَهُ إبْلِيسُ بَعْدَ جَلْسَاتِ مُحَاكمتِهِ في حِوَارٍ جَرَىٰ بَيْنَهُ وَبيْنَ رَبِّه، كما ظهر لي في التدبّر التكامُلِيّ.

• ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

خاطَبَ إبليسُ اللّعِينُ رَبَّهُ مُعْتَرِضاً عَلَيْهِ بوَقَاحَةٍ قائلاً له:

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أرأيْتَ نفْسكَ وَما فَعلْتَ إذْ كَرَّمْتَ عَلَيَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ، لِأَنَّكَ خَلقْتَهُ مِنْ طِين.

ويمكن أن نعتبر الكافَ مُؤَكّدَةً للخطاب الّذي دَلَّتْ عليه تَاءُ المخاطب، ولكنَّ التقدير الأوّلَ أرْجَحُ فيما أرىٰ.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: هٰذِهِ العبارة بَدَلٌ من كاف الخطاب في ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو آدم عليه السَّلام، واستَعْمَلَ إبليس اسم الإشارة للمشَارِ إليه المفرد لِيُشْعِرَ باحتقاره لآدَم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: جَعَلْتَهُ أكْرَمَ مِنّي، وفضَّلْتَهُ عليَّ.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: اللّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَحْذُوف، وتُسَمَّىٰ مُوَطِّئَةً للقسم.

والمعنى: أقْسِمُ لَئِنْ أَمْهَلْتنِي فِعلاً، فأبْقَيْتَنِي حيّاً كما وَعَدْتَنِي إلى يوم القيامَةِ، وهو يوْمُ قيام السّاعَةِ الَّتي تنتهي بقيامِها ظُروفُ الحياة الدُّنيا كلها. وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ نبأ قيام السَّاعَةِ، وَنَبَأَ الْبَعْثِ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، قَدْ كان مَعْلُوماً للجنّ، إذْ إبليسُ واحِدٌ منهم، وكانَ مَعْلُوماً حَتْماً للملائكة، وأنَّ الجنَّ كانوا مَوْضوعين موضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا قَبْلَ الإنس.

والفعل في ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ هو فعل الشرط في عبارة ﴿لَئِنْ﴾.

﴿... لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾: الفعل في ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ جوابُ الشرط. المعْنَىٰ: لأَضَعَنَّ اللُّجُمَ في أحْناكِ ذُرِّيَّةِ آدم، كَما تُوضَعُ اللُّجُمُ في أحْناكِ الدَّواب، لتطويعها وقِيَادَتها أو سَوْقِهَا إلى حيْثُ يُرِيدُ مُطَوِّعُها.

في هذه العبارة اسْتِعارَةٌ مكْنِيَّةٌ، إذْ شَبَّهَ إبْليسُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ بالدَّوابّ التي

تُطَوَّعُ للرُّكُوبِ والْقِيَادَةِ والسَّوْقِ، ولَمْ يُصَرِّحْ بلَفْظِ الدَّواب، بَلْ جاء بشيءٍ من خَصَائِصِها يَدُلُّ عليها، وهو احْتِنَاكُهَا لِتَطْوِيعها.

يقال لُغَةً: «احْتَنَكَ صَاحِبُ الدَّابَّةِ دَابَّتَهُ» أي: وضَعَ الحَبْلَ أو اللِّجَام في حَنَكِهَا لِيَطُوِّعَها للرُّكُوب، والْقِيَادَةِ والسَّوْق.

فالمعنىٰ: لأجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كالدَّوابِّ الّتي تُطَوَّعُ بِوَضْعِ اللُّجُم في أَحْنَاكِهَا، ولَأُسَيِّرَنَّهُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا عُصَاةً لَكَ، ولَأُنَقِّلَنَّهُمْ خُطْوَةً فَخُطْوَةً، حتّىٰ أُوصِلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لي مِنْهُمْ إِلَىٰ دَرَكة الكافِرِينَ المجْرِمينَ، الّذِين يَسْتَحِقُّونَ العذاب الأبَدِيَّ الخالِدَ في الجحيم.

واستَثْنىٰ إبليسُ فقالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: مُرِيداً بالْقَلِيل مَنْ لا يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاتِهِ مُطْلقاً وهُمُ المُحْسِنُونَ، والأبْرَارُ، وَكامِلُوا التَّقْوَىٰ، وهُمُ المخْلَصُونَ والمخْلِصُونَ، كما جاء في النُّصُوصِ الأخرىٰ.

قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لما رَدَّ بِهِ جلَّ جلالُهُ على إبليس اللّعين:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: اذهَبْ فأنْتَ مُمَكَّنٌ ممَّا أعْدَدْتَ نَفْسَكَ للقيام به من إغْراءٍ وإغْوَاءٍ، دُونَ أنْ يكُونَ لَكَ عليهم سُلْطانٌ يُلْغِي إراداتهم الحرَّة، فَمَنْ تَبِعَكَ في كُفْرِكَ وَتمرُّدِكَ علىٰ طاعَتِي وحُقُوقِ رُبُوبِيَّتِي لَهُ، وحُقوقِ إلَهِيَّتِي مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم، فإنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَمِيْعاً حَالَةَ كَوْنِهِ جزاءً مَوْفُوراً، أيْ: كثيراً واسعاً، يأخُذُ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ جَزاءَهُ بالْعَدْلِ فيها.

ولله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ في هذا التمْكِينِ لإبليسَ وجنُودِهِ من الإغْراء والإغواء، بالْوَسْوَسَةِ والتَّسْوِيلات واستثارة

الأهواء والشهواتِ، دُونَ أنْ يكونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يُؤَثِّرُونَ فيه بالْجَبْر علىٰ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

وهٰذِهِ الحكْمَةُ تَظْهَرُ لنَا حينَما نُدْرِكُ أنَّ إرَادَاتِهِم الحرَّةَ، تَكُونُ في الحياة الدُّنيا عنْدَ الإشارَةِ المتوسِّطَةِ تماماً، بَيْنَ طَرِيق الخير، وطَرِيق الشرّ، بَيْنَ نَجْدِ الخيْرِ والْهُدَىٰ ومنْطِقِ العقل والحكمة والرُّشد، من جِهَةِ اليمين، مع الإغراء بالسعادة الحقيقيَّة العاجلة والآجلَة، والخلود الأبدي في جنّاتِ النعيم، والخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، وبيْنَ نَجْدِ الشرِّ والضلال وزينات الحياة الدنيا وشهواتها ومُغْرِيَاتها العاجلات، وَمَعَها زُخْرُفُ وَسَاوِسِ الشياطين وَتَسْويلاتهم، وإطماعهم بالباطل، ووعُودهم الكاذِبَاتِ، وحُجَجِهِمُ الباطلات، مغَلَّفَةً بتَحْقِيقِ عَاجِلِ الأهواء والشهوات.

وبهذا يَتِمُّ التكافُؤُ بَيْنَ جواذِبِ طَرِيق الخير والْهُدَىٰ، وَجَواذب طَرِيق الشّرّ والضَّلَالِ، في التأثير عَلىٰ الإنْسان.

وعندئذٍ تكونُ الإرادةُ المقْتَرِنَةُ بالْقُوَّةِ الإدْراكيَّةِ الواعِيَة، في المخْلُوقِ الممتَحَنِ هي المرَجِّحة في السَّيْرِ في طَرِيق الخيْر والْهُدَىٰ، أو السَّيْرِ في طَرِيقِ الشّرّ والضَّلَالِ، خِلال رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، في مَسِيرة الحياة الدُّنيا.

والتمكين الذي أعْطَاهُ الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ لِإِبْلِيسَ وجُنُودِه، دُونَ أنْ يكونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ جَبْرِيٌّ على العباد الموضوعينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، يَتَلَخَّصُ بأرْبَعَةِ مجالَات:

المجال الأوّل: المجالُ الإعْلَامِيُّ الدِّعَائي، بالْوَسَاوِسِ والتَّسْويلاتِ وأنواعٍ لَا تُحْصَرُ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْل.

دلَّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة، لإبليسَ اللّعين:

﴿... وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ... ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: أي: واعْمَلْ بِوَسائِلِكَ الصَّوْتِيَّةِ الإعلامية، لِتَسْتَفِزَّ بِهَا مَنْ تَسْتَخِفُّ منهم، فَتُنْهِضُهُ مِنْ مكانِ اسْتِقْرَارِه، وتَجْعَلُهُ يتَبِعُك بحَمَاقَةٍ ورُعُونَة.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَفَزَّ الخوفُ فلاناً» أي: استخفَّهُ فأنْهضه. ويقال: «اسْتَفَزَّ المنادِي قَوْمَهُ» أي: أثارهم وأزْعَجَهُمْ بندائه، وجَعَلَهُمْ يَنْهَضُونَ وَيَنْشَطُونَ لِتَلْبِيَةِ النداء. ويقال: «اسْتَفَزَّه» أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واسْتَخْرَجَهُ وَخَتَلَهُ حتَّىٰ ألقاهُ في مهلكة.

ومن الملاحظ أنَّ شياطينَ الإنْسِ الّذِين يتلَقَّوْنَ بالإيحاء من شياطين الجنّ تعليماتهم، ويُضيفُونَ إليها إضَافَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُها أوْلِياؤهم من الجنّ، قد اسْتَخْدَمُوا في هٰذا العصر وَسَائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل، والإخراج عن صراط اللهِ المستقيم، والسَّوْقِ إلى سُبُلِ الجحيم، وهي جميعُها تَدْخُلُ تحتَ عنوان «الاسْتِفْزَاز الصّوتي».

ويَدْخُلُ في الاسْتِفْزازِ الصَّوْتي كُلُّ وسَائِلِ الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدةُ الأولَىٰ لكُلِّ ذَلِكَ: زُخْرفُ القَوْلِ الَّذِي يُطْلَقُ بالصَّوْت.

المجال الثاني: جَمْعُ الجنُود والأعْوان والأنصار، واستخدامُهُمْ في الإغراء والإغواء، من شياطين الجنّ والإنس.

دلَّ على هذا الجمع للجنود قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ خطاباً لإبْلِيسَ اللّعين:

﴿... وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ... ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَأَجْلِبْ﴾: أي: واجْمَعْ ـ يُقَالُ لغةً: «أَجلَبَ الْعَدُوُّ عَلَىٰ عَدُوِّه» أيْ: جَمَعَ جُنُودَهُ وأنْصَارَهُ وأعْوَانَه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوِّياً بخَيْلِك، وذِكْرُ الخيْلِ كِنَايَةُ عَنِ الْفُرْسَانِ، أي: متقوِّياً بفُرْسَانِكَ الّذِين يُقَاتِلُون عَلَىٰ الخيُول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾ فيها قراءتان: بإسْكانِ الْجِيمِ، وهو المنصوصُ عَلَيْهِ في كُتب اللّغة، وبكسر الجيم، وهي قراءة حفص عن عاصم، ولا بُدَّ أنْ تكُونَ لُغَةً في الكلمة. أي: ومتقوِّياً بالجنود المشاة علىٰ أرْجُلِهم.

وقد كانَتْ جُيوش المحاربين تتألَّفُ من مقاتِلِينَ فُرْسَان، يَمْتَطُونَ الخيول، ويقاتلُون وهُمْ علَىٰ ظهُورِها، وهم القوّة الأشد، ومن مقاتلين رِجال يمْشُونَ علىٰ أرْجُلِهِمْ، يُقَاتِلُونَ حينما تَلْتَحِمُ الصفوف.

والمعنى: واجْمَعْ لتحقيق ما عَزَمْتَ عَلَيْهِ من إغراءٍ وإغْواء كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ جَمْعَهُ مِنْ قُوَّاتٍ تُسَاعِدُكَ وتُعِينُك.

فعِبَارَة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ تَمْكِينِه من جَمْعِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ جَمْعَهُ من قُوّاتٍ تَنْتَشِرُ في الأرض لإغراءِ الناس وإغوائهم وإضْلَالهم، وسَوْقِهم إلى معْصِيَةِ اللهِ فَعذَابِه.

ومن الملاحظ أنَّ جُنُودَ إبْليسَ من الإنْسِ يَجْمَعُونَ قُوَّاتٍ عظيمةً وكثيرَةً، ويَبْذُلُونَ فِي جَمعِها أموالاً كالجبال، للقيام بأعْمَال الإغراء والإغواء والإضْلَالِ، للإبْعَادِ عَنْ صِراط اللهِ المستقيم، وإخراج سالكيه منه.

المجالُ الثالث: مُشَارَكَةُ النَّاس في كَسْبِ أمْوالهم، واسْتِيلَادِ أولادهم.

دلَّ علىٰ هـٰذِهِ المشاركة قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هذا الدرس خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿. . . وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ . . . ﴿٦٤﴾﴾:

إنّ مُشَارَكَة إبليسَ للنّاسِ في الأمْوَالِ والأولاد، تَكُونُ بإضْلَالِهِمْ حَتَّىٰ يُطَبِّقُوا مَا يَضَعُهُ لهم من مَذَاهِبَ وأفكارٍ وإباحِيَّاتٍ لِكَسْبِ الأمْوَالِ، والأولاد.

فهو يُغْرِيهم أنْ يأكُلَ بَعْضُهُمْ أمْوَالَ بَعْضٍ بالباطل، ظلماً وعُدْواناً بمختَلِفِ وَسَائِلِ اللّصُوصِيَّةِ، والسَّلْبِ، والنَّهْبِ، والْغِشّ، والتطفيف في المكيال والميزان وغير ذلك، وحتَّىٰ يَسُنُّوا قوانينَ طاغوتيَّةً تُخَالِف شريعةَ اللهِ وأحْكامَهُ لِعِبَادِه.

ومن أمثلَةِ هـٰذِهِ المشاركةِ الّتي ظهَرَتْ في الناس، البُنوكُ الربَويَّة، الَّتي يُغْرِي شياطِينُ الإنْس والجنّ النّاسَ بالتعامُلِ عن طريقها، حتَّىٰ أمْسَتْ أمْوال معظم النّاسِ في أيْدِي أصْحَابِ هـٰذِهِ البنوك، يتصَرَّفُونَ بها على مَناهج إبليس، وهذه من مُشَارَكَة الشيطان، بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرَّمة، والاحتكارات، والغش، وأنوع القمار، وقرارات التأمِيم الاشتراكيَّة والرَّشوات والسّرقات.

وقد صار الشيطانُ إبليسُ اللّعِينُ شَرِيكاً للناس بمناهجه المخالِفَةِ لصِرَاطِ اللهِ المستقيم، في معظم أعمال اكْتِسَابِ المالِ وجَمْعِهِ ومَنْعِهِ.

وأمَّا مُشَارَكَةُ إبليسَ للنّاسِ في الأولاد، فتكون بإغْرَائهم حتَّىٰ يخالِفُوا صِرَاطَ الله المستقيم، فيما يُزَيِّنُ ويُحَسِّنُ لَهُمْ من حُبّ الشّهَواتِ المحرَّمَةِ الّتي نهىٰ الله عنها، واسْتِيلادِ الأولاد بغيْرِ ما شرع الله.

ومن الملاحَظِ أنَّ دَعَوَاتِ إبَاحِيَّةِ قَضَاءِ شَهَوَاتِ الفروج، دُونَ أيِّ ضابطٍ دِينِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ أوْ صِحِيّ أو مَصْلَحِيّ اجْتِماعِيّ أوْ فَرْدِيّ، وانتشارَ هٰذِهِ الإباحِيَّةِ فِي الْعَالَم، بِتَأْثِير الدُّعَاةِ المنْتَشِرينَ الدَّاعينَ إلَيْهَا حَتَّىٰ في مُؤْتمراتٍ تَرْعَاها مؤسَّسَاتٌ وَدُول، قَدْ أمْسَتْ لُعْبَةَ إبْلِيسَ وجنودِهِ من شياطين الجنّ والإنس في عَالَمِنَا المعاصر، وقَدْ كانَ لَهُمْ نُظَرَاءُ فِي مُخْتَلِفِ أُمَمِ الأرْضِ وشُعُوبها في الْعُصُورِ الْغَوابر.

وظاهِرٌ أنَّ مُمَارسَاتِ النّاس الإبَاحِيَّاتِ في هذا المجال هي مِنْ مشاركة إبْليسَ اللّعِينِ لَهُمْ بمناهِجِه، في أوْلادهم الَّذِين يولَدُونَ لهم من غَيْرِ الطَّرِيقِ الذي شَرَعَهُ اللهُ عزّ وجلّ لِعبَادِهِ.

المجال الرابع: مواعيدُ إبْلِيسَ وجُنُودِه للناس الْقَائِمةُ على التغرير بهم، لاستدْرَاجِهِمْ إلَىٰ مَهَالِكِمْ، أَوْ إزْلَاقهم إلى نَكدِ الحياة الدُّنيا ومَتَاعِبِها، والحِرْمَانِ من سعادَةِ النَّفْسِ، وراحَةِ الضمير، ثمّ إلَىٰ عذاب الله يَوْمَ الدِّين.

دلَّ على هذه المواعيد التغريريَّةِ الكاذِبة، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس لإبْلِيسَ اللّعِين.

﴿وَعِدْهُمْۚ﴾: أي: وَزَيّنْ لهم بما تُقَدِّمُ لهم مِنْ وُعُودٍ كاذبة، الابْتِعَادَ عَنْ صِرَاطِ رَبّك المستقيم لعباده.

ومِنْ أمثلة المواعيد التَّغْرِيريَّةِ الكاذبة، إغراءُ الناسِ بِعُدْوانِ بعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، بالْحُرُوبِ الظَّالِمَةِ الْآثِمَةِ، بُغْيَةَ الظَّفَر بأموالٍ أو سُلْطَانٍ، أَوْ تَوَسُّعٍ في الملْكِ، وتكونُ عَاقبَتُها ملايين الْقَتْلَىٰ، وخَراب الْعِمْرَان، وانْتِشَار الْفَسَادِ في الأرض.

وفي تحْذِيرِ اللهِ عزّ وجلّ النّاسَ من مَوَاعِيدِ الشيطان الكاذبة، قالَ اللهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿... وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا... ﴿٦٤﴾﴾:

الْغُرُور: الخِدَاعُ والإطْمَاعُ بالْبَاطل.

أي: ومَا يَعِدُهُم الشيطانُ إلَّا وَعْداً غُروراً، مُخَادَعةً وإطماعاً بالباطل.

لفظ ﴿غُرُورًا﴾ صِفَة لموصوفٍ محذوفٍ هو مَصْدَرُ ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ وقَدْ

جاء الوصْفُ بالمصْدَرِ للمبالغة، حتَّىٰ كأَنَّ الْوَعْدَ هو غُرُور، من شِدَّةِ مَا فيه من تغرير، ومخادَعَةٍ وإطْماعٍ بالْبَاطل.

ومن أمثلة وعْدِ الشيطان للإنْسانِ أن يُوَسْوِسَ لَهُ بأَنَّ المال هو وسيلة السَّعَادَةَ في الحياةِ، فَيَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بهـٰذِهِ الوسْوَسَةِ، فَيَشْقَىٰ في جَمْعِ المالِ من كلِّ طَرِيقٍ مُحَرَّمَةٍ يكون بها ظالماً آثماً مُعْتَدِياً.

ومن الأمْثِلَةِ أن يُخَوِّفَ الشَّيْطَانُ الإنْسَانَ من الْبَذْل في وُجوهِ الخير ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، ويُغريَه بالبُخْلِ لئلا يَكُونَ عَالَةً عَلَىٰ غَيْرِهِ، وأَنْ يُغْرِيَهُ بالْبَذْلِ الكثير في الشهوات واللّذَاتِ وتحقيق الأهواء، لاغْتنَام مُتَعِ الحياة الدُّنيا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الموتُ الّذي لَا بُدَّ مِنْه.

ومن الأمثلة أنْ يَعِدَهُ بتحقيق أمانيه ومطالِبِهِ من الحياة الدنيا، إذَا انْتَمَىٰ إلى دَوْلَةٍ كافِرَةٍ عُظْمَىٰ، أو انْتَمَىٰ إلىٰ جماعَةٍ سِرِّيَّةٍ خبيثَةٍ لا تُؤْمِنُ باللهِ ولا بالْيَوْمِ الآخِر.

إلى غير ذلك من وُعُودٍ يَصْعُبُ تَحْدِيدُ احْتمالات صُوَرِها.

وبعد البيان السابق أبانَ اللهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ قَالَ لإبليس في آخِرِ الحوار:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنَّ عبادي الذين يَسْتَعِيذُونَ بي، ويَحْتَمُونَ بحمايَتي، مؤمنين بي مسلمين لي، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ تُؤَثِّرُ به عليهم، لأنّني بعزّتي وقُدْرتي على مَا أشاء سأُوفّقُهُمْ إلَىٰ تحْقِيق نهايَةٍ سَعِيدَة، ولو ارتكَبُوا بعض الآثام.

ويُمْكنُ أن نَفْهم من هذا البيان ما يلي:

إنَّ عبادِي كُلَّهُمْ لَا أجْعَلُ لَكَ سُلْطاناً جَبْرِيًّا عليهم، نُلْغِي به إراداتِهم الحرَّة، ولا يكونُ مِنْكَ لهم أكثر من اتّخاذِ الأسباب الإغرائيّة غير الإكراهِيَّة ولا الجبْرِيَّة.

وعبارة: ﴿...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ ذَاتُ عدّة أهداف:

الْهَدَفُ الأول: التَّلْويحُ لإبْلِيسَ بالانتقام الشَّدِيد إذا حَاوَلَ تجاوُزَ حُدودِ الإغراء والإغواء بِمَا مَكَّنَهُ اللهُ مِنْه، فَرَبُّهُ لَهُ بالمرصاد.

الهدَف الثاني: تَوْصِيَةُ المؤمِنين بأنْ يَتوَكَّلُوا علىٰ رَبّهم، ليَحْمِيَهُمْ مِنْ إغواء الشياطين، فمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ كَفَاهُ، فَصَانَهُ وحَمَاه.

الهدف الثالث: التَّذْكِيرُ بعُنْصُرٍ من عناصِرِ القاعدة الإيمانية، وهو أنَّ اللهَ عليم قَدِير حكيم، لا يَجْرِي شيءٌ في الكون إلَّا بتقديره، أو تمكينِهِ وإذْنه، فإذا عَلِمَ صِحَّةَ إيمانِ عَبْدِهِ، وصِدْقَهُ، وتوكُّلَهُ عَلَيْه، وفَّقَهُ للْعَمَلِ بمرَاضيه لأنَّهُ وليُّه.

التوكُّلُ على الله: الاسْتِسْلامُ إلَيْه، وتَفْويضُ تَدْبير الأمُور إلَيه، لتحقيق ما يَرْجو المتوكِّلُ، مع القيام بالأسْباب المستطاعَةِ المادّيّة والمعنوية طاعَةً لله.

الباء في: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زِيدَتْ لتوكيد أنَّ اللهَ كَفَىٰ وَكيلاً، والأصل: كَفَىٰ رَبُّكَ.

وجاء الخطاب في العبارة بأسْلُوب الخِطاب الإفرادي ليَشْعُر كُلُّ مُخاطَبٍ أنَّه مُوَجَّهُ له من رَبّه جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس العاشر من دروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مدَدِه ومعنوته وتوفيقه.



(١٥)
التدبّر التحليلي للدّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦٦ ـ ٧٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾:

القراءات:

٦٨ و٦٩ ـ ● قرأ ابْن كثير، وأبُو عَمْرٍو بنون المتكلّم العظيم في الأفعال التالية:

[نَخسِفَ ـ نُرسِلَ ـ نُعِيدَكم ـ فَنُرسِلَ ـ فَنُغرِقَكُمْ].

وقرأها رُوَيْس عَنْ يعقُوب، وأبو جعْفر بخُلْفٍ عن ابْن وِرْدان:

[يَخسِفَ ـ يُرسِلَ ـ يُعِيدَكُم ـ فيُرسِلَ ـ فَتُغرِّقَكُمْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَخسِفَ ـ يُرسِلَ ـ يُعِيدَكم ـ فَيُرسِلَ ـ فَيُغرِقَكُمْ]** بالياء.

ومؤدّى هذه القراءات واحِدٌ، وفيها تَفَنُّنٌ في الأداء البياني ـ وزيادَةُ تَرْهيب في قراءة: **[فَتُغرِّقَكُمْ]**.

٦٩ ـ ● قرأ أبو جَعْفَر: **[مِنَ الرِّياح]** بالجمع وهو يَدُلُّ على تَعَدُّدِ أنواعها.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِنَ الرِّيحِ]** بالإفراد، وهو يَدُلُّ على الجنس. ومؤدىٰ القراءتين واحد.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يكْشِفُ اللهُ عزّ وجلّ به أنَّ النَّاس يلْجؤونَ إلَى ربّهم عند

المخاوفِ والضَّرُورات الشديدات، فإذَا كشَفَ عنْهُم الضُّرَّ مستجيباً لأدْعَيَتِهم أعْرَضُوا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الإنْسَانَ كَفُورٌ بِنِعَمِ الله عليه، مع أنَّ اللهَ جَلَّ جلَالُهُ قَدْ كَرَّمَه.

وفيه معالجة للنّاسِ تجاه هذه الصِّفَةِ الذّمِيمَة فيهم، الناتِجَةِ عن اختيارهم الحرّ، لِيَتَهَرَّبُوا منْ تَأْدِيَةِ وَاجِبِ الشكر.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾:

﴿يُزْجِى﴾: أي: يَسُوقُ، أوْ يَدْفع، بِرفْقٍ ويُسْرٍ واسْتقامة. يقالُ لغة: «زَجَا فلانُ الشيءَ يَزْجُوهُ، زَجْواً، وزُجُوّاً، وزَجَاءً. وأَزْجَاهُ يُزْجِيه»: أيْ: سَاقَهُ بِرِفْق، ودَفَعَه.

﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مَرْكبُ الْبَحْر، يطْلَقُ على الواحد وغيره، ويُذَكَّر ويُؤَنَّثُ، فيقال: هو الفلْك، وهي الْفُلك.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي: لتَطْلُبُوا أرْزَاقَكُمْ وَغَيْرَهَا ممَّا تَحْتَاجُونَ إِلَيْه من دُنْياكُم، منْ فَضْل رَبّكم الّذِي يَتَفضَّلُ بِهِ عليكُمْ أَيُّهَا النَّاس، إذْ كُلُّ مَا تَنَالُونَهُ بكَسْبكُمْ، ممَّا تجِدُونَ فِيه خيراً لكم في دُنْيَاكُمْ وآخِرَتكم، هُوَ مِنْ فَضْل الله عليكم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: أي: إنَّهُ رَحِيمٌ بكُمْ دَواماً، وَتَفَضُّلُهُ عليكم هو من آثار رحْمَتِهِ، والجملة تتضمَّن معنى التعليل لما يتفضل الله به على عباده.

فعل «كان» هنا يَدُلُّ على الكَيْنُونَةِ الدائمة، وهو بماثبة فِعْلٍ مؤكّد للإسناد في الجملة.

فالمعنى: رَبُّكُم أيُّها النّاسُ الّذي يُهَيْمِنُ عَلَيْكُم دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، المتصرِّفَةِ بِكُمْ وبالكَوْنِ كُلِّه، في كلِّ حَرَكَةٍ وسُكُون، وزيادَةٍ أو نَقْصٍ، وتغْييرٍ أوْ تَحْوِيل، هُوَ الّذِي يَسُوقُ لَكُم بِرِفْقٍ مَراكِبَكُمُ الْبَحْرِيَّةَ، حِينَ تَسْتَخْدِمُونَها فِي تَنَقُّلَاتكم الْبَحْرِيَّةِ مُسْتَوِينَ على ظُهُورِها، لِتَطْلُبُوا باسْتِخْدَامِهَا مَطْلُوبَاتٍ مختَلِفَاتٍ مِنْ دُنْياكُمْ، وهو يُحَقِّقُهَا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ رَحِيمٌ بِكُمْ دواماً في حياة الابتلاء الَّتِي وَضَعَكُمْ فيها.

جاء هذا البيانُ مُنَبِّهاً علىٰ عُنْصُرٍ من عناصِرِ الإيمان، بشأنِ جُزْئِيَّةٍ من جُزْئيات تَصاريف اللهِ عزّ وجلّ في كَوْنِهِ، تَوْطِئَةً لكَشْفِ أنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَتَرَعْرَعُ بفَضْلِ الله الدّائم عَلَيْهِ، كَفُورٌ لِنِعَم رَبِّهِ عَلَيْهِ، يَلْتَجِىءُ إِلَيْهِ لتحقيق مطالِبِهِ، ولا سيما إذا مَسَّهُ الضُّرُّ، فإذا كشَفَ الله عَنْهُ الضُّرَّ أَعْرَضَ عَنْ رَبّه، ولم يَعْبأْ بَأَنْ يُؤَدِّيَ واجِبَ الشُّكْرِ له.

وَأَتْبَعَ اللهُ هـٰذا الكَشْفَ بِبَيَانٍ إقناعِيٍّ حكيم لِلْكَفُورِينَ من الناس.

قول الله عزّ وجلّ مُتابعاً خطابَ الناس:

• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ...﴾: أي: وإِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيَاحُ تُحَرِّكُ الْفُلْكَ يَمِيناً وشِمَالاً وأنتم فيها، واضطَّرَبَتْ أَمْواجُ الْبَحْرِ اضطراباً شديداً، وخِفْتُمْ من الْغَرَق.

سَمَّىٰ الله عزّ وجلّ هـٰذا مَسًّا، لأنَّ الضُّرَّ لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ، وإنَّما بدأت أيادِيهِ تَمَسُّ مُسًّا يُخافُ مِنْ بَعْدِه نُزُولُ الضُّرِّ براكِبي الْفُلْك، إذْ تَغْرَقُ أو تتحَطَّمُ فَيغْرَقُون.

• ﴿...ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ... ﴿٦٧﴾﴾: أي: ضاعَ وانْعَدَمَ كُلُّ مَدْعُوٍ تَدْعُونَهُ من آلِهَةٍ من دُونِ الله، إذْ لَا أحَدَ مِنْهَا يَسْتَجِيبُ دُعاءَكم،

لأنَّها باطِلَةٌ لَا حَقِيقَة لإلهيَّتِها. إلَّا أنْ تَدْعُو الله رَبَّكُمْ فَهُو يَسْتَجِيبُ دُعَاءَكم، فيُهَدِّئُ أمْوَاجَ الْبَحْر، ويُسَكِّنُ الرِّياحَ، ويُوصِلُكُمْ إلَىٰ الْبَرِّ آمِنين.

• ﴿...فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ... ﴿٦٧﴾﴾: أي: فَلَمَّا دَعَوْتُمْ الله رَبَّكُمْ واسْتَجَابَ دُعَاءَكم، ونَجَّاكُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الّذِي كُنْتُمْ تَخَافُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُم، وَأَوْصَلَكُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ، وَشَعَرْتُمْ بالأمْنِ والطُّمَأْنِينَة علَىٰ الأرْضِ، أَعْرَضْتُمْ عَنْ حَمْدِ رَبِّكُمْ وشُكْرِهِ على ما أَوْلَاكم، وتوجَّهْتُمْ لمصالِحِكُمْ مِنْ دُنْياكُمْ وَأَهْوَائِكُمْ وشهواتِكُمْ، وعُدْتُمْ إلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ من اسْتِغْرَاقٍ في مَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ، وتَنَكُّب الصراط السَّوِيّ الَّذِي أبَانَهُ لعباده، وأمَرَهُمْ بِسُلُوكِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم في الحياة الدُّنيا.

﴿نَجَّىٰكُمْ﴾: أي: خَلَّصَكُمْ، ضُمِّنَ هـٰذا الفِعْلُ معنَىٰ الفِعل في «أوصَلَكُمْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فَمَعْنَىٰ العبارة: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ مُوصِلاً إيَّاكم إلى الْبرِّ أعْرَضْتُمْ.

الإعراض: حَالَةٌ وُسطَىٰ بَيْنَ الإقْبالِ والإدْبار، ويكونُ هذا الإعراضُ بانْصِرَافِ الإنْسَانِ عَنْ حَمْدِ رَبِّه، وَشُكْرِهِ بطاعَتِه، والْعَمَلِ بما يُرْضيه، وهـٰذا الوصْفُ قَدْ يَنْطَبِقُ علىٰ عُصَاةِ المؤمنين.

أمّا عَوْدَةُ الكافِرِ إلىٰ كُفْرِهِ بَعْدَ هـٰذِهِ الحالَةِ فينْطَبِقُ عَلَيْهَا معنَىٰ الْإدْبَارِ والتولّي، وهُما أشَدُّ من الإعْرَاضِ، وهؤلاء يَنْطَبِق عليهم ما جاء في الآيتين (٢٢ و٢٣) من سورة (يونس/ ١٠ محصف/ ٥١ نزول) وما جاء في الآيَتَيْن (٦٣ و٦٤) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وما جاء في الآية (٦٥) من سُورَة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول).

• ﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾: أي: والسَّبَبُ في الإعْراض أنّ الإنْسَانَ كَفُورٌ جَحُود، أي: كثير جُحودِ النِّعْمَةِ، ويظهَرُ للمتفكّر أنَّ دافِعَهُ لجُحودِ نِعْمَةِ مَنْ أنْعَمَ عَلَيْهِ يَرْجعُ إلى عامِلَيْن:

الأول: الكِبْرُ، ورَغْبَةُ الإنْسَان فِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْلِياً غَيْرَ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ غَيْرِه، فَهُوَ لَا يُحِبُّ أنْ يَعْتَرِفَ بِمِنَّةِ غَيْرِهِ عليه.

الثاني: التَّهَرُّبُ من تَأْدِيَةِ واجِبِ الشُّكْر، لأَنَّهُ متَىٰ أعْلَنَ اعْتِرَافَهُ بِمِنَّةِ ذي المِنَّةِ، كَانَ مَسْؤُولاً أدبيًّا أَمَامَ النّاسَ عَنْ شُكْرِ مَنْ أنْعَمَ عليْه بما يَسْتَحِقُّ من شُكر.

كَفُور: مِنْ صِيَغِ المبَالَغَة، أي: كَثِيرُ جُحُودِ مَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيه من نِعْمَة. وأقْبَحُ كُفْرِ النِّعْمَة، جُحودُ الإنْسَانِ نِعَمَ اللهِ عَلَيْه، إذْ لا بَقَاء لَهُ في الوجود أو في السَّلَامَةِ إلَّا بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ مُخَاطِباً الْمُعْرِضينَ خِطَاباً بُرْهَانيًّا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾:

يطْرَحُ اللهُ عزّ وجلَّ على المعْرضين عَنْ شُكْرِه، بَعْدَ أَنْ دَعَوْهُ في الْبَحْرِ إذْ مَسَّهُمُ الضُّرُّ، فنَجَّاهُمْ من الْهَلَاكِ وأوصَلَهُمْ إلى الْبرِّ، أسْئِلَةً حَوْلَ عِدَّةِ احْتِمالَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُنْزلَ عَلَيْهِمْ بواحدٍ مِنْها الضُّرَّ الَّذي كانُوا قَدْ خَافُوا مِنْهُ وهُمْ في الْبَحْرِ الثَّائِر والرِّيح الْعَاصِفَةِ، وهيَ أحْدَاثٌ لَم تَكُنْ إلَّا بقَدَرِ الله وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ، ولَمْ يَكُنْ إيقافُها وإسْكَانُها إلَّا بقَدَرِ اللهِ وقضائِهِ وخَلْقه.

الاحْتِمال الأَوَّل: أنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِم الأرض من تَحْتِهِمْ، فَيُهْلِكَهُمْ وهُمْ في الْبَرّ لَا في الْبَحْر، فَهَلْ هُمْ في أمْنٍ من حُدُوثِ هٰذا الْخَسْفِ لَوْ شَاءَهُ اللهُ القديرُ على مَا يَشَاء.

دلَّ على هذا الاحْتمال قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ. . . ﴿٦٨﴾﴾؟؟:

أي: أمَلَكْتُمْ بقُدْرَاتِكُمْ جَانِبَ الْبرِّ الْخَاضِع لسُلْطانِ الرَّبِّ وتَصارِيفِهِ، أوْ أَخَذْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَهْداً بأنْ لا يُجْرِيَ فِيهِ خَسْفاً، فَأَمِنْتُمْ مِنْ أنْ يَخْسِفَ رَبُّكُمْ بِكُمْ جانِبَ الْبرِّ فَيُهْلِكَكُمْ عُقُوبَةً لَكُمْ علَىٰ كُفْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ؟؟

لَقَدْ ظهر لي أنّ الفاءَ في ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على مَحْذُوف، وتقديرُهُ مَا سَبَقَ إظهارُهُ في الشّرْحِ التَّدبُّرِي.

الاحتِمَالُ الثاني: أنْ يُرْسِلَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ في الْبَرِّ رِيحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْبَاءَ مِنَ الأرض، فَيُنْزِلَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، ويَضرِبَكُمْ بِهِ ضَرْبَ تَعْذِيبٍ فإهْلَاكَ، فَهَلْ أَنْتُمْ فِي الْبَرِّ آمِنُونَ مِنْ تَعْذِيبكم وإهْلَاكِكُمْ بهذا السَّبَب لَوْ شَاءَهُ اللهُ القدير علَىٰ مَا يشاء.

دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الاحْتِمَالِ قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿...أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا... ﴿٦٨﴾﴾؟:

حَاصِباً: أي: رِيحاً تَحْمِلُ الرِّيحَ والْحَصْبَاء، وتَضْرِبُ بها الأشياء. فيُصِيبُ اللهُ بها مَنْ يَشاء.

والمعنى: أوَ مَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ الرِّياحَ وإرْسَالَهَا أوْ كَفَّهَا، أوْ أَخَذْتم من رَبِّكُمْ عَهْداً بِأنْ لا يُهْلِكَكُمْ بها وَأَنْتُمْ بجانب البرّ، فأمِنْتُمْ مِنْ أن يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَاصِباً يكونُ سَبَبَ تَعْذِيبِكُمْ وإهْلَاكِكُمْ.

وخاطبهم اللهُ عزّ وجلَّ بِقَوْله:

﴿...ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾: أي: ثم بَعْد أنْ يَخْسِفَ الله بِكُمْ جانب الْبرّ، أوْ بَعْدَ أنْ يُرْسِلَ عليكم حَاصِباً يُهْلِكُكُم، لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً يَتَوَكَّلُ أَمْرَ دَفْعِ عَذَابِ اللهِ عَنْكُمْ، أو يُسَائِلُ اللهَ ويُقَاضِيهِ عَمَّا أنْزَلَ بِكُمْ، إذْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا يُسْألُ عمَّا يفْعَل، لَكِنَّ أفْعالَهُ كُلَّها حَكِيمَة، وهِيَ في عِبادِهِ لَا تَخْرُجُ عن دَائِرَتي الْفَضْلِ والْعَدْلِ عند الجزاء.

الاحتمالُ الثالث: أنْ يُعِيدَكُمْ بمقَادِيرِه الخفيَّةِ إلى البَحْرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، ظَانِّينَ أَنَّ الْبَحْرَ هَادِيء، وأنَّ الرِّيَاحَ مُوَاتِيَةٌ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ آمِنَةٍ عَلَىٰ سَفِيْنَةٍ عظيمَةٍ قَوِيَّة، فإذا تَوَغَّلْتُمْ في الْبَحْرِ بَعِيداً عن الشَّواطِئ، وعَنْ كُلِّ مُنْجِدٍ يُمْكِنُ أَنْ يُنْجِدَكُم، أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ رِيحاً شَدِيدة قَاصِفَةً، فأغْرَقَكُمْ بها بسَبَبِ كُفْرِكُم بِنِعَمِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الاحْتِمال قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ... ﴿٦٩﴾﴾؟؟:

• ﴿أَمْ﴾ هُنَا بمعنى «بَلْ» التي تُفِيدُ الإضرَابَ الانتقاليَّ من معنًى إلى معنًى آخر.

• ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: عَوْدَةً أُخْرَىٰ، أو إعَادَةً أُخْرَىٰ، يقال لغة: «تاوَرَهُ الأمْرُ» أي: عَاوَدَهُ تَارَةً بَعْدَ تَارَة، والمعنَىٰ: عاودَه مُدَّةً بَعْدَ مُدَّة. **التارة**: المدَّة ـ الْحِين.

• ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾: **القاصِف**: الرّيحُ الّتي تأْتِي شَدِيدَةً عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الأشجار فَتَقْصِفُهَا وَتكسِّرُها. وهي في الْبَحْرِ تَكَسِّرُ السُّفن وتُغْرِقها. يقال: ريحٌ قَاصِف، وريح قَاصِفَة.

والمعنى: بَلْ أَمَلكتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ إِذَا عُدْتُمْ إِلَىٰ رُكُوبِ السُّفُنِ في البحر بتقْدير الله لتحقيق مطالِبكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، أَنْ تَحْمُوا أَنْفُسَكُمْ من أَنْ يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عليكم رِيحاً قَاصِفاً، يُكَسِّرُ مَرْكَبَكُمُ الْبَحْرِيَّ، فَيُغْرِقَكُمْ، بسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِنِعَمِ اللهِ عليكم؟؟.

وخاطَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ بقَوْله:

• ﴿... ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾:

﴿تَبِيعًا﴾: **التبيع**: الْمُطَالِبُ بالثأر، والّذي يَتَتَبَّعُ غَيْرَه لاقتضاءِ شيءٍ مِنه.

والمعنى: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُغْرقكم بالرِّيح الْقَاصِفِ، لَا تَجِدُونَ مَنْ يُطَالِبُ مِنْ أُوْلَيائكم بالثَّأْرِ مِنَّا، لِعَجْزِهِ عَجزاً تامًّا عَنْ ذَلِكَ.

مَنْ هٰذا الّذِي يَسْتَطِيعُ مُقَاضَاةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْ مُسَاءَلَته، أو الثَّأْرَ مِنْهُ إذا أَهْلَكَ بَعْضَ عباده، أوْ أَهْلَكَهُمْ كُلَّهُم، وهُمْ جَمِيعاً عَبِيدُه، وَنَواصِيهِمْ بِيَدِهِ، وحَيَاتُهُمْ ومَوْتُهُمْ خَاضِعَانِ لأمْرِ التكوين، إنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَهُو يكون فوراً.

وخَتَمَ اللهُ هٰذا الدَّرْسَ بقوله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: يُؤكِّد رَبُّنَا ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ أنَّهُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ، أيْ: فَضَّلَهُمْ، ورفَعَ شَأْنَهُمْ بَيْنَ خَلْقِهِ.

التكْريم: يأتي بمَعْنَىٰ التفضيل، ويأتي بمَعْنَىٰ التعظيم، ويأتِي بمَعْنَىٰ مَنْحِهِ الصِّفَاتِ النَّفِيسَةَ الّتِي امْتَازَ بِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ.

وإذَا نظرنَا إلَىٰ بَنِي آدَمَ وقارَنَّاهُمْ مع الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ المشْهُودَةِ لنَا، وجَدْنَا أنَّ جُمْلَةَ صِفَاتِهِمْ في التكوينِ الرَّبَّانِي هِيَ أسْمَىٰ وأنْفَسُ من صِفاتِ سائر الأحياء المدْرَكة بالحواس.

إنّ صِفات الإنسان النَّفْسِيَّة ولا سيما ما لَدَيْه من أجْهِزَة الْعِلْم والتفكير والإرادة الحرَّة، صِفَاتٌ يمْتَازُ بِها على سائر الموجودات الحيّة المدركة، وهٰذِهِ ميزَاتٌ ظاهِرَةٌ لَا تحتاج تفصيلاً ولا إقامةَ بُرْهانٍ عليها.

وجَسَدُ الإنْسَانِ في تَقْويمِهِ الْعَامِّ أحْسَنُ الأجْسَادِ الحيَّة المشْهُودَةِ تَقْويماً.

وتَفْضِيل اللهِ آدَمَ على الملَائِكَةِ وإبْلِيسِ الجنّ بالْعِلْم، وأمْرُ اللهِ لَهُمْ بالسُّجُودِ لآدم، بَعْدَ تَفوُّقِهِ في مُبارَاةِ عِلْمِ أَسْمَاءِ الأشياء الَّذِي يَشْمَلُ

صِفَاتِها، يَدُلُّ على تفضيله بميزة العلم، ويدُلُّ أيْضاً عَلَىٰ تَكْلِيفِ أهْلِ الملأ الأعْلَىٰ وإبليسِ الجنِّ أنْ يَسْجُدُوا لَهُ على أنّ اللهَ كَرَّمَهُ عَلَىٰ الإنْسِ والجنّ.

إلَّا أنَّ تَكْرِيمَ النَّوْعِ ذِي الإرادةِ الحرَّةِ لَا يتحَقَّقُ لِكُلِّ فَرْدٍ من أفراده، مَا لَمْ يُثْبِت الْفَرْدُ أنَّهُ أهْلٌ لهذا التكريم بِعُبُودِيّتِهِ الاختياريَّة، للرَّبِّ الّذِي كَرَّمَهُ بأصْل التكْوين، فإذا لَمْ يُحقِّقْ ذَلِكَ رَدَّ نَفْسَهُ مُتَسَفِّلاً في الدَّرَكَاتِ، وقَدْ يَصِلُ باختياره الأحَطَّ فالأحَطَّ، حَتَى يكونَ في أسْفَلِ سَافِلين.

ومَنْ حَافَظَ على مِقْدَارٍ ما من تكريم البارئ لَهُ، كَانَ لَهُ مِنْ مَنَازِلِ الجنَّةِ مُتَصَاعِداً على مقدار مَا حَافَظَ عليه، وقَدْ يَصِلُ باختياره الأكْمَلَ فالأكْمَلَ حَتَّىٰ يكُونَ مِنْ أهْلِ الفردَوْسِ الأعْلَىٰ في جنَّاتِ النَّعِيم.

وشرح تكريم بني آدَمَ بالتكوين الرَّبَّانِي لَهم، يتَطَلَّبُ دِرَاسَةً عِلْمِيَّةً مُوسَّعَةً جدًّا، تُحَرَّرُ في أسْفار.

● ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: وأنْعَمْنَا عَلَيْهِم بأنْ تَحْمِلَهُمْ في الْبَرِّ المراكِبُ الحيوانيَّة، ثُمَّ المراكبُ غَيْرُ الحيوانيّة ممّا هَدَيناهم إلى اكْتِشَافه ـ وبأنْ تَحْمِلَهُم في الْبَحْر المراكبُ غَيْرُ الحيوانية الّتي هَدَيناهم إلى صُنْعِها مُذْ أمَرْنا نوحاً بِصُنْعِ الْفُلْكِ الّتي أنجيناه بها من الإغراقِ، هو والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ واتّبَعُوه.

وتُقَاسُ المراكب الجويَّة على المراكب الْبَرِّيَّةِ والْبَحْرِيَّةِ غير الحَيَوانيَّة، ولَمْ تُذْكَرْ في القرآن لأنّهَا لم تَكُنْ قَدِ اكْتُشِفَت إبّانَ نزول القرآن، ويَشْمَلُها قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾:

ففي عبارة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَدْخُلُ كُلُّ المراكب التي سيكْتَشِفُ النَّاسُ قوانينها، وطرائق صُنْعِها، وَقُوَّة حَرَكَتِها لتأدِيَة الوظائفِ والمنافع المطلوبة منها.

• ﴿... وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ... ﴿٧٠﴾﴾: أي: وَرزَقْناهُمْ في الحياة الدُّنيا بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ، من المآكِلِ، والمشارِب، والمناكِح، وَمُمْتِعَاتِ السَّمْعِ والْبَصَرِ وسَائِرِ الْحوَاس.

وبَنُو آدَمَ مُفَضَّلُون بهٰذِهِ الطيّبات على غيرهم من الأحياء، فَهُمْ يسْتَمْتِعُونَ بها في الحياة الدُّنيا، رَغْبَةً في أَنْ يكونُوا من الشاكرِينَ لِرَبِّهِمْ عليها.

• ﴿... وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾: دلَّت هٰذِهِ العبارة على أنَّ بَنِي آدَمَ قَدْ يَتَسَاوَوْنَ مَعَ بَعْضِ مَنْ خَلَقَهُمُ اللهُ فيما منَحَهُمْ إيّاه، لكِنَّهُ فضَّلَهُمْ عَلَىٰ كثِيرٍ ممَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً عظيماً.

وتُشْعِرُ هٰذِهِ الآيَة بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ من الواجب على بني آدَم أَنْ يكونوا شَكُورِينَ لِرَبّهم على مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ وَعَلَىٰ تكْرِيمه لهم، إلَّا أنْ كثيرين منهم، قَدْ أَثْبَتُوا بَعْدَ اخْتِبَارِهِمْ أَنَّهُمْ كَفُورُونَ، وأَنّ الْقَلِيلَ جِدًّا مِنْهُمُ الشُّكُورُون.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الإسراء)

والحمْدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه.



(١٦)
التدبر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الإسراء)
الآيتان: (٧١ و٧٢)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

القراءات:

٧٢ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جَعفر: [فَهْوَ] بإسكان الهاء وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهُوَ] بضَمّ الهاء.

وهما لغتان عربيتان:

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يشْتَمِلُ عَلَىٰ عَرْضٍ لقْطَةٍ من لَقطَاتِ مشاهِدِ يوم الدين، لأنَّ الْعِلَاجَ الدّعوِيَّ الحكيم، ينبغي أنْ يَتضَمَّنَ تَذْكير الْمُعَالَجِ آناً فآناً بالْمُرْهِبَات المحَذِّرَاتِ منْ عذاب اللهِ على الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيان، وهُو موصُولٌ بالمعالجات السابقات في السُّورة، للمعنيّين بالمعالجة، وهم كُبَراء مُشْرِكي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، وهُو يَنْسَحِبُ على أمْثالهم عَبْر تاريخ الناس.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ عَرضٌ لمشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ، فِيهِ بَيَانُ نِدَاءِ زُمَرِ النَّاسِ، بِحَسَبِ أئمتهم في الدّنيا.

الإمام: هو في اللّغَة مَا يُؤْتَمّ، أو مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ. وهو يَدُلُّ على المفرد، وقد يكون جمعاً، مثل: صائم وصِيَام، وقائم وقِيَام، ومِنْه:

﴿... وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ الفرقان.

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ قال لإبراهيم عليه السَّلام:

﴿... إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة.

وذكر اللهُ عزّ وجلّ أنَّهُ جَعَلَ في الناس أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِهِ، وجَعَلَ

فِيهِم أئِمَّةٌ يَدْعُونَ إلَىٰ النّار. ومن هؤلاء الأئمة الّذِينَ يَدْعُونَ إلى النار فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، فقال اللهُ عزّ وجلّ بشَأْنِهِمْ في سُورَةِ (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ومن هٰذا يظهر للمتدبّر أنَّ المرادَ بالإمام، في عبارة **[بِإِمَامِهِمْ]** هُوَ من كانَ في الدُّنيا إمَامَ هُدىً، أَوْ إمَامَ ضَلَال.

فأتْباعُ إمَامٍ كانَ يَهْدِي في الدُّنيا إلىٰ الجنَّةِ ومَرْضَاةِ اللهِ عَلَىٰ مَا شَرَعَ لعباده، يُنَادَوْنَ يَا أتباع فُلان، نحو: يا أتباع موسى. يا أتباع عيسىٰ. ياأتباع مُحَمّد، وهكذا.

وأتْباعُ إمَامٍ كَانَ يَدْعُو في الدُّنيا إلى الكُفْرِ المزْلِقِ إلى النّار، يُنَادَونَ يَا أتباعَ فُلان، نحو: يا أتباع فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، يا أتَباعَ نُمْرود. يا أتباع بُولُس. يا أتباعَ ماركس، وهكذا.

فالمعنى: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيًّا كُنْتَ هٰذا المشهد من مشاهِدِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ مَوْقف الْحِسَابِ والمساءَلَةِ، لِفَصْل القضاء، ثُمَّ لتنفيذِ الجزاء بالفضل أو بالْعَدْل، يَوْم نُقَسِّمُ النَّاسَ إلَىٰ زُمَر، بِحَسَبِ أئِمَّتِهِمْ في الدُّنيا، وَنَدْعُو كُلَّ زُمْرَةٍ مِنْهُمْ مُعَرَّفين بإمامِهِمْ الّذِي كانُوا يَتَّبِعُونه في الدُّنيا، سواءٌ أكان دَاعِياً إلى الله والجنة، أم كان داعِياً إلى سُبُلِ الشّياطين الْمَوْصُولَةِ في نهاياتها بالنار.

وتكُونُ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ أهْلُ الموقف قَدْ تَسَلَّمُوا كُتُبَ أعْمالِهِم، فالمؤمِنُون يَتَسلَّمُونَ كتُبَ أَعْمَالِهِمْ بأيمانهم، والكافِرُونَ يتسلَّمُونَ كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بِشَمَائِلِهِم مِنْ وَرَاءِ ظُهُورهم.

أمّا الّذِينَ أُوتُوا كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بأيمانِهِمْ، فأولئكَ ذَوُوا المنزلَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَقْرَؤُونَ كُتُبَهِمْ فَرِحينَ بأنَّ مَصِيرَهُمْ إلى جَنَّاتِ النّعِيم، وهُمْ

عِنْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً، بَلْ يَجِدُونَ أَنَّ اللهَ قَدْ ضَاعَفَ لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَسَناتِهِم، وقَضَىٰ لَهُمْ بثوابٍ عَظِيم لم يَكُنْ فِي حُسْبانهم.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء تفريعية دلّت علىٰ أنّ الْمَدْعُوِّين بأئِمَّتِهِم هُمْ قِسْمانِ رَئيسيَّان: مُؤمِنُونَ تَسلَّمُوا كُتُبَ أعْمالِهِم بأيمانهم، وكافِرُون تَسلَّمُوا كُتبَ أعْمالهم بشَمَائِلهم.

لفظ «مَنْ» اسْم مَوْصُول يُعَادُ عَلَىٰ لفظه بالإفراد، ويُعادُ عَلَىٰ مَعْنَاهُ إذا كان جَمْعاً بالجمع، وأعُيد هُنَا الضَّمِيرُ على لفظه بالإفراد، وأشير إلى مَعْنَاه الذي هو جمع باسم الإشارة «أُولَٰئك».

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾: أي: يَقْرَؤُونَ كُتُبَهُمْ فَرِحِينَ بِمَا تَفَضَّل الله عَلَيْهِمْ به، من مضاعَفَةٍ لِلْحَسَنَاتِ، وتجاوزٍ عن كثير من السّيئَات.

لفظ «كِتَابِ» اسْتفاد الْعُمُوم بإضَافَتِهِ إلَىٰ ضمير الجماعة، فهو بمعنَىٰ «كُتُبِهِمْ».

﴿. . .وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: أي: ولَا يُظْلَمُونَ شيئاً مَهْمَا قَلَّ مِقْداره، فَلَا يُنْقَصُ من حَسَناتهم شيء، بل تُضَاعفُ لَهُمْ، ولا يُزَادُ في سيّئاتهم شيءٌ، بل يَعْفُو الله عن كثير منها.

فتيلاً: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الّذي يكون في شِقِّ النَّواة، واختير هذا اللفظ هنا للدّلالة على القلّة الشديدة الّتِي لا يُكْتَرَثُ لَهَا، مراعاةً لرؤُوس الآياتِ قَبْلَ هٰذِهِ الآية وبَعْدَها.

ويُفْهَمُ من السّكوت عن المقابل، وهم الكافِرُونَ الّذِينَ يُؤْتَوْن كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهم، أنّهم لَا يَقْرَؤُونَ كُتُبَهُمْ، لأنَّهُمْ يَتذَكَّرُون كُلَّ جرائِمِهم وخَبائِثهم، وبَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ مَا كانُوا يُكَذِّبونَ به من الْبَعْثِ وأهوال يوم القيامة، يُوقِنُونَ بأنَّ كُلَّ مَا فِي كُتُب أعْمَالِهِمْ حَقٌّ، ويَكْفِيهِمْ جُرْماً لِلْخُلُودِ في النّار، أنَّهُمْ

كانُوا في الحياة الدُّنيا كافِرين باللهِ والْيَوْم الآخِر، ومُكَذِّبين رُسُلَ رَبّهم، ومُكَذِّبين بمَا جاءُوا به عنْهُ جلّ جلاله.

وجاءَ بديلاً عَنْ هٰذا المسكوت عنه مُرَاعَاةً لفنيَّةِ التقابُلِ في اللّفظ، قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

أي: وأمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أَخَذُوا كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بِشَمَائلهم، والّذِينَ كانوا عُمْيَاناً في الحياة الدُّنيا، إذْ حَجَبُوا أبْصَارَ بَصَائِرهم عَنْ رُؤيَةِ الْحَقِّ الذي أمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أن يُؤْمِنُوا بِهِ عَلَىٰ ألْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَسَوْفَ يُحْشَرُونَ عُمْيَاناً، لَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَهْتَدُوا إلى طَرِيقٍ يُبْعِدُهم عن عذابِ اللهِ في جَهَنّم، ويُوصِلُهُمْ إلى دُخُول الجنَّة، إنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إلَّا طَرِيقاً واحداً، هو طَرِيقُ جهَنَّمَ الَّتِي يَكُونُون خالِدِينَ فيها أبداً.

• ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾: أي: في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾: أي: كافراً ضالًّا بِكُفْره عَنْ سَبِيلِ سَعَادَتِهِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ.

اسْتُعِيرَ لفظ «أَعْمَىٰ» للدَّلَالَةِ على معْنَى «كافر» ذِي كُفْرٍ وضلالٍ مصاحِبٍ له، واسْتِعْمَالُ هذه الاستعارة كثير في القرآن المجيد، للدَّلالة على الكافِرِ بربِّه وبما جاء عنه على لسان أيّ رَسُولٍ من رُسُله.

• ﴿...فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ...﴾: أي: فَهُو في الآخِرَةِ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بأنَّهُ أعْمَىٰ (= كافر) مَفْرُوزٌ مع زُمَرِ الكافِرِين.

• ﴿...وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وهُو يَوْمَئِذٍ أكْثَر ضَلالاً عَنْ سَبيلٍ ينجيه من عذابِ اللهِ، ويَجْعَلُهُ من الفائِزين بجنَّاتِ النعيم، إذْ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَدارَكَ أمْرَه بالإيمان والعَمَل الصالح، فَقَدِ انْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحانِ، وجاءَ يَوْمُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، فَلا حيلَةَ لَهُ فِي أنْ يَهْتَدِي إلى سبيل نجاتِهِ من الجحيم، وسَعَادَتِهِ فِي جنَّاتِ النعيم، أمَّا في الحياة

الدُّنيا فقد كان قادراً علىٰ أنْ يَتَدارَكَ أمْرَهُ بالإيمان والْعَمَلِ الصالح، ولَوْ قَبْلَ سَاعَةِ الْمَوْتِ بزَمَنٍ قليلٍ، لهذا فهو في الآخِرَةِ أضَلُّ سبيلاً، إذْ لَا يَجِدُ لنفسه طَرِيقاً يَسْلُكُهُ بل يُكْرَهُ عَلَىٰ سُلُوكِهِ إلَّا طَرِيقَ جَهَنَّم الَّتي يكُون فيها خالداً أبداً، كما قال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نُزُول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾: اللّام في «لِيَغْفِر» لَامُ الجحود، إذ جاءتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفي، وهذا التعبير منْ أبْلَغِ أنواعِ النَّفْي، وكذلِكَ كلُّ كون منفيٍّ جاءت بَعْدَه لَامُ الجحود.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني عشر من دُروس سورة (الإسراء).

والحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِه ومَدَدِهِ وتَوْفيقه وفتحه.



(١٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٣ ـ ٧٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

٧٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بِضَمّ هَاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير. وهُما لغتان عَرَبيّتان.

٧٦ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص عَنْ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [خِلَافَكَ] أي: بَعْدَكَ.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [خَلْفَكَ]: أي: وَرَاءَ ظَهْرِكَ الذي تُولِّيه إياهُمْ عنْدَ خروجك.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

٧٧ ـ • قرأ أبو عَمْروٍ: [رُسْلِنَا] بإسْكان السّين.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: [رُسُلِنَا] بضمّ السّين. وهُما لُغَتَانِ عَربيّتان.

تمهيد:

هذا درسٌ مَدَنيّ التَّنْزِيل، وفيه تربيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ، بِحَسَبِ الصيغَةِ الظَّاهرة، وهو في حقيقَتِه يتضَمَّنُ إيئَاساً لِكُلِّ من يحاول إغراء الرسول، أنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شيءٍ من الدّين أو يتهاوَنَ في تطبيق بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلَّ إليه، حتَّىٰ يكُفُّوا عَنِ اتّخاذِ وسائِلَ وأسْبَابٍ لاسْتِدْراجِهِ بزخْرُفٍ من القول، ومَوَاعِيدَ كاذِبَةٍ، قَدْ تُوحِي إلى الرَّسُول ﷺ، باحْتِمَالِ وجُودِ مَصْلَحَةٍ للدِّين، وانتشارِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ وغيرهم، إذَا لَانَ لَهُمْ في بَعْضِ مَا يُطَالِبُونَهُ بِهِ ممَّا لَا يُؤَثّرُ على جَوْهَرِ الدِّينِ وَأحْكامه وشرائعه.

فَحَذَّرَ اللهُ رَسُولَهُ تَحْذِيراً عَلَنِيًّا في قُرْآنٍ يُتْلَىٰ، من أَنْ يَرْكَنَ إلى إغْرَاءَات الكافرين ومواعيدهم الكاذبَةِ، ولَوْ رُكُوناً قَلِيلاً.

وهٰذا التحذير يتضَمَّنُ تَحْذِيراً للدُّعَاة من أُمَّتِهِ، وأَئِمَّةِ الْفِقْهِ والْعِلْم بالدّين، من الاستجابَةِ لمطالِب الكُبَرَاءِ والقادَةِ السّياسيّين الزَّمَنيّين، في إصْدَارِ الفتاوَىٰ الَّتِي فيها تَنَازُلٌ عَنْ أحْكامِ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُم سُلْطَانُه، مَهْمَا كانت الذّرائِع لذَلِك.

التدبُّر التحليلي:

• ﴿وَإِن كَادُواْ...﴾ أي: وقَدْ كادَ كُبَرَاء كُفَّارِ مَكَة. فِعْل «كَادَ» من أفعالِ المقارَبَة، فالمعنى: وقد قارَبَ هؤلاء الكفار. وكَلِمةُ «إنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن، أي: وإنَّ الشأْنَ العظيم الْخَطِيرَ أنَّ كُبَرَاء كُفَّار مَكَّةَ قَارَبُوا. واختصاراً لبيان المراد من التعبير أقول: وَقَدْ كادُوا.

﴿...لَيَفْتِنُونَكَ...﴾: اللّام هي الفارقة التي تَبيّن أَنَّ «إِنْ» قبلها هي المخففة من الثقيلة، لا «إنْ» النافية. «يَفْتِنُونَكَ» أي: يُغْرُونَكَ يا مُحَمَّدُ بِمَعْسُولِ الْقَوْلِ، والمواعِيد الكاذبة، وهذا أقْرَبُ معانِي الفِتْنَةِ الصَّالِحُ لأنْ يكون مُراداً هُنَا، وهو إغراء قَدْ يَرَى فيه الرَّسُولِ ﷺ باجتهاده، أنَّ استجابَتَهُ لبَعْضِ مطالِبهم وبِصُورَةٍ مَرْحَلِيَّة مُؤقَّتَةٍ، فيه مَصْلَحَةٌ لانتشار الإسلام، ولا سيما بَيْنَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ الّذين إذا أسْلَمُوا أسْلَمَ من ورَائِهِم أتْبَاعُهُمْ، الَّذِينَ لَمْ يَصُدَّهُمْ عن الإسلام إلّا أئِمَّتُهم، وقادَتُهم الّذينَ لَهُمْ سُلْطانٌ عليهم، بهَيْمنَةٍ اجتاعيّة.

• ﴿...عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾: أي: صَارِفِينَ إيَاكَ عَنْ تَطْبِيقِ بَعْض الَّذِي أَوْحَينَا إلَيْك، ممَّا يَسُؤوهُم سماعُه أو تَطْبِيقُهُ، كذِكْرِ آلِهتِهِمْ بأنّها حجارة لاَ تَضُرُّ ولا تنْفع، وكتَسْوِيتهم في مَجالِسك بضُعَفاء المسلمين وفقرائهم.

ضُمِّنَ الفِعل في «يَفْتِنُونَكَ» معنَىٰ الفَعْلِ في «يَصْرِفُونَكَ» فَعُدِّي

تَعْدِيته، بحرف «عَنْ» فأغْنَتِ الجُملَةُ عن جُمْلَتين، فصَار المعْنَى: وإنْ كَادُوا لِيَفْتِنُونَكَ فيَصْرِفُونَكَ عَن تلاوة أو تطبيق بَعْضِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إليك، وأمَرْنَاك بتلاوته أو بتطبيقه.

• ﴿... لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ...﴾ كأنْ تُغَيِّرَ في سُلُوكِكَ بَعْضَ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، فتَجْعَلَ بَدَلَهُ سُلوكاً آخَرَ يُرْضِي كُبرَاءَ قَوْمِكَ، دُونَ أنْ يؤثّر أي تأثير على جوهر الدّين وأحكامه فيما ترىٰ، لَكِنَّ هٰذا من الافتراء علينا، لأنَّكَ في تطبيقاتِكَ الأُسْوَةُ الحسنة للمؤمنين، وأفْعَالُكَ حُجَّةٌ في الإيجاب والتحريم والإباحَةِ والنَّدْب.

• ﴿... وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾: أرىٰ أنّ الواو في هذه الجملة تَعْطِفُ جُمْلَةً مَحْذُوفَةً عَلَىٰ جُمْلَةِ: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ والتَّقْدِيرُ: وإنِ استجبْتَ لَهُمْ، فافتريْتَ علينا غَيْرَهُ بتطبيقاتك، طمعاً في إسلامهم، إذاً لَاتَخَذُوكَ خَليلاً، وهذا الأخير من تمام حكاية عُروضِهم الإغرائيّة.

«إذَنْ» هذا هو الأولى في كتابتها، لأنّ النون فيها من أصل بناء الكَلِمة، وهو حرف يقع في صدر الكلام، معناه الجواب والجزاء.

﴿خَلِيلًا﴾: **الخليل**: الصَّدِيق الّذي تخلّلتْ مودّتُه قلْبَ صَدِيقه، حتَّى صار مداخلاً مخالطاً، يطّلِعُ على بواطنِهِ وأسْراره.

• ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾: «**لَوْلا**»: حَرْفٌ يَدُلُّ على امْتِناع شيءٍ لِوُجود غَيْره. **ثَبّتْنَاكَ**: أي: مَكَّنَّاكَ منَ الثَّباتِ عَلَىٰ عَدَمِ الاستجابَةِ لإغراءاتهم، بما شَدَدْنَا بِهِ عَزِيمَتَكَ في فُؤادِك، وهذا من عِصْمَتِنا لَكَ.

• ﴿... لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾:

﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: أي: تَمِيلُ إلى بَعْضِ إغراءاتهم. يُقَالُ لغة: «رَكَنَ فُلَانٌ إلى فُلَانٍ يرْكُنُ، رَكْناً، ورُكوناً، ورَكِنَ إلَيْهِ يرْكَنُ» أي: مَالَ إلَيْه، وسَكَنَ.

﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾: أي: لَمْ تَمِلْ في أحاديثِ نَفْسِكَ إلى قَبُولِ بَعْضِ إغراءاتهم مَيْلاً كثيراً، بَلْ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بأنْ تَقْبَلَ مِنْها شيئاً قَلِيلاً رَأَيْتَ أَنَّهُ من نوعِ المدَارَاةِ الاجتماعيَّة، ولَا تأثيرَ لَهُ على جَوْهَرِ الدِّينِ وأحْكامِهِ وتعليماته.

والمعنى: نُؤَكِّدُ لَكَ يَا مُحَمّد أَنَّكَ لَقَدْ قَارَبْتَ ولَمْ تَفْعَلْ، أَنْ تَمِيلَ إلى بَعْضِ إغْراءَات كبراء مُشْرِكي مكة، في تَصَوُّرَاتِكَ وأحَادِيثِ نَفْسَك.

شيئاً: منصوب على أنّه نائب مَفْعُول مُطْلَق، إذْ هو دالٌّ على بَعْضِ الرُّكونِ. «**قَلِيلاً**»: نَعْتٌ لكلمة «**شيئاً**».

أُخِّرَ هذا التنزيل إلى العهد المدَني لأنّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يركَنْ في واقع حاله إلى إغراءات كُبَراء قَوْمه، وقَدْ عَصمَهُ اللهُ من ذلك.

واقتَضَتِ الحكْمَة تأخِيرَ إنْزَالِهِ إلى العهد المدنيّ، لتَيْئِيس الكافرين ولا سيما يهودُ المدينَةِ من إغراء الرسول بالتنازُل عَنْ شيءٍ ممّا أنزلَ اللهُ إليه، ولتحذِير المؤمنين من أن يتأثَّروا بإغراءات ذوي السُّلطان والقوّة والجاه، فَيُفْتُوهم بغيْرِ مَا أنْزَل الله، أو يَلِينُوا لهم بتطبيق أعْمَالٍ مضادَّةٍ لأحكام الله لعباده.

• ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾:

الضِّعْف: هو في كلام العَرَبِ على ضَرْبين:

أحَدُهما: المِثْلُ.

والآخر: يكون بمعْنَىٰ تَضْعِيفِ الشيء بالزيادَةِ عليه إلى مِثْلَيْهِ وأكثر.

[إِذَنْ] حَرْفٌ يَقَعُ في صَدْرِ الكلام معناه الجواب والجزاء، كما سَبَقَ بيانُ هـٰذا قَرِيباً.

وهٰذا الْبَيَانُ المصدَّرُ بحرف «إذَنْ» يَسْتَدْعي كَلاماً مَطْوِيًّا لم يُصَرَّحْ بِهِ في اللّفظ، ويُمْكِنُ تَقْدِيره بما يلي: ولَوْ أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَكَنْتَ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، لأَذَقْنَاكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِكَ وأنْتَ إمَامُ المسْلِمين وأوَّلُهُمْ طاعَةَ وَتَطْبِيقاً للإسلام، وأنت الأسْوَةُ الحَسَنَةُ لَهُمْ في أقوالِكَ وأعْمَالِكَ، ضِعْفَ عَذَابِ ذَنْبِكَ في الحياة مِثْلَيْن فأكْثَر، وضِعْفَ عَذَاب الْمَمَاتِ في البَرْزَخِ بَيْنَ المَوْتِ والْبَعْث، مِثْلَيْنِ فأكثر، وسَكَتَ النَّصُّ عَمَّا بَعْدَ الْبَعْث.

ثُمَّ إذَا أَنْزَلْنَا بِكَ الْعَذَابَ علَىٰ هٰذِهِ الْمعْصِيَةِ الكبيرَة لَا تَجِدُ لَكَ نَصِيراً يَنْصُرُكَ عَلَيْنا فَيَرْفَعُ عَنْكَ الْعَذَابَ.

لَكِنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ شيئاً مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّكَ قَارَبْتَ أَنْ تَفْعَل فلَمْ تَفْعَل، وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْنا فَثَبَّتْنَاكَ وَعَصَمْنَاك.

ومعلوم أنّ ما دخلت عليْه «لو» منفيُّ الوقوع، فليس في البيان إشكالٌ ما حول عِصْمَة الرسول ﷺ.

وإنَّ المتدبّر المتأنّيَ يَرَىٰ أنَّ هٰذا البيان الذي تأخّر إنزالُهُ إلَىٰ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، وَضُمَّ إلى سُورَةِ (الإسْراء) المكيَّة، الّتِي كان كُبَراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إبَّانَ تَنْزِيلِها، يُوَجّهُونَ للرَّسُولِ مطالِبَهُمُ الإغرائيّة الاسْتِدْراجية، لَمْ يُقْصَدْ بِهِ شَخَصُ الرَّسُولِ ﷺ، لأنّ المرحَلَة قد مَرَّت وَمَضَت ولم يَكُنْ مِنْهُ رُكُونٌ ما بِصُورَةٍ فِعْلِيَّة، والظاهِرُ أنّها كانَتْ خواطِرَ وأحاديثَ نَفْسٍ لَيْسَتْ مناطَ مَسْؤُولِيَّةٍ ولا مُحَاسَبَة، وإنّما المقْصُودُ بهذا البيان تَحْذِيرُ أئِمَّةِ المتّقِينَ، وإقْنَاعُ أهْلِ الكِتابِ في المدينة وغيرهم، بأنْ يُوَطِّنُوا نُفُوسَهِمْ، عَلَىٰ اليأسِ من أنْ يَتَأَثَّر الرَّسُولُ محمّد ﷺ بإغراءاتِهم، وعَرُوضهم الّتِي يُرِيدُونَ بها إزْلَاقَهُ، وإخراجَهُ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عليه من تَعْلِيماتٍ وبيانات وأحكام، وقَدْ فَعَلَ اليهودُ هذا فخابوا.

﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ شبَّه الله عزّ وجلّ الإحْسَاسَ بألَمِ العذاب بالذّواق،

لتقريب مَعْرِفَة الإحْسَاسِ به، ففي التعبير استعارَةٌ قائمةٌ علىٰ التشبيه.

وجاء في الآية حَذْف كَلِمة «عَذَاب» في موضِعين، قبل لفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وقبْل لفظ ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾ تَكْرِيماً من الله لِرَسُولِهِ عَنْ أنْ يواجِهَهُ بلَفْظَة «عذاب» ولو لم يكنْ هو المقْصُودَ حَقيقَةً في النّصّ كلّه، كما سَبَقَ بيانُه.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِه بِشأنِ كُفَّارِ مَكَّةِ المعانِدِين:

• ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

هاتان الآيتان من التنزيل المدَني أيْضاً، ضُمَّتَا إلى مَوْضِعِهما من سُورَةِ (الإسْراءِ) المكيّة، للدَّلَالَة على أنَّ الْحَدَثَ الْمَذْكُورَ فيهما قَدْ كَانَ إبَّان نُزول سُورَةِ (الإسْراء) ولَمْ يُنْزِلْهُما اللهُ عزّ وجلَّ في الْعَهْدِ المكِيّ، لأنَّ الْحِكْمَةَ السّياسيّةَ اقتضَتْ كِتْمَانَ عِلْمِ الرَّسُولِ والمؤمِنِينَ بما يُدَبِّرُهُ كُبَراءُ كُفّار مكّة، وعَدَمَ إعْلَانِهِ قُرْآناً يُتْلَىٰ.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾: أي: وقد كَادَ كُفَّارُ مكَّةَ المصِرُّونَ على عنادِهم. فعل «كاد» من أفعال المقاربَة، فالمعنى: وقد قارب هؤلاء الكفار. كلمة «إنْ» هي المخفّفة من الثقيلة «إنَّ» واسْمها ضمير الشأن، أي: وإنَّ الشّأن الخطير أيضاً، أنَّ هؤلاء الكفار قاربوا. واختصاراً لبيان المراد بالتعبير أقول: وقَدْ كادُوا.

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: اللّام هي اللّام الفارقة كما سبق بيانه في الآية (٧٢).

يُقَال لغة: «اسْتَفَزَّهُ، يَسْتَفِزُّه» أي: اسْتَخَفَّهُ بالمخِيفَاتِ والمفزعات، واسْتَخْرَجَهُ، وختَلَهُ حتَّىٰ أوْقَعَهُ فيما يُكْرَه.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: من مكةَ الأرضِ الّتي تُحِبُّها يا مُحمَّد.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾: أي: لِيجعلُوك تَخْرُجُ مُهَاجِراً مِنها، وكانَ هذا إبَّانَ نُزُولِ سُورَة (الإسراء) ثم إنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اشتَدَّ بِهِمُ الغضَبُ، فَدَبَّرُوا في الخفاء أَنْ يَسْجُنُوا الرَّسُول، أو يَقْتُلُوه أَوْ يُخْرِجُوه من مكَّة مَطْرُوداً، وهو مَا أبانَهُ اللهُ عزّ وجلّ في آياتٍ أنزلت في أواخِرِ العهد المكيّ، وضُمَّت إلى سُورَةِ الأنْفَال المدنية، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

واسْتَقَرَّ رأيُهُمْ أخيراً على قتله، فأوحى الله إلَيْهِ بأنْ يُهاجِرَ إلى الْمَدِينَة، فخرج من بَيْتِه لَيْلَةَ إحَاطَةِ المختارِينَ لقتله به، فرَمَاهم بحَفْنَةٍ مِنَ التّرَاب أصَابَتْ عُيُونَهُمْ جَمِيعاً، فاشْتَغَلُوا بمعالَجَةِ التخلُّصِ ممَّا أصَابهم، ومَرَّ الرَّسُولُ من بينهم وهُمْ لَا يَشْعُرُون، ظانِّين أنّ ريحاً نَسَفَتْ من الأرض تراباً فأصَابَ عُيُونهم.

فمعنى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . . . ﴿٧٦﴾﴾:

وقَدْ قارَبُوا أنْ يَسْتخِفُّوكَ بالمثِيراتِ المزْعجاتِ، وبالْمُغْضِبَاتِ، لِتُقرِّرَ بنَفْسِكَ الهِجْرَةَ مِنْ مَكّةَ إلى غَيْرِها، وغَرَضُهُمُ في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أنْ يُخرِجُوْكَ مِنْ مَكَّةِ مُهاجِراً، دُونَ أَنْ يُكرِهُوكَ على هٰذا الخروج.

لكنَّكَ لم تتأثَّرْ بما فَعَلُوا فلَمْ تُهاجِرْ من مَكّة حينَئِذٍ، لأنّ الحكْمَة لم تَقْتَضِ خُروجكَ، فَلَمْ يأْذَنْ لَكَ رَبُّكَ بالهجرة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنْ أخْرَجُوكَ بالاستفزاز

أو بالإكراه، فإنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ بَعْدَكَ في مَكَّة إلَّا زَمَناً قَلِيلاً، لِأَنَّنَا نُدَبِّرُ لَهُمْ تَدْبيراً يُهلِكُهُمْ، أو نُخْرِجُهم مِنْها مُبْعَدِين مَطْرُودين، لا يسْتَطيعون العودة إليها.

الواو في: ﴿وَإِذَآ﴾ تَعْطِفُ مَحْذُوفاً على جُمْلَةِ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ والتقدير [و] إن اسْتَفَزُّوكَ فأخْرَجُوك ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا مَا حَصَلَ فِعْلاً إذ اضطروه إلى الخروج حين هاجر بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَن لا تقِلُّ عن أربع سنين، فإن الله عزّ وجلّ دَبَّرَ اسْتِدْرَاجَهُمْ إلى مصَارِعِهِمْ في بَدْرٍ، في السَّنة الثانية من هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، وأبو لهب الذي لم يَخْرُجْ مع نظرائه من أئمة المشركين إلى بَدْر، أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ به داءً وَبَائيًّا قاتلاً، فقَضَىٰ عليه به، فلَمْ يَلْبَثْ في مكَّة بعْدَ هجرَة الرَّسُولِ منها إلَّا زَمَناً قليلاً، كما حَصَلَ لبَاقي أئمة المشركين الذين قُتلُوا في بَدْر، وهم أصْحَابُ تَدْبير التخلُّصِ من الرَّسُول بالقتل.

«إذن» حرْفٌ يقع في صَدْر الكلام معناه الجواب والجزاء، وهو كنظائره السابقة قريباً.

﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾: أي: لَا يُقِيمُون. يقالُ لغة: «لَبِثَ بالمكَانِ يَلْبِثُ، لَبْثاً ولُبْثاً، فَهُوَ لَابِثٌ، وَلَبِثٌ» أي: أقام فيه.

﴿خِلَٰفَكَ﴾: أي: بَعْدَك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: إلَّا زَمَناً قَلِيلاً، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لموصُوفٍ مَحْذُوف، تقديرُه «زمَناً» وقد حَسَّنَ هذا الحذف أنَّه سَهَلُ الإدْراك والاستخراج.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

أي: حَالَةَ كَوْنِ هـٰذا الْعِقَابِ لِمُخرِجي رَسُولِهِم، المفهومِ من عبارة: ﴿... وَإِذَا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ سُنَّتَنَا (= طَرِيقَتَنا المتَّبَعَة) في كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ بَلَدِه مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا.

وهـٰذِهِ السُّنَّةُ لَا يَتَخَلَّفُ تَطْبِيقُها كُلَّما وُجِدَ النَّظير، ولا تَجِدُ لَهَا تَحْويلاً عَنْ مَجْراها.

ظهر لي إعراب «سُنَّةَ» حَالاً كما أوْضَحْتُ، دُونَ مَا ذَكَرَه المفسِّرون من تخريجات أخرى، واللهُ أعلم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثالث عشر من دورس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِه ومَعُونَتِهِ وتَوفيقه وفتحه.



(١٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٨ ـ ٨١).

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْس أمْرٌ للرَّسول ﷺ فلكُلِّ مُكلَّفٍ من المسلمين، ولغير المسلمين شَرْط أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، بإقامَةِ الصَّلَاةِ المفروضة في أوقاتٍ

بينتْهَا الآيات، وأمْرٌ لَهُ فلسائر المسلمين، بأن يَتَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ زيادةً إلْزامِيَّةً له، وتَطَوُّعيَّة للمسلمين.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ فكريًّا بالآيَةِ الأولَىٰ من السورة، الَّتي جاء فيها أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المسْجد الحرام إلى المَسْجِد الأقصى، وقَدْ ثَبَتَ في السُّنَّةِ أَنَّ الصّلَواتِ الْخَمْسِ فُرِضَتْ في لَيْلَةِ الإِسْراء.

وفي هذا الدّرْس بشارة إلماحِيَّةٌ بفتح مكّة، وفيه تعليم الرسول ﷺ مَا يَقُولُه عِنْدَ دُخُولَها فاتِحاً.

التدبّر التحليليّ:

• ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾:

• ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: أي: أقِم الصَّلَاة بَعْدَ زوال الشمس عن وسط السماء، وبَعْد غروب الشمس إلى ظلمة الليل. اللام في عبارة: ﴿لِدُلُوكِ﴾ هي بمعنى بَعْد كما يقولُ النحويون.

دُلُوكُ الشَّمْس: جاء في لِسَانِ العرب، لابْن منظور، أنَّ دُلُوكَ الشَّمْسِ يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْن: زَوالِها عَنْ وَسَطِ السَّماءِ إلى جِهَةِ الْغُروب، وهٰذا يكونُ في مُنْتَصِف النهار. وغُرُوبِها، وهٰذا زَوالٌ لها عِنْدَ أوّلِ اللَّيل عن السَّماءِ كُلّها.

وَأخذاً بدَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَىٰ المعْنَيين، وهُو مَذْهَبُ جُمْهُورُ المجتهدين من الفقهاء يكُونُ المعْنَىٰ كما يلي:

أقم الصلاةَ بَعْدَ زَوال الشَّمْسِ عَنْ وَسَطِ السَّماء، وبَعْدَ غُرُوبها، وهٰذِهِ الْبَعْدِيَّة تَسْتَمِرُّ من الزَّوَال إلى الْغُروب. ثم من الغروب إلىٰ غَسَق اللّيل.

غَسَقُ اللَّيل: ظُلْمَته، وإذْ بَدَأ الدُّلُوكُ الْغُروبي من أوّل ظُلْمَةِ اللَّيل، كان من التَّدبُّرِ السَّلِيم حَمْلُ عِبارة: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ على مَعْنَىٰ إلى آخِر غَسَقِ اللّيل. وَبَعْدَ آخِر غَسَقِ اللّيلِ يَدْخُلُ الفجرُ، وهُوَ بدْءُ وقت صلاة الفجر.

وجاء البيانُ النّبويُّ أخْذاً مِنْ الوحْي الّذِي نَزَلَ به جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، أنّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشّمس عَنْ وسَطِ السَّمَاءِ إلى مَا قَبْلَ بَدْءِ غُرُوبها قَدْ فُرِضَتْ صَلاتان هما الظُّهْرُ والْعَصْر، وأنَّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشَّمْسِ وهُو غُرُوبُها كُلِّيًّا قَدْ فُرِضَتْ صَلاتانِ هُما الْمِغْرِبُ والعشاء.

ولعَلَّ الْحِكْمَةِ مِنْ جَمْعِ الظُّهْرِ والْعَصْر بَعْدَ الدُّلُوك الأوّل، وجَمْعِ المغْرِبِ والعشاء بَعْدَ الدُّلُوكِ الثاني، أنَّ الظُّهْرَ والْعَصْرَ تُجْمَعَانِ في وقت واحدٍ موسَّعٍ في حالَاتِ الْعُذْرِ كالسَّفر، وأنَّ المغرب والعشاءَ تُجْمَعَانِ أيضاً في وقْتٍ واحدٍ موسَّع في حالَات الْعُذْر.

أمّا الصَّلاة الخامِسَةُ المفروضة وهي صَلَاةُ الْفَجْرِ فقد جَاءَ التَّعْبير عَنْها بقول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿...وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾﴾:

وجاء في البيان النبويّ تحْدِيدُ أوّل وقت صلاة الفجر الموسّع، وتحديد آخره، إذْ هي لا تُجمَع مع غَيْرِها في سَفَرٍ ولا مَرَض، وجاء في بياناتِهِ تحْدِيدُ أوائل أوقات الصّلواتِ الأُخرىٰ الموسَّعَة وتَحْدِيدُ أواخِرِها، إلَّا في حالات الْعُذْر الّتي تجمع فيها صَلَاتا الظُّهرِ والْعَصْرِ في وقْتِ أيِّ صَلَاةٍ منهما، وتُجْمَعُ فيها صَلَاتا المغرب والعشاء في وقت أي صلاة منهما.

وجاء في السُّنَّة أنّ الرسول ﷺ تلَقَّىٰ مَعْرِفَةَ أوائِلِ أوقات الصَّلَواتِ وأواخِرِها عَنْ جِبريل عليه السَّلام.

أمّا التعبير عن صَلاةِ الفجر بعِبَارَة: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فَهُوَ من إطْلَاقِ الْبَعْضِ عَلَىٰ الكُلِّ، باعْتِبَارِ أنَّ قراءة القرآنِ في الصَّلَاةِ أجَلُّ وأعْظَمُ أرْكانِها الْقَوْلِيّة، وهٰذا الإطلاق يَنْسَحِبُ على سَائِرِ الصَّلوات، وخُصَّتْ في الآيَة صَلَاةُ الْفَجْر بهٰذا الإطْلاقِ لِمَا جاء في الآية من أنَّ هٰذِهِ الصَّلَاة صلاة مَشْهُودَةٌ تَحْضُرُها ملائِكة اللَّيلِ ومَلَائكَةُ النهارِ مأمُورَةً بهٰذا الحضور، لِعِظَمِ صلاة الفجر عند الله عزّ وجلّ، إذْ يَشُدُّ بها المصَلُّونَ نُفوسهُمْ من مضاجِعهم شدًّا فيه كُلْفَةٌ ومُخالَفَةٌ لِمَا يُحِبُّونَ من النّوم في ذَلِكَ الْوَقْتِ.

روى البخاري عن أبي هريرة عَن النبيّ ﷺ قال:

«فَضْلُ صَلَاةِ الجميع على صلاة الواحِدِ خَمْسٌ وعِشْرُونَ دَرَجَةً. وتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ ومَلَائِكَةُ النَّهَارِ في صَلَاةِ الْفَجْرِ».

يَقُولُ أبو هُرَيرَةَ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿...وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

وروى البخاري ومسلم عَنْ أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ باللَّيْلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهَارِ فَيَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الصُّبْحِ وفي صَلَاةِ الْعَصْر، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فيكُمْ فيسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وهو أعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّون».

أقول: وإذا رَسَمْنَا دائرَةَ اللَّيل والنهار وما جاء في الآية من تحديد الأقوات للصَّلَوات، ثم تدبَّرْنَا ما جاء في الآية أيضاً من إعلاء لِقِيمَةِ صلاة الفجر وشهود الملائكة لها ترجَّحَ لدينا أنَّ الصلاة الوسْطَىٰ المذكورة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

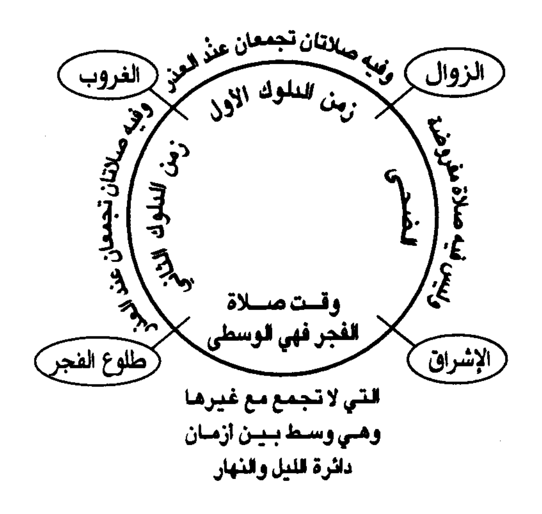
﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ هي صلاة الفجر، وإلى هذا ذهبَ كثير من المفسّرين والصحابة والتابعين.

إنَّ صلاة الفجر هي الصلاة الوحيدة الّتي لا تُجْمَعُ مَعَ غيرها في

سفَرٍ ولا حَضر وهي صلاة وسْطَىٰ لأنَّها أفْضَلُ الصلوات الخمس، ووقت أدائها يقع وسَطاً بين زمن ليس فيه صلاة مفروضة، وزمن فيه صلوات مفروضة والله أعلم.

ولكن صحَّ عن النبي ﷺ وصف صلاة العصر بأنّها الوسطى، وقد تكون هي وسطى أيضاً بين صلاتي الدلوكين، والله أعلم.

رسم توضيحي لدائرة اللّيل والنهار وأوقات الصلوات فيها وترجيح أن الصلاة الوسطى هي الفجر



قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾:
- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: وقُمْ من اللَّيْل، بمعنى: وقم بَعْضَ اللّيل.
- ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾: أي: فَصَلِّ لِربّك في هذا الْبَعْض. أصْلُ معنى الْهُجُود النَّوْم، يقال لغة: «هَجَدَ يَهْجُدُ هُجُوداً» أي: نَامَ. وجاءت صيغة تَهَجَّدَ «تَفَعَّل» للدلالة على معنى إزالة النوم، نظير: «تأثّم» أي تَجَنَّب الإثم، و«تحرَّجَ» أي: تجنَّبَ الحرج.

فمعنَىٰ «تَهَجَّدَ» تجنَّبَ الهُجُودَ، وهو النوم، ثُمّ صار التَّهُّجد دَالّاً على الصَّلاة في اللّيل بَعْدَ الاستيقاظ من النَّوْم.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: أي: زيادةً نافعة أو مُوَجَّهةً لك، ودَلَّ الأمْرُ بعبارة ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ على الإيجاب بالنسبة إلى الرسول ﷺ، ولم يُحَدِّد اللهُ عزّ وجلّ في هذا التنزيل المَدَنِيّ المضموم إلى سورة مكيَّةٍ جاء فيها بَيَان الصلوات المفروضة مقدارُ زمن التهجُّد، لإشعاره بأنَّ مَا جاء في سورة (المزَّمِّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) من إلْزامِهِ بأنْ يَقُوم من اللَّيْلِ نِصْفَهُ أوْ أقلَّ قليلاً أوْ زائداً على النَّصْف، قد جاء التخفيف من مقداره، فإذا قام أقَلَّ مِنْ ثلث اللّيل كان مؤدّياً للواجب، ثم نزلَتْ في العهد المدنيّ الآيَةُ الأخيرة من سورة (المزّمل) متضَمِّنَةً تخفيفاً أكثر، إلَىٰ قراءَةِ مَا تيَسَّرَ من القرآنِ في صَلاةٍ أثناءَ اللّيل.

وما أوجبه اللهُ عزّ وجلّ على رسُولِهِ من قيام اللّيل، هو سُنَّةٌ بالنسبَةِ إلَىٰ غَيْرِهِ من المسْلِمين، دلَّ علىٰ هٰذا القرآنُ والسُّنَّة.

• ﴿... عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾: أي: فَتهجَّدْ به رَاجِياً مُتَرَقِّباً أنْ يَبْعثَكَ رَبُّكَ الّذِي تَتقرَّبُ إلَيْهِ بالصَّلَاةِ في جَوْفِ اللّيل، مُقيماً لَكَ مَقاماً مَحْمُوداً يَوْمَ الْقِيامَةِ، قَدْ وَعَدَكَ به، وهو سوف يَحْصُل حتماً لك.

ضُمِّنَ الفِعْل في [يَبْعثُكَ] معنى الفِعْل في «يُقِيمُك» فانْتَصَبَ لفظ «مَقَاماً» على أنَّهُ ظَرْفُ مكان، وَوُصِفَ بِكَوْنِهِ مَحْمُوداً، أي: تُثْنِي الخلائق عَلَيْه يَوْمَ القِيَامَةِ ثناءً عظيماً.

ويَشْمَلُ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُقِيمُ اللهُ عزّ وجلّ فيه رَسُولَهُ يوم القيامة، مَقامَهُ حِينَ يَشْفَعُ للخلائق[1]، ومقامَهُ حَاملاً لواء الْحَمْد يوم القيامة، وغيرهُمَا مِنْ تَكْرِيماتٍ وَتَشْرِيفاتٍ لِرَسُوله ﷺ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (طه/ ٤٥ نزول) حول الشفاعة يوم الدّين وأنواعها.

قول اللهِ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾:

﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مُخْرَجَ﴾ ٱسْمَا مَكَان الدُّخُول والْخُروج واْسْما زمَانهما.

﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: أي: مُدْخلاً نِعْمَ هو مُدخُلاً، وَمُخْرَجاً نِعْمَ هُوَ مُخْرَجاً.

تقول العرب: فُلَانٌ رَجُلُ صِدْقٍ، أي: نِعْمَ هُو رَجُلاً. وفُلَانَةٌ امْرأةُ صِدْقٍ، أي: نِعْمَتْ هِيَ امْرَأَةً.

فهذه العبارة وأمْثَالُها من صِيَغِ الثناء والْحَمْد، ومنها في القرآن: «قَدَمُ صِدْق ـ مَقْعَدُ صِدْقٍ ـ لِسَانُ صِدْقٍ ـ مُبَوّأُ صِدْقٍ ـ مُدْخَلُ صِدْق ـ مُخْرَج صِدْقٍ».

وهذا التعبير من إضافَةِ الموصُوف إلى صِفَته، أصْلُهُ: مُدْخَلٌ صِدْقٌ، وَمُخْرَجٌ صِدْق. أي: حقَّق الموصوفُ في الواقِع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كَمالِ صِفاته، فَاسْتَحَقَّ الثناءَ والمدْحَ بما يَدُلُّ علَىٰ كمال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَة المثْلَىٰ لنَوْعه، وذَلِكَ هو الصِّدْقُ حقًّا.

﴿. . . وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾:

الْمُرَاد بالسُّلْطَانِ هُنَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ مِنَ اللهِ تَنْصُره على مَنْ يكيدُهُ ويكيد المسلمين، ويُقَاومُ دَعْوَة الإسلام الحقّ.

- ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾:

الحقُّ: الأمْرُ الثابت الذي لا شَكَّ فيه، المطابق للواقع.

الباطِل: ضدّ الحق، وهو الأمر الذي لا ثباتَ له لمخالفته للواقع.

زَهَق: أي: ذَهَبَ واضمَحلّ. يقال لغة: «زَهَقَ، يَزْهَقُ، زَهْقاً، وزُهُوقاً، فهو زاهِقٌ، وزَهُوقٌ» أي: زائل مضمَحلٌّ لا ثَبَاتَ له، ويقال: «زهقَتْ نفسُه» أي: ذاقت الموتَ مع سُرْعَةٍ وشِدَّةٍ قَبْلَ أنْ تحقّقَ مُراداتِها مِنْ دُنياها.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: أي: إنّ الباطل من شأنِهِ بِصُورَةٍ دائِمة أن يأتي عليه الزّهوق، ولو ظهرَ لَهُ زَبَدٌ خادع يَحْسَبُهُ الجاهِل المتَسَرّعُ آنِيُّ النظر شيئاً ذَا قيمةٍ حقِيقيّة، مع أنّه فارِغٌ ليس لَهُ ظاهِرٌ مُتماسِكٌ، ولا وَزْنَ له في موازين الحقيقة، فلا بُدَّ أنْ يكونَ زَهُوقاً عِنْدَ لَمْسَةٍ خفيفَةٍ تضْغط عليه. صيغة «زَهُوق» من صيغ المبالغة.

وأعْتَمِدُ بالنسبة إلى هاتَيْنِ الآيتين مَا صَحَّ عن ٱبْنِ عَبَّاس وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنهما.

روى الإمام أَحْمَدُ والترمذيُّ عن ابْن عبّاسٍ قال: كانَ النّبيّ ﷺ بمكّة، ثُمَّ أُمِرَ بالهجرة، فأنْزَل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

ويُفْهَمُ مِنْ هٰذا أنَّ الْمُرَادَ الدُّخولُ إلى المدِينَةِ، والخرُوجُ مِنْ مَكّة، بالنظر إلى المناسَبَةِ، مع صَلاحِيَّةِ اللَّفْظِ لكلّ دُخُولٍ وخُرُوجٍ في مَرْضَاةِ الله لَا في مَعْصِيَتِه.

وروى البخاريُّ عن عبْد اللهِ بْنِ مسْعُودٍ، قالَ: دَخَلَ النبيُّ ﷺ مكّة (أي: فاتحاً) وحَوْل الْبَيْتِ سِتون وثلاثمائة نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ في يَدِه ويَقُول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ـ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ سبأ.

ونَلْمَحُ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿...وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ إعلاماً ضِمْنِيًّا بأنَّهُ مَنْصورٌ، وأنّهُ فاتِحٌ مَكّةَ وأنّهُ

سَيُحطّم الأوثان، ويَقُولُ مَا جاء في هـٰذا التعليم، كما أثبت الواقع الْفِعْلِيّ هذا.

وبهذا انتهى تدبّر الدَّرْس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه.



(١٩)
التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

القراءات:

- قرأ أبو عَمْرو، ويعْقُوب: **[وَنُنْزِلُ]** مِنْ فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَنُنَزِّلُ]** مِنْ فِعْل «نَزَّلَ».

أَنْزَل، ونَزَّلَ متكافئان فالمهْمُوزُ أخُو المضَعَّف، وما ذُكِر من الفرق بينهما لم تثبُتْ عندي في القرآن صحّته.

تمهيد:

هذا الدرسُ عن القرآنِ، وهو موصول بما جاء في السّورة بشأن القرآن في الآيتَيْن (٩ و١٠) وفي الآيتَيْن (٤٥ و٤٦).

التدبر التحليلي:

هـٰذِهِ الآيَةُ مِنْ نُجُومِ التنزيلِ المكيِّ، وما سَبَقَ أَنْ نَزَلَ من القرآن لَا

يَبْلُغ مِقْدارَ نِصْفِ كامِلِ المصْحَف، فَحَمْلُ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ علَىٰ التَّبْعِيض يتلاءَمُ مَعَ تَنْزِيلِ القرآنِ مُنجّماً، فاللهُ عزّ وجلّ يُنَزِّلُ من القرآن يُرادُ به مُتَابَعَةُ تَنْزِيله حتَّىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ مِنْهُ في أواخِرِ المرحلة المدنيّة.

﴿شِفَآءٌ﴾: الشِّفاء الْبُرْءُ من المرض، وقَدْ أُطْلِقَ المَرَضُ في القرآن على المرض الجسدِيّ، وعلى المرض النفسي وأخبثه مَرَضُ الْقُلُوب بالكفر أو بالنفاق، ودُونَهُ مَرَض حُبِّ المعاصي والشهواتِ المحرّمة، واستعداد النفس لارْتِكابِها.

فَمِنْ حُسْنِ التَّدبُّر حَمْلُ الشّفاء على المعْنَيَيْن، الشفاء من المرضِ الْجَسَدِي، والشفاء من المرض النفسِيّ، وأطْلِقَ على القرآن أنَّه شفاء على معنى أنَّهُ سبَبُ شفاء، فهو من المجاز المرسل.

وأعْظم الشِّفَاءَيْنِ مَا كانَ شفاءً لِلْقُلُوبِ والنُّفُوس، وهو الغرض الأعظم من تنزيل القرآن المجيد هُدىً للناس.

وثبت في الصحيح وفي التجربَات الكثيرة الّتي لاَ يُنْكِرُهَا إلّا جاحد، تأثير تلاوة القرآن في الشِّفاء، من الأمراض عامّة، ومن الأمراض الّتي تأتي باستخدام السّحر، ومن الأمراض الّتي تكون بتأثير الإصابَةِ بعَيْنِ حَاسِد.

روى البخاريّ ومُسْلمٌ من حَدِيث أبي سعيد الخدري قال:

انْطَلَق نفرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ في سَفْرَةٍ سَافروها، حتَّىٰ نَزَلُوا علَىٰ حَيٍّ من أحْيَاءِ الْعرب، فاسْتَضَافُوهُمْ، فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهم، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيّ، فَسَعَوْا لَهُ بكُلِّ شيءٍ، لا يَنْفَعُهُ شيء.

فقال بَعْضُهُمْ لَوْ أَتَيْتُمْ هـٰؤلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فقالُوا: يا أيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وسَعَيْنَا لَهُ بكُلِّ شيءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أحدٍ مِنْكُمْ مِنْ شيءٍ؟

فقال بَعْضُهُمْ: نعَمْ، واللهِ إنّي لَأرْقِي، ولَكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونا، فما أَنَا بِرَاقٍ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَىٰ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فانْطَلَقَ يَتْفُلُ عليه ويَقْرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَال، فانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ[1].

قال: فأوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عليه، فقال بعْضُهُمُ اقْتَسِمُوا، فقال الّذي رَقَىٰ: لَا تَفْعَلُوا حتَّىٰ نَأتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فنَذْكُرَ له الذي كان، فنَنْظُرَ مَا يأمُرُنَا، فَقَدِمُوا على رسُول الله ﷺ، فذَكَرُوا لَهُ فقال:

«ومَا يُدْرِيكَ أنَّهَا رُقْية؟!» ثم قال: «قَدْ أصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا واضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْماً».

• ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وَمَا في القرآنِ مِنْ عِلْمٍ وحَقٍّ وهِدَايَةٍ إلى سَعَادَةِ الدُّنْيا والآخرة، رَحْمَةٌ للّذِينَ يُؤْمِنُونَ بما أنزَلَ اللهُ فِيه، كُلَّمَا تَدَبَّرُوا مِنْهُ آيَةً فآيَةً، فَيَدْفَعُهُمْ إيمانُهم إلى تَطْبِيقِ أحْكامِ شَرِيعَةِ الله لعباده.

أُطْلِقَ عَلَىٰ مَا جاء في القرآن المجيد أنَّهُ رَحْمَة، لأنَّهُ أثَرٌ تَعْلِيميٌّ وبَيَانِيٌّ من آثارِ صِفَةِ رَحْمَةِ الله بعبادِه، والمنْتَفِعُون منْ آثار هذه الرحْمَةِ هُمُ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بما جاء فيها.

وهٰذا الإطلاق يُسَمَّىٰ عند البلاغيين مجازاً مُرْسَلاً، وهو من إطْلَاقِ اسْمِ السَّبَب على المسَبَّب.

• ﴿...وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾: أي: ولا يَزِيدُ كُلُّ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ يَنْزِلُ فَرِيقَ الظَّالِمينَ بِكُفْرِهِمْ بالْحَقّ إلَّا خَسَاراً مِمَّا كانَ يُمْكِنُ أنْ يُحَقِّقُوه بإرادَاتِهم الحرّة، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

---

(١) وَمَا بِهِ قَلَبَة: أي: وما به عِلَّةٌ ولا ألَمٌ ولا داء، بقراءة الصحابيّ لفاتِحَةِ الكتاب.

الخسار: النَّقْصُ، وهو يَشْمَلُ الحرمانَ من السَّعادَةِ يَوْم الدِّين، والْهُبُوطَ في دَرَكاتِ العذاب في دار العذاب، فكلُّ دَرَكَةٍ هي أحَطُّ من الَّتي فَوْقَها، يكُونُ فيها نَقْصٌ في الرّاحَةِ من الْعَذابِ، بسَبَبِ الزّيَادَةِ فيه بانحطاط الدّرَكة.

وفي هذا التَّعْبير من الدّقَّةِ في النَّظْرَةِ الْعَقْلِية، والحسابِ الرّياضي، ما يُثِيرُ إعجابَ المتدبّرين من أَهْلِ الفكر أُولي الأَلْبَاب.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الخامس عشر من دروس سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

❁ ❁ ❁

(٢٠)
التدبّر التحليلي للدّرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء)
الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

٨٣ ـ • قرأ ٱبْن ذكوان، وأبو جَعْفر: **[وَنَاءَ]**: أي: وَنَهَضَ كالمثْقَلِ من حِمْل، وهو كناية عن الابتعاد عن ربّه وطاعته، مع الظهور بمظهر الاستكبار.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَنَأَىٰ]**: أي: ابْتَعَدَ.

وبَيْن هاتين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فقراءة: **[وَنَاءَ]** تدُلُّ على إعراضِ المتثاقِلِ المستكبر، وهذه صفة بعض الناس. وقراءة

[وَنأىٰ] تَدُلُّ على الإعراض مع الابتعاد عن الرَّبّ وطاعته، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانُ وصْفِ الإنسان الجَحُود الكَنُود، إذْ من شأنِهِ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ إذا أنْعَمَ علَيْهِ فَوَسَّعَ لَهُ من محابِّهِ من زينات الحياة الدُّنيا ومَتاعاتها، أعْرَض عَن رَبّه المنْعِمِ عَلَيْهِ، ومَشَىٰ بين الناس مستكبراً بما آتاه الله، أو أعْرَضَ وابْتَعَد عن الصِّلَة بربّه وعن العمل بمراضيه. أمَّا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً خَفِيفاً فإنَّهُ يَكُونُ يَؤُوساً حَزِيناً متضجرّاً.

وهذا الدّرس موصُولٌ ببعض ما جاء في السورة عَنْ وصف سلوك الإنسان في الآية (١١) وفي الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) فوصْفُ الإنسان أحَدُ فروع شجرة موضوع السورة.

التدبر التحليلي:

● ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: أي: وإذَا أعْطَيْنا الإنْسَانَ عَطاءً واسعاً مِنْ محابّه من متاع الحياة الدنيا. والمرادُ بالإنسان النّوعُ، ويَصْدُق بما هُو دُون الاستغراق.

والواقع يَدُلُّ على أنَّ أكْثَرَ الناس باستثناء العدد القليل منهم يَنْطَبِقُ عليهم الوصْف الذي جاء في هذا الدَّرْس.

﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: **أعْرَضَ**: أي: الْتَفَتَ وأعْطَىٰ عارِضَه، وهو جانِبُ وجْهِهِ، عُرْضُ الشيءِ جانِبُهُ، وعارِضا الإنسان صَفْحتَا خَدَّيه. **والإعْراض**: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقبَالِ والإدْبار.

ونأىٰ بجانِبِهِ: أي: وابْتَعَدَ بجانبِهِ عن رَبِّهِ الّذي أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ من محابّة من دُنياه، زائداً عَنْ حاجَاته.

يقال لغة: «نَأَىٰ، ينأىٰ، نَأْياً، فهو نَاءٍ» أي: بَعُد.

وفي القراءة الأخرَى: ﴿ونَاءَ بِجَانِبِهِ﴾: أي: ونَهَضَ بجانِبِهِ متثاقلاً، كما يَفْعَلُ المسْتَكْبِرُون. وقد يكون بمعْنَىٰ غيابِه غياباً كُلِّيًا، كما يَسْقط النجم غائباً عِنْدَ الفجر، وهـٰذِهِ حَالَةٌ أشَدُّ من الإعراضِ والنأيِ، وهذا الغيابُ التامُّ عن المنْعِم يفْعَلُهُ بعْضُ الجاحِدِين.

● ﴿. . .وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾: **المسُّ**: يُطْلَقُ عَلَىٰ وُصُولِ سَطْحِ الشيء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخر، دُون الدُّخُول في شيءٍ تحت السَّطْحِ.

اليَؤُوس: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «يَائِس» أي منقطع الأمل.

اليأس من الشيء: انقطاع الأمَلِ منه، وانتفاء الطّمع فيه. يقال لغة: «يئِسَ مِنْهُ يَيْأس، ويَيْئِسُ، يأساً، ويَآسَةً» أي: انقطع أمَلُهُ منه، وانتفَىٰ طَمَعُهُ فيه.

فمعْنَىٰ قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾: ومِن سُلوك الإنْسَانِ (أي: في مُعْظَم أفرادِهِ): الاختياريّ الّذي لا جَبْر فيه أنّه إذَا وَسَّعْنَا لَهُ العَطَاءَ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنْيَا، فتنَهُ ذَلِكَ، فأعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ المنْعِمِ عَلَيْهِ، وابْتَعَدَ بجانِبِهِ عَنْ ذِكْرِه، ومُرَاقَبَتِهِ، وطاعَتِه، أو اسْتَكْبَرَ، أوْ غَابَ غيَاباً كُلِّيًا، وسَارَ في سُبُلِ الشيطان. وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا خَفيفاً صَارَ شَديدَ الْيَأسِ، مُنْقَطِعَ الْأمَلِ، ظَانًّا أنَّهُ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ الّذي جاءَتْ بدايَتُهُ مَسّاً.

اسْتُعْمِلَ لفظ «كَانَ» هُنَا بمَعْنَىٰ «صَار» وهذا أَحَدُ المعاني الذي يُسْتَعْمَلُ فيه فعْلُ «كانَ».

قول الله عزّ وجلّ لرسُولِهِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي: علىٰ مَا في نَفْسِهِ مِنْ عَوامِلَ تُوَجّهُ إرادَتَهُ الْحُرَّة. وعلى وفق الطريقة والسّيرة التي اعتادَها في حياته.

أي: قُلْ أيُّها النَّاصِحُ الدَّاعِي إلى الله للّذِينَ إذا أنعم الله عَلَيْهم أعْرَضوا ونَأَوْا بجوانبهم، وإذا مَسَّهُمُ الشَّرُّ كَانُوا يَؤُوسِين: كُلٌّ واحِدٍ مِنْكُمْ يَعْمَلُ في حياتِهِ الّتِي وُضِعَ فيها مَوْضِعَ الامْتِحان، علىٰ وَفْقِ مَا في نَفْسِه مِن عَوَامِلَ تُوَجِّهُ إرَادَاتَهُ الْحُرَّة، وعلى وَفْق الطريقة الّتي اعْتَادها في حياته.

وبما أنَّ النَّاسَ مخْتَلِفُونَ، فلا بُدَّ أن يَتَفَاوَتُوا في مَنازِلِهِمْ، ارْتِقَاءً وهُبُوطاً فِي سُلَّم الْهِدَاية والضلال، وتفاوُتُهم هذا يجْعَلُ بعضهم أهدى من بعض، أو أضَلَّ مِنْ بَعْض، ولهذا يقول الناصح الداعي لهم:

فَرَبُّكُمْ العليم بِكُلّ شيءٍ، أعْلَمُ مِنْ كلِّ ذي عِلْم بِمَنْ هُو أَهْدَىٰ مِنْكُمْ سَبِيلاً مُوصِلاً إلى سَعَادَةِ الدَّارَين، أوْ أحَطُّ دَرَكَةً نَازِلَةً إلى عذاب الله.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمْد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه ومعونته.



(٢١)
التَّدبُّر التحليلي للدّرسِ السابع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الدرس بيان السُّؤال عن الرُّوح، والإجابة الرَّبَّانيَّة على هذا السؤال.

ويظهر أنّ السؤال عن الرُّوح قد تكرَّرَ في هـٰذِهِ المرحَلَةِ من مراحل سيرة الرسول ﷺ الدَّعوية، فكان من الحكمة الإجَابَةُ عَلَىٰ هـٰذا السُّؤال.

التّدبُّر التحليلي:

دلَّ علىٰ تَكَرُّرِ سؤَالِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّة عَنِ الرُّوح، بمعْنَىٰ السُّؤَالِ عن حَقِيقَتِها وَمَاهِيَّتِها، اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارعِ الّذي يَدُلُّ على التكرار: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾.

وسؤال هؤلاء الرَّسُولِ ﷺ عن الرُّوح، من الأحداث الّتي وقَعَتْ إبَّانَ نُزُول سُورَة (الإسراء) فكان من الحكمة إنزالُ هذه الآية، وضَمُّهَا إلى المعالجات المتعلّقاتِ بكُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّة الّتي اشْتَمَلَتْ عليها هـٰذِهِ السُّورة.

وجاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن ٱبْن عباس، قال: «قالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أعْطُونَا شَيْئاً نَسْأَلُ هـٰذا الرَّجُلَ عَنْه، فقالوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوح، قال: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾».

وقد كان بين قريش في مكّة وبين يَهُودِ المدينة صِلَاتٌ، ومنها صلاتٌ تجاريّة.

وروى محمد بن إسحاق أنَّ قُرَيشاً بعَثُوا النَّضْرَ بْنَ الحارث، وعُقْبَةَ بْنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبار الْيَهُودِ بيثْرِبَ، يسْألانِهِمْ عن أمْرِ النبيّ ﷺ فقال الْيَهُودُ لَهُما: سَلُوه عَنْ ثلاثَة: وَذَكَرُوا لهم أهْلَ الكَهْف، وَذَا الْقَرْنَيْن، وعَنِ الرُّوح.

أقول: ويظهر أنّهم سَأَلُوه إبَّانَ نُزُول سورة (الإسراء) عن الرُّوح، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. ثمّ سَأَلُوه إبَّانَ نُزُولِ سورة (الكهف/ ١٨

مصحف/ ٦٩ نزول) عَنْ أهل الكَهْفِ، وعَنْ ذِي القرنَيْن، فأنزل الله عزّ وجلّ فيها أخباراً عنهما.

وصَحَّ أيضاً أنَّ بَعْضَ اليهود سَأَلُوا الرَّسُول ﷺ في المدينة بَعْدَ هجْرَته إليها عَن الرُّوح، فأجابَهُمْ بما كَانَ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ في الْعَهْدِ المكّيّ، بَعْدَ أنْ تَرَيَّثَ قَليلاً بانتظار ما يجيء به الوحْي.

روى البخاري عن عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه، قال:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهُوَ مُتَوَكّىءٌ عَلَىٰ عَسِيب[1]، إذْ مَرَّ الْيَهُود، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فقال: مَا رَابَكُمْ إلَيْه، وقال بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُم بشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فقالوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عن الرُّوح، فأمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شيئاً، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إلَيْه، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الوحْيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾.

وروى مسلم نظير هذه الرّواية الّتي رواها البخاري رحمهما الله.

ويَدُلُّ التعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ علىٰ أنَّهَا مَخْلُوقٌ مُبْتَدِىءُ الْوُجُودِ بأمْرِ التَّكوينِ الرَّبَّانيّ مُبَاشَرَةً. وأفْهَمُ مِنْ هذا أَنَّهُ لَمْ يُسْتَخْدَمْ في خَلْقِهِ مَخْلُوقٌ آخَرُ، قَدْ سَبَقَ خَلْقُ اللهِ عزّ وجلّ له، بخلاف جسم الإنسان مثلاً، فقَدْ خَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلّ من مخْلُوقٍ سَبَقَ أنْ خَلَقَهُ جلّ جلالُهُ، وهو الماء والتراب.

أمّا الرُّوح فَقَدْ صَدَرَ خَلْقُهُ بأمْرِ التكْوين الرَّبَّانيّ.

ولفظ «الرُّوح» يذكّر ويُؤَنَّث، فيقال: هو الرُّوح، وهي الرُّوح.

الرُّوح: هو المخْلُوقُ العَجِيبُ الْخَفِيُّ الّذِي تَكُونُ بِهِ المَخْلُوقَاتُ

---

(١) **الْعَسِيب**: جريدة النَّخْلِ المسْتَقيمة، يُكْشَطُ خوصُها.

ذَواتُ الحياة حيَّة، فهو ما به تكُونُ الحياة في الأشياء.

والرُّوحُ في الإنْسَانِ شيءٌ غَيْرُ نَفْسِه، إذْ نَفْسُهُ هي الشيْءُ الّذي طَبَعَ اللهُ فيه طَبْعَةَ صِفَاتِهِ الماديَّةِ والمعْنَوِيَّة، وهو ما يَحتوي على مَا يُسَمَّىٰ: «جيناته الوراثيَّة» أو «الكُرُمُوزُومَات الحاملات لصفاته الماديَّةِ والمعنوية» بحَسَب مكتشفات عُلَماءِ الأحياء المعاصرين، القابلة للتكميل والزّيادة، بتطوير أدَوَاتِ المعرفة، ومتابعة البحوث العلميّة.

والنَّفس: هي الّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ بانفصالِ الرُّوح عنْها.

أمّا مَعْرَفَةُ حَقِيقَةِ الرُّوحِ الّتي تكونُ بها الأحياء ذَاتَ حَيَاةٍ، فقد دَلَّ قول اللهِ عزّ وجلَّ في الآية: ﴿...وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ عَلَىٰ أنَّ النَّاسَ لَمْ يُؤْتَوْا مِنَ الْقُدْرَات الإدْرَاكِيَّة، ولَا مِنْ أسْبَابهاووسائِلِها، مَا يُوصِلُهُمْ إلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الرُّوح، فاسْتُخْدِمَتِ العبارة كناية عن هذا.

ويَعْتَرِف الْعُلَماءُ الْكَوْنِيُّون بهذه الحقيقة، وأنَّ عِلْمَهُمْ على اتِّساعه في القرونِ المُعَاصِرَة ما زَال في بدايات شَواطئ بحور العلم المتوغِّلَة في غُيُوبٍ لا تُعْرَفُ لَهَا نهايات.

وبهذا انتهى تدبُّر الدّرس السابع عشر من دُروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.

(٢٢)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٨٦ ـ ٨٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

القراءات:

٨٨ و٨٩ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانِ] وحمزةُ في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآنِ].

تمهيد:

هذا دَرْس يتعلَّق بالقرآن، وأنَّ الله عزّ وجلّ لو شاء لمسَحَ من ذاكِرَة الرَّسُول ﷺ كُلَّ ما يَحْفَظُ منْهُ، وفيه تَحَدٍّ للإنْسِ والجنّ بأن يأتُوا بمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بعضهم لبَعْضٍ ظهيراً.

وهذا الدّرس موصول بخطّ الحديثِ عَنِ القرآن في السورة، الذي تعَلّقت به الآيات (٩) و(٣٩) (٤٥) و(٤٦) و(٦٠) و(٧٣) ومن الآيات (٨٦ ـ ٨٩) ثمّ الآية (١٠٥) و(١٠٦).

التدبّر التحليلي:

إلحاقاً بالتربية التي جاءت في الدرس الثالث عشر، في الآية:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ وفي الآيتين بَعْدَها، جاء قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾:

أي: لَسْتَ أنْتَ يَا مُحمَّدُ الّذِي تَتْلُو القرآنَ مِنْ عِنْدِك اسْتِخْرَاجاً مِنْ قُدْرَاتِكَ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْكَ، ونحن الذينَ نُثَبِّتُهُ في ذاكِرتك

فنجعلُكَ لَا تَنْسَاه، ولَئِنْ شِئْنَا أنْ نَمْسَحَهُ مِنْ ذَاكِرَتِكَ لَنَذْهَبَنَّ بِهِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتْلُوَ مِنْهُ سُورَةً أَوْ آيَةً أو كَلِمَةً.

ثُمَّ إنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَلَوْ حَاوَلْتَ أنْ تَفْتَرِي عَلَيْنَا شَيْئاً غَيْر الّذي أوْحَيْنَا إليك فإنَّك لَا تَجِدُ في الْوُجود كُلِّه وَكِيلاً لَكَ عَلَيْنَا ذا سُلْطَةٍ عَلَيْنَا أو شفاعَةٍ بشَأنِ القرآن، لِنُعِيدَ إلى ذاكِرَتك مَا مَسَحْنَاهُ مِنْها.

وقَدْ سَبَقَ أنْ عَرَفْنَا في الدَّرْس الثالث عشر، أنَّ الخِطَابَ الموجَّهَ فيه ظاهراً للرسُول ﷺ، هو في حَقيقَتِهِ تيْئِيسٌ بقُوَّة للكافِرِينَ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ بتغيير بَعْضِ ما في الْقُرْآنِ مِمَّا يَكْرَهُونَ، ونظيره مَا جاء في هذا الدَّرْس الثامن عشر.

وهذا من قبيلِ قول الأب لابْنِهِ في نَفْسِه: عَلَيْكَ أقْسُو يَا حَبِيبي لِيَيْأسَ من الطَّمَعِ فِيَّ سُفَهَاءُ أَوْلَادِ الْجِيرَان.

اللام في ﴿لَئِنْ﴾ مُوَطِّئَةٌ للْقَسَمِ المنْوِيّ. وجُمْلَةُ: ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ جَوابُ الْقَسَم.

قول الله عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾:

أي: لَكِنْ ثَبَّتْنَاكَ فَلَمْ تَرْكَنْ إلى الّذِين كَفَرُوا، وأثبَتْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ في ذَاكِرَتِكَ رَحْمَةً بِكَ مُوَجَّهَةً من صفاتِ رُبُوبيَّتِنَا لك، فَتَفَضَّلْنَا عَلَيْكَ بِتَثْبِيتِكَ، وبِعَدَمِ مَسْحِ مَا أَوْحَيْنا إليك من ذاكِرَتِك.

اختيرتْ عبارة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بَدَلَ ضَمِيرِ المتكلِّم العظيم «منّا» للدَّلالَةِ على صِفَات رُبُوبيّة اللهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وفَضْلُه.

وبهذا الْفَهْم تكونُ «إلَّا» بمعْنَىٰ «لَكِن»الاستدراكيّة، وهذا فيما ظَهَرَ لي أولَىٰ من اعتِبَارها استثنائيّة تَدُلُّ على مَحْذُوفاتٍ مطويَّاتٍ تحتاجُ تَقْدِيراً.

وأَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ فَضْلَهُ الكَبيرَ عَلَىٰ رسُولَهُ فقال له في الآية: ﴿... إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾: أي: إنَّ فَضلَ رَبِّكَ عَلَيْكَ هُوَ دَواماً فَضلٌ كَبير.

الفضل: الزّيادةُ ممَّا يُحْمَدُ غَالباً. والكِبَرُ يَكونُ في المادِّيَّاتِ وفي المعنويّات.

كيف لا يكونُ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ عَظِيماً، وَقَدْ جَعَلَهُ أَفْضَلَ خَلْقِهِ، وخاتم أنبيائه ورُسُلِهِ، وأنزل عليْهِ القرآنَ أعْظَمَ كُتُبِه، وأكْرَمَهُ بالإسراء، وبالمعراج إلى السَّمَاوَاتِ العُلا، إلى غير ذَلِكَ من خصائص.

قول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُعِيناً، يُطْلَقُ لفظ «ظَهير» على الواحد والجمع.

إنّ عُرُوضَ المزالِق التي حَاولَ أئِمَّةُ المشركينَ بها إغراء الرَّسُول أنْ يُبَدِّلَ مَا كَرِهُوا من آياتِ القرآن، ويَجْعَلَ في مكانِهَا آياتٍ تُرْضِيهِمْ، تُشْعِرُ بأَنَّهُمْ يَتوهَّمُونَ أنَّ القرآنَ مِنْ وَضْعِ مُحَمَّدٍ وابْتِكَارَاتِه وتأليفَاتِه، وَهُوَ يقول: إنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّه افتراءً عليه، فكانَ من الحكمة تَكْلِيفُهُ أنْ يَقُولَ لهم أنَا عَاجِزٌ عن الإتيانِ بمِثْل هـٰذا القرآن، إذْ لَيْسَ في قُدْراتي ولَا في قُدْراتِ جَمِيع الإنْسِ والجنّ أنْ يأتُوا بمِثْلِهِ، وأنَا أتَحدَّاكُمْ يَا بُلَغَاءَ الْعَرَبِ وَفُصَحَاءَهُمْ أنْ تأتُوا بمِثْله.

بل أقول لَكُمْ أكْثرَ من ذلِكَ: أُقْسِمُ لَكُمْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ كُلُّهُمْ، مع الجنِّ كُلِّهِمْ، عَازِمينَ بكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ من قُدْرَاتٍ على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ، في إعجازه البياني، في إعجازِهِ العِلْمِي، وفي إعْجَازِهِ التَّشْرِيعي، وفي سَائِرِ جوانب إعجازه، فإنَّهُمْ لَا يسْتَطِيعُونَ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُعِيناً.

أي: فَلَا تَزْعُمُوا أنّ الْقُرْآنَ مِنْ وضْعِي وابتكاراتي وَتَأْلِيفِي، إنَّمَا أنَا بالنِّسْبَةِ إلَيْه مُجَرَّدُ مُبلِّغٍ وَمُبَيِّنٍ وَشَارِحٍ ما أَنْزَلَ اللهُ فيه للناس.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ بيانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ بِشَأْنِ إحْدَىٰ مُعجزاتِ القرآنِ، وهي اشْتِمالُهُ عَلَىٰ ذِكْرِ نَمُوذجٍ (مَثَلٍ) أو أكْثَرَ، لكُلِّ نَوْعٍ أوْ عَمَلٍ أو تَشْرِيعٍ، أوْ سُنَّة من سُنَنِ اللهِ في كَوْنهِ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لعباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهذا بالنسبة إلى ما قضت حكم الله عزّ وجلّ إنزاله من الدِّين حتى نزول هذه السورة.

ثُمَّ يأتي القياسُ المسْتَنِدُ إلى شمُولِ الأحكامِ للْمُتَماثِلاَتِ الَّتي تَقْضِي بِهِ أصُولُ الحقائق، أوْ تقضي به حِكْمَةُ الْخَالِقِ في خَلْقِهِ، وفي تَصارِيف عَدْلِهِ، وَفي ثَبَاتِ سُنَنِه، فَيُنْتِجُ أحْكاماً عَامَّةً تَشْمَلُ سَائِرَ الْأَفْرَادِ المماثِلَةِ لِمَا جَاءَ في المثَل.

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: الواو حرْف يَعْطِفُ هـٰذِهِ الآيَةَ على الآيات السابقة المتعلِّقَةِ بالقرآن. «لَقَدْ» عبارةٌ مؤكِّدَةٌ لمَا جاء في هذه الآية من خبَرَ. صَرَّفْنَا: التَّصْرِيفُ: التدبير، والتنويع، والتغيير، واتّخَاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجوه الممكنة للوصل إلى الغاية.

• ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: الّذي نُنَزِّلُهُ تِباعاً على محمّدٍ آياتٍ وسُوراً في نجوم التنزيل.

• ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَمُوذَجٍ هو فَرْدٌ من أَفْرَادِ صِنْفِهِ، أَوْ نَوْعِهِ أَوْ جِنْسِهِ، لقياسِ سَائرِ أمْثَالِهِ عَلَيْهِ في حُكْمِه.

• ﴿... فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

الكُفُور: مَصْدَرٌ بمَعَنَىٰ «الكُفْر» وهو أبْلَغ من الكُفْرِ أخْذاً من زِيَادَةِ المبْنَىٰ الّتي تَدُلُّ عَلَىٰ زِيَادَةِ المعنى. قال الأخْفَش: **الكُفُور**: جَمْعُ الكُفْر، مثل بُرْدٍ وَبُرُودٍ.

الكُفر: سَتْرُ الحقِّ وأدِلَّةِ الحقِّ وَبَرَاهِينِهِ بالمغالَطَاتِ وَزَخَارِفِ الأقوال، وبالجُحُود والْعِنَادِ وطَرْح التشكيكات.

أي: فَأبَىٰ أكْثَرَ النَّاس في مَكَّة إبَّانَ التنزيل إلَّا أنْ يَكْفُرُوا كُفْرَ إصرارٍ على الْبَاطِلِ، وجُحُودٍ لِلْحَقِّ، وعِنَادٍ بحَمَاقَةٍ، مع أنَّهُمْ قَدْ تُلِيَ عليهم ما جاء في القرآن مِن تَصْرِيفٍ في الْأدِلَّةِ والْبَيَانَاتِ والترغيب والتَّرْهِيبِ والعِظاتِ وتَقْدِيم نَمُوذَجٍ أوْ أكْثَرَ، لِكُلِّ صِنْفٍ، أوْ نَوْعٍ، أو جنسٍ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لعباده، مِنْ قضايا أُصُولِ الإيمان، وأُصُولِ الأخْلاَقِ، وقواعِدِ الجزاءِ الرَّبَّانيّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ من قضايا.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثامن عشر من دُرُوس سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٣)
التدبّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٩٠ ـ ١٠٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن

زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾».

القراءات:

٩٠ ـ • قرأ نافع، وٱبنُ كثير، وأبو عمْرو، وٱبْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [تُفَجِّرَ] من فِعْل «فَجَّرَ» المضعَّف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَفْجُرَ] مِنْ فِعْلِ «فَجَرَ» غير المضعَّف.

والقراءتان تُعبِّرانِ عَنْ مَقالَتَيْن قَالَهُما كبراء كفار قريش، فقال بعضُهُمْ: حَتَّىٰ تَفْجُرَ لنا مِنَ الأرضِ يَنْبُوعاً، مشيراً إلى أرْضٍ ليِّنَة هيِّنة. وقال بعضهم: حتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا من الأرض يَنْبُوعاً مشيراً إلى أرض صخْرِيَّةٍ صَعْبَةِ التشقُّق.

٩٢ ـ • قرأ نافع، وابْنُ عامِرٍ، وعاصِمٌ، وأبو جَعْفر: [كِسَفاً] بفتْحِ السين.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ السّين: [كِسْفاً].

كِسْف، وكِسَف: جمع «كِسْفَة» بمعنى: قِطْعَة، فالقراءتان متكافئتان.

٩٣ ـ • قرأ أبو عَمْرو، ويَعْقُوب: [تُنْزِلَ] مِنْ فعل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [تُنَزِّلَ] من فعل: «نَزَّل».

أَنْزَلَ، ونَزَّلَ متكافِئَان، فالمهْمُوزُ أخو المضعَّف.

٩٣ ـ • قرأ ابن كثير، وابْنُ عَامر: [قَالَ سُبْحَانَ] بالفعل الماضي.

وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلْ سُبْحَانَ] بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عزّ وجلّ له: قُلْ: فقال.

٩٧ ـ • أثبت الياء في لفظ [الْمُهْتَدِي] نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر، في الوصل، وأثبتها في الوصْلِ والوقف يعقوب.

وحَذَفها باقي القراء العشرة، فقالُوا: [الْمُهْتَدِ] وهذا الحذف من الإيجاز الذي لَهُ نظائر.

٩٨ ـ • توجَدُ في [أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِذَا] القراءات الّتي ذُكِرَت في الآية (٤٩).

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلّم في [رَبِّيَ إِذَا] نَافع، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعفر. وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس بيان بَعْضِ مَطَالِبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّةَ التَّعَنُّتيَّةِ مِنَ الخوارق إبَّانَ التَّنْزِيل، مع بيان حِكْمَةِ اللهِ في عَدَم الاسْتِجابَةِ لمطالبهم.

وفيه إنْذَارٌ لَهُمْ وَتَرْهِيبٌ من عذاب شَدِيدٍ يَوْمَ الدّين.

وفيه رَدٌّ على بَعْضِ أَسْئِلَةٍ مَطْوِيَّةٍ في النّصّ مُوَجَّهَةٍ من الّذِينَ كَفَرُوا، وتَدُلُّ عَلَيْها الإجَابَةُ المصَرَّحُ بها.

وتفصيلُ بَعْضِ المطالِب التَّعَنُّتِيَّة، مُتَّصِلٌ بما جاء في الآية (٥٩) من السورة، وهي قولُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ۝٥٩﴾:

التدبّر التحليلي:

طالَب المعنِيُّون بالمعَالَجةِ في السُّورَةِ الرَّسُولَ ﷺ بأنْ يأتِيَهُمْ بخَوَارِقَ ذَكَرُوهَا، واعْتَبَرُوها شُرُوطاً للإيمان بِه والإسْلام لَه، ومِنْ هٰذِهِ الخوارقِ مَا يكُونُ سَبباً لإهْلَاكِهم، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْها، وهي سِتَّةُ خوارق ذَكَرُوها.

الْخَارِقُ الأول: أنْ «يَفْجُرَ» أو «يُفَجِّرَ» على القراءتَيْن لهم في أَرْضِ مَكَّةِ يَنْبُوعاً، أي عَيْنَ مَاءٍ تجري: دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لمَطَالِبِهِم التعنُّتِي: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾: أي: لَن نُؤْمِنَ بِكَ مُسْلِمِينَ لَكَ، ضُمِّنَ فعل «نُؤْمِن» معنى فعل «نُسْلِم» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملة عن جملَتَيْن.

- ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾: أي: حتَّىٰ تُخْرِج لَنا عَيْنَ مَاءٍ وتَشُقَّ لَهَا طَرِيقاً.

الخارق الثاني: أنْ تكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ في مَكَّة وَأَنْ يُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بخارقٍ للعادة، دلَّ عَلَىٰ هٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١﴾:

الْجَنَّة: مَا يحتوي على أشجار، ثمارٍ، وزُروع، وأنهارٍ، وقُصُور.

تُفَجِّر: مُبَالَغَةُ «تفْجر» أي: تُشَقِّقُ لِمَاءِ الْعيُونِ أنْهاراً.

تَفْجِيراً: مَفْعُول مُطْلَق لفعل «تُفَجِّر».

الخارق الثالث: تَحدُّوا الرَّسُولَ فِيه أَنْ يُسْقِط عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ قِطَعاً تُهْلِكُهُمْ، إذْ كان ﷺ قَدْ تَوَعَّدَهم بذلك، دلَّ على هٰذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا... ﴿٩٢﴾﴾: **كِسَفاً، وكِسْفاً**: أي: قِطَعاً، جَمْع «كِسْفَة». أي: حالة كونها قطعاً قاتِلةً مُهْلِكَة.

إنَّهُمْ لَا يَطْلُبُون إهْلَاكَهَمْ بِقِطَعٍ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ من جِهَةِ السَّمَاء، وإنَّمَا يَظُنُّونَ أنَّ محمَّداً لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُسْقِطَ عليهم لإهْلاكهم هٰذِهِ الكِسَف، فَهُمْ يَتَحَدَّوْنَهُ بهٰذا.

الخارق الرَّابع: أَنْ يَأْتِيَهُمْ باللهِ والْمَلَائِكَةِ مُجْتَمِعِينَ، لِيَشْهَدُوا لَهُ بأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ يُبَلِّغُ عن رَبِّهِ آيَاتِهِ المنزَّلَات، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿...أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾:

القبيل في اللُّغة: الجماعَةُ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الضَّامِنِ والكَفِيل، ويُفْهَمُ مِنْ طَلَبِهِمُ الإتيان باللهِ وبالملائكة جَمَاعَةً، أنْ يَأْتي بهم لِيَشْهَدُوا لَهُ بالنبوَّةِ والرِّسَالَة، وليكونُوا بمَثَابَةِ ضَامِنٍ وكفِيلٍ يضْمَنُونَ ويكْفُلُونَ أنَّ ما يَنْقُلُهُ عن رَبِّهِ حَقٌّ وَصِدْق. ﴿قَبِيلًا﴾: منصوبٌ على الحالية.

وظاهِرٌ أَنَّ هٰذا مَطْلَبٌ تَعَنُّتِيٌّ لَا يَطْلُبُهُ عاقِلٌ رَشِيد، فَلَوْ كان من الحكمة أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ، أوْ يُرْسِلَ إليهم ملائكةً، لَمَا بَعَثَ اللهُ إليهم رَسُولاً بَشَراً مِنْهُمْ.

الْخَارِقُ الْخَامِسُ: أن يكُونَ لَهُ بخارقٍ بَيْتٌ مِنْ ذَهَب، دَلَّ علىٰ هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لِقَوْلهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ... ﴿٩٣﴾﴾:

الزُّخرُفُ: الذَّهَب. ويُطْلَقُ علَىٰ الزِّينَةِ وكمالِ حُسْنِ الشيء، وظاهِرٌ أنّ المراد هنا الذَّهَبُ، فقد كانَ الذَّهَبُ هو المادّةَ النادرة العظيمة في تَصَوُّراتهم.

الخارق السادس: أنْ يَرْقَىٰ في السَّمَاءِ وهُمْ يُشَاهِدُونَ رُقِيَّهُ، ويُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ كِتَاباً يَقْرَؤُونه، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لِقَوْلهم:

﴿...أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ... ﴿٩٣﴾﴾:

أي: ولَوْ رَقِيتَ في السَّمَاءِ فَلَنْ نُؤْمِنَ بِكَ لِأَجْلِ رُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً رَبّانِيًّا من السَّمَاءِ نَقْرَؤه.

يُقَال لغة: «رَقِيَ في الشيء يَرْقَىٰ، رَقْياً، ورُقِيًّا» أي: صَعِدَ. ومِنْهُ: «رَقِيَ في السُّلَّمِ» أي: صَعِد فيه.

مطالِبُ تَعَنُّتِيَّةٌ لَا تَدُلُّ علىٰ أنَّهُمْ يُرِيدُون مَعْرِفَة الْحَقِّ ليؤمِنُوا به، بل تَدُلُّ على أنَّهُمْ جاحِدُونَ مُكابِرُون مُعَانِدُونَ، فلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَة تَلْبِيَةُ شيءٍ مِنْ مطالِبِهم.

بَعْدَ ذِكْرِ مطالِبِهم التعنتيَّة الدَّالّة على العنادِ، وبَيانِ عدَمِ استعدادهم الإيمانَ بالحقِّ ولَوْ ظَهَرَ لَهُمْ ظُهورَ الشَّمْسِ في رابِعَةِ النهار، عَلَّمَ الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ ما يقولُه لَهُمْ فقال تعالى:

﴿...قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [قَالَ]:

﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾: أي: تَنْزِيهاً لِرَبّي، وهٰذِهِ العبارة تُسْتَعْمَلُ في التَّعَجُّب، وفي التعجيب.

أي: عجباً لَكُمْ أيُّها المُتَعَنِّتُونَ على ربّكم الذي يجب عليكم أنْ تُنَزِّهُوهُ عمّا لَا يليق به، ومِنْهُ خَرْقُ نظامِهِ في كونه استِجَابَةً لمطالب الكفورين الْجَحُودِين المُعَانِدِيْنَ المتعَنّتين، وهو يَعْلَمُ أنَّهم مُسْتَيْقنون في قُلُوبهم، إلّا أنَّهُمْ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُون.

• ﴿...هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾؟!. أي: هَلْ وَصْفي الدائم إلَّا أنَّنِي بَشَرٌ رَسُولٌ، أحْمِلُ إليكم رِسَالَةً من رَبِّي فأنَا أُبَلِّغُكُمْ إيَّاهَا كَمَا أَوْحَىٰ إليَّ بِهَا؟! إنّي لم أقُلْ لَكُمْ: إنّي رَبٌّ قَادِرٌ عَلَىٰ أنْ أَخْلُقَ، وأتصرَّفَ في الكَوْنِ عَلَىٰ مَا أُرِيد، حتَّىٰ تَطْلُبُوا مِنِّي هذه المطالب التعنُّتِيَّة، أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدِ اخْتَارَني اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ للنَّاسِ، فإنْ قَبِلْتُمُوهَا فَرَبُّكُمْ يُبَشِّرُكُمْ بنَعِيم خَالِدٍ أبَدِيٍّ يكُونُ يَوْمَ القيامة، وإنْ أبَيْتُمْ أنْ تَقْبلُوها فَرَبُّكُمْ يُنْذِرُكم بعَذَابٍ خالِدٍ أبَدِيٍّ يَوْمَ القيامَة، فاخْتَارُوا لنُفُوسِكُمْ مَا تَشَاءُون، لَا جَبْرَ لَكُمْ وَلا إكراه.

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تَعَجُّبِيٌّ من مَطَالِبهم التعنُّتيّة الّتي لا يَطْلُبُهَا منْصِفٌ يَنْشُدُ الحقّ.

وبمناسَبَةِ تَعْلِيم اللهِ رَسُولَهُ أنْ يَقُولَ لَهُمْ هٰذا الْقَوْلَ، أَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ أنّ كَوْنَ رَسُولِهِ بَشَراً هو من الموانِع الّتي مَنَعَتْ هؤلاء المعَالَجِينَ من أَنْ يُؤْمِنُوا بما بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّهِ، وأنَّ هذا المانِعَ نَفْسَه قَدْ كَانَ مَانِعَ كُفَّارِ الْقُرُونِ الأُولىٰ مِنَ الإيمانِ بِرُسُلِ رَبِّهِم، واتّباعِ الْهُدَىٰ الّذِي جاءُوهم به، فقال جلَّ جلالُهُ:

• ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾:

أي: فكان اسْتِكْبَارُهُمْ عَنِ اتّبَاع رَسُولٍ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ، هو المانِعَ لَهُمْ من الإيمان بالحقّ، وقَبُولِ الْهُدَىٰ الذي جاءُوهم بِهِ عن رَبِّهِم[1].

قول الكافرين:

﴿...أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ استفهامٌ إنكاريٌّ، معناه: ليسَ من

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (يس/ ٤١) حول «بيان اعتراض الأمم علىٰ بَشَرِيَّة الرُّسل».

الْمُمْكِن، أو لَيْسَ من المعقول، أو لَيْسَ من الحكمة، أَنْ يَبْعَثَ اللهُ بشراً رَسُولاً، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ مَطْلُوبَاتِهِ مِنْ عباده، وقضايا دينِه الذي اختارَهُ لهم. فَمَنْ يَدَّعِي مِنَ الْبَشَر أنَّه رَسُولُ اللهِ يَحْمِلُ للناسِ رسالة من رَبّه، هُوَ مُدَّعٍ كذَّابٌ، لَهُ غاياتٌ ومَصَالِحُ دُنْيَوِيَّةٌ من إيمان الناس بأنَّه رَسُولُ الله.

وجاء التَّعْلِيم الرَّبَّانِيُّ لِلرَّدِّ علىٰ هٰذِهِ الشُّبْهَةِ، بِبَيَانِ أنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أنْ يكُونَ الرَّسُولُ إلى البشر بَشَراً مِثْلَهُمْ، لَا مَلَكاً كَمَا يَتَوَهَّمُ الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى بَشَرِيَّةِ الرَّسُولِ، فقال اللهُ عزّ وجلّ لِرَسُوله محمَّدٍ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾:

﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: أي: ثابِتِينَ على ظَهْرِ الأَرْضِ مُسْتَقِرِّين، ولَيْسُوا نُورَانِيِّينَ لَا تَجْذِبُهُمُ الْأَرْضُ بِجَاذِبِيَّتها.

وفي الكلام هُنَا عِبَارَةٌ مَطْوِيَّةٌ مَحْذُوفَة لَفْظاً، مُقَدَّرَةٌ ذِهْناً، تقديرُها: وَكَانُوا مَوْضُوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ كالإنْسِ، واقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إرْسَالَ رَسُولٍ إلَيْهِم مِنْ نَوْعِهِمْ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً، لأنَّ الحكْمَة حينئذٍ تَقْتَضِي أنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إلَيْهِم من نَوْعِهِمْ مَلَكاً، لَهُ مِثْلُ صِفَاتِهِمُ الْعَامَّةِ تَمَاماً.

وكذلِكَ حَالُ الْبَشَرِ، تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ السَّنِيَّةُ أَنْ يكُونَ الرَّسُولُ إلَيْهِمْ بَشَراً مِثْلَ سَائِرِ الْبَشَر، غرائِزُه مِثْلُ غرائزهم، وشَهَواتُهُ مِثْلُ شَهَواتِهم، وَحَاجَاتُهُ من الحياة الدّنيا مِثْلُ حَاجَاتِهِم، كالطَّعَام والشَّرَابِ والنّكاح، والْعَمَلِ لاكْتِسَابِ رِزْقِهِ، ونحو ذلك، ليَكُونَ في إيمانه وإسْلَامِهِ وكلّ سُلُوكَاتِهِ حُجَّةً عَلَيْهِم.

فالمعْنَىٰ: لو كان في الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ تَجْذِبُهُمُ الأَرْضُ بِجَاذِبِيَّتها،

تَجْعَلُهُمْ يَمْشُونَ على ظَهْرِهَا مُسْتَقِرِّينَ ثَابِتِينَ، وكانُوا مَوْضُوعِينَ مِثْلَ الإِنْسِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنْيَا، لَنَزَّلَ الله عليهم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً، يُبَلِّغُهم تَعْلِيمَاتِ الدِّين، ومطالِبَ رَبِّ الْعَالَمِين.

وأَتْبَعَ اللهُ عزّ وجلَّ هٰذا التَّعْلِيم بتَعْلِيم آخَرَ يَخْتَصُّ بِكَوْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً صَادِقاً أَرْسَلَهُ رَبُّ العالَمِينَ للنّاسِ أجْمَعِين، فقال اللهُ جلَّ جَلالُهُ:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لمكَذِّبي أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّكَ: إنَّ اللهَ يَشْهَدُ لي بأنّي رَسُولُهُ، وكَفَىٰ باللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَشْهَدُ لي.

كفَىٰ باللهِ شَهيداً: أي: كَفَىٰ الله، فالباء زائدة لِلتَّوْكيد، والْمَعْنَىٰ: أَغْنَىٰ اللهُ حَالَةَ كَوْنِهِ شَهِيداً، طَالِبَ تَثَبُّتٍ من كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ رَبِّهِ للنَّاسِ أجمعين.

وشهادةُ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ، تَظْهَرُ بِمُعْجزَةِ القرآنِ المجيدِ، ثُمَّ بالآيات الخوارق الَّتِي آتاه اللهُ إيَّاها، ومِنْهَا آيَةُ انْشِقَاقِ القَمَر، وآيَةُ الإسْرَاءِ مِن المسْجِدِ الحرام إلَىٰ المسْجِد الأقْصَىٰ والآيات الّتي سَيُؤْتِيه إيَّاها مُسْتَقْبلاً، بَعْدَ إنْزَالِ هٰذا البيان.

وجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿... إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ لإشعار المكَذِّبين بأنَّ اللهَ عَلِيمٌ عِلْماً تَامّاً بِهِم، نَاشِئاً عَنْ خِبْرَةٍ وَرُؤيَةٍ نَافِذَةٍ إلىٰ الأعْمَاقِ، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إلَىٰ التَّوَثُّقِ من كَوْنِ مُحَمَّد رَسُولَ اللهِ، يُهَيّئُ اللهُ لَهُ مَا يُوصِلُهُ إلىٰ الاسْتِيقان بأنَّ مُحَمّداً رَسُولُ رَبِّ العالمي، ومن يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَيْقِنٌ جَاحِدٌ مُعَانِدٌ، يُعَامِلُهُ الله بحَسَب مَا في نَفْسِهِ على وَفْقِ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ.

وَبِنَاءً على عِلْم اللهِ بعبادِهِ عِلْمَ خِبْرَةٍ ورُؤيَةٍ نَافِذَةٍ إلى أَعْمَاقِ السَّرَائِرِ، فإنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ مَنِ اهْتَدَىٰ باختيارِه الحرِّ، ويَحْكُمُ بِضَلالِ مَنْ

ضَلَّ باخْتِيارِهِ الْحُرّ، وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ فَهُو الْمُهْتَدِي حقًّا، وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ، نَالَ عُقُوبَة ضَلَالِهِ بحَسَبِ دَرَكَتِهِ وانْحِطَاطِها في الإثْم والْجُرْم، وَمَهْمَا اجْتَهَدَ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، فإنَّهُ لَنْ يَجِدَ نَصِيراً يَنْصُرُه، وَلَا وَلِيًّا يَتَوَلَّىٰ أَمْرَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، لِيَدْفَعَ أَوْ يَرْفَعَ عَنْهُ عذَابَ اللهِ الّذي يَسْتَحِقُّه بعَدْلِ الله، علَىٰ ما اكْتَسَبَ مِن آثامٍ وجرائم.

دلَّ علَى هٰذِهِ الحقائق قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآيتَيْنِ التاليَتَيْن:

• ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾:

• ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ لَهُ بالهدايةِ، لأنَّهُ كَانَ مُهْتَدِياً فِعْلاً باخْتِيارِه الْحُرِّ، في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا، فَهُو الْمُهْتَدِي حَقًّا، وهُوَ الّذِي يَسْتَحِقُّ ثوابَ المهتدينَ بحَسَبِ دَرَجَتِهِ في الإيمان، والإسلام، وفِعْلِ الصالحات.

ولا أَحَد في الوجود قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُغَيِّرَ حُكْمَ اللهِ فِيه، إذ الْحُكْمُ في الهداية والضَّلَالِ للهِ وَحْدَه لَا شريكَ لَهُ، ولَا مُعَقِّبَ لحكْمِهِ.

حُذِفَتِ الياءُ مِن «المُهْتَدِي» تخفيفاً في اللّفظ وإيجازاً، ولَهُ نظائر في العربية.

و«مَنْ» الشرطيّة من ألفاظ الْعُموم، وهو يشمل كلَّ إنسان يَحْكُمُ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُ بالهداية، وأُعِيد الضمير عليه الإفراد مراعاةً للفظه.

• ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ . . . ﴿٩٧﴾﴾: أي: ومَـنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِم بالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ فِعْلاً باختيارهمُ الحرّ، في رِحْلَاتِ امْتِحانِهِم في الحياةِ الدُّنْيا، فَهُمُ الضَّالُونَ حَقًّا، وكلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ

يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابِ الضَّالِّين بِحَسَبِ دَرَكَتِهِ في الكُفْرِ وارتكاب الآثام والجرائم وفِعْلِ السَّيِّئاتِ الكُبْرَيَات.

ولَنْ تَجِدَ أيُّها الباحِثُ المتَابِعُ لِهَؤلَاءِ الَّذِينَ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِم بالضَّلَالِ، أَوْلِيَاءَ من دُون اللهِ يَنْصُرُونَهُمْ، فَيَدْفَعُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عليْهِمْ، أَوْ شَيئاً مِنْهُ.

ولا أَحَدَ في الوجود قادِرٌ علىٰ أنْ يُغَيِّرَ حُكْمَ اللهِ في واحِدٍ مَا مِنْهُم، إذ الحكْمُ في الْهِدَايَةِ والضَّلَالِ للهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، ولَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه.

أعِيدَتِ الضَّمَائِر هُنَا عَلَىٰ «مَن» الشَّرْطِيَّةِ بالجمْعِ مُرَاعَاةً لمعنَاها.

وجاء هذا التغيير في التّعبيرُ فَنَّا بَدِيعاً، لِمَا في التنويع في الْبَيَانِ مِنْ تَأْثِيرِ يُدْرِكُهُ الْبُلَغاء، ولِأَنَّ الضَّالِّينَ يَحْسُنُ فِي الحديثِ عَنْهُمْ مَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنْ جَعْلِهم رُكَاماً، وإِلْقَائِهِمْ في جَهَنَّمَ إلقاءً كَبّاً فِيه إهانَةٌ وإِذْلال.

أولياءَ: جَمْعُ «وليّ» والمرادُ بِهِ هُنَا النّصِير، قريباً في النّسَب كانَ أمْ غير قريب.

ومن صُور عِقَاب الضَّالِينَ يوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ علَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، وهذا خاصٌّ بِبَعْضِ أحْوَالِهِمْ يَوْمَ الدِّين، جَمعاً بين مُخْتَلِفِ النُّصُوص، فقال اللهُ عزّ وجلَّ:

• ﴿... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا... ﴿٩٧﴾﴾:

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

عُمْياً: جَمْع «أعْمَىٰ» وهو فاقد الْبَصر.

بُكْماً: جمْع «أَبْكم» وهو العاجز عن النُّطْق.

صُمّاً: جَمْع «أَصَمّ» وهو الذي لا يَسْمَعُ الأصوات.

وقد سبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٣٤) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيانٌ تَدَبُّرِيٌّ فيه بَعْضُ تفصيل عن الحشر يَحْسُنُ النَّظرُ فيه[1].

وبَعْدَ الحَشْر والحِسَاب وفَصْلِ القضاء يَكُونُ مَأْواهُمُ الدائِمُ في جَهَنَّم لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِها، فقال اللهُ عزّ وجلّ في تَتِمَّةِ الآيَة:

• ﴿... مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾:

المَأْوَىٰ: المنْزِلُ والمكانُ الّذِي يُنْزَلُ فِيه وَيُسْكَنُ. يقالُ لغةً: «أَوَىٰ المكَانَ يَأْوِيهِ، وأَوَىٰ إِلَيْهِ يَأْوِي» أي: نزَلَ بِهِ وسَكَنَهُ.

جَهَنَّم: اسْمُ علَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النّار الّتي أعَدَّهَا اللهُ عزّ وجلّ لِيُعَذِّبَ فيها الكافِرِينَ والْعُصَاة يَوْمَ الدين. وهو ممنوعٌ من الصَّرْف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ في اللُّغَةِ: جَهَنّم.

خَبَتْ: أي: سَكَنَتْ وخَمَدَ لَهَبُهَا، يقال لغة: «خَبَتِ النَّارُ، تَخْبُو، خَبْواً، وخُبُوّاً» أي: سَكَنتْ وَخَمَدَ لَهَبُها.

سَعِيراً: السَّعِيرُ: النّار، وقيلَ لَهَبُ النَّار.

وفي عبارة: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ دلالَةٌ علىٰ خُلُوهم في جَهَنَّم.

فالمعنى: وَمَكَانُ إقامَةِ الذِينَ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهم بالضَّلالِ يَوْمَ الدِّين الدَّائِمَةِ، يَكُونُ في دار الْعَذَاب جَهَنَّم، الَّتِي تَتَوَقَّدُ النَّارُ ذَاتُ اللَّهَبِ فيها، وكُلَّمَا سَكَنَتْ وَخَمَدَ لَهَبُها زَادَهَا اللهُ عزّ وجلَّ سَعِيراً، لِئَلَّا تَقِلَّ نِسْبَةُ عَذَابِ المعَذَّبِين المجْرِمينَ فيها، إذْ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، ولا هُمْ مِنْهَا مُخْرَجُون.

---

(١) انظر الصفحات من (٤٩١ ـ ٤٩٦) من المجلد السادس.

وبَعْدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ عزّ وجلّ أنَّ مَأْوَاهُمْ جهَنَّمُ، أبَانَ السَّبَبَ الّذي اسْتَحقُّوا بِهِ هٰذا الْعَذَابَ الأليمَ الخالد، فقال تباركَ وتَعالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾:

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ حَشْرُهُمْ يَوْم القِيامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا، وَتَعْذِيبُهُم بَعْدَ ذَلِكَ في جَهَنَّمَ خالدين فيها. و﴿جَزَآؤُهُم﴾ خبَرُ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

أمَّا السَّبَبُ فَهُو يَرْجع إلى عُنْصُرَين:

الأول: أنَّهُمْ كَفَرُوا بآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ، والإعْجَازِيَّةِ، والبيانيّة، والْجَزائيَّة.

الثّاني: أنَّهُمْ كَذَبُوا بالْبَعْث وَيَوْم الدِّين، ولَيْسَ لهم إلّا التعجُّبُ بعِبَارَةِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟. وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ عبارتِهِمْ هٰذِهِ لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (٤٩) من هذه السُّورَة.

وبَعْدَ هٰذا وجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ فِقْرَةً مِنْ فِقَرَاتِ عِلاجِهِمْ، دُونَ أنْ يُواجِهَهُمْ بالخطاب، بَلْ تَحدَّثَ عَنْهُمْ بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائِبينَ، فقال تباركَ وتَعالى:

• ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَةُ بمُقْتَضَىٰ العِلَاج فيها، علَىٰ أنّ المعَالَجِينَ مُعْجَبُونَ بِنُفُوسهم، وبما أُوتُوا مِنْ فِطْنَةٍ وَقُدْرَةٍ علَىٰ الْبَيَانِ، وتَميُّزِ بِصِفَاتِهِم الذَّاتِيّةِ، وهٰذا قَدْ جعَلَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ، وتَنْتَفِخُ صُدُورُهُمْ بالْعُجْبِ، ويَقُولُونَ في نُفُوسِهِمْ: لَا يَلِيقُ بِنَا أنْ نَتْبَعَ رَجُلاً مِنَّا هُو دُونَنَا في المكانةِ الاجْتِماعِيَّةِ، ولَيْسَ عظيماً من عظماءِ قَوْمِنا.

فتَحَدَّث اللهُ عزّ وجلّ عَنهم، مُعْرِضاً عَنْ مُواجَهَتِهِمْ تَصْغِيراً لَهُمْ، وتحْطِيماً لِمَا تَصَلَّبَ مِنْ عُنْجُهِيَّاتهم، فقال تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: أي: أنْطَمَسَتْ بَصائِرُهم، وَسُلِبَتْ فِطْنَتُهُمْ، وَلَمْ يرَوْا بما لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْراتِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ واسْتِنْبَاطٍ.

• ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهُمْ بَعْضُ مَخْلُوقَاتِهِ الكَثِيرَةِ في الأَرْضِ.

• ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: في صِفاتِهِم الذَّاتِيَّة، ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَهُمْ فِي صِفَاتِهِمُ السُّلوكِيَّةِ الاخْتِيَارِيَّةِ، بَلْ سَيَخْتَارُونَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنين مُسْلِمِينَ مُتَّبِعِينَ رَسُولَ رَبّهم.

• ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الّذي خلَقَهُمْ، جَعَلَ لِبَقَاءِ كلّ واحِدٍ مِنْهُمْ في الحياة الدُّنيا أَجَلاً تَنْتَهِي عِنْدَهُ حَيَاتُهُ بالْمَوْتِ، فَهُمْ لَيْسُوا خالِدِينَ في هٰذِهِ الحياة حتَّىٰ يَفْتِنَهُمُ الشُّعُورُ بالْخُلُودِ عَنْ إدراكِ الحكْمَةِ مِنْ خَلْقِهِمْ، وهي امْتِحَانُهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ بينهم، ثُمَّ مُجَازَاتِهِمْ على مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهم، وهذا الأجلُ المحتوم لَا يَشُكُّونَ فيه، إذْ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ احْتِمَالُ الشَّكْ، أَخْذاً مِنْ واقِعِ حَالِ كُلّ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ بَشَرٍ وأَحْيَاءٍ أُخْرَىٰ في الأَرض.

الأجل: يأتي بمعنى غايَةِ الوقْتِ الْمُحَدَّدِ لشيءٍ ما، أو المأذون به، هذا المعنى هو المراد هنا كما هو ظاهر. ويأتي بمعْنَىٰ الوقْتِ المحدَّدِ لحصُول الشيء وابْتِدَاء زَمَانِه. ويأتي بِمَعْنَىٰ المدَّةِ المحَدَّدَةِ للشَّيْءِ والمحصُورَةِ بَيْنَ أوَّلٍ وآخِرٍ.

لاَ رَيْبَ فِيه: أي: لَا يُوجَدُ فِيهِ احْتِمالٌ للشَّكِّ، فلا عُذْرَ لَهُمْ في الطمَعِ في الْخُلُودِ بهٰذِهِ الحياة الدنيا.

• ﴿... فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾: وُضِعَ الوصْفُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موضِعَ الضَّمِير العائِدِ عَلَىٰ المعالَجِينَ، وهُمُ الْجَاحِدُونَ المعَانِدُونَ مِنْ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيش، للدَّلالَةِ عَلَىٰ صِفَةِ الظُّلْم فيهم، الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ كُفْراً مُوغِلاً في ظُلُمَاتِ الجريمَةِ والإِثْمِ والْجُحُود، عَلَىٰ الرُّغْمِ من ظُهُورِ أدِلَّةِ الحقّ.

كُفُوراً: الكُفور: مَصْدَرٌ بمَعْنَىٰ «الْكُفْر» وهو أبْلَغُ مِنَ الكُفْرِ أخْذاً مِنْ زِيَادَةِ المبْنَىٰ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ زيادَةِ المعنى. قال الأخْفَش: **الكُفُور**: جَمْعُ الكُفْر، مِثْلُ بُرْدٍ، وبُرُود.

وبَعْدَ هٰذا عَلَّمَ اللهُ عزّ وجلَّ رَسُوْلَهُ مُعَالَجَةً لَهُمْ، تَتَعَلَّقُ بِتَفْضِيلِ اللهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْق بمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِه في امْتِحَانِهم، وهو مَا جاء بيانُهُ في الآيَتَيْنِ (٢٠ و٢١) وَيَظْهَرُ مِنَ المعالَجَةِ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ فِي مَنْحِ عِبَادِهِ الْأَرْزَاقَ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه:

• ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: إنَّ اللهَ عزّ وجلَّ عظيم الجود، ولَكِنَّ لَهُ حِكَماً فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، وفي التَّوْسِعَةِ علَىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ، والتَّضْيِيق علَىٰ آخَرِين، ضِمْنَ ظُرُوفِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لاخْتِبَارِ النَّاسِ فِيمَا آتَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَحَسَبِ خصَائِصِ نَفْسِهِ، فاللهُ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ لَيْسَ قَتُوراً كَمَا تَتَوَهَّمُون، وعِنْدَهُ الْخَزَائِنُ الّتي لاَ تَنْفَدُ، وهِيَ مِنْ آثَارِ فَيْض عطاءات رَحْمَتِهِ، بَلِ الإنْسَانُ هُوَ الْقَتُور، لَوْ أنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ نَفَادِ الْخَزَائِنِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لا تَنْفَد.

﴿لَّوْ﴾ هُنَا حَرْفُ شَرْطٍ بمنْزِلَة «إِنْ» الشَّرْطِيَّة.

﴿إِذًا﴾: حَرْفُ جوابٍ وَجزاءٍ لِكَلَامٍ سَابقٍ.

﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾: أي: لَبَخِلْتُم فَامْتَنَعْتُمْ عَنِ البَذْلِ والْعَطاءِ.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾: أي: خَوْفَ فَنَاءِ خَزَائِنِ اللهِ الَّتِي لا تَنْفَد.

أَصْلُ معْنَىٰ «الْإِنْفَاقِ» إفْنَاءُ المالِ. ويأتي بمَعْنَىٰ الْفَقْرِ والإمْلَاق، أي: فأنْتُم تَبْخَلُونَ فَتَمْتَنِعُونَ عَنِ الْبَذْلِ خَوْفَ الْفَقْرِ، مَعَ أنَّ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللهِ لَا تَنْفَدُ، وَمَهْمَا بُذِلَ مِنْهَا فإنَّها لَا تَنْقُصُ إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المخْيَطُ مِنَ الْبَحْرِ إِذَا أُدْخِلَ فيه.

﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾: أَيْ: وَالإنْسَانُ بَخِيلٌ بالكَيْنُونَةِ الدائمة.

قَتُوراً: أي: بَخِيلاً.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع عشر من دُرُوس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتَوفيقه وفتحه.

❋ ❋ ❋

(٢٤)
التدبّر التحليلي للدّرس العشرين من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

القراءات:

١٠١ ـ • قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائِيُّ، وَخَلَف: [فَسَلْ] وَصلاً ووقْفاً، وقرأها حمزة كذلِكَ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَاسْأَلْ].

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيّان في فعل الأمْر من «سَأَلَ».

١٠٢ ـ • قرأ الكِسَائِيُّ: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلّم وهو موسى عليه السَّلام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتَ] بِضَمِير المخاطَبِ وهو فرعون.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في بيانِ الواقع الّذي أَجابَ بِهِ موسَىٰ عليه السَّلام، فَقَدْ قَال لِفِرْعَوْنَ: لَقَد عَلِمْتُ، وقال له: لَقَدْ عَلِمْتَ.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس عَرْضُ لقطاتٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام مع فرعَوْنَ وقومه، وَبيان ما انتهوا إليه إذْ أَغْرَقَ اللهُ عزّ وجلّ فِرْعَوْنَ ومَنْ خَرَجَ مَعَهُ لقتال بني إسرائيل الفارّين من مصر بقيادة موسىٰ عليه السَّلام.

وفيه بَيَانُ مَا قالَهُ عزّ وجلَّ لِبَنِي إسْرَائيل مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ، بأمْرٍ تكْوِينِيٍّ جَعَلَهُمْ به مُوزّعين في شَتَّىٰ الأَرْض، ثُمَّ يَأْتِي بهم إلىٰ فِلِسْطِينَ لَفِيفاً، لِيَكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ مُؤَقَّتٌ فِي الأَرْض، ثُمَّ لِيُلَاقُوا مَصِيرَهُمُ الْمَحْتُوم، بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ عزّ وجلَّ فِيهِم.

وآياتُ هذا الدَّرْسِ مَوْصُولَةٌ بِآياتِ الدَّرْسِ الثاني من دُرُوسِ السُّورَةِ، وهو الآيات من (٢ ـ ٨) وَفْقَ الْمَنْهَج المختار في السُّورَة، من تَوْزِيع أجْزَاءِ فُرُوعِ شَجَرتِهَا عَلَىٰ سَاقِها الأَعْظَم الْمُمْتَدِّ ارْتِفَاعاً.

ومن الفروع المجَزَّأةِ الموزعَةِ الحديثُ عن القرآن، والحدِيثُ عن الإنسان. وبيان أدِلَّةِ تَوْحيد الرُّبُوبيَّةِ والإلَهيَّة للهِ الرّب جَلَّ جلاله. وبَيَانُ سُنَنِ اللهِ في عباده في الحياة الدُّنيا. وَوَصَايا اللهِ لمَنْ يَسْتَجيب مِنْ عباده لِدَعْوَةِ الحق. وتَرْبية اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُوله ﷺ. وعِلَاجُ أئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّة. وتَبْشِير الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات. وإنْذارُ الَّذِينَ كَفَرُوا عناداً واسْتِكْبَاراً. إلى غير ذلك من أجزاء فروع شَجَرة مَوْضوع السُّورَةِ، بأسْلُوبٍ عجيبٍ تَكَادُ تَنْفرِدُ به.

التدبُّر التحليلي:

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾:

• ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: تِسْعَ آياتٍ معجزاتٍ خَارِقَاتٍ للنُّظُم الكونيّة الدّائمة، ومِنْها آيتا العصَا والْيَد، وقَدْ سَبَقَ بيانها مُفَصَّلَةً في مواضع، ومنها ما جاء في تدبر الآية (١٢) مِنْ سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: واضِحَاتٍ جَلِيَّات، آتَيْنَاهُ إيَّاها إلى فِرْعَونَ وقَوْمِهِ.

• ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: الّذِي أراهُ أنَّ هـذا الأمْرَ بالسُّؤَالِ مُوَجَّهُ بالْخِطَاب الإفْرادِيّ، لكلِّ واحِدٍ من المعَالَجِينَ فِي السُّورَة، وهُمْ كُبَراء مُشْرِكي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، الَّذِين ألَحُّوا على الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَطالِبِهِمُ التَّعَنُّتِيَّة لآيَاتٍ خَارِقَاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، ومِنْهَا مَا جاء بيانُهُ في الآيَاتِ من (٩٠ ـ ٩٣) من السُّورَة، وهم في الحقيقة غَيْرُ مُسْتَعِدّين للإيمان والإسلام، مَهْمَا آتَىٰ اللهُ رَسُولَهُ من آياتٍ خوارقَ مَادِّيَّة،

وَحَالُهُمْ العنادِيُ كحالِ فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ وجُنُودِه، الَّذِين أَهْلَكَهُمُ اللهِ بالْغَرَق، وَهُمْ يُتَابِعُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ دَخَلُوا في طَرِيق الْبَحْر الّذِي فَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عَلَيْهِ السّلام، وليس الأمْرُ بهذا السّؤال مُوَجَّهاً للرّسُول ﷺ.

وأمْرُ السَّائل مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيل، لأَنَّهُمْ كانُوا عَلَىٰ صِلَةٍ بِيَهُود الْمَدِينَةِ وَأَحْبَارِهم، وهُمُ الَّذِينَ أَشَارُوا عَلَيْهِمْ بأَنْ يَسْأَلُوا الرَّسُول محمّداً ﷺ عَنِ الرُّوحِ، كما سَبَقَ بَيَانُه.

والمعنىٰ: وإذا كُنْتَ أَيُّها المتعنّتُ شاكاً في خَبَرِنَا في الْقُرآن عَنْ إيتائِنا مُوسَىٰ تِسْعَ آياتٍ كبِيرَاتٍ، فَكَذَّبَ بها فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، وتَبِعَتْهُمْ جُنُودهُمْ في التَّكْذِيب، فاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ هٰذا النَّبَأ، فهذا مِنَ الأَمْثِلَةِ الواقِعِيَّةِ في النَّاسِ الّتي جَعَلَتْنَا لَا نَسْتَجِيبُ لمطالِب كُبَراء كُفّار قُرَيشٍ، بشَأْنِ إجراء آياتٍ مَادِّيَّاتٍ شاهداتٍ للرَّسُولِ محمّد بِصِدْقِهِ في نُبُوَّتِهِ وَرِسالَتِه، كَمَا سَبَقَ أَنْ قُلْنَا فِي هٰذِهِ السُّورَة:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ... ﴿٥٩﴾﴾.

• ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾: أي: في وقْتِ أنْ جَاءَ مُوسَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بآياتِنا التِّسْعِ الْبيِّنات، أُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَىٰ مُلاَحَظِين ذِهْناً غير مَذْكُورِينَ لفظاً، وَيَدُلُّ عَلَيْهِمُ السِّيَاق.

﴿...فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾: الظَّاهر أنَّ هٰذا الْحِوَارَ بين فِرْعَوْنَ وَمُوسَى قَدْ كَانَ فِي أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام الدَّعَوِيَّةِ في مِصْر، وَبَعْدَ أَنْ أجْرَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُ الآيَاتِ التِّسْعَ كُلَّها، ولم يَكُنْ باسْتِطَاعَةِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَتَّهِمَ مُوسَىٰ بالجنُونِ حِينئذٍ، وَلَا أَنْ يَقُولَ لَهُ جَازِماً: إِنَّكَ مَسْحُورٌ، تُؤَثِّرُ عَلَيْكَ أَعْمَالُ السَّحَرَةِ فتَجْعَلُكَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَات لَيْسَتْ صَادِرَاتٍ عَنْ إِرَادَتِكَ الواعِيَة، إِذْ وَصَلَ فِرْعَوْنُ إِلَىٰ حَالَةِ استيقانٍ تامٍّ بصِدْقِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ علَيْهما السَّلام، وأنَّهُمَا رَسُولانِ مِنْ رَبِّ

العالَمين، إلَّا أنّه كانَ مُستَكْبراً مُكابراً مُعَانداً جَاحِداً، فقالَ لِمُوسَىٰ عليه السَّلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

فأجابَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام دُونَ مُدَارَاةٍ له بما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: و﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾. وسبق بيان الحكمة من القراءتين، وأنّ بَيْنَهُما تكاملاً في أداء المعنى المراد.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: هـٰؤلَاءِ الآياتِ التِّسع.

﴿بَصَآئِرَ﴾: جمْعُ «بَصِيرَة» وهي هُنَا الحجَّةُ والْبُرْهَان.

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: هَالِكاً بعُقُوبَةٍ من الله لك. يقال لغة: «ثَبَرَ فُلَانٌ، يَثْبُرُ، ثَبْراً، وثُبُوراً» أي: هَلَكَ. ويُقَال: «ثَبَرَهُ اللهُ» أي: أهْلَكَهُ.

المعنىٰ: أُؤَكِّدُ لَكَ يَا فِرْعَوْنُ أنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ كما أنَا أَعْلَمُ أن هـٰؤلَاءِ الآياتِ التِّسع الّتي جرَتْ في مصْرَ خِلَالَ سِنين، مَا أنْزلَها إلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ بقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِه، لتَكُونِ حُجَجاً وبَرَاهِينَ على أنّي وَأخي هَارُونَ رَسُولَانِ مَبْعُوثَانِ إلَيْكُم، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بها جُحُوداً واسْتِكْبَاراً.

وواقِعُكُمْ هـٰذا يَسْمَحُ لي بأنْ أظُنَّ ظنًّا رَاجِحاً قَوِيًّا، بأنَّكَ يَا فِرْعَوْنُ هَالِكٌ عُقُوبَةً رَبَّانِيَّةً لَكَ، وَتحقيقاً لسُنَّةِ اللهِ في عباده، ما لَمْ تَتَدَارَكْ نَفْسَكَ بالإيمان باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وبِعَمَلٍ صَالحٍ يُثْبِتُ صِحَّة إيمانِكَ وإسلامِك.

لَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أصَرُّوا عَلىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، ولَجَؤُوا إلَىٰ اتِّخاذِ تَدْبيراتٍ يُخْرِجون بها بَنِي إسْرَائيل، من مكان تجَمُّعِهِمْ، وهي أرْضُ جَاسَان، وكانت أرضاً خِصْبَةً جَيِّدَةً، أنْزَلَهُم فيها يُوسُفُ عليه السَّلام، حِينَ

قَدِمُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَان، ويُوَزِّعُونهم مُفرَّقين فِي أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّىٰ لَا تكُونَ لَهُمْ قيادَةٌ تَجْمَعُهم، ولَا أَرْضٌ وَاحِدَةٌ تَجْعَلُ مِنْهُمْ وَحْدَةً مُتَمَاسِكَة. وَقَبلَ تَنْفِيذِ هـٰذِهِ المكيدة، أَمَرَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائيل بالخروج من مِصْرَ لَيْلاً في اتّجاهِ سيناء، دُونَ أَنْ يُشْعِرُوا المصْرِيينَ بخُرُوجهم، ولمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه بالأمْرِ دبَّرُوا خُطَّةَ اللَّحَاق بهم بجَيْشٍ مَقَاتل، فكانَت عَاقِبَةُ أمْرِهم إغراقاً في مكان عُبُورِ بني إسرائيل في الْبَحْرِ.

وفي تَعْبِير موجَزٍ عَنْ هـٰذا الحدث قال اللهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

﴿فَأَرَادَ﴾: أي: فِرْعَوْنُ، ويُلْحَقُ بِهِ مَلَؤُهُ ورِجالُ مَشُورَته.

﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: أي: أَنْ يستخرجَهُمْ من الأرض التي يَسْكنونها، ويُوزِّعَهُمْ في شَتَّىٰ أَرضِ مِصْر، ويَسْتَخِفَّهُمْ بالمزعجات والمخِيفَات حتَّىٰ يخْرُجُوا من أرْضِ جاسَانَ الَّتي يسْكُنُونها وَيَتَوَزَّعُوا في شَتَّىٰ أَرْضِ مِصْرَ أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ.

ولا أرىٰ أنّ فِرْعَونَ قَدْ أرادَ إخراج بني إِسْرَائيل من مِصْرَ كُلِّها، لأنَّ هـٰذا أَحَدُ مَطَالِبِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام من فِرْعُون، إلَّا أنَّ فِرْعَوْنَ كانَ يَرْفُضُها دَوَاماً، لِئَلا يحْرم المصْرِيين من عبيد أذِلَّاءَ مضطهَدِين، والأخْطَرُ مِنْ هـٰذا تَخَوُّفُهُ مِنْ تَكْوِينِ جَيْشٍ خارِجَ مِصْر، ثُمَّ عَوْدَتِهِمْ مُقَاتِلين أشِدَّاء، لِيَنْتَزِعُوا مُلْكَ مِصْرَ مِنَ الأُسْرَةِ الحاكِمَةِ وأنْصارِهَا وجُنُودِها.

﴿. . . فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾: أي: فَكَانَتْ عاقِبَةُ فِرْعَوْنَ ومَنْ خَرَجَ مَعَهُ لِيُقَاتِلُوا بَنِي إِسْرَائيل، ويُعِيدُوهم إلى الذُّلِّ والتَّسْخِير والاستِعْبَادِ، أَنَّ اللهَ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّته أَغْرَقَهُمْ جَمِيعاً.

وقد سَبَق تَفْصِيلُ هـٰذا الْحَدَثِ، لَدَىٰ تَدَبُّرِ لَقَطَاتٍ سَابِقَاتٍ في نُجُومِ التَّنْزِيل، مِن قَصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِه.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

الّذي ظَهَرَ لي من جَمْعِ النُّصُوصِ الْقُرآنيَّة المتَعَلِّقَةِ بِبَنِي إِسْرَائيل، وتَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، أنَّ هٰذِهِ الآيَة تَدُلُّ على قَدَرِ اللهِ وقضَائِهِ في بَنِي إِسْرائيلَ إبَّانَ أواخِرِ وُجُودِهِم الماضِي في فِلْسْطين وُجُوداً مُقْتَرِناً بإفسادٍ وعُلُوّ فيها، وقُبَيْلَ حُكْمِ الرُّومَانِ لها، إذْ دَخَلَتْ تحت سُلْطانِ الرُّومانِيّين سنة (٤٠) ق.م كما سَبَقَ بَيَانُهُ في الدرس الثاني من دُروس السُّورَة.

والقولُ الرَّبَّانِيُّ الّذِي جاء في هذه الآية أَمْرٌ قَدريٌّ قضائي بتَشْتِيت بَنِي إِسْرَائِيل في بُلْدَانِ الأرْضِ كلّها شَرْقِها وغَرْبها، وإخْرَاجِهم إلّا قَلِيلاً مِنْهُمْ من أرْضِ فِلِسْطِين، كما سَبَقَ أن أَوْضَحْتُهُ لدىٰ تَدَبُّرِ الآيتين (٤) و(٥) من هذه السّورة.

• ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾:

أي: وقُلْنَا مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وآثار دَعْوَتِهِ الّتي امْتَدَت حتَّى قُبَيْلَ بِعْثَةِ عيسَىٰ عليه السَّلام، بأمْرٍ قَدَرِيٍّ قَضَائيٍّ مُشَتِّتٍ لِبَنِي إِسْرَائيل، اسْكُنُوا الْأَرْضَ مُشَتَّتِينَ فيها خَارِجَ أَرْضِ فِلِسْطِينَ، الَّتِي أَسْكَنَّاكُم فيها لِتُقِيمُوا الدِّين، فَعَلَوْتُمْ فِيها مُسْتَكْبِرِينَ ومُفْسِدين، وكُنْتُمْ في الدِّين مِثالاً سيّئاً للتَّحْرِيفِ والفِسْقِ والْفُجُور، والْبَغْي والطغيانِ، والظُّلْمِ وابْتغاءِ الإفْسَادِ في الْأَرْضِ، وارْتكاب الشُّرُور بغُرُور.

• ﴿... فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: فإذا جاءَ وَعْدُ المرَّةِ الآخِرَةِ الَّتِي قُلْنَا لَكُمْ فيها: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ جئنَا بِكُمْ مِنْ أَشْتَاتِ الْأَرْضِ إِلَىٰ فِلِسْطِينَ لَفِيفاً، لِتَنَالُوا عُقُوبَةَ رَبّكُمْ في فِلَسْطِينَ، بأيْدِي عِبَادٍ لَنا مُؤْمِنين

مِسْلِمينَ، يَسُوؤُون وُجُوهَكُمْ، ويُحَطِّمُونَ مَا عَلَوْهُ مِنْ مُنْشَآتِكُمْ تَحْطِيماً، كما قُلْنَا لَكُمْ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾:

﴿لَفِيفًا﴾: **اللّفِيفُ**: مَا اجْتَمَعَ من النَّاسِ من أخْلَاطٍ شَتَّىٰ، ومِنْ قبائلَ شتّى.

وظاهِرٌ أنَّ اجتماعَ اليهود في هذا الْعَصْر في فِلَسْطِينَ منَ الشَّرْقِ والْغَرْب، ومِنْ كُلّ بلاَد الشَّتَاتِ، تَحْقِيقٌ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ بأنْ يأتِيَ بهم لَفِيفاً، لِيُلاقُوا مَصِيرَهُمُ المحْتُوم، ولَم يَجْتَمِعُوا مِثْلَ هذا الاجْتِماعِ قَبْلَهُ في تاريخهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس العشرين من دُروسِ سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٥)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الحادي والعشرين من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠٥ ـ ١١١) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾:

القراءات:

١١٠ - • قرأ عَاصم، وحَمْزَةُ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ بِكَسْرِ اللام من «قُلِ» وكسر الواو من «أوِ» في الوصل.

وقرأها يَعْقُوب، بكَسْرِ اللام من «قُلِ» وَضَمّ الواو من «أَوُ» وصلاً وقَرأها بَاقِي القراء العشرة بضَمِّهِمَا وَصْلاً.

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ فِي النُّطْق.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس مُتَابَعَةُ حَدِيثٍ عَن القرآن، وتعليمٌ للرَّسُول ﷺ مَا يقولُهُ للمشركين المعانِدِين المكابرين الجاحِدِين.

وفيه ثناءٌ عَلَىٰ الَّذِين يُؤْمِنُونَ بالقرآن وبالرَّسُول من أهْلِ الكتاب.

وفيه توجيهٌ للدُّعَاء بأسْمَاءِ اللهِ وصفاته.

وفيه توجيه لأدب مقدار رَفْعِ الصَّوْتِ في الصلاة.

وخُتِمَتِ السُّورةِ بقول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله فَلِكُلّ مُسْلم.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾:

هاتان الآيتان مَوْصلَتَانِ بمَا جاء في السُّورَةِ بشَأْنِ القرآن، وبشَأْنِ الرَّسُول ﷺ.

فَمِنْ تَتمَّاتِ الحديثِ عن القرآن بَيَانُ قَضِيَّتَيْن:

القضِيَّةُ الأُولَىٰ: أنَّ كُلَّ مَا فِيهِ حَقٌّ مُطَابِقٌ للواقِع، ومُطَابِقٌ لِمَا شَرَعَ اللهُ لعِبادِه في الدِّينِ الخاتِم لِرِسَالَاتِهِ للنَّاسِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، وطَلَبَ مِنْهُم أَنْ يَعْمَلُوا بها وَيتّبِعُوا مَا جَاء فيها.

فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ لَدُنْهُ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلَا شَيْءَ فِيه مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ، وحَمَلَهُ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، وبَلَّغَهُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبّه، حَرْفاً بِحَرْفٍ، وكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بِآيَة، فَنَزَلَ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ وَوَصَلَ إِلَىٰ الرسُول محمّد ﷺ متَّصِفاً بالْحَقِّ، وهٰذا من الأدِلَّةِ الواضِحَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ كلامُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، إِذْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ الباحِثُونَ فيه اخْتِلَافاً كثيراً بَيْنَ بَيَانَاتِهِ وبَيْنَ الْحَقِّ.

دلَّ على هذه القضِيَّة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾: أعيد الضّمِير على القرآن مع وجود فاصلٍ بين هذه الآية وبين الآية (٨٨) الّتِي جاء فيها ذِكْرُ القرآن، لأنَّ الْفِعْلَ في أَنْزَلْنَاهُ مع دَلَالَةِ كَوْنِ الإِنْزَال بالحقّ، يَدُلُّ بوضوحٍ على أنَّ المراد القرآن.

القضِيَّة الثانية: جاء فيها بيان عُنْصُرٍ من عناصر حِكْمَةِ اللهِ في إِنْزَالِ الْقُرْآنِ نُجُوماً مُفَرَّقة، وعَدَم إِنْزَالِهِ جُمْلَةً واحِدَةً فِي وقْتٍ واحِدٍ.

وجاء هٰذا الْبَيَانُ تَفْصِيلاً لِعُنْصُرٍ ذُكِرَ مُجْمَلاً في سُورَةِ (الفرقان/ ٤٢ نزول) إجَابَةً على اعْتِرَاض الّذين كَفَرُوا عَلَىٰ إِنْزَالِ القرآن مُفَرَّقاً، وعَدَم إِنْزَالِهِ جُمْلَةً واحِدَة، فَقَدْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾:

هاتان الآيتان اشْتَمَلَتَا عَلَىٰ بَيَانِ حِكَم ثَلَاثٍ لِتَنْزِيل الْقُرْآنِ مُفَرَّقاً،

سَبَقَ تَدَبُّرُها وشَرْحُهَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ الْفُرْقَان، إلَّا أنَّ عِبَارَة: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قَدْ جَاءَتْ فيهما مُجْمَلَةً غَيْرَ مُفَصَّلَة.

وعَلَىٰ وفْقِ مَنْهَجِ الْقُرْآنِ في تَوْزِيعِ بَيَانَاتِه نُلَاحِظُ أنَّ قَوْلَ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الإسراء) الجاري تَدَبُّرهَا خطاباً للرَّسول:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿فَرَقْنَٰهُ﴾: أي: جَزَّأْنَاهُ، وَفَصَّلْنَاهُ، وبيَّنَاهُ، أصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْقِ الْفَصْلُ بَيْنَ الشيئَيْن أو الأشياء، وتَمْيِيزُ بَعْضِها عَنْ بعض، وأَوْضَحُ صُورِ هٰذا الْفَصْلِ والتمييز أنْ يُنَزَّلَ الكِتَابُ عَلَىٰ مراحِلَ زَمنيَّةٍ مُتَفَاصِلَةٍ مُتَبَاعِدة.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: علَىٰ تَمَهُّلٍ، وتَوَقُّفٍ وانْتِظَارٍ، رَيْثَمَا تَثْبُتُ مَعْرِفَةُ الْقِسْمِ المنزَّل.

يُقَالُ لُغَةً: «مَكَثَ بالمكان يَمْكُثُ، مُكْثاً، ومُكُوثاً» أي: تَوقَّفَ وانْتظَرَ.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾: أي: ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً بأناةٍ وتَمَهُّلٍ وَتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنَزَّلُ مِنْه، فالتَّوْكيد بالْمَفْعُولِ المطلَقِ للإشارَةِ إلى نَوْعِ التَّنْزِيل، وهو التَّنزيل بأناةٍ وتَمَهُّل.

ومِنْ تَتِمَّاتِ الْحَدِيث عَن الرَّسُول ﷺ، جاءت عِبَارَةُ: ﴿...وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

هذه العبارة جاءَت تَوْكيداً مُطَابقاً لِمَا جاء في الآية (٥٦) من سُورَةِ (الْفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وأُعِيدُ هُنَا ما سَبَقَ أنْ ذَكَرْتُهُ في تَدَبّر سورة (الفرقان) فأقول:

في هٰذِهِ الجملَةِ حَصْرٌ لإرسالِ الرَّسُولِ بالتَّبْشِير والإنْذار، ولكِنْ لَمَّا كان التَّبْشِير والإنْذَارُ إنَّما يَكُونَانِ بَعْدَ سِلْسِلَةِ أعْمَالٍ يَقُومُ بها الرَّسُول ﷺ،

يَبْرُزُ مِنْهَا التَّبْليغ والتعليم والإقْناعُ والصَّبْرُ علَىٰ الْأَذَىٰ، واتّخاذُ كُلِّ الْوَسَائِلِ الّتي يُرْجَىٰ بِهَا اسْتجابَةُ المَدْعُوِّين عَنْ طَرِيقِ اخْتيارِهِم الحرّ، فإنَّ حَلَقَاتِ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ السَّابقَةِ للتَّبْشِير والْإِنْذَارِ دَاخِلَةٌ فِي المحْصُورِ بأدَاةِ الْحَصْرِ «ما» و«إلّا».

وَقَدْ دَعَا إلَىٰ إعَادَةِ هٰذا البيان الذي سبَقَ إنْزَالُهُ في سُورَةِ (الْفُرْقَان/ ٤٢ نزول) لأنَّ المعالَجين في السُّورَةِ مَا زَالُوا عِنْدَ مَوقِفِهِمْ السَّابق، فالمناسِبُ لعنادهم بيانُ أنَّهُمْ لَا يَلِيقُ بهم أَوْ بأَكْثَرِهِمْ إلّا الإنْذَارُ بِعَذَاب اللهِ، وإنْزَالِ نِقْمَتِهِ فيهم، ولا سيما قولهم الذي جاء بيانُهُ فِي السُّورَة، إذْ قالوا للرَّسُول: لَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله مُعَلِّماً بَعْضَ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ:

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: قُلْ لهٰؤلَاءِ المعالَجين، وهم أَئِمَّةُ الكُفْرِ العناديّ الجحودي في مكّةَ إبّان التنزيل، آمِنُوا بالقرآن أو اكْفُرُوا به، أنْتُمْ بالخيار، إنَّ إيمانَكُمْ لَا يَنْفَعُ رَبَّكُمْ شَيْئاً، وإنَّ كُفْرَكُمْ لَا يَضُرُّ رَبَّكُمْ شيئاً، بلْ إيمانُكُمْ يَنْفَعُكُمْ أَنْتُمْ، وكُفْرُكُمْ يَضُرُّكُمْ أَنْتُمْ، وَمِنَ الخير لَكُمْ أَنْ تَسْبِقُوا غَيْرَكُمْ إلى الإيمان، إذِ اخْتَارَ اللهُ الرَّسُولَ الْخَاتِمَ الْمُبَشَّرَ بِهِ في كُتُبِ أَهْلِ الكتاب مِنْكُمْ عَرَبِيًّا قُرَشِيًّا.

واعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الكِتَابِ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بقضايا الدِّين من قَبْلِكُمْ، وجَاءَتْ في كُتُبِهِمْ المبشِّرَاتُ بأخْبَارِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ، وبِصِفَاتِهِ المنْطَبِقَةِ عَلَىٰ مُحَمّد، سَيُؤْمِنُونَ بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً، وإذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ

يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّداً، ويَقُولُونَ تَنَزَّهَ رَبُّنَا عَنِ الإخْلَافِ فِيما وعدَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيل، فَلَقَدْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنا بِبِعْثَةِ الرَّسُولِ المخلِّصِ الخاتِم مَفْعُولاً حَقًّا، بإرْسَالِ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللهِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ المجيد عليه، ويَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَزَادَهُمُ الْقُرآن خُشُوعاً.

وهٰذا إخبارٌ قُرْآنِيٌّ عَنْ مُسْتَقْبَلٍ قَدْ تَحقَّقَ فيما بَعْد، ورُبَّمَا عَنْ وَاقِعٍ حَصَلَ في الحَبَشَةِ، حِينَ سَمِعَ بَعْضُ قَسَاوِسَةِ النصارى ورهبانهم القرآن من بعْضِ الّذينَ هَاجَرُوا مِنَ المسْلِمِينَ إليها، وما زَالَ يتحقَّقُ ولَنْ يَزَالَ.

ومن الّذِينَ تحقَّقَ فيهم هٰذا الوصْفُ الّذِينَ أنْزَلَ اللهُ فيهم قولَهُ في سُورَة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وهم من النصارىٰ:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾.

ولا أرَىٰ حَاجَةِ إلى ذِكْرِ رِوَايَاتٍ عَنْ أشخاصٍ بأعيانهم، لم تأتِ بأسانيد صحيحة، فالّذِين أسْلَمُوا مِنْ أهْلِ الكتاب، وتَحقَّقَ فِيهم الْوَصْفُ القرآني، عَبْرَ التاريخ كَثِيرُونَ جدّاً، ولَا يَزَالُ يَتَوَافَدُ إلى الإسْلام من أهْلِ الكتاب كثيرون، ويخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّداً، ويَقُولُونَ: سبحان رَبّنا لَقَدْ كَانَ وعْدُ رَبِّنا مَفْعُولاً، وهم يَبْكُونَ ويَزِيدُهُمُ القرآنُ إذا تُلِيَ عَلَيْهِم خُشوْعاً.

• ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: ذكَرَ المفسِّرُونَ أن «اللّام» في ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ هي بمعنى «عَلَىٰ». والّذي أرَاهُ أنّهُ لَا دَاعِي لإخراج اللّام هنا عَنْ مَعْنَىٰ انْتِهَاءِ الْغَايَةِ، فالْخُرُور تَكُونُ نهايَتُهُ وُقُوعاً على مَكان السُّجُودِ لَا على الأذْقان، وإنَّما يَكُونُ انْتِهَاءُ الْخُرُورِ عنْدَ وُصُولِ الأذْقَانِ لمكانِ السُّجود.

الأذقان: جمع مفردُهُ: «الذَّقَن» وهو مجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ من أسْفَلِهما.

سُجّداً: جمع «سَاجِدٍ» وغاية السُّجُود يَكُونُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ على مكان السُّجود من الأرْضِ.

• ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾:

أي: ويقُولُونَ: تَنزَّهَ رَبُّنَا عَنْ إخْلَافِ وَعْدِه الّذِي ذَكَرَه في كُتِبنا، بشَأْن الرَّسُولِ الخاتم، فَقَدْ تَحقَّقَ بإرْسَالِ مُحَمَّدٍ خاتم الأنبياء والمرسلين، وبإنْزَال القرآن المجيد عليه.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾:

الْخُشُوع: الخضوع، والسُّكون، والخوف.

أي: وإذا تُلِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، يَخِرُّون لِلْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ يَبْكُونَ تَأَثُّراً بِتَذَلُّلِهِمْ لِرَبِّهِم جلَّ جلَالَهُ، وسُروراً بِتوفِيقِ اللهِ لَهُمْ، إذ هداهم إلى الإيمان والإسلام، ويَزِيدُهُم القرآن خُضُوعاً، وسُكُوناً، وخَشْيَةً مِنَ الله رَبّهم جلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، وطُمَأْنِينَةً لِوَعْدِهِ الكريم بجَنّات النعيم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾:

جَاءَ في الآية (١١) قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ﴾.

وَجاء في الآيَتَيْن (٥٦) و(٥٧) بيانُ أنَّ دُعاءَ المشْرِكِين آلِهَتَهُمْ من دُون الله، دُعَاءٌ ضَائِعٌ لَا يُجدِي شيئاً، أمَّا الَّذِينَ يَنْفَعُهُم الدُّعاء، فهم الّذِينَ يَدْعُونَ الله وَيَبْتَغُونَ إلَيْهِ الْوَسِيلَة.

فكان من المنَاسِبِ في أَوَاخِرِ السُّورَةِ بَيَانُ أنَّ الدُّعَاء يكُونُ باسْمه «الله» ويكُونُ باسْمِه «الرَّحْمٰن» وَيكُونُ بأيّ اسْم من أسْمَائِهِ الحسنى.

وَجَاءَ تخصيصُ اسْم اللهِ «الرحْمٰن» لأنَّ مُشْرِكي مكَّةَ كانُوا يُنكرون أَنْ يكون هذا الاسم من أسْماءِ اللهِ الحسْنَىٰ، إذْ هُمْ يُنْكِرُونَ اتّصَافَ الله عزّ وجلّ بالرَّحْمة، وسبَقَ بَيانُ هذا بتفصيل لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (٦٠) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول).

وروى مكْحُول: أنَّ رَجُلاً مِنَ المشركين سَمِعَ النبيَّ ﷺ، وهو يقول في سُجُودِه: «يَا رَحْمٰنُ يَا رَحِيمٌ» فقال: إنَّهُ يَزْعُمُ أنَّهُ يَدْعُو واحداً، وهو يَدْعُو اثنين، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ... ﴿١١٠﴾﴾.

وكَذَا رُوِيَ عن ٱبْن عباس[1].

﴿أَيًّا مَّا﴾: «أيًّا» اسْمُ شَرْطٍ مُبْهَمٌ يَجزم فعلَيْن، وهو مَنْصُوب بفعل الشرط في: ﴿تَدْعُوا۟﴾ و﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الفاء واقعة في صَدْر الجملة التي هي جواب. «مَا» مقترنة بلفظ «أي» لتوكيد الإبهام فيها.

والمعنى: أيًّا من اسْمَي الله والرَّحْمٰنِ وكَذَا سَائِرُ أَسْمَاءِ الله يُطْلَب الدُّعَاءُ به، فلِلَّهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ، فَادْعُوه بها، والمدْعُوُّ بها وَاحِدٌ، سواءٌ أُذْكِرَ الاسْمُ مِنْها وَحْدَه، أمْ ذُكِرَ مَعَهُ غَيْرُهُ من أسْماء الله عزّ وجلّ، فكُلُّهَا حُسْنَىٰ، لِمَا تَتَضَمَّنُ مِنْ وَصْفِ اللهِ بصِفَاتِ الكمال الّتِي تليقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطَانه.

وبمناسَبَةِ فَرْضِ الصّلَواتِ الخمس في لَيْلَةِ الإسراء والمعراج، كما هو المفهوم من الآية الأولى في السورة مع مَا وَرَدَ في السُّنَةِ عن المعراج، وبمنَاسَبَةِ ما جاء في الآيتين (٧٨ و٧٩) من إشارة إلَىٰ الصلوات الخمْس المفروضة، وإلى أَوْقَاتِها، وأمْرٍ للرَّسُول بالتهجّد من اللَّيل، كَانَ من المنَاسِب توجيه التَّعْلِيم إلَىٰ الأدَب في نِسْبَةِ ارْتِفَاعِ الصَّوْت وانْخِفَاضِهِ،

(١) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: رواهُما ابْنُ جَرير.

عند تِلاوة الْقُرْآنِ فِي الصَّلاةِ، وعِنْدَ الذِّكْرِ والدُّعَاءِ فيها، فجاء في هذه الآية قول اللهِ عزّ وجلّ لرسوله فلِكُلّ مُسْلِمٍ يُصَلِّي:

• ﴿...وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

• ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أي: وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ عِنْدَ تِلَاوَاتِكَ الْقُرْآنَ في صَلاتك، وعِنْدَ نُطْقِكَ بالْأَذْكار والأدْعية فيها.

يُقَالُ لُغة: «جَهَرَ بالْكَلَام ونَحْوِه، يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهَاراً» أي: أعْلَنَهُ، ويكُونُ هـٰذا بِرَفْعِ الصَّوْت.

• ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أي: ولَا تَخْفِضْ صَوْتَكَ في صَلاتِكَ إلى مُسْتَوىٰ الإسْرَار والإخفاء.

يقال لغة: «خَفَتَ الصَّوْتُ، يَخْفِتُ، ويَخْفُتُ، خَفْتاً، وخُفُوتاً، وخُفَاتاً» أي: انْخَفَضَ انْخِفَاضاً شَبِيهاً بالإسْرار. ويقال: «خَافَتَ، يُخَافِتُ بِصَوْتِه» أيّ: خَفَّضَهُ وأسَرَّه.

• ﴿... وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾: أي: واطْلُبْ بَيْنَ الْجَهْرِ بالصَّوْت في الصَّلاَةِ وبَيْنَ المخافَتَةِ فيها طَرِيقاً وَسَطاً بَيْنَها.

ويَظْهَرُ أنَّ هـٰذا السبيلَ الوسَط بَيْنَ الأمْرَين، هو مَا يُسْمِعُ به المصَلِّي نَفْسَه، وأُذُنَ الْقَرِيبِ جدًّا منه.

ويَبْدُو ولي أنّ هـٰذا التعليم، قَدْ كَانَ فِي مكَّة قَبْلَ التَّشْرِيعِ بالْجَهْرِ بالتِّلاوَةِ في الركْعَتَيْنِ الأولَىٰ والثانِيَة من الصّلَوات الجهريّة، وهي (المغرب والعشاء والفجر وركعتا الجمعة) أمّا التّلاوَة والأذكارُ والأدْعيَة في غير التّلاوَةِ الّتي شُرِعَ الجهْرُ بها في الصَّلاَة فَقَدْ بَقِيَتْ علىٰ أنَّ الأدَبَ فيها أَنْ تَكونَ وَسَطاً بيْنَ الْجَهْرِ والمخافتة.

ولعلَّ ظروف الْعَهْدِ المكيّ الاجْتماعيَّة، كَانَ يُلائمها التعليم الّذِي أَبَانَهُ اللهُ عزّ وجلَّ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ سُورَةِ (الإسراء).

أمّا الذِّكْرُ ومنه الدُّعاء في غير الصلاة، فَقَدْ سَبَقَ بيانُ الأدَب فيه، في سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) بقَوْل اللهِ عزّ وجلّ فيها خطاباً للرّسُول ﷺ فلكُلّ مُسْلمٍ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

وَقد سبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعها من سُورَةِ (الأعراف).

وَخَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ سُورَة (الإسراء) بالأمْرِ الموجَّهِ للرّسُولِ ﷺ فلِكُلّ مُؤْمِنٍ مسلم:

• ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾:

وَرَدَ عن النبيّ ﷺ أنّ هٰذِهِ الآيَةَ آيَةُ العزّ.

أخْرجَ الإمامُ أحْمَدُ والطبرانيُّ عَنْ مُعاذ بْنِ أنَسٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«آيَةُ الْعِزّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ إلى آخر الآية.

وأبان «محمد بْنُ كعب الْقَرَظِي» الحَكْمَةَ مِمَّا جاءَ مِنْ تَنْزِيهِ للهِ عزّ وجلَّ في هٰذِهِ الآية، على ما رَوىٰ ابْن جرير، وابْنُ أبي حَاتم، أنَّهُ قال:

إنَّ الْيَهُودَ والنَّصارَىٰ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً. وقالَتِ الْعَرَبُ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إلّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وقال الصَّابِئُونَ والمجُوسُ: لَوْلَا أَوْلِيَاءُ اللهِ هٰذِهِ لَذَلَّ، فأنْزَلَ اللهُ هٰذِهِ الآية.

أقول: هذه الآية الّتي خَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ بها سُورَة (الإسْرَاء) تَتَضَمَّنُ الْوَصِيَّةَ بإعْلانِ قَضَايَا مِنْ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّة، لتَأْصِيلها، ورَبْطِ الفروع الْإِيمانيَّة والإسْلاميَّة بِهَا، وَرَدِّ عَقَائِدِ الْكَافِرِينَ المخالِفَةِ لها.

• ﴿وَقُلِ﴾: أي: وقُلْ يا محمَّدُ، ويَا كُلَّ مُؤمِنٍ مُسْلِمٍ.

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: كُلُّ صِفَاتِ الكَمَال الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا عَقْلاً غايَةَ الْحَمْدِ، هي للهِ وَحْدَهُ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، ولِهٰذا نَقُولُ في الثناءِ علَيْه: الْحَمْدُ لله.

• ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: أي: لَمْ يُنْجِبْ وَلَداً، لأنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ إنجاب ولَد، وَلَمْ يَتخِذْ وَلَداً مِنْ مَخْلُوقاتِهِ بالتَّبَنِّي، لأنَّ هذا يَتَنَافَىٰ مَعَ كمالِهِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ شيء، لاستغنائه بذاته عَنْ كُلّ شيء.

وقَدْ كَذَبَ علَىٰ اللهِ الَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ للهِ وَلَداً، وافْتَرُوا عَلَيْهِ فِرْيَةً عظمى.

• ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾: لأنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ في الوجُودِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَصُنْعِهِ وإيجاده، وَخَالِقُ الشيء من الْعَدَم هُوَ مَالِكُهُ، ولَا يُشارِكُهُ في مُلْكِه أحَدٌ سِوَاه.

وقد كَذَبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا للهِ شُرَكاء مِنْ دُونه.

• ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: أي: ولَمْ يَكُنْ لَهُ بالكَيْنُونَةِ الدائِمَةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ، وَلِيٌّ مَا وَلَا أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُ لحاجَةٍ لَدَيْهِ إلى نُصْرَتِهم، لأنَّهُ عَزِيزٌ بذَاتِه، ذُو قُوَّةٍ غالِبَةٍ، فَلَا يَحْتَاجُ ناصراً وَلَا مُعِيناً.

مِنَ الذُّلِّ: أي: من الضَّعْف، فالذُّلُّ في اللُّغة الضعف.

أمَّا أنْصَارُ اللهِ بِمَعْنَىٰ أنْصَارِ دِينِهِ، وأنْصَارِ رَسُولِهِ وجماعَةِ المؤمنين، فإنَّهُمُ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ بإرادَاتِهم الحرَّةِ أنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله، إذْ وَضَعَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ فِي الحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وهُو غَنِيٌّ عَنْ نُصْرَةِ أحَدٍ مِنْ عباده، ومِنْ عناصِرِ امتحانهم مجاهدتُهم في سبيله، والْعَمَلُ على نُصْرَتِهِم دينَهُ ورسُولَه وجماعة المؤمنين.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾: أيْ: وأعْلِنْ تَعْظِيمَهُ بِعِبَارَاتِ التكْبِيرِ المبَالَغِ فيها كثيراً، مثل: اللهُ أكْبَرُ كَبِيراً، مع تكرير عبارات التكبير له.

تَكْبِيراً: مَفْعُول مُطْلَقٌ، والتنكيرُ فِيه يرادُ به بلاغيًّا التَّكْثِير، أي: وكَبِّرْهُ تكْبِيراً كثيراً جدًّا.

وبهذا التوجيه للإعلانِ عَنِ عناصِرَ جَلِيلَةٍ من عناصر القاعِدَة الإيمانية، لِرَبْطِ الْفُرُوعِ بالأُصُولِ، تنتَهِي السُّورَة.

وهنا يَنْتَهِي تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخير مِنْ سُورَةِ (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٦)
مستخرجات بلاغية من سُورَة (الإسراء)

في هذه السّورة بلاغيات كثيرة، وأنتقي في هذا الاستخراج منها ما يَقلُّ تكرُّرُهُ في السُّور:

أوّلاً:

من استِخْدام المجاز في السّورة ما يلي:

(١) **المجاز العقلي**: وهو إسناد الفعل أو ما في معْنَاه إلى غَيْرِ ما هُوَ له، ومنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴿١٢﴾﴾:

جُعِلَتْ آيَةُ اللَّيْلِ مَمْحُوَّةً في هٰذا الإسْنادِ، مَعَ أنَّها مَاحِيَةٌ لِلرُّؤْيَة.

وهذا من قبيل المجاز العقلي، والعلاقَةُ أنّ اللَّيْلَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الأشياءِ عَنْ رُؤيَة الأبْصَارِ لها.

(٢) **المجاز المرسَل**: وهو المجاز الَّذِي لا يكون أسَاسُهُ التَّشْبيه،

ولا يَكُونُ في الْإِسْنَادِ، بل لَهُ علاقَةٌ من الْعَلَاقَاتِ الّتِي تُصَحِّحُ التجوُّز، ومنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... ﴿٨٢﴾﴾:

أي: مَا هو سَبَبُ شفاء، أُطْلِقَ السَّبَبُ وأرِيد به الْمُسَبَّب، والعلاقَةُ السَّبِبيّة.

وأُطْلِقَ علَى الْقُرْآن أنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين، لأنَّهُ أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله عزّ وجلّ بعباده، وهذا أيضاً من المجاز المرسَل.

ثانياً:

من الإيجاز بالحذف ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

أي: أمَرْنَا مُتْرَفيها بالإيمان والإسلام والْعَمَل الصَّالح، فَفَسَقُوا فيها خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِنا، وهذا المحذوف يَسْهُل اسْتِخْرَاجُهُ فالله لا يأمُرُ بالْفِسْق.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿... فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

ضُمِّنَ الفِعْل في: ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ معنى الفعل في «أوْصَلَكم» فَعُدِّي تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. حُذِفَ مِنْ كُلٍّ مِنْهما شيءٌ وأثْبِتُ شيْءٌ، والمعنى: فلما نجّاكم من الهلاك وأوْصَلَكُم إلى البرّ.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ... ﴿٦٨﴾﴾:

«الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، والتَّقْدير: أمَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بكُمْ جَانِبَ الْبَرّ.

ثَالثاً:

من الكناية، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

دلّت عِبارة: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ بالكنايةِ علَىٰ أنَّهُ يَغْفِرُ لهم إذا رجَعُوا إليه بالاستغفار والتوبَة، وعَلِمَ صِدْقَ قُلُوبهم.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ... ﴿٢٩﴾﴾ في هذا التعبير كنايَةٌ عن الْبُخْل أوّلاً، وعَنِ التبذير ثانياً.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾:

في عبارة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ كِنَايَةٌ عَنْ حِكْمتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ في بَسْطِه الرِّزْقَ لِبَعْضِ عِبادِه، وتضيقِهِ على بَعْضِهِم، لأنه خبير بصير بهم.

رابعاً:

الوصْفُ بالمصْدَرِ بَدَلَ اسْم الفاعل، للدَّلَالَة علىٰ أنَّ الموصُوفَ قَدْ صَارَ كُلُّهُ بِمَثَابَةِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَصْدر، ومنه:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢﴾﴾:

لفظ «هُدىً» مصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيهِ هُدىً» وقد جاء لفظ «هُدَىً» بدلَ اسْمِ الفاعل، أي: وجَعَلْنَاهُ هَادِياً لبنِي إسرائيل، للدَّلَالَة عَلَىٰ أنَّ كُلَّ شيءٍ فيه يَهْدِي، فصَارَ كما لَوْ كَانَ كُلُّهُ هُدىً.

وهٰذ لدىٰ التحليل يَرْجع إلى الاستعارة.

خامساً:

من التشبيه البليغ المكْنِيّ فيه عن المشبّهِ بِهِ بِبَعْضِ لوازمه، قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾:

في هذه الآيَة تشبيه التذلُّلِ للوالِدَيْن بتَذَلُّل الطائِر حِينَ يخْفِضُ جناحَهُ مُنْكَسِراً لفراخِهِ أو لِزَوْجِهِ أو لِغَيْرِهما، ولَكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لفظ المشبَّهِ بهِ، وإنَّما كُنِّي عَنْهُ بِشَيْءٍ من صفاتِه، وهو الجناح، وأُضِيفَ هذا المكْنِيُّ بِهِ إلَىٰ المشَبَّه.

وهذا على ما ظهر لي هو من التَّشبيه الْبَليغ المكْنِيّ فيه عَن المشَبَّهِ بِهِ بِبَعْضِ لوازمه، ولَيْسَ هو من الاستعارة المكْنِيَّة[1].

سادساً:

من خروج الاستفهام عن أصل دَلالته، قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ... ﴿٤٠﴾﴾:

الاستفهام هنا استفهام إنْكاريٌّ تَلْوِيمِيٌّ موجّهٌ لِمُدَّعي أنَّ الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلُوّاً كبيراً.

سابعاً:

من القصر، قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا... ﴿٥٨﴾﴾:

في هذه الآية قَصْرٌ إضافِيّ من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَةٍ، بحسَب مُقَرَّراتِ البلاغيّين.

---

(١) انظر: «كتاب البلاغة العربية» للمؤلف، (التشبيه المكنيّ).

ثامناً:

ومن بلاغيات السّورة الاستقطاع من أحداث الماضي، أو من الأحْداث التي سوف تكون في المستقبل، وتقديمُها كأنَّها تَحْدُثُ عند زمن التكَلُّم، ومنه قول الله عزّ وجلّ بياناً لما يُقَالُ للإنسان يوم القيامة:

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾:

جاءت هذه العبارة مستقطَعةً دُونَ أنْ يُصَرَّح في البيان أنّها تقالُ له.

تاسعاً:

من الاستعارة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾:

أُطْلِقَ لفظ «طَائِر» في هٰذِهِ العبارة علىٰ ما يكْسِبُهُ الإنْسانُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا، على سبيل الاستعارة، لأنّ العمل يَنْطَلِقُ كالطَّائِرِ من الإنْسَان، فَلَا يَسْتَطِيعُ اسْتِعادتَه، لَكِنَّ مسؤوليّته عَنْ عَمَلِه تَبْقَىٰ مُلازِمَةً له.

وأُطْلِقَ الْعُنُقُ والْمُرَادُ مَنَاطُ المسؤوليَّة داخِلَ نَفْسِه، وهذا مجاز مُرْسل علاقَتُه اتّصالُ الظَّاهِرِ بالباطن، واخْتِير الْعُنُق لأنَّ الأسِير يُوضَعُ الْغُلُّ في عُنُقِهِ لِسَوْقِهِ أو قيادته حَتَّىٰ يَنَالَ مَا قُضِيَ علَيْهِ به.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ تَعْبيراً عَنْ قَول إبليس بِشَأْن ذُرِّيَّة آدم يخاطبُ رَبَّه:

﴿... لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

في هٰذِهِ العبارة اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّة، إذْ شَبَّهَ إبْلِيسُ ذُرِّيَّة آدم عليه السَّلام بالدَّواب الَّتِي تُطَوَّعُ للرُّكُوبِ والقيادة والسَّوْق، ولَمْ يُصَرِّحْ بلَفْظِ الدَّواب، بل جاء بشيْءٍ من خَصائِصِها يدُلُّ عليها، وهو احْتِنَاكُها لتَطْوِيعها.

يُقَال لغة: «احْتَنَكَ صاحبُ الدَّابَّةِ دابّتَهُ» أي: وضَعَ الحبْلَ أو

اللِّجام في حَنَكِهَا لِيُطَوِّعَهَا للرُّكُوب، والقيادة، والسَّوْق.

أي: لأجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كالدَّواب الَّتي تُطَوَّعُ بوضْعِ اللُّجُم في أحْنَاكها، وَلأُسَيِّرَنَّهُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا عُصَاة لَكَ، ولأَنْقُلَنَّهُمْ خُطْوَةً فَخُطْوَة، حتَّىٰ أُوصِلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لي مِنْهُمْ إلى دَرَكَةِ الكافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الّذِين يَسْتَحِقُّونَ العذاب الأبديَّ الخالِدَ في الجحيم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾:

أي: وَمَنْ كَانَ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا كَافِراً فَهُوَ في الآخِرَةِ محكومٌ عليه بالكُفْرِ، ويكون فيها أَضَلَّ سبيلاً لا يَجِدُ طَرِيقاً إلى نجاتِهِ من عذابِ الله.

استُعِيرَ لفْظُ «أعْمَىٰ» للدَّلالَةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ «كافِر» للشَّبَهِ الكبير بين الأعْمَىٰ الّذي لاَ يَعْرِفُ طَرِيقَه، والكافِرِ الضَّالِ عَن سبيل نجاتِهِ وسعادته الأبَدِيّة.

(٤) قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾:

اسْتُعِيرَ الفِعْلُ في ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ للدَّلالَة على معْنَىٰ: لجَعَلْنَاكَ تُحِسُّ بألَمِ التَّعْذِيب.

وفي الآية (٧٥) حَذْف، والتقدير: لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ عذاب الحياة، وضِعْفَ عذاب المَمات.

حُذِفَ لفظ «عذاب» تكْرِيماً للرَّسُولِ ﷺ عن أنْ يخاطَبَ به، لأنَّهُ لَمْ يَرْكَنْ إلى مَزَالِقِ الكافِرِين الإغرائيّة، ولَمْ يَسْتَحِقَّ هذا العذاب.

وأكتفي بهذه المستخرجات البلاغية من هذه السُّورة، وآخر دَعْوَانا أن الحمْدُ لله رَبِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

خاتمة المجلد التاسع

هذا ما أكرمني به الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ من عطاءٍ في تدبُّر سُوَرِ (النمل ـ والْقَصَص ـ والإسْرَاء) الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هـٰذا المجلَّدُ التاسع، مُجْتَهِداً في التقيُّدِ بالمنهج الّذي فَتَحَ اللهُ به عليَّ في كتاب: «قواعد التَّدَبُّر الْأَمْثَلِ لكِتَابِ اللهِ عزّ وجلّ».

فما أَصَبْتُ فيه فهو من فَيْضِ ما امْتَنَّ اللهُ بِهَ عليّ. ولا أَنْسُبُ إِلَىٰ نَفْسِي مِنْهُ شيئاً.

وما أَخْطَأْتُ فيه، فَهُو مِنِّي، ومِنْ عَجْزِي، ونَقْصِ قُدْراتي عَنْ بُلُوغ المأمول، مَهْمَا اجْتَهَدْت في التفكّر والتدبّر، والنظر في حقائقِ العلوم وفي المعقول، والتَّأَمُّلِ فيما سَبَقَ إلى تَدْوِينِهِ الْفُحُول.

والْحَمْد للهِ الْعَلِيّ الْأعلى، ذي الْمَنِّ والكرَمِ والْجُود، على تَوْفيقه، ومَدَدِه، ومَعُونَتِه، وفَتْحِه المبين.

والصَّلاة والسَّلامُ على خَاتم الأنبياء والمرسَلين، سَيِّد الأوّلِينَ والآخِرين، وقُرَّةِ عُيُونِ المؤمنين المتقين.

وسلامٌ على سائر عباد اللهِ الذين اصطفى.

وآخِرُ دَعْوَّنَا أنِ الحمْدُ للهِ رَبِّ العالمين.

وكان الفراغ مِنْ كتابَةِ هذا المجلّد صباح يوم الأحد (٢٥ من شهر

ربيع الأول لسنة (١٤٢٢ هجرية) الموافق لـ (١٧ من حزيران سنة ٢٠٠١ م) في دَار إقامَتِي بمكة المكرمة، حرسها الله وزادها شرفاً.

ومنذ يومين سافرت زَوْجَتي «عائدة راغب الجراح الحلاق» مع ولدي منها الدكتور الشيخ «محمد» للعلاج من مَرَضٍ خبيثٍ أصابها، إلى باريس.

أسأل الله لها العافية التَّامّة لدُنياها وآخِرَتها، وأنْ يَرُدَّهُمَا سالِمَيْن، غانمين أعمالاً صالحة، وذخائر من رضوان اللهِ عزّ وجلّ.

عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني



الفهرس

الموضوع | الصفحة

(٤٨)
سورة النمل
٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

(٤٩)
سورة القصص
٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

(٥٠)
سورة الإسراء
١٧ مصحف/ ٥٠ نزول

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة